مقالة جرش

منظر عام لآثار الفورم في مدينة جرش

٥ـ٢٠ .١٠ ١٩٣٣

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الاول من المجلد الثاني والثمانين

١ يناير سنة ١٩٣٣ — ٤ رمضان سنة ١٣٥١

رواية الاشعة الكونية

كيف كشف عنها — كيف تقاس قوتها — الاختلاف في اصلها علاقتها ببداية الكون ونهايته

ما هي الاشعة الكونية ? من اين تأتي ? هل في طيات امواجها اسرار الخلق ? هذه هي المسائل التي يحاول علماء الطبيعة الاجابة عنها بالتجربة والامتحان آناً وبالجمع بين التجربة والنظر الفلسفي آناً آخر . ومن رأي الدكتور جنصن الاستاذ بمعهد بارتُل الاميركي للبحث العلمي، انهُ لا يعرف في تاريخ العلم مسألة ، اختلف العلماء في الاجابة عنها اختلافهم في الاشعة الكونية

***

من عهد قريب صعّد العلماء الالمان هورلن Hoerlen وكنزل Kinzl وبورشرز Borchers الى قة جبل «هو الاكان» في سلسلة جبال الاندس وعلوها ٢٠ الف قدم فوق سطح البحر، وقضوا هناك ثمانية ايام كأنهم عقبان على صخرة شاهقة ، يقيسون قوة هذه الاشعة . وفي هذا السبيل نفسهِ قتل العالمان الاميركيان كارب Carpe وكوفن Koven في محاولتهما الصعود الى قنة جبل ماكنلي في الاسكا . أما الاستاذ كمطن الاميركي، رئيس بعثتهما فقد رحل مسافة ٥٠ الف ميل بين خط العرض الجنوبي ٥٦ وخط العرض الشمالي ٦٨ مخترقاً في رحلتهِ خمس قارات ومجتازاً خط الاستواء اربع مرّات ، حاملاً معهُ الآلة الخاصة التي بناها لدرس هذه الاشعة . وها هو الاستاذ هس الالماني يصعد الى قم جبال الألب وزميله الاستاذ كولهرستر يبتني معملهُ في الجد على جبل اليونغفروْ بسويسرا، بغية النفوذ الى اسرار هذه الاشعة. ولكن

الاميركي يبعث آنًا بلونات مجهزة بآلات مدوّنة الى مرتفعات عظيمة في الهواء ، ويصعّد آونةً اخرى في جبال بوليفيا او كاليفورنيا او يرتاد الاصقاع القطبية لهذا الغرض. ويجاريه الاستاذ رجنر الالماني فيرسل في الجوّ بلونات آلية التدوين او يغرق آلة قياس الاشعة في مياه بحيرة كونستانس لمعرفة اثر الماء في حجبها . بل هذا هو الاستاذ بيكار يرتفع ببلونهِ مرتين الى علوّ ٧٥٨ر٥١ قدماً فالى ٦٧٢ر٥٣ قدماً فيضرب الرقم القياسي العالمي في التحليق الى اعلى ما بلغهُ الانسان، ولكن هذا الفوز ليس الغرض الذي يرمي اليهِ في هذه المغامرة الجريئة بل غرضهُ قياس قوة الأشعة في الطبقة الطخرورية من الهواء Stratosphere

مضى هؤلاء العلماء وعشرات غيرهم في طريقهم نحو هدفهم ، غير عابئين بالقيظ ولا بالزمهرير ، بالسغب ولا باللغب ، بالحشرات ولا بالوحوش ، لان في نفوسهم روح الروّاد العظام . والعلم اذا دفع ابناءهُ في سبيل البحث عن اسرار الطبيعة نفث فيهم لهفة الباحث في قصر خرب عن كنز مدفونٍ

***

وتاريخ الأشعة الكونية يرتدُّ الى اوائل هذا القرن. كانت عناصر الاورانيوم والثوريوم والراديوم والبولونيوم وغيرها من العناصر المشعة في ذلك العهد عجائب استرعت عناية الباحثين بما ينطلق منها من اشعة الفا وبيتا وغمّا ، وبمقدرتها العجيبة على جعل الغازات قادرة على ايصال الكهربائية . وبعد بحث قليل ثبت ان في صخور الارض مقادير كبيرة من العناصر المشعة ، وأن مياه بعض الينابيع مشعٌّ كذلك . ومن الصخور كانت تنطلق اشعة تمزق بعض ذرات الغازات التي يتركب منها الهواء فتجعلهُ موصلاً للكهربائية لان غازات الهواء في حالتها الطبيعية موصل كهربائيّ رديء . واذاً كان من الطبيعي ان يعمد الباحثون الى قياس اثر هذه الاشعة في «تمزيق» ذرّات الهواء . فأخذ ثيودور ولف (Wulff) الاب اليسوعي ادواته ، وصعد الى قمة برج ايفل بباريس ، فظهر لهُ ان هذا الفعل اضعف عند القمة منهُ على سطح الارض . وكان ذلك منتظراً لانهُ كلما بعدنا عن الصخور التي تطلق الاشعة ، يضعف فعلها على ان الاستاذ ولف كان عالماً دقيق الحس قوي الملاحظة ، فاسترعى نظرهُ ، ان ضعف هذا الفعل في الهواء كان اقلّ مما يجب ان يكون. وقرأ العالم الطبيعي السويسري الاستاذ غوكل Gockel ما اسفر عنهُ بحث الأب اليسوعي فخطر لهُ ان يحلّق ببلونٍ لقياس فعل الاشعة المنطلقة من الصخور في الهواء على مرتفعات تفوق قمة برج ايفل . فصعد في سنتي ١٩١٠ و١٩١١ الى علو ١٣ الف قدم ، ونزل اشدّ حيرة مما صعد . ذلك ان فعل الاشعاع من الصخور ضعف اولاً ، ولكنهُ اخذ يزداد بازدياد ارتفاعهِ

وعمد هس Hess العالم الالماني الى الحساب الدقيق فتبين له ان اشعة غمّا وهي اقوى الاشعة المنطلقة من العناصر المشعة لا يمكن ان يظهر اثرها فوق بضع مائة متر فوق سطح

البحر لأن الهواء يمتصها . فاما ان تكون النتائج التي اسفرت عنها مباحث غوكل خاطئة ، او ان في الأمر سرًّا ، فاعادة تجربته للتثبت من صحة نتائجها امر ذو بال لا ندحة عنهُ . لذلك عمد هس الى البلونات التي تحمل ادوات آلية التدوين وأطلقها في الجوّ فارتفعت الى ١٦ الف قدم فوق سطح البحر . فلما هبطت قرأ ما دوَّنتهُ الآلات فاذا هي تؤيّد نتائج غوكل كل التأييد. ولم يكتفِ بذلك بل حلّق بنفسه ، ثم اشترك مع زميلهِ الاستاذ كولهرستر ، فحلّقا الى علو ستة اميال فوق سطح البحر ، فكانت نتائج التجارب المختلفة مؤيدة بعضها بعضاً . واذاً فلا مندوحة عن القول بان هناك اشعة قادمة من خارج الارض تمزّق ذرات الهواء. وهذه الأشعة عظيمة الطاقة قوية النفوذ ، تفوق اشعة اكس نفسها واشعة غمَّا المنطلقة من الراديوم

***

وفي سنة ١٩٢٥ طلع الاستاذ ملكن الاميركي على الناس بنظرية جديدة وجَّهت انظار الخاصة والعامة الى الاشعة الكونية ، فصار الكلام على كل جديد فيها يجد لهُ متسعاً في الصحف جنباً الى جنب مع انباء السياسة والرياضة والاجرام

ذلك ان الاستاذ ملكن ، كان قبل ذلك استاذاً في جامعة شيكاغو وهناك كان يجتمع بالاستاذ مكملن (W. D.) فكانا يتحدثان في النظرية السائدة حينئذٍ في نهاية الكون ، وملخصها ان الطاقة التي في الكون آخذة في التحول من طاقة قصيرة الامواج قوية الفعل ، الى طاقة طويلة الامواج ضعيفة الفعل . وانهُ متى تم هذا التحول ، اصبحت الامواج الطويلة عاجزة عن ان تكون الباعث على ظاهرات الكون والحياة (راجع مقتطف مايو ١٩٣٢ ص ٥١٩ — ٥٢٣) وكان مكملن مقتنعاً بان الذرات تبنى من الالكترونات والبروتونات في الفضاء الذي بين النجوم (interstellar space) فاذا صح ذلك فالكون ليس مصيرهُ الى الفناء بتحول اشعاعهِ ، لان بناء الذرات يجهزنا ، بحسب الآراء الحديثة ، بقدر عظيم من الطاقة قصيرة الامواج قوية الفعل . ولعل الاشعة التي تحيّر هس وكولهرستر ، تؤيد ما يذهب اليهِ مكملن

وقضى ملكن بعد ذلك سنتين يبحث خلالهما في هذه الاشعة ويقيس قوتها ونفوذها للمواد ، فهو آناً يجرّب ذلك بالواح الرصاص ، وآناً بمياه البحيرات ، تارة في الجبال الصخرية في غرب اميركا الشمالية وتارةً اخرى على جبال الاندس ، واخرى على مقربة من القطب المغناطيسي الشمالي. فخرج من ذلك كلهِ بما يؤيد — في نظره — مذهب مكملن ، ولما اجمل مباحثهُ امام اكاديمية العلوم الاميركية قال : ان هذه الاشعة انباء تدل على تكون المادة في رحاب الفضاء . وفيها رأى ملكن دليلاً على ان « الخالق ما زال ماضياً في عمل الخلق »

***

المشهور ان الغازات في حالتها الطبيعية لا توصل الكهربائية كما توصلها الاسلاك المعدنية اي انهُ لا يسهل على الكهربائية اجتياز مقدار من الغاز كما يسهل عليها اجتياز قطعة من النحاس أو الرصاص

ولكن اذا صوّبت بعض الاشعة الى الغاز الذي لا يوصل الكهربائية اصبح موصلاً كهربائياً ضعيفاً . ومن هذه الاشعة الاشعة التي وراء البنفسجي ، والاشعة السينية (اشعة اكس او اشعة رنتجن) والاشعة السالبة (الالكترونات) والاشعة المنطلقة من العناصر المشعة . ويعلّل ذلك بان هذه الاشعة تفصل من ذرات الغاز بعض كهاربها (الكترونآتها) فيصبح الجزء الباقي من الذرّة وشحنتهُ الكهربائية شحنةً موجبة (كانت الشحنة الكهربائية الموجبة معادلةً للشحنة الكهربائية السالبة في الذرة فلما نقص كهرب من الذرة اصبحت شحنة الجزء الباقي من الذرّة موجبة) وهو يعرف بالأَيُن او الأَيُون Ion (قد يحسن صياغة فعل عربيّ أَيَّن للمتعدي وتأيَّن للازم في الدلالة على هذا المعنى الخاص) اما الكهارب المنفصلة فتصطدم بذرات كاملة متعادلة الشحنة الكهربائية وتلتصق ببعضها فتصبح الذرة التي التصق بها كهرب شارد ذات شحنة سالبة (لزيادة الكهرب ذي الشحنة السالبة) فهي «أيون» كذلك وهذا يجعل الغاز موصلاً للكهربائية لشدة حركة الدقائق المكهربة التي فيهِ فهي لا تكاد تستقرُّ على حالٍ

ولدى البحث ثبت انهُ اذا ازيل من المنطقة التي تحيط بغاز من الغازات كلُّ مصدرٍ من مصادر الاشعة التي « تؤيّنهُ » ظل الغاز موصلاً ضعيفاً للكهربائية ، فيتولّد فيهِ في السنتمتر المكعّب « ايون » واحد او « ايونان » في الثانية . ولكن اذا نزل الوعاء المحتوي على هذا الغاز الى عمق مائة متر في بحيرة من الماء النقي من الشوائب (وهي التجارب التي قام بها هس في المانيا وملِكن واعوانهُ في اميركا) اصبح الغاز لا يوصل الكهربائية على الاطلاق ، اي انقطع تولُّد الايونات فيهِ . وعلى الضدّ من ذلك اذا رفع الوعاء المحتوي على الغاز الى علو تسعة آلاف قدم او عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر زادت قوتهُ على ايصال الكهربائية اي زاد تولُّد « الايونات » فيهِ

على اساس هذه الحقائق العلمية بُنيت الآلات الدقيقة التي تقاس بها قوة الاشعة الكونية اي انها تحصي عدد الايونات التي تتولد في سنتمتر مكعب من غاز معيّن كلَّ ثانية . ثم يقابل ذلك بعدد الايونات التي تولّدها أشعة معروفةٌ قوتها مثل اشعة اكس واشعة غمّا

***

قلنا ان العلماء حلقوا في الجوّ وتوقلوا قمم الجبال ودلّوا آلاتهم في قيعان البحيرات العالية لادراك غرضهم . والسبب في ذلك كما قدمنا ان الراديوم وغيره من العناصر المشعة يطلق اشعة تؤيّن الغاز الذي في آلاتهم وهم يريدون ان يعرفوا أثر الاشعة الكونية من دون ان يختلط بهِ أثر اية اشعة اخرى

فاشعة الراديوم يحجبها لوح من الرصاص ثخانتهُ سنتمتران أو نحو ذلك . لذلك نقل ملِكن معهُ ماوزنهُ ثلاثمائة رطل من الواح الرصاص وتوقّل جبل پيك بكاليفورنيا لكي يحجب أثر الراديوم أولاً فاحاط آلتهُ بالواح ثخانتها ثلاثة سنتمترات حاسباً ان الاشعة الكونية وهي

قوى من اشعة الراديوم لا بدَّ ان تخترق هذه الالواح فدلَّت التجارب انها تفعل ذلك . ثم أخذ زيد ثخانة الرصاص الذي حول آلته ليعرف أي طبقة من الرصاص تحجب الاشعة الكونية

وقلنا ان كولهرستر ابتنى معمله في الجمد على جبل اليونغفرَو بسويسرا وسبب ذلك ان الجمد لم يختلط بمادة على سطح الارض فهو خلوٌ من الراديوم . ثم ان مِلِكن دلَّى آلاته في بحيرة ميوَر ليعرف اية طبقة من الماءِ تحجب هذه الاشعة الغريبة . فلماذا اختار بحيرة ميوَر في اميركا الشمالية وبحيرة مغويلا في اميركا الجنوبية والطريق الى كلٍّ منهما وعر صعب المرتقى ؟ ذلك ان هذه البحيرات عالية جدًّا ، لا تصبُّ فيها مياهُ انهارٍ جرت مسافات طويلة فوق سطح البحر فذابت فيها موادّ قد تحتوي على مركبات من العناصر المشعة ، وانما مصدر مائها هو الثلج النقي بعد ذوبانهِ . وأما هس الذي أغرق آلتهُ في بحيرة كونستانس فحسب حساباً في نتائجه لاثر العناصر المشعة . ونتائج هذه المباحث عجيبة . فالآلات التي دُلِّيت في بحيرة كونستانس بسويسرا ظلت غازاتها تتأين تأيناً يسيراً لما كانت على ٧٧٥ قدماً تحت سطح الماءِ . أي أن فعل الاشعة الكونية يستطيع ان يخترق ما كثافتهُ ٧٧٥ قدماً من الماءِ . وهذا يعدلُ ٦٥ر٦ القدم من الرصاص مع ان نور الشمس تحجبهُ ورقة رقيقة واشعة اكس يحجبها لوح رصاص ثخنهُ سنتمتران او ثلاثة سنتمترات . ففي الطبيعة مصدر يطلق اشعة أقوى وافعل من أشعة الراديوم اضعافاً كثيرة. فما هو ؟ هنا مصدر العناية التي توجّهُ الى هذه الاشعة ومعرفة أسرارها وهذا مصدر الخلاف بين اكبر العلماء على طبيعتها واصلها

***

لخّص الاستاذ بيكار نتائج الارصاد التي قام بها في أثناء رحلتهِ الاخيرة إلى الطبقة الطخرورية فقال أنهُ حاول درس الاشعة الكونية من ناحيتين : — الاولى تحقيق الاختلاف في قوة الاشعة باختلاف الارتفاع . والثانية تحقيق الاختلاف في قوتها باختلاف الاتجاه. فثبت لهُ في الناحية الاولى أن قوتها تزداد بالارتفاع ثم تقلُّ رويداً رويداً إلى أن تصبح ثابتة فوق ارتفاع معيّن . أما البحث في الناحية الثانية فاسفر عن أن الاشعة الكونية لا تكثر في جهة معيّنة دون أخرى لذلك ذهب إلى أن هذه الاشعة مصدرها الطبقة الطخرورية ذاتها

اما ملكن فيذهب الى ان الاشعة الكونية هي من قبيل اشعة اكس واشعة غما انما هي اقصر امواجاً وأقوى فعلاً . وقد ثبت لهُ ان قوتها في المنطقة المتجمدة الشمالية لا تقل عن قوتها في المناطق الاستوائية ، وهو ما ينتظر اذا كانت هذه الاشعة من قبيل الضوء الذي لا يرى . ولكن كولهرستر الالماني وغيره يرون ان الاشعة الكونية ليست ضوءًا على الاطلاق بل هي كهارب سريعة الانطلاق . واذا كانت كهارب فيجب ان تنحرف هذه الكهارب بفعل المغنطيس . اما ملكن فيقول انهُ حاول قياسها قرب القطب المغنطيسي الشمالي فلم يجد ما يدل على انها اكثر انحرافاً نحو القطب المغنطيسي — ولو كانت الكترونات لوجب ذلك — وقام كولهرستر نفسهُ

باحث من هذا القبيل فلم يسفر بحثهُ عما يثبت جذب المغنطيس لها . ولعلها — اذا كانت لكترونات — اسرع من ان يحرفها مغنطيس ارضي حتى الارض نفسها

***

نظر الاستاذ كمطن — استاذ الطبيعة في جامعة شيكاغو واحد نائلي جائزة نوبل الطبيعية — الى الاقوال المختلفة في طبيعة الاشعة الكونية فعزم ان يقوم ببحث واسع النطاق في انحاء الارض المختلفة بغية الوصول الى القول الفصل فيها. فاتفق مع معهد كارنجي الاميركي وجامعة شيكاغو على الاشتراك في الانفاق على هذه المباحث ونظم بعثة علمية اشترك فيها اثنا عشر عالماً من علماء الطبيعة في كل البلدان وصنعت سبع آلات دقيقة لقياس قوة الاشعة — كل منها كرة من الصلب تحتوي على غاز الارجون مضغوطاً ضغطاً عالياً لكي يزيد متوسط عدد الايونات في السنتمتر المكعب ، اذ لا يخفى انهُ إذا ضغط الغاز اقتربت ذراتهُ بعضها من بعض فيكثر ما تصيبهُ الاشعة منها في أثناء اختراقها للغاز — وعُيِّرت الآلات السبع تعييراً واحداً حتى لا تختلف قراءة ما تدوّنهُ من المقاييس ، لان كمطن يرى ان جانباً كبيراً من الاختلاف في النتائج سببهُ القياس بآلات مختلفة

اما النتائج التي أسفرت عنها مباحث كمطن فتلقي ظلاً من الريب على آراء الاستاذ ملكن. فقد وجد الاستاذ كمطن ان الاشعة أقوى في المناطق الشمالية منها في المناطق الاستوائية . وهذه هي النتيجة المنتظرة إذا كانت الاشعة الكونية الكترونات يحرفها أو يجذبها قطبا الارض المغناطيسيان . وأثبت رجنر Regener وبيكار ان الاشعة لا تزداد بالارتفاع قوة كما ينتظر إذا كانت آتية من خارج جو الارض . وكان ملكن قد عرف إن الاشعة لا تزداد قوة بالارتفاع ، ولكنه علل ذلك تعليلاً معقولاً . قال اننا لا نستطيع ان نتبين هذه الاشعة الاَّ إذا مزقت ذرات العناصر التي في الهواء . ولما كان الهواء في طبقاته العليا لطيفاً كل اللطف ، فذرات عناصره أقل ولا بد ان يكون فعل الاشعة البادي لنا أقلَّ كذلك

والامر المتفق عليهِ في هذه الفوضى العلمية هو أن الاشعة تأتي من كل الجهات. هنا يدخل دعاة النظرية النسبية معمعة الجدال فيقولون إذا كانت هذه الاشعة لا تنشأ في الطبقة الطخرورية فلا بد أن تكون مالئةً للكون. ففي هذه الايام اصبح الكون في نظر العلماء النسبيين كالكرة. وشعاعة من الضوء تنطلق في احدى نواحيهِ لا تستطيع أن تخرج منه ، وإذا كانت هذه الاشعة آتية من ناحيةٍ في رحابهِ فهي ماضية في طريقها إلى مصدرها. ولما كانت الاشعة الكونية تأتي من كل الجهات فلا بد أن يكون الكون حافلاً بها . ولكن الكون آخذ في التمدد. كذلك يقول لميتر وانيشتين وثلة علماء الطبيعة . وقد تضاعف نصف قطره منذ بدأ يتمدّد . لذلك يرى ادنغتن « ان اشعة الضوء في هذا الكون الآخذ في التمدُّد كالعدَّاء الذي يرى الطريق امامهُ تمتدُّ اسرع من عدوهِ فالقصَب يبعد عنهُ بدلاً من ان يقترب منهُ » وهكذا يظلُّ النور ماضياً في سبيله لا يستطيع العودة الى مصدرهِ — لسرعة تمدُّد الكون — وفي انطلاقهِ يضعف وتطول امواجهُ

حتى يصبح امواجاً تحت امواج الاحمر فنعود لا نراها

ولكن الاشعة الكونية اشدُّ نفوذاً من اشعة الضوء . وكلّ ما تلقاه في رحاب الفضاء مما يعيق مصيّها في سبيلها لا تبلغ ثخانتهُ اكثر من طبقة من الماء سمكها قدم . وهذا جزء يسير جدًّا مما تستطيع هذه الاشعة ان تخترقها . لذلك يرى ادنغتن « ان الاشعه الكونيـة الاولى لا تزال ماضية في سيرها في رحاب الكون » والاشعة التي تدخل آلاتنا الآن هي مزيج من اشعاع كل العصور . فهذه طاقة اقدم من الارض . ولسنا نعلم كيف كان الكون قبلما بدأ يتمدّد . ولكن ادنغتن يقول ان هذه الاشعة قد تحمل في طيّات امواجها ذكريات تلك الحقب القديمة وقد تبيح لنا هذه الذكريات يوماً ما !!

ولكن كيف تنشأ هذه الاشعة ؟ يشير جينز بيدهِ الى النجوم ويقول هناك تتمزق المادة وتنفصل الالكترونات عن البروتونات وتتلاشى متحولة الى طاقة . وهذه الاشعة اثر من آثار الطاقة المنطلقة على اثر الملاشاة . ويعترَض على قولهِ بان للنجوم اجواءً . فالاشعة المنطلقة من قلب الشمس على أثر تلاشي كمية من الالكترونات والبروتونات ، تطول امواجها في سيرها من قلب الشمس الى سطحها فاذا اخترقت جوها ضعفت كذلك وزاد طول امواجها ، فيتعذر عليها — في نظر طائفة كبيرة من علماء الطبيعة — ان تبقى شديدة النفوذ كالاشعة الكونية بعد مرورها في خلال ذلك كله . ويرى الاب لمتر انهُ لا يحتمل وجود مصدر آخر لهذه الاشعة غير النجوم ولكن النجوم كما كانت والكون في طفولتهِ لا كما هي الآن . وقد خطب في مجمع تقدم العلوم البريطاني سنة ١٩٣١ فقال ان النجوم ولدت من دون جوٍّ يحيط بها . اما جوّها فقد نشأ بعد انطلاق الاشعة الكونية منها . وقد وقع هذا من نحو ١٠ آلاف مليون سنة . فانطلاق الاشعة الكونية من ابرز ما يحدثُ لدى تكوّن نجمٍ

***

على ان الاستاذ ملِكن يرى ان الاشعة ليست دليلاً على تلاشي المادة في داخل النجوم بل هي دليلٌ على ان العناصر الثقيلة تتكوّن في رحاب الفضاء من الايدروجين والهليوم . فقد قال في خطبة لهُ ما ملخصهُ : ان عمل التكوين جارٍ الآن في رحاب الفضاء ولا أُريد بالتكوين تكوين العوالم ولا تولد الاحياء التي تقطنها بل أُريد تكوين الذرات atoms التي تبنى منها المواد سواء كانت جامدة أو تحركها نسمة الحياة . فان درسي للاشعة الكونية اثبت لي ان وراء النجوم اماكن تتكوّن فيها اربعة عناصر من جواهر الايدروجين والهليوم وان هذه العناصر هي الاكسجين والمغنيزيوم والسلكون والحديد . واذا كان هذا الفعل جارياً في مكان ما من رحاب الكون فالاشعاع الناتج عن تحول الايدروجين الى هليوم يجب ان يفوق اقوى اشعة غمًّا عشرة اضعاف . اما الاشعاع الناتج من تكوّن الاكسجين والسلكون والحديد فيجب ان يكون اقوى من اشعة الهليوم اربعة اضعاف وسبعة اضعاف واربعة عشر ضعفاً على الترتيب . اما

الاشعاع الناتج من اتحاد الالكترون بالبروتون وفنائهما فيفوق اقوى اشعة غمَّا خمسين ضعفاً . فلما كشفت الاشعة الكونية قيست قوتها فاذا هي تفوق اقوى اشعة غمَّا عشرة اضعاف اي ان الاشعة الكونية تشبه الاشعاع الناتج من تحوُّل الايدروجين الى هليوم . ولم يعثر في الاشعة الكونية على طائفة من الاشعة تماثل قوتُها القوة الناجمة من فناء الالكترون والبروتون باندماجهما . وهذا يدلُّ على ان نحو ٩٥ في المائة من الاشعة الكونية ناشيء من فعل اقل عنفاً من فناء الالكترون والبروتون . وقد اثبت الحلّ الطيفي ان الايدروجين واسع الانتشار في الفضاء بين النجوم . هذا رأي مِلِكن [راجع تفصيله في مقتطف مايو ١٩٣٢ ص ٥٢٣—٥٢٦ ومقالة النيوترون في العدد نفسه صفحة ٥٠٣ و٥٠٤]

***

على ان الاستاذ اسكندر دو فيليه Dauvillier الفرنسي لا يذهب الى ابعد من الشمس في تعليل الاشعة الكونية . ورأيهُ هذا من احدث ما قيل فيها . قال : —

ان كهارب سريعة تنطلق من الشمس بسرعة تقارب سرعة الضوء تقريباً فتحدث لدى اصطدامها بذرات الهواء الاشعة التي نحسبها قادمة الينا من رحاب الكون . ومصدر هذه الكهارب البقع اللامعة على سطح الشمس lacunae حيث الحرارة تبلغ نحو سبعة آلاف درجة بميزان سنتغراد . فتنطلق الكهارب بسرعة غير عظيمة أولاً ثم تزداد سرعتها زيادة عظيمة إذ تمرُّ في جوّ الشمس الموجب . وجو الشمس المؤلف من عنصري الايدروجين والكلسيوم في الغالب موجبٌ لأن الاشعة التي فوق البنفسجية المنطلقة من قلب الشمس تصدم ذرات هذين العنصرين فتطرد بعض كهاربها . والذرة اذا فقدت أحد كهاربها أصبحت شحنتها موجبة . ثم اذا اقتربت الكهارب من الارض انجذبت بفعلها المغناطيسي وتجمعت اقواساً . ثم إذا دخلت طبقات الجو العليا أطارت من ذرات غازاته بعض كهاربها وهذه مصدر الضوء القطبي . فاذا قيست أقواس الاضواء القطبية امكن الوصول بعملية رياضية الى سرعة الكهارب الاولى المنطلقة من الشمس والتي جذبتها مغناطيسية الارض . والظاهر ان سرعتها لا تقلُّ الاَّ ٣٠ سنتمتراً عن سرعة الضوء في الثانية . وإذاً فهي تصل الارض في بضع دقائق (يصل النور من الشمس إلى الارض في ثماني دقائق وثلاث ثوانٍ) وآثار هذه الكهارب تحيط بالارض من كل النواحي فيبدو للباحث انها تأتينا من نواحي الفضاء على السواء .

وقد حسب دوفيليه طاقة هذه الكهارب فوجدها قريبة جدا من طاقة الاشعة الكونية ويرى انهُ من العبث البحث عن تعليل آخر لهذه الاشعة . فهو اذاً يتفق الى حدّ ما مع رأي بيكار القائل بتولُّد هذه الاشعة في طبقات الهواء العليا وانما يفوقهُ في تعليل تولُّدها تعليلاً طبيعياً رياضياً
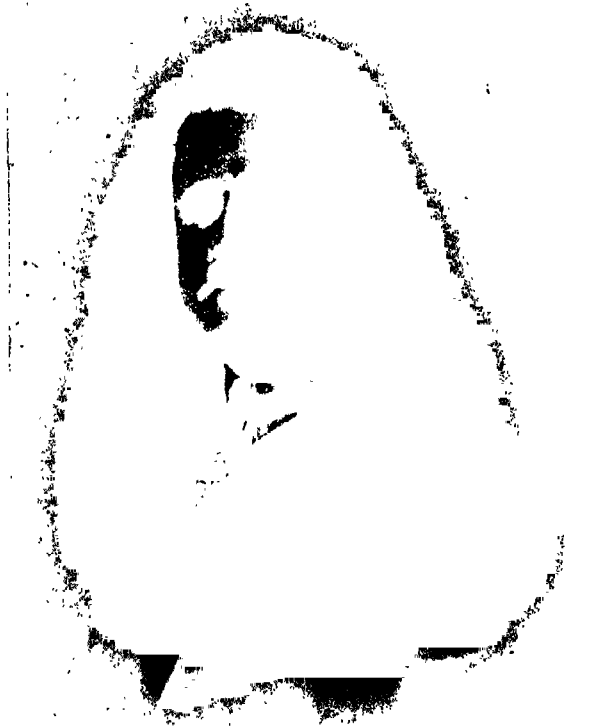
الامير مصطفى الشهابي

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق الشام ومدير اعمال الدولة فيها

مقتطف يناير ١٩٣٣

امام صفحة ٩

الطبائع والامزجة[1]

للامير مصطفى الشهابي
مدير املاك الدولة بدمشق وعضو المجمع العلمي العربي

ما الأنسان في هذه الحياة ؟ جيش من الخلايا لا تعد جنوده ولا تحصى ؟ وفي كل خلية جبلة اولى (بروتوبلاسم) دائمة الحركة لا تقف ولا تستريح ولا تكل ولا تمل . وما الحياة نفسها ؟ هدم وبناء وأخذ وعطاء وصعود وهبوط في صلب هذه الخلايا ، والانسان بهذا الجيش اللجب كعمود ماء فوق حوض تخاله ثابتاً ونقاطه في تجدد مستمرّ . ذلك ان الجسم الانساني لا يكفُّ طيلة الحياة عن امتصاص العناصر الغذائية وتمثيلها وصنع مواد تندمج في خلاياه ُثم هو يفرز ما لا فائدة منه ويطرحه خارجاً . ولا تقف هذه الحركة المستديمة الاّ بوقوف الحياة وانطفاء شعلتها

واذا فحصنا الخلايا بمجهر العالم الذي يتحرى الحقيقة ويستقصيها الفيناها لا تتجدد في كل فرد على طريقة واحدة ولا بمقادير واحدة . وهذا الاختلاف هو ما يدعو الى حصول الطبائع المختلفة في بني الانسان على رأي كثير من العلماء . وليس بامكان المرء تغيير طبيعته لانه ليس له يد على خلايا جسمه، انى شاء ، تمثيلاً وافرازاً

وللناس طبيعتان اساسيتان وهما طبيعة الانسان الحسَّاس وطبيعة الانسان الفعَّال . ففي حس الامور وادراكها يكون التمثيل في الخلايا زائداً على الافراز ، اما في الحركة كاستعمال الارادة او الحركة العضلية فالافراز يسود . ومتى رجحت كفة الطبيعة الاولى شالت كفة الثانية في الاعم ، فالحساس قلما يكون مقداماً والعكس بالعكس . والآلة التي تضبط التمثيل والافراز في الجسم كما تضبط الحس والعمل هو الدماغ فهو كناظم الساعة الضابط لحركتها لكنه هو نفسه غير متزن في كل الاشخاص فيكون قويّاً لدى بعضهم وضعيفاً لدى بعض وسريع الحركة في ناس وبطيئها في آخرين . وهنا يتجه الى جهة وهناك الى جهة معاكسة للاولى تبعاً لشكل حركة خلاياه في التمثيل والافراز . وهذا ما يجعل للاعصاب سيرة خاصة فتكون حساسة او فعالة

(١) بحث فلسفي لخصته على اثر تلاوة بعض كتب اهمها كتاب بهذا العنوان للفيلسوف الفرنسي الفريد فويه. والغاية منه بيان خصائص الرجل وخصائص المرأة بياناً علمياً وفلسفياً والدعوة الى تعليم المرأة الشرقية ما يناسبها . والطبائع ترجمة Temperaments اما الامزجة فترجمة Caractères

وكان الاقدمون يقولون بأربع طبائع يسمونها اخلاطاً وهي الدم والبلغم والصفراء والسوداء وينعتونها بقولهم طبيعة حارة وباردة ويابسة ورطبة. وهي كلها تقسيمات ونعوت لا يعوَّل عليها اليوم

ويكون الحس سريعاً أو بطيئاً، حادًّا أو ضعيفاً ولذلك يكون الحساس على طبيعتين: حسَّاس سريع الحس ولكن ضعيفهُ وحساس بطيء الحس ولكن عظيمهُ

﴿ طبيعة الحساس السريع الحس ﴾. يسمونه ايضاً الحساس الدموي. وتكون كريات الدم لديه عديدة ارجوانية اللون على عكسها في الصفراوي الفعال حيث هي قليلة قاتمة. ويكون لون بشرة الدموي وردياً زاهياً وشعره اشقر وعيناه الى زرقة (كل ذلك في المتوسط من الحالات) وعنقه قصيرة عريضة ورأسه مستديراً أو مربعاً وانفه عريضاً. وتلوح على جسمهِ علامات الجسم الملآن غذاء، اي الذي يزيد فيهِ المدخر على المستهلك. ويكون صاحب هذه الطبيعة سريع الانفعال لكن انفعاله سطحي يزول بسرعة. وهو كثير الكلام كثير الاشارات قليل العمل سريع النسيان لا جلَد له على العمل المملّ المستمر ولا على اجهاد العقل. ولا يلبث الحادث الجديد الذي يحسه ان يطرد الذي سبقه. والخلاصة يوجد في كل دموي خالص شيء من خصال الطفولة والفتوة. ألا ترى ان الطفل الذي يزيد في جسمهِ الادخار على الاستهلاك ورديّ الخد ابيض الجلد سريع الحس لكن الحس فيهِ سطحي لا يدوم كثيراً فالطفل هو المثال العادي لهذه الطبيعة. ويكون صاحبه ابن يومه ينسى الماضي ولا يفكر الاّ في حاضره كالصبي والشاب. وليس للآلام العميقة سلطان عليهِ. وهو متفائل واقرب إلى الخير منه الى الشر. لكنه لا يتعدى بذلك حد الكلام والعاطفة ولا يتجاوزها الى العمل. ويمكن لهذه الطبيعة ان تعتدل بتقدم العقل وتأثير الارادة

﴿ طبيعة الحساس العميق الحس ﴾ هي طبيعة العصبي الذي اذا صدمته المؤثرات عملت عملها فيهِ فلا يعود الى سابق حاله الاّ بعد لأيٍ دمهُ اقل من دم صاحب الطبيعة السالفة الذكر وجهازه العصبي اقوى وعضله اضعف. ويكون شاحب اللون لفقر دمه حاد النظر كثير الحركة قلقاً في نومهِ طويل العنق دقيق الانف في الغالب خفيف الجسم رشيق القوام غير بدين. وكثيراً ما تعرض جبهته وتستدق ذقنه فيكون وجهه على شكل الرقم ٧. وهو شديد التأثر بكل ما يفرح ويغم وربما أدى بهِ ذلك الى السويداء لان شعوره يكون عميقاً داخليًّا متأصلاً

ويكون العصبي مرحاً في طبيعتهِ أو حزيناً لكن عوامل الحزن تتغلب عليهِ في الغالب فتراه حذراً قلقاً ليس فيهِ آمال الدموي المتجددة في كل حين فهو اذن متشائم. غير ان صاحب هذه الطبيعة اذا اعتدل وناله حظ من الذكاء كان آية في العبقرية ولا سيما اذا كان وسطاً بين العصبي والدموي. ولقد زعم ارسطو ان كل العباقرة في الفلسفة والسياسة والشعر والفنون

هم من اصحاب السويداء . ولا يشير بذلك الى الذين يرافقهم الهم والحزن بل الى ذوي الحس العميق والانفعال المتأصل الذين لهم ذكاء وقاد يدركون به نواحي الحياة الجدية حتى القاتمة منها

﴿ طبيعة الفعّال ﴾ الفعّال ايضاً على قسمين فعال سريع العمل عظيمه وفعّال بطيء العمل قليله . ذلك ان الفعال يحتاج في حياتهِ الى صرف قوة كبيرة عصبية وعضلية . ولما كان تفسير ذلك الصرف انحلال الجبلة الاولى في خلايا جسمهِ الى عناصر ابسط كان مزاج الفعال هو الذي يزيد فيه الاستهلاك على الادخار اي الافراز على التمثيل . ويكون الاستهلاك في الفعّال إما قويّا وسريعاً أو على العكس معتدلاً وبطيئاً ولهذا يكون للفعّال طبيعتان كما ذكرنا ويمكن في العمل قرن السرعة الى القوة اما في الحساسية فكثيراً ما تفترقان

﴿ الفعّال السريع العمل العظيمهُ ﴾ الفعّال الذي يعمل بسرعة وقوة كان يسمى صفراويّا لدى الاقدمين . والحقيقة انه ليس للصفراء تأثير في طبيعتهِ . ويكون الدم فيهِ افقر منه في الدموي بالكريات الحمر . يقولون ان الصفراوي ذو دم حار وهذا صحيح ولا سيما في الدماغ . وكان كارليل يقول حرارتي بدلاً من طبيعتي . ويكون وجهه شاحباً لخلو دمه من الاوكسجين بسبب كثرة الاستهلاك . وهذا السبب هو الذي يجعل لون شعره وعينيه اسود لامعاً في الجملة ويكون قوي الجسم نحيفه سريع الهضم والتنفس شديد الحاجة الى النوم العميق حاد العينين قوي العضل لا يسمن الاّ نادراً . واذا تأثر بحادث اصفرّ وجهه في الغالب بدلاً من ان يحمرّ وربما أثر ذلك في كبده وهذا ما استرعى نظر الاقدمين فسموه صفراويّا . وتزيد الشمس في خصائص هذه الطبيعة فيكثر اصحابها في البلاد المعتدلة والحارة .وهي فاشية في القبائل البدوية

وشدة نشاط صاحب هذه الطبيعة تجعله جباراً اذا عاكسهُ احد وتجعله سريع الغضب ايضاً . وقد شبهه احدهم بجسم مكهرب من يمسسه يقتدح شرارة كهربائية . واذا لم يجد في عضلاته منفذاً للعمل ولصرف القوة اثّر ذلك في جسمه تأثيراً داخليّا ولاسيما في دماغه فتراه اذا احبّ عشق واذا بغض كتم بغضاءه سنين حتى ينتقم. وهو شجاع مقدام في الغالب . واذا حكم استبدّ في اكثر الاحيان دون ان يعبأ باستمالة قلوب الناس او عقولهم اليهِ ككثير من رؤساء القبائل المعروفين او كنابليون مثلاً فهو في مقابلة الناس حيوان يخاطب حيواناً دونه. واعتقاده ببلوغ مراده يجعله قوي الامل كبير الثقة بنفسه ولهذا يغلب فيه التفاؤل

﴿ الفعّال البطيء العمل القليلهُ ﴾ هو صاحب الدم البارد او صاحب البلغم الذي له ارادة تحفزهُ على العمل ولكن بعد إعمال الفكر وموازنة الامور . ويعرف بعنق قصيرة وانف عريض ولون شاحب غالباً وشعر اشقر او اسمر باهت غير كثيف وعينين شهباوين او خضراوين غير متقدتين وجسم ممتلىء ودماغ مفكر . هو يملك نفسه فلا تثيره الحادثات كالذي سبق ذكره . وبحث عنهُ « كانت » فقال انهُ يحمى ببطءٍ لكن حرارتهُ تدوم طويلاً وربما سموهُ عاقلاً لان

برودة الدم اذا ما قرنت بالنشاط على العمل تغلبت على كثير من الصعاب . اما اذا فقد صاحب هذه الطبيعة نشاطه اثّر ذلك في حساسيتهِ وفي حيويته فيضعف دوران الدم فيهِ ويزداد دوران الصفراء فترخو نسجه وتبطؤ الحركة في اعضائهِ ويضعف الدم في دماغه فيتبلد ويبتعد عن الحيوان ويقرب من النبات

﴿ الخلاصة في الطبائع ﴾ نلخص طبائع الناس بقولنا انهُ يوجد فيهم : اولاً الدموي (الحسّاس السريع الحس الطائش) وهو سريع الانفعال لكن انفعاله لا يدوم كثيراً . ثانياً العصبي (الحساس العميق الحس) وهو بطيء الانفعال لكن انفعاله يكون شديداً ومتأصلاً . ثالثاً الصفراوي (الفعّال الحاد العمل) وهو الذي يكون عمله سريعاً قويًّا . رابعاً البلغمي (الفعّال البارد) وهو الذي يكون عمله راسخاً متزناً . ويزيد الادخار على الاستهلاك في جسم اصحاب الطبيعتين الاولين . والامر معكوس في اصحاب الطبيعتين الثالثة والرابعة

واذا صدمت النوائب الدمويَّ صدمة عنيفة اثّرت في دماغه وفي جهازي الدم والتنفس . اما العصبي ففي جهاز العصب والدماغ واما الصفراوي ففي الكبد. والبلغمي لا يتأثر بها عضو من اعضائهِ بل تبدو عليهِ علائم الحزن والكآبة فحسب

***

وذكر (كانت) ان كل انسان له طبيعة واحدة من الطبائع الاربع المذكورة ليس غير . وانهُ لا يوجد طبائع مركبة . اما الفريد فويه فيرى عكس ذلك ويقول انهُ لا يوجد صاحب مزاج بسيط البتة لانهُ لا يمكن تصور وجود حس بلا ارادة او وجود ارادة بلا حس ولا عقل كما ان الجسم لا يمكن ان يدخر بدون ان يستهلك . ولا يوجد في الكون شدة مطلقة ولا سرعة مطلقة في الادخار والاستهلاك بل كل شيء نسبي. ولهذا نرى بين الناس الدموي العصبي والعصبي الصفراوي ، والعصبي اللنفاوي (البلغمي) الخ اي اناساً يجمعون طبيعتين . وربَّ رجل يجمع ثلاث طبائع كأن يكون دمويًّا وعصبيًّا ولنفاويًّا وهو ما يكثر في المانيا وانكلترا وربما حصل الاختلاط في خلق الوجه وسائر الجسم كالجمع بين شعر اسود وعينين زرقاوين وكأن يكون لك جسم وردي وقامة هيفاء . وكل ذلك نتيجة وراثات مختلفة اوجبت اختلاط الطبائع

ولا يستطيع الانسان تبديل طبيعتهِ لكن هذه تتبدل بتقدم السن . فالولد يحتاج خصوصاً الى الاحتفاظ بنفسهِ والى النمو ولذا تراه شديد الحس والانفعال يتطلب النفع العاجل ويدرأ الضرر القريب ويسير عن بصر للاشياء لا عن بصيرة . اما البالغ فعلى العكس لان قواه العقلية تزداد مع الزمن وكذا محاكته للامور فيضبط بها عوامل الغريزة الحيوانية . واما الشيخ فكل شيء فيهِ يبطؤ اي ان طبيعتهُ تعتدل مهما كان متطرفاً ويكثر البلغم فيهِ حتى يبلغ بهِ حد.

الكسل . وتتردد ارادتهُ كناظم الساعة (الرقاص) وتبدو عليهِ علائم الاضمحلال والفناء

﴿ فائدة علم الطبائع في الحياة ﴾ لا شك ان لعلم الطبائع فائدة كبيرة من حيث الاخلاق وتربية الاولاد. فكما ان الطبيب يحتاج في وصف الدواء الى معرفة خلق المريض كذلك المؤدب يحتاج في تأديب الصبيان الى معرفة طبائعهم الخلُقية المختلفة . ومن البساطة بمكان الظنُّ أن الجميع يمكن سوقهم بعصا واحدة. وربما نفعت الشدة في احدهم ولم ينفع في آخر غير التسامح . وربَّ تلميذ يفعل فيهِ اللين والتحبب وآخر لا يؤثر فيهِ غير الخوف . ومن الثابت ان المربين يجهلون كثيراً فسيولوجية الطباع جهلهم للقواعد الصحية التي يجب رعايتها تجاه الاعمال العقلية

***

وللطبيعة تأثير في سعادة الانسان وفي اخلاقه طيلة الحياة . ويجب ان نفتش في كثير من الاحايين في نفسنا عن سرِّ حزننا او طربنا فهنالك نجد ساعات من البؤس وساعات من السرور وهنالك نرى الاشياء بألوان مختلفة بمقتضى طبائعنا . ولقد بالغ احد العلماء فقال ان ينبوع الخير والشر هو فينا في الغالب . ذلك ان كل عضو من اعضائنا له عمله في سير شعلة الحياة فينا فالجوع والعطش وسوء الهضم وخفقان القلب والتعب والاجهاد والقلق والحزن الخ كل ذلك له تأثير اي تأثير في تكوين سعادة الانسان وكله له اشد ارتباط بالطباع . ومتى كان الانسان مرحاً في طبيعته فسيان لديه واتاه الحظ ام لازمهُ النحس . اما المتبرم بالحياة فهو يظل مكمداً مهما خدمتهُ الايام. وبوجهٍ خاص ان بعض اسباب السعادة هي في طبيعتنا . ولا يجب ان يستنتج من ذلك ان البيئة والحوادث وبخاصة العقل والارادة ليس لها تأثير في سعادة الانسان وهي التي يتألف منها مزاجه او طابعهُ الذي يتطبع بهِ كما ذكرناه بعدُ

اما تأثير الطبائع في الاخلاق فهو ايضاً امر لا ينكر ولا يعبأ بقول احدى الاديبات « لا اصدق ان الفضيلة مرتبطة بهضم الاغذية » . فلكم قادت الطبيعة المرءَ الى اعمال شتى من الخير والشر والامثلة على ذلك كثيرة

***

﴿ الامزجة ﴾ يقول الفرد فويه ان طبيعة الانسان تخلق معهُ لكن المزاج يكتسب بالتطبع والمران . واهم مؤثر في المزاج العقل الانساني . وربَّ رجل تسود السويداء في طبيعته فيطردها بالعقل والارادة فيكون مرحاً في مزاجهِ . واذا كانت الطبيعة مرتبطة بتركيب الجهاز العصبي وسيره خاصة فالمزاج مرتبط بتركيب الدماغ وسيره في الاخص وهو عضو العقل

والناس على ثلاثة امزجة : الحساس والمفكر والمقدام (او النفاذ وهو القويّ الارادة). وتتبدل امزجتنا بتبدل شدة هذه القوى الثلاث . والمزاج الامثل هو الذي يتوازن فيهِ الحس والفكر والارادة

﴿ الحسّاس ﴾ اذا كان الحساس قليل الذكاء قليل الارادة كان كالطفل سريع الانفعال ضعيف الذاكرة . اما اذا كان قليل الذكاء قوي الارادة كان خطراً لانهُ يجمع قوتي الحس والارادة بلا تفكير . وكثير من المجرمين لهم هذا المزاج . واما اذا كان الحساس ذكيًّا كان من الرجال المتزني الامزجة حتى في حالة خلوهم من ارادة قوية

﴿ المفكر ﴾ هو الذي ينمو عقلهُ على كرّ الأيام فيصير التفكير طابعاً له . وهو مزاج كثير من العلماء والفلاسفة ، واذا كان المفكر حساساً اشبه بمزاجه بعض الشعراء كفكتور هوجو وأمثاله . ولا شك ان نمو العقل يسكن فرط الحس على طول الزمن . وربما اضرّ التفكير بالارادة ايضاً فينشأ عن ذلك اشخاص يتمثلون العالم في دماغهم فيصورونهُ صوراً لا تحصى ويعيشون غارقين في تأملاتهم غير المتناهية . وهم ينفقون كثيراً من القوى داخليًّا فيقلّ ما يجب ان ينفقوه في الخارج . وقد يعدم التفكيرُ الارادة احياناً . لأن المفكر بعيد النظر للامور اما المقدام فلا يرى غير ناحية واحدة منها ولذا نرى المفكر كثير الاحجام عن العمل بعد ان يتمثل في ذهنه كل دواعي الاقدام وكل دواعي الاحجام . والشك طارد للفعالية كما لا يخفى . اما اليقين فباعث على الاقدام . واذا كان اليقين منبعثاً عن عقيدة شعورية كعقيدة الدين مثلاً حمل صاحبه على الموت احياناً . ولا يظننّ ان شدة التفكير تدعو الى التردد في كل الامور فالمفكر لا يعبأ بالصغائر التي تسر لها العامة والدهماء لكنهُ كثير الاهتمام بجلائل الاعمال . واذا كان القليل من العلم داعياً الى التردد فالكثير منهُ يدعو الى العمل . ولكل معضلة مفتاح فاذا لم تعثر عليه انت فاحجمت لقيهُ من هو اشد ذكاء وتفكيراً منك فأقدم

﴿ المقدام ﴾ الارادة اذا لم يصحبها العقل اضرّت بصاحبها . والدماغ البسيط الذي لم تصقله التجارب او العلوم هو نموذج للارادة الحمقاء التي تجعل صاحبها يقدم على اعمال غير معقولة ويصر على اخطائه . وهو دماغ الجهلاء الذين يصعب تبديل معتقداتهم لانهم جهلاء لا يمكنهم استخراج القواعد المطلقة من الامور التي يحسونها . لكنه اذا كان صاحب الارادة مفكراً فالمثابرة على الاقدام لا يسمى لديه عناداً بل ثباتاً . ويتضح من ذلك ان العقل والتفكير هما عاملان مهمان في سير الارادة

والمقدام على ثلاثة اشكال اولاً المقدام القليل الحس والتفكير وهو العنيد في حمقه وضلاله . ثانياً المقدام الكبير الحس القليل التفكير وهو الطموح المتهوّر . ثالثاً المقدام القليل الحس الواسع الفكر وهو الذي يحكم الامور ببرودة ثم يمضي فلا يثنيه شيء

[تتمة البحث تتناول الطبائع والامزجة لدى الرجل والمرأة]

غزل فلسفي

فيكَ من كل شيء

للاستاذ عباس محمود العقاد

فيك من شمس الضحى العين التي ترسل اللمح مضيئاً في الظلام
فيك من بدر الدجى احلامه حين يسري نائماً بين نيام

* * *

فيك من كل ربيع طلعةٌ تنبت النضرة عاماً بعد عام
والشتاء الجهمُ لا يعدوك من عهده العاصف برقٌ وغمام

* * *

ما تغنّى الطير إلا بعض ما انت راويه ، ولا ناح الحمام
وإذا الجدول ناغى نفسه فهي اصداؤك من غير كلام !

* * *

وصنوف الوحش هل ناظرتها من نفار بينكم او من وئام!
لا انفتال الحوت تنساهُ ولا سطوة النسر ولا خوف النعام

* * *

فيك من نار الحياتين الهوى ! هل حياة الحيّ إلاّ من ضرام ؟
والذي ارهبه وا آسفا هجرك المدعوُّ بالموت الزؤام

* * *

فيك من دنياك نقص رائقٌ ومن الاخرى تباشير التمام
ومن الاملاك طيب ورضى ومن الشيطان غيٌّ وإثام

* * *

ومن الخمرة سُكراها اذا اسلست في النفس او طاش الزمام

ومن القوت غذاءٌ ومن السماء ريٌّ ومن الجوع هيام

* * *

فيك من ارضك حظٌّ وافر وحظوظٌ من سماءٍ لا ترام
اجديدٌ؟ اي نعم! قال الصبي ، اقديم؟ اي نعم! قال الوسام

* * *

هذه الروعة هل تجمعها في مدى يوم لحومٌ وعظام
لا وربي! بل دهور غبرت قبلما تتقنها الأيدي الكرام

* * *

قبلما تتقنها الايدي التي نسقت انوالها ، وهي حطام
من وراء اللب صفًّا ينتهي بعد صف ، بين سَدْيٍ ولحام

* * *

فيك من هندسة علويةٍ ما استدار الخط فيه واستقام
ومن الفن مثال رائع هو للمثّال والشادي امام

* * *

فيك مني ومن الناس ومن كل موجودٍ وموعودٍ تؤام
كيف بي أُعذل ان اغنيتني انت حتى عن شرابي والطعام

* * *

ان نفوني اليوم من دنياهمُ وأباحوا لي مِن الزاد المرام
ثم قالوا : ما تشأ منها نخذ! قلت : هذا! وعلى الدنيا السلام

* * *

قلت : هذا ، وتقدمت إلى هوّة الغيب ، وفي الثغر ابتسام
كيف لا يبسم من قُبلته تنظم الأوطار طرًّا في نظام

* * *

وإذا قبّلته مستضحكاً في تخوم الكون،والكون سدام
فهي سُخري بالذي ودَّعته واغتباطي بمقامي حيث قام

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

من جمهورية افلاطون إلى شيوعية روسيا

«علم السياسة» هو البحث في اشكال الحكومات التي نشأت على سطح الارض سواء منها الماضية والحاضرة ، و «حكمة السياسة» هي البحث في اصل المجتمع البشري والعوامل التي افضت الى تأليفه وجعلت الانسان مدنيًّا بالطبع . وهذا التفريق بين هاتين الناحيتين من موضوع السياسة العام هو تفريق حديث لم يصل اليه الكتّاب الاّ في الاعصر المتأخرة. على ان معظم الذين عالجوا الموضوعات السياسية لايزالون يمزجون الواحد منهما بالآخر مزجاً ملتحماً في حين يتطلب التنقيح العلمي مراعاة هذا التفريق . وعندنا ان خير ما ينير الموقف السياسي الحاضر ويزوّد القارىء بالمعلومات التي تساعده على فهم التدرج الحاصل في الآراء السياسية وتطبيقها ان نستعرض امامه طائفة من الأئمة الذين غادروا وراءهم رنة في العالم السياسي ونتناول بالتحليل ماذهبوا اليه سواء من وجهة «علم السياسة» ام من وجهة «الحكمة السياسية»

❊ افلاطون ❊ ان افلاطون هو أسبق من وصلتنا مدوّناتهم عن الشؤون السياسية والاجتماعية فقد عاش من سنة ٤٢٧ الى سنة ٣٤٧ ق.م . وجاء في كتابه (الجمهورية) الذي سد ثغرة كبيرة بنقله الى العربيــة حديثاً الاستاذ حنا خباز الشيء الـكثير عن المعيشة الاولى البسيطة الحرّة وكان يرى ان تفتح ابواب الارتقاء على مصاريعها للناس جميعاً بالتثقيف والتهذيب الاّ العبيد فعليهم ان يحملوا على اكتافهم اهل التفرغ ويقوموا بخدمتهم . وعنده ان يمنح رجال التعليم اسمى المقامات في الحكومة وان الطبقات المهذبة الخاصة — وهي الطبقة الارستقراطية في عرفنا الحاضر — يجب ان تقوم بسندها الطبقات العامة الاعتيادية ، ومن الغريب مع كل هذه الارستقراطية ان يكون افلاطون شيوعيًّا حتى في المرأة

ولما كانت معظم النظريات التي وضعت لتعليل السياسة او اسبابها هي نظريات عن طبيعة الانسان الاصلية فلا عجب ان نرى افلاطون من الذين نهجوا هذا المنهج ، فقد ذهب في جملة ما ذهب اليهِ الى ان في النفس الانسانية اجزاء ثلاثة الاول الجزء العالم وهو الحكيم . الثاني الجزء الشجاع المتحمس وهو الروحي. والثالث الجزء الشهواني وهو النهم او الحيواني . يقابل ذلك اجزاء ثلاثة في بناء الجمعية البشرية متى كانت صحيحة التركيب وهذه الاجزاء هي (اولاً) الملك الفيلسوف كما تصوره افلاطون وقد دلّ به على ضرورة تغلب العلم في المجتمع السياسي على الروح والشهوة — يعني يجب ان يحكم حجّاب هذا الملك في «الجمهورية الكاملة» باعتبارهم المظهر الذي يتجلى فيه مبدأ تفوق العلم. (ثانياً) الجيش الشجاع المتحمس ويكون اداة اولئك الحجاب ينفذ مقتضيات علمهم ويسير تحت لوائهم (ثالثاً) الدهماء أو عامة الناس وهم اهل الشهوة الخاضعون الخانعون والمسوقون إلى الاعمال المنتجة في المجتمع .وبديهي كما قال الاستاذ (كول) ان مثل هذه النظرية السياسية هي نظرة ارستوقراطية عظامية ينبذ صاحبها الفكرة الديموقراطية العصامية وراء ظهره ويمر على كلمة التساوي في الحقوق مر الكرام إذ يقول الواجب ان يقبض على زمام الحكم في الجمهور الجزء الاصلح لخدمته كما يجب ان يتسلط في الفرد عقله على سائر ملكاته . ويقوم المرء بعمله الاجتماعي وهو وظيفته التي خلق لها بحسب الاجزاء الثلاثة التي تتألف نفسه منها ونسبة تفوق هذه الاجزاء بعضها على بعض . فالحكيم وهو ذو الملكة العقلية المدركة المتفوّقة خلق لان يكون حاكماً، ذلك لانه اعرف الناس بالمصلحة واما الآخرون فلا حق لهم في هذا الامر ولا شأن لانهم جاهلون

ولعمري ان هذا الموقف الذي وقفه افلاطون في القرن الرابع قبل المسيح لا تزال تقفه عصبة المحافظين الارستوقراطيين في القرن العشرين من ادعائها بأن مواهبها العقلية وعنعناتها المتوارثة تجعلها وحدها اهلاً للاضطلاع بالحكم ، وهذا باب في النظرية السياسية لما يقفل ، وقد ملأ الكتاب اكوام المؤلفات والرسائل في علاجهِ ولما ينتهوا . وكأني بافلاطون يقول للاجيال اللاحقة هذا رأيي فانا ارستوقراطي صرف احرّم ممارسة الحكم على الذين لم يخلقوا له فما هو رأيكم ؟ بل ما هي السلطة السياسية ؟ اهي شيء من حق الانسان كما تساءل الاستاذ (كول) لا يتنازل عنه وقد اكتسبه بمجرد كونه انساناً يمشي على اثنتين ام هي شيء يتعلق بالعلم والمعرفة؟ وهل على الخبير الفني المتخصص ان يعمل باوامر يتلقاها أم هو نفسه مصدر هذه الاوامر ؟ وهل الاطباء يديرون شؤون المرضى في المستشفى أم المرضى يديرون شؤون الاطباء ؟ وهل السياسة ميدان للاخصائيين المتسلحين بسلاح الفن أم هي للنساء والرجال العاديين ؟ وهل الديموقراطية تعني هذيان اصوات متنافرة بعيدة عن الانسجام أم هنالك شيء من الحق في القول المأثور « اصوات الخلق اقلام الحق » ؟ ووراء ذلك كله سؤال اجدر بالاهتمام خلاصته

ما هو الانسان ؟ وما هي طبيعته ؟ . فعلينا ان نعرف هذه الامور أو نصرف جهد الطاقة للاحاطة بكنهها قبل ان نصدر حكمنا كيف يجب ان يحكم الانسان أو ان يحكم عليه [1]

﴿ ارسطو المعلم الاول ﴾ هو تلميذ افلاطون واول من لاحظ تدرج الحكومة ونشوء النظام الاجتماعي وقد عالج الشؤون السياسية معالجة دقيقة حتى ان بعض آرائهِ لا يزال يعمل بهِ الى اليوم . ومن ادقّ ملاحظاته قوله عن الحكم انهُ يأخذ شكلاً دوريًّا متعاقباً فالحكم الملكي في نظره هو الشكل الاساسي للحكومة ثم يعقبهُ الشكل العظامي الارستوقراطي وهو حكم النخبة المنتخبة وهذا يؤول الى الاوليغاركية وهي حكومة فاسدة قائمة على اقلية متآمرة متضامنة ثم تأتي حكومة الاكثرية وهي الديموقراطية وتختلف عن الديموقراطيات الحاضرة بانها مؤلفة من طبقات ، ويخلف هذه الحكومة الصالحة حكومة مؤلفة من الغوغاء اطلق عليها اسم (اوكلوكراسي) فيختلط الحابل بالنابل ويصير الامر والنهي بيد الحمقى والطائشين . وعندما تبلغ الفوضى هذا الحد تهب « الدكتاتورية » من مرقدها وهي حكومة القاهر الحازم فيعاد النظام الاجتماعي الى سالف عهده . وعندنا ان هذه الملاحظة من خير ما خلفهُ المتقدمون في علم السياسة لانطباقها على الواقع كثيراً فمحمود شوكت باشا القائد العثماني الكبير مثلاً كان هذه اليد الحازمة التي انقذت الدولة العثمانية في سنة ١٩٠٩ من غوغاء جمعية رجعية اسّسها سخيف اسمهُ (درويش وحدتي) واطلق عليها اسم (الجمعية المحمدية)

ومن الامثال الصالحة على ملاحظة ارسطو هذه السنيور موسوليني وظهوره بعد الفوضى التي كانت ضاربة اطنابها في ايطاليا ، والغازي مصطفى كمال باشا ونهوضه بالترك من بعد تمزقهم والتصدع الذي كان يهدد بنيانهم بالانهيار من الاساس عقيب انكسارهم في الحرب العالمية

وكانت الطريقة الخاصة التي سار عليها الاغريق المتقدمون في نظامهم السياسي ان المدينة الواحدة من مدنهم كانت تؤلف دولة قائمة بذاتها وكان جميع الافراد يشتركون في اتخاذ القرارات مباشرة من غير ان ينيبوا عنهم احداً لان الطريقة النيابية الحاضرة كانت مجهولة لديهم . وكانت الاكثرية في الاجتماع تعين في بعض الاحيان بشدة التصفيق من المجتمعين وفي غير ذلك بالاقتراع والانتخاب . وكانت زعامتهم ومقاليد امورهم بيد من يمتلك شخصية متفوقة عليهم ومعرفة بشؤون القيادة . ولم يرَ ارسطو في جميع ذلك شيئاً غير طبيعي يحتاج الى التعليل بل قال عن الانسان انهُ حيوان مدني بالطبع فيكون المجتمع والحالة هذه ظاهرة طبيعية نشأت من فطرة الانسان وان الدولة البلدية (City-State) هي في نظره وليدة الاسرة ودرجة لاحقة في النشوء من بعدها

(1) Outline of Modern Knowledge, p. 705.

الخلافة الاسلامية

وتتجلى المذاهب السياسية المتنوعة والآراء التي اشار اليها افلاطون خير التجلي في تاريخ الاسلام عامة والعرب منهم خاصة. وليس من المتعذر على الباحث مثلاً ان يرى المبادىء السياسية مخلوطة في الجيل الواحد والعمل الواحد خلطاً متماسكاً متشابكاً . فانتخاب اول خليفة ليتولى زمام المسلمين في دينهم ودنياهم هو عمل ديمقراطي في مبدئه ولكنه يختلف عن الاساليب الديمقراطية الحاضرة بحصره الانتخاب في اهل الحل والعقد بصورة مبهمة ليس فيها قاعدة يركن اليها ومعنى اهل الحل والعقد هو النخبة المنتخبة وهي الطبقة الارستقراطية طبعاً فهذا الحصر هو اقرب اذن الى الارستقراطية منهُ الى الديموقراطية والعامة كانوا بعيدين عن التدخل في شأنهِ وليس لهم صوت نافذ في اقراره او في رفضه لأن القواعد التى طبقت منذ اليوم الأول لم تعين لهؤلاء العامة مقاماً في الاقتراع أو في الانتخاب بل اعتبرتهم كما اعتبرهم افلاطون اداة تساق من غير ارادة ولا اختيار . وكان الخليفة والحق يقال رئيس جمهورية إلا انهُ تمتع بحقوق لا يحلم بها (هوفر) في الولايات المتحدة . وقد تجلت هذه الحقوق واشتدت عندما صارت الخلافة ملكاً متوارثاً وصار اصحابها يدعون الوكالة عن الله في كل شيء ، يدلك على ذلك خطبة للمنصور بمكة جاء فيها «ايها الناس انا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده ، وحارسه على ماله ، اعمل فيه بمشيئته وارادته واعطيه باذنه ، فقد جعلني عليه قفلاً ان شاء فتحني لاعطائكم وقسم أرزاقكم وان شاء ان يقفل عليَّ أقفلني» ، ولم يعدم الخلفاء من الفقهاء من جوّز لهم مثل هذه الحقوق كما فعل صاحب « مطالع الانوار » بقوله عن الخليفة ان له حقّ التصرف «في رقاب الناس وأموالهم وابضاعهم». على انهُ مع كل النفوذ الذي كان للخليفة لا يجوز ان يدعى «مطلقاً» ابداً ، لأن السلطة ليست له وانما هي للدستور — للشريعة التي كان حامياً لها ومسؤولاً عن تطبيقها ، وكانت الحيدة عنها اعوجاجاً لا يأبى المسلمون — ولو نظريًّا — ان يقوّموه بسيوفهم . فاذا كان الاستبداد هو ان يعمل صاحب الامر بمشيئته وبمقتضى هواه ويدعي انه هو الدولة كما كان حال الملوك المستبدين في بلاد الغرب فالخليفة بهذا المعنى لم يكن مستبدًّا وانما اعطى لنفسه من الحق في فهم الدستور وتأويله وتطبيقه ما يخولهُ قوة صارمة . ولو اردنا أن نجمل الحالة التي كان عليها المسلمون في الصدر الاول بكلام مألوف في عصرنا لقلنا انهم انتخبوا رئيس جمهورية الى أجل غير مسمى بطريقة انتخاب محدودة تولتها الطبقة الارستقراطية وهم أهل الحل والعقد وخوّلوه في القضاء والتنفيذ سلطة لا حد لها وجعلوه مسؤولاً عن الدستور بطريقة عنيفة تكون حياته فيها عرضة للخطر ، ولما

كانت الطريقة البارلمانية مجهولةً في تلك الاعصر فمحاولة تعيين هذه التبعة اوالمسؤولية كثيراً ما أدت الى الفتن والاضطرابات وسفك الدماء بين المسلمين لانهم لم يكونوا عارفين بحلٍّ سلمي يرضاه الجميع أو الاكثرية المطلقة في معالجتها . وعلى القارىء أن يتذكر ان الخليفة مهما كان قادراً وعظيماً لايستطيع من الوجهة النظرية أن يغير شيئاً في الشريعة لانسلطتها مطلقةلاحد لها تصغر أمامها كلسلطة بل دائرته ودائرةقضاته وعماله محصورة في تأويلها وتطبيقها . ويجد علماء السياسة لذة كبيرة أن يروا بعض الكتاب المسلمين المتقدمين يذهبون الى أن الامة هي مصدر السلطة التي يتمتع بها الخليفة كما فعل أبو بكر الكاساني المتوفي سنة ٥٨٧ والمدفون بظاهر حلب.فقد ذهب في كتابه «البدائع» إلى أن الخليفةبمنزلةمندوبٍ أو رسولعنالمسلمين لذلك اذا عُزل او خُلع لسبب من الاسباب لم ينعزل قضاته بل هم على أعمالهم قائمون وذلك لان «القاضي لا يعملبولاية الخليفة وفي حقهِ بل بولاية المسلمين وحقوقهم ، وانما الخليفة بمنزلة الرسول عنهم ،لهذا لم تلحقهُ العهدة كالرسول في سائر العقود ، والوكيل في النكاح ، واذا كان رسو لاً كان فعله بمنزلة فصل عامة المسلمين »[1]

ولئن كانت الخلافة في بدء الاسلام نظاماً جمهوريًّا ارستوقراطيًّا فقد تحولت في زمن بني امية الى ملك واصبحت دمشق الشام على ايدي الخلفاء او الملوك الامويين حصن العروبة الحصين وكانت الرابطة في الشرق كما كانت في الغرب رابطة دينية والاسلام كما هومعروف دين اممي ارسل الى جميع البشر على السواء الاّ أن كثرة الداخلين فيهِ منالاقوام الاخرى جعلت مركز العرب وحماته حرجاً خصوصاً لانهمكانوا بعد في دور التأسيس والفتح،ولولا هذهالنعرة العربية التي تجلت في بني امية لكان الخطر على الدولة الحديثة خطراً حقيقيًّا ولكان من المتعذر التنبؤ بما عسى ان يحدث يومئذٍ من التحولات في النشوء الديني في الشرق الادنى

ومما يسترعي الانتباه في امر الخلافة ويشير الى معنى من المعاني السياسية الحديثة المهمة عهد الطاعة للخليفة فقد اطلق المسلمون على هذا العهد اسم البيعة وكانوا « اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد فاشبهذلك فعل البائع والمشتري » او اشبه « المقاولة الاجتماعية » المبنية على فكرة التراضي والتي شرحها (جان جاك روسو) وجعلها الاساس المشروع للحكومات فكانت سبباً للثورة الفرنسوية . ولا يضير هذه المبايعة الحرة ما أصابها من الاكراه في بعض الاحوال والانتقال من المصافحة بالايدي الى تقبيل الارض او اليد او الرجل او الذيل او غير ذلك من علامات الخنوع على الطريقة الغريبة عن العرب والتي دعاها ابن خلدون « كسروية »[2] لان الاصل هو التعاقد الحر كما هو ظاهر اولاً من اللفظ الدال على البيع والشراء وثانياً من العمل الذي يدلّ على التراضي بالمصافحة يداً بيد

(١) الاسلام واصول الحكم ص١٠ (٢) « المقدمة » ص ١١٧١

﴿ ابن خلدون ﴾ ويكون بحث السياسة في الاسلام ناقصاً اذا لم يذكر ابن خلدون بشيء من الايضاح لان اسمهُ سيبقى مقروناً دائماً بالطريقة العقلية المنطقية في معالجة التاريخ الاسلامي، ولا تقل قيمة كتابته بهذا المعنى عن أثمن مخلفات المتقدمين السياسية من اغريق ورومان وهو الاقنوم الاخير في الثالوث الاجتماعي الذي يدخل فيهِ افلاطون وارسطاطاليس، وقد ذكر في « المقدمة » ان الخلافة الخالصة كانت في الصدر الاول الى آخر عهد علي ومن ثمَّ تحوَّلت الى ملك ولكن بقي هذا الملك محافظاً على معنى الخلافة بحيث لم يتغير فيها الاَّ الوازع فقد كان دينيًّا ثم انقلب عصبية وسيفاً ولكن معنى الخلافة ايضاً زال من بعد هرون الرشيد وولده لزوال عصبية العرب فلم يبق منها الاَّ الاسم وبلغ التحول في زمن ابن خلدون ان اصبح الامر ملكاً بحتاً « فكان الناس يدينون بطاعة الخليفة تبركاً والملك بجميع القابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منهُ شيء »

ومن الطف ما عمله ابن خلدون انهُ فرق بين الخلافة والملك والسياسة فجعل الملك حمل الناس على ما يقتضيه الغرض والشهوة، والسياسة حملهم على ما يقتضيه النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية وهو ما يعادل كلمة *Politics* عند الاغريق، والخلافة حملهم على ما يقتضيه الشرع، وعنده ان السلطتين القضائية والتنفيذية هما في يد رأس الحكومة الاسلامية، وقد أيَّد ذلك بقوله لما كان الجهاد مشروعاً في الملة الاسلامية لعموم الدعوة وحمل الناس على دين الاسلام اتحدت فيها الخلافة والملك « لتوجه الشوكة من القائمين بها اليها معاً، واما ما سوى الملة الاسلامية فلم تكن دعوتهم عامة (هذا خطأ) ولا الجهاد عندهم مشروعاً الاَّ في المدافعة فقط (وهذا من الوجهة العملية خطأ) فصار القائم بامر الدين فيها لا يعنيه شيء من سياسة الملك (وهذا من الوجهة التاريخية خطأ) لانهم غير مكلفين بالتغلب على الامم الاخرى وانما هم مطالبون باقامة دينهم في خاصة انفسهم » (١)

واستجدت في عصرنا هذا مساعٍ اصلاحية غايتها فصل الشؤون الدينية عن الشؤون السياسية تحريراً للاسلام من سلطة اوربا الاستعمارية فكأن المجددين على هذا النمط يرون إن التفريق بين حالة المسلمين المدنية المقيدة بالسلاسل والاغلال وحالتهم الدينية المبنية على عقائدهم الوجدانية يجب ان يفسح للدين مجالاً حرًّا تظهر مزاياه العملية ومقاييسه الاخلاقية بثوبها القشيب مما يؤول بالمسلمين في آخر الامر إلى ترقيتهم المادية والمعنوية ويسمح لهم بتنظيم شؤونهم بما لا يعرضهم للاحتكاك بالسلطة السياسية المتغلبة

بل ان بعض الكتَّاب المفكرين ذهب إلى أبعد من ذلك فجعل الاوضاع السياسية حتى في الصدر الاول ومنها الخلافة طبعاً ليست من الدين في شيء فالمسلمون اليوم أحرار في نظر غير

---

(١) المقدمة ص ١٦١

مقيدين في انتخاب المنهاج السياسي الذي يلائم احوالهم ، ومن هؤلاء الـكتّاب السيد علي عبد الرازق فقد ذهب في رسالتهِ « الاسلام وأصول الحكم » إلى ان الخلافة وضع سياسي حدث في زمن ابي بكر وان لقب خليفة رسول الله « كان سبباً من أسباب الخطإ الذي تسرّب إلى عامة المسلمين فخيل اليهم ان الخلافة مركز ديني وان من ولي امر المسلمين فقد حل منهم في المقام الذي كان يحله رسول الله صلى الله عليه وسلم » [1]

« وكان من مصلحة السلاطين ان يروجوا ذلك الخطأ بين الناس حتى يتخذوا من الدين دروعاً تحمي عروشهم ، وتذود الخارجين عليهم .... حتى افهموا الناس إن طاعة الائمة من طاعة الله ، وعصيانهم من عصيان الله .... وحرموا عليهم النظر في العلوم السياسية وباسم الدين خدعوهم وضيقوا عليهم ... ثم حرموا عليهم كل ابواب العلم التي تمس حظائر الخلافة وكل ذلك انتهى بموت قوى البحث ونشاط الفكر بين المسلمين .... والخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية .... ولا شيء في الدين يمنع المسلمين ان يسابقوا الامم الاخرى في علوم الاجتماع والسياسة كلها وان يهدموا ذلك النظام العتيق الذي ذلوا له واستكانوا اليهِ »

وغني عن البيان ان الغاية التي وضعها السيد علي عبد الرازق نصب عينيه هي تحرير العالم الاسلامي من الجمود المستحوذ عليهِ وفك مخالب القرون الوسطى الناشبة في عقليتهِ » فعمله هو عمل اصلاحي اجتماعي جريء ، لـكن لئن ساغ هذا الـكلام من الوجهة الغائية فهو لا يسوغ من الوجهة التاريخية العلمية لان الاسلام لم يبق على معظم ما كان عليهِ قبل الهجرة من الاقتصار على التوحيد والتنزيه وهو فضيلته الكبرى وغايته العظمى والدرس البليغ الذي تلقاه كما يقول (اتش . جي . ولز) مما حدث في النصرانية من النظريات اللاهوتية[2] بل ان خوضه المعارك للدفاع عن حوزته بقوة السلاح حتى افتتح مكة عنوة واخضع العرب المشركين بالقوة أدى بالضرورة إلى تلك القواعد السياسية الدنيوية التي سارت وقواعده الدينية الاخروية كتفاً لـكتف ، خصوصاً لان الاسلام دين عملي عالج اموراً واقعة اكثر مما عالج شؤوناً نظرية فليس من المعقول ان يفتتح المدن وتتكلل هامته باكاليل الظفر الباهر من غير ان تكون له قواعد سياسية تتمشى البلاد بموجبها، ويتعامل الغالب مع المغلوب بمقتضاها ، ولـكن هذا الكلام لا يمنع رجال الاصلاح ابداً ان يدرسوا الدين درساً تاريخيًّا نفسيًّا اجتماعيًّا يؤدي إلى احاطتهم بروح التشريع الاسلامي ومعرفتهم ما هو الجوهر وما هو العرض في جميع ما عمل باسم الدين وتحت تأثيره، فيروا موقفهم السياسي الخاص والقضايا الاجتماعية المتعلقة بهم على ضوء هذا الدرس التحليلي المستند إلى المكتشفات الحديثة ، وحينئذ لا تخالهم يصطدمون بشيء من العقبات فيما ينشدون من الاصلاح لان الدين متى كان عمليًّا في روحهِ جعل للمصلحة العامة اعتباراً فوق سائر الاعتبارات

(١) الاسلام واصول الحكم ص١٠١ وما بعد

(2) Outline of History, p 329

سبيلا العظمة

الاول — اتبع القوم سرْ معهم وسايرهم ولكن اسرع الخطى فتقترب من مقدمتهم . ادفع الناس بالمناكب دس على الاقدام وان اعترضوك فكشر لهم وخاصمهم وسبهم فيوسعوا لك حتى تصير امام الجميع

التفت حينئذ الى الذين سبقتهم مزدرياً عاداتهم ممتهناً تقاليدهم وافعل ما تختار ولكن لا تتجاوز حد العقل . هذا سبيل العظمة سبيل الاستخفاف بالرفاق بعد سبقهم لانك اذا بقيت في صفوفهم وجاريتهم في رغائبهم احاطوا بك ودلوا عليك واستخفوا بك ونسوك فارباً بنفسك وترفع عنهم فاما ان يعلو شأنك بينهم فيختاروك زعيماً لهم او ينقموا عليك وينتقموا منك فيقتلوك فتحسب شهيداً وتعبد

الثاني — تعلمْ تهذَّب قوِّ جسمك وعقلك انكر نفسك انهض الساقط ساعد المسكين ارشد الضال اقتفِ خطوات سقراط . سر في سبيل المسيح قد تقتل او تصلب ولكنك تلاقي حتفك مسروراً وتخلد اسمك . فأيهما تختار

[عن مقتطف نوفبر ١٩٢٥]

سر النبوغ في الادب

لمصطفى صادق الرافعي

لو ترجمنا الخاطرة التي تمرّ في ذهن الحيوان الذكي حين ينقاد في يد رجل ضعيف أبله يُصرّفُهُ ويُديرُهُ على أغراضه فنقلناها من فكر الحيوان إلى لغتنا وأديناها بمعنى مما بين الانسان والحيوان لكانت في العبارة هكذا : ما أنت أيها الابله فيما بيني وبين الحقيقة المدبرة للكون الاّ نبيّ مرسل صلى الله عليك وسلم ... ذلك ان التركيب الذي يَبِينُ به الانسان من الحيوان قد جعل دماغ هذا الحيوان خاتماً من الله دمغ به على خصائصهِ فأفرغه الله في جلده ووضع في رأسهِ ذلك القفل الالهي الذي حبسهُ في باب الاضطرار من غرائزه البهيمية واقفل به على الدنيا العقلية المتّسعةِ بينه وبين الانسان فالكون عنده لغوٌ كلّهُ ليس فيهِ الاّ حقائق يسيرة ثم لا تفسير لهذه الحقائق الاّ من طبيعتهِ هو، لجلده أدق تفسير فلكي... للشمس والنور والهواء وما يجيء منها وجوفهُ اصح تعبير جغرافي ... للكرة الارضية وما تحمل وجوعهُ وشبعهُ هما كل فلسفة الشر والخير في العالم

فأساس الذكاء عالياً ونازلاً هو التركيب الطبيعي لاغيره، لو زادت في الدماغ ذرة أو نقصت زادت للدنيا صورة أو نقصت فبالضرورة تكون هذه هي القاعدة فيما نرى من تباين حدّة الذكاء في أفراد كل نوع من الحيوان وما نشهد من ذلك في أحوال الناس من الفطنة الى الذكاء[1] إلى الالمعية إلى الجهبذة إلى النبوغ الى العبقرية وهي طبقات من ألفاظ اللغة لاحوال قائمةٍ من هذه المعاني ترجع إلى درجات ثابتةٍ في تركيب الدماغ

ومما يسجد له العقل الانساني سجدة طويلة . اذا هو تأمل في حكمة الله ومرّ يتصفح من أسرار ما نحن بسبيله من الكلام على النبوغ — ان هذا الوجود الذي يحمل اسرار الالوهية هو كرة متقاذفة في الفضاء الابدي وان الارض التي تحمل أسرار الانسانية هي كرة طائرة فيما مُدّ لها من الوجود وان كل حي فيها يحمل أسرار حياته في كرة خاصة به هي رأسه. وان الوجود من كل حي هو بعد ذلك ليس شيئاً في النظر ولا في الحس ولا في الفهم الاّ كما يُرى ويحسّ ويفهم في هذا الرأس بعينهِ على طريقته وتركيبه ، فيصعد التدريج الى الكبير الى الاكبر وينزل إلى الصغير الى الاصغر ثم لا معنى لما صعد الاّ مما نزل ، وبهذا ستكون آخرة جميع العلوم متى نفذ العلماء الى السر الحقيقي ان العقل الانساني فهم كل شيء ولم يفهم شيئاً . . . .

---

(١) عندنا ان الفطنة في اللغة دون الذكاء تقابل ما عند الحيوان من التنبه . والذكاء التوقد واللهبان

والناس يختلفون بتركيب أدمغتهم على شبيه من هذا التدريج . فأما واحد فيكون دماغه باعتباره من سائر الناس في الذكاء والعقل كالوجود المحيط وأما آخر فكالشمس ثم غيرها كالارض ثم الرابع كالانسان ثم يكون منهم كالحيوان ومنهم كالحشرة ، ولا علة لكل هذا الا ما هيأت الاقدار « بأسبابها الكثيرة » لكل انسان في تركيب دماغه في نوع المادة السنجابية من المخ ، وأحوال التركيب في الملايين من الخلايا العصبية ،وما لا يعد من فروع هذه الخلايا وشُعبها ، ثم ما يكون من قبل العلاقات بين هذه الفروع التي هي لكل رأس كرمل الكرة الارضية ، ثم اختلاف مقادير المواد الكيماوية التي تتخلق في غدد الجسم وتنفثها الغدد في الدم

فقد يكون العمل النابغ المتمرد على العقول آتياً من قطرة في هذه الغدد كما ينبعث العملاق المارد بعظامهِ الممتدة والواحه المشبوحة من غدتهِ النخامية لا غيرها

فالذكي من ذكيّ مثله انما هو كالجيش من جيش بازائه يقع الاختلاف بينهما فيما اشتملا عليه من كثرة الجند وصفاتهم من القوة والضعف واحوالهم من النظام والاختلال وقوة آلاتهم ومقدارها ونوع الاختراع فيها ثم طبيعة موضعهم وحسن توجيههم وقيادتهم وما اكتنفهم من صعب أو سهل وما تظاهر عليهم من الحوادث والاقدار ثم التوفيق الذي لا حيلة فيهِ ان وقع في حصة احدها واستقر أو وقع هوناً وطار للآخر . وبنحوٍ من هذا كله تكون المفاضلة اذا وازنت بين اثنين من النوابغ في حقيقة نبوغهما

فالنابغة خَلقٌ من خالقهِ يصنع كما ترى بأقدار الله اذ هو قـدر على قومهِ وعلى عصره وهو من الناس كالورقة الرابحة من ورق السحب (اليانصيب) ، سلَّةُ يدٍ جعلتها مالاً وتركت الباقيات ورقاً وأحدثت بينهما الفرق الذهبي، وبهذا لا يستطيع العالم ان يزيد الدنيا نابغة الاَّ اذا استطاع ان يزيد في الكواكب نجماً فيصنعهُ . وهبهُ صنعهُ من الكهرباء فيبقى ان يحمله واذا حملهُ بقي ان يرفعهُ الى السموات وهبهُ قد رفعهُ فيبقى كل شيء . . . يبقى عليهِ ان يقحمهُ في النجوم ويرسله فيها يدور ويتفلَّك

وكما يخلق النابغة بتركيبه تخلق لهُ الاحوال الملائمة لعمله الذي خص به في أسرار التقدير عاملاً نافعاً وان كانت لا تلائمه هو منتفعاً فانه هو غير مقصود الا من حيث انه وسيلة أو آلة تكابد ما تحتمل في أعمالها ويؤتَّى لها لتأخذ على طريقة وتعطي على طريقة ، وبذلك يرجع التقدير الى ان يكون العقل النابغة دليلاً للناس من الناس انفسهم على الخالق الذي هو وحده أمره الامر

واذا كان الجمال يستعلن في كلام هؤلاء النوابغ والخيال يظهر في تعبيرهم والحكمة تهبط الى الدنيا في تفكيرهم والمثل الاعلى هم الداعون اليهِ والاشواق النفسية هم موقظوها والعواطف هم المصورون لها وسرور الحياة هم الذين حولوه إلى الفن . إذا كان هذا كله فهذا كله انما هو توكيد لاتصالهم بالقوة الازلية المدبرة وأنهم أدواتها في هذه المعاني فما هي أعمالهم اكثر مما هي أعمالها وقد يظن الناس ان النابغة يلتمس القوى المحيطة بهِ ليبدع منها والحقيقة انها هي تلتمسه لتبدع بهِ

وبعدُ فالنابغة كأنه انسان من الفلك فهو يخزن الاشعة العقلية ويُسريقها وفي يده الانوار والظلال والالوان يعمل بها عمل الفجر كلما أظلمت على الناس معاني الحياة ، ولا تزال الحكمة تلقي اليهِ الفكرة الجميلة ليعطيها هو صورة فكرتها وتوحي اليهِ معني الحق ليؤتيها هو معنى جمال الحق . والطبيعة خلقها الله وحده ولكنها ليست معقولةً الاّ بالعلم وليست جميلة الا بالشعر وليست محبوبةً الاّ بالفن ، فالنوابغ في هذا كله هم شروح وتفاسير حول كلمات الله ، وكلهم يشعر بالوجود فنـًا كاملاً ويشعر بنفسه شرحاً لاشياء من هذا الفن ويرى معاني الطبيعة كأنما تأتيهِ تلتمس في كتابتهِ وشعره حياة أكبر وأوسع مما هي فيه من حقائقها المحدودة ، وتتعرض له أحزان الانسانية تسأله ان يصحح الرأي فيها باستخراج معناها الخيالي الجميل فانها وان كانت آلاماً وأحزاناً الاّ ان معناها الخيالي هو سرور تحمله للناس اذ كان من طبيعة النفس البشرية ان تسكن إلى وصف آلامها وفلسفة حكمتها حين تبدو بصائرها حاملة أثرها الالهي كأن المؤلم ليس هو الألم وانما هو جهل سره

وبالجملة فالكون يختار في كل شيء مفسره العبقري ليكشف من غموضهِ ويزيد فيهِ أيضاً . . . . ثم ليؤتي الناسَ المثل الأعلى من المعنى على يد المثل الاعلى من الفكر . ولهذا تصيب الكلام الذي يكتبه النابغة الملهَم في أوقات التجلي عليه كأنه كلام صوَّر نفسهُ وصاغها او كأنه قطعة من الحس قد جَمَدَتْ في أسطر ، ولابد ان تشعرك الجملة أنها قذفت وحياً إذ لا تجدها الاّ وكأن في كلماتها روحاً يرتعش . ولقد يخطر لي واما أقرأ بعض المعاني الجميلة لذهن من الاذهان الملهَمة كشكسبير والمتنبي وغيرهما حين أتأمل اختراع المعنى وأبداع سياقه وضُحى البيان عليه واشراقهُ فيه وما أتيح له من جلال ظاهر في شكل حي يلمح بسرهِ في النفس — يخيل اليَّ من ذلك ان سر الطبيعة القادر يعمل عمله أحياناً بذهن انساني ليخلق تعبيراً عن جلالهِ في مثل جلاله

وأنت فلو أخذت معنى من هذه المعاني الآتية من الالهام وأجريتهُ في كتابة كاتب أو شعر شاعر من الذين ليس لهم الاّ أذهانهم يكدونها وكتبهم يجعلونها أذهانهم أحياناً . . . . لرأيت الفرق بين شيء وشيء في أحسن ما انت واجده لهم على نحو ما ترى بين زهرة حريرية جاءت من عمل الانسان بالابرة والخيط وزهرة أخرى قد انبثقت عطرة ناضرة في غصنها الاخضر من عمل الحياة بالسماء والارض

والعبقري هو أبداً وراء ما لاينتهي من جمالٍ أولهُ في نفسهِ وآخره في الجمال الأقدس الذي مسح على هذه النفس الجميلة السامية . فما دام فيهِ سر العبقرية فهو دائب يعمل ممزقاً حياته في سبحات النور تمزيقاً يجتمع منهُ أدبهُ وما أدبه الاّ صورة حياته ، وهو كلما أبدع شيئاً طلب الذي هو أبدعُ منه فلا يزال متألماً إن عمل لان طبيعته لا تقف عند غاية من عملهِ ومتألماً إن لم يعمل لان تلك الطبيعة بعينها لا تهدأ الاّ في عمل . وهي طبيعة متمردة بذلك الجمال

الاقدس تمرد العشق في حامله إذ هما صورتان لامر واحد كما سنشير اليه . فكلُّ ما تجده في نفس العاشق المتدله مما يترامى به الى جنونهِ وهلاكه تجد شبهاً منه في نفس العبقري فكلاهما قانونهُ من طبيعته وحدها إذ قد اتخذت حياتهُ شكلها الفني من ذوقه هو وحده فليس يتبع طريقة أحد بل هو طريقة نفسه[1] ، وكلاهما مسترسل أبداً إلى جمال مستفيض على روحه يتقلب فيها باللذة والألم يرجع اليهِ ويستمدُّ منهُ. وكلاهما لا يجد المعنى الجميل في الطبيعة معنىً بل رسولاً من الجمال أُرسل اليهِ وحده ولا يزال يشعر في كل وقت أن لهُ رسائل ورُسُلاً هو بمدُ في انتظارها . وكلاهما متى ظفر بشيءٍ من مصدر الجمال انتهى من شدة فرحه الى الظن انهُ ربح من الكون ربحاً لم يكن لهُ من قبل . وكلاهما متهالك بين قيود الحياة التي في الحياة والواقع وبين حريتها التي في خياله وأمله كأنْ عليهِ في سبيل هذه الحرية أن يقطع الليل والنهار لا قيداً من قيود الاجتماع او العيش. وكلاهما متصلٌ بقوة غيبية وراء ما يُرى وما يحسُّ تجعل نظرته في الاشياء خاضعةً لقانون النظرة العاشقة في العينين الساحرتين المعشوقتين ، فاذا مدَّ عينيهِ في شيءٍ جميل فهناك سؤال وجوابهُ ووحيٌ وترجمتهُ ومرور من يقظة الى حلم وانتقال من حقيقة الى خيال

غير أن طبيعة العبقري تزيد على كل ذلك ألماً تنفرد بهِ لا تستقرُّ معهُ على رضا ولا ينبرحُ يُسلِّط الإعناتَ عليها ويستغرقها بالهموم السامية وذلك ألم الكمال الفني الذي لا يدرك العبقري غايته عند نفسه وان كان عند الناس قد أدرك غايات وغايات . فطبيعة كل عبقري تجهد جهدها في العمل لتُخرج بهِ مما يستطيعهُ الناس فاذا تأتّى صاحبها لذلك وكابد فيهِ وأدرك منهُ وبلغ وأعجز اندفعت طبيعتهُ الى الخروج مما يستطيع هو .... كأنهُ خارجٌ عن الطبيعة وداخل في الطبيعة في وقت معاً وكانهُ نفسُهُ وفوق نفسه في حال، وهذا سرُّ حريتهِ وسموه كما انهُ سرُّ ألمهِ وحَيْرته

ومن أثر ذلك ما تحسُّهُ أنت اذا قرأت للاديب البليغ التامّ صاحب الفكر والاسلوب والذهن الملهَم فانك تقف على المعنى من معانيهِ يملأ نفسك ويتمدَّد فيها ويهتزُّ بها طرباً

---

(١) لا وجه عندنا لما استعمله بعض الكتاب في الادب من قولهم مدرسة امرىء القيس ومدرسة النابغة ونحو ذلك ترجمة حرفية لقول الاوربيين مدرسة فلان ومدرسة فلان فان الادب ان كان تقليداً فهو ادب منحط لا يجعل مدرسة يحتذى عليها ويتخرج بها وان كان ابداعاً فليس الابداع مدرسة تكون بالتعليم والتلقين ويتخرج بها الواحد والمائة والالف على طراز لا يختلف . انما تنطبق هذه الكلمة على المذاهب المستقرة في الفنون التعليمية وهي هذا لا تطلق في الادب العربي الا على فئتين فقط هما البصريون والكوفيون على ان كلمة مذهب هي المستعملة في هذا وهي اسد منها اذ يدل المذهب على منحى اختاره الرأي وذهب اليه فكأنه عن تحقيق في صاحبه وتابعيه . اما تسمية مجموعة الالهامات التي مرت في ذهن نابغة من النوابغ بالمدرسة فتسمية مضحكة باردة اذ الالهام بصيرة محضة وما هو مما يقلد وقلما تشابه ذهنان على الارض في عناصر التكوين التي يأتي منها النبوغ . وقد قال علماؤنا طريقة فلان وطريقة فلان فالطريقة هي الكلمة الصحيحة لان عليها ظاهر العمل واسلوبه يتوجه بها من يتوجه ويقلد فيها من يقلد اما سر العمل فهو سر العامل ايضاً وهو شيء في الروح والبصيرة . وهو في العبقري امر لا يستطيعه انسان وشذ في انسان بخصوصه

واعجاباً فتقول لا أحسنَ من هذا ثم تؤمل مع ذلك ان تجد منهُ هو أحسن من هذا . . . . كانهُ وإن تناهى الى الغاية لا يزال عندك فوق الغاية. وهذا غريبٌ ولكن لا دليل على العبقرية الاّ الغرابة دائماً فهي نظامٌ لا نظامَ فيهِ لانها طريقةٌ لا طريقة لها . وبهذه الغرابة جاءت العبقرية كلها أمثلةً وليس فيها قواعد يُحتذى عليها ولا هدايةَ فيها الاّ من الروح واذا كان الفنّ قدرةً متصرفةً في الجمال فالعبقرية قدرة متصرفةٌ في الفن ، والنابغة كالمتكيّس[1] الذي معهُ قوى العقل ويريد أن يزداد على قدرهِ منها ولكنَّ العبقريَّ كالالهيّ الذي معهُ قوى الروح ويريد ان يزيد الناس على قدرهم بها ، وذاك مرجعهُ الفكر الدقيق الباحث وهذا مناطه البصيرة الشفّافة النافذة وهي اغرب الغرائب في الانسان إذ هي الجهةُ المطلقة في هذا المخلوق المقيَّد وبها تتسع النفس لادراك المطلق الظاهر من خلال الموجودات وفيها تتحول الاشياء من نظام الحاسَّة الى نظام الروح فيُسمعُ المرئيُّ ويبْصر المسموعُ وتخلع الاجسام انغاماً وتلبس الاصواتُ اشكالاً ويبدو عندها كل مخلوق وكأن فيهِ بقية زائدة على خلقه تُركت ليعمل فيها الكاتب او الشاعر المحدَّث[2] عمل فنه الزائد على الطبيعة بالحاسة الزائدة على ذهنه وهي التي نسميها الإلهام

وهذه الحاسة هي كذلك من بعض الغرابة تكون في صاحبها الموهوب كما تكون حاسة الاتجاه في الطيور التي تقطعُ في جو السماء الى غاياتها البعيدة من قطب الارض الى قطبها الآخر بغير دليل تحمله ولا رسم تنظر فيهِ ولا علم ترجع اليهِ ، وكما تكون حاسة التمييز في النحل الذي يبني عسَلَتَهُ على هندسة ليست من كتاب ولا مدرسة ، وحاسةُ التدبير في النمل الذي يدبّر مملكتهُ بغير علوم الممالك وسياستها . وكثيراً ما يجيء الاديب الملهم من حقائق الفكر وبيانه وأسرار الطبائع واوصافها بما يغطي على فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء ، ومثل هذا العبقري هو عندي فوق العلم لا أقول بدرجة ولكن بحاسة

وبالالهام يكون لكل عبقري ذهنهُ الذي معهُ وذهنهُ الذي ليس معهُ اذ كانت له من وراء خياله قوةٌ غير منظورة ليست فيهِ ومع ذلك تعمل كما تعمل الاعضاء في جسمه هيّنةً منقادةً كأنها تتصرف على اطّراد العادة بلا فكر ولا روية ولا عسر ما دامت تتجلّى عليهِ

وليست تتصل هذه القوة الاّ بتركيب عصبي تكون فيهِ الخصائص التي تصلح أن تتلقى عنها وهي في العبقريين خصائص مَرْضية في الاعم الاغلب بل لعلها كذلك دائماً ليتيسر بها

---

(١) من الكيس وهو العقل فيكون عاقلا ويريد ان يزداد على مقداره (٢) هذه هي الكلمة القديمة التي تقابل ما نسميه العبقري بلغة عصرنا كأن الاشياء تحدثه باسرارها او تحدثه بها قوة أعلى من القوى الانسانية واذا كان محدثاً فمعنى ذلك انه ينطق عن سمع من الغيب. ومن ذلك ما زعم العرب من ان لكل شاعر شيطاناً ينفث على لسانه وهو وصف دقيق للعبقرية الا انه باللغة الجاهلية وقد صححه النبي صلى الله عليه وسلم فقال لشاعره حسان : قل وروح القدس معك . وفي كلمة « روح القدس » . تنطوي فلسفة العبقرية كلها

مبقريٌّ لحالة خفيفة من الموت .... يحمل بها كدَّه وتعبه وما يعانيهِ من مضض الفكر وثقلته ، ثم لتكون هذه الحالة كالتقريب بين عالم الشهادة فيهِ وبين عالم الغيب منهُ . فالتركيب العصبي في دماغ العبقري انسان على حياله مع انسان آخر ، أحدهما لما في الطبيعة والثاني لما وراء الطبيعة ، ومن ثمَّ كان الرجل من هذه الفئة كالمصباح يتقد وينطفىء لانهُ آلة نور تعرض لها العلل فتذهب بقدرتها عليهِ ، وتنضب مادة النور منها فكذلك لا تقدر عليهِ ، وتكون مضيئة فتنطفىء بسبب ليس منها ولا من نورها وهي على كل هذه الاحوال لا تملك منها حالة . فبينما العبقري الذي يملأ الدنيا من آثاره النابغة تراه في حالة من أحواله يدأب لا يأتلي فيجدّ في العمل ويبذل الوسع فيهِ ويصبر على مطاولة التعب في إحكامه ويفيض بهِ فيضاً وكأن في طبيعتهِ الربيع المتفتح طول ايامه بالجمال اذا هو في حالة اخرى يتلكأ ويتربص لا يعمل شيئاً كأنما دخل في قريحته الشتاء ، وفي ثالثة يتباطأ ويتلبث فلا يعنُّ له جديد كانما حبس عنهُ فكره أو نبا طبعهُ أو هو في قيظ طبيعتهِ وخمولها وضجرها ثم لا تمضي على ذلك الاَّ تورَّة وساعة فاذا على صيفهِ هو انوفبر وديسمبر... واذا هو منبعث ملء القوة والنشاط . وربما يأخذ في غرض من الكتابة قد رسم له المعنى وهيأ له المادة فلايكاد يمضي لنحوٍ منهُ حتى تتناسخ في ذهنه المعاني فاذا هو يكتب ما لا يشبه ما كان ابتدأ بهِ ويأتيه غير ما كان قد أراده كأنما يُلقَى عليهِ فهو يستملي. وقد يبتدئ معنى ثم يُقطَع عنهُ بطارىءٍ من عمل او حديث ثم يُعاودهُ فاذا معنى آخر واذا جهةٌ من الفكر هي جهة الابداع والاختراع في موضوعهِ واذا هو انما كان يُجرُّ بذلك الصارف عن معناهُ الاول جرّاً ليدعهُ الى الاكمل والاصح ، وأيقن انهُ لو كان استوفى على ما بدأ لأسفَّ وضعف وجاء بما غيره أقدرُ عليهِ كأن هذه القوة الخفية التي تلهمهُ تنقّح لهُ ايضاً بأساليبها الغريبة . وقد يكون آخذاً في عمله ماضياً على طبعه مسترسلاً الى ما ينكشف له من أسرار المعاني ثَـقِفاً من هنا لَقِـفاً من هناك[1] ثم ينظر فاذا هو قد مُسِح لوح خياله ويطلب المعنى فلا يتاح له ويتمادى فلا يزيد الا كدّاً وعسراً كأنما ذهب إلهامه في غمْضٍ من غُموض الابدية[2] وكل من ارتاض بصناعة الفكر واستحكمت له عادتها ومرَّ في درجاتها حتى بلغ المكانة التي يستشرف منها للإلهام ويتعرض فيها بروحه وبصيرته لنبَضات الوحي وانكشافات الغيب يعلم ان كل معنى بديع يأتي بهِ في صناعته انما يقع له إلهاماً من ذلك المعنى الحي المتمدد في

---

(١) يقال هو ثقف لقف اي سريع الفهم لما يلقى اليه ولكنا استعملناه كما ترى لجاء أشد تمكناً من اصله

(٢) قالوا كان الفرزدق وهو فحل مضر في زمانه يقول : تمر علي الساعة وقلع ضرس من اضراسي اهون علي من عمل بيت من الشعر . وذكروا انه كان من عمله اذا استصعب الشعر عليه أن يركب ناقته ويطوف وحده خالياً منفرداً في شعاب الجبال وبطون الاودية فينقاد له الكلام . وأخبارهم كثيرة في الطرق التي يستعان بها على الشعر ويجتلب بها نافره ، والحقيقة انها علل من النفس تعارض حالة الالهام الى أن تزول وتصفو النفس منها أو أسباب تتفق ولا تلهم شيئاً الى أن تتغير باسباب ملهمة

الكائنات كلها ظاهراً في شيء منها بالضوء وفي أشياء بالالوان وفي بعضها بالحركة وفي بعضها بالانسجام وفي بعضها بالروعة والفخامة وفي غيرها بنِسْبَة الهيئة وظاهراً في حالات كثيرة بانهُ غير ظاهر ، ويعرف كذلك أن هذا المعنى الشامل الذي لايحد هو الذي ينقل الوجودَ كله الى نفوس النوابغ[1] متى نبض في هذه النفوس الرقيقة وأشعرها سرَّه. واذا همَّ النابغة أن يتوضحه لا يرى شيئاً واذا اراد حجة عليه لم يستطع الجلاء عن بيانه بكلمة واذا التمس التعريف به لم يجد الا ما يشهد له إحساسه وقلبه . وهذا الذي ينقدح في أذهان النوابغ أفكاراً حين يفيضُ لكل منهم بسببٍ من قراءة او مشاهدةٍ او حالةٍ او مِراسٍ ، هو هو بعينه الذي ينقدح عشقاً في قلوب المحبين حين يتراءى لكل منهم في معنى على وجه جميل ، ومن ثم كان النابغة في الادب لا يتم تمامهُ الا اذا أحب وعشق وكان الادب نفسه في تحصيل حقيقته الفلسفية ليس شيئاً سوى صناعة جمال الفكر

وهذا العمل في ذلك الجهاز العصبي الخاص به في بعض الادمغة هو الذي كان يسميه علماء الادب العربي بالتوليد وقد عرفوا أثره ولكنهم لم يتنبهوا الى حقيقته ولا ادركوا من سره شيئاً واحسن ما قرأناه فيه قول ابن رشيق في كتاب العمدة : انما سمي الشاعر شاعراً لانهُ يشعر بما لا يشعر به غيره فاذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، او استطراف لفظ وابتداعه ، او زيادة فيما اجحف فيه غيره من المعاني او نقص مما اطاله سواه من الالفاظ او اصرفُ معنى الى وجه عن وجه آخر كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ولم يكن له الا فضل الوزن. هذا كلام ابن رشيق وليس لهم احسن منهُ وهو مع ذلك تخليط لا قيمة لهُ وليس فيه من موضوعنا الا لفظ التوليد

ومما لا نقضي منهُ عجباً في تتبع فلسفة هذه اللغة العربية العجيبة اننا نرى اكثر الفاظها كالتامة لا ينقصها شيءٌ من دقائق المعنى في اصل وضعها على حين لا يفهم علماؤها من هذه الالفاظ الا بعض ما تدل عليه كانها منزلةٌ تنزيلاً ممن يعلم السر وقد نبهنا الى هذا في كتابنا (تاريخ آداب العرب) وافضنا فيه واستوفينا هناك من فلسفته. وجاء القرآن الكريم من هذا بالعجائب التي تفوت العقل حتى ان اكثر الفاظه لتكاد تكون مختومة نزلت كذلك لتفضَّ العلوم والفلسفة خواتمها في عصور آتية لا ريب فيها[2]. وكلمة التوليد التي لم يفهم منها العلماء الا اخذ معنى من معنى غيره بطريقة من طرق الاخذ التي اشاروا اليها في كتب الادب — هي الكلمة التي لا يخرج عنها شيء من اسرار النبوغ ولا تجد ما يسدُّ في ذلك مسدَّها او يحيط احاطتها ولا نظن في لغة من اللغات ما يشبهها في هذه الدلالة واستيعابها كل اسرار المعنى اذ هي بلفظها نصٌّ على حياة الكون في الذهن الانساني وانهُ يتخذه وسيلة لابداع معانيه كما يتخذ سرُّ الحياة بطن

(١) هناك فرق علمي بين ما يسمى نبوغاً وما يسمى عبقرية ولكنا في هذا الفصل اطلقنا الكلام وقيدنا في مواضع بخصوصها ، ويكاد الفرق بين النابغة والعبقري في جماع امره أن يكون كالفرق بين التلغراف الذي طريقه مادة السلك وبين الآخر الذي طريقه روح الجو . فكلاهما هو الآخر ولكن احدهما لابد له من طريق مسلوك والآخر طريقه كل الطرق أي فوق أن يقيد بطريقة

(٢) على هذا المعنى وكشف اسراره في آيات القرآن سيبنى كتابنا الجديد «اسرار الاعجاز»

ثم وسيلة لابداع موجوداته ، وان المعاني تتلاقح فيلد بعضها بعضاً في اسلوب من الحياة ان هذه هي وحدها الطريقة لتطور الفكر واخراج سُلالاتٍ من المعاني بعضها اجمل من بعض كما يكون مثل ذلك في النسل بوسائل التلقيح من الدماء المختلفة ، وان النبوغ ليس شيئاً الاّ التركيب العصبي الخاص في الذهن ثم نمو هذا التركيب مع الحياة في طريقةٍ سواء هي وطريقة الولادة الحيية التي مرجعها كذلك الى تركيب خاص في احشاء الانثى ينمو ثم يدرك ثم يعمل عمله المعجز . واذا كان من كل شيء في الطبيعة زوجان فالكلمة نصٌّ على ان اذهان النوابغ اذهان مؤنثة في طباعها التي بنيت عليها ، وهذا صحيح اذ هي اقوى الاذهان على الارض في الحسّ بالآلام والمسرات ، ومعاني الدموع والابتسام اسرع اليها من غيرها بل هي طبيعة فيها . وهي وحدها المبدعة للجمال والمنشئة للذوق وعملها في ذلك هو قانون وجودها ، ثم هي قائمة على الاحتمال والاعطاء والرضا بالحرمان في سبيل ذلك وادمان الصبر على التعب والدقة والاهتمام بالتفاصيل وأساسها الحب ، وكل ذلك من طباع الانثى وهي النابغة فيهِ بل هي النابغة بهِ

فسر النبوغ في الادب وفي غيره هو التوليد وسر التوليد في نضج الذهن المهيأ بأدواته العصبية المتجه الى المجهول ومعانيه كما تتجه كل آلات المرصد الفلكي الى السماء واجرامها . وبذلك العنصر الذهني يزيد النابغة على غيره كما يزيد الماس على الزجاج والجوهر على الحجر والفولاذ على الحديد والذهب على النحاس ، فهذه كلها نبغت نبوغها بالتوليد في سر تركيبها ويتفاوت النوابغ انفسهم في قوة هذه الملكة فبعضهم فيها اكمل من بعض وتمدُّ لهم في الخلاف احوال ازمانهم ومعايشهم وحوادثهم ونحوها ، وبهذه المباينة تجتمع لكل منهم شخصية وتتسق له طريقة وبذلك تتنوع الاساليب ويعاد الكلام غيرما كان في نفسه وتتجدد الدنيا بمعانيها في ذهن كل اديب يفهم الدنيا وتتخذ الاشياء الجارية في العادة غرابة ليست في العادة ويرجع الحقيقيُّ اكثر من حقيقته

وقد سئل مصور مبدع بماذا يمزج الوانهُ فتأتي ولها اشراقها وجمالها ونبوغ معانيها وزهو الحياة بها في الصورة فقال : انما امزجها بمخي . وهذا هذا فان الالوان عند الناس جميعاً ولكن مخه عنده وحده وله تركيبه الخاص بهِ وحده وسر الصناعة في توليد هذا الدماغ فكأنّ الوانه في صناعته جاءت منه بخصوصه ، وكذلك كل ما يتناولهُ العبقري فانك لتجد الشعر في وزن خاص بهِ يدل عليه ويتمم الغرض منهُ ويضيف الى معانيه أنقاً من الجمال وحسنه والى صوته نغماً من الموسيقى وطربها . فما اشبه الجهاز العصبي في دماغ كل نابغة ان يكون وزناً شعريًّا لهذا النابغة بخاصته . الا ترى انك لا تقرأ الاديب الحق الاّ وجدتَ كل ما يكتبهُ يجيء في وزن خاص بهِ حتى لا يخرج عنهُ مرة او تزيد انت فيهِ وتنقص الاّ ظهر لك انهُ مكسور ...؟

والذهنُ العبقريُّ لا يتخذ المعاني موضوع بحث ونظر وتعقُّب يستخرج منها او يتعلق عليها فهذا عمل الذهن الذكي وحده وهو غاية الغايات فيهِ يبحث وينظر ويتصفح ويجمع من هنا

ويأخذ من ثمّ ويعترض ويصحح ويأتيك بالمقالة يحسب فيها كل شيء وما فيها الاّ اشياؤه هو وأمثاله . اما الذهن العبقري فليس له من المعاني الاّ مادة عمل فلا تكاد تلابسه حتى تتحول فيه وتنمو وتتنوَّع وتتساقط له اشكالاً وصوراً في مثل خطرات البرق، وربما غمر بالمعنى الواحد في جماله وسموه وقوة تأثيره مقالاتٍ عدة لاولئك الاذكياء فنسخها نسخاً وجعلها منهُ كالشموع الموقدة بازاء الشمس . فاذا ذهبت توازن بين مثل هذا المعنى ومثل هذه المقالات في الروعة والجلال ورأيت عربدة المقالة وغرورها لم تستطع الاّ ان تقول لها : يا حصاة الميزان في احدى كفتيه ألا يكفيك الجبل في الكفة الاخرى .... ؟

وقد عرف الادباء جميعاً ان كاتب فرنسا العظيم اناتول فرانس كان يكتب الجملة ثم ينقحها ثم يهذبها ثم يعيدها ثم يرجع فيها وهكذا خمس مرات الى ثمان ويقدّم ويؤخر من موضع الى موضع ويحتسبون هذا تحكيكاً وتهذيباً وما هو منها في شيء ولا احسب الاوربيين انفسهم تنبهوا الى سر هذه الطريقة وانما سرها من جهاز التوليد في رأس ذلك الكاتب العظيم فاذا قرأ كتابة حوّلها فكره وابدع له منها من غير ان يعمل في ذلك او يتكلف له الاّ ما يتكلف من يهز اليهِ بجذع الشجرة لتساقط عليه ثمراً ناضجاً حلواً جنيًّا. فكلما قرأ ولّد ذهنه فيثبت ما يأتيه فلا تزال صورة تخرج من صورة حتى يجيء المعنى في النهاية وانهُ لأغرب الغرائب لا يكاد العقل يهتدي الى طريقته وسياق الفكر فيهِ اذ كان لم يأت الاّ محولاً عن وجههِ مرات لامرة واحدة

فجهاز التوليد متى استمر واستحكم في انسان اصبح له بمقام ملك الوحي من النبي وهو عندنا دليل من اقوى الادلة على صحة النبوة وحدوث الوحي وامكانهُ اذ لا تتصرف بهِ الاّ قوة غيبية لا عمل للانسان فيها بل هي تبدع ابداعها وتلقي عليهِ القاءً . وليس كل من تعرض لها ادرك منها ولا كل من ادرك منها بلغ بها بل لا بدّ لها من الجهاز العصبي المحكم كجهاز اللاسلكي الدقيق المصنوع لتلقي ابعد الامواج الكهربائية واقواها . وهذه القوة ان ارادت معاني الجمال اخرجت الشاعر وان ارادت كشف السر عن الاشياء اخرجت الاديب وان ارادت حقائق الوجود اخرجت الحكيم . فان كان الامر اكبر من هذا كله وكان امر تغيير الحياة وصبّ ازمانٍ جديدة للانسانية والوثوب بهذه الدنيا درجة او درجات في الرقي فهنا تكون الوسيلة اكبر من البصيرة فليس لها من قوة الغيب الاّ الوحي ويكون الغرض اكبر من الشاعر والاديب والحكيم فلا يختار الاّ النبي ثم لا يوحى اليهِ الاّ وهو في حسٍ لساعة الوحي وحدها وهي ساعة ليست من الزمن بل من الروح المنصرف عن الزمن وما فيه ليتلقى عن روح الخلد ، وقريب من ذلك خلوة النابغة بنفسه في ساعة التوليد . فسر النبوغ من سرّ الوحي لا ريب في ذلك، وما اسهل سرّ الوحي وأيسرَ أمرَهُ ولكن في الانبياء وحدهم وهنا كل الصعوبة...

« ان نكون او لا نكون هذه هي المسألة »

كان الكون ذرة وانفجرت

نظرية الاب ليمتر في اصل الكون

— ١ —

كل الشموس والسيارات والاقمار نشأت من ذرة ضخمة على اثر انفجارها وتمزقها بهذا تلخّص نظرية الاب ليمتر Lemaitre في أصل الكون . وهي من اغرب النظريات العلمية الحديثة وابعثها على الدهشة . وقد عني بها علماء الفلك والرياضة في انحاء العالم ، لانها على غرابتها ، تفسر كثيراً من الحقائق المشاهدة التي حار العلماء في تعليلها

ويرى الاب ليمتر ان مادة الكون كلها كانت محشوكة في ذرة ضخمة ظلت ساكنة مستقرة الى قبل عشرة آلاف مليون سنة . ثم انفجرت فجأة كما ينطلق صاروخ من الصواريخ النارية في حفلة وفاء النيل . فانتثرت منهُ الشموس التي يتألف منها الكون

اما كيف تنفجر بعض الذرات فيستجلى في التجربة الآتية : — خذ ساعة ارقام مينائها مصنوعة من مادة فصفورية ، واذهب الى غرفة مظلمة ، وانظر الى الارقام الفصفورية بعدسة مكبرة تر الشرر الناري منطلقاً منها. واذ انت تشاهد هذا الشرر المتطاير تذكر ان كل شرارة تنطلق من ذرة منفجرة . وفي كل ذرة منفجرة ترى صورة مصغرة لنظرية الاب ليمتر

والمسلَّم بهِ ان ذرة الراديوم تبقى نحو ١٧٣٠ سنة ساكنة هاجعة ثم تنفجر فتنطلق منها الدقائق كما انفجرت ذرة الكون الاصلية وانطلقت منها الشموس

وهذه النظرية تعلل لنا ظاهرة من اغرب الظاهرات العلمية وهي ظاهرة الكون الآخذ في الاتساع أو التمدد Expanding Universe . فالتلسكوبات الكبيرة تبين ان في رحاب الكون ملايين من السدم العدسية الشكل خارج المجرة . والذي عليهِ العلماء الآن ان المجرة نفسها سديم من هذا القبيل وان شمسنا واحدة من الوف الوف الشمس التي تتألف المجرة من مجموعها. واحد هذه السدم — سديم CanesVentici — يبعد عن المجرة بعداً عظيماً فلا يصل ضوءه الينا الاّ بعد مسير مليون سنة بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية ! واغرب من ذلك ان الارصاد تدل على ان هذا السديم يزداد بعداً عنا ثانية فثانية وان سرعة ابتعاده عنا تبلغ ١٧٠ ميلاً في الثانية

وثمة عدا السُدُم الكبيرة اللامعة سُدُم تبدو لنا صغيرة ضئيلة النور لبُعدها تحصى بالوف الالوف . وعلماء الفلك يجوبون رحاب الفضاء بنظاراتهم والواحهم الفوتغرافية الى بعد

مائة مليون سنة ضوئية لكي يحصوها على قدر الطاقة. والشيء العجيب الذي استرعى انتباههم ليس عدد السُدُم الذي يبلغ الملايين بل ان السُدُم البعيدة اسرع ابتعاداً عنا من السدم القريبة. وقد قيست سرعة احدها فاذا هي نحو ١٢ الف ميل في الثانية

فسأل الفلكيون « ما السرّ في ان سرعة السدم البعيدة اعظم من سرعة السُدُم القريبة ولماذا يبدو لنا ان هذه السُدُم تبتعد عنا نحن، واذا كان هذا الابتعاد ناتجاً عن اتساع الكون وتمدّده فلماذا يبدو لنا اننا في المركز وان كلّ ما حولنا يبتعد عنا؟ »

— ٢ —

ان دعاة نظرية النسبية يميلون الآن الى الأخذ بان الكون آخذٌ في التمدّد. ولكنهم يعتقدون ان ما يبدو لنا من ان الارض في مركز الكون المتمدّد ليس الاّ وهماً بصريًّا

ويضربون لذلك المثلَ الآتي: — لنفترض ان كرة الارض تمدّدت في ذات ليلة حتى اصبحت ضعف ما هي قطراً ومحيطاً وابعاداً بين الاجسام التي على سطحها. في حين ان احجام الاجسام التي على سطحها ظلت هي هي. فاذا استيقظتَ في الصباح وجدت جارك الذي كان يقطن على خمسين متراً منك اصبح يقطن على مائة متر. وصديقك الذي كان يقطن في قرية تبعد ميلاً عنك اصبح يبعد ميلين. وهكذا تجد ان نسبة الاتساع تزداد بازدياد البعد عنك. وكل احد غيرك يرى ما ترى انت ويحسب نفسهُ المركز الذي بعدت عنهُ الاجسام التي على سطح الارض

يقولون: وتمدُّد الكون من هذا القبيل الاّ انهُ يقع في عالم ذي ثلاثة ابعادٍ فلا يمكن تصوّرهُ. ولكن ظاهرات التمدّد في الحالين متقابلة. فالسُدُم لا تفرُّ منّا. وانما ابتعادها سببهُ تمدُّد الكون. وقد يبدو للقارىء ان هذا التمييز لا يعدو ان يكون جدلاً يدور حول الالفاظ فقط. ولكن الفرق لازم لفهم المسألة. فاصحاب النظرية النسبية يرون فرقاً بين ابتعاد السدُم نفسها وبين اتساع الفضاء الذي هي منثورة في رحابهِ

ولكن هذا الفرض يقوم عليهِ اعتراض. فان سرعة التمدُّد عظيمة جدًّا. فاذا رجعنا بالكون من حالتهِ الراهنة الى ما كان عليهِ من عشرة آلاف مليون سنة، وجدناهُ والنجوم مزدحمة فيهِ ازدحام ساحة من الساحات العامة بالسيَّارات في ايام الاعياد. وقد يبدو ان مدى عشرة آلاف مليون سنة مدى طويل جدًّا. ولكن الجولوجيين يقولون ان عمر الارض لا يقلُّ عن الف مليون سنة. واذاً فالزمن المنقضي بين الكون في حالة ازدحامهِ بالنجوم وزمن نشوء الارض والكون الى ما هما عليهِ الآن لا يكفي لحدوث كلّ التطورات الكونية التي افضت الى نشوء الارض. وهذا منشأ الاعتراض الذي يوجّه الى هذا الفرض

وقراء المقتطف يعلمون ان العالم الفرنسي لابلاس علل نشوء النظام الشمسي بما دعي

« النظرية السديمية » فتصور قطعة سديمية آخذة في الدوران وانها في اثناء دورانها تتسطح عند قطبيها ثم تأخذ في التقلص وتقلصها يزيد سرعة دورانها ، واذ تبلغ سرعة دورانها حدًّا معيناً ، يتعذر التماسك بين اجزائها ، فتنطلق منها حلقات من مادتها وهذه الحلقات تتقلص فتنشأ منها السيارات

ومضى زمن كان هذا الرأي سائداً في دوائر الفلكيين ثم بدت اعتراضات عليهِ فتخلى عنهُ العلماء وهم يعتمدون الآن على نظرية اشتغل في استخراجها تشمبرلين ومولتن وجينز وجفريز وغيرهم

على ان النظرية السديمية ظلّت معتمَد الفلكيين في تعليل نشوء النجوم من السدم. وهذا النشوء يقتضي زمناً طويلاً تؤيده الارصاد والحسابات الرياضية . فاذا كان القول بتمدد الكون صحيحاً فالزمن المنقضي منذ ما كان الكون خواءً الى ان نشأت الارض لا يكفي قط لنشوء النجوم وهو فعل بطيء كل البطء . واذاً فلا بد من تنقيح آرائنا في طريقة تكوُّن النجوم من غبار الكون ، واقتراح طريقة اخرى يكون التكوُّن فيهـا اسرع مما هو في سابقتها حتى يلتئم ذلك مع سرعة نشوء الكون

—٣—

والظاهر ان في نظرية الاب لميتر مخرجاً من هذا المأزق

فهو يقول ان كل مادة الكون كانت محشوكة في ذرة ضخمة مستقرة . فاذا سئل ماذا كان يحدث في تلك الذرة قال « لا شيء » اذ لا سبيل لحدوث شيء في جسم لا مكان فيهِ . وليس للوقت أو للزمن معنى في عالم مستقر كل الاستقرار . ثم انفجرت هذه الذرة ، وعمر الكون يجب ان يحسب من تاريخ انفجارها الذي تمَّ من نحو عشرة آلاف مليون سنة . ومنذ ما انفجرت الذرة اخذ الكون وما زال آخذاً في الاتساع

على ان نظرية لميتر لا تبين لنا كيف تكوّنت الارض ، وهل السيارات نشأت وقت الانفجار او تكونت بعده بطريقة اخرى

وماذا يقال في المستقبل . ان اينشتين وده ستر يريان انهُ قد يقع في المستقبل تقلص كوني يعيد النجوم ومادة الكون المتفرقة الى حالتهـا الاولى قبل الانفجار فتحشك في مدى قليل بالنسبة الى سعة الكون — اما لميتر فيرى ان هذا التقلص لا يمكن ان يقع بل يؤثر الاعتقاد بان الكون نشأ من ذلك الانفجار وسوف يبقى ماضياً في تمدُّده حتى تتحوَّل النجوم الى رماد !

الفكرة

لاسماعيل مظهر

«خرج الناس يجوبون بحر الوجود بآلاف من الشباك»

بهذا وصف الناس طاغور . فكل يوم يخرجون منتشرين في فجاج الارض ، يجوبون بحر الوجود بآلاف من الشّباك . ولكن كيف يكون منقلبهم ؟ ذلك ما لم يرد طاغور ان يتكلم فيهِ . بل انهُ ترك جميع الناس يخرجون صبيحة كل يوم من مآويهم يجوبون ذلك البحر اللجيّ ، بحر الوجود ، بآلاف من الشباك ، يتسقط كلٌ منهم حظه ونصيبه من الدنيا

اما انهم يعودون الى مآويهم بهذه الشباك مرة اخرى ، فذلك امر محتوم . اما الشباك فحمل على اكتافهم ، سواء اخرجت بالصيد الطيب ، ام بالرمل والحصى . فلا بد اذن للناس من شباك ولا بد لهم من نصيب تخرجه هذه الشباك . ولا بد لهم ايضاً من ان يحملوا هذه الشباك ويجوبون بها بحر الوجود . والوجود

« دنيا تعجّ بسكانها فهذا يغني وذاك ينوح وذلك مستسلم للقَدرْ »

وكان « يوحنا » من المستسلمين للاقدار . يحمل شبكته كل يوم ويخرج يجوب بحر الوجود مع الذين يجوبونهُ ، ويعود راضياً بما وقع في شبكته . يمضي الى مأواه ساكناً ، ويلقي بصيده جانباً ، ثم يمضي يتأمل في بحر هذا الوجود . يعيش مع احدى بنات حواء ، وحوله عشرة من الاولاد . اما هو فكان قد حطم الاربعين . وأما الشبكة التي كان يخرج بها الى بحر الوجود ، فلم تكن من الشباك التي يزوّدها ذلك البحر إلا بالمجاجة من زاده . ولكن القدر اخرج « يوحنا » الى الوجود سليل رجل كان بحر الوجود يزوده بالكثير من صيده ، وترك له من الدنيا نصيباً يكفيه النصب والكدح في سبيل العيش ، بل كان في يسار . وبحر الوجود بعد ان زوّد التاجر بالصيد الكثير ، ضنّ على الابن المفكّر بصيد ولو كان قليلاً ، مما يرد السغب ويشبع بطناً عضّه الجوع

وهكذا خرج « يوحنا » الى الدنيا بمال ابيه ، ولكن برأس جديد . رأس يضن عليهِ بحر الوجود بخيره ، بل هو يبتلع اذا استطاع ما بين يدي صاحبه من صيد جادبهِ على غيره من اسلافهِ الاولين

وكان « يوحنا » يحمل رأس فيلسوف مستهتر ، ابيقوريّ من الطراز الاول الذي عاش قبل ان يكون ابيقور ، ذلك الطراز الذي عاش في الاسكندرية ابان ازدهارها بالعلم والفلسفة ، من طراز الفلاسفة الذين عشقوا « لايس » خليعة اثينا ، او الذين لعبت بهم « تاييس » في

الاسكندرية قبل ان تصبح قديسة . كذلك كان يحمل قلب حكيم من الذين عملوا على خير الانسانية اولئك الذين استكشفوا « الانسان » عقب النهضة الادبية في اوربا

عاشت المرأة في شغاف قلبه وبين جوانحه، ولكنهُ كان يرى انها ليست اكثر من ألهية او العوبة . كان يحب « المرأة » لا امرأة بذاتها . يحب بنات حواء . اما هذه بالذات او تلك فأمر لا وزن له عند « يوحنا » . كان يحب ويتدله في الحب ويبذل لبنت حواء ما يلذ لبنت حواء من تضحيات ، ويشفق ويغار ، ويئن ويتوجع ، ويصل الليل بالنهار صبًّا مستهاماً فاذا بعدت «هذه» عن عينهِ بعدت عن قلبه . ولكن الحب ما زاد وما نقص . قلب يحترق ويلتهب التياعاً . ولكن لمن ؟ لمن شئت من بنات حواء ، متى ارادت ان ترضي قلب يوحنا المحترّ الثائر بنظرة او ابتسامة، أو ميل اليه أو حب أو هيام يرضي فيه اضطراب القلب وثور العواطف ، كأنَّ الحب في قلب يوحنا كان سليقة خلقت معهُ ، فهو يحب ويحب بغير قيد ويحب بغير احتراز من اي شيء . وفي اي شيء من الوجود يهز قلباً خلق ليحب من غير أن يحفل بمن من بنات حواء اصابها ذلك الحب ؟ غير انهُ مع هذا كله، كان يشفق على غيره من أبناء آدم ان يحرموا لذة الاستمتاع بمن أحب كما يستمتع هو، وكان يقول مع من قال في مستهتري روما واثينا ، اي ضرر في ان احمل في سفينتي غيري من عابري بحر هذا الوجود

صفت نفس « يوحنا » وصقلها الطبع المستهتر البعيد عن التفاؤل بالحياة او التشاؤم منها فكأنَّ تكوينه قد توازنت فيه ناحيتا الامل واليأس، واتَّضعت فيه الرذائل ، فزحمتها في الحياة فضيلة لا تعترف بما للخياليات التي قدسها فلاسفة المثل الاعلى من قيمة . كان يقول بان اللذة الحسية رأس الفضائل ، ويعتقد أن القوانين لا قيمة لها الاّ عند الحمقى ، الذين يحتاجون الى القيد والى السوط والى اربعة جدران من الاسمنات المرصوصة تصد عن بحر الوجود رذائلهم . اما هو فيعتقد أنَّ الحكمة تمكن هاويها من ان يعيش ، حتى لو فرض والغيت كل القوانين كما كان وهي قائمة. اما اللذة ، معبود «يوحنا» ، فكان يذهب فيها مذهباً لا يوجب عليه التمادي فيها الى الحد الذي يحتاج فيه الى طلب الغفران ، سواء من نفسه او من غيره . فالامر عنده سياذ

لهذا احب « يوحنا » الانسانية ، وحاول ان يصلح بعض نواحيها . فالتهمت قلبه النار نار الوله ببنت حواء ونار الوله باصلاح الانسانية. فكأنهُ عبَدَ في الدنيا صنمين ، صنماً يحاول دائماً ان يحطم اهواء الرجال . وآخر موهوماً لا وجود له . ولكن المرأة عجزت عن ان تهدم « يوحنا » ، لانهُ كان يحب كل بنات حواء ، فاذا شاءت احداهنَّ ان تحطمهُ وجد اخرى تأخذ بيده قبل ان يهوى في القرار . اما المعبود الثاني . اما الانسانية . ذلك الخيال الموهوم فذلك الذي هدم « يوحنا » . ويكفي لديك ان تعرف انهُ ما من عاطفة في قلب « يوحنا » استطاعت ان تتغلب على حب المرأة ، الاّ عاطفة « الانسانية » . أنظل الانسانية في ضلالها

تخبط في ذلك الليل البهيم من الجهل والحمق والتقيد باغلال التقاليد والاساطير «ويوحنا »
بض له عرق ، او يدق له قلب ؟ يا للكارثة . ويا للشقاء

اتضل الانسانية ويخرج اهلها كل يوم يجوبون بحر الوجود بشباك لا تخرج الا بالمادة مما
بع البطون والشهوات ،دون ان يكون فيها شيء مما يشبع العقول والقلوب؟ ايترك«يوحنا»
اس فريسة للمهاويس من زعماء الانسانية في غرارتها الاولى ، يمنونهم ويرهبونهم بالاوهام
بلؤون قلوبهم بالمخاوف والآلام ، ويخدعونهم بالاساطير والاكاذيب ، والناس مسوقون
نهم انعام سائمة،لايهمها الا الشباك وما في بحر الوجود من صيد حلال اوحرام؟ اذن يا للهول

اتترك الانسانية ارسطو وأفلاطون في وحدتهما الاليمة ، وتعكف على سفاسف الحياة ،
ى حقارتها ، وتمضي راضية بأن تلغي العقل ، وتهوي مع التسليم والايمان الاعمى الى احط دركات
عبودية ، ويوحنا ينظر الى هذا ولا ينقذ ذلك المعبود العظيم ، من تلك الهوة السحيقة ؟

اذن فليعاهد شيطان فوست . ويمضي يجمع الكتب ويملأ جوانب البيت بها ويكب
ى الدرس وعلى البحث وعلى الكتابة والنشر ، ويستعمق وينقب عن نفائس الفكر الذي
لفتهُ القرون الاولى ، ثم يرمي بشبكته في بحر الوجود فلا تخرج الا اصدافاً لها بريق خداع ،
لكن بلا قيمة في الحياة . فانها لا تشبع بطناً تجوع ولا تكسو جسداً لفحته الاعاصير

ويطمو بحر الحياة على يوحنا فيسلبه في ساعة واحدة ما أخرجت شباك آبائه طوال السنين .
يلقي يوحنا بشبكته فلا تخرج الا عواطف وافكاراً ، والا حقائق ونظريات . يا للهول

ويأخذه اليأس ليعاوده الامل . ويرى المرأة فتبعث بحرارة الحياة في روحه وقلبه . ويرى
لانسانية تحمل الشباك ، فما يشك في استعدادها للارتقاء ، وحاجتها إلى المصلحين وإلى التربية
الى حرية الفكر قبل كل شيء . ولكن الم ير يوحنا ان افراد هذه « الانسانية » يَنْفُضون
بباكهم كل يوم ، ليلقوا بما اخرجت الشباك من عواطف وأفكار على الشاطىء المهجور ،
يعودوا بما فيها من حطام وزاد لحسب ؟ ولكنه طمع في ان يرى الانسانية تلتقط يوماً
ع الزاد والحطام أفكاراً وعواطف ، وان تزود العقل بقليل مما يلقى على الشاطىء المهجور ،
ان تلتهم النفوس قليلاً من ثمار العقول الكبيرة التي تركت تئن في وحدتها الاليمة

وتدور الايام بيوحنا دورتها ، فيصحو ليجد أنه فقد الشبكة التي يجوب بها بحر الوجود
ع غيره من الناس ، وفقد المأوى الذي يرجع اليه بذلك الصيد المرير — العواطف والافكار —

ثم تدور العجلة دورة أخرى ، فيجد نفسه في عالم جديد . عالم النزاع على الحطام الذي
ا فكر فيهِ يوحنا .. عالم الدفاع عن النفس والولد . في عالم يرغمهُ ارغاماً على ان يزود أولاده
شباك تخرج حطاماً لا افكاراً ولا عواطف . وتتركه الغفوة في مكتب محام يهزأ بفلسفته التي
فقدته شبكته التي يجوب بها بحر الوجود

— ولكنك امضيت العقد بحضرة الفيلسوف
— نعم أمضيته بيدي هذه . ولكن من غير ان اعرف نتائجه
— ان المحاكم لا تفهم هذا . ان منطق المحاكم غير منطق الفلسفة
— ولكن للمحاكم قضاة ولهم عقول تدرك الفلسفة ، وتدرك ان من كان مثلي لا يحاسب على شيء الا اذا ادرك تماماً ما يترتب عليه من النتائج . وانا خُدعتُ
— انك أمام قضية « افلاس » . واعترفت في العقد بانك تاجر وان من حق مدينك ان يفلسك
— وماذا يهم . انا مفلس فعلاً ، فماذا يضرني ان اصبح مفلساً قانوناً
— أهذه فلسفتك ؟ ان معنى الافلاس ان تسقط عنك اكثر حقوقك السياسية وان توضع تحت المراقبة كالمفسدين وقطاع الطرق والمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة ، ولا تتعامل ولا تعامل ، ويعين عليك قيّم كالمتوهين والسفهاء ، يتولى عنك بيع حطامك
— أكل هذا لاني اردت ان أحرر الانسانية من أوهامها ؟
— كلاّ . بل لانك لم تدفع ما عليك من دين
— وماذا يحل بالعالم اذا لم ادفع ؟ — لا يحل بالعالم شيء ، بل يحل بك انت
— ولكن خبرني ماذا يحل بكتبي وقواميسي . انها أدوات مهنتي ولا يصح التصرف فيها قانوناً
— قانوناً ! ان القانون لا يعترف بمهنة يقال لها الفلسفة . ولا بصناعة يقال لها التفكير
— او يعترف القانون بصناعة يقال لها الدعارة وبيع العرض تلقاء المال ، ويعترف بمهنة يقال لها الاتجار بالخمور بل يعترف بما هو احط من هذا وذاك ، ولا يعترف للمفكرين بأنهم ذوو مهنة لها قيمة ولو مثل قيمة هذه الاشياء ؟
— نعم فتّح عينك كتبك وقواميسك وافكارك وفلسفتك لا قيمة لها ابداً لا في نظر القانون ولا في نظر الناس . فاما ان تعرف كيف تدافع عن نفسك دفاعاً يقبله القانون ، واما ان تحل بك كل هذه الكوارث
— وتباع كتب ارسطو ، ومؤلفات اناتول فرانس ، والانسيكلوبيديا ، ومؤلفات داروين ، وشارلس دكنز ، وهوميروس ودانتي .. وتعليقاتي وشروحي وافكاري وانتقاداتي ونظرياتي . . .
— وبالمزاد العلني افهم ما اقول !
— فهمت يا سيدي الاستاذ المحامي . فهمت ان الحكومات تعترف بالبغاء كمهنة ، ولكنها لا تعترف بأن للمفكر حق الوجود والتفكير . ولا تعترف بأن رأسه في الكتاب ، وان قلبه في القاموس . هي تحمي المومس اذا اعتدى احد الفاسقين على اجرها الدنيء ، ولكنها لا تحمي المفكر اذا سلب فكره ، وسرق نياط قلبه . لا تحمي الفيلسوف لانهُ ابله احمق . وهل احمق ممن يظن انهُ يشبع بطنهُ بالافكار ، وان يسد رمق اولاده بالفلسفة ، وان يكسو الابدان العارية بالنظريات ، او ان يزود فلذات كبده بشباك يجوبون بها بحر الوجود بحيث تكون

خيوطها محوكة من مبادىء في حرية الفكر او الضمير ؟ نعم فهمت ان المفلس ولو كان فيلسوفاً، سلب حقهُ السياسي في ان يشترك في الرأي مع المكارية وماسحي الاحذية والبغايا . فهمت انهُ يصبح في نظر القانون معتوهاً يحتاج الى الولاية والى من يبيع كل شيء يملكه حتى رأسه اذا فرض وكان للافكار قيمة مادية . فهمت ان المفكر لايغني عنهُ الفكر ولا العلم ولا الفلسفة، اذا نشبت فيهِ اظفار القانون ، وتمكنت من اذلاله المطامع الدنيوية . فهمت انهُ يصبح خارجاً عن الهيأة الاجتماعية فيراقب كقطاع الطرق والقتلة والسفاحين . فهمت انهُ يسلب الحرية ، لانهُ دعا الى الحرية . فهمت كل هذا . بل فهمت ان الانسانية تنبذ من يخرج على تقاليدها . هي تريد الخيال والوهم لا الفكر. تريد الاسطورة لاالحقيقة . تأخذ بيد من يمكر بها ويخدعها فتخدع عنهُ . اما الفكرة واما النظرية واما الحقيقة واما حرية الفكر ، فجزاؤها من الانسانية الحرمان . وقبلاً عُذب غليليو وحُرق برونو وحُرم سبينوزا . اذن فحمدك اللهم على منزلة احط من الباغيات ، وأرفع قليلاً من اللصوص والقتلة

وكان « يوحنا» قد اخذ يهذي بهذه الكلمات وهو خارج من مكتب محاميه،ويضرب في طرقات المدينة وقد علا ضجيجها واشتدَّ صخبها ، وحمل كل من الناس شبكته بعد ان جاب بحر الوجود طوال يومه ، وارتدَّ بغنمه . اما هو فما زال يضرب في الارض على قدميه حتى مال ميزان النهار واكتهل اليوم ، واخذ الليل يرخي سدوله السوداء على بحر الوجود

ولكن فكرة « جديدة» ! ها قد ارتدَّ الامل الى قلب «يوحنا».القوة القاهرة !!!

— نعم كنت واقعاً تحت سلطان قوة قاهرة ! يا للفرج . يا للسعادة

وارتدَّ « يوحنا » يهرول الى مكتب المحامي . وأخذ يدق الباب دقّا عنيفاً . ولكن لم يكن هنالك انسان . اذن فالى الصباح . اما في الصباح فَقَدْ فَقَدَ « يوحنا » الذاكرة . فَقَدَ « القوة القاهرة » وعجز عن ان يتذكر شيئاً . ففقد الذاكرة عشرين عاماً . فكان هذا اقصى ما تستطيع الدنيا ان تنزل بالفيلسوف من مراحمها

واليوم تجد « يوحنا » على فراش الموت يحتضر ويهذي تأخذه السكرة بعد السكرة والخيالات تمر امامهُ متعاجلة تترى ، فيخيَّل اليهِ فيما يتخيل انهُ على باب المحامي يدق الباب دقّا عنيفاً. ثم تشعُّ في عقله الفكرة والظرفُ الذي اوقعهُ تحت سلطان«القوة القاهرة».فينادي بولده— أي الي ! اسرع يابنيَّ العزيز الى مكتب المحامي. قل له ان ابي قد امضى العقد وهو واقع تحت سلطان قوة قاهرة . اسمعت — Force Majeu — قل له هذا اسرع . اسرع .«قوة قاهرة»

وعاودته السكرة، وماهي الا اغفاءة، ثم ابتسامة، ثم يعلو الصدر ويهبط، ليظل هابطاً الى الابد. نعم قوة قاهرة. ابرزته الى هذا الوجود وزودته باحلامه وآماله وأفقدته شبكته التي يجوب بها بحر الوجود وقوة قاهرة هي التي اخرجتهُ من هذه الدنيا صفر اليدين

قيثارتي

لعلي محمود طه المهندس

بَدَّدْتِ يا قيثارتي أنغامي ... ونَسِيت لحنَ صَبابتي وغرامي
مرَّتْ ليالٍ كنتِ مُؤنسَتي بها ... وعَزاءَ نفسٍ جمَّةِ الآلام
تَروينَ من طَرَبِ الصِّبا وحنينهِ ... وتُذهِّبينَ حواشيَ الأحلام
كالبلبلِ الشاكي رَوَيْتِ صبابتي ... لحناً تمشَّى في دَمي وعظامي
أنشودةُ الوادي ولحنُ شبابهِ ... ذابتْ على صدْرِ الغديرِ الطامي
شاقَ الطبيعةَ من قديمِ ملاحني ... أصداؤكِ الحيرى على الآكام
وشجا البحيرةَ واستخفَّ ضِفافها ... لحنٌ كفائرِ موْجِها المترامي
يا ربَّةَ الألحانِ غنّي وابعثي ... من كلِّ ماضٍ عاثرِ الأيام
خلَتِ الشجونُ فلارسيس صبابةٌ ... تذكيها أو لوعةَ استغرام
وجفا الذي ملأ العوالمَ بهجةً ... وجلا الحياةَ بثغرهِ البسّام
هل من نشيدكِ ما يجدّدُ بي الصِّبا ... ويعيدُ كرَّةَ هذه الأعوام
ويصوِّرُ الاحلامَ فتنةَ شاعرٍ ... توحي الخيالَ لريشةِ الرسّام ؟
وادي الهوى! ولّت بشاشةُ دهرهِ ... وخلتْ مغانيهِ من الآرام
طارتْ صوادحُهُ وجفَّ غديرُهُ ... وذوى بشطّيهِ النضيرُ النامي
واعتاضَ من همس النسيم بعاصفٍ ... داوٍ يشقُّ جوانبَ الإظلام
وهو الصدى الحاكي لضائعِ صرختي ... وصداكِ بين الغَورِ والآجام
قد كُنَّ أُلّافي ونُزْهةَ خاطري ... وسماءَ وحيِ الشعرِ والالهام
مالي بِهِنَّ سكتْنَ عن آلامي ... أنسينَ عهدَ مودّتي وذِمامي ؟
يا ربَّةَ الألحان هلْ من رجعةٍ ... لقديمِ لحنِكِ أو قديمِ هيامي
فاروي أغانيَّ القُدامى وانفثي ... في الليل من نفثاتِ قلبي الدامي
عَلَّ الذي غنّيتُ عرشَ جمالهِ ... وطفقتُ أرقبُ أفقهُ المتسامي
تشجيهِ ألحاني فيسعِدُني بهِ ... طيفٌ يضنُّ عليَّ بالإلمام
مالي أراكِ جمدتِ بينَ أناملي ... وعصيتِ أنّاتي ودمعي الهامي
خرْساءَ لا تتلو النشيدَ ولا تعي ... سرَّ الغناءِ ولا تعيدُ كلامي
يغري الكآبةَ بي ويكسفُ خاطري ... أني أراكِ حبيسةَ الأنغام

العلم

والحرب المقبلة

العلم لا ينظر الى الحرب ولا الى السلم . فهو يعطينا بيد الاسمدة وبيد اخرى المفرقعات . والمفرقعات تستعمل للهدم والقتل في الحرب ولكنها تستعمل في حفر الانفاق وفتح المحاجر وشق الترع في زمان السلم . والفولاذ لا يحصر استعماله في صنع الاسلحة والرماح بل هو يستعمل في صنع المحاريث والسكك الحديدية والسيارات والحصادات . فالعلم يجد نفسه لا يخدم آله الحرب دون آله السلم ، وانما يعود الفرق الى نفوسنا وشهواتها وتثقيفها ومثلها الادبية

لذلك عنينا في هذا الجزء من المقتطف — على ذكر مؤتمر نزع السلاح او نقضه — ببيان ناحية من الصلة بين العلم وأدوات الحرب في ثلاث مقالات نفيسة ثالثتها تبين مبلغ أثر الطيارات في الحرب وهي مبنية على خيال تؤيده الحقائق
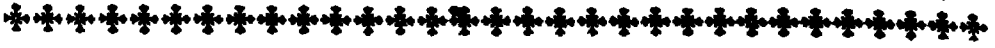
اثر الآلات في الحضارة

آراء الكاتب الاميركي ستيوارت تشايس

كان موضوع الآلات وتأثيرها في الافراد والمجتمع، في بضع السنوات الاخيرة، موضوعاً شائقاً يتخذ البعض منهُ مادة للمناقشة والجدل، فأصبح الآن بعد الازمة العالمية الجائحة، موضوعاً حيويًّا

ولقد وضع الاقتصادي الاميركي ستيوارت تشايس كتاباً في هذا الموضوع سمّاه «الانسان والآلات» قرر فيهِ ان الآلات قد اصبحت لا تنشر السعادة على الجنس البشري بل ان الناس — وبوجه خاص العمال المشتغلين والعاطلين — هم الذين يضحى بهم في سبيلها. ومن الواضح ان الكاتب الاميركي ليس يقصد مجرد تقرير حالة واقعة بل هو يرمي الى تنبيهِ العالم ليعمل على اجتناب كارثة اقتصادية في المستقبل. وهو اذا كان ينقد ما انحدرت اليهِ الحضارة في بلاده بفضل الآلات فعلينا ان لا ننسى ان اوربا صائرة غداً الى ما صارت اليهِ اميركا اليوم، واننا سائرون في اثرها. فعلينا ان نتبين الطريق الذي حتم علينا ان نسلكه وان نعرف ما فيهِ من عوج ووعورة فنتجنبهما ونظل في السبيل السوي على قدر الطاقة

ولقد وجدت ان مجرد تلخيص فكرة المؤلف لا تغني عن قراءة الكتاب ولا تجلو للقارىء مقدار ما فيهِ من عمق واستقصاء، فعمدت الى نقل ثلاثة فصول مختلفة يتناول كل منها الموضوع من ناحية خاصة ولكنها تجتمع في الفكرة النهائية، وهي ان (١) هنالك فوضى قد نشأت عن استعمال الآلات (٢) ولكن الآلات لا تحمل تبعة ذلك بل انها مفيدة بطبيعتها (٣) فينبغي ان نغير طريقة استغلالنا لهذه الآلات واسلوبنا في توزيع منتجاتها

هل نحن عبيد الآلات

ان اول ما يطنُّ صوته في اذني في كل صباح هو (آلة) المنبه، فهو يناديني فألبي النداء خاضعاً مطيعاً، ثم اقضي كل ما احتاج اليهِ فاذا الآلات دائماً في طريقي، واخرج الى الطريق فلا يفارقني ضجيجها. نعم، ان الكثرة الساحقة من ابناء هذا الشعب لا يتصلون بالآلات مثل هذا الاتصال الوثيق، ولكن هنالك قلة تتصل بها اتصالاً يفوق اتصالي بها

ولقد ازدادت قوانا بفضل الآلات الى حد عجيب، ولو اننا اخذنا صبيًّا ريفيًّا من

ابناء البراري الروسية الذين لم تقع اعينهم على سيارة بعد ، وارسلناه الى نيويورك ، فقد يصبح عالماً في العلوم الطبيعية ، ويستطيع بالميكروفون ، اذا شاء ، ان يسمع صوته لنصف الكرة الارضية ويستطيع بالآلة التي اخترعها اساتذة معهد ماساتشوستس ان يحل اية معادلة جبرية في لحظات قليلة ، ويستطيع بالـ « ونش » ان ينقل مئات الاطنان من موضع الى آخر

ولقد وضع صموئيل بطلر في عام ١٨٦٢ كتاباً يتخيَّل فيه ان اهل مكان ما ، كانوا منعزلين عن باقي العالم وانهم ساروا في اختراع الآلات وصنعها شوطاً كبيراً حتى اصبحت الآلات هي السيدة الناهية واصبحت لا تقتصر على انتاج الآلات بل تنتج العائلات وتطعمها ، فتخوّف القوم وقامت بينهم منازعات حزبية انتهت بانتصار الحزب المعادي للآلات ثم تحطيم جميع الآلات ما عدا الآلات اليدوية اللازمة للزراعة

وليس يهمنا باقي القصة ، ولكن دعنا نفترض كما افترض ا. م. فوستر في كتابهِ « الآلة تقف » ان حزب انصار الآلات هو الذي انتصر . وتصور انك في غرفة سداسية الاركان كخلية النحل الملآنة بالازرار تضغط على زر الحمَّام فتنشق الارض عن حوض من المرمر ، اوتضغط على زر المطالعة فاذا بمنضدة رُصَّت عليها الكتب الخ ، ولكن وقتاً يجيء بعد ازمان فتأخذ فيهِ هذه الآلات في التدهور ثم العطل ، فتنقطع الحياة من اجسام اولئك الناس . ولكن هذا التنبأ مبالغ فيه ، فيحسن ان نلجأ الى عالم من علماء الاجتماع مثل اوستين فريمان الذي يقول في كتابه « الاضمحلال الاجتماعي واعادة اصلاحه » ان الناس قبل اختراع الآلات الميكانيكية كانوا يشبعون حاجتهم المتزايدة الى الملبس والمأكل والاثاث وغيرها فلما اتى جيمس وط بالآلات ، اخذت هذه الآلات في النمو وفق قوانين خاصة بها وأخذت في الانتاج الزائد عن حاجة الناس فقلبت قانون العرض والطلب ، وبعد ان كان الناس ايام الصناعات اليدوية يعملون لامداد المستهلك باسباب الراحه اذا بهم الآن يعملون لابداع وسائل تمكنهم من بيع ما يصنعون . والمرء متى أهمل العمل (اليدوي) ، فقد ثقته بنفسه وانحط خلقه ، ولقد دمرت الآلات كثيراً من القوى الطبيعية وشوّهت جمال الطبيعة دون ان تعنى البتة بالانسان . وازداد تجمُّع المعلومات الصناعية من دون أن يصحبه ازدياد في الفطنة والذكاء . اما في الحرب ، فالآلات وسيلة لازهاق ارواح الجماعات الكبيرة من الناس

ولقد أسهب فريمان في بيان التفصيلات الدقيقة ، ولكنهُ كان قليل الشأن إزاء العلامة الدكتور شبنجلر وتنبئه بحلول وقت يعمد فيهِ الانسان الى « ملاشاة الآلة من ذاكرته وابعادها من أجواره ، ليخلق لنفسهِ عالماً آخر لا وجود فيهِ لهذه الصناعات الشيطانية »

وهناك طائفة لا تؤمن بالتحسن في المستقبل يعلن احد زعمائها المبرزين فيها هنري ب . فروست انهُ « في عصر الآلات هذا ، الذي نعيش فيهِ ، يطل شبح الوحش

الآليّ بتهديد هائل — على طريق الرقي الانساني . ولقد صرنا جميعاً مقسمين الى طوائف ومرتبين ومنظمين بشكل خاص ، وأضحت شخصيتنا كأناس ، تختنق وتتضاءل الى حد عظيم ».
ويهيب البروفسور صُدي محذراً « اذا كانت مثل البشر العليا لا تسرع الى ملاءمة العلم إبان نموه وازدياده ، فلست آمن على المصير »، ويتساءل البروفسور هالداين في شيءٍ من الحذر « فهل أُطلق البشر من حجر المادة طامة للشعوب متهيئة للسير نحوها والقذف بها في اية لحظة الى حضيض العدم ؟ » اما الفيلسوف رسل فهو في جملته يحكم لصالح العلم ولكنهُ لا يثق بسدنة بنائه الآليّ إذ يرى « أن أهم المقاصد التي يكنونها مقاصد منحرفة » . أما فيليب جيبس فهو يطالعنا بالاختيار الصعب بين قتل جميع رجال العلم او قلب آداب الناس، وطريقة تفكيرهم من اساسها .

ولو اننا بالغنا في الانصات الى هذا النذير لكان من العبث ان نستمر في تجاربنا العلمية . على أن فورد يهيب بنا أن « افسحوا الطريق حرًّا لكل مجتهد » فالاجتهاد في العمل هو السبيل الى الحرية والمساواة أما الآلة فسألة عرضية وليس الغرض منها الاّ تحرير الانسان من العمل اليدوي الخشن كي يتفرغ لتنمية قواه العقلية والروحية ، وعدا ذلك فان الآلة تسير بنا الى الغرض الذي اخفقنا في الوصول اليهِ بالخطب والدعاية ، أعني بهِ ايجاد ولايات العالم المتحدة

ويرى بيرد المؤرخ الاميركي ان حالة العلوم الصناعية والادبية والمعمارية وغيرها ، ليست مما يسوغ لنا ان نتوقع اضمحلال الحضارة الغربية ، ثم إن المعارف الصناعية قد عمت وانتشرت بحيث لو بادت اوربا وامريكا لكان لدى اليابان وحدها من الاسس العلمية ما يكفي لاعادة بناء الحركة الآلية

أما البرت بارسون ساكس فيرى انهُ « يجب أن نبحث في الآلة عن الشعر والجمال والابدية والخلود ... فمن لم يشأ أن يدرك ذلك فهو اعمى بل إنهُ ميت ، ولا يمت الى عصرنا بصلة »

ولكن هناك عدا هذين الفريقين فريقاً ثالثاً يقف موقف المتشكك المتسائل ويكتفي بالملاحظة

يقول ديوى الفيلسوف الاميركي « إن مدنيتنا لقوية الشبه بعربة فورد ... تنطلق مسرعة في كل الطرقات بلا غرض تقصده، غير أنها مملوءة نشاطاً وحيوية » ويسأل و . ف أوجبورن هل كان البشر في العصر الجليدي الاخير اوفر سعادة لأنهم كانوا اقرب الى الطبيعة ؟ هل صنع كل ما نعيش فيهِ يقتضي أن نكون اقل سعادة ؟ ولكن الضيق والارغام كانا يسودان ذلك العصر وكان هناك كثير مما يخافهُ الانسان . نحن نعرف ان الانسان حيوان عظيم المقدرة على ملاءمة الوسط ، فلماذا لا يستبدل المحراث اليدوي واضرابه بالمحراث الآليّ وامثاله ؟

ولكل من هذه الفرق الثلاثة أنصار كثيرون . وعلينا قبل الانضمام الى احدها أن نزيد معلوماتنا عن النقط الاساسية في الموضوع

***

فما هي الآلة (الماكينة) بالتحديد وفيم تختلف عن العدة اليدوية ، وما هو القانون الذي تسير عليهِ ؟ وما هي انواع الآلات وما مقدار احتياجنا اليها واصطدامنا بها بشكل مباشر او غير مباشر ؟ وكيف ابتدأ عصر الآلات ؟ وما هو الانتاج بالجملة وهل هو خاضع للمراقبة أم يسبح في فلك الخاص ؟ وهل تأثيرها التدميري في حالة الحرب مخرّب الى حد فظيع ؟ وهل تجعل من العامل الصناعي عبداً حديثاً ؟ فاذا كان الجواب بالايجاب فهل حالته شر من حالة العبيد عند اليونان ؟ وما عدد العبيد الذين تفرض عليهم السخرة في عصر الآلات

واذا كانت الآلات تزيد متوسط العمر فهل هي تفعل ذلك لترفع النسبة المئوية من العجزة ومرضى الاعصاب ؟ وهل ادت الى انحطاط القيمة الروحية للمجتمع ؟ وهل المساواة الاجتماعية أمر واقع فاذا كان الامر كذلك فهل ذلك شر من الحالة الاخرى الموجودة عند الشعوب الطبيعية وهل شر ان يكون المرء كشخصية « بابيت [1] » من ان يكون عضواً في احدى الطوائف الهندوسية ؟

ليس العثور على اجابة جامعة على مثل هذه الاسئلة بالامر السهل ، فلا تزال بعض العوامل التي لها شأن في الموضوع معقدة او غامضة . وانما نستطيع توسيع دائرة معارفنا عن الآلة اذا ابتدأنا بالكلام عما تبذل من جهد وما تؤديه من عمل

الاقتصاد في العمل

عند ما بحث زومبارت (الاقتصادي الالماني) حالة الزراعة في غرب اوروبا ابان القرن الرابع عشر ، وجد المئات من جماعات اشتراكية تُحيي في السنة ١٦٠ إلى ١٨٠ عيداً تتعطل فيها الاعمال . وعند ما بحثوا حالة المدن الاميركية سنة ١٩٢٥ وجدوا شعباً من العمال تتناوب حالتهم بين العمل المضني والعطلة المهلكة . ولقد كان القرن الرابع عشر يستعمل نفس الآلات التي كان الرومان والمصريون القدماء يستعملونها . اما المدن المتوسطة الاتساع « ميدلتون » فتستعمل شتى الآلات المقتصدة للعمل ، ومع ذلك فقد انقلبت الآية فأصبحت زيادة الآلات تؤدي إلى تقليل أيام الراحة . ولنا ان نعيد السؤال الذي كان يلقيه على نفسهِ جون ستيوارت مل منذ ٥٠ عاماً : « ما مقدار العمل الذي تقتصده حقاً تلك الآلات المقتصدة للعمل ؟ » أنها تسبب طرد عدد كبير من العمال ، فما هو الحد الذي يمكننا عنده ان نعتبر العطل مقياساً للرقي الاجتماعي ؟ ان الاقتصاد الحقيقي في العمل لا يصح ان يعبر عنه (أي ان تظهر آثاره) في شكل مأساة وضيق ، بل يجب ان يكون سبباً لزيادة الراحة والسلام والطمأنينة وفرصة للتنفس الحر ومنشأ لفترة راحة ابان تدور طاحون الحياة . ولكن المدينة « ميدلتون » لا تعرف فترة للراحة بل ينشد أهلها الراحة عبثاً منذ القرن الرابع عشر

(١) بطل رواية للروائي الاميركي سنكلر لويس يمثل الاكباب على العمل لجمع المال من دون ان يقيم للمثل الروحية وزناً ما

هنالك بضعة أسباب يمكن ايرادها في الرد على ستيوارت ميل ، منها ان مطالب الاهلين قد بزّت اختراعاتهم — وذلك بغض النظر عن النفر المترف المولع بجمع منتجات العمل — ولذلك عجزت الآلات عن ان تكفيهم مؤونتهم . ولنضرب السيارة مثلاً ، فهي في حد نفسها آلة مقتصدة للعمل ، أعني إذا استعملت في ذلك الغرض ، ولكن ثلثا مستهلكي السيارات يستعملونها في أمور لم يكونوا ليعملوها لو لم تكن عندهم السيارة ، فهم يسافرون ويتنزهون ويتبادلون الزيارات ويقطنون في الجهات الخلوية . نعم ان في استعمال السيارات لهذه الاغراض راحة للمتعلمين ولكن ليس فيه اقتصاد للعمل ، بل ان هذا الحيوان المنزلي الجديد يحتاج من العلف (البنزين) والتخزين (في الجراج) والعناية والترميم والتسيير وغيرها ، الشيء الكثير

فقد وصل عدد المستخدمين المباشرين وغير المباشرين في صناعة السيارات وما يتبعها (بيع واصلاح وتأمين وانشاء طرقات الخ) في سنة ١٩٢٨ في الولايات المتحدة الى ٣٫٧٣٢٫٠٠٠ نفس ، ومعنى ذلك ان الشعب يشتغل في السنة مليار يوم من أيام العمل بسبب السيارات ، وفي ذلك غالباً زيادة للعمل بدلاً من الاقتصاد فيه

وما قلناه عن السيارات نقولهُ عن الراديو والسينما والفونوغراف وصمغ المضغ (اللبان وهو كثير الشيوع في امريكا) والسجاير وادوات التجمل ، بل اني ليخيل اليَّ أحياناً اني قد استطيع ان اقول ذلك عن التليفون ايضاً

على ان الاقتصاد قد حدث بشكل محسوس فيما يتعلق بالضروريات كالمأكل والمسكن والملبس ، وذلك ما سمح لنا بالوقت اللازم لزيادة الكماليات ، أو — اذا شئت — الضروريات الجديدة . خير لنا ان نقول أننا نمتلك الآلات لأغراض جمة من ان نزعم اننا نمتلكها لمجرد الاقتصاد في العمل . ولكن ، هل هذه الاغراض تساوي ما يضحى به من أجلها ؟ الا تكون المدينة «ميدلتون» أسعد وأهنأ لو اقتصر يوم العمل على خمس ساعات وقلت في مقابل ذلك أدوات التجمل وأفلام السينما والمقاعد الوثيرة وخزانات التبريد الكهربائية ؟

***

وهناك ضريبة ثانية وهي ان التخصيص في ادارة الآلات في الوقت الحاضر يقتضي تشييد أبنية ضخمة للمصانع ومكاتب ادارتها في حين أن الصناع كانوا فيما مضى يعملون في منازلهم او حقولهم ولا يحتاجون الى اكثر من سقف يظللهم . ولا يفوتنا أن التحسين المستمر في الآلات يجعل هذه الابنية قديمة فنضطر الى تجديد بنائها كل عشر سنوات مثلاً

والامر الثالث يتعلق بتنظيم المدن الكبيرة ، فان تقدم الآلات وارتقاء الطب قد جعلا تخطيط المدن الكبيرة ممكناً ولكنهُ من وجهة العمل الانساني عمل من اعمال الترف ويكفي لمعرفة ذلك أن نلقي نظرة على ما بباطن الارض من انابيب المياه والغاز والمجاري واسلاك التليفون

والتلغراف ، وما تقتضيه من وضع وصيانة وتقوية ، ثم اذكر ما يضيع من الجهد في هدم المباني واعادة بنائها كلما ارتفعت قيمة الارض . ثمَّ هناك المبالغة في المضاربة بالاراضي ، وقد شاهدت ذلك على اقصاه في فلوريدا ، حيث استقدم اليها سنة ١٩٢٥ جيش من المهندسين والعمال ، أخذوا يحفرون ويشيدون ، ثم تذهب الآن الى تلك الانحاء فلا تجد الا قفراً وخراباً وترى هنالك آلة بخارية لدك الارض ، قد علاها الصدأ فظلت هنالك رافعة ذراعها كانها شاهد القبر

والمحرك الخامس هو المصنع نفسه فهناك كثير من البضائع لا ندري مقدار ما اقتصد في صنعها من العمل وقد كتب رالف بورسودي الخبير في الاقتصاد السياسي انهُ يصنع في منزله حاجيات كثيرة (كالخضارات والفواكه المحفوظة) بنفقات ضئيلة جداً لا تتناسب (حتى بعد اضافة اجر العمل) مع الاثمان التي يشتري بها مثيلتها من الحوانيت . ويمكننا ان نلاحظ صحة ذلك فيما يختص بكثير من الاطعمة والمواد الكيميائية البسيطة كالشمع والزيوت والاسمدة والمواد الخاصة بالعناية بالجسم ، فان الآلة بتركيز منتجاتها في المصنع ومايتطلبه ذلك من نفقات البيع والارسال قد بذرت اكثر مما اقتصدت

* * *

ولنفكر بعد ذلك في الابعاد الهائلة التي تجلب منها المواد الخام والتي ترسل اليها المصنوعات التامة . فاذا افترضنا ان طائفة من شركات الصابون تريد تموين البلاد من مركز معين (كالعاصمة مثلاً) مع قيام كل منها بالاعلان عن نفسها بوسائل جمة ، ومع احتفاظ كل منها بتنظيم وسائل خاصة بالبيع نجد ان ذلك كله يلتهم كل المتوفرات التي اقتصدها المصنع حتى ليصبح المصنع الصغير الذي يمون صاحبه وحده او مع جيرانه ومجاوريه ، يصبح وحدة اكثر اقتصاداً من المعمل الكبير . ومن المفهوم ان الآلة لا تحمل تبعة ذلك وانما سوء ادارتنا لها ، وليس من الصعب ان نبني المصانع الاقتصادية على مقربة من منابع المواد الخام حيث نحصل على التيار الكهربائي بابخس الاثمان ، فنمون الجهات المجاورة ببضائع لها من رخص الاثمان ما لا يستطيع الذين ينتجون لانفسهم ان يجاروه . وليس شك في ان العمل الآلي يفوق العمل اليدوي ولكن هذا التفوق لا يكون دائماً عظيماً

على اننا يجب ان « نراعي جميع الحقائق » عند النظر في الاحصائيات ، فقد زعم فورد ان ١٠ جرارات من سيارات الحرث قد استغرقت ١١ يوماً لحرث الف فدان في ارمينيا وهو عمل كان يقوم بهِ ٥٠٠ رجل والف ثور في نفس المدة ، فاذا تركنا الثيران جانباً واعتبرنا ان السيارة تحتاج الى سائق واحد ، تصور البعض ان الاقتصاد يبلغ ١ : ٥٠ . ولكننا ننسى العمل اللازم لاحضار المواد الخام ، فصنع السيارات فبيعها فاصلاحها وما يتخلل ذلك من العمليات المختلفة وهي حلقات مختلفة من نفس السلسلة ينساها المتفائلون او يتغاضون عنها فيحصلون على نتائج زائفة

وقد اورد جسه سبراج مثلاً بديعاً، فقد كان احد اصحاب المصانع الصغيرة ينتج مقابض لابواب من النحاس الاصفر وكان ينتج كل يوم ٢٠ مقبضاً بنفقة ريال للمقبض الواحد ويبيعها بريالين فاشترت احدى شركات المضاربة المصنع وجعلت المقابض من الهبّ فنقصت نفقات نتاجها الى نصف ريال ، ونمت الادارة ومحال البيع وغير ذلك مما ادى الى ارتفاع ثمن المقبض الى ٤ ريالات فاعرض الجمهور عنها وساء مصيرها ، واذن فقد كان الانتاج الآليّ هنا « اذا راعينا جميع الحقائق » مضاعفاً للثمن

***

وقد كتب احد اصحاب المصانع في مجلة « اتلانتيك الشهرية » انهُ وجد انهُ كان في سنة ١٩٢٠ ينتج وحدة بضائعه (وقد حاذر ان يقول لنا ما هي) في ٤٠ دقيقة ،فأصبح بعد تحسين العمل في سنة ١٩٢٨ ينتجها في ٢٠ دقيقة فقط ولكن التحسين الذي اجراه منافسوه في بضائعهم اضطره الى الاسراف في نفقات البيع والاعلان حتى تضاعف الثمن . وقد علق الرجل على ذلك بقوله إن الوقت أزف ليعمل المرء في منزله معظم ما يحتاج اليه . ولست أوافقه على ذلك بالطبع ، ولكني أذرف دمعة على كل رجل من رجال الاعمال ترهقه نفقات الادارة التي تقتضيها المنافسة ، فتقضي عليهِ

فالسيارة التي تباع بـ ٥٠٠ جنيه لا تكلف من النفقات المباشرة سوى ٥٠ جنيهاً بينما ينفق على الشئون الخاصة ببيعها ٢٠٠ جنيه ، وهنالك جزء معين من اجزاء السيارات يحوي من العمل المباشر ما قيمته ٧½ قروش يشتريها صاحب الحانوت بجنيه واحد ويدفع فيهِ المستهلك خمسة جنيهات ، وهكذا يطرد ازدياد اثمان الآلات كلما تحركت في سبيل البيع كما يطرد ازدياد سرعتها بجهد بسيط اثناء العمل

ومجمل القول ان الصناعة الحديثة لا تقتصد في العمل الآّ من ناحية واحدة ،وهي اقل النواحي شأناً ، ثم تأخذ ما تقتصد في هذا القسم من اقسامها لتلقيه من النافذة

حرب الساعتين القادمة

هاجم « جيش الشمال » لندن في ١٣ اغسطس ١٩٢٨ ، فانقضّت ٧٥ طائرة على المدينة ، تحمل كل منها ٥٠٠ رطل من القنابل . وقد تصدت لها طائرات الدفاع ، وهب عدد عديد من المناطيد تكوّن منطقة حماية حول المدينة ، وأصلت بطيارات مدافع الطيران، طائرات العدو ناراً حامية ، وذبت القوات المختلفة عن المدينة بكل الطرق الممكنة ، فلم يغن كل ذلك عنها شيئاً وأصابت القنابل أهدافها من المباني الحربية والمصانع المهمة التي تزوّد المدينة بالماء والنور وغيرها ، ثم عادت الطائرات المهاجمة إلى أوكارها في الشمال بدون خسائر

القيت هذه القنابل من ارتفاع ٥٠٠٠ متر ، فأصابت الاهداف المقصودة ، بكل إحكام. فلو انها كانت محشوة بثنائي فينيل كلور الزرنيخ لأبادت نصف سكان المدينة ولو ضوعف عدد الطائرات لتضاعف الاثر . نعم ، ان الامر كله لم يكن الاَّ مناورة ، ولكنها اقنعت الخبراء الحربيين ان وسائل الدفاع كلها عديمة الجدوى في مثل هذه الحالة ، فما بالك لو بلغ عدد الطائرات المهاجمة ٥٠٠ وكان قائدوها طيارين حربيين محنكين

***

ان فرنسا تستطيع الآن بأمر تذيعه بالراديو ، ان تحرك للقتال ٤٠٠٠ طائرة ، وفي استطاعة سرب واحد منها ان يلقي على أهداف العدو ١٢٠ طناً من القنابل في هجمة واحدة ، بينما كان الحد الاقصى لألقاء القنابل إبان الحرب العظمى لا يزيد عن ١٢ طناً في الشهر . مع العلم ان خمساً من طائرات ما قبل الحرب كانت كافية لبعثرة الجيش التركي الزاحف على فلسطين . وقد أجرت المانيا تجاربها بطائرات لا تسمعها اذن ولا تراها عين . وتستطيع طائرات ريبون البريطانية ان تزيد سرعتها الى ٢٥٠ كيلومتراً في الساعة ، وان ترتفع عمودياً . وان قذيفة واحدة مما تلقيه الطائرات لتذهب بأكبر المراكب الحربية إلى قاع البحار . وقد تحدث المستر كنورثي عضو مجلس العموم الانجليزي عن قنبلة وزنها ٤٣٠٠ رطل ، تذرو عند القائها على الارض ١٠٠٠ متر مكعب من الرمال ، فلو القيت على بيكاديللي بلندن لنسفت الشارع بأكمله ، وقد تنبأ النائب المذكور باختراع طائرات تطير بسرعة ٥٠٠ كيلومتر في الساعة ، وأخرى تطير وحدها بأوامر تتلقاها بالراديو من الارض وتلقي قنابلها حين تسلط عليها اشارة لاسلكية خاصة

وهنالك على الاقل نوعان من الغازات السامة لا يفيد أي نوع من الكمامات في الوقاية منهما ، وهناك غاز مهيج يرغم جنود العدو على القاء أقنعتهم فتمتلىء خياشيمهم بالغازات السامة التي تطلق عليهم في نفس الوقت . ومن السهل تعبئة قذائف المدافع بجراثيم الأمراض وارسالها على بلاد العدو تحصد اهلها حصداً

ولئن قامت الحرب فالكلمة الاخيرة لمن يتكلم اولاً . ففي مكنته ان يرسل الف طائرة على ٣٠٠ كيلومتر مربع فتشعلها سعيراً في ساعة واحدة أو اثنتين ، تمحو ابانها مدناً شتى من خريطة البلاد المعمورة . وليس هناك من العادات المرعية أو الضمانات واشباهها ما يمنع شعباً قوياً من استخدام أمضى سلاح معروض عليه للتغلب في الكفاح . على ان أمضى الاسلحة التي تمتلك الدول العظمى منها مقادير كبيرة ، هي آلة تسير بسرعة هائلة حاملة خليطاً من الازوت والاوكسجين فتعصف بما أمامها من السفن الحربية والحصون والمدافع والدبابات وغيرها ، الاَّ الغواصات اذا غاصت إلى اكثر من ٣٠ متراً تحت سطح الماء . ولكن الغواصات وسيلة كثيرة النفقات

فالغواصة الصالحة للاستعمال ثمنها عشرات الالوف من الجنيهات ، وتحتاج في ادارتها الى ٣٠ رجلاً ولا تزيد سرعتها تحت سطح الماء عن ٢٠ ميلاً بحريًّا في الساعة . أما الطائرة الجيدة فثمنها الف جنيه وفي استطاعة رجل واحد ان يديرها وان يقطع بها ٣٠٠ كيلومتر في الساعة وان يصيب الهدف بقنابلهِ تماماً . ولو انني وزير حربية وليس عندي أسهم من شركات صناعة الفولاذ لوفرت على شعبي الضرائب الكثيرة وعمدت إلى تدمير سفن العدو الحربية من الجو بدلاً من تدميرها من اعماق المياه . ومع ذلك ففي استطاعة الغواصات ان تحرّم على سفن العدو مبارحة الساحل ، وفي استطاعة الغواصات الكبيرة الحجم ان تطلق على المدن الساحلية انواعاً مختارة من قنابل الغازات السامة ، على الاقل لمدة بضع دقائق حتى تشرع طائرات العدو في مهاجمتها وبجمل القول ان السلاح الاساسي في الحرب القادمة هي الطائرات ، وانما يرجع تفوقها الى انها ذات ثلاثة ابعاد في حين ان وسائل الحرب الاخرى ليس لها الاَّ بعدان . ولما كان الهجوم على سطح الارض يحصل في مكان محدود فمن الممكن ايجاد الوسائل لدرئه ، وكلما كبرت قذائف المدافع سمكت الالواح المدرعة (للحصون أو السفن) . أما السلاح ذو الابعاد الثلاثة فهو الذي لا عاصم منه (وقد اقترح أحد العباقرة ان تشدَّ حول المدن اوتاراً تشبه اوتار البيانو تتدلى من المناطيد فتقع فيها طائرات العدو . وهي فكرة يستحق قائلها جائزة في مسابقات النكات) ومن الممكن من الناحية النظرية ان تحمى المدن بملء مساحات هائلة محيطة بها ، بعدد خيالي من المدافع المقاومة للطائرات ، تطلق قذائفها فيرتد منها على شوارع المدينة سيل من المظلات المدرعة

***

وخير وسيلة للدفاع ، هي الهجوم . فحينما تغادر ١٠٠٠ طائرة مدنها لمهاجمة المدن الانجليزية يجب ان تقوم من لندن ١٥٠٠ طائرة لمهاجمة مدن الدولة المعادية ، وبذلك تتدمر مدينتان لا مدينة واحدة

وللولايات المتحدة وروسيا من اتساع مساحتهما ما يجعل القضاء عليهما لا يتم بالسرعة التي ينتهي بها القضاء على غيرهما من الدول العظمى (انجلترا واليابان بجزائرهما المكتظة بالاهلين هما اصلح الاهداف للأبادة) ولكن سرباً من الطائرات يبارح تورنتو يستطيع ان يدمر بوسطون وفيلادلفيا وبلتيمور ووشنجطن وشيكاغو وغيرها ، ولا سيما نيويورك فمن السهل تحطيم جسرها ونفقها ونسف ابنيتها ذات الابراج (ناطحات السحاب) فتنهار كأنها بيوت من ورق ولست اعرف للمسألة حلاً ، فقد أصبحت وسائل الحرب عظيمة الخطر في شكلها الحالي ، فضلاً عن تطورها في الغد

القاهرة — عصام الدين حفني ناصف
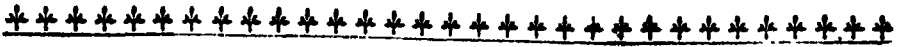
الحرب الكيمياوية

لحبيب اسكندر
ناظر القسم الثانوي بجامعة القاهرة الاميركية

— ١ —

الكيمياء من اهم العلوم التي يستخدمها الانسان في حياته العملية المتعددة النواحي . فهي تؤدي خدمات حيوية للتجارة والصناعة والزراعة والطب وكافة اعمال الانسان . وفي اوقات الحرب هي السيد المتسلط على جميع وسائل الحروب من سيوف ورماح وبنادق ومدافع وبارود ومفرقعات وغازات سامة وكل ما يتبعها من ذخائر ووسائل نقل — كل هذه جميعاً كيمياوية من اول صنعها حتى وقت نفادها . وسنجعل كلامنا في هذا المقال مقتصراً على استخدام الكيمياء في ناحية واحدة من نواحي الحرب هي الحرب الكيمياوية ويطلقون عليها خطأ اسم حرب الغازات

ان الاسم « حرب الغازات » لا يؤدي المعنى المقصود لأن معظم الغازات او ما يسمونهُ الغازات السامة التي استخدمت في الحرب العظمى ليست بغازات بل جلها سوائل واجسام صلبة في الاحوال المعتادة . فغاز الخردل الذي يسمونهُ ملك الغازات السامة سائل يغلي عند الدرجة ٢١٦°م . وحتى الغازات الصميمة التي استخدمت في الحرب لم ترسل الى ميادين القتال في حالتها الغازية بل كانت ترسل في صورة سوائل مضغوطة

والمقصود بكلمة «غاز» في الحرب الكيمياوية كل ما يرسل من المواد (الصلبة او السائلة او الغازية) الى العدوّ في الهواء بعد خروجه من الاسطوانات او القنابل المشتملة عليه

﴿ لمحة تاريخية ﴾ : مما لا شك فيه ان استخدام الالمان للغازات السامة لاول مرة في ابريل سنة ١٩١٥ يُعدُّ فاتحة عصر جديد في الحروب الحديثة . ويعتقد الرأي العام في العالم ان هذا العهد او النوع من الحرب من مخترعات الالمان العصرية . والحقيقة غير ذلك . لان استخدام الغازات في القتال قديم العهد . يرجع تاريخه الى ما قبل الميلاد . فالتاريخ يحدثنا ان الغازات الخانقة قد استخدمت في الحروب القديمة بين اهل اثينا واسبارطه . فقد كان الاسبارطيون في حصارهم بعض البلاد يحرقون عند اسوارها خشباً مشبعاً بالنفط والكبريت بغية خنق المدافعين عنها وبذلك يسهل عليهم فتحها والاستيلاء عليها . كذلك استخدمت الغازات السامة في بعض الحروب في القرون الوسطى ويروى عن رجل يدعى Prester John وهو ملك اسيوي خرافيّ في القرن الحادي عشر انهُ صنع تماثيل مجوَّفة من النحاس وحشاها بالمفرقعات والمواد القابلة للالتهاب وأضرم فيها النيران فكانت تنبعث من افواه التماثيل وانوفها

ابخرة وغازات خانقة احدثت في الاعداء رعباً وألحقت بهم ضرراً لا يستهان به

وعلى كل فإن معظم دول اوربا كانت تتوقع استخدام الغازات السامة في الحرب قبل نشوب الحرب العظمى بزمن طويل والدليل على ذلك ان مؤتمر لاهاي الذي عقد سنة ١٨٩٩ لحضره مندوبون من قبل دول اوربا وآسيا قرر الامتناع عن استخدام مقذوفات الغاية منها انبعاث غازات سامة . وقد وقّعت المانيا على هذا العهد في ٤ سبتمبر سنة ١٩٠٠

﴿ الحملة الغازية الاولى ﴾ واول حملة غازية في الحرب العالمية وقعت في ٢٢ ابريل سنة ١٩١٥ . قام بها الالمان ضد الحلفاء مستخدمين فيها غاز الكلور . وقد وصلت اخبار تدبير هذه الحملة الكيمياوية الى الجيش الانجليزي من بعض الالمان الهاربين الذين رووا لهم أن الجيش الالماني قد دبّر خطة لتسميم العدو بسُحُب من الغاز السام وان الاسطوانات التي تحتوي على المواد السامة قد نصبت في الخنادق . ولكن الانجليز تلقوا هذا الخبر بالسخرية ولم يعيروه اهتماماً لظنهم ان هذه الفكرة صعبةُ التنفيذ في ميادين القتال . ثم لاعتقادهم ان الالمان كائناً ما كان بطشهم وحبهم للنصر لا ينقضون عهد لاهاي ولا يخالفون سنن الحرب الانسانية التي وقعوا عليها . ولكن خاب ظنهم فالحرب لا تعرف عهداً وانما هي خدعة . وفي عصر ٢٢ ابريل سنة ١٩١٥ فاجأ الالمان الحلفاء باول حملة غازية . اختاروا لها المنطقة الشمالية من الايبرس عند ملتقى الصفوف الانجليزية بالصفوف الفرنسية . ولا يستطيع احد من الناس ان يصور لنا ما احدثتهُ هذه المفاجأة من الرعب والاثر . لان الرجال الذين يعلمون ذلك جيداً وفي استطاعتهم وصف الحقيقة كما حدثت قد ماتوا جميعاً

في ذلك اليوم صعدت من الارض فجأة سحب من غاز اصفر ضارب الى الخضرة ساقتها الريح نحو الحلفاء . فانتشرت في طريقها متخللة كل حفرة وخندق . فلما رآها جنود الحلفاء استولى عليهم العجب ولما دنت منهم استحال العجب خوفاً . ولما غمرتهم تحوّل الخوف الماً فالقوا سلاحهم وولوا الادبار طلباً للتنفس . ولكن عبثاً حاولوا الافلات من تلك السحب التي تعقبتهم ولم يمض نصف ساعة حتى سقط ٨٠ ٪ منهم . فتقدم الالمان واحتلوا الصفوف الامامية ووجدوها ملأى بالموتى . وقد صبغت وجوههم والتوت اجسامهم وامتلأت افواههم بالدم والرغو اللذين سالا من رئاتهم المتفجرة مما ينبئ بهول الميتة التي لقيها هؤلاء القوم

﴿ الشروط التي يجب توافرها في الغاز الحربي ﴾ وقد وقع اختيار الالمان على الكلور في الحملة الاولى لان فيه تتوافر جميع الشروط اللازمة للغاز الحربي السام . واهم هذه الشروط هي:—

اولاً — يجب ان يكون الغاز او المادة سامة جداً اذا وجدت في الهواء بمقادير قليلة

ثانياً — ان تكون رخيصة يمكن صنع مقادير كبيرة منها بعمليات سهلة

ثالثاً — ان تكون سهلة الانضغاط والتحول الى سائل واذا خف الضغط عنها تحولت الى بخار او غاز

رابعاً — ان تكون ثابتة لا تتأثر برطوبة الهواء او بالمواد الكيمياوية الاخرى حتى يصعب تغييرها وافساد فعلها

خامساً — ان تكون اثقل من الهواء حتى لا تتبدد بسهولة في طبقات الهواء العليا

ومعظم هذه الخواص تتوافر في غاز الكلور الذي وقع عليه الخيار اولاً . فهو غاز سام جداً. فاذا عرض حيوان (كلب) للهواء الذي يحتوي اللتر منهُ على ٢٫٥ ملليجرام من الكلور مات بعد ٣٠ دقيقة . ثم ان مقادير وافرة منهُ تحضَّر بعمليات سهلة وذلك بحلّ محلول ملح الطعام بالكهربائية وقد كان يباع قبل الحرب لاغراض صناعية في اسطوانات حديدية بسعر قرش واحد للرطل. ثم انهُ سهل الاسالة يكفي لاسالتهِ ضغط يساوي ١٦٫٥ جو عند الدرجة ٩٨ واذا برّد اسيل بضغط اقل . واذا خفف عنهُ الضغط تبخر واستحال غازاً اكثف من الهواء مرتين ونصف مرة. ولذا في استطاعته ان يسير مسافات بعيدة قبل ان يتبدَّد بانتشاره في الجو . وقد استعمله الالمان أن ملأوا اسطوانات بالسائل المضغوط وجعلوا بين الاسطوانة والاخرى ذراعاً ووصلوها بأنابيب مرتفعة ومتجهة نحو العدو . فلما هبت الريح فتحوها فخرج منها الغاز بشدة. ولا عيب فيه غير انهُ عنصر نشط يتحد مع كثير من المواد ويمكن اتقاء فعله بطرق اولية بسيطة كما فعل الانجليز والفرنسيون في الايام التي تلت الحملة الاولى. فهو يتفاعل مع الهيبو مكوناً كلورور الصوديوم . وفي استطاعة الهيبو تحويل مقادير كبيرة من الكلور . لذلك كان استعمالهُ ناجحاً في عمل الكمامات البسيطة الاولى وهي عبارة عن قطعة من القماش مشربة بمحلول الهيبو تربط على الانف والفم

ولا يخفى ان اتجاه الغاز يتغير باتجاه الريح لذلك عدل الالمان عن استعمال الكلور الصرف وادخلوهُ في مركبات كيمياوية سائلة او فعلوا ما هو اسهل من ذلك فأسالوهُ وافرغوا هذه السوائل في قنابل يطلقونها على صفوف الاعداء حيث تنفجر فتخرج منها المواد السامة غازاً او دقائق صغيرة تملأ الفضاء . وقد وُجد ان ٩٥ ٪ من الغازات التي استعملت في الحرب يدخل في صناعتها مباشرة او غير مباشرة غاز الكلور الذي استخدم صرفاً في الحملة الاولى

﴿ غاز الفوسجين ﴾ الغاز الثاني الجديد استعمل في ديسمبر ١٩١٥ ويسمى الفوسجين وهو مركب كيمياوي كان معروفاً قبل الحرب لانهُ كان يستخدم في الصناعة لتجهيز بعض الاصباغ والفوسجين سائل يغلي عند الدرجة ٨ م. وهو اشد سمًّا من الكلور. فبينما يموت الكلب في الهواء الذي يحتوي اللتر منهُ على ٢٫٥ ملليجرام من الكلور بعد تعرضه له ٣٠ دقيقة اذا به يموت في الهواء الذي يحتوي اللتر منهُ على ٠٫٣ ملليجرام بعد تعرضه له نفس الزمن اي انهُ اثقل من الكلور ثماني مرات

ويجهز الفوسجين من غازين سامّين يعرفهما الطلبة جيداً وهما الكلور واول اكسيد الكربون اذا عرض مخلوطهما لضوء الشمس. وكلمة فوسجين مركبة من كلمتين معناها ناتج عن الضوء

، الصناعة لا يستخدمون الضوء في تركيب هذا الغاز بل يُمرّون مخلوط الغازين في صناديق
حونة بالفحم البلدي الذي يساعد على اتحادهما . وليس للفوسجين رائحة كريهة بل تشبه رائحته رائحة
نطة الخضراء . ولا يشعر الانسان به حتى يستنشق منهُ قدراً مميتاً . واستنشاق القليل منهُ
عف القلب ويؤثر فيهِ تأثيراً يدوم اياماً طويلة واذا اجهد المرء نفسه عقب ذلك فانهُ يموت

والفوسجين قليل النشاط الكيمياوي . لذلك تصعب الوقاية منهُ . غير انهُ يتحلل بمادة تدعى
Urotrodi كانت تستخدم في عمل الكمامات الاولى التي تتركب من قطعة من القماش مشربة
خلوط منهُ ومن الهيبو وكربونات الصوديوم والجاسرين

﴿ الكلوروبكرين ﴾ في ربيع سنة ١٩١٧ استعمل الالمان غازاً جديداً غير سام كثيراً
كنهُ يسبب دواراً وقيئاً ويثير في العيون دموعاً فيضطر الجندي الى رفع كمامة الغاز وعندئذٍ
رض نفسه لفعل غاز آخر كالفوسجين يطلقهُ العدو في نفس الوقت . وهذا الغاز الجديد
معب حجزه كلية بكمامات الغاز السام . واسمهُ كلوروبكرين Chloropicrin وهو مركب كان
، وفاً قبل الحرب مثل الكلور والفوسجين واول من حضّرهُ كيمياوي انجليزي يدعى
Stenhou سنة ١٨٤٨ من تفاعل الحامض البكريك ومسحوق ازالة الالوان

ويحضر الكلوروبكرين في الصناعة بامرار البخار في مخلوط من الحامض البكريك ومسحوق
الة الالوان فيتكوّن الكلوروبكرين ويخرج مع البخار . وهو سائل عديم اللون كالزيت لا يذوب
الماء . يغلي عند الدرجة ١١٢°م . وهو مركب ثابت لا يتحلل بالماء أو الحوامض أو القلويات
نفيفة . ومن حسن الحظ قد وجد ان الفحم المستعمل في كمامات الغاز السام يمتص هذا الغاز

والعين حساسة جداً تدرك وجود هذا الغاز في الهواء بسرعة فائقة مهما كان مقداره
يلاً . فالهواء الذي يحتوي على ٢٫٥ جزء من الغاز في كل مليون جزء من الهواء يجعل العين تغمض
خطرة بعد ١٨ ثانية والذي يحتوي على ٢٠ جزءاً من المليون يجعلها تغمض بعد ٤ ثوان فقط

﴿ غاز الخردل ﴾ ننتقل الآن إلى سيّد الغازات السامة وهو مادة جديدة لها اسماء
كثيرة . يسميها الانجليز غاز الخردل أو الغاز المحرق لشدة تأثيرهِ في الجلد . ويسميها الفرنسيون
يبريت لانها استعملت أولاً في منطقة الايبر . ويسميها الالمان الصليب الاصفر لانهم كانوا
رغونها في قنابل عليها علامة الصليب الاصفر تمييزاً لها عن القنابل الاخرى ويسميها
كيميائيون dichlorethyl sulphide اكتشف هذا المركب كيمياوي انجليزي سنة ١٨٦٠ . ثم
كيمياوي الماني يدعى فكتور ماير سنة ١٨٨٦ ولكنه وجد ان دراسته لا تخلو من خطر
همله ومن ذلك الوقت اهمل هذا المركب في قواميس الكيمياء وظل في زوايا الاهمال حتى
ستخدمه الالمان في الحرب العظمى . وفي يوليه سنة ١٩١٧ امطروه على الانجليز ففتك بهم
تكاً ذريعاً . ومن ثمَّ جعل الالمان يعتمدون عليه في الحرب وحذا الحلفاء حذوهم ويقال

ان في هجمة واحدة دامت عشرة ايام اطلق الالمان مليون قنبلة تحتوي على ٢٥٠٠ طن من هذه المادة

وغاز الخردل ليس بغاز ثم انهُ لا يصنع من الخردل بل هو مركب كيمياوي يجهز من الكحول والكلور والكبريت. وهو سائل يغلي عند الدرجة ٢١٦° م ويتبخر ببطء ويبقى في الخنادق ويختفي في التراب والملابس اياماً طويلة . وكمامات الغاز الخانق لا تقي المرء منهُ وقاية كافية. لأن الجندي لا بد له ان يخلع الكمامة وقتاً من الاوقات فيهاجمه الغاز الذي لا يزال منتظراً . وفي بعض الحالات تضطر الجنود الى لبس الكمامات ١٢ يوماً متتالية ليل نهار . وقد يظهر المكان خالياً من هذا الغاز ولكن عند ما تطلع الشمس وتسخن الارض يتبخر منها هذا السائل ويعلق بملابس الجنود وكماماتهم . وهو سام جداً كغيره من الغازات السابقة . ويمتاز عنها بأنهُ يلسع الجلد كالبخار . ويحرق الجسم من الداخل والخارج فيحدث حروقاً مؤلمة اذا اهملت تحولت الى جروح خبيثة تسمم الجسم وتحدث الوفاة فضلاً عن انهُ يؤثر في الاجزاء الطرية كالعين والانف والحنجرة والرئتين

وأهم مميزاته انهُ يبقى طويلاً وانهُ لا يحدث ضرراً في الحال بل يحدث ضرره فيما بعد . فقد يتأخر فعله يومان او ثلاثة ايام في الطقس الدافىء. وفي الطقس البارد لا يبدو خطرهُ الاَّ بعد مرور اسبوع او عشرة ايام وقد يتأخر شهراً او اكثر حتى يدفأ الجوّ ويتبخر السائل . ويصعب جداً ازالته من الارض والامكنة التي يسقط فيها . فيبقى خطره مدة اسابيع او اشهر وفي بعض الحالات سنة او اكثر

وقد استعمل الالمان مقادير هائلة منهُ كما اسلفنا لايقاع الرعب في نفوس الحلفاء واضعاف الروح المعنوية . ثم لاخلاء المواقع الحربية وتأجيل الهجوم . ويقال ان الالمان في ابريل سنة ١٩١٨ قذفوا بهذا الغاز بلدة فرنسية تدعى Armentieres حتى سال السائل في الشوارع ولم يرغم الانكليز على اخلاء المدينة والهروب فحسب ، بل ان الالمان انفسهم لم يستطيعوا دخول هذه المدينة والاستيلاء عليها قبل اسبوعين من اخلائها

ولما كان هذا الغاز يلبث مدة طويلة في الارض يعدونهُ غاز دفاع . فاذا استعملت منهُ مقادير كافية في منطقة من المناطق عجز العدو عن احتلالها او عبورها . ثم انهُ يرغم العدو على اخلاء المواقع الحصينة التي لا يمكن اخذها بالمدافع والقنابل المتفجرة وكذلك يبطل عمل المدفعية القوية التي تمطر العدو بشدة وابلاً من الرصاص والقنابل

﴿ غازات اخرى ﴾ علاوة على الغازات الاربعة السابقة اي الكلور والكلوروبكرين والفوسجين وغاز الخردل ، استعملت مواد اخرى كثيرة في الحرب يبلغ عددها ثلاثين غازاً مختلفاً. منها مركبات البروم والزرنيخ والسيانوجين وفيها ما هو اشد فتكاً من الغازات التي وصفناها. منها مسيلات الدموع ومهيجات العطاس فهنالك غاز تسمى Phenylcarbylamin Chlorid

يجعل اشجع شجاع في ميدان القتال يبكي ويذرف الدموع مدراراً . وغاز آخر يسمى diphenylchloroarsine يجعله يعطس عطساً مستمراً. فالغرض من قذف هذه الغازات حمل الجنود على رفع الكمامات وعندئذٍ تقع فريسة الغازات السامة الاخرى التي تقذف معها

﴿ تقسيم الغازات الحربية ﴾ لقد قسم الالمان جميع الغازات السامة التي استعملت في القتال الى ثلاثة اقسام سموها

(١) الصليب الاخضر : — ويشتمل على اشد الغازات سمًّا واقلها بقاءً في الجو او في الارض مثل الكلور والفوسجين

(٢) الصليب الاصفر : — الغازات التي تثبت طويلاً في الامكنة او الاشياء التي تسقط عليها مثل الكلوروبكرين

(٣) الصليب الازرق : — ويشتمل على غازات الدموع والعطاس مثل diphenylchloroarsine ولكل منها غاية حربية قد شرحناها عند الكلام على هذه الغازات . والاخير يرسل عادة مع الاثنين الاولين لحمل الجنود على رفع كمامات الغاز السام حتى تقع فريسة لهما

﴿ كمامات الغاز السام ﴾ نجد في تاريخ الحروب ان آلات الدفاع تسير جنباً لجنب مع آلات الهجوم فكلما جدّت آلة للهلاك ظهرت آلة للوقاية . ولم يجبن الانسان يوماً امام خطر جديد يهدده . فلما بدأت حرب الغازات استعمل للوقاية منها كمامات اولية عبارة عن قطع من القماش مبللة بمحلولات بعض المواد الكيمياوية مثل الهيبو وكربونات الصوديوم والبروتربين والجلسرين وكانت تربط هذه القطع على الفم والانف. ثم اخذت هذه الكمامات تتطور وتتحسن. واصبح لكل امة نوع خاص من الكمامات فللالمان كمامات خاصة وللفرنسيين كمامات خاصة وللانجليز والامريكان كذلك وجميعها لا تختلف في الجوهر كثيراً وان اختلفت في الشكل . وكمامة الغاز اجمالاً تتركب من قطعة تربط على الوجه وتتصل بانبوبة في صندوق صغير مملوء بفحم الخشب المصنوع من جوز الهند مختلطاً بمواد كيمياوية كالصودا والجير وبرمنجنات البوتاسيوم واملاح النيكل لامتصاص الغاز السام وافساد فعله . وعند استعمالها تربط هذه الكمامة على الوجه ربطاً جيداً بالصمغ المارن ثم يعقل الانف بمشبك ويؤخذ التنفس من الفم فيمرُّ الهواء أولاً في الصندوق حيث يفقد مابه من الغاز السام ثم يمر الى الفم . وعلى بعد خمسة اميال من ميادين القتال يعلق الجنود الكمامات على صدورهم ليكونوا على استعداد تام لاستعمالها عند سماع ناقوس الغاز السام المؤذن بالخطر

وتستعمل الكمامات لوقاية العين والانف والجهاز التنفسي. اما وقاية الجلد من بعض الغازات كغاز الخردل فتستعمل لها ملابس وقفازات واحذية خاصة تصنع من بعض المشمعات ثم تعالج ببعض المواد الكيمياوية وقد يوزّع احياناً على الجنود بعض المراهم لدهن الجلد . هذا وهنالك كمامات وملابس خاصة لوقاية الخيل والكلاب التي تستخدم في الحرب [للبحث تتمة]

غداة الحرب القادمة

نص البرقية التي ارسلها مكاتب المقطم
من فلادلفيا في ١٣ اغسطس سنة ١٩٤٠

زهقت أمس نفوس ستة ملايين من سكان مدينة نيورك وضواحيها ، اذ اقبلت على المدينة العظيمة ستمائة طيارة من طيارات « دول الاتفاق » فألقت فوقها ستاراً كثيفاً من غازي « الدايفنل كلوروارسين » و« الكاكوديل ايسوسيانيد » فقتلت كل رجل وسيدة وطفل وحيوان ونبات . ومات مليونان آخران من الناس في الضواحي البعيدة لماهبت الرياح تحملت الغازات الخانقة اليها . وفي الانباء العالمية ان ٣٦ مليوناً قتلوا في بلدان العالم المختلفة بهذه الطريقة في العشر الساعات الاخيرة

ان نيويورك ولندن وباريس وكاليه وبروكسل وبرلين وفينا اصبحت اليوم مدناً خاوية لا أثر فيها للحياة لأن هجوم الطيارات واطلاق قنابل الغاز عليها امس امات كل سكانها . ذلك ان الحرب اعلنت بين «دول الاتفاق» و«دول الحلفاء» في الساعة السادسة والنصف من صباح امس بعد خمسة ايام من المفاوضة المستمرة حاولت في خلالها حكومات الدول ان تفصل في الخلاف الناشيء عن مسألة «هاربر سايج» وظلت الولايات المتحدة الاميركية محتفظة بحيادها حتى فجر الامس مع ان دول الارض كانت قد انقسمت الى فريقين فأحدها يعرف بدول الاتفاق والآخر بدول الحلفاء . وكان مجلس التحكيم الدولي في لاهاي قد عهد اليه بالفصل في الامر فأعلنته دول الاتفاق في الساعة الرابعة من صباح الامس انها لا تسلّم بحكمه ، فقرّر مجلس الامة الاميركي ان يؤيد حكم المجلس الدولي فشهر الحرب على دول الاتفاق فكانت النتيجة ما رويت . وقد مات كل اولئك على أثر تنفسهم الغازات الخانقة فتمزقت رئاتهم وسقطوا في الشوارع او انكفأوا على مكاتبهم امواتاً

***

وقد صحبتُ الطيّار كارسُن في طيارته فلبس كلٌّ مناقناعاً واقياً من الغاز وحملنا من الاكسجين في زجاجات من الصلب ما يكفينا تسع ساعات وهبطنا مدينة نيورك في الساعة السابعة والدقيقة الثامنة والعشرين من هذا الصباح وجسنا خلال شوارع المدينة ومبانيها مدة سبع ساعات فلم نرَ أثراً للحياة فيها . ولا يزال الهواء مثقلاً بالغاز ولسنا نشكُّ في ان ستة الملايين من السكان الذين كانوا يمشون ويضحكون ويعملون ويتنزهون اول امس قد اصبحوا اجساماً هامدة . والجثث على اكثفها في شارع التجارة والمال (وول ستريت) حيث تجدها اكوا

متراكمة عند مداخل البنايات الشاهقة ولعل الجثث في مكاتب المدينة المالية وامامها في الشوارع لا تقل عن مليون ونصف مليون

والظاهر ان كل هذا وقع فجأة فلم يرد نبأ يشير الى احتمال وقوعه حتى في بورصة نيويورك المتصلة بانحاء العالم بكل وسائل المخاطبات. فالجثث تسدُّ المدخل الى البورصة وهي متراكمة في باحتها الداخلية ، ولكننا ازحنا بعضها من طريقنا ومشينا فوق جثث اناس لم يعلموا ما هو واقع حتى تسرَّب الغاز الى الباحة من النوافذ والابواب. والظاهر ان احدهم جنَّ جنونهُ اذ شعر بالغاز يشدّ الخناق عليه فرفع ذراعيه مستجيراً فتحطم زجاج ساعته فاذا هي واقفة على الساعة ٢٫٥٩ ولما كان سرب الطيارات المهاجمة قد اطلق قنابله الغازية في الساعة ٢٫٥٠ فالمرجح ان كل سكان الطبقات الارضية من حي منهتن قضوا في خلال ١٢ دقيقة بعد اطلاق الغاز

ونستطيع ان نقول على وجهٍ من التدقيق ، من دون مبالغة في التقدير ، ان النظام المالي في الولايات المتحدة ، قد اصبح الآن في خبر كان . فكل عمال البورصات المختلفة والبنوك ومكاتب السماسرة من المديرين الى السعاة قد قضوا نحبهم

ان كل الزعماء بين رجال المال والاعمال قد ماتوا

اننا وجدنا جثة رئيس بورصة نيويورك ملقاة امام مكتبه وقد وضع على انفه منديلاً كأنهُ يحاول ان يمنع الغاز من التطرق الى خياشيمه ورئتيه . ومات قابضاً على المنديل في محاولته اليائسة . اما ردهة بنك «الفدرال رزرف» فخاوية كالقبور. والغرف المتسعة المفروشة بالطنافس، التي كان يجلس فيها بالامس رجال يسيطرون على حركة الذهب العالمية ، مظلمة قاتمة كأنها اطلال حضارة بائدة . وامام كل مكتبٍ رجل وقد انكفأ عليه ميتاً . وفي اقبية البنك ملايين من الريالات الذهب والورق وليس ثمة من يحرسها فقد ذهب حرّاسها في سبيل كلّ حي في نيويورك

***

اما في الحيّ الشرقي فالنار تلتهم الاخضر واليابس. ذلك انهُ لما سقط الغاز كالغمام الخانق في المصانع ومات العمال تفجرت المراجل وانابيب الغاز المضيء فسرَتْ النار في المباني الخشبية القديمة سريانها في الهشيم فالتهمتها غير مبقية الا على السمنت المسلّح والصلب. ولا تزال اللهب الحمراء تغزو ما امامها وبين الفينة والفينة نسمع صوت انفجار جديد . ولا بدَّ من ازالة نحو اربعة ملايين جثة من الشوارع والمباني قبلما تصلح نيويورك للسكن ثانية . ولولا ان النار التهمت جثث مليونين من الموتى في الحيّ الشرقي للزم نقل ستة ملايين جثة على الاقل

هذه صورة نيويورك الآن — خواء وموات !

***

اما قسم التحرير في بناية جريدة « نيويورك تيمس » ، فيبدو لنا مما شاهدناهُ ان رجالهُ

ظلّوا في عملهم الى النهاية . ذلك انهم عرفوا قبيل غيرهم بالهجوم فاقفلوا النوافذ ، ولكن الغاز مالبث ان تسرَّب الى غرف التحرير فقضوا في كراسيهم . وقد عثرنا على برقيتين امام احد المحررين تحتويان على الانباء الاولى عن سرب الطيارات الهاجمة وهذا نصُّ اولاها

« عثر القسم الشمالي من الاسطول الاميركي في المحيط الاتلنتيكي على بحارة ثلاث سفن من حاملات الطيارات التابعة لاسطول دول الاتفاق . وكانت طيارات الاسطول الاميركي قد شهدتها من علو ١١ الف قدم فلما اقتربت منها رأت البحارة ينزلون من السفن ولم تلبث هذه السفن ان غرقت في اليمّ . فلما سئل البحّارة في ذلك فهم ان الاوامر صدرت لهذه السفن بالاقتراب من نيويورك قدر المستطاع ثم اطلاق طياراتها الستمائة المجهزة بقنابل الغاز الخانق

« ويعتقد ضباط البحرية الاميركية ان اغراق السفن الحاملة للطيارات غرضهُ الحيلولة دون اسرها والنسافات الاميركية تبحث الآن عن الاسطول الذي رافق هذه السفن الى حيث وصلت

« والظاهر ان امر قائد جيوش الاتفاق صدر الى الطيارات بمهاجمة نيويورك ثم بالطيران الى الفلوات الواسعة غربها حيث يحرق الطيّارون طياراتهم ويسلمون انفسهم للاسر »

اما البرقية الثانية فبلاغ رسميٌّ من قيادة الجيوش الاميركية يبين ان وزارة الحربية مستعدة لهجوم طيارات الاتفاق وان نيويورك محصنة اشدَّ التحصين ضدَّها ، وتشيد خاصة بذكر مدفع خاص لمقاومة الطيارات المهاجمة . ويؤخذ من انباء الحالة الجوية التي عثرنا عليها في مكتب هذه الجريدة ان ضباباً كثيفاً كان يغطي وجه المدينة في الساعة التي حدث فيها الهجوم وهذا الضباب حال دون فعل المدافع الخاصة التي صنعت لمقاومة الطيارات

والظاهر ان طيارات الاعداء لم تحفل بالضباب بل اعتمدت على آلاتها فلما دلّتها الآلات على انها اصبحت فوق نيويورك رمت قنابلها ومضت في سبيلها

***

ولما بدأ الهجوم تقاطر الناس الى الكنائس للضراعة فوجدنا نحو الف وخمسمائة من الاموات في كنيسة ترنتي و٢٠٠٠ في كاتدرائية القديس باترك و١٤٠٠ في كنيس عمانوئيل و٨٠٠ في كنيسة رڤرسيد . والموتى الذين وجدناهم في الكنائس كانوا من سلالات وشعوب مختلفة ومعظمهم كان راكعاً يصلي . ودخلنا مستشفى القديس لوقا فوجدنا الجرّاح ميتاً امام مائدة العمليات والعليل عليها ميتاً بفعل الغاز الخانق وكان لا يزال تحت فعل المخدّر — الايثر — وفي جناح آخر من المستشفى عثرنا على احد « التمرجية » ينظف اذني مريض وطبيباً جالساً وامامهُ كتاب يقرأ فيه فصلاً في الادرينالين واستعماله في الاطفال بعيد الوضع

وانتقلنا الى جامعة كولومبيا فرأينا رئيسها مات صريعاً عند مدخل دار الكتب فيها حيث مكتبهُ . والظاهر انهُ أحسّ بجماهير الطلاب خارجة من مباني الجامعة فخرج ليرى سبب ذلك .

فسقطت في تلك اللحظة احدى قنابل الغاز على بناية مدرسة الحقوق فتشظت واصابتهُ شظية تائهة فتلتهُ في الحال

أما فتيان نيويورك فات معظمهم في المدارس قبيل انصرافهم إلى دورهم . وقد رأيت في احدى المدارس المعلمة ميتة وكأنها كانت قبل هجوم الطيارات تقرأ على تلاميذها — وكلهم دون العاشرة — قصة وطلبت اليهم ان يكتبوها فوجدنا أمام كل منهم ورقة عليها نفس الكلام وكان التلاميذ واحداً وثلاثين تلميذاً . وكان كل تلميذ جالساً مسنداً رأسهُ بيده ، الا واحداً وكأنهُ جزع اذ أحس بالغاز في حلقهِ فنادى المعلمة فخفّت اليهِ لتشجعهُ فماتا معاً وذراعاها تطوقانهِ

أما القطارات التي تسير في الانفاق تحت الارض ومحطاتها فكانت غاصة بالجثث فلم نستطع ان ننزل الى بعضها . وكذلك قطارات السكك الحديدية ومحطاتها وبوجهٍ خاص محط « غراند سنترال » ومحط « بنسلفانيا » وهما بمثابة العقدتين العصبيتين الرئيسيتين في خطوط السكك الحديدية الاميركية في الشرق

واذا بقي احدٌ حيًّا في نيويورك فلعله معتصم بالطبقات العليا في ناطحات السحاب مثل بناية الامبراطورية وبناية كريسلر وبناية ولورث وغيرها . إذ يمكن ان الغاز لم يتسرب الى هذه الادوار العالية لانه ثقيل الوزن يهبط الى الارض . وقد حاولت انا وزميلي الطيّار ان نصعد إلى بعض هذه الادوار فالفينا المصاعد لا تعمل لان التيار الكهربائي مقطوع وليس من يدير المصاعد وكانت عدتنا من الاكسجين قد اخذت تنفد فلم نشأ ان نصعد سيراً على الاقدام . وانما نقول اننا صعدنا إلى الدور السابع فألفينا كل ساكن من سكانها ميتاً

ثم ان الحديقة الكبيرة المعروفة بسنترال پارك تعلوها مسحة الموت فقد فتك غاز الاعداء بكل حي فيها حتى الاشجار والانجم والاعشاب

***

ولما صعدنا إلى طيارتنا لبثنا متقنعين حتى بلغنا إلى علو ٤٠٠٠ قدم خوفاً من الغاز الخانق الذي في الهواء . فلما بدأنا نتنفس الهواء النقي الطلق اخذتُ من جيبي مسودة مقالة التقطتها في بناية احدى الصحف الكبيرة فاذا موضوعها «العزلة» يقرر فيها كاتبها ان الولايات المتحدة الاميركية حسنة الحظ لبعدها عن مواقع الحروب وانها لذلك في امن من هجوم الاعداء وان قائد الجيش الاميركي المقيم في منطقة نيويورك أنبأ الرئيس بأن الدفاع عن المدينة ضد هجوم الطيارات لا يعوزه شيء» . فضحكت في ذات نفسي وقلت «ليس ثمة ما يمكن ان يصد هجوماً من الهواء اذا كان المهاجمون مستعدون لبذل الثمن من مال وارواح . ان الفاً من المدافع وعشرات من الطيارات لا تستطيع ان تصدَّ هجوماً جويًّا نظم على احدث الطرق»

ونحن الآن متجهون الى فيلادلفيا وامامي الآلة الكاتبة اطبع بها وصف ما شاهدت

المنذر بن ماء السماء

ملك الحيرة

٥١٤ — ٥٦٣ م

بقلم يوسف رزق الله غنيمه وزير مالية العراق سابقاً

لم يرو لنا المؤرخون العرب شيئاً عن اشتراك المنذر بن ماء السماء في الحرب الشعواء التي اثارها على الروم سنة ٥٤٠م اذ عبر الفرات قرب قرقيسيا وهبط على انطاكية وغزاها ودمّرها ونقل سكانها الى العراق الاّ ان كلاً من الطبري وابن الاثير[١] ينقل الينا خبراً نظن له علاقة بهذه الحرب وبملوك الحيرة اللخميين وان احتاج الى تمحيص ونقد من وجوه عديدة واليك خلاصته : كان بين كسرى انو شروان وغطيانوس Justinian ملك الروم هدنة فوقعت فتنة بين رجل من العرب كان غطيانوس ملّكه على عرب الشام يقال له خالد بن جبلة وبين رجل من لخم كان ملّكه كسرى على عمان والبحرين واليمامة والطائف وسائر الحجاز يقال له المنذر ابن النعمان. فأغار خالد على المنذر ابن النعمان فقتل من اصحابه مقتلة عظيمة وغنم امواله فكتب كسرى الى غطيانوس يذكره ما بينهما من العهد والصلح ويعلمه ما لقي المنذر من خالد وطلب ان ينصف المنذر ويأمر خالداً ان يعيد اليه ما نهبه منهُ فلم يحفل به[٢]. فغزا كسرى بلاد الروم في سعين الفاً وكان طريقه على الجزيرة فأخذ مدينة دارا والرها وعبر الى الشام فملك منبج وحلب وانطاكية وفامية وحمص ومدناً كثيرة متاخمة لهذه المدن وسبي اهل انطاكية ونقلهم الى ارض السواد وأمر فبنيت لهم مدينة الى جانب مدينة طيسفون وافتدى غطيانوس المدن الرومية من كسرى . ويقول الطبري ان رومية المدائن كانت تشبه كل الشبه انطاكية حتى ان الاسرى الانطاكيين دخلوا رومية المدائن ووجد كل واحد بيته بدون صعوبة كأنهم في انطاكية ولم يخرجوا منها

ان هذه الرواية توافق الاحوال التاريخية كلها الاّ ان امراً واحداً يتطلب الحلّ. لا غريب في امر تولية المناذرة الحكم في عمان والبحرين واليمامة والطائف بعد زوال ملك كندة من آل آكل المرار. قال المستشرق السر تشارلس ليل[٣] : ولما انقضى امر كندة وسع ملوك الحيرة نطاق مملكتهم فشملت النصف الشمالي من جزيرة العرب والجانب الشرقي منها مما يلي خليج

(١) الطبري ٢ : ١٢١ والكامل ٢ : ١٢١ (٢) وجاء ذكر هذه الوقعة في الشاهنامه للفردوسي في الترجمة العربية ٢ : ١٢٦—١٢٩ (٣) في خطبة القاها في مؤتمر الدروس التاريخية بعنوان تاريخ العرب من شعرهم القديم ونشرها المقتطف في عدد فبراير ١٩١٤ ص ١٦٣ — ١٦٩

فارس ويكثر ذكر المنذر الثالث وابنه عمرو بن هند في اشعار ذلك العصر » . ونعلم ايضاً ان المنافسة بين الغساسنة والمناذرة على عرب الشمال كانت متأصلة في النفوس منذ حكم الكنديين وكان كل من الغسانيين والمناذرة ينازعون الكنديين هذا الحكم [١] . ولكن المشكل الوحيد الذي يقوم امامنا في رواية الطبري وابن الاثير قولهما المنذر بن النعمان ونحن نعلم ان ملك الحيرة كان المنذر بن امرىء القيس الثالث وهو المعروف بالمنذر بن ماء السماء وليس المنذر ابن النعمان . فيحل هذا المشكل رأيان اولهما ان المؤرخين الطبري وابن الاثير ذكرا سهواً المنذر بن النعمان بدل المنذر بن امرىء القيس وقد اشار الى هذا السهو كليمان هوارت اذ قال يسميه بعضهم غلطاً ابن امرىء القيس البدء و بعضهم ابن النعمان [٢] والرأي الثاني ان عميل كسرى في عمان والبحرين واليمامة والطائف كان احد اللخميين المسمى المنذر بن النعمان على ما رواه المؤرخون العرب

ومن حوادث المنذر بن ماء السماء المشهورة عند العرب انهُ كان له نديمان من بني اسد وهما خالد بن فضلة وقيل ابن المضلل وعمرو بن مسعود فثملا فراجعا الملك ليله في بعض كلامه فأمر وهو سكران ان يحفر لهما حفيرتان في ظهر الكوفة ودفنهما حيين فلما اصبح استدعاهما فاخبر بالذي امضاه فيهما فغمهُ ذلك وقصد حفرتيهما وامر ببناء طربالين عليهما وهما صومعتان وقال ما انا بملك ان خالف الناس امري [٣] وسنَّ الا يمرّ بهما احدٌ الاّ سجد لهما وكان اذا سنّ الملك منهم سنة توارثوها وأحيوا ذكرها وجعلوها عليهم حكماً [٤] وجعل لهما في السنة يوم بؤسٍ ويوم نعيم يذبح في يوم بؤسه كل من يلقاه ويغري بدمه الطربالين ولبث بذلك برهةً من دهره وسمى احد اليومين يوم البؤس وهو اليوم الذي يقتل فيهِ ما ظهر له من انسان وغيره وسمّى الآخر يوم النعيم يحسن فيهِ الى كل من يلقى من الناس ويحملهم ويخلع عليهم فخرج يوماً من ايام بؤسهِ فطلع عليهِ عبيد بن الابرص الشاعر الاسدي وقد جاء ممتدحاً فلما نظر اليهِ قال هلاّ كان الذبح لغيرك يا عبيد فقال عبيد اتتك بحائن رجلاه [٥] وبعد كلام طويل بين المنذر وعبيد نسب العرب اليهِ منشأ امثال كثيرة في لغة الضاد . وبعد ان انشد عبيد بعض الاشعار قال له المنذر يا عبيد لا بدَّ من الموت وقد علمت ان النعمان [٦] ابني لو عرض لي يوم بؤسي لم اجد بُدّاً من ان اذبحه فاما ان كانت لك وكنت لها فاختر احدى ثلاث خلال ان شئت فصدتك من الاكحل وان شئت من الابجل وان شئت من الوريد فقال عبيد ابيت اللعن [٧] ثلاث خلال كساحيات واردها شر وارد وحاديها شر حاد ومعاديها شر معاد فلا خير فيها لمرتاد

---

(١) زيدان: العرب قبل الاسلام ١ : ٢٠٧ (٢) Huart : His. des Arabes I : 67 . ويدعوه الطبري ٢ : ٨٦ المنذر بن النعمان الاكبر وأمه ماء السماء وفي ٢ : ٩٤ قال نقلا عن ابن هشام وملك بعد ابي يعفر بن علقمة المنذر بن امرىء القيس البدء وهو ذو القرنين وامه ماء السماء (٣) معجم البلدان مادة « غري »
(٤) المسعودي مروج الذهب ٦ : ٢٥٢ تدل هذه الرواية على ان اوامر الملوك عندهم شرائع واجبة الطاعة
(٥) راجع مجمع الامثال للميداني ١ : ١٠٧ (٦) ان صح هذا القول كان للمنذر بن ماء السماء ابن اسمه النعمان
(٧) تحية الملوك ومعناها لا تأت بعمل يستوجب اللوم واللعن

ن كنت لا محالة قاتلي فاسقني الخمر حتى اذا ماتت لها مفاصلي وذهلت منها دواهلي فشأنك وما تريد من مقاتلي فاستدعى له المنذر الخمر فشرب فلما اخذت منهُ وطابت نفسه وقدمه المنذر انشأ يقول:

وخيرني ذو البؤس في يوم بؤسه خلالاً ارى في كلها الموت قد برق
كما خيرت عاد من الدهر مرة سحائب ما فيها لذي خيرة انق
وسحائب ريح لم توكل ببلدة فتتركها الا كما ليلة الطلق

ثم امر بهِ المنذر ففصد حتى نزف دمه فلما مات غرّى بدمهِ الغريين

وبقي المنذر[1] على تلك السنة حتى مرّ بهِ في بعض ايام البؤس حنظلة بن ابي عفر فاستمهله في قتله سنة بكفالة شريك بن عمرو فامهله المنذر . ورجع حنظلة بعد سنة في آخر نهار الاجل المضروب لينقذ كفيله شريكاً من القتل فراع المنذر هذا الوفاء وسأل حنظلة عن سببه فاجابهُ حنظلة ابرّ بوعده لانهُ كان على دين النصرانية الذي يأمر بالوفاء فأثّر هذا الكلام في المنذر واكبر هذه الخلة الشريفة فتنصّر هو واهل الحيرة وابطل هذه السنّة العاتية

وعلى ذكر تنصّر المنذر نقول ان امه كانت على النصرانية وهي مارية الملقبة ماء السماء على اشهر الاقوال[2] الا انهُ تقلّب في اعتقاده بين وثنية عرب الجاهلية والمجوسية وقد ذهب بعضهم الى انهُ دان بالمزدكية[3] وكانت زوجته هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الكندي مسيحية وتسمى هند الكبرى وهي صاحبة الدير الذي باسمها وكانت قد كتبت عليهِ[4]

« بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الاملاك وام الملك عمرو بن المنذر أمة المسيح وأم عبده وبنت عبيده في ملك ملك الاملاك خسرو انوشروان في زمن مار افريم الاسقف . فالإله الذي بنت لهُ هذا الدير يغفر خطيئتها ويترحم عليها وعلى ولدها ويقبل بها ويقوّمها الى امانة الحق ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر »

وتزوّج المنذر بن ماء السماء بأخت زوجتهِ هند ايضاً واسمها امامة. وولدت لهُ كل منها اولاداً. وكان له من هند ولد اسمه عمرو بن هند خلفه في الملك ومن امامة ولد عرف بعمرو ابن امامة[5]

ومن حروب المنذر بن ماء السماء حرب « يوم عين اباغ »[6] وكان سببها ان المنذر سار من الحيرة في معد كلها وحدث ان نزل بعين اباغ بذات الخيار وأرسل الى الحرث الاعرج بن جبلة ابن ثعلبة بن جفنة بن عمرو مزيقيا بن عامر الغسّاني ملك العرب بالشام[7] اما ان تعطيني العذبة فانصرف

---

(١) يسند بعض المؤرخين هذه الرواية الى النعمان الاول ويرويه غيرهم عن النعمان ابي قابوس ولكن الراي المرجح انه المنذر بن ماء السماء (٢) النصرانية وآدابها ٨٨ (٣) كذلك . ولكن هذا القول يخالف ما ذكره بعض المؤرخين من ان سبب نكبته كان امتناعه عن قبول المزدكية (٤) معجم البلدان مادة دير هند الكبرى (٥) معجم البلدان في المادتين (قضيب) و « مرجح » (٦) الكامل لابن الاثير ١ : ٢٢٢ وعين اباغ ليست بعين ماء وانما هو واد وراء الانبار على الفرات الى الشام. قال ياقوت في معجمه وكان عندها في الجاهلية يوم مهم بين غسان ملوك الشام وملوك لخم ملوك الحيرة قتل فيها المنذر بن المنذر ابن امرىء القيس اللخمي . قلنا والمشهور ان القتيل فيها المنذر ابن امرىء القيس (٧) وقيل ابو شمر عمرو ابن جبلة بن النعمان ابن الحرث الايهم ابن مارية الغساني وقيل هو ازدي تغلب على غسان

عنك بجنودي واما ان تأذن بحرب فارسل اليهِ الحرث انتظرنا ننظر في امرنا فجمع عساكره وسار نحو المنذر وأرسل اليهِ يقول له انا شيخان فلا تهلك جنودي وجنودك ولكن يخرج رجل من ولدي ويخرج رجل من ولدك فمن قتل خرج عوضه آخر واذا فني اولادنا خرجت انا اليك فمن قتل صاحبه ذهب بالملك فتعاهدا على ذلك فعمد المنذر الى رجل من شجعان اصحابه فأمره ان يخرج فيقف بين الصفين ويظهر انهُ ابن المنذر فلما خرج اخرج اليهِ الحرث ابنه ابا كرب فلما رآه رجع الى ابيه وقال ان هذا ليس بابن المنذر انما هو عبده او بعض شجعان اصحابه فقال يا بني أجزعت من الموت ما كان الشيخ ليغدر فعاد اليهِ وقاتله فقتله الفارس والقى رأسه بين يدي المنذر وعاد فأمر الحرث ابناً له آخر بقتاله والطلب بثأر اخيه فخرج اليه فلما وافقهُ رجع الى ابيه وقال يا ابتِ هذا عبد المنذر فقال يا بنيّ ما كان الشيخ ليغدر فعاد اليهِ فشدّ عليهِ فقتله فلما رأى ذلك شمر بن عمرو الحنفي وكانت امه غسانية وهو مع المنذر قال ايها الملك ان الغدر ليس من شيم الملوك ولا الكرام وقد غدرت بابن عمك دفعتين فغضب المنذر وامر باخراجه فلحق بعسكر الحرث فأخبره فقال له سل حاجتك فقال له حلتك وخلتك فلما كان الغد عبر الحرث اصحابه وحرضهم وكان في اربعين الفاً واصطفوا للقتال فاقتتلوا قتالاً شديداً فقتل المنذر وهزمت جيوشه

وفي رواية ان شمر بن عمرو الحنفي احد بني سحيم قتل المنذر غيلة وذلك ان الحرث ابن جبلة الغساني بعث الى المنذر بمئة غلام تحت لواء شمر هذا يسأله الامان على ان يخرج له من ملكه ويكون من قبله فركن المنذر الى ذلك وأقام الغلمان معهُ فاغتاله شمر بن عمرو فقتله [(١)] وجاء ان غساناً اسرت امرىء القيس بن المنذر يوم قتلت اباه فأغارت بكر بن وائل على بعض بوادي الشام فقتلوا ملكاً من ملوك غسان واستنقذوا امرىء القيس بن المنذر واخذ عمرو ابن هند بنتاً لذلك الملك يقال لها ميسون [(٢)]

وقال ابن الاثير [(٣)] بعد قتل المنذر أمر الحرث بابنيه القتيلين فحملا على بعير بمنزلة العدلين وجعل المنذر فوقهما فرداً وقال «يالعلاوة دون العدلين» فذهبت مثلاً وسار الى الحيرة فانهبها واحرقها ودفن ابنيهِ بها وبنى الغريين عليهما في قول بعضهم الاّ ان بعض المؤرخين يستبعدون ذهاب الحارث الغساني الى الحيرة ويستبعدون اكثر منه دفن ابنيهِ وبناءه الغريين عليهما

وفي يوم اباغ يقول ابن الرعلاء :

كم تركنا بالعين عين اباغ … من ملوك وسوقة اكفاء
امطرتهم سحائب الموت تترى … ان في الموت راحة الاشقياء
ليس من مات فاستراح بميت … انما الميت ميت الاحياء

ويظهر من مقارنة الحوادث ان موقعة يوم اباغ كانت سنة ٥٦٣ ميلادية

ومما يذكر عن المنذر بن ماء السماء انه اوفد وفداً على ابرهة بعد ان فتح الاحباش بلاد

(١) الاغاني ٩ : ١٧٢ (٢) كذلك ص٧٣ (٣) الكامل ١ : ٢٢٣

اليمن[١] وينسب الى المنذر هذا بناء قصر الزوراء في رواية[٢]. ويقال انه كان يجير جاره شديد الشهامة عليه ومن ذلك ان ابا دواد الشاعر كان جاره . فنازع ابو دواد رجلاً بالحيرة من بهراء[٣] يقال له رقبة بن عامر فاخرج ابو دواد بنين له ثلاثة في تجارة إلى الشام فبعث رقبة الى قومهِ فقتلوهم فحبس المنذر ابا دواد وبعث كتيبتيه الدوسر والشهباء لمعاقبة المجرمين[٤]

ومن حديث الادباء ان الوفود اجتمعت عند المنذر بن ماء السماء بن امرىء القيس فاخرج المنذر بردين يوماً يبلو الوفود وقال ليقم اعز العرب قبيلة فليأخذهما فقام عامر بن احيمر بن بهدلة فاخذهما واتزر باحدهما وارتدى بالآخر فقال له المنذر أأنت اعز العرب قبيلة قال العزّ والعدد في معد[٥] ثم في نزار[٦] ثم في مضر[٧] ثم في خندف[٨] ثم في تميم[٩] ثم في سعد[١٠] ثم في كعب[١١] ثم في عوف[١٢] ثم في بهدلة[١٣] فمن انكر هذا فلينافرني فسكت الناس[١٤] ومما يذكر عن المنذر انهُ كانت له ابنة اسمها فاطمة كان يهواها المرقش الاصغر الشاعر وقال فيها الغزل[١٥]

وقد نسب العرب بعض الاقوال المأثورة الى المنذر بن ماء السماء ومنها : العز تحت ظلال السيوف . وحصون العرب الخيل والسلاح . والحرب سجال عثراتها لا تقال[١٦] ونسب اليهِ الميداني[١٧] المثل القائل « تسمع بالمعيدي خير من ان تراه » وذلك في حكاية طويلة يلخصها ان بني ضمرة بن جابر وقعوا في يد لقيط بن زرارة فاساء ولايتهم واهانهم فوسط بنو نهشل المنذر بن ماء السماء لاسترجاعهم من لقيط فاسترجعهم ودعاهم امامه وكان يعجبه ما يسمعه عن خلال شقة بن ضمرة ولم يكن منظره يرضيه فقال له « تسمع بالمعيدي خير من ان تراه » . فاجابه شقة أبيت اللعن واسعدك الهك ان القوم ليسوا بجزر يعني الشاء « يعيش الرجل بأصغريهِ لسانه وقلبه »[١٨]. وجاء ذكر المنذر في كثير من اشعار عرب الجاهلية الذين عاصروه[١٩] وقصارى القول ان المنذر بن ماء السماء من اشهر ملوك الحيرة[٢٠]

---

(١) زيدان العرب قبل الاسلام ١ : ١٥٩ و ٢٠٧ (٢) كذلك ص ١٥٩ (٣) بهراء بطن من قضاعة من القحطانية وهم بنو بهراء بن عمرو بن الحافي بن قضاعة (٤) الميداني مجمع الامثال ١ : ٣١ في تفسير المثل (انا النذير العريان) (٥) معد بطن من عدنان وقيل هو بطن متسع ومنهم تناسل جميع بني عدنان (٦) بنو نزار بطن من عدنان وهم بنو نزار بن معد بن عدنان

(٧) مضر قبيلة من العدنانية وهم بنو مضر بن معد بن عدنان (٨) بنو خندف بطن من مضر من العدنانية وهم بنو الياس من مضر . وخندف اسم امرأة الياس عرف بنوها بها (٩) بنو تميم من طابخة وهو من عدنان وهم بنو تميم بن مر بن اد بن طابخة وكانت منازلهم بارض نجد . ونزلوا من هنالك على البصرة واليمامة وامتدت الى القرى من ارض الكوفة ثم تفرقوا بعد ذلك في الحواضر (١٠) بنو سعد بطن من تميم (١١) كعب بطن من تميم من العدنانية وهم بنو سعد بن زيد مناة (١٢) عوف بطن من تميم من العدنانية وهم بنو عوف ابن كعب بن سعد بن زيد مناة كان له من الولد عطارد وبهدلة وغيرهما (١٣) بطن من تميم وهم بنو بهدلة بن عوف ابن كعب بن سعد بن زيد مناة من تميم (١٤) شعراء النصرانية ١٣٣ (١٥) الاغاني ٥ : ١٧٩ (١٦) الامام ابو منصور الثعالبي النيسابوري : الايجاز والاعجاز ص ١٥ (١٧) مجمع الامثال ١ : ٨٧ (١٨) كذلك ٢ : ٢٥٣ (١٩) تشارلس ليل : المقتطف فبروري ١٩١٤ (٢٠) استللنا هذا المقال من كتابنا المخطوط « الحيرة : المدينة والمملكة العربية » . راجع مقتطف اكتوبر ونوفمبر ودسمبر ١٩٣٢

انا الميت الحي

لتوفيق مفرّج
صاحب كتاب « آلام وأحلام »

الوداع ايها الشعر والحب
الوداع ايها الشباب والقلب
انتم الحياة ، فالوداع ايتها الحياة
الوداع ايتها العاطفة التى لا تزال مضطرمة متأججة في صدري
الوداع ايها الفن — ايتها الموسيقى — ايها الغناء
الوداع ايها الخيال — الوداع ايها الالهام
انا سائر في سبيلي
انا اعدو وراء اشغالي واعمالي
انا منصرف عن ادبي الى تجارتي ، وعن جمع الحكمة والافكار، الى جمع المال والدينار
فالوداع ياقلمي !

* * *

منذ عشر سنوات القيت بنفسي في بحر هذا العالم الواسع
قلت للناس — انا اديب احب الادب وعالم احب العلم و مفكر احب التأمل والتفكير
وقفت في زوايا الشوارع اعرض بضاعتي واقدم أثمار افكاري
وكانت الجماهير العمياء تمر وتنظر نحوي بازدراء واحتقار، وفي نظراتها شفقة اشد من ذلك الازدراء ، ورحمة أذلّ من ذلك الاحتقار
وكانت تموجات الاثير تحمل اليّ كلمات عابري السبيل يقولون :
شاعرٌ تاعس وكاتب فقير !

***

وكنت انادي بصوت عال
عندي اشعار وعندي علوم !
عندي فلسفة وعندي آداب !
فلم يكن ثمة من يسمع

ولم يكن ثمة من يجيب
ولم يكن ثمة من يشتري
كسدت افكاري ، وبارت بضاعتي ، وضاعت آمالي
فاضطررت ان انصرف عن الشعر والعلم ، الى التجارة والمال

***

وبعد سنين جئت الى اولئك الذين احتقروني شاعراً وازدروني كاتباً وقلت
عندي اشياء جديدة
عندي اموال
عندي سيارات
عندي منازل وعزب واطيان
واذا باعداء الامس يتحوّلون الى أصدقاء
والذين يقولون شاعر تاعس فقير ، هم هم يقولون
تاجر عظيم ومتموّل كبير
راجت بضاعتي المادية لان الناس ماديون يفهمونها ويطلبونها . وكسدت بضاعتي الادبية لان الناس لاهون عن الادب ، عن الشعر ، عن الفلسفة ، عن الخيال والفن

***

اما انا —
فأنا التاجر الخاسر رغم ارباحي
انا الكاتب الغني الذي يشعر بفقره
بعت روحي لاشتري جسدي
اضعت حياتي لاجد لذتي
هبطتُ من الحياة الى الموت، ومن النور الى الظلمة، ومن سماء الخيال الى حضيض الارض
بعتُ القصورة الجميلة في الهواء ، لاشتري داراً حقيرة على الارض
أنا الشاعر الذي قدّم دفاتره إلى محكمة الادب العليا فاعلنت افلاسه
أنا الشاعر التاجر الذي مات شاعراً ليحيي تاجراً

***

وها أنا الآن استعرض امام نفسي ما جمعت من مال فاجده لا يوازي كلمة واحدة من شعري

لان شعري وليد روحي وغذاؤها وحياتها
هو رفيقها بعد الموت الى ما وراء الابدية
هو سلواها في أفراحها وأحزانها لانهُ خالد مثلها
هو جزء مني لا يتجزأ عني إن عشت ، ويبقى معي بعد أن أموت
أما مالي فلُعبة ألهو بها أياماً ثم أتركها لسواي

***

فيا أيها العالم الجميل البديع الذي عرفتهُ في تماشر اهل الدنيا — قل لي كيف وأنا صحيح عقلاً وجسداً ، اهجر قلمي وانبذ شعري لاعود إلى تجارتي ومالي
كيف أرضى أن أحيي يوماً لاموت أبداً
أيها الذين يعرفونني — انظروا إليَّ وأشفقوا عليَّ
أنا الميت الحي !
انظروا كفني
هو أوراق مالية مكتوب عليها تدفع ذهباً ولا تدفع إلاَّ ورقاً
انظروا إلى نعشي
سندات وقراطيس
انظروا إلى قبري
هو قطعة من الفضة موشاة بالذهب
ايها الناس !
لقد ربحت العالم وخسرت نفسي
ايتها السماء
خذي مالي وجميع ما ملكت يداي وارجعي اليَّ شعري

***

لبست ثوب الشاعر فمات جسدي جوعاً وبرداً
ولبست ثوب التاجر فتنعم ذلك الجسد بالدمقس والحرير
اما الروح التي تنعمت في جسد الشاعر لفقره وبؤسه
فهي الروح التي تتألم في جسد التاجر لثروته وماله
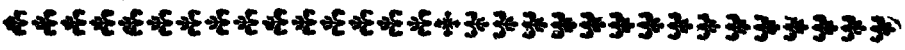
عصر الانسانية المقبل

الانتقال من الفردية المطلقة الى التنظيم الاجتماعي
والبناء على مثال النمل والنحل

من بحث لاندره موروى الكاتب الفرنسي المشهور
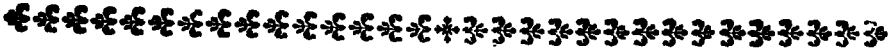
هل ثمة اساس لما يقال من ان تاريخ الانسانية تتداوله عصور يتلو جديدُها قديمَها ؟ أليس تتابع الحوادث في التاريخ مستمراً فاذا عمد المؤرخ لدرس الماضي اخذ الشريط الذي دوّنت عليهِ الحوادث ، وقطعهُ قطعاً تسهيلاً لتناوله فيدعو قطعة منهُ «العصور الوسطى» واخرى «العصر الحديث» وهكذا . ثم أليس من المتعذّر اقامة الدليل على ان ابناء عهد ما كانوا يشعرون بأنهم منتقلون من عصر الى عصر . فالحوادث التي تحسب الآن اعلاماً في طريق التاريخ لم يحسبها كذلك الذين عاصروها . فبنطيس بيلاطس لم يتخيل قط ما سوف يكون مقامهُ في التاريخ . فلما انقضت نحو ستمائة سنة على ميلاد المسيح قرر احد الرهبان ان يجعل سنة ميلاده مبدءًا للتقويم المسيحي . ولما هجم الفرنسيون على حصون البستيل يوم ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ تريّث لويس السادس عشر ليدون في يوميته وصف حفلة صيدٍ وقنصٍ حضرها ! ان الثورات الحقيقية هي بمثابة قنابل تنفجر بعد ما ترتدّ اسبابها الى آفاق الماضي الذاهبة

وتيار التاريخ يكون آناً رهواً وآناً صاخباً متدفقاً . وهو تارةً بطيءٌ فاذا استطلع المؤرخ ضفافهُ الفاها على وتيرة واحدة ثم يسقط فجأة من مرتفعٍ فيحدث دويّاً وصخباً

ولو ان رجلاً من معاصري الامبراطور ديوقلطيانوس رأى رومانيّاً من عصر الامبراطور اغسطس لعرفهُ رغم القرون الفاصلة بين عهدي الامبراطورين . او لو ان فرنسياً نام في باريس سنة ١٦٦٦ واستيقظ سنة ١٧٨٨ لعرف الملك وبلاطه . واذا ألمَّ بآراء الفلاسفة استغربها ولكنها لم تذهلهُ . ولكنه لو نام ثانية سنة ١٧٨٨ واستيقظ سنة ١٧٩٨ لوجد نفسه في عالم لا يفهمهُ على الاطلاق . ولو ان اميركيّاً من العقد السابع في القرن الماضي ظهر في نيويورك سنة ١٩٣٠ لحسب متوحشاً جاهلاً لا يعرف ابسط حقائق الحياة

فاذن نستطيع ان نحسب كل فترة قصيرة من الزمان حدث في خلالها انقلاب اساسيّ في حياة الناس وافكارهم ، بواسطة عقيدة جديدة او سلسلة من المستنبطات او ارادة عبقري متفوق ، مفتتح عصر جديد . فهل نحن في مفتتح عصر جديد ؟ واذا كنا في مفتتحهِ فما أسباب الانقلاب وما ينتظر ان يتصف بهِ العصر المقبل . وقد قلنا ان اسباب الانقلاب تفعل فعل القنابل ، فهل تحت اركان المجالس النيابية الآن ، مراجل تغلي وشيكة الانفجار ؟

في القرن السادس عشر غرس المصلحون البروتستانت، وبوجهٍ خاص المصلح كلفن، فكراً جديداً في اذهان الناس. قالوا اننا لا نحتاج الى وسيط بيننا وبين الله، بين الكتب المقدسة وعامة القراء. فدعوا بذلك الى الحرية في ميدان العقيدة الدينية، ومهدوا الطريق للدعوة الى الحرية في ميدان التفكير السياسي. فالرجل الذي يستطيع ان يفسر التوراة يستطيع كذلك ان يحكم في شؤون الدولة. والرجال الذي يتساوون امام الله، يجب ان يكونوا متساوين امام القانون. فالفلسفة الفردية كانت مطوية في تضاعيف الاصلاح الديني

ومن الغريب ان الفلسفة المقابلة للفلسفة الفردية اي فلسفة الاشتراك في العمل — Collectivism — كانت مطوية فيها كذلك. « فبادىء البروتستانت عزلتهم عن غيرهم ولكن حماستهم في سبيلها وحّدتهم فجعلتهم قوماً واحداً » هكذا قال لوثيروس. فان افكارهم دفعتهم الى طلب الحرية، ولكن النزاع الشديد اقتضى التنظيم الدقيق والخضوع للنظام. فوحدتهم الاجتماعية لم تكن وحدة جماعة دينية وانما كانت وحدة جيشٍ محارب. وعلى ذلك ايّد لوثيروس بعض الامراء، وكانت حكومة كلفن نفسهِ بمثابة دكتاتورية. وقد سلّم الناس بهذه المفارقات حينئذٍ لان الحمية الدينية جعلت الاستبداد مقبولاً

ولكن لم يطل المطال حتى ظهرت بلاد لا تسلّم بالاستبداد، فآتت العقيدة البروتستانتية فيها اشهى ثمارها. تلك البلاد كانت « نيوانجلند » (الولايات الشمالية الشرقية في الولايات المتحدة الاميركية التي نزل فيها المهاجرون اولاً) فقد كان معظم المهاجرين الغلاة « البيورتان » من طبقة اجتماعية واحدة. ولما كانت افكارهم قد وحدت بينهم في منفاهم لم يتعيّن عليهم ان يقاوموا اي اضطهاد في بيئتهم الجديدة. ففي نيوانجلند سارت الفردية البروتستانتية سيرها الطبيعي متجهة الى الديمقراطية الصحيحة

ومن البلدان البروتستانتية العظيمة — من انكلترا عن طريق ڤولتير ومنتسكيو، ومن اميركا عن طريق لافاييت وفرنكلن، ومن جنيف عن طريق روسو — استمدت الثورة الفرنسية فلسفتها في « حقوق الانسان ». وكان روسو تلميذاً لكلفن فبذر بزور مذهبي الفرد والجماعة ودعا الى دولةٍ يكون السيّد فيها كليّ السلطان لان السيّد هو الشعب. وفي كلامهِ كثير مما يذكّرك بروسيي العقد الثالث من القرن العشرين

اما القرن الذي تلا الثورة الفرنسية فكانت السيطرة فيهِ للناحية الفردية من هذه الفلسفة. فطالبت الشعوب بحقوقها — وفوقها كلها حق التصويت لانهُ كان رمزاً للمساواة وضماناً للحرية. وكان التصويت اولاً ميزة تمتاز بها بعض الطبقات (فكان مبنيًّا على مقدار الضرائب في انجلترا وفرنسا وحبس عن بعض السلالات الملونة — الزنوج — في اميركا) ولكن لم يشرف القرن التاسع عشر على ختامه حتى كان حق التصويت قد اصبح عامًّا في طائفة من اكبر

البلدان ، على اثر ثورات واصلاحات اخذ بعضها برقاب بعض . ولو انهُ طُلب من عاقل ان يبدي رأيهُ في اتجاه الاجتماع سنة ١٩٠٠ لقال ان العالم في مفتتح عصر الحرية . وفازت دول الاحرار في الحرب العالمية (١٩١٤ — ١٩١٨) وعلى اساس الدعوة الى الحرية فاقبلت سائر الامم على تقليدها في نظامها الحكومي والاجتماعي

ولكن قوى خفية جديدة كانت تقوض دعائم الديمقراطية والفردية . فالتصويت العام جعل السلطة في ايدي الجماهير . فلم تحجم الاحزاب عن اي عمل للفوز بالاصوات . فاصبح المحافظون من اتباع الدجل السياسي وحاول الاغنياء التأثير في الرأي العام باساليب مبتدعة من الدعاية . وهكذا بدأت الديمقراطية تنحو نحو الدماجوجية (الدجل السياسي) والبلوتوقراطية (حكومة الاغنياء

ولولا الحرب العالمية والازمة الاقتصادية الخانقة التي تلتها ، لامكن ترقيع النظام القديم بالاصلاح والتعديل والاحتفاظ بهِ الى مدى . على ان الديمقراطية تحتاج ، لتبقى راسخة البنيان الى تعليم الشعوب في فترات السلام والرخاء . فاذا هبَّت الزعازع فضَّل الناس السلامة على الحرية ولا تطاق الحكومة المستبدة في هذه الحال . الاَّ اذا بدا في نظامها شيءٌ جديد . كذلك استبداد كلفن حكومة الاقلية الارستقراطية في جنيف باستبداد ديني . وكذلك قضى الروس على استبداد القيصر واحلُّوا محلهُ دكتاتورية العمال

اما الدماجوجية وسيطرة الاغنياء في بعض البلدان التي اخذت بمذاهب الاحرار ، فاورثت شرور ومساوي طغت على مآثر الافراد . أما في ايطاليا وروسيا فالرأي الآن انهُ يجب ان يخلى السبيل للدولة . واما المانيا فيظهر انها تبحث عن قوة جبارة يستطيع ان يجد فيها شبابها المتصوف قبلة للاجلال . ان نصف الامم المتمدنة اخذت تشيح بوجهها عن الديمقراطية . والصحف في اميركا لا تفتأ تعرب عن مخاوفها من النزعات الحرة ورغبتها في الحكومة القوية

ان في روسيا جيلاً جديداً غير ملمٍ بمذاهب الاحرار في غرب اوربا واميركا ، بل هو يحتقرها ويزدريها ، اذ بسطها احد لهُ . ففي روسيا لا يبحثون قط في حقوق الانسان ، بل في واجبات الانسان . والفرد يرى شيئاً من النشوة الدينية اذ نسي ذاته ليشترك في ذات الدولة . ان وكر النمل وقفير النحل اصبحا النموذج الذي تبنى عليهِ الجماعات الانسانية . وهذا مناقض كل المناقضة للمثُل التي كانت سائدة في القرن الماضي . فهل نستنتج ان التطرف الذي بدا في البلدان « الفردية النزعة قضى على هذه المثُل ؟ وهل يكون العصر الجديد عصر النمل والنحل ؟

اما القنبلة الثانية التي أُشعِلت مراراً في العالم الحديث ، فطفئت ثم اشعلت ثانية وثالثة فهي قنبلة العلم التجريبي . اشعلها اولاً بعض الشعوب القديمة كاليونان . وتلاهم العرب فزادوها لهيباً ثم تعهدتها اوربا بعيد عصر النهضة أو الاحياء . ولكن الانفجار العظيم الذي نشهد آثاره جاء في مطلع القرن التاسع عشر . فقد خلق العلم التجريبي الآلة ، وهي آداة وضعت قوى الكون في متناول يد الانسان

وزيادة طاقة الانسان زيادة لا تُحَدُّ عمل مفيد اذ يستطيع بها ان يزيد ما يصنعهُ من العروض ثم هي تمهد السبيل امامهُ لابتداع عروض جديدة ، وتمكنهُ من ملاءٍ كانت لغلائها وندرتها فوق طاقته . واذ حلت الآلة محل العامل ، عمد العلم الى الحقل فزاد غلالهُ وجوَّد صنفها . وكل هذا لا تنكر فائدتهُ . ولو ان مراقباً حاول ان يحكم على حالة العمران في مطلع القرن العشرين لقال هذا مفتتح عصر الرخاء . اما الآن وقد انقضى نحو قرن ونصف قرن على استنباط الآلة البخارية فاننا نرى نتائج لم تخطر ببال احد من ثلاثين سنة على الاكثر

فتوسيع نطاق الانتاج يفضي الى صنع عروض لايحتاج الناس اليها كلها. والبضائع المصنوعة في طبقة عالية من الجودة والمتانة ولكن الناس لا يبتاعونها . وها هي المصيبة نزلت ببني الانسان . واية مصيبة هي — مصيبة كثرة البضائع والعروض التي كانت تحسب سبيلهم الى الرخاء . والآلة التي كان ينتظر ان تغني الانسان وتخفف اعباءهُ جلبت في اثرها العطل عن العمل والبؤس — وليس هذا لأنَّ الآلة شرٌّ بحد ذاتها ، بل لضعف الذكاء الانساني

وكان من أثر الاساليب العلمية التخصص في الصناعة والزراعة . فكانت كل جماعة قبلاً تصنع ما تحتاج اليهِ فكان لهذا أثرد السيء لانهُ اذا امحلت الحقول سنة حلّت المجاعة بالجماعة التي تعتمد عليها للحصول على الغذاءِ . اما وقد خلق العلم وسائل للمواصلات السريعة فقد اصبح من الميسور نقل الغلال من مكان الى آخر نقلاً سريعاً فبدا للمفكرين ان كثرة الغلال وسرعة المواصلات ازالتا شبح المجاعة من العالم

ولكن الاعتماد على المواصلات السريعة حمل الناس على تركيز الصناعة والزراعة في مواقع خاصة ممتازة . وهذا عمل مفيد لولا انهم اهملوا العناية بتوفير اسباب التبادل . وقد ابانت الازمة العالمية التي ما زلنا نعانيها ، ان شبح المجاعة ما زال يهدّد العالم . فغارس اشجار المطّاط قد يموت جوعاً والى جانبهِ اكوامٌ من غلتهِ التي لا تباع. وزارع الحنطة قد يهرأ برداً وحواليهِ اكداس الحنطة . ففكرة الوحدة الاقتصادية العالمية قد منيت بالخيبة — الآن على الاقل

ثم ان الشك العلمي ، قد قتل في نظر البعض صدق الايمان . وبعض الناس يحيون من دون الايمان الصادق واما البعض الآخر فلا يستطيع ذلك . فالدين مكن البائسين من الصبر على آلامهم املاً في الجنة حيثما لا اوصاب ولا آلام . ولكن المادية العلمية دفعت الذين لا يرغبون في الملذات العقلية الى البحث عن اكفاءِ الشهوات العارضة. على ان الانغماس في الشهوة التي لا ضابط لها مناقض للطبيعة البشرية . فهو يهدم الجماعات التي تنصرف اليهِ ولا يلبث ان يصبح نقيض اللذة وهو الالم

ثم ان الانسان لا يستطيع ان يعيش من دون مثل اعلى يرنو اليه . وفي عصرنا هذا أسبغ على القومية ثوب ايمان جديد . ولكن القومية العنيفة المحاربة لا تستطيع ان تعيش في جماعة اساس نظامها الاقتصادي التبادل الدوليّ، او في عالم اشترك فيه العلم والتجنيد الاجباري لجعل

الحرب بمثابة انتحار للبشرية. فليس امامنا في ميدان السياسة الاَّ عقيدتا الفاشيَّة والبلشفية . ففي رومية وموسكو اصبحت الدولة مصدر الآداب ومعلمة الفضائل . اما ونحن في عالم تعوزهُ العقيدة والحكمة ، فقد لا نرى سبيلاً آخر للخلاص

والظاهر ان العصر الذي اشتركت فيهِ مذاهب الاحرار والعلماء لتحقيق السعادة الانسانية قد بلغ غايتهُ . قد نستطيع ان نخلص الحرية السياسية من البوار ولكن يجب ان نضحي في سبيلها بالحرية الاقتصادية . ونحن الآن في مفتتح عصر كلمة السرّ فيهِ «التنظيم» وهذا التنظيم يحاول ان يتخذ في اميركا مثلاً شكل حكومة مؤلفة من خبراء ، وفي بلدان اخرى شكل جماعات من الماليين Cartels تسيطر على الحكومة من وراء ستار . فهل يكون البناء في العصر الجديد على مثال ما تفعله النمل ؟

قد تفوز النزعة الاشتراكية . واذا نجحت التجربة الروسية تكون قد ابدعت مثالاً جديداً من النظام الاجتماعي . ولا يلزم ان تذيع طريقتها في تنظيم الحياة الاقتصادية بالفتح والثورة بل يمكن ان تذيع بالعدوى والتقليد . فالثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ لم تحدث انقلاباً عنيفاً في انكلترا ولكن مبادىء سنة ١٧٨٩ هي اهم البواعث على الاصلاح الانتخابي الذي تمَّ في انكلترا سنة ١٨٣٢ بل نستطيع ان نقول ان سقوط الباستيل كان اهم حادث في تاريخ انكلترا . ولعلَّ سقوط القيصرية الروسية يحسب في المستقبل اهم حادث في تاريخ الولايات المتحدة

ولكن عصر التنظيم الاجتماعي والاقتصادي قد ينتهي بالخيبة . ولم يثبت حتى الآن ان الذكاء الانساني يستطيع ان يسيطر على مستقبلنا الاقتصادي وتنظيم حاجات الناس واعمالهم . فهل من السهل ان نلائم بين عالميْ الزراعة والصناعة ؟ هنا لبّ المسألة وليس غير التجربة كفيلاً بالجواب . فاذا انتهى هذا العصر بالخيبة فقد نشهد انحطاطاً عالميًّا . فتحمل الروح القومية كلَّ امة على الاكتفاء بذاتها . ويقلُّ التداول الدولي حتى يكاد يُمَّحى . وتصبح آية العصر الجديد شبيهة بآيات الحضارة الزراعية الغابرة

ومع ان هذه الخيبة ليست مستحيلة الاَّ انها في نظرنا غير محتملة . واعتقد ان العصر المقبل سوف يتصف باتساع الثروة . على انني لست ادري أي الطرق يُعمَد اليها في توزيع الثروة توزيعاً منصفاً ، وانما احسُّ ان لا بدَّ من وجود حلّ ما بعد كثير من العناء والألم . ثم ان مقدار البضائع التي تستهلك آخذ في الازدياد مع ان عدد السكان يميل الى النقص . واذن فالانسان المتوسط سوف يكون اعظم ثروة مما هو الآن . ويكاد يكون في حكم اليقين ان ساعات العمل تكون اقل مما هي الآن . وسواء كان النظام الاقتصادي في العصر الجديد رأسماليًّا أو اشتراكيًّا فالمرجَّح عندي ان الثروة فيهِ سوف تكون أعظم وساعات الفراغ أطول والمساواة اتمّ مما هي الآن . وقد يبقى هذا النظام مستقرًّا تعلوه مسحة السعادة الى مدى ثم يحدث انفجار يضيع التوازن فيبدأ الانسان بحثهُ من جديد

الوراثة والمحيط

للدكتور شريف عسيران

ضلَّ الناس قديماً ضلالاً بيناً فجعلوا للمحيط الشأن الاكبر في حياة الفرد لا بل خبطوا خبط عشواء في تحديد تأثير الوراثة وتأثير المحيط وفرّقوا بينهما تفريقاً ظاهراً وجعلوا لكل منهما تأثيراً مستقلاً عن الآخر . كان الرأي القديم ان المحيط هو كل شيء وذهب هذا المذهب ثلة من اساطين العلماء بل نجد في نص اعلان استقلال الولايات المتحدة صورة واضحة لعقيدة ذلك العصر فقد نص اعلان الاستقلال ان كل الناس خلقوا متساوين وعلى هذه الفكرة الاساسية فكرة ان المحيط هو العامل الاكبر في حياة الفرد نشأت اكثر الاوضاع الاجتماعية وما فيها من انظمة وقوانين الى غير ذلك من محسنات المحيط فالشطر الاكبر من المدنية في عرفهم هو المحيط الحسن وتقدم المدنية معناه تحسين المحيط

وعكس ذلك النظرية الحديثة التي تجعل للوراثة الشأن الاكبر في نشوء الفرد وما ينتج عنهُ من المظاهر الاجتماعية التي هي وليدة عمل الناس ونتيجة كفاءتهم الوراثية . ولا نتوغل الآن في تحليل نظريات الوراثة والمحيط والتفضيل بين الرأيين لاننا سنفصل ذلك في سياق البحث وندلي باحدث الآراء المعززة بالادلة والبراهين العلمية . وقد قسمت البحث الى قسمين فأتناول في الاول الوراثة والمحيط واعقبه ببحث في توريث الصفات المكتسبة

﴿ تأثير المحيط في تعيين الصفات ﴾ بيّنا ان صفات الفرد تتوقف على عوامل خلاياه وعلى السيتبلازم والمفرزات الداخلية ورأينا كيف نتمكن من تحويل الانثى الى ذكر والابله الى نبيه بواسطة المفرزات الداخلية فهل من الممكن تجهيز عوامل خارجية لها نفس التأثير فيهِ . والجواب نعم لانهم كما بيّنا تمكنوا من استخلاص خلاصة الغدة الدرقية وهو الثيرودين الذي يعطونه للبله فيصيرون اصحاء . وقد استخلصوا خلاصة اكثر الغدد الصماء فتقدم هذا العلم تقدماً بيّناً في العشرين سنة المتأخرة وزاد في الخمس سنوات الاخيرة فما يدرينا ما يحدث بعد مائة سنة او الف . لابدّ ان يكون التقدم في هذا الناحية وغيرها من نواحي الحياة عظيماً

فهل للمحيط الخارجي التأثير الذي للمحيط الداخلي فتختلف الصفات باختلافه . اننا نعرف ان افراز الغدد الصماء تحت تأثير الجهاز العصبي . فالخوف والغضب يزيدان افراز الادرنالين وزيادة افراز هذه المادة أو نقصها يؤثران في سلوك المرء . وقد رأينا فيما مضى كيف ان الحرذون المائي المعروف بال Axolt يتحوّل من حيوان مائي الى حيوان برّي باطعامهِ خلاصة الغدة الدرقية فتتلاشى خواشيمه وذنبه وتتغير كل صفاته . ووجدوا ان نفس التأثير يحصل في هذا

الحيوان باجباره على ترك الماء وتعويده الحياة البرية وتعريضه لدرجة خاصة من الحرارة فيتبدّل من حيوان مائي الى بري كما لو اطعمناه خلاصة الغدة الدرقية . وعلى الارجح ان هذا التبدل ناشيء عن تأثير العوامل الخارجية في الغدة الدرقية فيجعلها تزيد افرازها في الدم فيحصل التبدّل. ان العوامل الخارجية تفعل فعلها بالتأثير في المفرزات الداخلية التي هي مصدر التغيير والتبديل

ليس الجسم وحده يولد المواد الكيماوية كالمفرزات الداخلية التي تؤثر تأثيراً كبيراً في الصفات الوراثية بل هناك مواد أخرى طبيعية خارج الجسم لها فعل يشبه فعل المفرزات الداخلية . فقد دلت الابحاث الحديثة في الغذاء ان الجسم لا يكتفي في نموّه بالمواد الاساسية النيتروجينية والدهنية والنشوية والمعادن بل هناك مواد تحققوا فعلها ولم يهتدوا الى تحديدها وتسمى الفيتامين فاذا كان الطعام خلواً منها فان الجسم يضعف ويتأخر ويصاب بامراض مختلفة وقد اكتشفوا حتى الآن خمسة انواع من الفيتامين نذكرها باختصار وهي :

(١) فيتامين A . وهو يكثر في الحليب والزبدة والدهن وصفار البيض وزيت كبد الحوت وفي الخضر كالسبانخ والخس والقرنبيط والطماطم وما أشبه وفقدان الغذاء له يعيق النمو ويولد استعداداً لعدوى الامراض ويسبب في الاولاد خاصة مرض يسمى الرمد الجاف (Xerophthalmia) فتجف سوائل العين وتتقرّح اغشيتها وتهرأ فيفضي ذلك الى فقد النظر احياناً او ضعفه ويعزى العشو (عدم النظر ليلا) الى فقدان هذه المادة من الغذاء

الفيتامين B وهو غزير في صفار البيض والحليب واوراق الخضر كالخس والجزر والقرنبيط وما أشبه وفي الاعضاء كالقلب والكبد والكلية الخ

ان فقدان الغذاء له يؤخر نمو الجسم ويعرضه لاخطر الامراض وهو المرض المعروف بالبري بري ومعناه «لا أقدر» اي ان المصاب لا يستطيع عمل شيء لشدة مرضه ومن اهم علاماته ضمور العضلات وشلل الاعضاء وخفقان القلب واسهال وانحطاط عام في الجسم يرافقه استسقاء وهو كثير خاصة في اليابان والصين وما جاورهما وينشأ من أكل الارز المقشور لان الفيتامين موجود في القشر

الفيتامين C يكثر في عصير الليمون الحامض والبرتقال وفي الطماطم والفول والخس والتفاح واللبن (الحليب) والبيض وفقدانه يسبب مرض الاسقربوط واهم اعراضه انحطاط في الجسم واضطراب القوى العقلية والجسدية وألم وورم في المفاصل ونزف دموي تحت الجلد وفي غشاء الفم المخاطي واللثة بوجه خاص وتساقط الاسنان ويشتد الصداع وغيره من الآلام العصبية ، ونقصه من اسباب نخر الاسنان في الاطفال

الفيتامين D غزير في زيت كبد الحوت وغيره من انواع زيوت الاسماك ومنه مقدار يسير في الزبدة وزيت جوز الهند . اما نقصه فيسبب مرضاً من اشدّ الامراض وهو منتشر انتشاراً هائلاً بين الاطفال من سن الستة اشهر الى السنتين ولا نبالغ ان ٩٠ بالمائة من الاطفال حتى بين الشعوب المتمدنة يصابون به ويظهر ان له علاقة وثيقة بنموّ العظام ونور

الشمس أو بالحري الاشعة فوق البنفسجية لها نفس التأثير الذي لهذا الفيتامين . وهذا المرض هو المرض المعروف بالكساح الذي يسبب تشوهات في العظام كاعوجاج القدم وانحنائها وبروز عظام الصدر وارتخاء عضلات الجسم وتأخر نموه واضطراب الامعاء وفقدان شهية الطعام وبروز البطن والصدر بصورة غير طبيعية وضحاياه في الاطفال اكثر من ان تحصى فاعطاء الطفل قليلاً من زيت كبد الحوت أو عصير البرتقال أو تعريضه لاشعة الشمس أو الاشعة فوق البنفسجية تزيل هذا المرض وتعيد المصاب الى حالته الطبيعية

الفيتامين E يؤثر في التناسل وهو موجود في ورق الخس وفي القطاني واللحم الجديد وصفار البيض فاذا خلا منه طعام الام مات الجنين في اليوم ١٢—٢٠ من تكونه فنقصه سبب من أسباب العقم

وقد اكتشف رولف حديثاً نوعاً سادساً سماه فيتامين G وهو موجود في البيض والحليب والخميرة ونقصه يسبب مرض البلاغرا Pellagra وهو من الامراض المنتشرة في ايطاليا واسبانيا وغيرها من الامصـار الاوربيـة والولايات المتحـدة وبقي سببه غامضاً حتى أعلن حديثاً هوكلاند مدير دائرة الكيمياء الحيوية في واشنطن اكتشاف الفيتامين واهم علامات هذا المرض عوارض جلدية وعقلية ومعوية فيظهر طفح جلدي وتقرح في الفم يرافقها اسهال واضطرابات عصبية . فهذه المواد عوامل خارجية تؤثر في صفات الفرد فتجعل الأبله سليماً والعقيم نتوجاً وتبرىء المصابين بالعاهات الناشئة عن فقدان تلك المواد وهي دليل على تأثير المحيط الخارجي. وهنا يظهر تناقض في اقوالنا فقد بينا فيما سلف ان الكروموسوم والسيتبلازم هما العامل في نشوء الصفات ونعترف الآن ان الصفات تتغيَّر بفعل العوامل الخارجية ايضاً اي المحيط وسنورد بعض الامثلة التي توضح الحقيقة وتكشف الستار عنها وتبين العلاقة بين الوراثة والمحيط

وجد R. A. Emerson ان مختلف الالوان في الاذرى وراثي وحينما تنمو هذه النباتات في الحقول المعرضة للشمس يصير بعضها احمر (بكل ما فيه من ورق وزهر الخ) ويبقى البعض اخضر . واذا زرع كل من هذين النباتين الملونين على حدة خرج كلٌّ بلونهِ . واذا ناسلنا الاحمر بالاخضر تبعا في نظام وراثتهما قانون مندل اي ٣ غالب الى ١ كامن . ولكن اللون يتوقف على المحيط فالانواع التي تنبت الاحمر لا تنبته الاَّ اذا زرعت في الشمس اما اذا زرعت في الفيء فينشأ النبت اخضر فاذا كان عندنا نوعان احمر واخضر فالاحمر لا ينمو احمر الاَّ اذا زرع معرضاً لنور الشمس وأما الاخضر فينمو اخضر سواء ازرع في الشمس او الفيء . واذا كان عندنا نوعان احمران وزرعنا احدهما في الشمس والآخر في الضوء فالاول ينشأ احمر والثاني اخضر. فهذه الامثلة توضح لنا علاقة العوامل الوراثية بالمحيط فالعوامل لا تخرج اللون المطلوب الاَّ اذا كانت في محيط خاص والمحيط لا يولّد اللون المطلوب الاَّ اذا كانت هناك عوامل خاصة فالعوامل تتوقف على المحيط والمحيط يتوقف عليها . فلا نستطيع ان نقول هذه الصفة وراثية وتلك محيطية فلاخراج صفة من الصفات ينبغي ان تتوافر لدينا عوامل خاصة ومحيط خاص. فالعوامل لا تخرج

الصفة المطلوبة اذا كانت في المحيط الخاص والمحيط لا يخرجها الاَّ اذا توافرت العوامل الخاصة
وقد وجدوا ان عوامل اخرى تؤثر في اللون منها فقر الغذاء فالارض الفقيرة بالمواد الغذائية تنبت اللون الاحمر في بعض النباتات . وخزن المواد النشوية في الانسجة يولد اللون الاحمر ايضاً
ذكرنا بعض الامثلة من مملكة النبات ونذكر الآن غيرها من مملكة الحيوان . يربي العلماء ذباب الفواكه في زجاجات خاصة فيها موز نهري فيصير هواءها رطباً فالذباب الذي ينمو بهذه الصورة يظهر عيب في بطن بعض افراده . فالاجزاء التي تتركب منها البطن لا تكون واضحة ومن المحقق ان هذا العيب وراثي يتوقف على نوع العامل ولكنهُ لايظهر الاَّ اذا نشأ الذباب في محيط خاص والمحيط الخاص لا يؤثر فيهِ ما لم يكن ذلك العامل موجوداً . ويوجد عيب آخر في هذا الذباب اذ تكون له أرجل أو عقد مكرّرة وهذا العيب يورث بالطريقة الجنسية وهو ناشيء عن خلل بالعامل اكس (X) ولكنه لا يظهر اذا نشأ الحيوان في محيط دافيء فالمحيط البارد يسبب تكرر الساق والرجل في الذباب الموجود فيهِ عوامل هذا العيب . اما الذي يكون خلواً من العيب فينشأ صحيحاً ولو كان في محيط بارد . ويوجد نوع ضخم من هذا الذباب حجمه ضعف الحجم العادي وهذه الضخامة وراثية تظهر اذا تغذى الحيوان تغذية جيدة وهو في الدور الدودي ولا تظهر ان لم يتغذى الحيوان الغذاء الخاص في ذلك الدور وتتلخص العوامل المحيطية المارة الذكر بما يلي: (١) نور الشمس (٢) الغذاء (٣) الرطوبة والجفاف (٤) البرد والحر
﴿ علاقة الوراثة بالمحيط ﴾ ان المرء يرث عوامل مختلفة تكوّن فرداً ذا صفات معينة فنفس العوامل تنشيء صفات مختلفة تحت تأثير المحيط ولا تناقض بين العوامل والمحيط فاختلاف بعض العوامل لاينشيء الصفات المختلفة الاَّ في محيط خاص فبعض الصفات تتوقف على العوامل وحدها فتدعى وراثية ونفس تلك الصفات تتغير بتغير المحيط فتدعى محيطية فالعوامل تظهر نوعاً من الصفات والمحيط نوعاً آخر

فاذا اخذنا نوعين من الاذرى احمر واخضر عاملهما واحد فالفرق بين لونيهما يعود الى المحيط واذا قابلنا نوعاً احمر مع غيره اخضر نمى في نفس المحيط فالفرق بينهما وراثي
﴿ شأن الوراثة والمحيط ﴾ ايهما اهم في صفات الفرد الوراثة او المحيط او بكلمة اخرى ايهما أهم في بناء البيت المواد التي يبنى منها أو طريقة بنيانه . ان لكل منهما ميزة خاصة فبعضها ناشيء عن اختلاف العوامل وغيرها عن اختلاف المحيط فيؤثر المحيط في بعض الانواع في الصفات الاساسية كالجنس ولا تأثير له في غيرها . ففي ذباب الفواكه الذي درسوه حق الدراسة من هذه الوجهة لا تأثير للمحيط في الصفات البارزة فالحجم والشكل واللون والبنية والجنس تتوقف على العوامل الوراثية كما ورد في الامثلة التي ذكرناها من تسطيح العيون وعيب البطون ومضاعفة السيقان وغيرها . وفي كثير من النباتات وبعض الحيوانات السفلى تتوقف اكثر الصفات على المحيط . والخلاصة ان الصفات البارزة في اغلب الحيوانات كالمواشي والارانب وكل ذوات الثدي لا تتوقف على المحيط فاختلاف

اللون والشكل والبنية والجنس ناشئ عن اختلاف العوامل الوراثية وأثر المحيط فيها ضعيف جداً

﴿ موقف الانسان ﴾ ان بعض الصفات الجسدية كلون العين مثلاً تتوقف على العوامل وكذلك لون الشعر ولكن ليس هذا القول قاطعاً لان لون الشعر يتغير في الشيخوخة. ومن الممكن ان يكون اختلاف لون الجلد ناشئاً عن العوامل او المحيط ويتوقف معظم طول القامة وقصرها على اختلاف العوامل . والبدانة والنحافة تتوقفان غالباً على العوامل وبعض الاحيان على كيفية المعيشة . ويتوقف شذوذ تركيب الجسم كزيادة الابهام والاصابع وايدي وارجل ذات نسيج او اصابع ذات عقدتين وما اشبه على العوامل. وهناك عيوب في التركيب كاعوجاج الساقين وانفراج القدمين وغيرها من العيوب العظامية التي تظهر في داء الكساح تنشيء عادة من المحيط اما اختلاف الجنس فهو محض اختلاف في العوامل

﴿ الخصائص الفسيولوجية ﴾ ان اختلاف بعض الخصائص الفسيولوجية ناشئ في البشر عن اختلاف العوامل الوراثية ولا أثر فيه للمحيط. فالاستعداد الى نزف الدم (الهيموفيليا) ناشئ عن عيب في الكروموسوم X ويورث بالطريقة الجنسية كما بينا. وكذلك اصناف الدم التي قسموها الى اربعة فئات Blood groups ولدينا ادلة كثيرة تبين ان افراز الغدد الصماء ناشئ عن اختلاف العوامل ولم يتوصلوا بعد الى درس الخصائص الفسيولوجية في البشر الدرس الكافي من هذه الوجهة ولا نزال حديثي العهد بها ومن الممكن ان نكشف كثيراً من مخبآتها

﴿ الامراض ﴾ ان كثيراً من صفات البشر تعزى الى عوامل خاصة تحت تأثير محيط خاص ومنها الامراض المختلفة وقد نشأ من هذه العلاقة (علاقة العوامل بالمحيط) عقيدة فاسدة وهي ان الصفات اما وراثية بحتة لا تأثير للمحيط فيها واما محيطية لا تتأثر بالوراثة ولكن الحقيقة غير ذلك فان للوراثة والمحيط تأثيرها. ولنأخذ التدرن الرئوي (السل) مثلاً فان عدوى هذا المرض تتوقف على باشلس السل ففي بعض الاشخاص استعداد خاص للعدوى او بالتعبير الوراثي عوامل خاصة فيها استعداد لقبول المرض فالشخص الموجودة فيهِ هذه العوامل يكون معرضاً للمرض اكثر من غيره ممن لا توجد فيهم ومما لا شك فيهِ انهُ يوجد عنصر وراثي لقبول العدوى ولكن الشخص الذي فيهِ هذا الاستعداد لا يصاب اذا لم يتعرض لجراثيم المرض ويصاب اذا لم يستعمل طرق الوقاية ويُبعدُ نفسه عن المحيط الذي فيهِ الجراثيم . والناس درجات من هذه الوجهة فبعضهم سريع التأثر بالجراثيم وغيرهم اقل منهم تأثراً وهكذا تتفاوت الدرجات حتى نجد فئة ذات حصانة طبيعية. فيتضح مما ذكرنا ان للعوامل شأناً كبيراً في حصول العدوى ولكن نجد في الوقت نفسه ان المحيط ربما كان اكبر شأناً وما قلناه عن السل ينطبق على كثير من الامراض كالجدري والطاعون والتيفوئيد وذات الرئة وغيرها . فان الناس يرثون استعداداً خاصاً اي تنشأ فيهم عوامل خاصة تعرضهم لفتكاتها ولا تنشأ هذه العوامل في غيرهم فمتى عرض القسم الاول نفسه لجراثيم المرض فانه يصاب به واذا استعمل الوقاية بعدم

تعرضه لها أو باستعمال التلقيح ضدها فانه لا يصاب ايضاً . ويعتقد الناس ان العلة أو العيب الوراثيين لا بد من حصولها مهما احتاط المرء ولكن الحقيقة غير ذلك فان المرء يرث مزاجاً خاصاً لقبول العلة وتصيبه في احوال خاصة ولا تصيبه في احوال اخرى كما بينا . ولا تقتصر الوقاية على تأثر المرء الحاضر بالمحيط بل ان للمحيط الماضي اثراً لا ينكر فمن أصيب بالجدري أو تلقح ضدها في الماضي لا يصاب بها في الحاضر في الغالب ومن تعرض لاقصى درجات الحر والبرد لا يعود شديد التأثر بهما فلو اخذنا ثلاثة اشخاص لم يصابوا بمرض ما حين انتشار وباء ذلك المرض كالطاعون مثلاً فاحدهم لم يصب بسبب مناعته الوراثية وآخر لانه اصيب بالمرض قبلاً أو تلقح ضده والثالث توقاه فابتعد عن المحيط الموبوء وهذه الامثلة تبسط لنا تأثير الوراثة والمحيط في آن واحد

﴿ علاقة الصفات العقلية بالوراثة والمحيط ﴾ ان للصفات العقلية والاخلاقية شأناً كبيراً في المجتمع فما علاقة العوامل والمحيط بها وما تأثيرها في الاخلاق والسلوك او حياة الانسان الفنية والعلمية والادبية ؟ بعضهم ينسب كل شيء للمحيط . يقول وطسن اننا لا نرث صفاتنا واخلاقنا ومواهبنا الخاصة بل يجبرنا آباؤنا على اكتسابها . ويدعي البيولوجيون عكس ذلك فينسبون كل شيء الى الوراثة فايهما اصدق . ويجدر بنا توصلاً للحقيقة ان نبحث في هل علم الوراثة الحديث الذي رأيناه ينطبق على النبات والحيوان ينطبق على الانسان ايضاً

ثبت من الابحاث التي ذكرناها سابقاً ان صفات الفرد تتوقف على العوامل الوراثية فبتغيرها تتغير الصفات ولكننا لم ننف انها تتغير بطرق أخرى وقد بينا العلاقة بين الوراثة والمحيط وتعلق الواحد بالآخر فلا حاجة للاعادة . وبيت القصيد من بحثنا الآن ان نعرف هل الصفات العقلية تختلف باختلاف العوامل الوراثية . ان التجارب التناسلية والوراثية تؤيد هذه الحقيقة فالنظام الوراثي بيّن لنا كيف تنتقل الصفات من الآباء الى الابناء بقانون مندل والاتصال الجنسي الخ وهذا دليل كاف على ان الصفات العقلية تنتقل بالوراثة . فان النظام التناسلي ينطبق على الانسان كما ينطبق على الحيوان ففي الانسان ٤٨ كروموسوماً تنشطر ٢٤ زوجاً في الابوين وتنتقل الى الابناء وتورث . ومن قوانين الوراثة ان البنية وطول القامة وقصرها والصفات الفسيولوجية والاخلاقية والسلوكية والعقلية تتوقف على العوامل الوراثية ولا يوجد صفة من الصفات لا تتأثر بها . فهل هناك صفة لا تتأثر بها وهل بعضها يتأثر بالمحيط

نلجأ الآن الى التجارب العلميـة ونستنبها فنطبقها على الحيوان اولاً ثم نرى اذا كانت تنطبق على الانسان . ان الصفات السلوكية في ذباب الفواكه تتغير بتغير العوامل . والعامل الدافع لهذا الذباب لكي يتجه نحو النور موجود في الاكس كروموسوم ومركزه في النقطة ٢٧،٥ من مصوّر الكروموسومات الخاص بالذباب المذكور . فوجود هذا العامل بحالة خاصة يجعل الذباب يطير للجهة التي يأتي منها النور Positive Phototaxisis ومعناهُ الانجذاب الايجابي نحو النور . ووجود ذاك العامل بحالة أخرى لا يجعل الذباب يطير نحو النور . فهاتان الصفتان

المختلفتان تنتقلان بالارث الجنسي فلو زاوجنا الآباء التي تطير نحو النور بالامهات التي لا تطير نحوه فان صفة الطيران نحو النور لا تظهر في الابناء بل في البنات

وثمة عدة صفات اخرى حسّية في الحيوانات تنتقل بهذه الطريقة . ان الالفة والوحشية تتوقفان في الحيوانات على العوامل الوراثية فبعضها تكون اليفة وغيرها وحشية . وتتوقف في الانسان بعض صفات الحس عليها فعمى اللون وهو من الصفات الوراثية ينتقل بواسطة الكروموسوم X بالاتصال الجنسي وكذلك قوة النظر والسمع وضعفهما يورثان بطريقة مندل وقوة العقل وضعفه يتوقفان على العوامل الوراثية ويورثان بحسب قانون مندل . ومما يدل على ان هذه الصفات وراثية تكرر ظهور صفات متشابهة في العائلة الواحدة او فيمن يمتّون بعضهم الى بعض بقرابة شديدة حينما لا يكون اختلاف في محيطهم . وعليه نرى استعداداً لبعض انواع الجنون يسري في أعضاء العائلة الواحدة . ولا يعني هذا ان الافراد الذين فيهم هذه العوامل يصيرون مجانين حقًّا بل معناه انهم يجنّون في احوال لا تؤثر في غيرهم اذا لم تكن فيهم تلك العوامل (اي عوامل الاستعداد للجنون) . إننا نعلم ان البلادة والبطء وغيرهما من الخصال تتوقف على مقدار أفراز الغدد الصماء ونوعهِ ويتوقف هذان بدورهما على العوامل الوراثية فالاشخاص الذين لا تفرز غددهم الدرقية الافراز الكافي لا تنمو مواهبهم العقلية النمو المطلوب فيصيرون قوماً « بُلهاً » ومتى أعطيناهم خلاصة هذه الغدة تزول منهم هذه العاهة. ولدينا عدة شواهد من هذا القبيل اتينا على ذكرها لما بحثنا في الغدد الصماء . ويظهر لنا ان توقف الصفات العقلية على العوامل الوراثية لا يكون رأساً بل بواسطة الغدد الصماء التي بدورها تتوقف على العوامل والصفات العقلية تتوقف على هذه الغدد فأي خطر يطرأ على العوامل يؤثر بالغدد وهذه تؤثر بالصفات العقلية

ان سلوك الفرد يتوقف على تأثره بالمؤثرات او هو ملاءمته للاحوال (الماضية والحاضرة والمستقبلة) التي تصادفه . والمؤثر الداخلي هو العقل ولا يتجاسر احد ان يقول ان لا علاقة لسلوك الانسان باحوال الحياة فسلوكه حين وجود الطعام يختلف عن عدمه فما اثر العوامل في هذا السلوك . من البديهي ان العوامل لا تؤثر في الغدد تأثيراً مجرداً عن الظروف التي تحيط بهِ بل تجعل التأثير تحت الظروف الواحدة مختلفاً باختلاف الافراد . فان بعض الافراد يتأثر بجزء من المحيط وبعضهم يتأثرون بهِ كله وآخرين لا يتأثرون بتاتاً ويكون بعضهم سريع التأثر وغيرهم بطيئه فهل العوامل هي المسيطرة على هذا الاختلاف . وهنا تزداد المسألة تعقداً . فان اختبارات الافراد الماضية والاحوال التي تمر بهم اثناء نشأتهم تغيرهم وتغير مبلغ تأثرهم بالظروف فسلوك الشبعان يختلف عن الجائع والتعبان عن المرتاح والشخص الذي يعلم شيئاً عمن يجهله وهكذا نرى الشواهد عديدة على اختلاف السلوك باختلاف الظروف ومن البديهي ان للعوامل الوراثية والمحيط تأثير في سلوك المرء وقد ضربنا امثلة كثيرة تبين علاقة الوراثة بالمحيط فما

هي الصفات العقلية التي تنشأ من اختلاف العوامل . بينا ان اختلاف العوامل يولّد فروقاً في العقل فهي التي تجعل الفرد عاقلاً او مجنوناً فدماً او فهيماً وهي سبب اختلاف قوة الحواس وضعفها واختلاف الذكر والانثى والصفات الجسدية والفسيولوجية فهل للعوامل الوراثية تأثير في غير الاختلافات التي ذكرناها عقلية وسلوكية من الصفات المعنوية في الشخص الصحيح ? هل لها تأثير في الذكاء وعكسه في حب النفس والتضحية والميل الى الفنون الجميلة كالموسيقى والشعر وقابلية المرء للطب والهندسة والرياضيات وغيرها . من الصعب الجزم في امور كهذه لان ذلك يحتاج الى تجارب دقيقة في توارث هذه الصفات والبشر يعيشون في احوال متباينة ويتعذر ضبط نسلهم بالتدقيق واجراء التجارب عليهم كما نجربها على الحيوانات ولهذا نطبق عليهم النتائج التي نستخلصها من التجارب على الحيوانات . فان درسنا العوامل رينا انها تحدث فروقاً كبيرة في الصفات الوراثية ولكل فرق كبير فروق عديدة صغيرة ولا نرى ما يمنع تطبيق هذه الحقيقة على صفات الانسان العقلية ان هذه العوامل تحدث خمسين لوناً من الوان العين في ذباب الفواكه فاذا كان هذا اثرها في تركيب الذباب البسيط فماذا نقول في دماغ المرء وتعقداته التي تحيّر الفكر هل ننتظر فيهِ تنوعاً اكثر . فما لا شك فيهِ ان تنوع الصفات العقلية والسلوكية ينشأ عن اختلاف العوامل الوراثية وبعض هذه العوامل مقيدة بالمحيط والمحيط مقيد بها كما بينا ولا يوجد عامل خاص لكل موهبة من المواهب البارزة بل في المرء عوامل مختلفة فاتحادها بمختلف الاشكال يولد اختلاف الصفات فلو فرضنا ان البشر يعيشون جميعاً في محيط واحد فلا بد من اختلاف صفاتهم نظراً لاختلاف عواملهم الوراثية . ولننظر في مدى تأثير المحيط ونعني بالمحيط كل ما مرَّ بالفرد منذ كان خلية واحدة حتى صار شخصاً كاملاً فمحيطه الداخلي والخارجي داخلان ضمن هذا التحديد

ان كل العلماء متفقون على ان جانباً كبيراً من تصرف المرء يتوقف على محيطه الماضي ومعنى ذلك ان سلوك شخصين فيهما نفس العوامل الوراثية (كالتوأمين) يختلف باختلاف ما مرَّ عليهما فالفرق بين الجوع والشبع والتعب والراحة والعلم والجهل يولد فروقاً في تصرف الفرد فما تأثير المحيط في العقل والاخلاق والمواهب وغيرها من الصفات وما مقدار بقاء ذلك التأثير . من الصعب ان نذكر تجارب تكون القول الفصل في هذا الموضوع . فالفردان الموجودان في محيط واحد تختلف عواملهما الشخصية فلا يمكن ان نتخذهما حكماً في الامر وأحسن حل لهذه المعضلة التوأمان المنشقان من خلية واحدة فان في كل منهما نفس العوامل التي في الآخر فلا يمكن ان نعزو اختلاف صفاتهما الى العوامل الوراثية لانها واحدة في الاثنين . ووضعهما في محيط مختلف يحل المشكلة ويهدينا سواء السبيل . ومن الاسف ان حوادث كهذه نادرة وتأثير المحيط فيها قليل جداً لدرجة لا نستطيع ان نحكم حكماً جازماً في القضية وقبل ان نتبسط في تأثير المحيط نذكر شيئاً عن نشوء التوائم وانواعها لنزيد البحث ايضاحاً وفهماً

البسمات الساخرة

يرغمكَ مثلي أيها الزهر تغتدي	الى الكون من أكمامك النضرات ؟
وتوفي على الدنيا وفيكَ ابتسامةٌ	تعبّر عما عبَّرَتْ بسماتي ؟
وما بسمتي إلاّ مقالةُ ساخرٍ	خلَتْ من صرير النطق والهمسات
وليس يجازَى الدهرُ في حال غدرهِ	سوى بابتسام ساخرٍ وثباتِ
أتبسمُ مثلي هازئاً مترفعاً	تُرَى ؟ أم حياة الزهر غير حياتي ؟
خلَصْتَ من الآلام ؟ الا بل تعدَّدَتْ	عليكَ ، ولا تدري الذي هو آتِ
نجوْتَ من القيد المذلّ ولم تعُدْ	تحجّبُكَ الأكمامُ منطبقاتِ
فطِرْ عن حماكَ الآن ... لستَ بنائلٍ	خلاصاً ، وما الأغصانُ غير حُماةِ
الى أنْ يمرَّ القاطفون فتنتهي	الى عالَمٍ مُستَبْهِم الظُلماتِ
نعم ! أنتَ مثلي أيها الزهر مُرْغَم	وما هذه الألوان غير شِيات
وما العطر إلاّ أنَّةٌ وتَوَجُّعٌ	كأصداءِ انغامي ورجع شكاتي
يغني شَجِيُّ القلبِ والناسُ حولهُ	طروبين بالإنشادِ والنغماتِ

* * *

تردّدَ في أفقِ الرياض صدى الذي	أقولُ ، وشاعَ الحزنُ في كلماتي
ومالَ جميعُ الزهر في خطراتهِ	وذرَّفَ من دمع الندى قطراتِ

حسن كامل الصيرفي

آثار جرش الفخمة

﴿ جغرافيتها ﴾ جرش بلدة قديمة تقع على هضاب جلعاد Gilead بعيدة عن طريق السياح على ٤٥ كيلو متراً من مدينة عمان (عاصمة إمارة شرقي الاردن) من الجهة الشمالية ويسكنها الآن نفر من الجرش استوطنوها في سنة ١٨٧٨ م في عهد السلطان عبد الحميد وتحيط بها الجنائن من جميع جهاتها ولذلك فهي تعد من أجمل مدن شرق الاردن

﴿ نبذة من تاريخها ﴾ ما يعرف عن تاريخ هذه المدينة نزرٌ يسير . فلا يعرف تماماً متى بنيتْ ومن بناها ولم يصلنا شيءٌ من تاريخها إلاَّ ما نجده من القطع الصغيرة في كتب بعض المؤرخين الاقدمين . فيوسيفوس[1] Josephus يقول أن الاسكندر الكبير كان قد فتح المدينة سنة ٨٣ ق.م ويؤيد هذا[2] Jamblichus بقوله أن فريقاً من اتباع الاسكندر كانوا قد سكنوها وخرّبوها وبقيت من ذلك الوقت خراباً إلى أن فتح الرومان هذه البلاد واستعمروها وكان من نتيجة هذا أن بناها المستعمرون في سنة ٦٥ ب . م . وأُخذت من هذا التاريخ تنمو وتتقدم حتى أُصبحت في أيام الامبراطور انطونينوس (١٣٠—١٨٠) ب.م ثاني مدينة بين المدن العشر[3] Decapolis ومن اهم المدن العظيمة التي كان لها شأن خطير في تاريخ الامبراطورية الرومانية

ولقد ذكرها كثيرون من مؤرخي الرومان والاغريق امثال بطلميوس Ptolemy واسترابون Strabo وبلينيوس Pliny وذكرها ايضاً ياقوت الحموي في كتابهِ معجم البلدان فقال عنها أنها كانت مدينة عظيمة وأنهُ شاهد فيها آباراً خربة وكان في وسطها نهر جار (وهو لا يزال إلى يومنا الحاضر) يدير عدة رحى عامرة

وذكر المدينة ايضاً فريق من السياح الاجانب الذين زاروا هذه البلاد منهم السائح J. S. Buckingham في كتابهِ «رحلة بين قبائل العرب » Travels Among the Arab Tribes في سنة ١٨٢٥ م وهو يصف قبور المدينة وآثارها وصفاً اجماليًّا . وقد ذكرها ايضاً السائحان الانكليزيان فرنجل وإربي James Frengles & Charles Leonard Irby في كتابهما « رحلة الى مصر ونوبيا » Travels in Egypt and Nubia فوصفا اعمدة المدينة والشوارع وصفاً وافياً

(١) مؤرخ يهودي عاش سنة ٣٧—٩٥ ميلادية (٢) عاش حوالي سنة ٣٣٠ م . وهو اكبر ممثل للفلسفة الافلطونية الجديدة السورية Syrian Neoplatonism سوري المولد

(٣) وهو اسم يطلق على اهم المدن العشر في الامبراطورية الرومانية في الشرق الادنى راجع The Historical Geography of the & Holy Land By George Adam Smith pp. 596

هيكل أرتميس العظيم

انقاض هيكل زفس المطل على الفورم

المدخل العمومي لهيكل ارتميس من الشارع المعمّد

ختم صلصالي لعلي بن ابي طالب وجد في جرش

آثار جرش

مقدمة : — إن آثار هذه المدينة هي من أروع ما هو باقٍ في هذه البلاد من آثار العمران القديم . فالاعمدة الكبيرة القائمة في وسطها والمعابد الكثيرة المنتشرة في أرجائها تترك في النفس أثراً لا يزول مع مضي الايام ولا غرو في ذلك إذ أن ثمرة استعمار الرومان لهذه البلاد كان من دون شك هذه المدينة وهي تقع في مربع غير هندسي طول ضلعهِ الواحد ما يقارب الميل ويحيط بها سورٌ سمكه ٨ أقدام ولهذا السور ستة ابواب[١] . واليكم الآن أهم ما فيها من الآثار

(ا) قوس النصر : (The Arch of Triumph)

عندما نصل إلى المدينة من الجهة الجنوبية يقع نظرنا اولاً على قوس النصر القائم على ثلاثة أقواس ، منتصفها مزيّنٌ بأربعة أعمدة عليها طائفة من النقوش الجميلة . واذا ما دخلنا هذا القوس وجدنا على يسارنا ، وذلك بعد السير مسافة قصيرة، ملعباً كبيراً Stadium كان الرومان يقيمون فيهِ العابهم ويظهر من البناء انهُ كان يستعمل أيضاً للالعاب المائية ويقال أنهُ كان يستعمل للعبة الكرة والصولجان Polo[٢]

ومساحة هذا الملعب تقرب من ٦٠٠ ياردة مربعة وعلى بعد ٣٠٠ ياردة شمالاً من قوس النصر بوّابة المدينة كانت تدعى بوّابة فيلادلفيا وهذا الاسم هو الاسم القديم لمدينة عمان الحالية

(ب) معبد زفس Zeus أو المعبد الجنوبي The South Temple

وبعد المرور من هذه البوّابة إلى داخل المدينة نجد على يسارنا معبداً قائماً على مرتفع يحفُّ بهِ صفان من الاعمدة في كل صف منها ثمانية أعمدة . ولم يبق من هذه الاعمدة في محلها سوى عامود واحد وكانت مساحة المعبد الداخلية تساوي ٥٠ ./. ٧٠ قدماً مربعاً

(ج) الملهى العمومي Theater : الى الجهة الغربية من هذا المعبد ملعب كبير يرتفع من باحتهِ مدرَّج مؤلف من ٢٨ حلقة من المقاعد وهو على حال حسنة من العمران ومقاعده مقسمة وهي لا تختلف كثيراً عن تقسيم مقاعد بعض انديتنا في هذا الوقت وكان الرومان يمثلون فيهِ رواياتهم المسرحية

(د) : الميدان(The Forum)

وهو بيضوي الشكل تحيط به الاعمدة الايونية Ionic . ويبلغ محيطه ٣٠٨[٣] أقدام . اما الغاية منهُ فيقول الدكتور[٤] C. S. Fisher أنه كان محلاً للاجتماعات السياسية والاجتماعية وارضهُ مرصوفة بحجارة جميلة في دوائر متوازية ذات مركز واحد ويقال أنه كان يستعمل ايضاً باحةً للاسواق ويوجد حوله الآن ٥٧ عاموداً قائماً ولا يمكن أن يكون هنالك اكثر من ١٠٠

---

(١) راجع ما هو مكتوب عن جرش في دائرة المعارف الانكليزية Encyclop. Brittannica

(٢) وهي لعبة اصلها فارسية انتقلت الى الهند ولقد نقلها الانكليز عن الهنود الى بلادهم في سنة ١٨٦٩م

(٣) راجع Murray's Hard Book of Palestine & Syria (٤) استاذ كبير في علم الآثار قضى سنين عديدة في مصر وسوريا وفلسطين منقباً عن بعض الآثار ولقد كان رئيساً لبعثة جامعة Yale في جرش سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١

عامود وهذا يظهر من الآثار الباقية الى الآن ويتباين طول العامود الواحد من ١٦ — ٢٠ قدماً

(هـ) الشارع العمومي (The Main Street)

وهو يمتد من الميدان إلى نهاية المدينة من الجهة الشمالية ، وعلى جانبيه أعمدة كورنثية . ويقطع هذا الشارع شارع آخر في زاوية قائمة وفي نقطة التقاطع تقوم أربعة أحجار كبيرة طول الواحد منها ٧ أقدام وعرضه ١٢ قدماً وسمكه ١٢ قدماً ايضاً . ويوجد على جانبي هذا الشارع أعمدة كورنثية كالشارع الاول وهو يمتد إلى القرية الحالية وذلك بعد ان يقطع النهر الجاري في وسطها بجسر كبير مبني من الحجارة الكبيرة

وهذه الحجارة الاربعة « Pedestals » هي مركز المدينة لانها تقع على مفرق بعض الطرق ويقع في شمالي الشارع العمومي بوابة الشام ولقد نقب عنها حديثا الماجور هورسفيلد Horsfield [١] وهي تشابه في هندسة بنائها بناء بوابة فيلادلفيا Philadelphia الواقعة جنوب الشارع المذكور

(و) : معبد أرتميس Artemis [٢]

يحسب هذا المعبد من أعظم آثار جرش واروعها يقع على رابية تشرف على البلد من جميع نواحيه وهو على حالة لا بأس بها من العمران ويرجع هذا إلى عدم تأثر بنائه بحوادث الزمان كالزلازل والحروب . ويحيط بهِ حائط أساسهُ لا يزال موجوداً . وجدران هذا المعبد استعملت في العصر المسيحي كمحجر لكثير من الناس . وتدل الحفريات الاخيرة ان العرب استعملت هذا المعبد حصناً ولقد تخرب هذا الحصن على أيام بلدوين الثاني Baldwin II في سنة ١١٢١ م وأعمدته الباقية في الجهة الشرقية منهُ لا تزال قائمة على ما كانت عليه والدهليز الذي تقع عليهِ هذه الاعمدة الفاخرة ظهر بعد ان نقبوا عنهُ سنة ١٩٣٠ . وكان يتعبد في هذا المعبد كثيرون من عبدة الاصنام ولكن لما جاءت النصرانية قلَّ عددهم وضعف شأنهم ولم يكن منهم الا ان يتركوا معبدهم للمسيحيين الذين استعملوا كثيراً من فسيفساء المعبد وحجارته فيما بعد في بناء كنائسهم

جرش والبعثات الاثرية

كانت جرش ولا تزال قبلة لكثير من السياح وكان بعضهم يأتيها على سبيل درس آثارها ومعابدها ومن أهم من قام بهذا العمل العالم الالماني Gothlbieb Schumacher [٣] شوميكر الذي تعد اعماله أساساً لمن جاء من بعده . وكذلك العالم Puchstein [٤] فانه قام ببعض الحفريات للبحث عن بعض النقوش الخطية

---

(١) وهو من كبار الموظفين الانكليز في حكومة شرقي الاردن

(٢) راجع A Preliminary Report of Jerash Campaign 1931 By Dr Fisher & Dr McCown

(٣) مهندس الماني كان يعيش في حيفا وكان يشتغل لحساب Palestine Exploration Fund

(٤) عالم للماني جمع وقرأ النقوش الخطيــة التي وجدت على سطح الارض في جرش . ولــكن بعد التنقيب الحديث تمكنت البعثات الحديثة من العثور على ما يزيد عن ٢٠٠ نقش خطي وهي مكتوبة على حجارة صغيرة وكبيرة في الحجم واكثرها مكتوب باللغة اليونانية وقليل باللغة اللاتينية وأيضاً باللغة العربية

قوس النصر في الجانب الجنوبي من المدينة
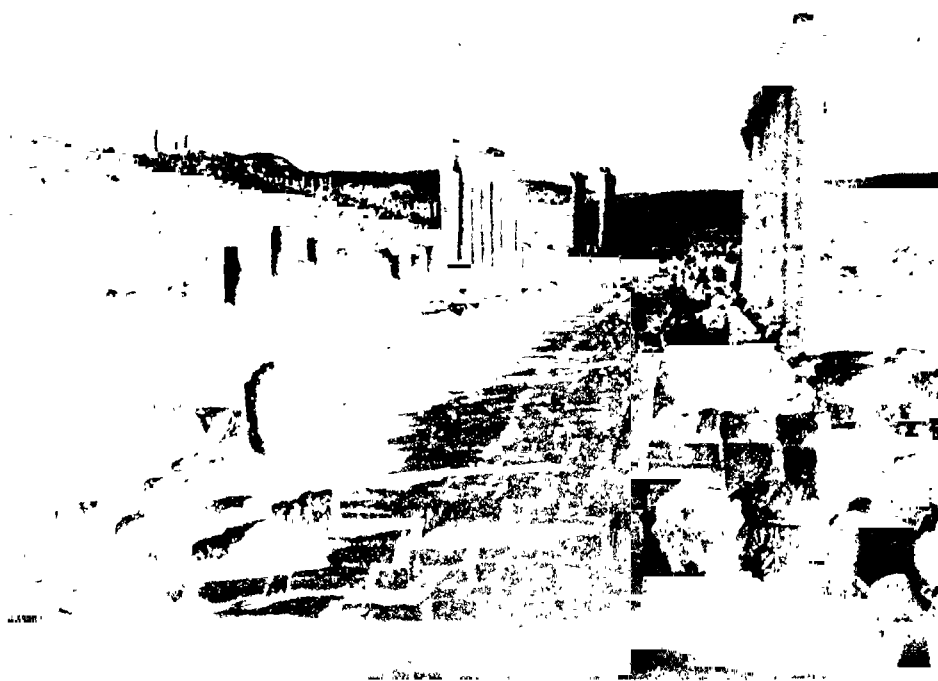
الشارع العام وهو ممعمّد على الجانبين وطوله نحو ١١٠٠ متر
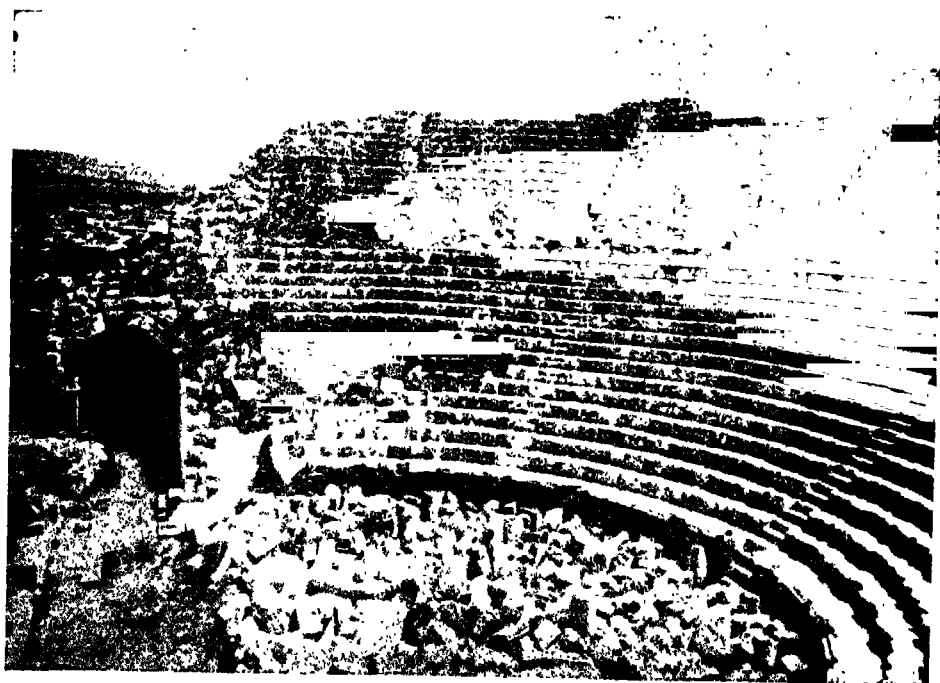
المسرح الذي كان يتسع لاربعين الفاً من المشاهدين
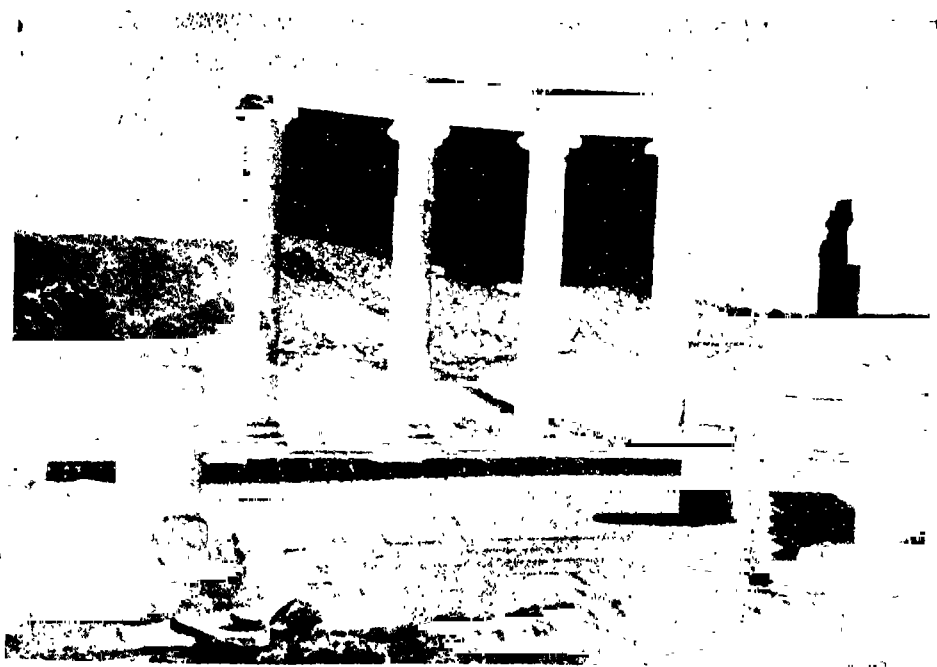
بعض الاعمدة حول الفورُم

وعند ما احتلّ الانكليز هذه البلاد اشتركت حكومة شرقي الاردن وحكومة فلسطين وارسلتا بعثةً تحت رئاسة الاستاذ جارستانغ Prof. Garstang (أحد رؤساء دائرة الآثار في فلسطين سابقاً وأستاذ علم الآثار في جامعة ليفربول في الوقت الحاضر) لترميم عمارات المدينة ثم قام بالحفر بعد هذه البعثة الاستاذ كروفوت Crowfoot (وهو أحد رؤساء دائرة المعارف في السودان سابقاً) فرسم كثيراً من خرائط الكنائس والمعابد. أما البعثة التي قامت بعملية الحفر في سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣١ فكان يرأسها الدكتور فيشر ممثلاً لمدرسة الآثار الاميركية في القدس بالاشتراك مع جامعة يايل Yale

وأهم ما قامت بهِ بعثة سنة ١٩٣٠ كان ما يلي [١]

(١) التنقيب حول معبد أرتميس Artemis والعثور على دهليزه

(٢) الحفر حول بعض الاماكن التابعة لهذا المعبد

(٣) الحفر حول بعض الاماكن التي تلقي نوراً على تاريخ المدينة بوجهٍ إجماليّ

أما نتائج الحفر فكانت

(١) العثور على كثير من آثار العرب والبيزنطيين والرومان في هذه المدينة

(٢) العثور على فسيفساء جميلة ذات ألوان زاهية

(٣) العثور على بعض من القبور البيزنطية

(٤) العثور على معبد صغير على مقربة من معبد Artemis

اما نتائج ما قامت بهِ بعثة سنة ١٩٣١ فكانت [٢]

(١) الحفر في «الميدان» forum والعثور على بيوت حجرية عربية يرجع تاريخها إلى سنة ١١٠٠م

(٢) العثور على كثير من النقوش الخطية

(٣) إثبات أن الجهة الجنوبية من المدينة كانت اقدم محل فيها

(٤) التنقيب حول بوّابة فيلادلفيا وكذلك حول قوس النصر

(٥) العثور على ختم مكتوب عليهِ بالعربية « علي ابن ابي طالب » أما الخط فليس بكوفي وهو الخط الذي كان يستعمل في عهد الخليفة المذكور وعليهِ فلا يعرف تماماً ان كان هذا الختم هو الختم الحقيقي للخليفة الرابع أو انهُ كان لاحد عماله أو هو ختم مقلّد فقط. وهذه مسألة أتركها للمختصين بتاريخ العرب

داود . ت فيشر

---

(١) راجع المقال المكتوب عن جرش في Bulletin of the American School of Oriental Research No 43 Oct. 1931 by Dr. C. C. McCown.

(٢) راجع المقال المكتوب عن جرش في المجلة نفسها عدد ٤٥ في شهر فبراير سنة ١٩٣٢ . وايضاً راجع The Campaign at Jerash in Sep. & Oct. by Dr. C. S. Fisher
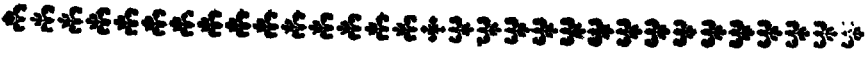
الحضارة الفينيقية

وتأثيرها في التمدن القديم

للشيخ بولس مسعد
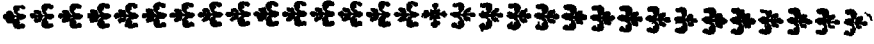
علاقة فينيقية بمصر

اثباتها بالآثار الناطقة

آثار جبيل

اجمع المؤرخون وعلماء الآثار على ان علاقة فينيقية بمصر انما هي علاقة تاريخية قديمة العهد قائمة على اساس راسخ من المصالح المتبادلة بدليل ما وجد في غير مكان اثري من ساحل لبنان ولا سيما في جبيل المدينة الفينيقية الشهيرة من التحف الأثرية المهداة الى ملوك المدينة من فراعنة مصر وفي جملتها الآنية الخزفية التي استخرجت من مدفن اكتشف فيها سنة ١٩٢٢ وقد نقش عليها اسم امنمحقت الثالث وخليفته (١٧٩٢ — ١٨٠٠) امنمحت الرابع . ومنها تحف اخرى وجدت في برين من القبور الخمسة التي اكتشفت هناك لامراء جبيل الذين عاصروا الفراعنة في تلك الحقبة وعلى هذه التحف كتابات هيروغليفية متقنة. ومما قاله المسيو مونته استاذ علم الآثار المصرية في جامعة ستراسبورج واحد اعضاء المجمع العلمي الفرنسوي في مصر وهو الذي عهد اليه معهد الآداب العلمي في باريس في التنقيب عن الآثار في جبيل : ان الآثار التي عثر عليها هناك تدل على ان لتاريخ جبيل علاقة وثيقة بتاريخ مصر ولا سيما من الوجهة الاقتصادية فان الفراعنة كانوا يعولون على جبيل في استيراد ما لا تنتجه ارض مصر من الاخشاب الصلبة والمواد الاولية الضرورية. والكتابات التي وجدت تدل على انهم جردوا الحملات منذ اربعة آلاف سنة في طلب هذه المواد ولا سيما خشب الصنوبر والارز والجوز والسنديان والخرنوب لانهم كانوا يصنعون منه الزوارق المقدسة وتوابيت الكهنة والاسوار الخشبية التي كانوا يقيمونها امام الهياكل . ويستوردون من جبيل السفن القوية التي امتاز الجبيليون بصنعها كما جاء في التوراة. ويستجلبون منها القطران لحفظ الموميات والقار لتحنيط الاجسام لاعتقادهم ان القار يجعل الاجسام الالهية غير قابلة للفساد. ومن اجل ذلك كانوا يطلون به تماثيل الملوك انفسهم كما يرى في تمثالي توت عنخ آموذ وتمثال اوزيريس . والآثار المستكشفة تشير الى ما كانت مصر تعلقه من الاهمية على علاقاتها

الحسنة مع فينيقية ولا سيما مع جبيل . ويستدل من كتابة نقشت على مسلة موجودة في متحف تورينو بايطاليا ان سنفرو من السلالة الرابعة قصد الى جبيل وأخذ منها سفينتين مصنوعتين من خشب الصنوبر طول الواحدة مائة ذراع. وقد وجد في المكان الذي اقيم عليه هيكل ربّة جبيل عدة اوانٍ بينها تحف مهداة الى ملوك جبيل من بابي الاول وبابي الثاني وميكارينوس وهو الذي شاد احد الاهرام الكبيرة اي ان تاريخ هذه التحف يرتقي الى عهد السلالات المصرية الثلاث الاولى

ولم تقتصر علاقات مصر وجبيل على الوجهة الاقتصادية بل تناولت المسائل الدينية ايضاً بدليل ان المصريين اقاموا هيكلاً لآلهة جبيل في المدينة نفسها كما يتضح من الآثار التي استكشفت . ويستدل من التماثيل والنقوش في هذا الهيكل على ان بناءهُ يرتقي الى عهد السلالة المصرية الرابعة والى ما قبلها . وفي ذلك دليل ايضاً على ان الفراعنة لم يكرهوا الفينيقيين على انتحال ديانتهم . وقد وجدت كتابة منقوشة على آنية مقدمة الى الهيكل المشار اليهِ هذا تعريبها : « من اوناس المحبوب من الاله الشمسي الموجود على بحيرة فرعون » ومعنى ذلك انهُ محبوب من الاله المحلي اله جبيل. واوناس يزعم انهُ محبوب من هذا الاله كما هو محبوب من الشمس الاهة مصر الكبرى التي يمثلها هو . وفي ذلك دليل على ان مقدم هذه الآنية كان سائداً في جبيل كما كان سلطاناً على مصر . واما بابي الاول فانهُ رفع نفسه الى مقام اله جبيل عملاً بما كان متبعاً في العصور الخالية من اتخاذ الملوك بمنزلة آلهة متجسدة تحمي المدينة وبمنزلة الامثلة الحية للاله امون. ولذلك كانت تماثيلهم تزان برسوم ترمز الى سلطتهم السامية. والآثار التي وجدت في هيكل عشتروت المجاور لهذا الهيكل وذكره لوقيان تدل على مقدار السيادة التي كانت لفراعنة مصر على تلك المدينة ، وهذه الآثار وجدت تحت بلاط الهيكل . وهي تدل على انهُ شيد ما بين القرن الخامس والعشرين والقرن التاسع عشر قبل المسيح اي بين عهدي السلالة السادسة والسلالة الثانية عشرة . وقد تهدم مراراً وكان الرومان آخر من جدّد بناءهُ . على ان عهد بابي الاول في جبيل لم يكن زاهراً ولذلك اعرض الجبيليون عنهُ دلالة على زوال هيبة الفراعنة في تلك الحقبة من ارض الفينيقيين

واظهر ما يستوقف الانظار من الكتابات التي عثر عليها المسيو مونته ذكر ادونيس المتواتر في تاريخ جبيل مقروناً بذكر عشتروت. وقد وجد بين الآثار التي عثر عليها ملفاً عليهِ حروف هيروغليفية يستدل منها على انهُ لاحد ملوك جبيل وقد ورد فيهِ اسماء الهة نيغا وهي الالهة التي تشير اليها الكتابات المنقوشة على الاهرام . وعثر في جبيل على رسم محفور يمثل اله البلاد والاهتها يعبدهما فرعون. وفي ذلك دليل على ان الفينيقيين كانوا يعبدون الهاً والاهة اي ذكراً

وانني يظهر ان لهما علاقة بادونيس وعشتروت وقصتهما مماثلة لقصة اوزيريس وايزيس الواردة في الكتابات الهيروغليفية بمصر كما قال فلوطرخس فان بطل الرواية في « قصة الاخوين » يشبه ادونيس ويسكن وادي نهر ابرهيم يموت فيبعثهُ اخوهُ ثم يحول الى شجرة مثل اوزيريس وينقل الى مصر

وقد القى المسيو مونته في المعهد العلمي الفرنسوي في القاهرة في ٩ يناير سنة ١٩٢٣ خطبة قال فيها انه كان في جبيل اله الشمس والاهان آخران يحرسان المدينة وان فرعون مصر اعترف جهراً بانهُ صديق وابن هذه الآلهة كما انهُ ابن الاله « رع » . ومغزى ذلك ان هذا الملك ما كان يستطيع ان يطأ ارض فينيقية من غير ان يعترف بالاله . والخلاصة ان مصر اضطرت بحكم الحاجة الى انشاء علاقات ودية مع فينيقية لتتمكن من الحصول على ما كانت تفتقر اليهِ من محصولاتها ولاسيما الارز والصنوبر والسنديان والقار والقطران . وبسبب هذه العلاقات عرف المصريون ديانات الفينيقيين فنقلوا بعضها الى بلادهم وانتحلوها

وقد نشرت التيمس الانجليزية رسالة للمسيو مونته اتى فيها على خلاصة اعماله الاثرية في جبيل ومما جاء في هذه الرسالة ان ذكر جبيل ورد في ما كتب عن آلهتها التي كان المصريون يعبدونها او في ما كتب عن المحصولات والبضائع التي كانت مصر تستوردها من فينيقية نظير خشب الصنوبر والعرعر والارز والخرنوب والقلفونة والقار . واخذ المصريون عن الجبيليين صناعة بناء السفن لانهم كانوا في حاجة اليها لجلب البخور من بلاد العرب . ووجدت صورة بارزة تمثل احد الفراعنة ساجداً لاله جبيل وإلاهتها. وعثر على معبدين احدهما مصري والآخر فينيقي وكان امام الاول اربعة تماثيل كبيرة وفي داخله تمثال للآلهة يكاد يكون سليماً . أما المعبد الفينيقي فلم يكن باقياً منه سوى البلاط المرصوفة به أرضه وقد وجدوا فيهِ كثيراً من التماثيل والحلي والكؤوس والاسطوانات واكثر الكؤوس كان مصريًّا وعلى بعضها اسماء بعض الفراعنة نظير ميقارينوس واوناس وبابي الاول وبابي الثاني . وعثر على غرفة تحت الارض فيها ناووس حجري ضخم يحوي تحفاً بينها كأس من السبج مطوَّقة بالذهب وقد نقش عليها اسم امنمحت الثالث الذي ملك على مصر من ١٨٥٠ الى ١٨٠٠ ق.م. وفي شهر سبتمبر سنة ١٩٢٣ عثروا على دهليز صاعد من هذه الغرفة وجدت فيهِ كتابة هيروغليفية جاء فيها: «ان زو أحد امراء جبيل لم يرد ان ينشىء لنفسه مدفناً يدفن فيهِ وحده بل اراد ان يدفن مع والده ليرى احدهما الآخر كل يوم في العالم الثاني » . وعثروا في غرفة أخرى تحت الارض على كثير من الآنية الخزفية المطلية بينها كأس مصرية مصنوعة من حجر رمادي اللون وهي بديعة الصنعة وعلى غطائها كتابة هيروغليفية هذه ترجمتها : «من الاله الكامل الحي ابن امنمحت الشمس الى خدمهِ دائماً» والمقصود بالخدم أهل جبيل . وحقة جواهر من السبج على قواعد من المذهب وغطاؤها من الذهب

والسبج وحوله أطار ذهبي منقوش على الاسلوب المصري وفي وسط الغطاء كتابة هيروغليفية هذه ترجمتها : «الآله الحي الكامل سيد البلادين ملك مصر العليا والسفلى معخر ورع المحبوب من تم اله هليوبوليس المعطاة له حياة ابدية كالشمس » . وممخر ورع أحد الاسماء التي كان يعرف بها امنمحت الرابع الذي ملك على مصر من ١٨٠٠ الى ١٧٩٢ ق.م. وهو الذي ارسل هذه الهدية الى ابن ملك جبيل الذي انشأ الدهليز بين مدفن أبيه ومدفنه وقد ورد اسمه في كتابة هيروغليفية على صل منتفخ الاوداج يلتف حول مخصرة من البرونز وهذه ترجمتها: « صنع للامير ابي سخيمو المتوفي — امير جبيل ايب سخيمو ابي المعاد الى الحياة » .وفي ذلك ما يدل على ان الفينيقيين كانوا يستعملون الكتابة الهيروغليفية قبل ان استعملوا الكتابة المسمارية في مراسلاتهم السياسية بثلاثة قرون ولكن القلم الذي كانوا يكتبون فيهِ وقتئذٍ اقرب الى الهيروغليف الحثي منه الى الهيروغليف المصري

طوق من الذهب وجد في جبيل سنة ١٩٢٤

وعثروا في مدفن ثالث على تابوت خشبي مزخرف بالقيشاني والذهب وعلى آنية من الخزف بينها مخصرة من البرونز وطوق من الذهب بديع الشكل يماثل الطوق المصري المؤلف من عقود لؤلؤ معلقة بين رأسي باشقين من الذهب مع هذا الفرق بين الطوقين وهو ان العقود أبدلت بصقر باسط جناحيه ويحمل في كل من رجليه خاتماً ذهبيًّا يرمز الى تجدد الحياة وخلودها . وهناك مدفن رابع عثر فيهِ على آنية خزفية مزخرفة مع قطعة من اناء البستر نقش عليهِ بالهيروغليفية ما ترجمته . « الى نفس الامير الشريف شيخ الشيوخ أمير جبيل المعاد الى الحياة»

وهناك كثير من التحف الاثرية الثمينة في جملتها آنية من الفخار وشارات ملكية واسلحة عليها كتابات هيروغليفية مهداة من الفراعنة الى ملوك جبيل وجرار ودلاء وصحون واطباق من الخزف والبرونز وآنية من الرخام عليها كتابات هيروغليفية وقطعة ذهبية تمثل مرتين الملك جالساً امام الصقر وهو شعار فراعنة مصر ومدالية ذهبية وحجارة كريمة وخاتم من الذهب وخنفسة من الحبشة وعقود من اللؤلؤ والبلور وسواران ذهبيان وصولجان من خشب وذهب عليه شعار من الفضة يمثل الشمس وسلاح من البرونز بقبضة ذهبية وخنجر ذهبي وعصا من ذهب وخشب وصولجان من البرونز وكأسان احداهما من ذهب والاخرى من حجر وطاسة من الفضة واناء من العظم فيه مسامير من الذهب ورصائع ذهبية وقبضات اسلحة

وعثر بالقرب من جبيل على مدفن يرتقي تاريخه الى عهد رعمسيس الثاني في القرن الثامن ق.م. وجد في أحد غرفه ناووس عليه كتابة فينيقية هي اقدم ما وجد من نوعها حتى سنة ١٩٢٥. وقد اكبر علماء الآثار قيمتها لما يتوقعون ان يكون لها من الشأن في تاريخ الاقلام الفينيقية التي لم يستطيعوا الى اليوم ابداء رأي فاصل فيها وهذا علاوة على ما ينتظر ان يستخرجوا من الكتابات التي وجدت في هذا المدفن من الحقائق التاريخية الهامة التي تصلح اساساً لتعيين العلاقات القديمة بين مصر وفينيقية تعييناً جليًّا واضحاً

وقد عثر احدهم في جوار جبيل على تمثال ذهبي صغير طوله ٨ سنتيمترات يمثل امرأتين مصريتين واقفتين وعاريتين من الملابس ويدا كل منهما منبسطتان على ركبتيها وقد برزت ثدياهما وفي موضع الحلمة من كل ثدي حجر كريم وهو مرتكز على قاعدة تدلت من اسفلها حلقة مربوط بها حجر من السيلان . وهذا الحجر معروض الآن في المتحف اللبناني

وفي شهر مايو سنة ١٩٣٢ نشر مدير المعارف في لبنان بياناً بآخر ما عثر عليه في جبيل من آثار الاقدمين والتحف الاثرية النادرة فقال ما يؤخذ منهُ ان اعمال الحفر وصلت الى الهيكل الفينيقي الذي يرجع عهد انشائه الى القرن الثامن عشر قبل المسيح وقد عثروا فيه على آثار ثمينة هي انفس ما اكتشف من نوعها حتى الآن . «من هذه التحف فأس من الفضة وثلاثة فؤوس من الذهب الخالص منلت على احداها صورة كلب وكبش في غاية الدقة لم يعرف لها مثيل في تاريخ فينيقية ونصال وقبضات من الذهب يتركب منها ثلاثة خناجر واحدى هذه النصال مزدانة برسم رجل فينيقي يركب حماراً بينما اناس امامه يسوقون سعادين وأسداً وماعز. وقبضة ذهبية كسر جفت دقيقة الصنع . وعدة اسطوانات ذهبية وفضية صغيرة دقيقة الصنع واربعة تماثيل من البرونز المطلي بالذهب محفوظة حفظاً جيداً واكبرها يبلغ طوله ٥٠ سنتيمتراً ويمثل شخصاً واقفاً وعلى رأسه قبعة كالبادة . وشخص يمثل ابي الهول ـ السفنكس. طوله ١٢ سنتيمتراً من الشبه (البرونز) المطلي بالذهب»

آثار صور وصيداء

وهناك تحف اثرية اخرى بالغة منتهى الجمال والدقة في الصنعة وجدت في السنوات الاخيرة سواء كان في جبيل او في سواها من المدن الفينيقية اللبنانية ولا سيما في صور وصيداء حيث وجدوا عدة نواويس حجرية ورصاصية عليها نقوش جميلة وصور حيوانات وحشرات ممثلة بأشكال متنوعة . وهناك تحف اثرية اخرى بينهـا آنية من ذهب عليهـا كتابة هيروغليفية وثلاثة تماثيل وجدت بين صور وصيداء احدها محطم والثاني بشكل جذع او مذبح للتضحية والثالث بشكل سمكة وبالقرب منها تابوت من الرصاص موضوع في ناووس من الرخام منقوش عليه رسم ابي الهول . ووجدوا في قرية صانوي بجوار صيداء اربعة نواويس من المعدن وناووساً من الرخام وجرتين من الخزف عليها كتابات هيروغليفية وزهرية خزف وقطعتين من الذهب تمثلان صولجاناً وعدة قطع ذهبية اخرى . وعثروا في قرية كفر جرة التابعة لصيداء على مدفن قديم فيه كثير من التحف الاثرية الثمينة بينها آثار مصرية ترجع في تاريخها الى القرن السادس ق . م . وهناك تحف اخرى وجدت في مدافن فينيقية في تلك البقعة يرتقي عهدها مع آثار كفر جره الى عصر القضاة او الـكهنة اي الى الحقبة الفاصلة بين عهدي الاسرتين المصريتين الثانية عشرة والثامنة عشرة وتتناول خمسة قرون تبتدىء في القرن الثامن عشر وتنتهي في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وبين الآثار التي وجدوها هناك تحف نفيسة مماثلة للتحف التي عثروا عليها في مدافن الاسرائيليين في فلسطين وبينها كثير من الجعران من حجر الجمشت والحجر الـكلسي . ووجدوا هناك مدفنين آخرين يرتقي تاريخهما الى عهد الـكهنة وعثروا فيهما على رياش فاخر في جملته آنية خزفية وآنية من البرونز وخناجر وفؤوس ونصال وجعران وطابع بشكل عمود وغير ذلك

ومما لا ريب فيه ان الآثار القديمة التي لا تزال مدفونة في هذه المنطقة الساحلية تضارع في عظم شأنها آثار جبيل ولو ان هذه المدينة ذات مكانة خاصة للصبغة الدينية التي كانت لها في ما سلف من الدهر . ونحن في غنى عن القول ان ما استكشف الى اليوم من آثار الاقدمين ولا سيما آثار الفينيقيين في تلك البقعة الساحلية الممتدة من صور الى اللاذقية انما هو عشر معشار ما هو مدفون في ارضها من الـكنوز الاثرية التي لو عني باستخراجها وادخارها كلها في المتحف الوطني اللبناني الذي انشىء خصيصاً لها لـكانت ثروة عظيمة للبنان وأثراً تاريخياً جليلاً يحدث العالم بحضارته القديمة الممتازة التي كان المسيو مونته آخر من قال فيها : «انها تضارع حضارة مصر وكلدية »

تعلم اللغات الاجنبية

طريقة جديدة بديعة

« كل لسان انسان » .كذلك جرى المثل العربي القديم. اما وأنحاء العالم المتمدن اصبحت مرتبطة اوثق ارتباط بوسائل المواصلات والمخاطبات السريعة وبصلات التجارة المتبادلة، فهذا المثل العربي القديم اصبح ضرورة يقتضيها العصر الحديث

فالمسافر الذي يرحل الى بلادٍ لا يعرف لغة اهلها تمرُّ امامهُ مشاهد الحياة والعمران كما تمرُّ امام عينيهِ على ستار الصور المتحركة من دون ان ينفذ الى كنهها ، ولكنهُ اذا كان يعرف لغة القوم تمكن من التغلغل في نفسيتهم فيتحدث معهم بها فيتكشف لهُ الحديث عما يساورهم من آمالٍ وآلام ، ويستطيع أن يقرأ ادبهم فيتسع افق نظرهِ الى الحياة بل يصبح قادراً ان ينظر الى الحياة والعمران بعيونهم فكأنهُ يضيف بذلك حياة جديدة الى حياتهِ فيصدق عليه المثل العربي « كل لسان انسان » . ثم اذا كان من رجال المال والاعمال سهل عليهِ ان يتصل بعملائهِ في البلدان المختلفة ، من غير ترجمان او وسيط ، فيتحدث معهم بلغتهم ، ويبلغ في حديث ساعة من هذا القبيل ، ما لا يبلغهُ في مراسلات يتبادلها معهم بالبريد في خلال اسابيع او شهور ؟

يضاف الى ذلك ان معرفة الانسان بلغة قوم غير قومهِ ، واطلاعهُ على أدبهم وفلسفتهم يمهدان لهُ سبيل فهمهم على ما هم حقيقة ، فلا تذهب بهِ الاوهام والتصوُّرات في تعليل ما يقولون ويفعلون ، كل مذهب . وهذا الفهم دعامة الوئام الدولي ، الذي ينشدهُ العالم في المؤتمرات العالمية من اقتصادية وسياسية وحربية . ونذكر ان بريان داعية السلام في القرن العشرين قال على أثر اتفاق لوكارنو : « لقد تكلمنا لغة اوربية وهي لغة جديدة يجب ان نتعلمها » اشارة منهُ الى انهُ تفاهم مع شترزمان الالماني

فتعلُّم اللغات الحية واجبٌ على ابناء هذا العصر سواء نظرنا اليهِ من ناحية الثقافة الشخصية او من ناحية المنفعة العملية او من ناحية التفاهم الدولي

***

والطريقة المثلى لتعلُّم اية لغة اجنبية يجب ان تتصف بالصفات الآتية : —

يجب ان تكون مما يمكن استعمالهُ على حدة من دون ارشاد معلم خاص ، كما يجب ان تكون مما يصلح للاستعمال في فرق التدريس ، جارية على احدث ما عرف في علم التربية من وسائل درس اللغات

ويجب ان تمكن المتعلم من التحدُّث بها في موضوعات الحياة اليومية مع معرفة ما تجب معرفتهُ من قواعدها بوجهٍ عام ليكون الكلام بها سليماً من الخطاءِ المزري

ثم يجب ان تمكن المتعلم من التفكير باللغة نفسها مباشرة لانهُ اذا فكر بلغتهِ الاصلية وجب عليهِ ، لدى المحادثة ان يترجم الكلام لفظاً لفظاً وعبارة عبارة ، فلا يسلم حينئذٍ من العجمة علاوة على التردد والتعثر في اثناءِ الكلام

يضاف الى كل ذلك ان طريقة التعليم يجب ان تمكن المتعلم من النطق باللغة كابنائها وبلهجتهم فاذا خاطبهم بها لم يحسب بينهم غريباً

* * *

قرأنا منذ بضع سنوات كتاباً للكاتب الانكليزى المشهور المستر ولز (H. G. Wells) عنوانهُ « خلاص الحضارة » عرض فيهِ ، في فصل مسهب لمشكلة التعليم والطرق التي يجب ان تتبع لكي يخرج المتعلم كامل التعليم مثقفاً مهذَّباً يصلح ان يعيش في عالم يقتضي الترابطُ بين اجزائهِ التفاهمَ التام بين طوائفهِ وشعوبهِ . وفي الصفحة (١٦٠ — ١٦١) قال ما يأتي في تعليم اللغات : —

« ان المدرسة الحديثة يجب ان تحتوي على عدد كبيرٍ من الجراموفونات . ولكنها لا تستعمل في تعليم الموسيقى والتمرينات الرياضية فقط بل في تعليم اللغات كذلك . فبدلاً من ان يضطرّ معلم اللغة الى التظاهر بانهُ يجيد اللغة الاجنبية التي يدرّسها لتلاميذهِ ، وهو لا يعرف الاّ مبادئها ، يصبح عوناً لاداة التعليم الكاملة — وهي الجراموفون ..... وفي السنة الاولى من تعلـم اية لغة اجنبية يساير المعلم اقراص الجراموفون فيتعلم التلميذ منها اللهجة السليمة والنطق الصحيح . وتدرّس كلّ لغة في مختلف اقطار العالم بلهجة واحدة ومقدار واحد من المصطلحات — وهو عمل مرغوب فيه »

كانت امنيّة المستر ولز مقدمة لاستنباط الطريقة الجديدة في تعلمُ اللغات التي جعلناها موضوع هذا المقال . فان المستر رُسْتُنْ تدبّر امنية المستر ولز بعد ما عالج تعليم اللغات خمساً وعشرين سنة وخبر نقائصهُ ومقتضياتهِ فخطر لهُ ان يحقق هذه الامنيّة فانشأ طريقة اللنجوافون

وأساس هذه الطريقة ان من يرغب في تعلم لغةٍ اجنبية يجب عليهِ ان يتعلمها كما يتعلّم الطفل الكلام . فان الطفل يصغي اولاً الى من يتكلم حولهُ فتختزن ذاكرتهُ الاصوات ومعانيها ، فاذا نضجت اعضاءُ النطق فيهِ نطق بالالفاظ كما سمعها من والديهِ واخوتهِ وغيرهم ممن يحيط بهِ . فجاءَ المستر رستن بأُستاذ انكليزي فوضعا ثلاثين درساً انكليزيًّا تتناول موضوعات الحياة اليومية ووضعا لكل درس صورة تحتوي على الاشياء المذكورة في الدرس . ثم جعل الاستاذ ينطق

بالجمل التي في الدرس ، بما هو مشهور عنهُ من سلامة اللهجة وفصاحتها ودوّن ذلك على قرصٍ من اقراص الجراموفون . وطبعت الجمل في صفحة من كتابٍ امام الصورة . وفعلا ذلك في بقية الدروس . وهذه الدروس مفسرة بلغة كل طالبٍ الخاصة . فهي مفسرة بالالمانية للالماني وبالفرنسية للفرنسي

فاذا شاء رجل ان يتعلم الانكليزية أخذ هذه الاقراص التي دوّنت عليها الدروس المختلفة، ووضع القرص الاول على الجراموفون وأداره وجلس يصغي اليهِ . وهو ينظر الى الصورة . فيتعذّر عليهِ اولاً ان يتبين الالفاظ ومقاطعها . ولكنهُ يعيد الكرة على القرص نفسهِ ثانية وثالثة ورابعة حتى ترسخ الالفاظ في ذهنه . وهو في اثناء ذلك ينظر الى الصورة فيربط بين الاسماءِ ومسمياتها . فيتعلم اللغة الاجنبية كما يتعلم الطفل لغة والديهِ

ثم ينتقل الى الدرس الثاني فالى ما يليهِ وهو في خلال ذلك يزداد تبيناً للالفاظ ومقاطعها، وفهماً لمعانيها ، فاذا حاول بعد بضعة دروس ان يقول جملة باللغة الجديدة التي يتعلمها قالها بداهةً بلهجة ابنائها من دون ان يعمد الى ما يريد ان يقولهُ ثم الى اختيار اللفظ الموافق لهُ ثم الى التفكير في بناءِ الجملة بحسب القواعد المرعية

هذه هي الفكرة التعليمية التي تقوم عليها الطريقة الجديدة . وقد جرّبت فوفت بالغرض المقصود ايّما وفاء . وهي تستعمل الآن فيما يربي على ٨٠٠٠ مدرسة في انكلترا والمانيا والسويد والنروج وفرنسا وغيرها . وشهد لها كبار الادباءِ والمعلمين بالفائدة التي تجنى من استعمالها . وقد قرأنا عن فتى كان يتعلم في المدرسة بلندن اللغة الاسبانية وكان يستعين على تعلمها بطريقة اللنجوافون في دارهِ ، فلما جاء الممتحن الاسبانيُّ الى لندن ليمتحن الطلاّب ، عجب للهجة هذا الفتى الاسبانية وسألهُ في اية مدرسة من مدارس اسبانيا درس اللغة الاسبانية

***

ولما وثق المستر رستن من وفاءِ هذه الطريقة بالغرض التي انشئت لهُ استعان باكبر اساتذة اللغات في البلدان المختلفة لوضع دروس في اللغات المختلفة فثمة دروس انكليزية لابناء الالمان والفرنسيين وغيرهم وثمة دروس فرنسية لابناءِ الانكليز والالمان والايطاليين وغيرهم ودروس المانية لابناءِ الفرنسيين والانكليز ودروس ايطالية واسبانية الخ والمعهد معنيٌّ الآن بوضع الكتب والدروس اللازمة للناطقين بالعربية

واذا كان ثمة من يعرف لغة من اللغات واراد ان يتوسع في ادبها وجد اقراصاً في بعض اللغات وقد دوّنت عليها قطع ادبية مختارة كما يتلوها افصح الفصحاء ، والى جانبها كتب في تفسّر ما غمض منها . فالطريقة مستكملة للشروط التي يجب ان تتوافر في تعليم لغة اجنبية وعندنا أنها من افضل ما ينفق فيهِ المثقفون جانباً من اوقات فراغهم

الفيلسوف سبينوزا

على ذكر الاحتفال بانقضاء ٣٠٠ عام على ولادته

من كتاب « الفلسفة في كل العصور »

انتهيت من تأليف هذا الكتاب معتمداً بضعة عشر مؤرخاً للفلسفة من اشهر رجالها ، في اوربا واميركا ، كاردمن ، وثلي ، ولوس ، وترز ، ومارفن ، وجانيه وسيال وغيرها

وبعد انجاز التأليف اسعدني الحظ برعاية طائفة من اساتذة الفلسفة ومساعدتهم فجاء سفراً نفيساً مضبوطاً ، سهل المأخذ ، وافياً بالمرام ، في تاريخ الفلسفة وزعمائها ، ومذاهبها ، وتطورها ، وعصورها

وتلبية لرغبة المقتطف قدمت له المقالة التالية في « سبينوزا » ، سادس خمسة هم اساطين الفلسفة في كل ادوارها وهم : افلاطون . ارسطوطاليس . ديكارت . ليبنتز . كنت : والسادس « سبينوزا » والكلام فيه مقسم الى ثلاثة اقسام ، هي ترجمته ، وفلسفته ، ورأيه في الخلاص

(١) ترجمتهُ

ولد « باروخ سبينوزا » بامستردام هولاندا ١٦٣٢ . وهو من اصل يهودي برتوغالي . هذّبهُ الربّاني « موسى اوتيريا » ، وهو مفكّر يذكرنا بأتباع « ابن ميمون » المدرسيين ويرمي الى التوفيق بين الفلسفة والديانة اليهودية

رفض « سبينوزا » شرح التوراة بحسب فلسفة « ارسطوطاليس » . واثقاً « بابن عزرا » وقد قرأ الادب الجرماني على الطبيب « فرنزفان دن اند » وهو زنديق شهير ، والطبيعيات على الطبيب « لودويغ ماير » . وحرَمهُ المجمع الاسرائيلي سنة ١٦٥٦ ، فلم يكلمهُ احد حتى ولا شقيقته ، لانهم حسبوه كافراً . فلاذ برجل يدعى « برينسبرجر » . وبرح امستردام الى الهاي . وعاش مع « فندبريسبيك » ؛ اردمن

ولم يؤلف شيعة ، على ان كل فلسفة بعده ممتزجة كثيراً او قليلاً بافكاره . وكان الجيل الذي تلاه ينبذه نبذ الحذاء المرقّع . لكن « لسنغ » ردّه الى شهرته . فدهش « جاكوبي » من كون « لسنغ » سبينوزيًّا ، ولا فلسفة عنده الاّ فلسفة « سبينوزا »

ثم وجّه « هردر » الانظار الى كتاب : الاخلاق : اشهر مؤلفات سبينوزا ، ولقّبهُ « شليرميخر » : بالقديس المحروم ، ودعاه احد الشعراء : الانسان النشوان بالله ، ثم لفت « جاكوبي » اليهِ نظر شاعر المانيا العظيم « جيته » . فقرأ هذا كتاب « الاخلاق » فوجد فيهِ الفلسفة التي تصبو اليها نفسه . فارتقى باعتناقها من الغرام الهمجي ، الذي ساد اشعاره ، الى ذرى الشعر الفلسفي . و بلغ « نخت » « وشلنغ » و« هيغل » مذاهبهم المنوّعة في « الوهية الكون » بمقارنتهم فلسفته بابستمولوجيا (فلسفة المعرفة) كنت

وقد تولّدت : ذاتية : فلسفة « لسنغ » من عبارة « سبينوزا » الشهيرة : حفظ الكيان : وكذلك شعار فلسفة كلٍّ من المفكرين « شوبنهور » و « نيتشه » وبرغسن . فشعار الاول : الارادة .

والثاني : القوة . والثالث النشاط . وعلا قدر «سبينوزا» في انكلترا مع انتشار الثورة . وترجم «شلي» رسائله في : الدين والسياسة . و «جورج اليوت» كتابهُ في الاخلاق . ومات سنة ١٦٧٧ . وفي القرن الثاني بعد وفاتهِ اقاموا له في هولاندا نصباً عديم المثال «دورانت»

(٢) فلسفته

«سبينوزا» تلميذ «ديكارت» من حيث المنطق والمنهج . الاَّ انهُ سار بمذهب «ديكارت» الثنائي الى تأليهِ الكون : معتمداً على اسناد «ديكارت» التصوُّرات الى الله . ويتناول تفكير «سبينوزا» ثلاثة موضوعات : الله والطبيعة والانسان ، او الجوهر وصفاته وصيغتهُ

جانيه وسيال

﴿ الله ﴾ : الله اول الفلسفة وآخرها

قسم «سبينوزا» الكون الى قسمين متمايزين مجموعهما الله . وكانت فلسفته جانحة الى مذهب «ديكارت» بحذف الله من الكون ، كانهُ لا صلة له تعالى بهِ . واساس ذلك عنده ماهية الكون ، التي بها تتلاشى الاشياء . ونقطة تفكيره هي : ان الاشياء المحدودة وهمية

غرض الفلسفة عند «سبينوزا» الهرب من عالم الظاهرات ، التي لا تهب سعادة حقيقية ، واحراز النعمة التي يهواها العقل والقلب ، ولا يدانيها تغيُّر وهي وحدها الجديرة بمحبتنا ، لانها وحدة الكون السرمدية ، التي تضمُّ في ذاتها الاشياء الفانية ، وتهب لها اليقينية . وبلغة دينية هي — الله — فعوض استبداله تعالى من الاشياء ، اذا هو هي . فقادنا نقصها الى كماله . فان الفلسفة تتناول الواحد اليقين ، لا الاشياء الفانية

(المؤلف : لكي نفهم فلسفة «سبينوزا» نرجع الى الميتافيزيقا التي يعتمدها واليك بيانها)

الجوهر والصفات والصيغ : تندرج كل حقيقة تحت ثلاثة رؤوس : الجوهر ، والصفة ، والصيغة

الجوهر : وهو ما وجد بذاته (دون استناد الى آخر) ، وفهم بذاته (دون افتقار الى ما سواه)

الصفة : هي ما صاغها الفهم كلباب الجوهر ، او خلاصته

الصيغة : او تطور الجوهر : هي ما قام بغيره ، وفهم به

فالجوهر واحد ابداً . لان المادة والعقل (وهما صيغتان) يقومان بالله ، لا بذاتهما . والماهية واحدة ، ازلية ، غير محدودة ، هي مناط الاشياء كافة . اما الصفات فلباب تلك الماهية . والاشياء تغيرات الصفات او تطوراتها ، وهي فانية . وان علاقة الله بالكون طبيعية ، لا منطقية

﴿ الصفات ﴾ : صفات الله لا تحصى عدداً ، لكننا نعرف منها اثنتين فقط ، هما : الفكر والامتداد فالفكر يحرك المادة ، والمادة تثير الفكر ، فهما متفاعلان . وبينهما تمام المطابقة . فكل صيغة فكر ، هي صيغة امتداد . ولما كان لا تداخُل بين الفكر والامتداد فالفكر يتوضح بمنهج فكري ، والامتداد بصيغة مادية ، فلا لبس بينهما . وسواء نظرنا الى الطبيعة بالفكر او بالامتداد فالنظام ، او ترابط العلل ، واحد

الله علة تصورنا الدائرة في العقل (هذا هو الفكر) وهو ايضاً علة وجود الدائرة في الطبيعة (هذا هو الامتداد) . فقد انشأ تعالى الصورة في فكرنا بصفته الفكرية، واوجدها في الطبيعة بصفته الامتدادية (المؤلف: يعني «سبينوزا» ان الفكر والامتداد صفتا الجوهر)

الله العلة الاولى لكل الاشياء وهو تعالى كنهها ، ولباب وجودها . فالذين نسبوا القصد الى الحوادث الجزئية برهنوا على جهل مطبق . فاذا سقط حجر من علٍ ، فاصاب احداً فقتله قالوا ان الحادث فعل غائيّ ، اراد به الله ان يقتل ذلك الانسان . على انه ليس من غاية في الطبيعة. واعتقادنا القصد فيها مبني على تأنيسنا الله . فنعزو كل حادث اليه تعالى عزواً مباشراً . ونبحث في قلوبنا عن قالب نسبك الله فيه ، ناسبين اليهِ تعالى امثال نقصنا . لذا نرى آلهة الناس تدير الطبيعة خدمة للانسان . فيختار كل واحد طريقاً خاصًّا لعبادة الله ، الذي ميزه عمن سواه، ووفّق مصالحه . فيصير التميز خرافة سائدة متأصلة في النفوس . على هذا الاساس يجدّ الناس في استجلاء الغاية النهائية . فلا يرون في الحرب والزلازل والاوبئة ضرراً . وبالرغم من تكذيب حوادث كل يوم اوهامهم ، مبينة ان الخيرات والشرور تصيب الاخيار والاشرار سواسية ، نرى الناس لا يقلعون عن وهمهم

على ان شهادة الطبيعة صريحة ضد وهمهم .فان حرارة الشمس تكون خيراً في حال وشرًّا في حال آخر .وكذلك بلة المطر .وقد تكون هذه وتلك لا خيراً ولا شرًّا ، كالموسيقى فهي خير للمسرور ،وشر للحزين،وليست هذا ولا ذاك للاصم . فالذين لا يفهمون الطبيعة فهماً صحيحاً يحكمون ، وهماً ، بانتظام الاشياء ، فالمستحبّ عندهم منتظم ، وغيره فوضى . ويؤثر المرء نسبة النظام الى الطبيعة ، قائلاً : عمل الله كل شيءٍ حسناً

(حتى ان النظام في عقولنا لا في الطبيعة) وكذلك الجمال محصور فينا ، في اختبارنا وفي حكمنا . فلا يجوز ان ننسب لله قوًى كالتي في الانسان.فاذا كان لله عقل وارادة فهما خلاف ما للانسان.فبماذا نصفه تعالى ؟ وهو اكثر من جوهر مجرد !... (روجرس)

(٣) الخلاص

﴿ الاستعباد الانساني ﴾ : نحن في ثورة عواطف ، لنقص محبتنا وتقلُّبها ، لاعتمادنا الاشياء الغامضة المستقبلة ، دون الثابتة . فنحب ونبغض ، ونفرح ونحزن ، ولا ندرك السلام . فنحن عبيد العاطفة والجهل اللذين يقيّدان الناس . فاذا لم يكن للانسان يقينية في نفسه فكل جهوده عبث

حين يتوقّف حفظ الذات علينا فلنا «فعل».وحين يتوقّف على خارج عنا فلنا «شوق». فما هو اساس الفرق بين الافعال والاشواق ؟ يرجع الجواب عن ذلك الى الصفات والصيغ . فانّا اذا اعتبرنا ظاهرات معرفتنا العالم ، في احوال وعينا ، فلنا « صِيَغ » . .ففيما نظن انا قد تحسسنا العالم الخارجي لم نتحسّس الا شعوراً ، نتج عن التفاعل بين الموضوع وبين حواسنا

باعتبار كونهِ ناتجاً عن فاعلين فهو (اي الشعور) يمثل احدهما (التحسس لا الاشياء). وهذا هو تعليم نسبية الحسّ ومرجع هذا التعليم « بروتاغوراس ». فمعرفتنا الحسية ناقصة وغير مطابقة

وهنالك طريقة اخرى لاعتبار العقل الانساني . فانهُ عدا كونهِ فانياً ، هو قسم من طبيعة الله . بناءً على كون كل موجود كائناً في الله . فتصوراتنا ، في جوهرها وابعد حدودها ، ازلية ، فهي مطابقة . فيرجع الفرق بين الافعال والاشواق الى الفرق بين الافكار المطابقة والافكار غير المطابقة . فالاولى كائنة في الله ، والثانية فينا . الاولى أفعال ، والثانية اشواق

والعواطف تصوُّرات ملتبسة او شهوة . والشوق الذي في النفس الى درجة عالية من الكمال هو « لذّة » وبالاشارة الى اللذة والالم يجب تحديد العواطف على الصورة الآتية

المحبة لذة يصحبها تصوُّر خارجي : البغض ألم يصحبهُ تصوُّر نجس

الرجاء لذة غير حاصلة ، ونشأت عن تصوُّر شيء مستقبل وهكذا

فلامتلاك الحرية جانبان (١) الهرب من العواطف (٢) الهرب من التصورات غير المطابقة . والفعلان واحد . فالنعمة الحقيقية هي المعرفة الصحيحة (سقراط) واعظم خدمة للحياة هي تكميل الفهم والذهن بشبع النفس الناشيء عن معرفة الله وصفاتهِ واعمالهِ . فالخير ما قاد الى المعرفة . والشرُّ ماطمس معالمها . فقوتنا فهمنا . وضعفنا جهلنا . وليس البغض وحده رذيلة ، بل ايضاً الجبن ، والخجل والذل ، وجهلنا قدر انفسنا . فمن عاش بحسب الذهن يترفع عن الرأفة والخنوع ، ويقابل الحياة بصدر رحيب ، ولا يطيع سوى وجدانه . فالحرية ثمرة الفلسفة

يزعم الناس انهم يفعلون احراراً ، لانهم عن وعي يفعلون ، كالطفل اذا جاع فانهُ يأكل ، وكالجندي في الجبهة ، فانهُ يجاهد . وقد فاتهم ان الحافز هو وراء الافعال . وان كل الافعال ثمرة الضرورة الالهية (المتحكمة في الوجود ، فالانسان مسيَّر يتوهَّم انهُ مخيَّر) فعلى المرء ان يفهم تلك الضرورة ، لا أن يحاربها

متى رأينا الاشياء في الله ، مرة واحدة ، زالت المعاكسات فينا . فمصدر الالم حبّنا ما لا سبيل لنا الى الحصول عليهِ . فلا يشتاقنَّ المرء الاّ لما هو في متناول يده . فالقوَّة تطهر المعرفة وتميّزها . ومعرفة الله تتغلب على العواطف . وبذلك تستولي على العقل محبة ازلية . ذهننا حر من الحواجز ، لانهُ قسم من الاله غير المحدود . «حقائق الاختبار كحقائق البديهة — كلها — مستمدة من الحقيقة الواحدة — الله . عن هذه المعرفة ينشأ شبع النفس . وكلما زدنا معرفة زدنا خيراً وبركةً وحبًّا لله . وهذا الحب هو حب الله ذاته فينا

يتلخص تعليم الحرية في القواعد الآتية : — ١ : العمل بحسب ناموس الله ، والاشتراك في طبيعتهِ . ٢ : صرف النظر عما ليس في الحول ٣ : عدم البغض او احتقار الآخرين او حسدهم الخ . ٤ : معرفة الامة كيف تحكم وتحكم ، كاحرار لا كعبيد (روجرس)

يمثل سبينوزا ارقى صورة للاخلاق واقسام مذهبه هي : —

١ً الله ٢ً اصل العقل ٣ً اصل العواطف وطبيعتها ٤ً قوة العقل او الحرية الانسانية

﴿ الله ﴾ : اذا كان الجوهر مستقلاً فهو غير محدود . فلا يكون في الوجود الاّ جوهر واحد. ولا يوصف الجوهر باوصاف الشخصية أو الفردية ،لان تلك الاوصاف مختصة بالمحدود

الله والطبيعة واحد . هو المبدأ الفياض في الكون — الطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة وعبارته اللاتينية هي هذه Notura naturan et natra naturata

﴿ الصيغ ﴾ : هي اشواق الجوهر وتطوراته . فلا تدرك الاّ فيه

الانواع سرمدية ، والافراد بائدة (افلاطون) يتجلّى الجوهر الازلي بطرق لا تحصى في نظام التطورات ، وفي نظام الاجسام . فمجموع التطوّرات هو العقل المطلق ، غير المحدود. ونظام الصيغ هو حركة وسكون . والاتفاق معاً مجلى الكون . وهذا المجلى سرمدي ، الاّ ان نتفاً منه تتغير . فالطبيعة جسم عضوي (كبير جدّاً) تتغير صوره وتظل ذاتيته . فاذا رمنا ان نصور الله بصورته الازلية فهو : صفاته غير المحدودة . واذا رمنا ان نتصوره في الزمان فهو الكون . فالله هو الكون [الي]

منهج «سبينوزا » الرياضي دليل تأثير «ديكارت» فيه . فاليقين الرياضي والفلسفي واحد. لأن الادلة الرياضية جلية بطبيعتها ، فلا يسلم سبينوزا بالغاية في الكون ، اذ لا غاية في الرياضة . وعنده عوض الغايات تعليلات . فان الفضاء علة الاشكال الهندسية ، بل هو شرط وجودها الضروري . فهي غير ممكنة من دونه . وواضح ان ليس هنالك غاية

فنقطة شروع «سبينوزا» مضمون الكون المنطقي ، لا علة الاشياء او خالقها . والله عند «سبينوزا» الطبيعة . فمن اراد ان يفهم فلسفته فليبدل كلمة (الله) حيث وجدها (بالطبيعة) فهو مراده. وتصوّر انعدام الصيغة ممكن، لانها بالجوهر تقوم. أما تصوّر انعدام الجوهر فمستحيل، لانهُ بذاته يقوم (فهو واجب الوجود) وبه تقوم الصيغ . فالازلية مختصة بالجوهر . وهو الوحدة الشاملة . والصيغ جزئية هو مجموعها ، يؤلفها ولا تؤلفه . كالامواج بازاء البحر، وكالمربعات الصغيرة في المربع الكبير. فقد كان قبلها ويبقى بعدها . الاّ ان الامواج لا توجد دون البحر ، ولا المربعات الصغيرة دون السطح الذي هي عليه

الانسان مؤلف من صفتين ـ الفكر والامتداد ـ فلا يفهم في الله غيرها ـ لان المثل يفهم المثل

ليس الانسان جسداً ، فقط ، ولا ارادة كذلك . لان الاول امتداد ، والثاني فكر . فهو مجموع الاثنين . وقد تكون كلمة «طبيعة» اكثر انطباقاً على الامتداد غير المحدود . فالله والطبيعة ، لفظان يعربان عن الفكر والامتداد ، وهما نعت الكائن . الجوهر شرط ، وكل موجود شرطي. فامتداد الجوهر شرط الهيولى، وفكره شرط الفكر. الاول اساس الدائرة في الطبيعة والثاني اساس تصورها في العقل. الجسم مؤلف من ذرات ، والعقل من تصورات [اردمن]

حنا خباز

باب الزراعة والاقتصاد

نظرات في الحالة الزراعية

للمستر جاردين وزير اميركا المفوض في مصر

المستر وليم جاردين وزير الولايات المتحدة المفوض في المملكة المصرية من اعلام الاميركيين الذين جمعوا الى الاشتغال بالسياسة العلم الغزير والخبرة الطويلة في ميدان الزراعة. وُلد سنة ١٨٧٩ في ولاية ايداهو في مشجر ranch فنشأ وترعرع بين الخيل والماشية حتى ليستطيع ان يفاخر بأن قول المتنبي

فكأنها نشأت قياماً تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها

ينطبق عليهِ . ولما كان في الحادية والعشرين من العمر انتظم في كلية ولاية يوتا الزراعية وتخرج فيها سنة ١٩٠٤ ثم درّس فيها سنة ثم تولّى ادارة شركة زراعية كبيرة فكان في طليعة الذين استعملوا المحاريث البخارية في الزراعة. ثم عاد الى الكلية التي تخرج منها استاذاً للزراعة. ورأت وزارة الزراعة الاميركية ان تستفيد من خبرتهِ فعينتهُ خبيراً في الحبوب في فرعها الخاص بالولايات الغربية فقضى في هذا المنصب اربع سنوات انشأ في خلالها ستة محطات للتجارب الزراعية في الولايات المتحدة الغربية للبحث في الوسائل التي تمكن الفلاحين من زيادة محصولاتهم رغم قلة المطر . فطار صيته واستدعته كلية كنساس الزراعية للانضمام اليها ففعل وبعد سنتين عين مديراً للاعمال الزراعية وعميداً فيها ثم انتخب رئيساً لها . ولما كان في هذا المنصب دعاه المستر كولدج لتقلد منصب وزير الزراعة . والى القراء اثراً من آثار تفكيره

***

تجتاز الزراعة في جميع انحاء المعمورة أزمة من أشد الازمات التي عرفها تاريخ العصر الحديث. غير أن هذه الازمة الخطيرة لا تقتصر على المشتغلين بالزراعة وحدهم بل تتناول جميع رجال الاعمال كبارهم وصغارهم ، ولكنَّ مصر تختلف عن معظم البلدان بان تربتها أهم موارد الثروة فيها ، وانها تستمد معظم هذه الثروة من محصول واحد وهو القطن . ولهذا السبب تستطيع مصر اكثر من اي بلد آخر أن ترجع اسباب ازمتها المالية الى مصادرها بشيء من الدقة. فثمن القطن هو «البارومتر» الذي بهِ تقرأ ثروة الشعب المصري صعوداً وهبوطاً . وقد اصاب القطن كما اصاب غيره من الحاصلات الزراعية في كل مكان هبوط في الاثمان غاية في الخطورة اما في اميركا فيصعب تقدير الاسباب الحقيقية لهذه الضائقة المالية التي حلت بها ، لا

المستر جاردينر
وزير اميركا المفوض في مصر

الزراعة هناك ليست العامل الوحيد الذي يتخذ مقياساً للثروة فيها . فهناك صناعات عدة لا تقل قيمة عن الزراعة ، كصناعة الفولاذ والفحم والنحاس والمنسوجات والسيارات وآلات الزراعة التي بلغ الكساد فيها النهاية القصوى . يضاف الى ذلك أن الانتاج الزراعي في امريكا يشمل عدة حاصلات تتساوى جميعها في القيمة تقريباً كالقمح والذرة والماشية وصناعة الالبان والقطن والفاكهة والخضر . وقد لحق بهذه كلها تقريباً خسائر مالية فادحة . فاذا افترضنا رجوع حالة القطن إلى نصابها السابق فان ذلك لا يؤدي الى انتعاش السوق هناك الا بدرجة لا يعتد بها ، بخلاف الحالة في مصر فان ارتفاع اثمان القطن ينعش الحالة المالية في جميع أرجاء البلاد المصرية فالضائقة في مصر أقل تعقداً بكثير منها في ولايات اميركا المتحدة

وفي خلال السنوات الاخيرة ظهرت عوامل كثيرة كان من شأنها ايجاد ازمة زراعية نخص بالذكر من هذه العوامل ما يأتي :

(١) مضاعفة الانتاج الزراعي في خلال الحرب العظمى سداً لحاجات الجيوش من طعام وحاجيات على اختلاف انواعها . فنشأ عن ذلك تراكم الحاصلات بعد أن وضعت الحرب اوزارها وتضخمت المنتجات الزراعية التي تركتها الجيوش وراءها بعد تسريحها . وقد زاد الطين بلة تسابق الزراع في الانتاج رغم التخمة التي اصابت العالم ورغم زوال الاسباب التي أدت الى هذا التضخم

(٢) أن معظم أمم العالم وطدت العزم على تموين نفسها بقدر المستطاع من حاصلاتها الزراعية وموارده‍ا الخام

(٣) تغير العادات فيما يختص بالطعام واللباس واستبدال بعض الاطعمة والانسجة التي كانت هي وحدها شائعة الاستعمال ، بغيرها من المواد . مثال ذلك أن مقادير وافرة من الفاكهة والخضر ومستخرجات الالبان والدجاج وغيرها من المواد الغذائية قد حلت محل اللحم والخبز . كذلك في الملابس أخذت البضائع الحريرية تنافس السلع القطنية . وفضلاً عن ذلك فان النساء في كثير من الممالك أخذن يقتصدن في ملابسهن عاماً بعد عام لا فيما يختص ببعض الثياب فحسب بل بالكميات اللازمة لهذا العدد ايضاً ونتج من ذلك نقص المقطوعية ونقص الكميات المستهلكة وهبوط الاثمان

(٤) استخدام الآلات الزراعية التي ساعدت على تخفيض ثمن الانتاج وزراعة ملايين من الفدادين في اراض جديدة كانت قبل ذلك مهملة — بدلاً من الخيول والبغال في بعض البلدان خصوصاً في ولايات امريكا المتحدة، وقد أدت هذه الحالة ايضاً الى زرع ملايين من الافدنة التي كانت تخصص لتموين تلك الخيول والبغال ودواب العمل الزراعي بحاصلات اخرى كالقطن والقمح وغيرها من الحاصلات التي يستهلكها السكان . ففي ولايات اميركا المتحدة وحدها كان هناك نحو ٨٠ مليون فدان من الاطيان التي كانت تزرع خصيصاً لتموين الدواب الزراعية بالحنطة والعلف

وقد استحالت كلها الآن الى اطيان من نوع آخر تنافس بقية الاراضي في انتاج القطن والقمح وغيرها . يضاف الى هذه العوامل كلها زيادة الانتاج بسبب تحسين الاساليب الزراعية وما أدت اليه من التخمة في الاسواق

(٥) وفرة الضرائب التي اضطرت الحكومات أن تفرضها على الأهالي تسديداً للديون التي تراكمت على عواتقها من جراء الحرب العظمى وقد سبّب هذا بالطبع نقصاً فاحشاً في قوة الشراء

(٦) نقل وسائل التجارة الدولية من أماكنها المعتادة ، وتقلقل الحالة المالية عقب الحرب العظمى وتعرّض قيمة النقود الورقيــة للصعود والهبوط ، وتغير الحوائل التجارية وما تلا ذلك من عدم الثبات التجاري بعد ظهور روســيا السوفيتية كعامل في تدهور الحالة المالية وميل الميزان التجاري

لقد أبنتُ الآن بصفة عامة بعض الأسباب التي أدّت الى مرض هذا الجسم الزراعي . والمسألة العظمى الآن هي القضاء على اسـباب الداء ، ووصف الدواء ، ولابد من اختلاف وجهات النظر في العوامل التي أدّت الى الكســاد الزراعي ، غير ان الكل يتفقون على أن جهود العاملين ينبغي أن توجه الى رفع مستوى الحيــاة بين الزارعين او بعبارة اخرى زيادة الدخل بينهم في كل أسرة . وكيف يمكن الوصول الى هذه النتيجة ؟ لديّ وسيلتان : احداهما زيادة ثمن الحاصلات الزراعية وتخفيض ثمن الانتاج ونفقات البيع والشراء

وفي الواقع أن أكثر الصناعات نجاحاً هي التي خفضت فيها أثمان الانتاج ونفقات البيع والشراء ، ولم لا تكون الزراعة على قدم المساواة مع الصـناعات ؟ يمكن بلوغ هذه الامنية اذا طبقنا على الزراعة المبادىء التي نطبقها على الصناعات الناجحة مع مراعاة الفروق بين الزراعة والصناعة . وقد كان لهبوط الأثمان في الماضي وفي هذه السنوات النصيب الأول من العناية واهتمام الجمهور بالمناقشات العامة ، ولم يفكر الناس في العناصر الأخرى التي تجعــل ثمن كل وحدة من وحدات الانتاج اقل مما هي عليه الآن

وقد فكرت الحكومات والمصالح المستقلة عنها في العهد الأخير أن تحدّد سعر عدد من الحاجيات كالمطاط والبن والقمح والقطن والنحاس ، وقد نجحت هذه الطريقة في بعض الاحيا في فترات قصيرة ولكن كانت نتيجتها الفشل في النهاية ، لأنها اوقعت ارباب الانتاج في مشاكل مالية عسيرة إذ أخلّت بالتوازن بين العرض والطلب

وتقليل الانتاج في الزراعة بأنقاص مقدار الأطيان المزروعة لغرض تحسين الثمن يختلف في هذه الحالة عنه في حالة الصناعة ، وذلك لأن صاحب المصنع يستطيع أن يضع هذا العبء — عبء نقص الانتاج — على العامل الذي يتركه عاطلاً يتسكع في الطرقات في الوقت الذي يقفل فيه المصنع أو يفتح لانتاج مقادير محدودة . أما في الزراعة فان العمال الذين يفصلون

أعمالهم لغرض نقص الانتاج لا يؤثرون الا قليلاً فيه . وهذا هو السبب الذي يجعل الزارع الحكيم يعلم حق العلم أن نقص الانتاج لا يؤدي الى النتيجة المطلوبة لأنه يزيد النفقات بعد توزيعها على كل وحدة من وحدات هذا الانتاج . وفضلاً عن ذلك فان الزارع يخاف أنهُ اذا نقص الانتاج يستمر غيره من المزارعين على حالهم ولا ينقصون الانتاج — ما لم يجبرهم القانون على ذلك — وبذلك يبقى هو وحده متحملا نفقات الانتاج بغير ان ينتفع بزيادة الثمن المنشودة ولذلك لا يجد في مسألة تقليل الانتاج فائدة تذكر

غير أن هناك فرقاً بين نقص مقدار الاطيان المزروعة نقصاً مطلقاً بغير تحديد وبين نقص المزرع من محصول خاص في أطيان خاصة في جهة خاصة والاقتصار على زرع بعض الأطيان بحاصلات ومقادير تختلف باختلاف الحاجة اليها وأثمانها حسبما تقضي به الظروف المحلية أو الاهلية أو العالمية . ومن المهم جداً أن يكون هناك توازن بين الانتاج، والحاجة ، وانخفاض الأثمان لأن ذلك يعود على المنتج والمستهلك كليهما بالنفع ، كما أن كثرة الانتاج تؤدي الى تخمة الأسواق وهبوط الثمن وهذا لا يفيد الا المضاربين . وقد فطن الزرّاع الناجحون في أعمالهم إلى الخطأ الناتج عن وضع الأثمان فوق كل الاعتبارات الأخرى واهمال غيرها من العوامل ، وأيقنوا ان نقص الانتاج لازم لتحسين الحالة المالية ، وأخذوا يتلقنون دروساً من رجال الصناعة وذلك باستعمال طرق فنية حديثة وآلات زراعية جديدة حتى ينتفعوا في اراضيهم ومعداتهم وأعمالهم أحسن انتفاع . وفي خلال الاثنتي عشرة سنة الماضية زاد انتاج فلاحي أمريكا ٢٥ في المائة عما كان عليه سابقاً في معظم انواع المحاصيل ، غير أنه مما يؤسف لهُ أن هذه الزيادة لم تعد عليهم إلاّ بفائدة قليلة ، لأن هذا الانتاج مضافاً اليه محصول الأراضي الجديدة المزروعة زاد في مقدار العرض وفرّق مسافة الخلف بين العرض والطلب ونقص الثمن حتى بلغ أقل من ثمن الانتاج

ولنأخذ القطن مثالاً لذلك، وهو المحصول الذي توجه مصر وغيرها من الممالك الاجنبية بما فيها من ولايات امريكا المتحدة عنايتها اليه . فمن سنة ١٩١٣ الى سنة ١٩٢٩ بلغت الزيادة في سكان العالم ١٠٠ الف نسمة في حين أن زيادة ما يستهلكه الفرد الواحد من سكان العالم من القطن لم تبلغ الا ٩ في المائة أو نصف رطل ، أي أن زيادة الاستهلاك بلغت ٣ ملايين «بالة» بحساب ٥٠٠ رطل للبالة الواحدة أو ١٥ مليون قنطار. وفي هذه الفترة عينها ١٩١٣ــ ١٩٢٩ زاد الانتاج العالمي في القطن من ٢٠ مليون و ٢٢٠ الف بالة بحساب البالة ٥٠٠ رطل الى ٢٥ مليون و ٦١١ الف أو ٧ ملايين بالة في حين ان الزيادة في الاستهلاك هي ٣ ملايين بالة او بعبارة اخرى ان مقدار القطن الزائد عن المقدار المستهلك بلغ ٤ ملايين بالة وليست هناك لغة افصح من لغة الارقام تعبيراً عن الاسباب التي اليها يعزى هبوط اثمان القطن

ورغم وجود عوامل اخرى واعتبارات ذات قيمة فانهُ لا يمكن أن ننسى أن العالم ينتج مقادير من القطن تزيد عن المستهلك زيادة توجب هبوط الأثمان وتفاقم الحالة الاقتصادية . وتعزى زيادة المقدار المستهلك من القطن التي اشرت اليها الى الاشياء الكثيرة التي أستخدم القطن في صناعتها في السنوات الاخيرة ، ولولا هذا الاستعمال لما بلغت اثمان القطن ما بلغتهُ في السنوات الاخيرة ولا يمكن التكهن بالمدى الذي يمكن بلوغه باستعمال القطن في اشياء لم يدخل في صناعتها حتى الآن ،غير ان المجال فسيح للبحث عن هذه الاشياء وبذل جهد المستطاع في ايجادها . واذا استمر الزارعون في زيادة انتاج القطن فلا بد لهم ان يبحثوا عن الوسائل التي يستخدم في استعمالها

ومما هو جدير بالذكر انهُ بينما نجد زيادة الاستهلاك في مقدار القطن لكل فرد من سكان العالم لم تبلغ ٩ في المائة في اثناء الخمس عشرة السنة الماضية ، قد بلغت هذه الزيادة في الصوف ٤١٫٦ في المائة وفي الحرير ١٢٠ في المائة ، وفي الحرير الصناعي ١٥٠٠ في المائة وهذه جميعها تنافس القطن اشد منافسة ومن السهل اذاً أن نرى قيمة توجيه الانظار الى سياسة مستقبلة عالمية فيما يختص بزراع القطن ويجب ان نعلم ان الزارعين الذين ينتجون اكبر مقدار من اجود الاقطان باقل نفقات هم الزارعون الذين سيكون لهم النصيب الاوفر في الاسواق العالمية ، أينما كانت البلاد التي هم فيها

ومن اهم الوسائل التي يستطيع بها الزارعون أن يزيدوا أرباحهم ويفيدوا المستهلك في الوقت عينه ، هي تجنب طرق التوزيع التي تكلف نفقات باهظة والتي يلجأ اليها في عصرنا الحاضر . وقد تسبب عن نمو الصناعة السريع في خلال ربع القرن الماضي تركيز السكان في مراكز صناعية بعيد معظمها عن مراكز الانتاج التي تمون السكان بالطعام ومواد خام اخرى ، وهذا مما يجعل نفقات التوزيع بالغة حداً غير معقول .وقد كانت طريقة التوزيع هذه وافية بالغرض المقصود عند ما كانت الصناعة منتشرة في البلاد ومقسمة الى وحدات صغيرة وعند ما كان الفلاحون يكفون أنفسهم بما ينتجون في مزارعهم . واما اليوم فقد اتسعت المدن الكبرى وتضاعف سكانها وأصبحت مسألة التوزيع معقدة كثيرة النفقات ولا بد من درسها درساً جيداً حتى نستطيع أن نقوم بسد حاجاتنا على الوجه المرغوب فيهِ من الوجهة الاقتصادية،وكلما قلبنا انظارنا في انحاء المعمورة في كل بلد من بلدانها نرى من السكان من يعوزهم الطعام واللباس وقد يستطيعون ان يستهلكوا ضعف ما يستهلكونهُ الآن فيما لو بلغت اثمان حاجاياته الضرورية ثمناً يكون في المتناول . وفي اعتقادي ان من اهم الفرص السانحة للفلاحين اليوم هي تحسين حالة التوزيع لانهُ بذلك يزداد الطلب وتكثر الارباح. وقد اصبح المزارعون في خلال الخمس عشرة سنة الماضية ذوي كفاية عظيمة ومقدرة واسعة في جميع انواع الانتاج

وقد كانت الجهود موجهة في خلال السنوات الماضية الى تحسين حالة الفلاح من وجهة الانتاج . فجاءت نتيجة هذه الجهود بالثمر الجيد ، وقد حانت الفرصة الآن لتوجيه العناية بكل ما اوتينا من قوة وذكاء الى مسألة توزيع المحصول في الاسواق تلك المسألة التي طال اهمالها . وفي الصناعات الاخرى يهتمون بمسألة البيع كما يهتمون بمسألة الانتاج ونشأ عن ذلك انهم بلغوا نتيجة يحسدون عليها في تخفيض النفقات التي يطلبها ايصال السلع الى مستهلكيها اينما وجدوا، وقد بلغوا هذه النتيجة بواسطة الانتاج بكثرة ، والتوزيع بكثرة مع قلة النفقات ، ويعزى بلوغ هذه النتيجة الى الآلات التي وفرت عليهم العمال ، والى الاعلان المنظم ، وتركيز رؤوس الاموال الضخمة والمسؤولية في يد رجال ذوي نفوذ قادرين على تصريف مصنوعاتهم في اسواق العالم

وعلى هذا المنوال ينبغي للفلاحين ان ينسجوا . ويختلف تنظيم هذا العمل باختلاف المكان وحاجة السكان . غير ان تنظيم الانتاج والبيع من اهم وسائل النجاح لان اسواق العالم تشتري عادة الحاصلات التي يبلغ ثمنها حدًّا معقولاً

***

وتتعاون حكومة ولايات اميركا المتحدة بواسطة مجلس الزراعة الاتحادي الجديد تعاوناً تامًّا مع الهيئات الزراعية وذلك بامدادها بالمال والنصيحة حتى تؤسس شركات تقوم بالتوزيع لاننا اصبحنا نعتقد ان هذه الشركات انسب لنا من اي طريقة اخرى. وقد اصبح لدينا الآن عدد من شركات التعاون الناجحة كشركة زراع الفاكهة في كاليفونيا التي يوزع المنتجون بواسطتها ٨٠ في المائة من حاصلاتهم وبهذه الطريقة توزع في الاسواق بكيفية معتادة تمنع التخمة في الاسواق وهبوط الثمن وتنفع المنتج والمستهلك كليهما فاذا احصينا ملايين الوحدات الزراعية الصغيرة التي تنتج وتوزع محصولاتها ، مستقلة عن الاخرى ، وجدنا ان الواحدة تستفيد ماليًّا لو اتحدت لبيع حاصلاتها بعد حزمها جيداً وتسجيل علاماتها والاعلان عنها ، وقد يكون نوع التنظيم في هذه الحالة مختلفاً باختلاف الجهات كما اسلفت . غير ان الفكرة الاساسية تنحصر في وضع هذا النظام في ايدي رجال مدربين محنكين حتى تأتي مجهوداتهم بالغرض المقصود

ان الحالة الاقتصادية كما هي الآن تتطلب استثمار اكبر العقول وأظهر الزعماء لانعاشها . ويعتقد الكثيرون اليوم ان الانعاش لا يتم الاّ بملاحظة العوامل الدولية لانهُ مهما عظم مقدار المحصول الذي تنتجه امة من الامم فان اثمان محصولها تتأثر كما تتأثر اثمان السوق العالمية ، والحالة الاقتصادية العالمية تتأثر بما تنتجه الامم الاخرى ، والتعاون من جانب ارباب الانتاج في كل مملكة قد يعمل على تحسين الحالة في تلك المملكة غير ان المسألة تدعو الى همة اكبر ونشاط اعظم من جانب قادة الاعمال وزعمائها في جميع انحاء العالم

باب شؤون المرأة
وتدبير المنزل

قد فتحنا هذا الباب لكي ندرج فيه كل ما يهم المرأة وأهل البيت معرفته من تربية الاولاد وتدبير الصحة والطعام واللباس والشراب والمسكن والزينة وسير شهيرات النساء ونهضتهن ونحو ذلك مما يعود بالنفع على كل عائلة

الوقاية

آراء واحاديث صحية للدكتور شخاشيري

حديث المائدة

قبل أن أحدثك عن انواع المآكل التي نعيش عليها وقيمة ما فيها من غذاء ومتوسط ما يتطلبه الجسم منها اريد أن أوجه نظرك الى شأن النظام في الأكل فان أثره في الصحة أقوى من تأثير الطعام ذاته فيها وهو للجسم كالأساس للبناء سواء بسواء فكما نرى اهتمام المهندس بالأساس ان يكون قويًّا في مواده محكماً في وضعه قبل شروعه في البناء لكي يطمأن الى مصيره من العلو والاتساع كذلك يجب ان يكون اهتمامك بضبط مواعيد الاكل والحرص عليها وعدم التفريط بها لا يقل عن اهتمام المهندس بالأساس لانهُ يضارعهُ في الشأن والخطورة. وما طهي الطعام والتفنن في اعداده وبذل العناية في اختيار الوانه الا بمثابة اجراآت لتحضير بقية المواد التي نستعين بها لاقامة البناء فاذا كان الاهتمام بها عظيماً دون الاهتمام بالأساس جاء البناء فاسداً من أساسه متداعياً للسقوط عندما تعصف بجوانبه العواصف والأعاصير او بعبارة أوضح اذا كان اهتمامك بالنظام ومواعيد الأكل دون اهتمامك بطهي الطعام والتفنن في تحضيره جاء بناء الصحة ضعيفاً في أساسه لا يصمد لغارات الجراثيم المرضية بل يكون مرتعاً خصيباً لها تنمو فيه وتتكاثر من غير كبير عناء . وأنت من هذا ترى ان الاهتمام بالنظام او الأساس اولى بمن يبغي صحة نضيرة وحياة نشيطة وبدونه لايستمتع بطيبات المآكل لحظة الا يشعر بنقيضها لحظات وكم من اكلة طاب مذاقها كانت منشأ العلل ومبعث الاسقام لالسبب سوى ان آكلها لم يراعِ نظاماً في التهامها فاما ان يكون قد ازدردها من غير أن يجيد مضغها أو أن يكون قد أدخلها على طعام لا تزال المعدة قائمة بهضمه او أنهُ تناول منها مقداراً كبيراً لا يجيزه

نطاق المعدة بحال . وهذه عوامل كلها او بعضها فيها اساءة كبيرة وسوء تصرف غير محمود العاقبة وأهم هذه العوامل ادخال طعام على طعام أو الأكل بلا نظام . ولكي تقدر خطورة هذا الاسراف في الأكل بمواعيد مضطربة وما ينشأ عنهُ من اضرار ظاهرة تحس بها في الحال «كالألم والمغص والقيء والاسهال وأحياناً ارتفاع بالحرارة» واضرار خفية لا نحس بها الآ بعد زمن طويل أو قصير «كالالتهابات المعوية والكلوية واحتقان الكبد وتصلب الشرايين وغير ذلك»

اعرض امامك حالة عامل يشتغل بالأمانة ويحرص على انجاز عمله في حدود طاقته من غير تقديم ولا تأخير وانهُ كلّف عملاً فوق طاقتهِ او قبل ان ينجز العمل القائم بهِ احتج وحاول الهروب منهُ ولكن بصمت ومع هذا الاحتجاج والمحاولة لا يكف عن العمل ولا يتوقف ثانية عن الدأب في انجاز ما بين يديهِ . والعمل الدائم هو في ذاتهِ من اظهر الدلائل على حيويتهِ . والشاهد على اضطراب هذا العامل الامين الذي هو المعدة ما يبدو عليك من الانزعاج عند ما تأكل بنهم طعاماً غنيًّا بمواده الغذائية بما يزيد على مطالب الجسم عشرة اضعاف او اكثر. وكثرة الأغذية كما تعلم تولد في الجسم فضلات تنقلب الى سموم اذا لم يتخلص منها في مدى قصير وتحدث في الغالب اضطرابات معوية لا تزول الآ بالصوم والامتناع عن الاكل بضعة ايام فضلاً عن الأدوية والمسهلات. واكبر عامل على اثارة هذه العلل والاضطرابات هو الفوضى في مواعيد الأكل فلو كنت على معيشة منظمة وبصيرة مثقفة في اختيار مايصلح من المآكل وما لا يصلح ومقدار ما يتطلبهُ الجسم من الغذاء لكنت في منجاة من هذه الطوارىء المفتعلة والعثرات المغتصبة التي تفاجئك في طريق الحياة أو لو كنت متبدياً في معيشتك تأكل لوناً واحداً من الطعام ولا تأكل في اليوم اكثر من وجبة واحدة كما يفعل سكان البادية لقطعت على كثير من النزلات المعوية سبيل الوصول اليك ولا يكون الفضل في ذلك الى التقشف في الغذاء وحده وانما يعود الفضل فيهِ الى النظام الذي تتبعهُ في معيشتك . وأثر هذا النظام لا يقف عند تحسين الصحة وتنمية الجسم وصيانتهِ من عوادي الامراض فحسب بل يتجاوز هذه الحدود الطبيعية وتظهر بوادره في تفكيرك واحاديثك واعمالك . وان ما تصيبهُ من نجاح في ايام المدرسة وتحصيل في العلوم او كل ما يبدو منك بعد تلك الايام كبيراً كان او صغيراً سواء في البيت مع اهلك او خارج البيت مع معارفك وذويك يرجع الى هذا النظام الذي ادعوك الى المعيشة في ظله والاستمتاع بفوائده

التغذية الحديثة

يختلف الطعام الذي يصفه الطبيب المعالج اليوم للمرضى بالتهابات كلوية عن الطعام الذي كان يصفه في الماضي لتلك الحالات والذي لا يزال معظم الاطباء يعتقدون ملاءمتهُ لها الى الآن . والسبب في هذا التناقض هو ان الطبيب في الماضي كان يقصد بالمعالجة ان يداوي العضو المتأثر

بالمرض مباشرة اما اليوم فانهُ اصبح يداوي المريض نفسه لا عضواً من اعضاء جسمه والاَّ ما كان يقف في الامس من تلك الالتهابات الكلوية فيمنع المصابين بها ان يتغذوا بالمواد البروتينية التي من اهم خصائصها ان تجدد ما يموت من الخلايا والاغشية في الجسم واصلاح ما يقع في اعضائه من اضطراب وتلف . وهذه النظرية لا تخول له ان يمنع اولئك المصابين بأمراض الكلى من اكل اللحوم بل توجب عليه ان يشجعهم على الاكثار منها لعظيم فوائدها ولان العلم اثبت ضرورتها للجسم وهو في حالة المرض اكثر من لزومها وهو سليم . وهذا التباين في ميزات المواد البروتينية وتأثيرها في الجسم يرجع الى ما اثبتته الابحاث العلمية الحديثة من ان عملها الخاص هو لبناء ما يندثر في الجسم من خلايا واغشية وانه كما يعول عليها في حالة الصحة واطراد النمو يجب ان يعول عليها ايضاً في حالة المرض سواء بسواء . واقرب شاهد على صحة هذا القول تجده في احوال الالتهابات الكلوية الحادة منها او المزمنة ولا سيما التي تكون نشأت عن الحمى القرمزية او التهاب اللوزتين فان من شأنها اتلاف المواد البروتينية في الجسم وهدم ما هو قائم منها لحفظ كيانه وترى آثار التلف والتدمير ظاهرة في بول المريض وتزداد شدة في الظهور الى ان تدبَّ عوامل الهدم في بروتين الدم وعندئذ تختل ميزانية الماء في الجسم وتبدو عليه اعراض الربالة وظهور الورم في اطراف الجسم والوجه من اكبر علامات مرض الكلى وله علاقة وثيقة بمقدار البروتين في الدم . وموازنة الماء بين انسجة الجسم وبين الاوعية الشعرية تتوقف على عاملين فالاول الضغط على مصل البروتين او الزلال والثاني الضغط على السوائل في الاوعية الشعرية وفي حال انخفاض الاول بسبب ارتشاح البروتين من الخلية يضطرب السائل ويندفع من الشعريات الى الاغشية ويتجمع في غضونها ويظهر الورم او الربالة كما تقدم ذكره في الجسم وليس هذا الاضطراب في الضغط الباعث الوحيد على اظهار الورم في الاغشية وانما ارتشاح او نقص البروتين من الخلية هو السبب الاكبر في احداث ذلك البلاء . وقد ثبت للاستاذ سليك ان المريض بالالتهاب السكري الحاد يقاوم المرض ويبرأ منه بسهولة اذا احتفظ جسمه بالمواد البروتينية والزلالية وحتى المصاب بالنوع النزفي فان شفاءهُ منه يتوقف على صيانة بروتين الجسم من الانتقاص والمريض الذي يفقد جسمه هذه المواد ويتعذر عليه استرجاعها يصبح المرض فيه مزمناً واذ ذاك يعلق امل شفائه بحبال الهواء ومما تقدم من الدلائل ان الشفاء من انواع الالتهابات الكلوية الحادة النزفية وغيرها يتوقف على الاحتفاظ ببروتينات الجسم وزلالياته وعدم التفريط بها وهذا لا يكون الا باضافة هذه المواد الى طعام المرضى بالمقادير المقررة للجسم السليم وبرهنت التجاريب على ان تمثيل هذه المواد وانحلالها في الجسم لا يؤثر في الكلى لا في قليل ولا كثير وانها في حالة المرض كما في حالة الصحة لا تحيد عن مزيتها في بناء ما اندثر من الخلايا وتعويض الجسم ما احدثه المرض فيه من تدمير واذا جاز للرجل السليم

ان يمتنع عن ادخالها الى طعامه بضعة ايام فلا يجوز منع المريض من تناولها يوماً واحداً. وذكر الاستاذ سليك وغيره حالات عديدة تأصل الداء فيها وقطع الامل من شفائها ولكن لما اضيف البروتين ابتدأت علامات التحسن تظهر عليها وظل تقدمها الى الشفاء في اطراد الى ان تعادل البروتين في الدم وازدادت مقدرتهُ على انسياب الحمض الكربونيك وتوازن المنصرف من اليوريا وتحرر البول من الدم والخلايا والاسطوانات وحاجة اولئك المصابين بالالتهابات الكلوية من البروتين تتراوح بين ٤٠ و٥٠ غراماً في اليوم. وثبت انهُ لاخوف قط من استعمال ثلاثة اضعاف هذا المقدار والى جانب هذه المقادير من البروتين يجب ان تتوافر مواد الغذاء الاخرى كالدهن والنشويات الضرورية لتوليد حرارة الجسم وبعث النشاط فيهِ والاَّ اضطر الى الاستعانة بالمواد البروتينية وهي كما علمت ميزتها للبناء وتجديد ما مات من الخلايا وليست لتوليد الحرارة فضلاً عن ذلك ان الجسم بحاجة الى الانتفاع من ميزتها تلك الى اقصى حدٍ لا الى الحرارة التي تتولد من احتراقها فيهِ والتي لا يستطيع من دونها ان ينهض باعباء المرض ويجب ان يعادل ما يحصل عليهِ من النشويات ٥٠ في المئة من مجموع الحرارة التي تتولد من غيرها من مواد الغذاء. والمواد البروتينية التي تدخل في طعام المريض هي اللحم والبيض واللبن بمقادير نصف رطل من اللحم وبيضتان ورطلان لبن في اليوم. والى ساعة كتابة هذه الكلمات لم اتمكن من اقناع مريض بالالتهاب الكلوي ان يتغذى بمثل هذا الطعام وسوف يمضي زمن ليس بقصير قبل ان تشاع هذه الطريقة الجديدة في التغذية ويعم استعمالها كاداة لتقوية الاجسام المنهوكة. وانواع الطعام على اختلافها مفيدة في نوعي الالتهابات الكلوية الحادة والمزمنة. وهناك نوع ثالث لايصرح للمريض بهِ وهو ان لايتغذى بالمواد البروتينية الاَّ بمقدار مايتلف منها فيهِ وهو يختلف عن النوعين السابقين في ان تأثيره واقع على الاوعية لا على انسجة الكلى. واعراضه — الاَّ في الحالات الخبيثة — تتوقف شدتها على ضعف الدورة الدموية لا على اضطراب في بناء الكلى. ومقدار بروتين الدم فيهِ لايقل عن المعتاد لذلك لاحاجة ماسة الى احتواء طعام المصابين بهِ على مقادير من البروتين كما هي الحال في الالتهاب النزفي الحاد والالتهاب المزمن المتلاف. ولكن هذا لايعني ان نمنع إدخال البروتين الى طعامهم الاَّ عند ما يضطرب نظام اليوريا في الجسم وما عدا ذلك فلا يجب المنع. والخلاصة ان هذا الانقلاب العظيم في تغذية حالات الالتهاب الكلوي الحاد النزفي والمزمن احدث رجة عنيفة ليس في المرضى فقط بل في الاطباء الذين لا يتتبعون سير العلوم ولا العلماء في ابحاثهم المتواصلة اما لكثرة اشغالهم واما لثقتهم بان علمهم بلغ الحد الاعلى من الكمال. ولكن لا كمال في العلم وان العالم الكبير يشعر دائماً بتوقهِ الى الاستزادة من المعارف والاطلاع على الآراء الحديثة في مختلف العلوم والفنون

٢—مقام الطبيب من صحة الجمهور

نظام التأمين وأثر الطبيب فيه

لم يكن التأمين في اول نشأته منظم الادارة كما تراه الآن ولا كان للطبيب الأثر البارز في اعماله كما لهُ اليوم وعلاقتهُ بهِ لم تكن تخلو من عراقيل وصعوبات ذهبت بكثير منها الاصطلاحات التي ادخلت على نظامهِ في خلال السنين التي مرت على تأسيسهِ . وليس من الانصاف ان نوازن بين ما كانت عليهِ تلك الرابطة من عشر سنوات وما وصلت اليهِ في الوقت الحاضر او تكون عليهِ في المستقبل . كما لا يمكن ان نقارن نظام التأمين ذاتهُ اليوم بالنظام السابق لكثرة ما كان فيهِ من عيوب . ولا ريب ان النظام الحاضر سيتطور الى احسن ولا سيما عند ما يشمل آل المؤمَّن عليهم وذويهم وقد ظهرت بوادر هذا التحسين في قرار الجمعية الطبية البريطانية سنة ١٩٣٠ التي وافقت على التوسع في نطاق العناية الطبية وشمول ذوي المؤمَّن عليهم بشرط ان يضمن حقوق الاطباء مع عدم ارهاقهم . واذا علمت ان هذا القرار يشمل ٨٠ ٪ من الشعب البريطاني أكبرت هذه الجهود العظيمة وعجبت من هذا التفاني في الدفاع عن صحة الجمهور . ومع ان الاطباء في بعض المدن الاوربية غير مرتاحين الى نتيجة ما وصل اليهِ هذا النظام فان ابطالهُ يؤدي الى اسوأ عاقبة عليهم من بقائهِ والعمل بمقتضيات مبادئهِ . وطريقة تنفيذه تختلف باختلاف الشعوب والممالك ففي بريطانيا يشترط للالتحاق بهِ موافقة وزارة الصحة على قبول طالب الانضمام اليهِ واما في سواها فالمفاوضة تكون مع جمعيات التأمين نفسها او لجانها المؤلفة من الاطباء وغير الاطباء من اعضاء مجالس ادارتها مباشرة . وفي المانيا يدفع للطبيب اجر كل عيادة او اصابة او عن كل مؤمَّن او لمدة معينة وما عدا ذلك يكون الطبيب حرًّا في عمله الخاص. اما في بريطانيا فينال الطبيب مكافأة عن كل مؤمَّن ولكل طبيب مصرح لهُ بممارسة صناعتهِ ان يلتحق بهذا النظام اذا شاء . وفي بلجيكا يدفع للطبيب اجر عن كل استشارة فنية او عن كل وقت يصرفهُ في العيادات العمومية كما هو متبع في بولندا وتشكوسلوفاكيا والمجر ولا يزال الخلاف قائماً بين الاطباء وجمعيات التأمين على الطريقة المتبعة في اختيار الطبيب وقبول معاونتهِ فهم يريدون ان لا يكون للحكومة اي تدخل في ذلك على نحو ما هو جار في بريطانيا وسويسرا وبلجيكا ودانمرك والمانيا والنمسا . ولعل ارتياح اطباء الدانمرك الى هذا النظام يفوق ارتياح زملائهم في سائر البلاد فاولئك لا يشكون الا من عدم قبول انضمام بعض الطبقات الى صفوف المؤمنين لكي يزداد ايرادهم ويضاعف اجرهم على العناية بهم ولذلك تراهم يحثون على ضرورة قبول جميع الطبقات والانضمام الى احدى جمعيات التأمين ونشاهد بعض الاطباء في هولندا يقومون بادارة الجمعيات . وقد لاقى نظام التأمين في فرنسا معارضة عنيفة من

الاطباء في اول عهده . ولكن بعد ادخال تعديل في كثير من مواده ضعف صوت المعارضة. ولا يتسع المقام لاظهار ما بين الطبيب وجمعيات التأمين من روابط وما طرأ عليها من مشاكل وما يعزى الى نظام التأمين من مساوىء . ومن اراد الالمام بهذا الموضوع فعليهِ ان يطالع كتاب « الطب » تأليف السر ارثر نيوز هلم وهو كتاب جليل الفائدة غزير المادة دقيق في ابحاثهِ وتعليل وجوه الموضوع تعليلاً نزيهاً او يطلع على تقارير مجلس العمل الدولي فيجدها تحتوي على حقائق جديرة بالمطالعة والاهتمام . ومع هذا فلا مناص من ذكر بعض فوائد هذا النظام الذي هيأ لطبقات من الناس التداوي من الامراض ودفع اجور الاطباء والتي لولاه لما كانت تقدر على ذلك ولا على جزء منه . فضلاً عن هذا انهُ اوجد لعدد كبير من الاطباء الاعمال التي كافأتهم عليها وساعدهم كثيراً على الظهور بمواهبهم وما تكنهُ صدورهم من الرحمة والبر بالفقراء وجعل لهم ايراداً ثابتاً ومستقبلاً باسماً في اشد الايام عبوساً . وحسبهُ انهُ قضى على الدجالين وأبطل فساد دعاويهم . وتتجلى هذه الفوائد عند ما تعلم انهُ لولاه ما كان لجماعات عديدة ان تقوم بنفقات العناية الطبية كما يجب ولا ان تتداوى كما تفعل الآن . واكبر دليل على فائدة وجوده انتشار مبادئهِ ورسوخ اصولهِ وكثرة الاقبال على تأييده والانضمام اليهِ . وفي الامكان تلخيص سير تقدمهِ وكيف كان في اول نشأتهِ جمعية صغيرة الحول مكونة من اعضاء قليل عددهم وانهُ ما كان ينتشر خبر تأليفها والغرض الذي ترمي اليهِ الا واقبل على مناصرتها الافراد والجماعات والحكومات واخذت عوامل النمو تظهر في الفروع والاصول حتى بلغت بعد تطور طويل ما بلغتهُ الآن . والغريب ان بعض الاطباء يعترض على الاجر او المكافئة الضئيلة التي يكافأون بها مقابل اتعابهم ومجهوداتهم والبعض يعترض على بعض القيود في توزيع الادوية على ذوي المؤمّنين . ولكن الحال في ارلندا على النقيض مما تقدم لان اكثر من نصف الشعب يحق لهُ ان يحصل على الادوية التي يدفع ثمنها صندوق الاموال العامة والمؤمنون نفسهم لا يحصلون على هذه الادوية بصفتهم مؤمنين وانما بصفتهم العامة اي افراد الامة والامة تدفع عنهم النفقات من تطبيب وادوية من المال المجتمع للصرف في سبيل الدفاع عن الصحة العامة

التأمين على صحة العامل

ودليل آخر على ان الشعب الاوربي يقدر خطورة العناية الطبية قدرها في تحسين الصحة العامة هو عنايتهُ بالحامل وفي دور الولادة وبعد ذلك الدور كايجاد مولدات واطباء مولدين يعتنون بكل حامل عناية تامة على احدث الطرق وافضلها . والنفقات تجمع من الشعب عامة وممن يستطيع الدفع من السيدات الحوامل بحسب نظام التأمين . وهكذا ترى ان هذه الطريقة آخذة

في التمميم وقوامها القابلات التي تعتني الحكومة بتعليمهنَّ ومساعدتهنَّ على المعيشة خلال اثناء الدراسة وبعدها . وقد اصبحن او كدن يحتكرن عملية التوليد في انكلترا وهولندا . فقد بلغ معدل ما يولد على ايديهن ٦٠ في المئة . وفي الدانمرك تعين الحكومة لكل مقاطعة عدداً منهن يكفي لاجابة كل نداء . وفي اسوج يزيد عدد القابلات على الاطباء ويعملن باجر غير كبير ويجرين معظم عمليات التوليد وفي نروج اجرين سنة ١٩٢٧ نحو ٩٠ في المئة من ٥٠٠٠٠ الف ولادة وغير مصرح لهن استعمال الجفوتة والملاقط في التوليد . والاطباء على اتم استعداد لمعاونتهن عند ما تدعو الحاجة اليهم . ومعدل الوفيات من حمى النفاس هبط الى ٣ في الالف . وفي بروسيا يقمن بتسعين ولادة من كل مئة ولا ريب ان نتيجة المعالجة الطبية في اوربا تتأثر كثيراً بهذه المعاونة التي نوه بقيمتها السر ارثر نيومن حيث قال ان عناية المولدات بالمواليد وتعويلهن على معونة الطبيب عند الحاجة يضمن للاطفال العناية التامة بهم في وقت الولادة

الدعاية ضد السرطان

ورد في تقرير مصلحة الصحة العمومية في فينا عن الزيادة المروعة في عدد وفيات داء السرطان في السنين الاخيرة ومما جاء فيه ان وفيات ذلك المرض في سنة ١٩٢٠ بلغت ٢٤٠٠ وفي سنة ١٩٢٩ وصل العدد الى ٣٧٠٠ واما في سنة ١٩٣١ فصعد الى ٤٩٠٠ وانت ترى ان عدد اصاباته تضاعف في مدى عشر سنوات . وقد لا يعدو السبب في ذلك زيادة انتشار الداء كما يتخيل البعض وانما يعود في الارجح الى اتقان التشخيص . وأهم الاجراءات التي اتخذتها بلدية فينا لمكافحة السرطان هي شراؤها خمسة غرامات راديوم وانشاء مصحة لمداواة المرضى فيها

وفضلاً عن هذه المعالجة الحديثة انشأت في المصحة قسماً للجراحة على احدث الطرق وانشأت في المدينة عيادات للكشف على المرضى مجاناً . وحثت المرضى على الشخوص الى تلك العيادات عند ما يشعرون بألم خفيف أو تغير بسيط وطلبت من الاطباء أن لا يتوانوا عن اظهار ما يخامرهم من شك في أسباب المرض وان لا يكتموا حقيقة ما يشكون منهُ وقد دلت التجارب على أن داء السرطان اذا صار تشخيصه في بدائته سهل على الطبيب مداواته والتغلب عليه كما يسهل عليهِ مداواة داء الدرن . وغير الدرن من الامراض العضالة التي تستعصى على الطبيب وعلى الدواء ولا سيما اذا توغلت اصولها في الجسم وانتشرت جموعها في مختلف اعضائه اما في بداءة نشأتها فيهون خطرها ويسهل امرها والتنكيل بها من غير كبير عناء

مكتبة المقتطف

نظر في معجم الحيوان

بحث علمي طريف للعلامة الاب انستاس الكرملي

حضرة رئيس تحرير المقتطف حفظهُ الله

لما نشرتم معجم الحيوان في المقتطف في سنة ١٩٠٨ وما يليها جاءني من الاب انستاس رسالة عنوانها «نظر في معجم الحيوان» نشرت تباعاً في المجلد ٣٩ من المقتطف اي في سنة ١٩١١ والآن قد بعث اليَّ برسالة جديدة وأظهر رغبته في نشرها في المقتطف فأرجو اذا وافقتم ان تسمحوا بنشرها ولكم الفضل . هذا وقد علقت عليها بما تراءى لي وجعلت ما علقت به بين حاصرتين امين معلوف

سيدي الصديق العزيز

تصفحت معجمك في هذه الساعة فرأيتك تذكرني مراراً عديدة وفي الفاظ كنت تستطيع ان تجعلها باسمك اذ لا مسيطر عليك ولا محاسب . لكن ذاتك الطيبة ابت ان تنسب اليها ما ليس لها . فهذه خلة تجعلك في اعز موطن من مكارم الاخلاق واباء النفس ، فاهنئك بذلك وهو اعلى مقاماً من العلم الذي بلغته باحياء الليالي فجاء كتابك من انفس ما كتب في هذا الموضوع

وأراك نسيت ان تنسب خنزير الارض الى اول من عرَّبها وهو صاحب دائرة المعارف (٧ : ٤٨٢) وسماه ايضاً « أردفرك » (٣:٣٣) والاحسن ان تجري في هذا على خلقك الكريم المعهود فيك

وذكرت في ص ٣ العقصي ولم تتمكن من معرفة صحتها والصواب العَفَصي بالفاء لأن لونه لون العفص وكل لغة سواه خطأ صريح .وقد ذكره دوزي في ١ : ٣ قال : الباشق واليؤيؤ والعفصي » . قلت وهو غير « ابن آصى » الذي صار الى « اليَوْصَّى» (راجع اصي في التاج وغيره) . فالعفصي ورد العقصي في حياة الحيوان المطبوع في مصر . وذكره جاياكار صديقك العزيز بصورة العَقَصى وزان اقْصَى

المراسلة والمناظرة

جاءنا من الاستاذ مصطفى صادق الرافعي رد على نقد الاستاذ العقاد الذي نشر في مقتطف دسمبر ١٩٣٢ ، ومن الدكتور ابرهيم صليبي رد وتعليق على نقد الاستاذ نقولا الحداد لكتابه في مقتطف دسمبر ١٩٣٢ . ومن الاديب كمال ابرهيم المدرس ببغداد نقداً على مقال الرافعي في شوقي (مقتطف نوفمبر ١٩٣٢) فأخرنا نشرها لضيق النطاق في هذا الجزء . فنرجو المعذرة

والذي عندي في حياة الحيوان المخطوط خطّاً بديعاً وقديماً في الحاشية : والعقصيُّ بعين مهملة مفتوحة وقاف ساكنة يليها صاد مهملة مكسورة وفي الآخر ياء مشددة نسبة الى العفص للونه . والعفصي ذكره فريتغ ومحيط المحيط والبستان والفضل لفريتغ . وورد خطأً في صبح الاعشى بصورة العقيمي (٢ : ٥٧) وهو باز قضيف قليل الصيد ذاهل النفس . ثم قال في الحاشية (في حياة الحيوان العفصي ولم نجدها في القاموس) . قلت وهو المسمى Merlin بالانكليزية وبلسان العلم Falco aesalon انتهى كلام الاب انستاس

(اقول لاشبهة فهي صحة هذه اللفظة اي العفصي بالفاء لا بالقاف كما حققها الأب انستاس وانما ليس هو المسمى Merlin بالانكليزية فهذا على ما حققه سافيني (وصف مصر مجلد ٢٣ ص ٢٧٩ و ٢٨٠) هو اليؤيؤ بالعربية على ما ورد في الدميري والجراديّة عند عامة اهل القاهرة وصقر الجراد في المنزلة والمطرية وفارسكور . وهو من الصقور كما جاء في الدميري وصبح الاعشى لا من البزاة . اما العفصي فمن البزاة وهو باز قضيف ذاهل النفس (صبح الاعشى) اشد الجوارح ذعراً وربما هرب من العصفور (الدميري) بخلاف الطائر الذي ذكره الاب المحترم فهذا مشهور بشجاعته كما جاء في كتب العرب والافرنج . والمسألة تحتاج الى شرح طويل للتفريق بين البزاة والصقور عند العرب والافرنج ولون عيونها ولا يخفى ان سافيني من العلماء الثقات جاء الى مصر ووصف هذه الطيور وذكر اسماءها كما جاءت في ارسطو وابن سينا والدميري وغيرهم ولا شبهة ان الذي سماه سافيني يؤيؤاً كما تقدم هو الطائر الذي سماه Falco aesalon وهذا لا يمكن ان يكون العفصي)

الى ان قال الاب انستاس وابن آصى[1] هو في الارمية « وصا وواصا » وكثيراً ما تجيء الواو الإرمية همزة عربية . ومن الغريب ان هذه الكلمة واردة في الاشورية للدلالة على حيوان وعلى المعنى العربي اي المتظاهر او المتراكب الشحم وقد ذكر الكلمة صَوْبَين في معجمه ص ٢٨ وقال « آصو » اسم حيوان لعله الفأرة والمتظاهر الشحم » . قلت وهذا المعنى يتعلق بابن آصى فانهُ متراكب الشحم

ولابن آصى اسم آخر اشهر من هذا هو اليَوَصَّى او اليَوَصّي . ولعل الاصل هو الارميّ « واصا » فتلاعبت بهِ السن الناطقين بالضاد كما يقع مثل ذلك كثيراً في الالفاظ العلمية والاصطلاحية . على اني اظن ان الكلمة منسوبة الى وَصَّ يَوَصّ بمعنى وَصَوْصَ يُوصْوِص وكلا الفعلين عراقي كما تعرف بمعنى صَوَّت صوتاً خفيفاً يقال ذلك للطيور ولاسيما للصوائد منها

(١) وجاءت روايات لفظه مختلفه وأصوبها ابن أصى لانه لوكان ابن آصي لقيل ابن آص ليساوي وزن رام وداع . وبقية اللغات لا وجه لمعانيها في العربية الا ابن آصى فانه مشتق من اصي يأصى اصى اي ركب شحمه بعضه بعضا وتظاهر . ويجوز ان يقال ابن آصى وزان هاجر وخاتم وهو بمعنى المكسور الصاد . فيكون كمعنى أصى

فانها اذا قبضت على فريستها اسمعت صوتاً خفيفاً . والنسبة الى الفعل معروفة في لغتنا كما قالوا الكُنتيّ نسبة الى كُنتُ واليلمعي نسبة الى يلمع والبرفئي نسبة الى يرفأ الى غيرها . اما انهُ قيل فيه ايضاً اليَوصَّى بالقصر فهذا حادث من عدم تنقيط الياء في الآخر فقد افسد هذا العمل الفاظاً لا تُعدّ ولوكان الجميع اعجموها دائماً لما وقع مثل هذا الوهم الذي زاد اللغة الفاظاً على غير طائل

واما ان ابن آصَى هو اليَوصَّيّ فظاهر من قول صاحب التاج في مادة أص ي: «وابن آصَى طائر شبه الباشق الاَّ انه اطول جناحاً وهو الحداء [1] يسميه اهل العراق ابن آصَى كما في التهذيب» اه كذا والصواب «اليَوصِيّ» كما في التهذيب والدليل انهُ قال في مادة وص ي: ويَوَصَّى [2] بفتحات مع تشديد الصاد وقيل بكسر الصاد المشدَّدة [3] وقيل هو بالتاء الفوقية [4] طائر قيل هو الباشق وقيل هو الحرّ عراقية ليست من ابنية العرب ... » . وقال في يوص: اليَوصَيّ [5] اهمله الجوهري وصاحب اللسان وهو بفتح الياء والواو وكسر الصاد وبالياء المشددتين ووزنهُ الليث بفَعَلّيّ وقال هو طائر بالعراق شبه الباشق الاَّ انهُ اطول جناحاً من الباشق واخبث صيداً او هو الحرّ ونص الليث وهو الحرّ . وقال ابو حاتم في كتاب الطير : قال الطائفي او غيره : الحرّ من الصقور شبه البازي يضرب الى الخضرة اصفر الرجلين والمنقار صائد . وقال آخرون: بل الحرّ الصقر كذا في العباب...» اه واليَوصَّي هو المسمى عند العلماء Falco babylonicus على ما حققتهُ . فليحفظ ومن الغريب انك لم تتعرض لذكر هذا الطائر في ما ذكرتهُ من الالفاظ العربية ولا من الالفاظ العلمية ولا جرم ان ذلك نسيان منك او سهو. انتهى كلام الاب انستاس

(اقول ان اغفال اليَوصَّى في ما نشرتهُ هذه المرة كان سهواً مني وقد حققتُ هذا الطائر في سنة ١٩٠٩ وقلت في المقتطف ٣٥ : ١٠٧٥ ما نصه اليوَصّى Falco babylonicus طائر من الجوارح في حجم الحرّ وشبيه به . قال ابن سيده « اليوصّى طائر كالباشق الاَّ انه اطول جناحاً واخبث صيداً » وقال الدميري « اليوصى طائر بالعراق اطول جناحاً من الباشق واخبث صيداً وهو الحرّ» . فعدم ذكري له في ما نشرته هذه المرة كان سهواً مني وحقه ان يضاف في الصفحة ١٠٤ من معجم الحيوان والسطر الثاني قبل شاهين العراق)

وفي ص ٤ ذكرت الصُّغتر بمعنى الخبياري وانا لم اجد هذه الكلمة الاولى في ما لدي

---

(١) كذا . وهذا غلط ظاهر لان الحدأة لا تتعرض لصيد كبار الطير بل لصغارها وربما لم تتعرض لها بل للجرذان والفئران والى اشباهها والصواب هنا ان يقال وهو الحر (٢) كذا بلا اداة التعريف وكذا في المخصص (٣) اي يوصي وهذا غير صحيح لانه لو كان كذلك لقيل يوص اللهم الا ان يكون ممنوعاً من الصرف للعلمية والاعجمية وهو غير صحيح (٤) اي توصي او توصى، وهو غير وارد في دواوين الاثبات (٥) كذا بالتعريف بخلاف ما قال في وصي

من الكتب . وذكرت لك سابقاً في مايتعلق بالحفش والزجر . وقد وجدت عندي في مقيّداتي استور بهذا المعنى ايضاً اي Sturgeon . ولا جرم انهُ معرب الافرنجية المذكورة ، وقرأت اللفظة في احد الكتب العربية ونسيت ذكر محل ورودها . انتهى كلام الاب انستاس

(اقول ان الصُّعْتُر خطأ مطبعي وصوابهُ الصُّعْقُر بالقاف لا بالتاء. اما الحفش فكتب اليَّ انهُ سمك غير هذا اسمهُ بالانكليزية Wrasse واما الزجر فذكر لي الاب العلامة ان اللفظة سريانية الاصل)

الى ان قال الاب العلامة : والآن آتي لاهنئك اعظم تهنئة لوقوفك اتم الوقوف على معنى القُنفع بمعنى الفأر الشائك فاني كنت عالجت معرفة هذه الكلمة وصرفت ساعات بل اياماً لتحقيق معناها وفي الآخر توفقت لهُ وذلك ان القُنْفُع تنظر الى اليونانية Knapho او Gnaphos ومعناها العكُوب او شوك الجمال ومُشْط النداف او النجَّاد . فاذا حذفنا os (وهي علامة الاعراب عندهم) من آخر الكلمة بقي لنا «قنف» بل «قنفع» لأن العين لا وجود لها في كلامهم وتحذف عندهم اذا نُقِلت لفظة من الساميات الى لغتهم . ولي رأي آخر هو ان القنفع ربما تكون منحوتة من قَفَّ (شعرهُ اذا قام فزعاً ويقوم الشوك في هذه الفأرة وفي القنفذ او نحوهما مقام الشعر)ومن فَصْعاء (اي فأرة) فقالوا في اول امر نحتهِ قُفَّع ثم ابدلوا الفاء الاولى المدغمة نوناً فصارت القنفع اى الفأرة الشائكة . وابدال احد المدغمين نوناً شائع عندهم وكثير الشواهد من ذلك : الرُّنز والإنجاص والإنجار والإنجانة والخَرْنابة والقنبُرة والخرنوب والحنظ في الرُّزّ والإجاص والإجَّانة والاجَّار والخرَّابة والقُبَّرة والخرّوب والحَظّ الى ما يحصى ذكرهُ . اذن القُنفع هي الفأرة الشائكة وانهُ يجوز ان تجيء بمعنى القنفذ . لكن المعنى الاول احسن لما ذكرناه من الاسباب اللغوية . انتهى كلام الاب انستاس . (اقول الحمد لله فقد نجوت منهُ هذه المرة)

الى ان قال : وذكرت هازجة وهوازج في ص ٥ نقلا عن الدكتور بوست وهذا لايجوز لغويًّا . لان الهازجة اسم فاعلة واسم الفاعل والفاعلة يدل على ذي فعل يكون بعد قليل على ذي فعل مضى . فقولك « هذا رجل قاتل » يدل على احد امرين . اما انهُ قد قتل في الماضي واما انهُ يقتل عن قريب . وكذلك قولك : الشارف . فالشارف من الناس الذي سيصير شريفاً عن قريب . اما اذا كان ذا شرف اليوم وبعده فيقال «شريف» اي يفرغ صَوْغهُ في قالب المبالغة . وفعيل من صيغ المبالغة ولهذا لم يَجُز ان يقال : هازجة بل هزَّاجة والجمع هزَّاجات . الم ترَ انهم لم يسمُّوا طائراً باسم فاعل الاَّ طائرين واسماها مشكوك في اصلهما والاَّ فاغلبها موزون اوزان مبالغة كفُعَل وفُعَال وفَعَّال وفَعَّل وفَعَّلة وفعيل الى اشباهها وذكرت مراراً «القانون» ترسترام واظن ان صحيح التعبير « القانونيّ » نعم ان الانكليز

يقولونCanon اما العرب فيقولون قانوني نسبة الى «القانون». وكذلك ذكرت مراراً بلينوس او بلينس بصورة بلنيوس وهو لفظ انكليزي للعالم Plinus ولا يجوز ان يلفظ الحرف اللاتيني U «يو» بل «او» كما يلفظهُ غير الانكليز . والعرب ذكروا هذا العَلَم كما ذكرناه والبعض قال بليناس (عيون الانباء ١ : ٧٣) انتهى كلام الاب انستاس

(اقول : لا شبهة ان التعبير العربي في القانون ينبغي ان يكون القانوني كما يقول الاب المحترم على تقدير الكاهن القانوني. لكن القانون هنا بمنزلة رتبة كهنوتية فرأيت ان ابقيها كما يقول الانكليز اي القانون ترسترام . فلو لم يكن حائزاً على هذه الرتبة وكان اسمهُ المستر ترسترام لقلت المستر ترسترام او الدكتور ترسترام ولم اترجمها. كذلك القانون فرأيت ان اذكر اللفظ كما ينطق به الانكليز . اما بلنيوس فاسمهُ باللاتينية على ما اظن Plinius وصحة كتابتها بالعربية كما كتبتُها ولو كان اسمه باللاتينية كما اورده الاب المحترم كانت صحة كتابتهِ بلينوس او بلينس كما قال)

الى ان قال الاب العلامة : وذكرت في ص ٥ الادَكس . وقد صرَّح ثقات العلماء انهُ ساميّ الاصل غير لاتيني كما قلتَ والذي عندي انهُ من العربية «عَدَّاء» لاشتهارهِ بعدوهِ اي حُضرِهِ . وعدم وروده في الكتب بهذا الاسم لاينفي عدم نطق العرب بهِ لان اللغويين لم يدونوا جميع الكلم لا سيما ما يتعلق بعلم المواليد

وفي الصفحة المذكورة ذكرت المؤَزَّر بمعنى «الابيض العجز» والذي اعرفهُ بهذا المعنى «الآزر» كما في الاساس

(قلت ذكرت الآزر والمؤزر في ص ٨١ في مادة ثيتل فقلت ثيتل آزر ومؤزر اي ابيض العجز وذلك عن كتاب مبادىء اللغة للاسكافي ص ١٢٩ قال الآزر الابيض العجز وكذلك المؤزّر ولم اجد المؤزّر في غيره من كتب اللغة بهذا المعنى)

الى ان قال الاب انستاس : وجاءت الاربد مضبوطة بالتحريك واسكان الباء والصواب بوزن افضل . وذكرت مع العربدالشجاع وليس الواحد الآخر ولا جرم ان الاربد او العربد تنظر الى اليونانية herpeton اما الشجاع فهي تلك الحيـة التي من شأنها الاطراق اي ارخاء العينين كأنها ناظرة الى الارض ساكنة . ومنهُ مثلهم « اطرق اطراق الشِجاع » . والشِجاع بكسر الشين. وذكرت في تلك الصفحة الحرذون بجانب العضرفوط والواحد غير الآخر وقد ذكرت ايضاً الاول في ص ٢٣٥

(واما الاربد فخطأ مطبعي والصواب كافضل اي كما قال الاب المحترم . واما الشجاع فمن الافاعي Viperidae كالطفية وهذا يوافق ما قاله الاب المحترم ولا يخفى ان الطفية هي الافعى عند مؤلفي العرب واسمها عن العلماء Echis وكما جاء في المعجم ص ٩٥ والشجاع افعى او افعوان

ومن اسمائها عند علماء الحيوان Echidna كما جاء في ص ٩٤ فلا خلاف هنا بيننا

«اما الحرذون فلا شبهة انه ما ذكرتُ أي انه نوع من العضرفوط ولو تعددت اسماؤه العلمية وقد سماه جفروى Stellio vulgaris واندرسن Agama stellio وأحدث اسمائه Stellio stellio فهذا الحيوان واحد ولو تعددت اسماؤه وما ذكرته هو الصواب في الصفحة ٧ والصفحة ٢٣٥ وصورته في آخر الكتاب هي الصواب وهو شبيه جداً بقاضي الجبل وصورته الحقيقية في مطول وبستر»

ولم تذكر الدويبة المعروفة باسم «ابو بُريص» وهو Agama colonorum (راجع دوزي) والذي اعرفهُ ان ابا بريص مشهور بهذا الاسم في بغداد وهو المسمى Gecok كما جاء في معجمك ص١١٣ فدوزي ناقل غير محقق بنفسهِ والناس لا تعتمد الآن الاّ على التثبُّت في الامور والامعان في التدقيق

(واما ابو بريص فلا شبهة انه كما ذكر الاب انستاس وما ذكرتُ في الصفحة ١١٣ من المعجم اما ما جاء في دوزي فخطأٌ)

لم يذكر أحد حقيقة الجعلان قبلي وكان بعضهم صحَّف الكلمة مفردَها وجمعَها وانا أثبتُّ امرها والدليل اني لم ارَ من تكلم عليها كلاماً علميًّا قبلي

(أما الجعلان فقد نسبتها الى الأب المحترم في الصفحتين ٨٧ و ١٥١ في الكلام على Libellulidae و Dragon-fly

وفي الصفحة ٣ : ذكرت الكواسر ومنها كواسر الليل وكواسر النهار اوبالعكس وفي ص٤ قلت : لا يقال كاسر الاّ للطير سمي بذلك لانه يكسر جناحيه » اه . قلت اذن كل طائر من جارح وبغاث يسمى كاسراً لان جميع الطير حتى العصافير تكسر اجنحتها عند النزول واذن لا يستعمل الكاسر بمعنى الجارح فقط . والذي رأيتهُ بمعنى الجارح الصائد وتجمع على صوائد والكلمة وردت في المخصص وصبح الاعشى وفي غيرهما . اما الكاسر فلم ترد الاّ في قولهم كاسر العظام للطائر الذي ذكرتهُ في ص ١٧٧ من معجمك وكنتُ قد تكلمت عليهِ طويلاً وقبلك في المشرق . واظن انك طالعت في الضياء (١١ : ٣٢) قول الشيخ ابراهيم اليازجي : ووحش كاسر اي ضار او مفترس عامية وانما الكاسر في مثل هذا من صفات جوارح الطير »

قلنا وقد يكون الكاسر اناساً وطيراً وحيواناً. ومنهُ في التاج «وهو كاسر من قوم كُسَّر كركَّع وهي كاسرة من نسوة كواسر والكواسر الابل التي تكسر العود » اه . افلا تنعت بعد هذا سباع الحيوان بالكواسر اذا كانت تكسر عظام صيدها؟ فتقييد اللغة بمثل تلك القيود يمنعها دون التحليق مع سائر اللغى . واما الكاسر للطيور فقد قالوا عقاب كاسر وباز كاسر الى غير هذين الجارحين ككاسر العظام . انتهى كلام الاب انستاس

(قلت اريد لفظة تقوم مقام هذه اللفظة أي لفظة تشمل سباع الطير من الجوارح كالعقبان ومن غير الجوارح كالنسور . والرخم وقد اقترح احد الادباء القواطم واظنها موافقة أما الجوارح فليست موافقة فالنسر والرخمة ليسا من الطيور الصائدة أي ليست من جوارح الطير لكنهما من هذه الرتبة)

كتاب جامع المفردات

تأليف الغافقي (توفى نحو ٥٦٠ هـ) — انتخاب ابن العبري (توفى سنة ٦٨٤ هـ)
نشرهُ وعلق عليه الدكتور ماكس ماير هوف والدكتور جورجي صبحي

لم نرَ كتاباً هذه السنة اجتمعت فيهِ شروط البحث الدقيق والموازنة والاسناد كما اجتمعت في هذا الكتاب

فعلماء العرب اشتهروا بتعمقهم في علم المادة الطبية ، على اثر ترجمة كتاب ديوسقوريدس من اليونانية ، اكثر من اشتهارهم باي علم آخر : والمظنون ان ترجمة كتاب ديوسقوريدس كانت بالسريانية وتمت في عصر العباسيين ثم نقل الكتاب من السريانية الى العربية واصح ترجمة هي الترجمة التي وضعها حنين ابن اسحق في القرن الثالث الهجري . فجاء كتاب ديوسقوريدس مثالاً احتذاهُ العرب في علم الادوية واشهر اصحابها الرازي وابن سينا وابن جزلة وابن الوافد وابن سمجون والشريف الادريسي والغافقي وابو العباس وابن البيطار. الاّ ان معظم مؤلفاتهم قد استبدّت بهِ ايدي الضياع ولم يبق الاّ كتاب ابن البيطار وقد احتوى على كل ما جاء في كتب الاوائل ، وهو في طبعة لكلير اصح وصفاً واصلح نصّاً منهُ في طبعة بولاق

اما كتاب الغافقي فليس منهُ الاّ نسختان احداها مغلوطة ومحفوظة ببلدة غوتا بالمانيا والثانية في مكتبة المغفور لهُ احمد تيمور باشا وهي صحيحة مضبوطة وقد تكرَّم قبل وفاتهِ — رحمة الله عليهِ — فسمح للناشرين العالمين تصوير صفحاتها بالفوتوغراف

ولدى الموازنة بين كتاب ابن البيطار وكتاب الغافقي وجدا ان مؤلف ابن البيطار ليس الاّ نسخة كاملة لكتاب الغافقي زيد عليها بعض ملاحظات من المؤلفين الذين خلفوا الغافقي . ويندر ان تجد في كتاب ابن البيطار ملاحظة خاصة بهِ . ثم ان كتاب ابن الغافقي — في رأيهما — ليس الاّ شرحاً للترجمة العربية لمؤلف ديوسقوريدس وقد اضيفت اليهِ اسماء النباتات والادوية التي عرفت بعد ما اتسع نطاق معرفة الاطباء العرب في فن العلاج . وقد شرح الغافقي هذه الادوية الجديدة شرحاً مطولاً ينمُّ على مقدرة تبعث على الدهشة وذكاء متوقدٍ واضاف اليها كثيراً من الادوية التي في شمال افريقيا وبلاد الاندلس

ولم يكتف الناشران باخراج طبعة عربية سليمة لكتاب الغافقي مع شدة ما عانياهُ في قراءة النسخة التيمورية والمقابلة بينها وبين نسخة غوثا والعودة احياناً الى كتاب ديوسقوريدس نفسهِ لفك المُغلَق ، بل انهما اخرجا ترجمة انكليزية حرفيةً جهدَ الطاقة

وقد سارا في الطبعة العربية على الخطة التي يجري عليها المستشرقون في طبع الكتب القديمة. فانهما استخرجا نصاً هو في رأيهما اقرب ما يكون الى الصواب ووضعا امام كل لفظة لها اكثر من قراءة واحدة لا تقبل الريب ، رقماً وفي الحاشية اوردا ما جاء في النسخة الخطية الاخرى اذا اعتمدا نسخة دون الثانية او ما ورد في النسختين الخطيتين اذا كانا قد اعتمدا قراءة خاصة وصلا اليها بعد البحث والاستقصاء

وقد فعلا ذلك كذلك في الترجمة الانكليزية وكتبا اسم كلّ دواء بلفظهِ العربي او المعرّب بحروف افرنجية وعربية واضافا الى ذلك اسمهُ الاجنبي الشائع واسمهُ العلميّ

خذ أشنة صفحة ١٤ من الاصل العربي فقد ورد في الترجمة الانكليزية ما يأتي :

Ushna اشنه Fragrant (tree) moss. Odorant lichen. Alectoria usneoides (Lecl. no 85)

ثم انهما علقا على بعض الادوية شروحاً غاية في خطورة الشأن

فعمل العالمين الفاضلين ليس نشراً وترجمة فقط، بل هو عمل ينطوي على تحقيق وتعمُّق في الطب واللغة واسماء النباتات العلمية فهما جديران من جمهور المتعلمين في الشرق بالشكر والثناء

***

وقد رفعا الكتابين الى من «احيا حضارة الفراعنة والعرب بعد موتيهما ، الى الآخذ بيد العلوم والفنون ورافع لوائها ، الى باعث النهضة الحديثة في مصر ، الى مليكنا المفدّى مولانا صاحب الجلالة احمد فؤاد الاول »

امير الشعراء

اثنا عشر عاماً في صحبتهِ

وضع الاديب احمد عبد الوهاب ابو العز سكرتير احمد شوقي بك رحمهُ الله، كتاباً يشتمل على ما عرفهُ عن شوقي في خلال اثني عشر عاماً لازمهُ فيها . ومن ابدع فصول هذا الكتاب الفصل الذي يصف فيهِ المؤلف كيف كان شوقي ينظم الشعر. قال في مقدمة الكتاب : « في هذا الكتاب يعرف القراء كيف كان شوقي بك ينظم لآلئ شعره وعلى اي صورة كان ذلك وفي اي الاوقات كان يحبَّب اليهِ النظم.وفي هذا الكتاب ايضاً يعرف القراء كيف كان يتريّض وكيف كان يعمل وكيف كان يجدّ وكيف كان يلهو وكيف كان يحب وكيف كان يكره وفي الجملة يعرف القراء كيف كان يخالط الحياة ويمتزج بها ».وهو في ١٩٢ صفحة من القطع الصغيرة ومزدان بصور كثيرة وثمنهُ ٥ قروش صاغ

مطبوعات جديدة

﴿ قصيدة ﴾ ترجم حبيب بك غزالة قصيدة شوقي في النيل التي مطلعها

من اي عهدٍ في القرى تتدفق
وبأيّ كفٍّ في المدائن تغدق

باللغة الفرنسية ترجمة حوت لبّ معاني القصيدة . وهو عمل يشكر عليه لأنهُ لا بدّ لنا من ترجمة روائع شعرائنا الى اللغات الاوربية اذا شئنا ان ننصف اذا عنّ لنقّادها الحكم على أدبنا وشعرنا

﴿ موازين النقد الادبي ﴾ التي الاديب كامل كيلاني سكرتير رابطة الادب الجديد محاضرة في نادي هذه الرابطة موضوعها «موازين النقد الادبي» عرض فيها بالاسهاب الى عيوب النقد عندنا فذكر الهجو والعربدة والببغاوية والاسراف ، وهي من المساويء التي يجب ان يترفع عنها الناقد لكي يستطيع ان يؤدي مهمة التثقيف والتقويم على اوفى وجه . ولما سئل المحاضر لماذا حصر قوله في عيوب النقد مع ان موضوع المحاضرة « موازين النقد » قال ان الكلام في العيوب ليس الاّ بمثابة مقدمة للكلام في الموازين في محاضرات تالية . ونحن نسجل هذا القول على انهُ وعد

﴿ غرازيلا ﴾ احدى بدائع لامارتين الشاعر الفرنسي الكبير . فيها يمتزج الشعر بالنقد بالفلسفة بالاجتماع في قصة ساذجة ينظم دررها حب صافٍ كالماء المترقرق . فانت تبدأ القصة فتحسبها مذكرات رحلة رحلها لامارتين الى ايطاليا فاذا وصف الرحلة جانب واحد من قصة تستهويك فلا تتركها حتى تتمها . وقد عني بترجمتها اسكندر كرباج احد ادباء لبنان في البرازيل واهدتها مجلة الشرق العربية البرازيلية الى مشتركيها . والترجمة لا بأس بها من حيث الدقة ولكنها تحتاج الى قليل من التنقيح لتسلم من هفوات قليلة تشوّه بعض محاسنها

﴿ الطاغية ﴾ وهي درامة تاريخية تأليف شلر الشاعر الالماني الكبير معاصر جوته ونِدُّهُ نقلها الى العربية الاديب فائق رياض وطبعت في دار المجلة الجديدة وتطلب من مكتبة النهضة المصرية بشارع المدابغ بمصر

﴿سوريا في فجر التاريخ﴾ فصول وضعها محمد النعمان السخيطه مدرس التاريخ والجغرافية في مدرسة التجهيز بحلب وفقاً لبرنامج الصف الخامس التجهيزي . واخرجها عبد الودود الكيالي صاحب المكتبة العصرية بحلب على نفقته

والكتاب مدرسي يجمع في فصولهِ اهم ما عرف عن الحثيين والاموريين والكنعانيين والفينيقيين وغيرهم من الشعوب القديمة التي قطنت سورية وما خلفته من آثار عمرانها وما كان يربطها بالمصريين وغيرهم من الروابط

الجزء الاول من المجلد الثاني والثمانين

صفحة

طبقات الارض

او بسائط الجيولوجية

وفقاً للمنهج الذي أقرته وزارة المعارف العمومية
﴿ للسنة الثالثة الثانوية ﴾

بقلم

فؤاد صروف

ثمن النسخة خمسة قروش تضاف اليها اجرة البريد وهي قرش صاغ
ويطلب من المؤلف بادارة المقتطف بمصر

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها ادارة المطبعة العصرية بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

صندوق بوستة ٩٥٤ مصر تليفون رقم ٥٩٢٣٦

ص

٣٥ القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠ القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثالثة)
٣٥ القاموس العصري عربي انكليزي (طبعة اولى)
٧٠ القاموس العصري عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ القاموس المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ قاموس الجيب عربي انكليزي فقط
١٥ قاموس الجيب انكليزي عربي فقط
٧٠ « سقراط سبيرو عربي انكليزي (بالفظ)
٥٠ « سقراط سبيرو انكليزي عربي (بالفظ)
١٠٠ « سقراط انكليزي عربي وبالعكس
١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠ عشرة ايام في السودان « « « «
١٢ مراجعات في الادب والفنون: للاستاذ عباس العقاد
١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد زعيتر)
١٥ روح السياسة « « «
١٠ الآراء والمعتقدات « « « «
١٠ اصول الحقوق الدستورية « « «
٢٠ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
٨ مقدمة الحضارات الاولى « «
١٠ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥ ملقي السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
١٠ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١ مختارات سلامه موسى
٨ نظرية التطور واصل الانسان « «
٣ اناتول فرانس في مباذله (الامير شكيب ارسلان)
١٥ الدنيا في امريكا (للاستاذ امير بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (حسين عبد الله)
١٠ حصاد الهشيم (للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني)
١٠ قبض الريح « « « « «
٨ نسمات وزوابع شعر منثور مصور « « « «)
١٠ رسائل غرام جديدة (للاستاذ سليم عبد الواحد)
١٠ الغربال في الادب العصري (للاستاذ ميخائيل نعيمة)
٥ حكايات للاطفال ، اول (مصور بالالوان)
٥ « « ثان « « «

ص

١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري)
٥ خواطر حمار (الاستاذ الجمل)
٥ التعليم والصحة
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد
١٥ ذكراً وانثى خلقهم « « «
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران « «
١٥ اسرار الحياة الزوجية « «
٢٥ المرأة وفلسفة التناسليات (للدكتور فخري)
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها « «
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي)
١٠ تاييس « « « «
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص العصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
١٠ رواية فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨ رواية الانتقام المذب (اسعد خليل داغر)
٥ فقر وعفاف (الاستاذ احمد رأفت)
١٢ رواية باربزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢ غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ رواية روكامبول ، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥ رواية ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
٢٠ رواية باردليان ، ٣ اجزاء «
٢٠ رواية الملكة ازابو ٤ اجزاء «
٢٠ رواية الاميرة فوستا ٤ جزآن «
٢٠ رواية عشاق فنيسيا ، جزآن «
١٦ رواية كابيتان ، جزآن «
١٦ رواية الوصية الحمراء ، جزآن «
١٢ رواية المبرج ، جزآن «
١٠ رواية فارس الملك «
١٠ رواية ضحايا الانتقام «
٥ رواية المتنكرة الحسناء «
٥ رواية مروضة الاسود «
٥ رواية شهداء الاخلاص «
٨ رواية المرأة المفترسة «
١٦ رواية دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠ « فرنسوا الاول « « «

عُمَّال !!

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الرابع من المجلد الثاني والثمانين

١ ابريل سنة ١٩٣٣ — ٦ ذي الحجة سنة ١٣٥١

التكنوقراطية والازمة

نقدها للنظام الصناعي والاقتصادي ومقترحاتها

يراد بالديموقراطية حكومة الشعب . وبالارستقراطية حكومة الخاصة . اما التكنوقراطية Technocracy فهي حكومة رجال الفن اذا انسحبت لفظة الفن على الصناعة والهندسة والعلم والاعمال الميكانيكية واساليبها بوجهٍ عام Technology . والظاهر ان اول رجل استعمل لفظة التكنوقراطية كان المستر وليم سمث Smyth احد مهندسي ولاية كاليفورنيا الاميركية. فاطلقها سنة ١٩١٩ على نظام جديد من الحكم والفلسفة التي من وراء هذا النظام . ثم طويت اللفظة. على ان جماعة من المهندسين والاقتصاديين وعلى رأسهم مهندس يدعى هورد سكُت Scott (ومنهم شتينمتز المستنبط الكهربائي ونورشتين فبلن الاقتصادي الثائر — وقد توفيا — ومهندسان معماريان من مهندسي نيويورك) ، اتصلت بقسم الهندسة الصناعية في جامعة كولومبيا من بضع سنوات فاتفق الفريقان على اجراء بحثٍ عام في احوال الصناعة في قارة اميركا الشمالية ، غرضهُ معرفة مقدار الطاقة التي زاد استعمالها في الصناعات المختلفة في خلال مائة سنة واثر ذلك في مقدار الانتاج وعدد العمال العاملين والعاطلين . ومضيا في بحثهما على الطريقة العلمية المعهودة في هذه المباحث، الى ان كان شهر اغسطس من السنة الماضية فتسربت بعض الاقوال عن الحقائق التي قيل ان الفريقين كشفا عنها ، الى بعض الصحف فنشرها الكتّاب مهوّلين بها ، فاصابت اوتار النفوس الحسّاسة . واذا لفظة التكنوقراطية ، بين ليلة وضحاها ، كأنما هي موجة من السحر ، قد اكتسحت الولايات المتحدة الاميركية من اقصاها الى اقصاها،

واذا الصحف والمجلاّت تبحث عمن يحبّر لها المقالات في هذا الموضوع ، واذا المطابع تخرج الكتاب تلو الكتاب ، في ابجدية التكنوقراطية ومقدماتها ومعانيها ومراميها وغير ذلك. واذا الناس يرون بفعل السحر في دعاوي التكنوقراطيين خروجاً من مأزق المجتمع الحديث القائم على الصناعة وفنونها . وكان لا بدّ ان يقع الخطأ في بعض ما كتب في الموضوع على عجل ، وخصوصاً ما كتبهُ صحافيون متصلون باصحاب المذهب الجديد ، معتمدين على ما التقطوه من اقوالهم او خيّل اليهم انهم فهموهُ من مبادئهم. فكثر النقّاد وتألفت الصفوف للطعن والردّ. ورأى فريق جامعة كولومبيا ان المسألة خرجت من دائرة البحث العلمي الى ميدان النضال السياسي والصحافي ، فاعلن انفصاله عن فريق سكُتْ وعزمهُ على المضي منفرداً في البحث حتى تمامه

والناس في كل العصور يميلون الى تصديق مُتَنَبِّئة الشؤم. فاذا بدا لهم خطأ او انحراف في اقوالهم انقلبوا عليهم شرَّ منقلَبٍ . وسكتْ لم يشذّ عن هذه القاعدة العامة . فالازمة في اميركا آخذة بخناق الناس من كل الطبقات الاجتماعية ، واللوم في نظر التكنوقراطيين واقع على الآلة والصناعة الآلية، والنظام القائم عليهما لن يدوم في رأيهم عقداً آخر من السنين ، وانهُ ما دام هذا النظام قائماً فلا مندوحة عن زيادة العمال العاطلين ، وانهُ اذا القيت مقاليد الاجتماع الاميركي الى المهندسين والعلماء ، خرجوا بالناس من المأزق وقلبوا نظام الاسعار والعملة والمعاملة ووضعوها على اساس جديد. فتعلق الغرقى بحبال الامل . فلما كشف النقاد عن بعض الاخطاء في ما عزي الى التكنوقراطيين، انقلب الناس على سكتْ وتنكّروا لهُ، حتى تلاميذهُ في كولومبيا اعلنوا انفصالهم عنهُ

على ان التكنوقراطية تجمل لنا لباب المشكلة التي تعانيها الحضارة الغربية الآن . واهمال العناية بهذه المشكلة نهايتهُ الخراب الذي تبدو نذرهُ على الافق . ومن هنا اهتمامنا بتوضيح المبادىء الاساسية التي ينطوي عليها هذا المذهب الحديث

تبدّت مساوىء الصناعة الحديثة للمفكرين في مطلع هذا القرن . فلم يحيروا معها عملاً او منفذاً للخلاص ؛ لان رجال الصناعة ومن ورائهم رجال المال كانوا اصحاب السيطرة الفعلية في الاجتماع الحديث . فتجاهلها الشعراء. وتسامى عنها الفلاسفة. حتى زعماء الشيوعية ، الذين يؤمنون بالآلة في تخفيف العناء البشري ، لم يجدوا في الصناعة كما تمارس ، مسوغاً ايجابيًا واحداً للاحتفاظ بها ، فعمدوا الى التنديد بمساوئها ، وجلُّ بضاعتهم التنبؤ بنهاية الرأسمالية واستبداد المموّلين بالعمال . فلما كان العقد الثالث من هذا القرن اتجهت الصناعة اتجاهاً جديداً ، فبدا للمفكرين الذين يراقبون سيرها ، ان الصناعة سائرة بالاجتماع الى حالةٍ تحلُّ فيها الآلات محلّ العمال، وان النتيجة اللازمة التي يفضي اليها هذا السير تحتمل احد امرين : اما حضارة يقلُّ فيها نصيب الناس من العمل ويزيد قسطهم من التمتع ، او اجتماعٌ يعجز فيهِ ربع

القادرين على العمل عن وجود مرتزق فيعيشون عالةً على الحكومة والامة او على احسان المحسنين
وتأييد هذه النظرة الاجتماعية بالارقام والاحصاءات هو لباب التكنوقراطية

العمال والآلات

....

يعرّف التكنوقراطيون «التحول الاجتماعي» بكل تحوّل يحدث اذا اختلف نصيب الفرد من الطاقة المستعملة في الانتاج والاستهلاك . فهم لذلك يحذفون من تاريخ الانسان السبعة آلاف السنة السابقة للقرن التاسع عشر . فمقدار الطاقة التي كانت تستعمل في العصور القديمة — طاقة عضلات الرجال والحيوانات — لم يصبهُ الاّ تغير يسير حتى استنبطت الآلة فزادت الطاقة زيادة عظيمة . ففي الولايات المتحدة الآن آلات تولّد ما قدره الف مليون حصان من الطاقة الميكانيكية كلّ يوم وهي تفوق الطاقة العضلية التي يولّدها كل سكان الارض خمسة اضعاف

ثم انهم يشيرون الى ان سكان الارض زادوا في المائة والخمسين السنة الاخيرة من ٨٥٠ مليوناً الى ١٨٠٠ مليون في حين ان الطاقة الميكانيكية اللازمة لانتاج ما يحتاجون اليهِ زادت زيادة عظيمة . والآلة التي تولد الطاقة الميكانيكية تحلّ محلّ الرجل الذي كان يولّدها باستعمال عضلاتهِ بل هي تحلّ في كثير من الاحيان محل العامل البارع دع عنك العامل القويّ

فالحقيقة التي تستخرج من احصاءات التكنوقراطيين وجداولهم ، ان التوسع العظيم في الانتاج يصحبهُ نقص عظيم في استخدام العمال ، وان هذا النقص آخذ في الازدياد ، حتى لقد يبلغ قريباً الصفر ، اذ تصبح الآلات التي تكاد تكون عاقلةً في كفايتها — في مصنع ما — لا تحتاج الاّ الى بضعة رجال للاشراف على الازرار التي تديرها . وعليهِ فالازمة الحالية ، ليست موجة وتمرّ ، بل هي ازمة لا مندوحة عن استمرارها في ظلّ النظام الحالي

كان في الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٩٣٢ نحو من ١٤ مليوناً من العمال العاطلين . والتكنوقراطيون يقولون بان العاطلين سوف يبلغون سنة ١٩٣٤ نحو من ٢٥ مليوناً . وان ما ينفتح امام العاطلين من ابواب العمل في الصناعات المستحدثة لا يكفي ، لان هذه الصناعات نفسها خاضعة لتقدم اساليب الصناعات فيها ، والاتجاه في هذه الاساليب ، هو نحو جعل الآلة « اوتوماتيكية» أي ان تقوم من تلقاء نفسها بما هو مطلوب منها . وان صفوف العمال العاطلين سوف تتضخم اذ تنبذ المعامل آلاتها القديمة وتستبدل بها آلات على احدث طراز

والى القارىء بعض الاحصاءات المفصلة عن صناعات اميركية زاد فيها الانتاج في خلال مدة معينة زيادة كبيرة ، ولكن نقص عدد العمال فيها في خلال المدة نفسها ، لان الآلة أغنت عن خدماتهم . والمدة هي سنة ١٩٢٣ — ١٩٢٧

الصناعة	زيادة الانتاج او نقصه	نقص العمال او زيادتهم
النفط (البترول)	٨٤ في المائة زيادة	٥ في المائة نقصاً
التبغ	٥٣ « «	١٣ « «
صناعة اللحوم وحفظها	٢٠ « «	١٩ « «
السكك الحديدية	٣٠ « «	١ « «
البناء (ولاية اوهايو)	١١ « «	١٥ « «
السيارات	٦٩ « «	٤٨ « زيادة
الكهربائية	٧٠ « «	٥٢ « «
الورق	لا زيادة ولا نقص	٧ « نقصاً
الاحذية	٧ في المائة نقصاً	١٢ « «
مغازل القطن	٣ « زيادة	١٣ « «
الفحم	٤ « «	١٥ « «
الاحتطاب	٦ « «	٢١ « «

العمال والمستنبطات

ولكي يؤيد التكنوقراطيون دعواهم بان المستنبطات الحديثة تحلُّ محلَّ القديمة في المعامل والمصانع ، وان الصناعة بوجهٍ عام، تميل الى الاخذ بالآلة الاتوماتيكية يشيرون الى احصاءات مصلحة تسجيل المخترعات الاميركية . ففي المدة الواقعة بين سنة ١٨٥١ — ١٨٥٥ منحت هذه المصلحة ٦٠٠٠ امتياز . اما في المدة الواقعة بين سنة ١٩٢٦ — ١٩٣٠ فمنحت ٢١٩ الف امتياز . واذا اخذنا بالاساليب الزراعية السائدة في الولايات المتحدة سنة ١٨٣٠ تبين لنا ان محصول الحنطة الاميركية في سنة ١٩٢٩ كان يقتضي عمل ٦٠٠٠٠٠٠ عامل. اما اليوم فأربعة آلاف عامل فقط يكفون لذلك اذا استعملت المحاريث والحصادات وغيرها من الآلات الحديثة. وقد بلغ من عناية اصحاب المصانع باستخدام الآلات المغنية عن العمال، لتخفيض نفقات الانتاج، مبلغاً عظيماً حتى اذا عادت كل المعامل الاميركية الى العمل لما تمكنت من استخدام اكثر من سبعة ملايين عامل — وهو نصف عدد العاطلين في اميركا الآن — لتنتج ما انتجتهُ سنة ١٩٢٩

وقد احصى التكنوقراطيون هذا الاتجاه في صناعات مختلفة نكتفي بذكر بعضها للتمثيل دون الحصر. ففي سنة ١٨٩٢ كان في البلاد الاميركية ٩٠٠٠ مطحنة دقيق اخرجت ٤٧١ مليون جريب[1] (بشل) وعدد عمالها كانوا ٣٢ الفاً. اما في سنة ١٩٢٩ فكان عدد المطاحن ٢٩٠٠ اخرجت ٥٤٦ مليون جريب في حين ان عدد العمال لم يزد على ٢٦٤٠٠ عامل . وفي سنة ١٩٠٠ كان

(١) مكيال من مكاييل العرب وضعناه لكلمة بشل Bushel

امام صفحة ٣٨٣

الآلة كالجبار والعامل امامها كالقزم

يقتضي اخراج طن من الصلب عمل سبعين عاملاً اما في سنة ١٩٢٩ فكان اخراج الطن لا يقتضي الاّ عمل ١٣ عاملاً . وفي صناعة السيارات كان صنع سيارة واحدة سنة ١٩١٩ يقتضي ٥١٣ ساعة من عمل العمّال اما في سنة ١٩٢٩ فكان صنع السيّارة لا يقتضي اكثر من ٩٢ ساعة من عمل العمّال والباقي احيل على الآلات

ثم ان التكنوقراطيين يشيرون الى انهُ في امكان اصحاب الصناعات ، ان يبنوا مصانع منها مايصنع ١٠٠٠٠ جسم من اجسام السيّارات ولا يستخدم في صنعها الاّ ٢٠٨ من العمال وان واحداً من هؤلاء العمال فقط يستطيع ان يشحن اجسام السيّارات كلّها على مركبات النقل . ومنها مصنع كامل للحرير الصناعي لا يحتاج الى اي عامل . وانهُ اذا اشتغل رجلٌ الآن مستعيناً بكلّ الوسائل والمستنبطات الميكانيكية الحديثة اخرج من المصابيح الكهربائية في ساعة من العمل ماكان يقتضي سنة ١٩١٤ نحو ٥٥٠ ساعة عمل ، ومن الصلب ما كان يقتضي ٦٥٠ ساعة عمل في انكلترا سنة ١٨٨٥ . ثم ان معامل لفائف التبغ (السجائر) تمكن العامل الواحد ان يصنع الآن ٣٠٠٠ سيجارة في الدقيقة مع انهُ كان لا يستطيع من سنة واحدة ان يصنع في الدقيقة اكثر من ٦٠٠ سيجارة . وكلُّ ما تحتاج اليهِ اميركا من الطوب يمكن ان يصنعه مائة رجل يشتغلون شغلاً متواصلاً مستعينين بالآلات . وفي بعض مصانع الصوف يوضع الصوف الخام في ناحية من آلة ويخرج من الناحية الاخرى كُبَباً من غزل الصوف الملوّن والملفوف المعَدّ للبيع في السوق . واحدث الآلات المستعملة في رصف الطرق تستطيع بادارة رجلين فقط ان تقتلع سطح طريق قديمة وترصف طريقاً جديدة طولها ٨ اميال وعرضها ٦٠ قدماً في يومٍ واحد . وليس ثمة نهاية لما يعدّدونهُ من هذا القبيل

ثم ان هنالك ما هو ادهى مما تقدّم . ففي امكان صناع شَفَرات المواسي ان يصنعوا شفرات نفقة صنعها ٢٠ في المائة اكثر من نفقة شفرات جيليت ولكنها تكفي مستعملها مدى حياتهِ من دون ان يضطرّ الى سنّها . وفي الامكان صنع سيّارات تدوم ٦٥ سنة وتقطع ٣٠٠ الف ميل من دون ان تحتاج الى ترميم . ثم ان هنالك نباتاً جديداً يدعى « remie » لهُ فتلة كفتلة الكتان او من قبيلها ينتج الفدان منهُ في ثلاث غِلالٍ سنوية ١٥٠٠ رطل انكليزي وطول فتلتهِ ٢٢ بوصة ، يمكن ان يقطع ويحزم بآلة ، فاذا نسج كان امتن من الصوف سبعة اضعاف وهو ارخص وامتن من رُبّ النبات لصنع الورق ولهُ لمعة كلمعة الحرير او الكتان. فاين تذهب مصانع النسج اذا استعمل هذا النبات ؟ ثم ان مصانع الاحذية اذا استبدلت بآلاتها القديمة آلات جديدة تمكنت من ان تصنع في ثمانية اشهر احذية تكفي سكان اميركا مدة عشر سنين

علل النظام الصناعي

على هذه الاحصاءات بنى التكنوقراطيون ثلاثة مبادىء هي اركان مذهبهم :—(اولاً) ان

الثروة نتيجة للطاقة انسانيةً كانت او ميكانيكية . فالثروة يجب ان تقاس بوحدات الطاقة لا بالجنيه والريال . (ثانياً) ان نصيب الانسان في انتاج البضائع أخذ في عصر الآلة هذا ، ينقص نقصاً سريعاً بزيادة الآلات التي تستغني عن العمال ، ونقص نصيب العمال في الانتاج انقص نصيبهم في استهلاك منتجات الصناعة . (ثالثاً) ان نظام الاسعار السائد الآن ، قد جعل عبء الديون العمومية عبئاً فادحاً يكاد يقصم ظهر المجتمع الحديث ويعيق الصناعة عن بلوغ مداها الطبيعي ويمنع جمهور الناس من استهلاك ما كانوا يستهلكونهُ عادة لو الغيت الديون وبدّلت الثروة العادية ووحدتها الجنيه والريال وغيرها بثروة اساسها وحدات الطاقة

قد مرَّ بنا ما يكفي لتأييد المبدإ الاول . فالانسان في فجر حياتهِ الاجتماعية كان يعتمد على قوة عضلاتهِ في القيام بما يشاؤه من العمل ، ثم استنبط العجلة والعتلة والشراع ودولاب الهواء . ولكن ذلك كلهُ لم يزد قوتهُ العضلية شيئاً ازاء الزيادة التي اصابها بعد ما استنبطت الآلة البخارية وما تلاها من المحركات الكهربائية وآلة الاحتراق الداخلي . فصانع الاحذية في رومية القديمة كان يقضي ما متوسطهُ خمسة ايام ونصف يوم في صنع حذاء . ولكن صانع الاحذية في المصنع الحديث يصنع — بمساعدة الآلات — ما متوسطهُ ٦٧٨٨ الحذاء في المدة نفسها . وكان الطحان في رومية واثينا يصنع جوالاً الى جوال ونصف من الدقيق في اليوم بطحن الحنطة بحجري رحىً . اما الطحان في مطحنة حديثة في مدينة منيابوليس او بفلو فيخرج — بمساعدة الآلات — ما متوسطهُ ٣٠ الف جوال في اليوم من دقيق يفضل الدقيق الرومانيّ او الاثيني في جودة طحنهِ .. الخ

وعليهِ فالطاقة التي تولدها الآلات وتستعمل في انتاج البضائع هي العامل المسيطر على حياة العالم الاقتصادية . اما أثر طاقة الانسان في هذه الحياة فآخذة في النقص السريع

والتقدم في استعمال الطاقة قد هدم النظامَ القائم على قياس الثروة بالعملة المبنية على الذهب او الفضة او الاعتمادات المالية ، فلا امل في ترميمه . ذلك ان هذا النظام يجعل نصيب العامل من الاستهلاك متوقفاً على العمل الذي يؤديه . في حين ان نظام الصناعة نفسهُ اصبح لا يحتاج الى عمله . ومعظم العمل الذي يعمل في انتاج البضائع تقوم به آلات صُمٌّ بطاقة مولدة من الفحم او الماء او غير ذلك من مصادر الطاقة . واجرة هذا العمل يستولي عليها اصحاب المصانع ومديروها ويحرم منها العامل لانَّ المصنع الحديث اصبح في غنىً عن طاقتهِ

ولكن اصحاب المصانع ومديريها اقلية يسيرة في كل البلدان ، تتجمع في ايديهم ، في ظل نظام الاسعار القائم ، مقدرة عظيمة على الاستهلاك ولكنهم لا يستعملونها ، في حين ان الجماهير التي تستطيع ان تستهلك لا تملك وسائل الاستهلاك وهي العملة . وبدلاً من ان يستعمل اصحاب المصانع ومديروها اموالهم في الاستهلاك يعيدون تثميرها في بناء مصانع جديدة ، وكذلك تزيد مقدرتهم على الاستهلاك من دون ان يكون لهم سبيل الى انفاقها . والنتيجة الحتمية

لهذا النظام اتساع المصانع وكثرتها وزيادة ماتنتجهُ على مايمكن ان يستهلك . ومن هنا تنشأ الازمات الطاحنة التي تدور كحجر الرحى من كثرة في الانتاج او قلة في الاستهلاك الى هبوط في الاسعار الى عطل عن العمل الى ركود في النشاط الاقتصادي الى تراكم في الديون الى انهيار ودمار

﴿علاج التكنوقراطيين﴾ اما وقد مني « نظام الاسعار » القائم ، بالخيبة ، فيرى التكنوقراطيون ان تحلَّ « وحدة العمل » في قياس الثروة محل «وحدة العملة» — الجنيه او الدولار او الفرنك — . فيقدَّر عمل الانسان في يوم طولهُ ثماني ساعات بمليون وخمسمائة الف « رطل قدم »[1] مثلاً . وكذلك تقاس كلُّ ثروة بمقياس واحد . وهذا المقياس لا يتقلب كما تتقلب اسعار العملة . ويرون لتطبيق هذا الاقتراح ان تلقى مقاليد الامور لرجال الفن — لا للعمال على ما هي الحال في روسيا — فيوزعون هذه الثروة على السكان توزيعاً متساوياً . فكل بالغ سليم الجسم عمره بين ٢٥ و ٤٥ سنة يرتبط مع الحكومة بعقدٍ على ان يتمَّ عملاً معيناً مشتغلاً ٤ ساعات في اليوم او ٦٦٠ ساعة في السنة . ويمنح لقاء ذلك الحق بتناول البضائع او الاشياء التي يريدها او يحتاج اليها — وكل منها مسعَّر بوحدات الطاقة — ويدفع ثمنها من نصيبهِ في وحدات الطاقة التي يأخذها لقاء العمل الذي يعمله . ثم انهم يقترحون للموازنة بين الانتاج والاستهلاك ان يمنح كل انسان قدراً متساوياً من «عملة الطاقة» من غير نظر الى العمل الذي يعمله فيشتري حذاءً لهُ بمائة «وط»[2] مثلاً ، وثوباً لزوجتهِ « بألف وط » وهلمَّ جرًّا . ويقدرون ان دخل الفرد بحسب هذا النظام يعدل ما كانت قيمتهُ ٢٠ الف ريال في سنة ١٩٢٩ وعليهِ فمستوى المعيشة الذي ينشأ في ظل هذا النظام يمكن الاحتفاظ بهِ مدى ثلاثة آلاف سنة ، تقلُّ في خلالها ساعات العمل رويداً بتقدم الاساليب الصناعية ، من دون ان يقلَّ الدخل ، وتتسع ساعات الفراغ للتمتع بمطالب الحياة العليا من ثقافة وفن وعلم ونزهة ورياضة وغيرها . ولا يسمح لاحد بالتوفير او تثمير المال الموفر ، لان الثروة بحسب هذا النظام قائمة في الاستهلاك لا في المِلْك

نقد التكنوقراطية

يقوم نقد التكنوقراطية على ثلاثة اركان . اما الاول فنقد الاحصاءات التي بنيت عليها مبادئهم . وقد ثبت الآن ان بعض ما عزي اليهم من هذه الاحصاءات فيهِ خطأ يسير او كبير . وان طائفة كبيرة من آرائهم ظهرت قبلاً في كتاب «فبلن» (المهندسون ونظام الاسعار) وكتاب صُدي (الثروة والثروة الحقيقية والدَّيْن) . فقد قيل اولاً ان ما ينتجهُ الرجل الواحد من الصلب في سنة ١٩٢٩ يفوق ٣و٩ ما كان ينتجهُ العامل سنة ١٧٨٧ وصحة ذلك ان هذه النسبة تبين ما كان ينتجهُ العامل في ساعة واحدة من العمل — لا ما ينتجهُ الرجل الواحد — في

(١) وحدة عمل (٢) وحدة طاقة

لسنتين المذكورتين . وقيل ان العامل في صناعة الحديد الزهر ينتج الآن في ساعة ما كان يستغرق ٦٥٠ ساعة من خمسين سنة وصحته ان النسبة ٤٧ : ١ وقيل ان صانع المصابيح الآن يصنع ٩٠٠٠ مصباح الآن ازاء كل مصباح كان يصنع سنة ١٩١٤ والصواب ان النسبة ٥٥٠ : ١

اما الثاني فنقد النتائج التي خلصوا اليها من هذه الاحصاءات . فهم يقولون ان ملايين من العمال قد اصبحوا عاطلين لان التقدم الصناعي والآلي جعل المصانع في غنيةٍ عن طائفة كبيرة من العمال . ولكن الدكتور وستر (Wooster) استاذ الاقتصاد في كلية اوبرلين الاميركية نشر احصاءات رسمية للعمال العاملين في سنة ١٩٢٠ و ١٩٣٠ فاذا مجموعهم في الاولى ٤١٫٦١٤٢٤٨ واذا مجموعهم في الثانية ٤٨٫٨٢٩٫٩٢٠ فكأن العمال العاملين قد زادوا في سنة ١٩٣٠ عن ١٩٢٠ رغماً عن تقدُّم الصناعة وارتقاء اساليبها . وانما جلُّ ما حدث ان توزيعهم على الصناعات المختلفة في ١٩٣٠ غير ما كان عليهِ سنة ١٩٢٠ فهم اقلُّ الآن ، في الزراعة والتحريج والتعدين وصيد السمك واكثر في الصناعات الباقية

واما الثالث فنقد فهمهم للمبادىء الاقتصادية الاساسية . فهم يقولون ان الديون العامة الخاصة تثقل كاهل الصناعة وتعيق عن الانتاج وتغلُّ يد المستهلك الصغير . ولكن نظام الانتاج يقتضي نظام الدين . فاذا صنع المنتج بضاعتهُ قبل شرائها حتى تكون جاهزة لدى طلبها كان المستهلك مديناً لهُ حتى يشتريها منهُ . واذا دفع المستهلك ثمن البضاعة قبل صنعها كان المنتج مديناً للمستهلك حتى يعدّ لهُ ما طلب . وقد يدخل اصحاب البنوك بين الفريقين لحمل دين هذا أو دين ذاك بفائدة يسيرة او كبيرة، ولكن الدين لا بدَّ منهُ سواء كان بالريالات الذهبية او بوحدات الطاقة والعمل . اما تسديد الديون فلا يتمُّ في الغالب بدفع النقود بل بتبادل البضاعة والخدمات ، وشطب القيَم المقابلة في الدفاتر . وما نشهدهُ من الخلل الآن في تسديد الديون يعود الى اسباب نفسية في الغالب، نشأت عنها الحواجز الجمركية فسدّت مساري التجارة الطبيعية

ويلخّص نقد التكنوقراطية في قول الاستاذ وستر : — «ان حقائقها غير تامة في مواطن كثيرة ، ومبالغ فيها في مواطن اخرى وموسومة كلها بسمة الشك في صحتها . ومنطقها فاسد. واصحابها يتشوفون الى عالم اصلح من عالمنا ، هازئين بالاشتراكيين الذي نقلوا عنهم معظم افكارهم وهم لا يعلمون » . وفي قول المستر سترونسكي في جريدة التيمس النيويوركية : — « ان الرجال الذين اجروا البحث في استعمال الطاقة في الولايات المتحدة الاميركية ، مهندسون بارعون اذا نظرنا اليهم يقومون باعمالهم التي توفروا على درسها . ولكنهم في اذاعة آرائهم الاجتماعية خرجوا من صفوف العلماء ورجال الفنّ ، فاصبحوا ، مثلنا اذ نضع غرضاً معيناً نصب عيوننا ، سياسيين ومروّجين». وغني عن البيان ان الحكم على مصير التكنوقراطية متعذر الآن . ولكننا لا نرتاب قط في ان رجالها نبهوا في النفوس، وجوب العناية بالاخطار العظيمة التي تستهدف لها الحضارة الصناعية
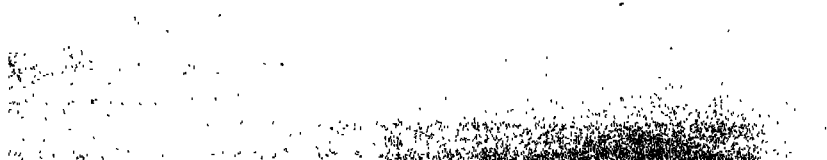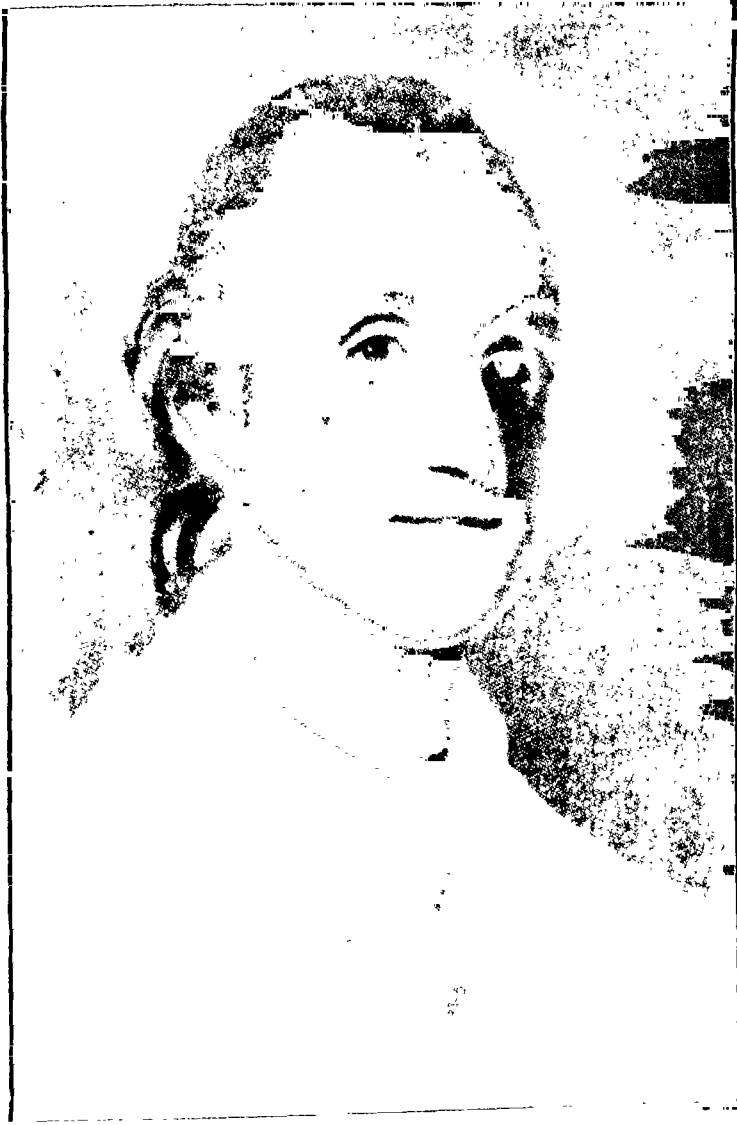
جون بريستلي القس العالم
John Priestley

مقتطف ابريل ١٩٣٣

امام صفحة ٣٨٧

القس العالم

بريستلي مكتشف الاكسجين

انقضاء مائتا سنة على ولادته

شقاء الاحرار

في اوربا في العقد الاخير من القرن الثامن عشر ثورة مجتاحة تثلّ العروش وتقلب الاوضاع الاجتماعية. وفي عقول الباحثين سورة تدفعهم للبحث والاستكشاف . فهم في معاملهم مكبّون على ادواتهم القاصرة في سبيل الكشف عن اسرار الطبيعة . ولكن العقول الذكية يحفزها الشوق الى الحقيقة ، لا تحفل بالادوات . وأصحابها يلاقون ويلات السياسة وشدائد الاضطهاد بثغور باسمة وقلوب مطمئنة

لقد قرب موعد الاحتفال باكتساح الفرنسيين لمعقل الباستيل . وفي مدينة برمنغهام الانكليزية حفنة من احرار المفكرين يعدّون المعدّات للاحتفال بعيد الحرية العظيم . فيجتمعون في هدوءٍ ودعةٍ ومن دون طبول او مشاعيل ، في دار معينة من دور المدينة . بين هؤلاء الاحرار ، قسٌّ يدعى جون بريستلي ، انضمَّ الى اخوانهِ ليحيي معهم ذكرى يومٍ خلّده التاريخ علماً على تحرير امةٍ، تربطهُ بها رابطة الجوار والانسانية

هوذا يوم ١٤ يوليو سنة ١٧٩١ وخارج الدار فارسان ومن ورائهما جمهور قلق صاخب. هوذا احد الفارسين يقرأ وثيقة اعدّها احد مندوبي الملك : — « ان فريق البرسبتيريان (شيعة من البروتستانت) ينوي ان يثور . فهم يدبرون الوسائل لحرق الكنيسة . ونسف البرلمان . ان قصدهم ان يشعلوا في البلاد نيران ثورة كثورة فرنسا . سوف يقطعون رأس الملك ويعلقونهُ امامكم . لعنهم الله . فغرضهم التنكيل بنا . فلنسحقهم قبل فوات الاوان » . وما ترددت في الجمهور الصاخب اصداء الملك والكنيسة حتى شبَّ عن الطوق . واذ الفارسان يرقبان في جذل مبلغ نجاحهما في استثارة الجمهور، اندلعت ألسنة اللهب من دار جون بريستلي

كان بريستلي جريئاً في تأييدهِ لكل قضيةٍ اقتنع بصحتها. وكانت الجمهورية الفرنسية الفتية قد انعمت عليهِ بلباب مجدها لما منحتهُ رعويتها الفخرية ، على أثر الردّ اللاذع الذي وجههُ الى برك الكاتب والخطيب السياسي الانكليزي لما تهجم هذا على الجمهورية الفرنسية وتنقّصها . هجم الجمهور الثائر على دار بريستلي وسدّد خطواتهِ الى مكتبتهِ فمزق كتبهُ وحرق مخطوطاتهِ

مرن كل ادواتهِ العلمية تدميراً . ثم انقلب الى دار الدكتور وذرنغ Withering وغيره من
باب بريستلي حتى اضطر فريق منهم ان يكتب على عتبات دورهم «لسنا فلاسفة» لينجوا من
الات الشغب . ولكن ذلك كلهُ لم يكف الشعب الهائج . فانكفأ يطلب رأس بريستلي ودمهُ .
ان القس كان قد فرّ الى لندن. ولكن الشغب في برمنغهام دام ثلاثة ايام بلياليها، يثير نيرانهُ
ثقة من رجال الملك جورج الثالث اذ ظنوا ان هذا هو السبيل السوي لارهاب اصدقاء الحرية

كان بريستلي في برمنغهام ، قبل فراره الى لندن ، عضواً في جماعة علمية فلسفية تدعى
الجمعية القمرية » لانها جرت على تناول العشاء مرة كل شهر اذ يكون القمر بدراً ، لكي
سهل على اعضائها العودة الى دورهم في ظلام الليل . وكان من اعضائها اراسموس داروين جدّ
اروين العظيم ووط المهندس الاسكتلندي وصانع اول آلة بخارية متقنة . وكانت مباحث
لاعضاء تدور حول موضوعات العلم والادب والسياسة . فلما جاء لندن شعر بألم الوحدة ،
لان معظم اعضاء الجمعية الملكية كانوا يتجنبونهُ لاسباب دينية او سياسية . فاستقال من
لجمعية ، وفي نفسهِ مضض وحرقة . وقد كانت مقاطعتهُ فيها اشبهُ شيءٍ بما فعلتهُ الجمعيات
لكيماوية الالمانية في الحرب الكبرى اذ شطبت من قوائم اعضائها الاجانب اسماء اعظم
لكيماويين البريطانيين . الى هذا الحد يبلغ جنون الناس ، حتى العلماء منهم في ازمنة الشدائد

واذ كانت مقاطعة الاورن الفرنسية تكرم بريستلي ، ابن الصوّاف الانكليزي ، بانتخابهِ
عضواً عنها في الجمعية التأسيسية ، اقام هو قضية على مدينة برمنغهام، طالب فيها بتعويض قدرهُ
اربعة آلاف من الجنيهات . فكتب الملك جورج الثالث الى احد وزرائهِ : « سرّني ان بريستلي
عوقب عن المبادىء والتعاليم التي يذيعها. ولكنني لا اسلّم بالوسائل التي استعملها الجمهور للاعراب
عن احتقارهِ لهُ» وعرضت القضية على المحلّفين ففاز فيها بريستلي، وتفرّغ بعد ذلك للبحث العلمي

القس يصبح عالماً

ولد بريستلي في ١٣ مارس سنة ١٧٣٣ في فيلدهد على مقربة من مدينة ليدز بانكلترا .
وكان والداهُ من اتباع كلفن فاعدَّا ولدهما ليكون قسيساً . فلما تقدَّم للرسامة رفض للآراء التي
اعلنها في موضوع الخطيئة الاولى والعقاب الأبدي . ولكن لما كان بلغ الثانية والعشرين عين
قسيساً لكنيسة صغيرة في صفوك « Sufolk » وجعل مرتبهُ ثلاثين جنيهاً في السنة . وكان
يمقت التعليم . ولكن راتبهُ الضئيل حتم عليهِ ان يعلّم . فكان يدرس في مدرسة بين الساعة
السابعة صباحاً والساعة الرابعة بعد الظهر . وكان يعطي دروساً خاصة بين الساعة الرابعة مساء
والساعة السابعة. ثم في اوقات فراغهِ كان يعنى بوضع كتاب في قواعد اللغة الانكليزية . وكان
ملمّاً بلغات عديدة منها — عدا لغة بلادهِ — الفرنسية والايطالية والالمانية والعربية والسريانية —

فلما عهد اليهِ بعيد ذلك في تدريس اللغات في اكادمية انشأها بعض المنشقين من احرار الدين حضر خطباً في مبادىء الكيمياء ودرس التشريح زمناً وحاول ان يلقي فيهِ سلسلة من المحاضرات
فلما كان في الرابعة والثلاثين من عمرهِ عين قسيساً لكنيسة مِل هِل في مدينة ليدز
هذا الرجل الفقير، المكافح في سبيل العيش المنبوذ من المجتمع لآرائه الدينية، المصاب بعاهة في النطق شبيهة بعاهة ديموستينيس، كان يجد وقتاً بين الاكباب على عمله الديني والتأمل في ما وراء الطبيعة، للنظر في شؤون الدنيا. وفي احدى زياراتهِ لمدينة لندن اجتمع ببنيامين فرنكلن، فحرّك فيهِ هذا الاجتماع شوقاً للبحث في موضوع الكهربائية فعوّل على وضع كتاب في تاريخ الموضوع. فكان ذلك بدء سيرتهِ كعالِم. قال: «وبدا لي في خلال كتابة هذا التاريخ ان احاول تحقيق بعض الاقوال المختلف فيها وهذا قادني رويداً رويداً الى ميدان رحيب من التجارب المبتكرة فلم امسك عن انفاق كل ما استطيعهُ في سبيلها»

مكتشفاته الاولى

يرتدُّ جانب كبير من شهرة بريستلي الى مصنع الجعة الذي كانت على مقربة من دارهِ في ليدز. كان يقضي وقت فراغهِ في هذا المصنع يبحث في فقاقيع الغاز الذي يتولد في اثناء صنع الجعة. فكان يشعل كسراً من الخشب ثم يقربها من فقاقيع هذا الغاز الذي لا لون لهُ، اذ تنفجر فوق براميل الجعة. كان ذلك العمل غريباً في حدّ ذاتهِ. فكيف بهِ اذا صدر من قسٍّ ور[ع] لذلك كان عمال المصنع يهزّون رؤوسهم استغراباً وسخرية اذ يرونهُ مكبّاً فوق البراميل [في] حرّ الصيف الخانق. ولكنهُ لم يحفل بهم. كانت معرفتهُ الكيماوية نزرة. ولكنهُ كا[ن] شديد الملاحظة. فلاحظ ان هذا الغاز يطفىء الكسر الخشبية المشتعلة. فظنَّ انهُ «الهو[اء] الثابت» Fixed air الذي حضّرهُ تاجر الخمور الاسكتلندي جوزف بلاك، قبل ذلك بخمس عشرة سنة، باحماء حجر الجير في خلال بحثهِ عن دواء ناجع في اصداف القواقع، وهي الاصداف التي شفت رئيس وزراء انكلترا، ولبول Walpole من داء النقرس. فهل هذا الغاز الصاعد م[ن] براميل الجعة هو الغاز الذي يخرج من اصداف القواقع ويشفي من النقرس، ولما كان من المتعذ[ر] عليهِ ان يحصل على قدرٍ كافٍ من هذا الغاز في مصنع الجعة حاول ان يحضّره في دارهِ. ثم حاو[ل] ان يحلّهُ في الماء. فوجد ان حلّهُ في الماء ليس بالامر السهل. ولكن قليلاً منهُ يتحد بالماء فيجعلهُ فوّاراً يصعب التفريق بينهُ وبين ماء سلتزر او ماء بريه. وتقدم الى الجمعية الملكية قائباً اعضاءها باكتشاف ما يعرف الآن «بماء الصودا» الذي يشرب مع الوسكي ويحلُّ فيهِ قليل من السكر وحامض الليمون فيصبح «كازوزه». فاعجبت الجمعية بقولهِ، وطلب[ت] اليهِ ان يعيد تجاربهُ امام «كلية الاطباء» فسرَّ بهذه الفرصة التي اتيحت لهُ فاغتنمها، فلما ا[...]

الغاز في الماء طلب الى بعض الحاضرين ان يذوقوا المحلول ، فدهشوا ، واقترحوا على امراء البحرية البريطانية استعماله لمعالجة الاسقربوط . ومنح بريستلي المدالية الذهبية جزاءً له على هذا الاكتشاف

وانكفأ بريستلي الى داره يجرّب تجارب كيماوية اخرى. فحاول ان يحمي ملح الطعام مع زيت الزاج او الحامض الكبريتيك ، فحضّر مركباً كيماويًّا عجز عن تحضيره من سبقهُ في هذه المحاولة . ذلك انهُ جمع الغاز الخارج من هذين المركّبين تحت ناقوس من الزجاج اسفلهُ مغموسٌ في الزئبق . ثم حاول ان يحلّ هذا الغاز في الماء ، فوجد الماء شديد الاتحاد بهِ لذلك عجز عن تحضيرهِ سابقوه . فانهم حاولوا ان يحضروه تحت ناقوس اسفلهُ مغمور بالماء فكان الماء يمتصهُ. ولما حلّهُ بريستلي في الماء اكتشف الحامض الايدروكلوريك المستعمل الآن في صناعة الفراء والجلاتين وفي تنظيف الاواني المعدنية

كذلك تمّ لاحد هواة العلم ان ينفح العالم بمركبين كيماويين من اشهر مركباتهِ المعروفة !

وكانت رعية القس بريستلي تحيّرها عناية راعيها بالانابيب والانابيق . فكأنهُ كان يعبد الهين على مذبحين مختلفين . فارتفعت همسات الاستفهام حتى اصبحت كزمجرة التذمر. ولكن بريستلي كان مشغولاً عن ذلك بمباحثهِ الفتّانة فلم يسمع ما يقال . فانهُ بعد احماء ملح الطعام وزيت الزاج ، تحوّل الى ماء الامونيا يحميهِ ، فخرج منهُ غاز ثالث لا لون لهُ ، فجمعهُ كسابقه تحت ناقوس من الزجاج اسفلهُ مغمور بالزئبق . وكان لهذا الغاز رائحة خاصة حرّيفة. وملأت ابخرة الغاز غرفتهُ وهو مكبٌّ فوق الموقد يذكي النار . فكان في تجاربهِ تلك يستخرج للناس المعارف الدقيقة الاولى عن صفات غاز الامونيا النقي — الذي استعمل في العصر الحديث في صناعة التبريد والتثليج Refrigeration .كانت الابخرة قد احاطت بهِ من كل جهة فاحسّ بحرقة بعينيهِ، وبدموعهِ منهمرة ، وشمّ سكان الدار رائحتها الحريفة ، فغادروا المنزل الى الخلاء . ولكن ذلك لم يزعجهُ . ثم جمع بين غاز الامونيا وغاز كلوريد الايدروجين فدهش لما رأى غيمة رمادية قد تكونت من التقاء الغازين ثم جعلت ترسب مسحوقاً ناعماً ابيض اللون . هنا تفاعل كيماوي عنيف . فالغازان الحريفان قد اتحدا فولدا مسحوقاً ابيض هو كلوريد الامونيا المستعمل في البطريات الكهربائية الجافة

كذلك اتيح للقس بريستلي ، ان ينفح العلم ، في خلال بضع سنوات بطائفة من المكتشفات الخطيرة . وهذا شجعهُ على انفاق كلّ ما يستطيع انفاقهُ من الوقت في معملهِ المرتجل . فآيات الكيمياء ملكت لبّهُ واذ مضى في التبشير بكلمة الله، أخذت دوائر العلم تتسقط انباء القس الكيماوي . وما لبث حتى دعي الى مرافقة الرائد كوك المشهور في رحلتهِ الى البحار الجنوبية فأغرتهُ الدعوة وكان على وشك القبول ، اذ اعترض على ضمهِ الى البعثة قسٌّ آخر، لاختلافهما في الآراء الدينية ، فتخلف بريستلي واتمّ التجربة العظيمة التي اسبغت على اسمهُ ذكراً خالداً

التجربة الكبرى

كان بريستلي في خلال تجاربهِ المختلفة بالغازات قد اصبح بارعاً في تحضيرها وجمعها .فقد كان الباحثون قبلهُ يحاولون جمع الغازات بعد تحضيرها في اكياس شبيهة بكيس البلون.وكانت هذه الطريقة صعبة التناول عقيمة لان مادة الكيس كانت غير شفافة فلا يستطيع الباحث ان يرى بعينهِ ما يحدث داخل الكيس.أما بريستلي فاستنبط الطرق المستعملة الآن.اخذ زجاجة ذات فتحة واسعة وملأها زئبقاً ثم قلبها غامساً فتحتها في حوض من الزئبق . ثم وصل بين مولد الغاز والزجاجة بانبوب حتى اذا تولّد الغاز انتقل في الانبوب ودخل منهُ في فتحة الزجاجة وتجمّع فيها فوق مستوى الزئبق . فاذا كان الغاز لا ينحلُّ في الماء ،استبدل بالزئبق ماء . ففي هذه الناحية من البحث ابدع بريستلي اسلوباً جديداً

وكان بريستلي قد أحمى طائفة منوعةً من الجوامد في لهب اتّونهِ. فحاول بعد ما تقدّم أن يحميها بجمع اشعة الشمس عليها بواسطة عدسة محدّبة .وكان قد جرّب هذه الطريقة فتمكن من حرق الخشب بها . فابتاع عدسة محدبة قطرها قدم وأخذ يستعملها في صبّ اشعة الشمس بواسطتها على جوامد مختلفة . فكان يضع الجسم الذي يريد توجيه الشمس اليهِ في ناقوس من الزجاج والعدسة خارجه لجمع اشعة الشمس عليهِ. ثم وصل بين الناقوس الذي يتضمن الجسم وزجاجة مصنوعة على طريقتهِ لجمع الغاز ،كما تقدم ، بانبوب ،حتى اذا خرج من الجسم الصلب غاز ما تمكن من جمعهِ ودرس خواصهِ

بهذه الطريقة المبتدعة حاول في يوم اول اغسطس (كان يوم احد) سنة ١٧٧٤ أن يستخرج الهواء من مركب يعرف بـ Mercurus Calcinatus Per se وهو مسحوق أحمر كان معروفاً لجابر بن حيان ،باحمائهِ في الهواء فلم يلبث حتى وجد ان الهواء يخرج منهُ بسهولة

ولكن ذلك لم يكن أمراً عجيباً . فالباحثون كانوا قد سبقوهُ الى استخراج الغازات من الجوامد — إك في سلزباخ بالمانيا قبل ٣٠٠ سنة واسطفان هالز الهولندي وروبرت بويل الانكليزي وشيل السويدي — وكلهم كانوا قد سبقوهُ الى استخراج الغازات من الجوامد باحمائها. ولكن بريستلي في عملهِ هذا كان يختلف عن اولئك الروّاد !

كان على مقربة من بريستلي في معمله شمعة مضاءة . فلما تجمع لديهِ قليل من الغاز سأل نفسهُ : « ترى اي اثرٍ لهذا الغاز في لهيب الشمعة ؟ » وللاجابة عنهُ اخذ الشمعة ووضعها داخل الناقوس الزجاجي الذي يحتوي على الغاز . فلم تنطفىء الشمعة . بل على الضد من ذلك تألقت ولمعت . فسرَّ بما رأى ولكنهُ تحيَّر في تعليلهِ . وأخذ جمرةً من الفحم ووضعها في الناقوس فرآها تتطاير شرراً . وبعد قليل رأى الجمرة قد تلاشت ،فدهش . ثم اخذ سلكاً

من الحديد وأحماه حتى درجة الحمرة وأدخله في الناقوس فتألق السلك كأن بهِ روحاً تنفخ فيهِ. فكاد لدهشته لا يدري انائم هو او مستيقظ

ان ادخال تلك الشمعة المضاءة في ناقوس الغاز ، كان ايذاناً بانقلاب عظيم في علم الكيمياء . ولكن بريستلي حينئذٍ ما كان يدري طبيعة « الهواء » الذي اخرج من ملح الذئبق . وكان من اتباع مذهب « الفلوجستن » فحسب ان ذلك « الهواء » ليس الاّ مركباً من الفلوجستن والتراب والحامض النتريك — ولكن ذلك « الهواء » كان غاز عنصر الاكسجين، الذي لا مندوحة عنهُ لكل حيٍّ على سطح الارض

كان الهواء الذي نتنفسهُ ، في رأي علماء ذلك العصر ، مادة بسيطة ، او عنصراً من العناصر ، كالذهب والذئبق . وكان بريستلي قد تخيَّل ان البراكين قد ولّدت الهواء بنفثها غازات كانت قابلة للالتهاب في البدء ثمَّ فقدت قابليتها للالتهاب بفعل الماء ثم تنقت وتصفت بفعل النباتات . وخلص من ذلك الى القول بأن عالم النبات هو وسيلة الطبيعة لتنقية الهواء. ذلك انهُ اذا وضعت نباتاً في غرفة مقفلة فسد جوّها بتنفس الحيوان والانسان او باضاءة شموع فيها ولا يلبث هواء الغرفة حتى يصبح صالحاً للتنفس .وعلّل هذه المشاهدة الصائبة بقوله ان الفلوجستن اذا اضيف الى الهواء باضاءة الشمعة او بتنفس الحيوان امتصتهُ النباتات فتنتقى الهواء . على ان الطبيب دانيال رذرفورد ، الذي كان يشغل منصب استاذ النبات في جامعة ادنبره ، في ذلك العصر ، اكتشف مادتين من مواد الهواء وتمكن من ان يستخرج من الهواء مقداراً من الحامض الكربونيك، بجعل ماء الجير ان يمتصهُ فتحول من ماءٍ صاف الى سائل لبني — والتعليل الكيمائي لذلك ان اكسيد الكربون الثاني يتحد بالجير فيولد كربونات الجير وهي راسب ابيض ناعم يجعل السائل لبنيًّا — ثم وضع حيواناً في غرفة محكمة القفل وجعله يتنفس فيها بعد استخراج اكسيد الكربون الثاني منهُ، فوجد ان ما يبقى من الهواء نحو اربعة اخماسهِ وهو غاز لا فعل كيمائي له. هذا الغاز اطلق عليهِ شابتال Chaptal اسم نتروجين لوجوده في النترات . وكان بريستلي قد قرأ عن هذه التجارب فاحمى قطعة من الرصاص في الهواء وجلس يراقبها وهي تحمرُّ رويداً رويداً فتحوّلت الى مسحوق احمر فعالجهُ كما عالج ملح الزئبق من قبل . فقفز فرحاً اذ بدت له النتيجة . ذلك ان الغاز الذي خرج من ملح الزئبق خرج كذلك من ملح الرصاص . فتأكد الظن الذي كان يخالجهُ وهو ان هذا الغاز — الاكسجين كما دعي بعدئذ — الذي خرج من الملحين انما جاء اولاً من الهواء

الاكسجين والحياة

وفي ٨ مارس سنة ١٧٧٥ بدأ هذا القس الحرُّ المفتون بالبحث العلمي تجربة غريبة في قصر لورد شلبرن Shelburne في بوود Bowood . كان في الليلة السابقة قد نصب للفئران اشراكا

يستطيع ان يستخرجها منها حيّة . ولكن اي شأن لمعلم العقول ومهذّب النفوس بالفئران ! انهُ يرى فيها جلاء السرّ الغامض الذي يحيّر لبّهُ . ثم اخذ وعاءين زجاجيين متماثلين ووضع في احدهما الغاز الخارج من الزئبق والرصاص — الاكسجين — وفي الاخرى الهواء العاديّ ثم وضعهما في اناءين من الماء بحيث يغمر الماءُ حافتيهما السفليين. وفي اليوم التالي امسك باحد الفئران من عنقهِ وادخلهُ في الوعاء المحتوي على الهواء ووضعهُ على منصةٍ مرتفعة فوق الماء حتى لا يغرق .واخذ فأراً آخر ووضعهُ بالطريقة نفسها في الوعاء المحتوي على الاكسجين

وجلس بريستلي على كرسي امام الوعاءين ، يعزف بالمزمار وهو يراقب الفأرين في داخل الوعاءين من دون ان يعلم الى متى يدوم انتظاره . ولكنهُ وقف عن العزف فجأة اذ رأى الفأر الذي في الوعاء المحتوي على الهواء قد بدا عليهِ الضعف والاعياء. فرمى المزمار جانباً واخذ ساعتهُ بيدهِ فلم يمضِ ربع ساعة حتى سكن الفأر بعد ما فقد الشعور . فاسرع بريستلي واخرجهُ من الوعاء ولكن الامر كان قد قضي وانطفأت شعلة الحياة في الفأر . فالتفت حينئذٍ الى الفأر الآخر في الوعاء المحتوي على الاكسجين . فاذا هو لا يزال يتحرك تحركاً طبيعيًّا وليس يبدو عليهِ اي امارة من امارات الاعياء . ومضت عشر دقائق وبريستلي يلازمهُ بنظرهِ . لقد بدت علامات الضعف عليهِ ، فهو خامل بطيء الحركة . فيسرع اليهِ بريستلي ويخرجهُ منه وهو يحسبهُ ميتاً . ولكن قلبهُ لا يزال ينبض نبضاً ضعيفاً . فيقربهُ من النار ليدفىء جسمه البارد فلا تنقضي بضع دقائق حتى تعود الحياة تدبُّ في عروقهُ . فيطير بريستلي فرحاً ودهشة . فالفأر الثاني قضى في الوعاء نصف ساعةٍ قبلما بدت عليهِ اعراض الاعياء في حين ان الاول مات في نحو ربع ساعة

ما تعليل ذلك ، فهل الاكسجين انقى من الهواء العاديّ ، او هل يحتوي الهواء العاديُّ على مادة قاتلة للحياة . او لعلَّ ما حدث اتفاق لا يجوز الحكم عليهِ ؟ لم يغمض لبريستلي في تلك الليلة جفنٌ ، وهو يفكر في مسألة الفأرين والاكسجين . وخلص الى وجوب اعادة التجارب ليتثبت من صحة ما رأى وانهُ عام شامل للفئران جميعاً . وهذه التجارب اقنعتهُ بنقاء الاكسجين وفائدتهِ . ولو شاء لوقف في تجاربهِ عند هذا الحدّ . ولكنهُ كان عالماً مطبوعاً فعزم ان يجري التجربة نفسها عليهِ . فاستنشق قليلاً من الاكسجين فاحسَّ ان تنفسهُ خفيف . قال : شعرت ان تنفسي ظلَّ خفيفاً برهة بعد التجربة . ومن يدري ان هذا الهواء النقيَّ لا يصبح في المستقبل من المواد الكمالية المطلوبة فلم يجربهُ حتى الآن احد غيري وغير الفئران». كذلك رأى بريستلي حينئذٍ بعين الخيال استعمال هذا « الهواء النقيّ » قال : « وقد يثبت ان الرئتين تحتاجان اليهِ في بعض الامراض » ونحن نعلم الآن ان الاكسجين يستعمل في اصابات النزلة الصدرية اذ يحتقن جانب من الرئتين ويصبح ما بقيَ منها سليماً، غير

كاف لحاجة التنفس . ثم ان رجال مكافحة الحريق حيث تكثر الغازات الخانقة وطوائف رجال الانقاذ الذين يدخلون المناجم ، والطيارين الذين يحلقون الى مرتفعات قصية ، يحملون اسطوانات تحتوي على غاز الاكسجين لاستعماله لدى الحاجة اليهِ

رأى بريستلي هذا قبل قرن ونصف قرن . ولكنهُ رأى كذلك ان استعمال الاكسجين بدلاً من الهواء ، من دون ضابط قد يفضي الى الخطر قال ، ما معناهُ : كما تحترق الشمعة في الاكسجين اسرع مما تحترق في الهواء كذلك اذا تنشقنا الاكسجين بدلاً من الهواء فقد تنقضي حياتنا اسرع مما تنقضي لو تنشقنا الهواء وحدهُ

ومضى المكتشف في امتحان نقاوة الغاز الذي اكتشفهُ .فخطر لهُ في اثناء ذلك خاطر عمليٌّ اذ رأى في استعمال الاكسجين وسيلة لزيادة قوة النار بجعل الوقود تشتعل بالاكسجين بدلاً من ان تشتعل بالهواء .وجرّب هذه التجربة بمشهد من صديقه مجلان سليل الرائد المشهور . اذ اخذ كيساً من الرقّ وملأهُ اكسجيناً ثم جعل يضغط على الكيس فيخرج الاكسجين من فتحته ويهبُّ فوق قطعة مشتعلة من الخشب . فيتحول لهيبها الضئيل الى لهيب متأجج . في هذه التجربة جرثومة الاستنباط الحديث الذي يستعمل في لحام الفلزات . وفي هذا السبيل فقط يستعمل الف مليون قدم مكعبة من الاكسجين كلَّ سنة

***

كان لورد شلبورن قد منح بريستلي معاشاً سنويًّا قدره ٢٥٠ جنيهاً وبيتاً صيفيًّا في كالن وآخر شتويًّا في لندن على ان يبقى ملازماً لهُ مديراً لمكتبه ورفيقاً ادبيًّا لهُ . ودامت هذه الصلة ثماني سنوات اتمَّ بريستلي في خلالها اهم تجاربهِ . فلما سافر لورد شلبورن لزيارة بلدان اوربا صحبه بريستلي وفي باريس عرّفهُ مجلان بلافوازيه اشهر كيماويي فرنسا . وفي معمل لافوازيه بسط بريستلي امام جماعة من الفلاسفة الطبيعيين اشهر النتائج التي وصل اليها . واذ كان يتناول طعام العشاء مع لافوازيه لم يخفِ شيئاً عنهُ وهو لا يدري حينئذ الى اي انقلاب في الكيمياء سوف تفضي هذه الحقائق على يد مضيفهِ . فاصغى لافوازيه الى كل كلمة قالها ولما خرج الانكليزي اسرع الفرنسي الى معملهِ ، واشعل ناره واعاد تجارب القسيس العالم

كان الصينيون قد ذكروا شيئاً في الهواء يدعى « ين » يتحد بالكبريت وبعض الفلزات وكان ليوناردو ده فنشي ذلك العبقري الايطالي المتعدد النواحي قد كتب في القرن الخامس عشر ان الهواء مركب من مادتين . ولكن بريستلي استخرج بسحر كيميائهِ الاكسجين الذي لا يرى من الهواء ، وبذلك كان اول من حلَّ مشكلة تركيب الهواء حلاً علميًّا ، واثبت وجود اكثر العناصر وجوداً في الارض وما عليها . ان مشكلة تركيب الهواء ، حالت دون تقدمُّ الكيمياء قروناً فحلّها هذا الرجل الذي يتمثل فيهِ النشاط العقلي في عصرهِ . في نظر

هذا الثائر على الكنيسة المؤيد للاحرار . كانت الكيمياء عندهُ تسلية لتمضية اوقات الفراغ. فقادتهُ هذه التسلية الى حل مشكلة من اعقد مشكلات الكيمياء والكيمياء الحديثة في مهدها

كان اكتشاف بريستلي للاكسجين حدًّا من الحدود الفاصلة في تاريخ الكيمياء

في اول اغسطس سنة ١٨٧٤ احتفل بمدينة برمنغهام بانقضاء مائة سنة على هذا الاكتشاف العظيم فازيح الستار عن تمثال بريستلي . وعلى نحو ثلاثة آلاف ميل من برمنغهام اجتمعت طائفة من الكيماويين الاميركيين في مقبرة ببلدة نورثمبرلند بولاية بنسلفانيا وارسلت برقية من هناك الى المحتفلين ببرمنغهام . ذلك ان بريستلي مات ودفن في اميركا !

هجر بلادهُ لانهُ عاد في آخر حياتهِ لا يطيق المعيشة فيها . فالصحافة كانت تكيل لهُ الطعن وبرك الخطيب والكاتب السياسي تهجَّم عليهِ في مجلس العموم لانهُ أيَّد قضية الجمهورية الفرنسية ثم جعل اصدقاؤهُ في العلم يتجنبونهُ . ففضل وهو في الستين من العمر الهجرة الى اميركا . فدخل نيويورك دخول فاتح عظيم .واستقبلهُ في مرفأها حاكم الولاية ومندوب جامعة كولومبيا . وارسلت اليهِ جمعية تاماني السياسية بعثة قال خطيبها في ترحيبهِ « ان اسلافنا الاكارم هجروا كما هجرتَ فراراً من اضطهاد التعصّب والاستبداد .لقد فررت من ذراع العنف الغاشمة ، من لهب التعصب ، وسوف تجد ملجأ في صدر الحرية والسلام والاميركيين ».وقد اكرمتهُ اميركا امة وافراداً فدعاهُ فرنكلن للاقامة في فيلادلفيا وطلبت اليهِ جامعة بنسلفانيا ان يتولى منصب استاذ الكيمياء فيها . ولكنهُ فضل حياة السكينة في بلدة نورثمبرلند ولم يغادرها الا ليقرأ بعض رسائله العلمية في الجمعية الاميركية الفلسفية بفيلادلفيا ويتناول الشاي مع جورج وشنطون . وفي آخر سنة ١٧٩٧ تمَّ بناء معمله الخاص بالتجارب الكيميائية وفيهِ اكتشف غاز اكسيد الكربون الاول

***

في الساعة الثامنة من يوم الاثنين في ٦ فبراير سنة ١٨٠٤ كان القس الشيخ في سريرهِ وهو يعلم ان حتفهُ قد دنا . فطلب ثلاث رسائل كان قد اشتغل باعدادها ، فاعاد النظر فيها واملى على كاتبهِ ما يريدهُ من التعديل فيها . ثم طلب اليهِ ان يعيد ما طلبهُ منهُ ففعل فتجهَّم وجههُ قليلاً وقال: «لقد كتبتَ ما امليتهُ عليك باسلوبك . وانا اريدهُ باسلوبي » ثم اعاد تعليماتهِ كلمة كلمةً فلما قرئت عليهِ ثانية اكتفى وقال « انهيت الآن » وبعد نصف ساعة اسلم الروح

ولقد احتفل كيماويو اميركا مذ بضع سنوات بجعل دارهِ في نورثمبرلند تذكاراً دائماً لهذا الرجل العظيم .واقاموا الى جانبهِ متحفاً جمعوا فيهِ كل الادوات التي استعملها في تجاربهِ .وبينها احد الاوعية الزجاجية التي استعملها في تجربة الفئران ، فحلَّ بذلك مشكلة تركيب الهواء وكتب اسمهُ بين الخالدين من رجال الكيمياء

الصحراء

لاحمد محمد حسنين بك

افتتح المجمع المصري للثقافة العلمية مؤتمره السنوي الرابع في ١٢ مارس برآسة احمد محمد حسنين بك الرحالة المصري المشهور والامين الاول لحضرة صاحب الجلالة الملك فالقى محاضرة نفيسة في الصحراء آثرنا نشرها في ما يلي :

سادتي : طلب اليَّ ان اتكلم في بحث علمي . والبحث العلمي الوحيد الذي اظنني استطيع أن أتكلم فيهِ هو الصحراء . لكن الجانب العلمي والفني في الصحراء ضمنتهُ كتابي ، فلا محل لاعادتهِ .. ولما كان في قوانين هذا المجمع الموقر ان عضوه يجب ان يلقي كل سنتين محاضرة ما والاَّ فامامهُ الباب مفتوح، ولما كنت احرص غاية الحرص على بقاء عضويتي فيهِ، لذلك لم يسعني الاَّ ان اتحدث اليكم في جانب غير علمي من جوانب الصحراء: وشيء اهون من شيء على اي حال

فكرت اذن في ان اتحدث اليكم عن الناحية النفسية لرحالة اعتزم القيام برحلة صحراوية طويلة من اجل الكشف . فبينما هو يقوم برحلتهِ العلمية اذا بهِ يقوم — في وقت واحد برحلة نفسية . ولرحلة النفس كما لرحلة العلم مراحل ، وتلك هي التي احاول ان احدثكم عنها

سادتي : ان شق الصحراء شيء صعب. وكشف مجاهلها شيء اصعب. يعلم الرحالة هذا كله فلنر اذن ما هو صانع . ها هوذا في شغل شاغل يفكر ويكتب ويعمل. يفكر في النواحي الكثيرة التي تستلزمها احتياجاته العديدة، في رحلة تستغرق بضعة شهور ينقطع فيها عن هذا العالم المدني الذي نعيش فيهِ . ويدوّن كلَّ ما ينتهي اليهِ من المعارف عن جانب مجهول من جوانب الصحراء . ثم يأخذ في جمع ما يعوزهُ من زاد وشراب ومتاع . وهو حاضر الذهن . يقدر لكل شيء سببهُ . فهو يحرص على ان تكون عدته جميعاً في نحو بسيط ، كثير النفع ، هين الحمل . يجمع طعامه ، الضروري منهُ والكمالي، لا يفوتهُ ان يختزن حتى بضعة صناديق من الحلوى . فتلك الكماليات الشهية لا يستطيع ان يجدها في الصحراء . فاذا توفرت له كانت سبباً من اسباب رغده . يجمع عناصر فنه : ادوات الهندسة والمقاييس والرصد والحساب. تلك العناصر العلمية التي يعتمد في نجاحه على متانة بنائها ، ودقة ادائها لوظائفها . يعد الماء الكثير . ينتقي الابل الشداد . يختار الرجال البواسل ، ولاسيما الدليل ، فهو مصباح القافلة . يمتحن الخيام

المريحة . ما اشده زهواً بخيمتهِ الظريفة.هي بيت العلم والقوة والفن . يهيئ ادوات الدفاع عن النفس ، وصد غارة المغيرين . فهذه بنادق صائبة المرمى . ومسدسات دقيقة الصنع . وهذا رصاص يأكل الاحشاء . وهذه سيوف قاطعة لوامع وخناجر تخرق الصخر . يضيف الى ذلك كله ما يعوزه من الادوية الناجعة ، التي يسهل استعمالها ويصدق اثرها ، ولا سيما ما يختص منها بامراض المناطق الحارة ، وما يشكو منهُ اهل الصحراء

ترون الآن ان رحالتنا اعدَّ عدَّتهُ جميعاً . وها نحن اولاء نراه يتخيل ويخال . يستعرض في ذهنهِ صوراً حساناً . فساعة يرى صورة تلك القافلة الزاخرة ، وهي تشق سبيلها الرملي ، فتانة المظهر ، متزنة الخطى ، يعابث نسيم الصحراء الراقص ما يزينها من رحال دقت جلودها ونسيج رق حريره . وساعة يرى صورة « معسكره » وقد استقرَّ بهِ النوى .فضربت خيامه، ومرح رجاله ،وهو تحت سماء خيمته البديعة يكتب مذكراته ، او يفكر في غده ، او ينعم مما حمل بما لذ وطاب ، او يتحكم في الزمن بين ساعاته العديدة التي بين يديه. يا لهُ من حلم سحري. انهُ ينفق غاية ما يستطيع من جهد ليستكمل عظمة هذا الخيال الذهبي . لتكون قافلته مثلاً اعلى لغيرها من القوافل . وليكون هو مثلاً اعلى لسواه من المستكشفين . ولم لا يصح ذلك وقد تزود من المادة بخير زاد واصلحه . لقد استقرَّ سلاحه المادي في يمينهِ ، فليأتين النجاح اذن عن شماله . أليس هذا منطقاً . كل شيء قد كمل وحسن . اما الطعام، فقد تزوَّد منهُ بقدر كثير . اما الماء فقد ملأ بهِ قرباً متينة عدة ، لن تنزَّ منها قطرة ماء . اما الدليل ، فقد وفق الى رائد بدوي امين ، يقظ كالصقر ، خبير بالبيد كالحمامة ، لا تخطىء الى صاحبها السبيل . اما الابل فصفها الطويل منتظم ، تتسمع اذن المسير فتسير . اما الرجال ، فطائعون ، دماؤهم ملك لسيدهم وفداء . اما خيامه فرحبة ، مزودة باسباب الراحة . اذا نصبت في الصحراء ، فهي راسخة كالجبل لا ينال منها عصف الرياح . اما آلاته التي يعرف بها اسرار السماء والارض فهي خير نتاج الذهن البشري في القرن العشرين . لم يعد يعوزهُ اذن شيء . لقد حرص رحالتنا على ان يحمل معهُ حتى لباس بدوي انيق . كم اتعبهُ التأنق فيهِ . لقد صنعهُ من الحرير الاخاذ .طرزه ابدع تطريز . وشاه باجمل وشي اختار لهُ خنجراً فضيّاً . يفتن بني الصحراء . كان يتزين بهذا اللباس اذا اختلى بنفسه وكان يغدو فيهِ امام المرآة ويروح.هذا هو المظهر الذي يطالع به رؤساء القبائل.ولسوف يأتونهُ ساجدين.فهو كيّس، يجيد فن السياسة.ولقد حمل معهُ عدة كتب توصية الى مشايخ القبائل ورؤساء العشائر،فهو من هذه الناحية يستطيع ان يجذبهم اليهِ ويغريهم بمبايعته سيداً مطاعاً على اهل الصحراء اجمعين . فاذا لم تجدِ السياسة ، ولا حسن القول ولا كتب التوصية فما اهون عليهِ ان يستعبدهم قسراً ، فهو يلقي في قلوبهم الرعب بما جمع من سلاح ، او ليس يحمل من السلاح ما يجهلون . وما لا يستطيعون ان يأتوا بمثله اليس

معه جنده وهم اشداء . او ليس هو ايضاً شجاعاً مقداماً . لقد امن واطمأن . اذا أصابهُ ضر عرف كيف يدفعهُ، او مسهُ شر استطاع ان ينجو منهُ. والضر والشر لن يعرفا اليه سبيلاً، فهو يقظ حريص يقدّر لرجله قبل الخطو موضعهـا . لم يعد اذن في الصحراء ما يخشـاهُ . تلاحظون في رحالتـكم الآن ثلاثة جوانب نفسية غلبتهُ وتمكنت منهُ

اولاً — ايمانه المطلق بقوة المادة

ثانياً — حرصه على ان يستعين بهذه القوة قدر ما يستطيع

ثالثاً — ضمانه النجاح العظيم من هذه الطريق

وهكذا ترون ان صاحبكم يحاول ان يفنى في سلطان المادة ، او ان يفني سلطان المادة فيه. فالمادة شغله وهمه . مازج اثرها تفكيره . هفا لها قلبه . انتعشت بها نفسه . تأثر بالمادة كل شيء فيه . تأثرت حتى مشاعره وحواسه . تأثرت حتى هواجسه وخواطره . تأثر حتى ذوقه ومزاجه . فبدا مظهر هذا الاثر جلياً في كل خطوة من خطواته ، وشارة من شاراته ، وكلمة من كلماته . هيمنت المادة على ذاته المعنوية جميعاً . ما الصحراء سوى شيء مادي . فلن يكون غزوها بغير سلاح مادي . ولقد اختار لهذا الغزو سلاحاً ماضياً ، يغري شكله بالوثوب ، ومقبضهُ بالطعن ، وحدّه بوجوب النصر المبين. ما اروع ان يكون اذن فوق بسيط الرمل. تمَّ كل شيء. لقد أصبح رب البيد ، وسيد الصحراء

ما اشد رحالتكم زهواً بنفسه . لقد تجمع رجاله حوله خاشعين . وها هو ذا يأخذ بالقلم ، وينعم النظر في خريطة صامتة بيضاء . تترجم في صمتها وبياضها عن تلك الناحية المجهولة التي لم تطأها قدم انسان بعد . على هذه الخريطة يرسم الرحالة خط سيره، بيد مطمئنة ثابتة . ماذا في نفس الرحالة . انه يهزأ بما اصاب زملاءه السابقين من فشل . اما هو فناجح من غير شك. أتستطيع الصحراء بعد اعداد هذه العدة كلها ان تعترض سبيله . او تجرؤ البيد ان تناهض المادة من جانب ، والعزم والعلم من جانب آخر ؟ الا ليت الصحراء تعقل ؟ اذن لعلمت ان هذا الرائد الجبار قد اعتزم واحدة من اثنتين . اما ان يذلها ويدرك غايته ، وأما ان يجود لها بنفسه، فيخولها بذلك نعمة اتساعها لعظامه، ونخر قبولها اياه هدية خالدة. وفي ذلك شرف للصحراء عظيم

في هذه المظاهرة النفسية المتصلفة ، ، وعن هذه العوامل الباطنية الوثابة ، يرسم الرحالة خط طوافه ، وهو مأخوذ بنشوة نصر لا ريب فيه

سادتي: رحالتكم الآن في بداية الطريق ، ما اروع المنظر وابهجه. انه يرى بين يديه شيئاً عجباً. يرى تلك القافلة التي كانت منذ أسابيع حلماً ذهبيـاً، اصبحت اليوم امراً واقعيـاً. قافلة زاخرة ، تسعى الى غاية ، وتمشي على هدى. كل شيء وفق المنهج الذي رسمه . السير هين . والرمل لين. والصحراء مهاد . والابل تخبُّ آمنة . وأحمالها في حرز مكين . ورجاله يطيعونه طاعة المولى

لسيده . اليس له اذن ان يشمخ بانفه ، كأنه خرق الارض او بلغ الجبال طولاً

الا ما اجمل الصحراء . وأنعم ملمسها . ما أيسر مسحها . ما ألذ اللعب عليها . ذات الغلائل اللانهائية الصفراء

انها صبية طيّعة . ظبية الوف . فرعها من ورد . جيدها من ذهب . جبينها من نور . النظرة اليها تسبي العينين . المشي عليها يأخذ بالألباب . حياتها موسيقى وشعر . سماؤها اغان وأحلام . الاقامة فيها كالاقامة في روضة غناء . راضية قنوع . لا تردُّ قاصداً . لا تخيب ظنّا . ان صددت اقبلت . وان أقبلت لانت . ضعيفة ذات خفر . في صوتها حنان . في رقتها لذة . في ملاحتها فتنة . في اغرائها خمرة تسكر العاشقين

هذه اذن هي الصحراء . فلئن لم يجبْه النجاح يسعى فلينتزعنَّهُ من مخبئه انتزاعاً

وهكذا يقوى اعتزاز رحالتكم بالمادة ، ويشتد شعوره بنفسه ، وينمو يقينه في الصحراء. انه ليسير كل يوم بضع ساعات في جو مرح . ولذلك فهو مستبشر طروب

أتمّ رحالتنا مرحلته الاولى . وقد بدأ الآن يغشى « السريرة » . والسريرة هي ذلك الشيء المجهول ذو السر الدفين . انه اصطلاح البدو على كل مدى منبسط بين بئر وبئر . وقدره غالباً من خمسة وستة ايام الى اثنى عشر يوماً او تزيد . فمذ يأخذ الرحالة في رود هـذه المنطقة الموحشة يأخذ في اجتياز مرحلته الثانية . يقضي صاحبنا اول يوم من أيام هذه المرحلة . هو يوم مشهود . يوم حافل سعيد . بلغ فيه الزهو بنفسه غايته . هو في ضحى هذا اليوم اشد خيلاء بنفسه من قبل . اذ انقطعت صلته بالعالم الخارجي . واستهلَّ الشوط الهام من رحلته . ذلك الشوط المجهول الذي لم يسبقه اليه احد . القافلة تسير هانئة . ورحالتنا منشرح الصدر . لقد آمن بيسر الصحراء . فهو يتكبر ويتغنى . فبين يديه مادة قوية غلابة . وتحت قدميه مركب مهين ذلول . اترون الآن اليه وهو يسخر . هذي هي البيد التي وصفوها بانها طاغية . هذي هي الرمال التي زعموا انها آبار الموت . هذي هي الصحراء التي قالوا انها شائكة السبل . ما افكه طوافها . انها مغان ، ومراقص ، ورياض انس ولهو وجمال

فاذا انتهى صاحبنا من سخره بالصحراء بدأ يفكر في شأن رواد الصحراء . فكرة تهتف بفكرة . وخاطر ينادي خاطراً . امتلأ رأسه بالخواطر ، وفاض بالافكار . هو مشغول بأمر زملائه الفاشلين . يلذُّ له كثيراً ان يذكرهم ، ويستعرض سيرهم ، ويحاول ان يقضي فيهم قضاء الحق . انهم من قبل ومن بعد ، عجزة ضعاف . انهم ، اولاً وآخراً ، ضحايا العجز والضعف . فاذا انتهى بهم الى هذا الحظ التعس . وقضى فيهم ذلك القضاء الاليم ، شعر بشيء من راحة النفس ، ونمت عيناه بشيء من العجب . صحيح انه يرثي لهم . لكنه في شعوره بذلك يملكه شعور آخر اشدُّ منه عنفاً ، ذلك هو شعور الدلّ والتجني . ولعل هذا الشعور الآن هو

مبعث تلك الابتسامة الراقصة على شفتيه . هي ابتسامة سخر ، فيها تيه ، وفيها اعتداد كبير بالنفس . غير انه لزام عليه — على اي حال — ان يستخلص من هذه النواحي جميعاً نتيجة، يرتب لها اثرها بنفسه ومنطقه ، كما مهد لها اسبابها بنفسه ومنطقه . وها هو ذا يذهب، كأنه متشرع الى ان يقرر ان طريق الفشل وأثره ، انما سرُّهما في ضعف المادة، او في عدم استكمال عدتها كما يجب ان تستكمل لرحلة الصحراء. فلئن ضلَّ في الصحراء جوّاب، او فشل مستكشف، فذلك فقط لقلة خبرته بزاد طوافها المادي. ولئن كان اولئك الجوّابون الضالّون، والمستكشفون الفاشلون ، قد تزودوا بمثل زاده، لما ضلَّ ممن ضلَّ احد ، او فشل ممن فشل احد

قضى صاحبكم ست ساعات وهو يسير . ما زال يجد نفسه حتى لكأنَّ هذا الفضاء على رحبه يكاد لا يسعه ، وكأن الارض لا تحمل سواه . وقد اعتزم ان يسير اليوم كله على قدميه، ليلقي بذلك على رجاله درساً مجيداً في الصبر والجلد ، وما الى ذلك من صفات البطولة . غير ان مفاجأة لم يكن ليحسب لها حساباً قد حولته من طريق الى طريق . فعبثاً حاول ان يمضي في السير على قدميه . فقد اوجعهما النعل البدوي . ذلك النعل الخشن الذي لم يألفه من قبل. تسرَّب الى نفسه شيء من الضيق . فقد ادمى النعل قدميه . او اصابتهما منه ثغور . ليمتطِ اذن جمله . بدأ يتأفف . لا يلبث بعد حين ان يملَّ ظهر الجمل . ما اقبح المطيّ . احبُّ اليه ان يسير على قدميه الداميتين من ان يظل فوق جمل بطيء يمشي بسرعة اربعة كيلو مترات في الساعة . يجيء وقت الغداء . فيكون غداؤه البلح الجاف ، كالحشف البالي . لا طهي اذن ولا شواء اذ لا سبيل الى ذلك والركب يسير . ثم انهُ من تقاليد القافلة ان ناسها جميعاً يأكلون صنفاً واحداً ، لا فرق فيهم بين سيد ومسود او كبير وصغير . البلح الجاف اذن ، هو طعامه السائغ الشهي . يندُّ جمل فيختلُّ نظام القافلة ، وتصعب اعادتها الى سيرتها الاولى . تندُّ جمال أخر فتقذف ما عليها ويسوء الامر . فمن صناديق تتهشم ، الى زاد يتلف ، الى جهد كبير ينفق في سبيل لم الشعث من جديد . يتخابط جملان، فتصطك القرب بعضها ببعض. تتمزق جلودها. ويضيع من الماء شيء كثير . وهو اعزُّ ما يحرص عليه من زاد. يمر غمام ويحجب نور الشمس، فيسقط في يد الدليل. نرى رحالتنا لا يأنس لهذه المظاهر . قلَّ ابتسامه ، وساد الركب سكون، لكن هذا كله شيءٌ يصح ان يحتمل. هو مناوشة من الصحراء بسيطة فليتفلسف الرحالة ، وليحاول ان يتقبل هذه المناوشة بقبول حسن

تفجأه عاصفة . مناوشة اخرى . ولكن ماذا تستطيع العاصفة ان تفعل . انها تفكك وحدة الركب ، وتعوق السير ، وتعطل ادوات فنه ، وتتعب رجاله ، وتنال من ابله : هذا كل ما تستطيع العاصفة ان تفعل . وهذا كله يمكن ان يعالج . صحيح انهُ امر سيء ، غير انهُ ميسور على اي حال في سبيل المجد اليست تكاليف العلا شاقة متعبة

الم تر ان المجد تلقاك دونهُ شدائد من امثالها وجب الرعب

ولئن جابهتهُ الصحراء بتلك المشقات الشداد فهو اهل لمقاومتها ، والاستظهار عليها

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والاقدام قتال

وانّي لهذه الصعاب ان تنال من نفسه وقد هيأها لانتزاع المجد وان استعصى سبيله وعزّ مهره

ذريني انل ما لا ينال من العلا فسهل العلا في السهل والصعب في الصعب

نرى رحالتنا يكثر من الفلسفة .هو في نزاع بين قلبه وعقله.وهو من أثر هذا النزاع غير مستقرّ .فساعة يحس قلبهُ شرًّا ، وساعة يقدر عقله خيراً.ولذلك فهو حيناً قلق،وحيناً مطمئن

يلقي الرحالة عصاه . فتزأر بهِ عاصفة من جديد . عاصفة تملأ الفضاء ، زاحفة كانما تريد ان تنسف الارض ومن عليها . صوتها يشيب الولدان كانهُ صوت الفناء . ماذا تفعل العاصفة في هذه المرة . . تقوض خيامه ، تهشم بعض ادواته العزيزة التي يعرف بها اسرار السماء . اما ابله ، فقد نفق اقواها، وهو لا يدري لهذا سبباً . اما ماؤه فقد ذهب اكثره ، لامور لم تكن في الحسبان . أما دليله وليد البيد ، ابن الصحراء ، العليم بأسرارها ، الخبير بمسالكها، مصباح القافلة ، ذراع الرحالة الايمن ، أما دليلهُ هذا : فقد جحظت عيناه . ملأه الهلع .ليس امامه سوى الفسيح الموحش الرملي.ليس امامه علم يهديه ، ولا صوى يسترشد بها في طريقه. اذا قيل له اين نحن . . هز كتفيه ، وقال بصوت محتبس ، « الله اعلم » .واذا قيل له الى اين اشاح بوجههِ ؛ وقال في لهجة حيرى « الله اعلم». فكاهة في الحق غير مناسبة

رب عاصفة يقل عمرها عن ثلث ساعة ، تسقط على رأسهِ خيمته الظريفة ، فتحطمها وتكاد ان تحطمه . رب ميل قليل عن خط سيره ينتهي به الى فاجعة اليمة . قد يخونه رجاله فيتمردون عليهِ ، او يأتمرون به ، فيسوء المصير

قد لا تتألب عليه هذه النوائب جميعاً في يوم واحد . ولكنهُ على اي حال هدف شرها بين يوم ويوم ، او اسبوع واسبوع . والآن فاين رحالتنا . واين عدده . اما هو فتعبث به اكفُّ الصحراء . واما هي فقد ذابت بين يديه . كل شيء نذير شؤم .في عواء الريح وعيد بسوء المآب . في صفير العاصفة صور متباينة للردى . فهو كيفما ادار لحاظه لا يجد امامه الا الموت او الفشل وليس له معدى عن مجابهة احدها . اما الموت فباسط يده ، يريد ان يختطفه ، او فاغر فاه ، يريد ان يبتلعه . واما الفشل فصخرة عبوس، تحطمت عليها مطامعه ، مسخ ساخر يمثل له عودته مطرق الرأس ، يحاول ان يتجنب الناس او يتجنبه الناس . مسخ ساخر يمثل له الشماتة به ، او الضحك منه ، او العطف عليه ... شياطين الموت ترقص حوله . اشباح الفشل تسعى اليه . الموت او الفشل ... ليختر اذن منهما ما يشاء . وهما أمران احلاهما مرٌّ . وطريقان اهونهما جمر . وقد يكون للموت احلى الامرين مذاقاً . وقد يكون الجمر ابهج الطريقين سبيلا

مع هذا فما موقفه من ذلك الموت الذي يطالعه الآن . لقد صح منه العزم حين حاول شقّ الصحراء على ان يهب لها حياته اذا عز النصر عليه . كان ينتابه في احلامه الذهبية بين حين وحين حلمٌ بعيد — هو حلم الموت . وهو حلم وان ساءت طلعته ومرّ طعمه ، فهو في الواقع عذب مستساغ . لانه اولاً وآخراً في سبيل المجد والعلا . اما الآن فلم يعد ذلك الجوّاد الذي يهب نفسه عن طيب خاطر ، ولكنه اصبح ذلك الذليل الذي تنتزع منه حياته عنوة وقسراً

ومهما يكن من شأن موقفه هذا ، فانهُ ليس سوى موقف المستضعف الجزع ، يتحايل على الموت ، ويضنّ بحياته على الصحراء . وشتان بين موقفه هذا وموقفه بالامس القريب — حين كان يستهين باخطار الصحراء وحياته جميعاً

لكن شيئاً واحداً هو الذي يشغله الآن . كيف صحّ ذلك كله . أليس اولئك رجاله . أليس هذا دليله . أليست هذه عدده . أليست هذه ابله . أليس هذا علمه . أليس هذا سلاحه . أليس هو هو . أليست هذه جميعاً أسباب جهاده . ما الذي كان ينقصه . أليس قد استكمل عدد الجهاد كلها . كذب ظنه . خاب تقديره . فكأنما كل عدة من عدده قد انقلبت سلاحاً صوّب الى صدره . وكأن كل مادة من مواده قد اصبحت ثعباناً يتلوّى حوله

هنا يجلس رحالتكم «المقدام الباسل» الغني بعدته وزاده ، القوي بمادته وبأسه ، المستمين بعلمه وفنه ، يجلس رحالتكم الآن وقد تمزقت ثيابه ، واغبرّ لونه ، وساء امره ، وذهب الاسى بنفسه كل مذهب . ادركته هذه المحن جميعاً فاوقعته في فخ الصحراء . كادت له الصحراء ، وبيتت له الغدر كأنها غدت ذئباً . وكأنه غدا حملاً . وقد اخذ الذئب يداعب لعبته اول الامر

أهذه هي الصحراء . . أتلك هي الغانية التي كان ينشدها . أتلك هي الغادة التي شغف بها حبًّا . أتلك هي الظبية القنوع التي كان يغنيها على قيثارة مطامعه ، فترقص له في غلائلها الصفراء رقصة الخشوع والطاعة . . ما بالها غضبت عليه واستبدّت به

أليست هذه هي الصحراء التي كان يتشبب بها بالامس ، كما يتشبب ذو المال بغانية تلتمس نعيمها في رضاه . ما بالها اليوم تصدّ عنهُ ، كأنها غانية السوق . تلتمس نعيمها في المال والغنى ، وكأنهُ العاشق المضنى اجهده الفقر

أليست هذه هي الرمال الذهبية التي كانت تسقيه بالامس خمر الآمال . ما بالها اليوم اصبحت في صفرتها كصفرة الحنظل ، واصبح سقياها مريراً كماء الموت

أليس هذا هو المنبسط الفسيح الذي كان يطلق فيهِ آماله ترتع وتلعب ، فتعود اليه حاملة آمالاً جديدة حلوة كالشهد . ما بال هذا المنبسط الفسيح صغر بهِ اليوم وضاق ، ودقّ في صغره وضيقه حتى غدا طوقاً حديديًّا يغل رقبته ويضني حلقه الجاف

أين النجاح الذي كان يؤمن بانهُ سيجيئه يسعى ، والاّ انتزعه من مخبئه انتزاعاً

أترون اليوم كيف يستجديه ، في ذلة وضعف ،كما يستجدي المغرم المضنى اجهده الفقر، نظرة ، أو ابتسامة ، او كلمة ، من غانية السوق ، تلك الفاتنة اللعوب التي لا تلتمس نعيمها الا في المال والغنى . أين الفوز والنصر اللذان كان يؤمن بانهما في قبضة يده والا اغتصبهما من يد الصحراء اينما وكيفما يشاء. أترون اليوم كيف يسألهما الصحراء، يسألها يداً قاسية باطشة ، تحطم من آماله وكبريائه اينما وكيفما تشاء

أين ورد المطامع. أين أقواس النصر أين سحب المجد. أين العود المظفر. أين هتاف المجامع العلمية ان ذلك الحلم الشعري قد انحدر من فوق كتفي رحالتنا وتجلى لهُ اليوم فقط انهُ قبضة من الهشيم

***

سادتي : ترون كيف انعكست آية المادة . انظروا الى صاحبكم . لقد هوى من سمائهِ الى مستوى عبيده مرغماً مضطراً ، مكرهاً لا بطلاً . لم يعد يثق حتى بحقهِ في اصدار الاوامر فان كانوا ما يزالون يسيغون سيادته فلربما كان ذلك فقط لجلد طبعه ، وقدرته على الاحتمال ، وما الى ذلك من صفات يضعها اهل الصحراء في المنزلة العليا من فضائل الرجال. ما اكثر خدع المدنية . قد فني بين جنبي رحالتكم ذلك الشعور الذي كان يسمعه انغام المجد كلما نظر الى ما أعد من ادوات ،واعتز بما وسع من علم ، وسحرته لذة النصر التي كان يتخيلها في سلطان المادة

ضاقت نفسه بالصحراء. ولم يضق صدر الصحراء به. انه مهموم . وفم الصحراء ضحوك . ها انصوتاً قوياً يقرع سمعه . انه سخرية الصحراء . شعور عنيف يهزه هزًا. انه اثر سلطان الصحراء

يتغير الآن شعور رحالتنا فتلمس في هذا التغير فارقاً كبيراً ، ذلك الفارق العجيب الذي يفصل بينه اليوم وهو فريسة هذا الموقف المشئوم، وبينه بالامس وهو يخطو في الصحراء خطواته الاولى . فقد اخذ يحقد على الصحراء ، ويلعن اليوم الذي وطأتها فيه قدماه . ولكن ماذا يجدي الحقد واللعنة . اليس خيراً له ان يفكر في طريق من طرق الخلاص. فليفكر اذن وليكثر من التفكير . فماذا تكون النتيجة . انه كالطير في القفص . هو سجين الرمل والرمل حارسه. وقد بدأ الليل يسدل استاره الحريرية السوداء ، وينثر في السماء نجومه الصغيرة الراقصة ، ويقطع اشواطه في هذا الفضاء اللانهائي وئيداً بطيئاً كسير القافلة . ليفكر اذن في صمت هذا الليل الرهيب فيعود بعد جهده ليسأل نفسه : ترى لو انه اتخذ عدداً اقوى مما اتخذ ، وسلك سبلاً الين مما سلك ، اما كان يمكن ان يتجنب ذلك المصير المشئوم الذي صار اليه . ولكن اكان يستطيع ان يصنع غير ما صنع . لقد استعان بأحدث اسباب العلم،وتزود بأنضج الثمرات الذهنية . ما كان يستطيع في الحق ان يصنع غير ما صنع ، وهو بعد كائن بشري ، لا تعرف المعجزة سبيلها اليه ، ولا يعرف هو سبيله اليها

على انهُ مع هذا كله يحس بعاملين عنيفين يتناوبانه . عامل العناد يأبى عليه ان يشهد

بعجزه . وعامل الجهاد يزين له المضي في المقاومة . يظل رحالتنا نهب هذين العاملين ، فما يكاد يستوحي وحيهما ويتأثر بأثرهما حتى يسمع صوتاً خفياً ، فحكة ماكرة من صوت الصحراء ساء سبيلاً . كل شيء تلف او تحطم او ضاع . صناديقه كأنها ركام . عدده اصبحت لا تغني شيئاً . سلاحه لا فائدة منه . ابله برح بها الاعياء والضنى . رجاله اصبحوا كالاشباح من فرط ما نالهم من مشقة الجوع والعطش والنصب واليأس . دليله ضجر متبرم . كادت لرحالتنا الصحراء ومكرت به . عبثت حتى بكراسة مذكراته . سلبته حتى غليون دخانه . ضنت عليه حتى بلذة الشبع . ما اشبهه بالقائد الذي خسر المعركة . فهو آوٍ الى انقاضه لا يدري ماذا يصنع . يهوله مشهد الضحايا . يروعه مشهد الخراب . يجزع لمقدم الغد . في ذمته تبعة هذا جميعه . أما هو ، فرهينه ينتظر . فاما الاسر ، وهو ذل . واما الفرار ، وهو خبل . واما قتل النفس وهو عار وخور

***

سادتي : ان غير المنظور هو الذي غالباً يقع

والدهر يعطي الفتى ما ليس يطلبه حيناً ويحرمه من حيث يطمعه

الا ترون كيف اصبح امر نجاحه اليوم سراباً كما كان امر الفشل عنده بالامس . كان الفشل ابعد ما يذهب اليه . كان لوناً من ألوان المستحيل . كان آخر ما يجيز لنفسه ان يفكر فيه . فكأن الشمس طلعت اليوم من المغرب . لقد خاب الظن . اصبح النجاح ابعد مايذهب اليه . اصبح لوناً من ألوان المستحيل . اصبح آخر ما يجيز لنفسه ان يفكر فيه . . . صد العاصفة بالكفين اهون منه

اكتنفهُ الظلام . خيم على نفسه ، خيم على رأسه ، خيم على عينيه ، ظلام اليأس والحيرة والفشل . أين هو اليوم الذي استهل فيه رحلة الصحراء ، وهو يحيي مودعيه في شيء من التواضع . فلولا عدم اللياقة لصرح لهم بما تجيش بهِ نفسه ، من نصر محقق ، ونجاح مؤكد ، وعود مظفر . لقد اصبح اليوم لا يطيق ان يذكر شيئاً من ذلك . كان اذ ذاك يغمره النور ، نور في نفسه ، نور في رأسهِ ، نور في عينيهِ ، اما اليوم فله من شأنهِ ما يغنيه عن ذكر ذلك . ففي ذكره ألم ، وحسبه ما يعاني من ألم . وفي ذكره احساس بخيبة التقدير ، وحسبهُ ما يتجرع من غصص الهزيمة

هذا زاده المادي . كان يؤمن من قبل بانهُ مفتاح النجاح . وقد ذاب اليوم هذا الزاد ، فتحطم ذلك المفتاح المسحور . لئن كان صادقاً في تقديره ، فما الذي اذاب الزاد ، وضيع الامل ، وحطم المفتاح وان كان غير صادق في حسبانهِ ، فاين اذن يوجد هذا المفتاح المفقود ، واين اذاً السبيل اليهِ

جمد ذهن صاحبنا . تعطل تفكيره . كاد يحترق مخه ، وتتمزق عروقه . كاد يهذي حتى انهُ ليتخيل الصحراء امتلأت بالذئاب العاوية . وعواصفها اصبحت نواقيس الموت . ها هو ذا يغمض عينيهِ . ويعتمد رأسه بين يديه . كأن صراعاً أَلمَّ بهِ فكأنهُ في غشية ما لها صحو

سادتي : الى هنا يصح ان نعتبر رحالتنا قد اجتاز مرحلته الثانية . والى هنا ترون كيف ذاق من الالم امره . ومن الذل اوجعهُ ، ومن الهوان غايته حتى كاد ينتهي آخر الامر الى غشية النفس .غير ان للصحراء ايها السادة تأثيراً خارقاً في جسم من جابها وفي عقله وفي روحه فهي تصقل جسمه وتجلو عقله ، وترتفع بروحه يوماً بعد يوم ، الى مراتب ما كانت لتدركها لو ان صاحبها لم يحاول ان يتخذ له سبيلاً في جوف الصحراء . ولئن يتقبل جوّاب الصحرا ما تمتحنه بهِ من عسر وشدة وألم بقبول حسن ،فما ذلك الاّ لانهُ ادرك آخر الامر ان قسوة الصحراء ليست سوى شيء من قسوة الام الحنون ، تنال بها ابناً عاقاً تحبهُ وتكلف بهِ، في سبيل تربيتهِ وتهذيبهِ وشد ما ادّبت الصحراء رحالتنا ، وأحسنت تأديبهُ.فبدأت تنظفه من دنس المجتمع ، وتطهره من ادران الحياة ، وتنزع من صدره وسوسة الشيطان . بدأت تغسل عنهُ قذارة الجسم ،ودنس الروح ،بدأت تاهم نفسهُ فلسفةصوفية وتفيض عليها بهذه الفلسفة العالية . ففيم يفكر اذن . . ولعلنا نذكر فيما كان يفكر بالامس

اولاً — قبل ان يعدعدتهُ. ثانياً — وهو يعدعدته. ثالثاً — وهو في مرحلتهِ الصحراوية الاولى لم يكن اذ ذاك ليفكر في غير المادة . وقد تأثر بها ، كما سقنا ،كل شيء فيه حتى اخلاقه وحتى منطقهُ واسارير وجههِ . كان يرى انها الاداة الفعالة لما يريد .اما الآن فانهُ يفكر في شيء آخر : ذلك ادب الصحراء ، وبهِ يستهل مرحلتهُ الثالثة

أخذ هذا التفكير الجديد يحتويه ويؤثر فيهِ . أخذ يؤثر في روحه ونفسه . يؤثر في كل شيء حتى اخلاقه . وحتى منطقه وقسمات وجهه . وهنا فقط يدرك ان اداة المادة ، تلك الاداة المغرية التي كان يؤمن بانها الفعالة لما يريد ، انما هي حقاً تلك الاداة التي لم تغنه شيئاً حين تورط في غير ما يريد

وكذلك رويداً رويداً تسمو الصحراء بمشاعره واحساساته الى العالم العلوي . وكذلك رويداً رويداً تفنى المادة ، ويفنى الجسم . ولاتبقى الا قوة الروح تستيقظ فوق هذا الفسيح اللانهائي الرملي . وثم تبدو له الصحراء في صورة صبية وديعة ، في سذاجتها رحمة ، في انوثتها طهر ، في ظرفها نسك يلذ العابدين . وهنا تداعبه الصحراء كما تداعب هذه الصبية الصغيرة الطاهرة ناسكاً صالحاً ، مداعبة نقية كمداعبة الابرار الخيرين . فيرق لها ، ويحنو عليها . يعفو عن هفواتها ويغفر لها اخطاءها وما اجدر بالمغفرة اخطاء الصبايا الطاهرات

ها نحن اولاء نراه يشعر بشيء جديد . تشعر روحه بالصفاء يسري اليها شيئاً فشيئاً . وتشعر نفسه بالسكينة تنساب اليها قليلاً قليلاً . فاذا انتهى الى هذا الحظ ، بعد تلك الساعة التي عافت فيها نفسه كل شيء ويئست من كل شيء والتي تركناه فيها مغشياً عليه . هنالك — ولا غرو — تنبسط له يد الرحمن ، وتتداركه عناية الله . فيؤمن بان القوة التي تقهر

الصحراء ، انما تسكن السماء . ثم يأنس بعد وحشة ، ويستبشر بعد قنوط ، ويهتدي بعد حيرة ، ويحيي بعد موت. ثم يشعر بشيء من لوم الضمير : أ كان على حق حين اعتمد اولاً وآخراً على غير الله. أ كان يجوز له ان يستعين بعدده وآلاته كل الاستعانة ، قبل ان يستعين بقدرة الله كل الاستعانة ، «وهو جل وتعالى خالق العالمين» ، وباعث الحياة والموت فيهم من بدو وحضر

عناية الله اذن تحرسه ، ويد الله اذن تهديه . فماذا يقول اليوم .وكيف تبدو له الصحراء. حقاً ان الصحراء هائلة ، ولكن عظمة الله اشد هولاً . وحقاً انها قاهرة ، ولكن بأس الله اقهر . وحقاً انها رائعة ، ولكن جلال الله اروع . غمر الايمان قلب رحالتكم . والايمان نور وقوة وتوفيق. نور يبدد ذلك الظلام الحالك الذي غشى بصيرته واكتنف نفسه ، وخيم على ذاته المعنوية كلها ، نور الهدى والرشاد والحق . وقوة هي قوة الروح المعنوية المستمدة من فضيلة الانس بقدرة الخالق ، وادراك جانب يسير غاية في اليسر من عظمتها القدسية ومشيئتها الكبرى . ومن ذلك النور الذي ملأه ، وتلك القوة التي اصبحت هي وحدها عدته وزاده ، نشأ التوفيق ، التوفيق باطمئنانه الى القضاء والقدر ، وباقتناعه الصلب القوي، وارتياحه الشديد الفياض الى ان الله مصيره وغايته ، ولله وحده الامر جميعاً. ولذلك فصاحبكم اليوم مطمئن النفس. ازداد حبه للصحراء ،وشغفه بدرس مناكبها. فكأنما خلق اليوم خلقاً جديداً. ولا غرو ، فقد اعاد الايمان الى نفسه ذلك العزم الثابت الذي اوهنته المشاق والمتاعب ، وتلك الارادة الصلبة التي ألانها كلُّ ما استهدفت لهُ من عوادي الصحراء . كأنما خلق اليوم خلقاً جديداً . ولا غرو فقد بعث الايمان في نفسه سائر تلك العوامل الباطنية الوثابة التي استحثته من قبل على رود الصحراء ، وكشف مجاهلها ، وبلوغ غايته منها . بعث الايمان في نفسهِ سائر تلك القوى المعنوية في نمو اصلب طبعاً ، واشد حالاً مما كانت عليه بالامس ، حين شرع يستهل رحلة الصحراء . سلب الايمان من جوف الصحراء ، كلما تعتدُّ به من وعيد سيء ونذير مشئوم ، فلم يعد في ظلام الصحراء ، ولم يعد في ظلام الحياة ما يمكن ان يشفق على نفسه منه، اذ قد آمن اليوم شديد الايمان ، وعلم علم اليقين بأن ما تكنه الصحراء من اهوال واخطار، ويغمرد الغيب من شر وسوء ، وتستهدف له مصائر الناس من خير ومكروه ، انما هذا كله رهن مشيئة الله ... وها هو ذا يصدر في عمله عن طبيعة هذا الايمان الراسخ الشديد . فهو ينفق اقصى ما يملك من جهد ، ويبذل غاية ما يستطيع من حيلة في سبيل المطلب الذي اخذ نفسه به . اما النجاح وغير النجاح فلم يعد امرهما في يده ، ولكن امرهما جميعاً في يد الخالق وحده . سرت فيه تلك الروح القوية ، واوحي اليهِ بوحيها الصادق ، فأخذ من جديد يجمع شتات قوته المعنوية ، ويلم شعث عدته المادية ، وانطلق يستحث قافلته على المضي، ويملأ نفوس رجاله بأمر القضاء والقدر ، وفي ذلك لذة لا يشوبها الدنو من الموت ولا الموت نفسه ايضاً

انطلق اذن يمضي في قافلته يسوقه روح معنوي شجاع رشيد ، وانطلقت القافلة تسعى من جديد في مثل النشاط الذي بدأت رحلتها به بعد ان كادت تجهز عليها عوادي الصحراء اجهازاً. انطلقت القافلة يحدوها البشر والتفاؤل . واطمأن الرحالة من جديد الى الصحراء والى عيشه بينها : اولئك البدو البواسل الشجعان الذين ما يزالون بني الفطرة . لم تستطع ادران المدنية ان تزحف اليهم . ولم يفكروا بعد في ان يزحفوا اليها . فلنقف معهُ لحظة لنرى حظ رجاله عنده بعد ذلك التطور الروحي الجديد الذي احتواه . لم يكن رجاله اولئك من قبل سوى عنصر من العناصر العدة التي هيأها لينال بها مطلبهُ في الصحراء . لم يكن رجاله هؤلاء سوى اداة من الادوات الكثيرة التي اعدها للبطش برجال الصحراء . اما الآن فقد شعر بانهُ منهم وانهم منهُ . شعر بانهم جميعاً أسرة واحدة . فهو يحزن لحزنهم ويفرح لفرحهم . ولا يهنأ بعيش الاّ اذا كانوا هانئين . وقد ثبت له الآن ان فلسفتهم في الحياة اجدى وأعمق من فلسفته . وان في بساطة عيشهم توفيقاً لم يدركه بعد . وهنا يروقه ان يقبس من اخلاقهم ، ويتزود من طباعهم . فقد رآهم أهل ايمان وفضيلة ورجولة . فالبدوي ، في الحق ، مثل من الامثلة الحسنى للرجل

ارأيتم الآن الى رحالتنا وهو يتفلسف . انهُ يتفلسف في شهوة الدنيا ، ومطامع الناس بعد ان سمت به حال نفسية . فصغر في عينه عراك الحياة . صغرت الصعاب التي لاقته ، والصعاب التي تنتظره . هانت عنده مطامعه — حتى مطمع الثمرة العلمية المحرمة ، التي قام برحلته في سبيل قطفها . هان عنده حتى الموت في ابشع صورة من صوره . . ذلك كله صغر عنده شأناً واخذ يفنى ، شيئاً فشيئاً ، في روعة الصحراء وجلال الله

صاحبكم يشعر بقوة معنوية . فقد انتهى ، أيها السادة ، من هذه الرياضة النفسية الى نتيجة لم تكن منتظرة ، ولا سيما بعد ان ذاق من مرّ الصحراء ما ذاق . لم يعد رحالتنا يخاف الصحراء . لم يعد يخاف فيها ان يجوع ، او ان يظمأ ، او ان يضل ، او حتى ان تبيعه بحياته قبراً من قبورها المبثوثة في كل مكان . فاذا انتهى الى هذه النتيجة بدأ يشعر بأمرها . بدأ يشعر بسلطانه ينبسط على الصحراء . ولكن ما ابعد الفارق بين هذا السلطان الذي يشعر به وذلك الذي شعر به في بداية رحلته . فشعوره بالسلطان الاول انما هو شعور بسلطان المادة ، والمادة قد خذلته . اما شعوره اليوم بهذا السلطان الاخير ، فهو شعور بسلطان الروح ، والروح قد صدقته

ما أعجب اسرار الصحراء . انها تحطم في رائدها معقل مطامعه ، ذلك العش المرع يسع الدنيا وما فيها . ذلك الفم الجائع كلما اعطي من شيء ، ازداد جوعاً فقال « هل من مزيد ». ما اسرع ان تكسر الصحراء شكيمة جوّابها ، وتذل عنقه وترغم انفه . ما اسرع ان تلقنه درس

الحكمة . اذ تبين لهُ القياس الصادق لمرء واعماله ، والقيمة الحقة للرجل واخلاقه ، والميزان العادل للانسان وكتاب حياته . تسلب الصحراء رائدها كل احلامه الدنيوية ، تلتهم كل ثمرات مطامعه الانسانية . غير انها على ذلك منصفة عادلة . لا تدع رائدها من غير عوض . فهي تجزيه الجزاء الحسن . تهب له سكينة في الصدر . وطمأنينة في النفس . وايماناً في القلب . تهب له هذه الخيرات هدية طاهرة وخالدة لا تفنى ، جديدة لا تبلى ، مصونة لاتنال منها حياة المدنية حين يعود اليها اي منال . تلك الحياة التي عبثت بحقائقها شهوات النفس الجامحة ، ومسخت معه فضائلها مطامع الانسان الكاذبة

أيها السادة : اتمَّ رحالتنا رحلته . وقد يكون توفيقه العلمي اقصى مما كانت تذهب اليه احلامه وهانحن اولاء نعودمعهُ الى بلده . فنرى حفاوة كبرى . تنشط في درس اكتشافه المجامع العلمية.ولكن ماذا في نفس رحالتنا .. انهُ بعيد عن هذا كله . يكاد لا يشعر بحفاوة المحتفين به . يحس بانه غير أهل — من هذه الناحية — لهذا المديح جميعاً

فلقد استهلَّ الرحلة ،وكانت هذه الناحية العلمية غاية المنى ،كان يؤمن بان ما جمع من اسباب المادة هو مفتاح النجاح ، فلم يكد ينحدر الى جوف الصحراء حتى آمن بشيءٍ آخر ، آمن بان عدته المادية لن تقدم من امره ولن تؤخر ، وان ما وصل اليه ليس نجاحاً ولكنهُ توفيقاً ، وانهُ ليس ثمرة جهاده الشخصي ، ولكنهُ اثر من عناية الله

وما كان لنجاحه العلمي هذا ان يزيد في ايمانه وقد قدر له التوفيق ، كلاَّ ولن يكون لفشله العلمي ان ينقص من هذا الايمان اذا كتب له ان يفشل ، فابتغاء وجه الله وحده هو الذي يصبح وجهةَ وطلبةَ كل من كتب له ان يرود الصحراء ولاسيما في سبيل العلم

والآن وقد صغر في عين رحالتنا نجاحه العلمي ، وآمن بانه لم يكن شيئاً ذا خطر ، تحقق ايمانه بانه لا يستحق ما أغدق عليه من مديح ، وان قيمة هذه الثروة العلمية لا تزيد عن قيمة تحفة من التحف التي اتفق له ان يعثر عليها ، واستطاع ان يعود الينا بها

انه مأخوذ اذاً بلذة روحية هي خاتمة مطاف روحه . تلك الخاتمة التي وفق اليها في مجاهل الصحراء . فحين ضلَّ عقله اهتدت روحه. اهتدت الى سبيل علوي،تبتدىء في نهايتها طريق الله

ثم ها هو ذا صاحبكم يفكر في الصحراء من جديد . ولقد انتهى به تفكيره الى مفارقة عجيبة ما اتفه رحلة الصحراء بالقياس الى رحلة الروح. كم يود لو ان رحلته الروحية كانت نتيجتها دانية القطوف كرحلته في سبيل العلم

ولعلَّ هذا هو السر في ان كل من راد الصحراء مرة لا يستطيع ان يصبر عنها ، ولا يملك الاَّ ان يعود اليها ، عله يوفق من طريق رحلة العلم ، الى اقصى ما يستطيع ان يدرك من رحلة الروح ، وهو الدنو من فاتحة الطريق الى الله

موت البلبل

ما أتعسَ الفنَّ في حياتِه ! | وأتعس الفنَّ في مماتِه !
قد واتت الآسِنَ الأماني | والجاريَ الماءُ لم تُواتِه
والخاليَ الذهنِ مُستريحٌ | في الوكرِ ، في القصرِ ، في فلاتِه
والساهرُ الليلَ قد طواه | وشوّهَ الموتُ ذكرياتِه

***

في هدأةِ الليلِ ، في دُجاه | في معبدِ الكونِ في صلاتِه
يسامرُ الصائدُ المنايا | والحيُّ لاهٍ بمُلهياتِه
ونيّةُ الشرّ إن تراءت | هدّت على الخير أمنياتِه
والبلبلُ الصادحُ المغنّي | الساهرُ الليلَ في شكاتِه
حيرانُ مايهتدي لغصنٍ | حتى يُصبّي الى لداتِه
قد اخرجَ الليلَ من رؤاه | فراحَ يُصغي لمطرباتِه
والنسمةُ العذبةُ استراحت | مأخوذةً مثل سامعاتِه
يمرُّ بالروضِ ما يُغنّي | يهزُّ في الروض مورقاتِه
ما اجملَ الكونَ حين يُصغي | لهاتفٍ صاغ مُبدعاتِه !

***

وبينما البلبلُ المُغنّي | يعيدُ لحناً على هواتِه
دوّى بجوفِ الدُّجى دويٌّ | فروّعَ الكونُ في صلاتِه
وهلّلَ الصائدُ انتصاراً | وردّدَ الليلُ قهقهاتِه
وضاعَ في الأُفقِ كلُّ لحنٍ | وليس يلوي على شتاتِه
وفي ازيز الرصاص ينسى | مُستملحُ الصوتِ أغنياتِه

***

وصدّعَ الفجرُ جانبيهِ | وايقظَ الصُّبحَ من سُباتِه
فهبَّ يمشي على ضحايا | وراحَ يُصغي لهاتفاتِه
والبلبلُ الخافتُ المسجّى | الزهرُ يحنو على رفاتِه

حسن كامل الصيرفي

الرحلة والرحالون[1]

في القرون الوسطى

بين سقوط الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس واكتشاف امريكا في القرن الخامس عشر تمتد الف ونيف من السنوات تعرف عند المؤرخين بالقرون الوسطى ، ومع ان حوادث جسيمة قد تمت فيها فقد كانت الرقعة التي تشغلها بالنسبة الى العالم المعروف الآن صغيرة جدا لا تتجاوز حوض البحر الابيض المتوسط واواسط اوربا . وكان هذا الجزء المعروف تحيطهُ — في نظر الاوربيين على الخصوص — حجب الظلام الكثيفة ، فشواطئه الغربية تنتهي بالبحر الذي لا تمخر السفن عبابه — بحر الظلمات — وفي شماله تقع مناطق الذعر والجليد والظلام ، وشرقه قفر آخره مساكن الاقوام المغولية المتوحشة . وجنوبيهُ ينتهي بالمنطقة الحارة التي لا تستطيع البشر ان تسكنها، والتي فيها بحر تغلي المياه فيهِ باستمرار لشدة الحر ، حتى ان الاسماك لا تعيش فيهِ ، وكل هذه المناطق فيها من عجائب الخلق والهول ما يمنع الناس من الاقتراب منها بله الدخول فيها

وفي هذه المنطقة الضيقة وفي هذه القرون العشرة تمت الحوادث التي خلقت العالم الحديث بما فيهِ من نشاط ومدنية وعلم . ففيها سقطت الامبراطورية الرومانية التي كانت تتحكم في شؤون اكبر جانب من العالم المعروف عندئذٍ ، فانهار معها اكبر صرح سياسي اقتصادي عرف، وامحى القانون الروماني ، وصحبت ذلك هجرة القبائل الجرمانية وغيرها من مساكنها الاصلية واستيطانها في اوربا ، وتأسيسها امارات وممالك مضطربة ضعيفة على النظام الاقطاعي ، فانتشرت الفوضى وعمَّ النهب والسلب وتغلبت القوة البدنية على الشرع والعرف والتقليد وحل السيف مكان القانون . وفيها خرجت امة كانت منتشرة في بادية العرب لا تجمعها رابطة دينية ولا تمسكها صلة سياسية حتى قام فيها محمد بن عبد الله فأوجد من تفرقها وحدة ، وخلق من تنازعها اتفاقاً وجعل من الوحدة والاتفاق الممزوجين بالايمان قوة سارت مع خلفائهِ وقواده حتى احتلوا في مائة سنة البلاد الواقعة بين الصين وبحر الظلمات ونشروا الاسلام في اكثر هذه البقاع . ثم عمدوا الى العلم والادب والاجتماع فاحاطوها بعنايتهم واخرجوا منها للعالم خير الثمار واينعها واشهاها

وفيها توطدت النصرانية في الغرب واعتنقتها القبائل الجرمانية التي مرَّ بنا ذكرها وقويت البابوية وسيطرت على الحياة الدينية والعقلية في القسم الاكبر من اوروبا النصرانية ، حتى

---

(١) محاضرة تاريخية شائقة القاها نقولا افندي زياده في نادي الشبيبة البيتلحمية ببيت لحم (فلسطين)

كان لها الامر وعلى غيرها الطاعة، وحدث في هذه المدة اكبر اصطدام بين الشرق والغرب فقد بقيت جيوش الصليبيين طيلة القرنين الثاني عشر والثالث عشر تتدفق على الشرق محاولة تملكه والاستيلاء على موارده الفنية واماكن العبادة والتقديس فيهِ . ومع ان هذه الحروب قد انتهت بخيبة الاوربيين وبقاء هذه البلاد بيد الشرقيين فقد كانت بعيدة الاثر في خلق اوربا الحديثة وفي جميع مناحي الحياة في ذلك الوقت وبعد ذلك الوقت

وحياة البشر في كل عصر ومكان تتأثر بما يعتورها من جسيم الحوادث وعظيم الامور ولما كانت الرحلات والاسفار مظهراً من مظاهر الحياة والنشاط فلقد كانت خاضعة في حكمها لهذه القاعدة واذن فقد تأثرت بما ذكرنا ، وهذا ما سنتحدث عنهُ الآن

يهتم المسافرون على اختلاف نزعاتهم بان يكون الامن مستتبًّا في البلاد التي يرحلون اليها وان تشرف على البلاد حكومة قوية ليأمنوا على ارواحهم واموالهم ومتاجرهم ولتعنى بالطرق والبريد لتنظيم الرحلة والسفر والاتجار. وقد كان هذا متوافراً في عهد الامبراطورية الرومانية فلما سقطت سقط معها كل ذلك فقلَّ تنقل الناس في القسم الاول من القرون الوسطى. فلما قام العرب وانشأوا دولهم المتسعة في مشارق الارض ومغاربها وقاموا على تنظيمها وسهروا على مصلحة الشعوب التي حكموها عادت التجارة الى ما كانت عليهِ سابقاً بل اتسع نطاقها كثيراً وعاد الجوَّابون يخترقون الآفاق وقد ساعدهم على ذلك انتشار الاسلام في كثير من هذه الاقطار فكانوا موضع احترام القوم اينما حلوا وليس ادلَّ على مدى اتساع الرحلة في عهد الدولة العربية من حديث ابن بطوطة وهو سائح عربي من اهل القرن الرابع عشر للميلاد من مدينة طنجه فقد روى انهُ لما كان بالصين بلغهُ ان احد علماء المسلمين قدم المدينة فاتصل بهِ فعرف انهُ احد مواطنيه وفطن الى ان التقى به في دلهي بالهند . ولما ارتحل ابن بطوطه عن ذلك المكان وهبط اواسط افريقيا لقي فيها مواطناً آخر هو اخ للاول . وهكذا كان يلتقي رحالو العرب في اقصى البلدان وانأى الامكنة

على ان قيام الدول العربية في الشرق الادنى وقضاءها على البيزنطيين فيه اوجد في نفوس الاوروبيين شيئاً من الخوف فقلت زيارتهم حتى للاراضي المقدسة الى ان عرفوا خطأهم بعد وقت قصير

وقد سيطرت الكنيسة على الافكار والعقول سيطرة اخضعت كل رأي وقول لسلطانها وصار هم كل باحث ان يوفق بين ما كان عند اليونان والرومان القدماء من علم وبين ما في الانجيل من ايمان فاذا تعارض الاثنان وجد الدارس في الثاني حصناً من الكفر والزيغان وملجأً من رجس الشيطان فاختلطت على الناس الآراء الجغرافية الصحيحة بالاساطير والمختلقات . وشاب الحقائق العلمية خرافات لا يقبلها عقل ولا يرضى بها منطق فصار العالم المعروف منطقته تحيط بها كل انواع الاخطار من كل جانب فلا سبيل اذن للخروج من مسكن الانسان لاكتشاف

مساكن الشيطان او الاهتداء الى منازل الرحمن . وغصبت اقوال قوزمس وازيدور الناس الدرس والتنقيب . فاعتقد الناس ان النجوم مصابيح يخرجها الله كل ليلة لينير الناس لان الشمس والقمر ضعف نورهما بسبب خطيئة الانسان . وان الارض يابس يحيط بها ماء ينتهي بالفضاء فاذا وصل امرؤ الى ذلك المكان هوى الى ابليس او الى جهنم — الى مثل هذه الاعتقادات . وان قوماً مثل هؤلاء ينتشر بينهم هذا النوع من التفكير السقيم لاينتظر منهم ان يخاطروا بانفسهم فيخرجوا ليستكشفوا هذه الاصقاع النائية

اضيفوا الى كل هذه الصعوبات الاخرى التي كانت تعترض المسافر طول المدة ، فان اركولف احتاج الى سبع سنوات لزيارة الاراضي المقدسة في القرن الثامن الميلادي . وقد استغرقت رحلة بنيامين التورلي ثلاث عشرة سنة

على ان بعض اقوياء العزيمة من اهل ذلك الزمان ، وبعض المفكرين منهم ، لم يحل دونهم في الرحلة حائل . واكثر ماجاءتهم قوة العزيمة من الايمان والتدين فان زيارة الاماكن المقدسة والتبرك بلمس تراب البلاد التي عاش فيها (المخلص) دفعت الكثيرين الى الاستهانة بكل هذه الصعوبات لينالوا هذه القداسة أو ليحصلوا على الشهادة في البلاد نفسها . وفي هذا تتفق النصرانية والاسلام بل ان الاسلام يحتم ذلك. اذ يعتبر الحج احد اركان الاسلام الخمسة ، على من استطاع اليه سبيلا . ومن ثمَّ عني الحجَّاج — المسيحيون والمسلمون على السواء — بتدوين اخبارهم وما وقعت عليه أبصارهم، وما طرق آذانهم ليساعدوا غيرهم في سيرهم وتنقلهم. وقد كان بين الحجاج عدد كبير من اليهود فان هذه الجماعة التي حرمت منذ هدريانوس — في القرن الثاني — الاقتراب من بيت المقدس والتي سمح لها قسطنطين في القرن الرابع بزيارة انقاض الهيكل في التاسع من شهر آب (اغسطس) من كل عام ، كانت تتوافد الى القدس في ذلك العصر من اسبانيا والشرق للقيام بفريضة الحج الدينية. وعندنا من هؤلاء الحجاج الحاج موسى ليمونيداس ويهوذا هيلفي وبنيامين التورلي

وقد شاعت آراء واعتقادات كانت ذات صبغة دينية ، كان من شأنها ان تحفز الكثيرين من المسيحيين الاوروبيين الى الرحلات والاسفار وأهم من هذه ان بين الجزر الواقعة في البحر الغربي ، او قرب منابع النيل ، تقع (جنة الفردوس) وهذا الاعتقاد حمل الكثيرين على السفر من اجل الوصول الى هذا الفردوس . وهذه الفكرة نجدها مردَّدةً في كتابات كل الكتَّاب المسيحيين الاول من القرن الرابع الى القرن الثاني عشر

وعني بعض الآباء الروحيين الاوروبيين بزيارة فلسطين للحصول على الآثار المقدسة — وهي ما صاحب المسيح او رسله في حياتهم — اذ كانوا يتكسبون بعرضها على الناس ، وباستخدامها في شفاء الامراض وغير ذلك من الامور ، كما انه كان على بعض هؤلاء

ان يقوموا باسفار تبشيرية في اواسط آسيا وافريقيا لنشر النصرانية بين سكانها

ومما يعتبر باعثاً على زيارة الارض المقدسة خاصة — العقاب . فان بعض المجرمين كان يحكم عليهم بزيارة مولد المسيح وقبره ليخلصوا من جرائمهم ففي سنة ٥٨٨ حكم على خرومون ان يزور فلسطين عقاباً على جريمة فقيّد بسلسلة وألبس رداء خشناً ، وعفر رأسه بالرماد ، وسار حافياً . ولكنه عاد بعد اربع سنوات ، فلم يعف البابا عنه فقام بالزيارة ثانية ، حتى نال رضى قداسته

ولعلّ التجارة اكبر ما حمل الناس على الاسفار رغبة في نقل المتاجر ، والتعرف على الطرق واختيار افضل وسائل الكسب . ومن هؤلاء التجار من دوّن اخباره ووصف الاقليم وصفاً دقيقاً فيه الصحة كل الصحة ، والاسلام الذي شجع التجارة بالقدوة ، اذ كان النبي واصحابه تجاراً ، خدم العلم خدمات جلى من هذه الناحية

يمكننا مما مرّ بنا ان نقسم الرحالين الى حجاج ومبشرين وتجار وعلماء . والحجاج المسيحيون الذين زاروا الاراضي المقدسة قبل القرن الثامن الميلادي خلفوا عن رحلاتهم آثاراً كثيرة ، بعضها فيه روح التحقيق ، واكثرها مجموعات من الاساطير والخرافات . وقد ازداد مجيء هؤلاء الحجاج في القرن العاشر تلبية لنداء البابا من جهة واعتقاداً بان مجيء المسيح الثاني قد قرب ومن ثمّ فمن المهم ان يكونوا فيها لينالوا البركات . وحجاج هذه الفترة كانوا على درجة كبيرة من الجهل فلم يتركوا آثاراً قيمة والذي ابقوه على كل حال يميل الى هذه العقلية السخيفة التي كانت تمتاز بها الجماعة الاوروبية في ذلك الزمن . اما المبشرون فاتخذوا اواسط آسيا مركزاً لاعمالهم ، اذ كانت همة البابا متجهة نحو تنصير القبائل المغولية التي اخذت تهاجم الشرق ، وترعب اوروبا بقوتها وسطوتها . وقد اشتدت هذه الحركة بين القرن الحادي عشر والقرن الرابع عشر . وبعض ما كتبهُ هؤلاء المبشرون عن تلك البلاد من خير ما يمكن الرجوع اليهِ في درسها

والتجار الذين تركوا اخبار الاقطار التي زاروها ، وبحثوا في حالتها الاقتصادية والاجتماعية كثيرون . وقد كان العرب اصحاب السبق في هذا المضمار . ومما وثق الاتصال التجاري بين الشرق والغرب ، وحل عن العقول بعض القيود ، فالحروب الصليبية

والرحالون الذين كان رائدهم في الرحلة الرغبة في الدرس والبحث بلوا عدداً كبيراً ، ولكنهم جاءوا في القسم المتأخر من القرون المتوسطة . ومن العرب ابن جبير وابن بطوطة ومن الافرنج ماركوبولو . وهذا الاخير كان من التجار ايضاً . وهؤلاء الثلاثة اعلام الرحلة العلمية في تلك القرون . « فسياحات ماركوبولو » يعتبرها الكاتب الانكليزي المستر ولز بين الكتب التي اثرت في تطور العقل البشري . وكتابات ابن بطوطة يشهد لها في دقتها ان كلية غوردون في الخرطوم تدرس فصل « ابن بطوطة في السودان » لدقته . اما ابن جبير فمن يقرأ كتابه يقرأ كتابة سائح حديث مزود بطريقة التفكير الصحيحة « لها تتمة »
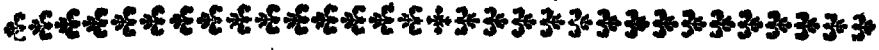
التوائم والمحيط

للدكتور شريف عسيران
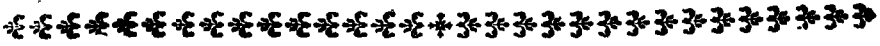
التوائم نوعان ، مختلفة ومتشابهة . فالتئمان المختلفان هما المتولدان من بيضتين مختلفتين تلقحتا في آن واحد . والمتشابهان يتولدان من بيضة واحدة . ان اكثر الحيوانات الثديية كالهررة والكلاب تلد عدة اولاد دفعة واحدة تتولّد من عدة بويضات ناضجة تلقحت في آن واحد وقد يحدث ذلك في البشر فيولد تئمان او اكثر من تلقيح بويضات مختلفة . ويختلف تولّد التوائم باختلاف الحيوان . ففي المدرّع (Armadillo)[1] تنقسم البويضة الملقحة الواحدة في بدء تكونها الى اربعة اجزاء ينمو كل منها نمواً تاماً مستقلاً ويصير فرداً كاملاً . ويتولد التئمان في البشر بطريقتين الاولى انقسام البويضة الواحدة الى عدة خلايا يصير كل منها جنيناً كاملاً والثانية تولد التئمين من بويضتين مختلفتين او اكثر . والنوع الانساني هو الوحيد الذي تحدث فيه الطريقتان . ولا يحدث في غيره من الانواع الحيوانية الاّ احداها

فالتئمان المختلفان لا يتشابهان في صفاتهما الوراثية لانهما منشقان من بويضتين مختلفتين واما التئمان المتشابهان فيتشابهان في صفاتهما الوراثية لان عواملهما واحدة . وقد اجروا احصاء في اكثر البلاد المتمدنة للتوائم فكانت النتيجة كما يلي : يحصل في المائة ولادة ولادة واحدة ذات تئمين . وفي كل عشرة آلاف ولادة ، ولادةٌ واحدة ذات ثلاثة أتآم . وفي المليون ولادة ولادة واحدة ذات اربعة أتآم . ونظراً لاختلاف ولادة التوائم باختلاف الامصار وبسبب موتها قبل الولادة وقصر حياتها وتعسر ضبط تسجيلها لا يمكن جمع احصاء اممي عنها

وتزداد وفيات التوائم بزيادة عدد أجنتها فكلما ازداد العدد كانت اكثر تعرضاً للموت فالتوأم الثنائي أقل تعرضاً للموت من التوأم الثلاثي وهذا أقل تعرُّضاً من التوأم الرباعي وهلمَّ جرّاً

وقد تبين من احصاءات الحكومة الانكليزية انهُ يعيش من كل توأم ثلاثي نصف

---

(١) حيوان ليلي عديم الاسنان وهو موجود في اميركا الجنوبية جسده ورأسه موضوعان ضمن درع من عظم وجاء في معجم الحيوان : حيوان اميركي ادرع يأكل النمل و اللفظة ترجمة . الهلال

البنات و ٣/٨ الصبيان وسجلوا رسميًّا توأماً سداسيًّا ولدت أجنتهُ في آن واحد

بيَّنا أن التثمين المتماثلين او المتشابهين ينشقان من خلية واحدة ويكون هذا الانقسام او الانشطار احياناً غير كامل فيبقيان متصلين بعض الاتصال ويسميان التثميْن المتصلين Siamese twins فالتمان المنشطران من خلية واحدة يكونان دائماً من جنس واحد إما ذكرين او انثيين وهما متشابهان كل الشبه فالواحد نسخة طبق الاصل للآخر . وفي الواحد منهما نفس العوامل الوراثية التي في الآخر عدداً ونوعاً . ولا يمكن ان يتشابه التمان المنشقان من بيضتين مختلفتين ولا افراد العائلة الواحدة تشابُهَ التثمين المتماثلين . فاذا قابلنا التثمين المتشابهين بغير المتشابهين وغيرهما من افراد عائلة واحدة استطعنا ان نعلم منشأ اختلاف الصفات . فالاختلاف الذي نشاهده في التثمين المتشابهين لا بدَّ ان يكون سببه غير العوامل الوراثية لانها واحدة في الاثنتين

وقد درس هذا الموضوع حق الدراسة فوجد ان منشأ الاختلاف بين التثمين المتشابهين غير العوامل وغير المحيط. فاننا نجد غالباً ان أحد فردي التثمين ايمن والآخر ايسر فلا يمكننا نسبة هذا الاختلاف الى العوامل الوراثية ولا الى المحيط لان الوراثة والمحيط واحد في الحالين. وقد حاولوا تعليل هذا الاختلاف بنسبته الى وضع احد التثمين قبل الانشطار فيكون احدهما في وضع خاصٍ منذ تكوّن الخلية فيحافظ عليهِ حين الانشطار اي يكون موضع يده يميناً او يساراً فيستمر على الحالة التي كانت فيها . اما الثاني فيتغير موضع يده اثناء الانشطار. فالتمان المتشابهان اللذان فيهما نفس العوامل الوراثية يكون احدهما ايمن والآخر ايسر بسبب الظروف التي تصادفهما في بدء نشأتهما ويكون احد التثمين في كثير من الاحيان اقوى وانشط من الآخر وسبب ذلك ظروف خاصة في اثناء التكون . ويظنُّ ان التم الذي يحافظ على الوضع الاصلي قبل الانشقاق يكون عادة اقوى وانشط . اما في ما عدا هذه الفروق فان التثمين المنشقين من خلية واحدة يتشابهان تمام المشابهة في الجنس ولون العينين والجلد والشعر وفي حجم الجسم وترتيب الاسنان وتقاطيع الوجه والآذان والايدي وفي الامراض التي تنتابهما وشواذ خلقتهما ولهجة صوتهما واشاراتهما ويوجد مشابهة مجهرية في أسرَّة الكف (خطوط الكف) واخمص القدم وبصمات الاصابع وتسترعي نظرنا ظاهرة غريبة وهي ان اسرَّة كف احد التثمين اليمنى مثلاً تشبه صنوها اكثر من مشابهة اليسرى لصنوها وهذا الفرق ناشىء عن ظروف خاصة اثناء الانقسام وينكر بعض العلماء هذه الفروق

***

بيَّنا ان في التثمين المتشابهين شخصيتان لكل منهما نفس العوامل الوراثية التي

للاخرى فلا يمكن ان تنشأ فروقهما العقلية عن اختلاف تلك العوامل ولا بدَّ ان يكون منشأ هذا الاختلاف اختلاف محيطهما ونشأتهما . وقد درسوا اربعة توائم ثنائية درساً دقيقاً معززاً بالتجارب العلمية بعد ان فصلوهم بعضاً عن بعض في اوائل حياتهم فدرس تثميْن منهم الاستاذ مُلر Muller الاخصائي بعلم الانسال والتوائم الثلاثة الباقية درسها الاستاذ نيومان Newman الاخصائي بعلم الأجنة وبيولوجيا التوائم واليك نتيجة ابحاثهما :

اختار ملر اختين تثميْن فصلتا في اول اسبوع من حياتهما ولم ترَ احداها الاخرى الاّ في سن الثامنة عشر وبقيتا مفترقتين من ذلك الحين الى سن الثلاثين اي اكثر من تسعة اعشار عمرهما فعاشتا في اقليم شمالي غربي خصب وفي ارض غزيرة المعادن وفي احوال اجتماعية متشابهة فكانتا متشابهتين جسديًّا كل التشابه وصفاتهما هي نفس الصفات التي يتفق فيها التثمان المتشابهان فكانت كلتاهما نشيطة همامة قديرة محبوبة واشتهرتا في الاعمال التي تقتضي التعاون كالجمعيات وما اشبه وأصيبت كل منهما بالتدرن الرئوي مرتين او ثلاثاً في نفس الوقت .واصيبت احداهن بخور في اعضائها وهي في العقد الثاني من العمر وكانت الاخرى على وشك ان تصاب بهِ كذلك . ونتيجة امتحان الذكاء متشابهة في الاثنتين مما يدل على ان المشابهة ناشئة عن العوامل الوراثية . وقد اختلفت نتائج التجارب الاخرى غير العقلية اختلافاً بيناً كفترة رد الفعل الحركيّ Motor reaction time وسرعة ربط الامور بعضها ببعض Association time والارادة والعواطف والاتجاه الاجتماعي وكان اختلافهما من هذه النواحي اكثر من اختلاف شخصين آخرين اختيرا صدفة واجريت عليهما نفس التجارب

ويتبين من درس هاتين التثمين المتشابهين ان لمحيط المرء ونشأته اثراً كبيراً في طباعه وعواطفه ومظاهره الاجتماعية فهذه الصفات تختلف اختلافاً بيناً في نفس الاشخاص الذين فيهم عين العوامل الوراثية في حين ان نتائج امتحان الذكاء تتأثر تأثراً يسيراً بالمحيط وكانت متشابهة في الغالب

ودرس نيومان تواميْن ثنائيين احدها اختان والآخر اخوان وكان كل منهما تثمين متشابهين فصل احدهما عن الآخر قبل ان يبلغا السنة الثانية من العمر وبقيا منفصلين حتى سن العشرين .ولد توأم الاختين في لندن ثم فصلتا في سن ١٨ شهراً فسكنت احداهنَّ انتاريو بكندا والاخرى لندن واجتمعتا بعد ١٧ سنة في انتاريو وبقيتا معاً سنة كاملة اجريت في خلالها التجارب عليهما . وكان محيطهما مختلفاً كل الاختلاف في خلال انفصالهما . ومن الغريب ان نتائج تجربة نيومان كانت مختلفة حيث تشابهت نتائج تجربة ملر والعكس بالعكس . فاختلفت الاختان التثمان كل الاختلاف في مواهبهما العقلية . ويقول نيومان ان الاختلاف بينهما كان ثلاثة اضعاف الاختلاف بين ٥٠ من التوائم الثنائية المتشابهة التي نشأت معاً . وعلى الضد من ذلك

تشابهت ارادتهما وعواطفهما . وفي هذه الحادثة دليل قوي على ان اختلاف تجارب الحياة يؤثر في القوى العقلية ونتائج امتحان الذكاء

اما توأم الاختين الثاني فهذب تهذيباً مختلفاً فبقيت احداهما في المدرسة سبع سنوات اكثر من اختها. واليك خلاصة تقرير نيومان عنهما :

ان هاتين التئمين اللتين كانتا متشابهتين في سن ال ١٨ شهراً بقيتا تسع عشرة سنة تجهل احداهما الاخرى فتكيفتا تكيفاً كبيراً بسبب اختلاف طرق تهذيبهما . فان تفوق احداهن العقلي على الاخرى كان ظاهراً كل الظهور سواء من الوجهة الفطرية (الطبيعية) او غيرها . فالتئم التي تهذبت اكثر من اختها كانت اشد تفوقاً من الناحية العقلية

ومن البديهي ان التمرين العقلي ينمي مقدرة الفرد ويسهل عليهِ جواز اي نوع من امتحانات الفهم حتى الامتحانات الامية التي لا يستعملون بها لغة ويقتصرون فيها على فحص ذكاء الشخص وقوة نباهتهِ وكانت عواطفهما وانفعالاتهما النفسية متشابهة تشابهاً بيناً على الضد من مواهبهما العقلية

* * *

اما الزوج الثالث فكان اخويين تئمين احدهما زيد سكن المدينة والآخر عمرو سكن القرية وقد امتحنا ولهما ٢٣ سنة من العمر فكانت مواهبهما الطبيعية متساوية تقريباً . وظهر فرق بين في شخصيتهما العامة فكان زيد اكثر انفة وتحفظاً واحتراماً لنفسهِ واشجع واكثر اختباراً واقل مصادقة من عمرو يبتسم دائماً وسيماء المهابة في جبهتهِ وعينيه اكثر من عمرو ويقف منتصباً اكثر منهُ وذقنه مرتدة الى الوراء وحجاجاهُ متدليان تقريباً على عينيه. ويختلف عمرو عنهُ فهو نموذج لمن يسكنون القرى يضحك حالاً ولا يحافظ على وقاره قط . ويؤكد نيومان ان شخصيتي الاثنين كانتا مختلفتين كل الاختلاف

***

ان درس افراد التوائم الاربعة الذين نشأوا منفصلين يؤيد ما يذهب اليهِ البعض من ان للمحيط والنشأة تأثيراً عظيماً في الصفات العقلية والنفسية حتى في الاشخاص الذين تكون عواملهم الوراثية متشابهة. ويؤيد ايضاً ان للعوامل المذكورة تأثيراً بيناً فالتوائم كانوا متشابهين في كثير من صفاتهم العقلية تارةً وطوراً في امزجتهم مما يبين ان للعوامل والمحيط أثراً في العقل والنفس

[١] المقتطف [١] جاء في المحيط صفحة ١٥٥ ج ١ مادة تأم : أتأمت الام اتآماً ولدت اثنين فصاعداً في بطن واحد فهي متئم . وتاءم اخاه متاءمة ولد معه فهو تئمه وتؤمه وتئيمه . ويقال هذا توأم للذكر وهذه توأمة للانثى فاذا اجتمعا فهما توأمان وتوأم كما يقال لهما زوجان وزوج

مكانك يا عشق

ظننتكَ ولّيتَ ياعشقُ فيما   اراكَ تعاود جنبي السقيما

وبالأمس كنّا حلفنا ليقطعَنَّ كلانا أخاه الحميما

لعلّ القطيعةَ شقّت عليك   فجئتَ تجدّ الوصالَ القديما

*

مكانَك يا عشقُ، ان جئتني   لتشجبي فاني مللتُ الهموما

ألا قد بلوتك حتى تبيّنْتُ خلف رُوائك وجهاً شتيما

كأنك خمر تُريح الفؤادَ   وتنشر في الجسم داء مقيما

كأنك ادركتَ كيف تطيبُ فيك الحياةُ فتجري نعيما

فأرسلتَ تلك الهمومَ اقتضاءً   ولم ارَ اعسرَ منك غريما

مصر الجديدة   بشر فارس

ڤولتير

روسو

مقتطف ابريل ١٩٣٣

امام صفحة ٤١٩

جان جاك روسو

تحليل دقيق لمبادئه وآرائه الفلسفيه

﴿ تمهيد عن روسو ﴾ يكاد يكون روسو الوحيد بين الفلاسفة الذي انشأ نفسه بنفسه لانه لم يدخل مدرسة ولم يتعلم ويتثقف الا بين احضان الطبيعة ، فشبَّ حرًّا من كل قيد ، طليقاً من كل ما يرسف فيه غيره من اغلال العادات والتقاليد ، نفوراً من الناس لا يميل الى معاشرتهم ولا يأنس بصحبتهم ، لانهُ رافق البؤس منذ نعومة اظفاره وذاق من مرارة العيش وعلقم الحياة ما جعلهُ حقوداً على بني البشر ، نزوعاً الى لوم مساوئهم ، ميَّالاً الى عدم الثقة بعدالتهم وبصلاحهم. وقد كان في شبابه وسيم المحيَّا جذَّاب الملامح واكسبه تجواله في الجبال والاودية متانة العود ورشاقة القد فأصبح جميلاً فتاناً ولذلك صادف نجاحاً عند كل الذين تعرَّف بهم ولاسيما لدى الجنس اللطيف ، وكان ذلك مدعاة لانضاج آرائه الفلسفية ومذاهبه الاجتماعية التي بثها في كتبه فعجلت في اشعال نيران الثورة الفرنسية وكان لها اكبر تأثير في مذهب الادب التجديدي المسمى رومانتيك

وقد خالف سائر الفلاسفة في آرائه وتخطاهم بمراحل عديدة ، واهم فارق يبعده عنهم هو كونه حاسيٌّ . اي انه لا يهيم في اودية الخيال ليعبر عما يتصوره بادراكه وعقله بل كان يرسم بقلمه ما يشعر به بحواسه . فبينما سائر الفلاسفة يقضون اوقاتهم في التفكير كان روسو يقضي وقته بالتمتع والتألم ، وبينما وصل غيره بالبحث والتحليل الى فكرة الرأي وتكوين العقيدة وصل هو بحسه وطبيعته الى حقيقة الادراك وصحة الاعتقاد ، فاولئك يبحثون ويحللون وهو يعيش ويشعر ، وكل ما خطته انامله مستقى من شعوره واحساسه ولذلك بدت آراؤه كأنها مستخلصة من مسبباتها ، شعرية ، حقيقية ، ثابتة ، مشيَّدة لا مخرِّبة هدَّامة ، على نقيض آراء غيره من الفلاسفة التي تبدو على الخصوص تحليلية ، نقادة ، سلبية ، انكارية ، نافية ومدمِّرة . فلدى هؤلاء الفلاسفة حقد أتم ، وتهكم أعم ، واستهتار وازدراء عظيمان ، حيث لا يوجد لدن جان جاك روسو سوى حماسة وحبور وافتتان وسرور

﴿ حياة روسو ﴾ ولد جان جاك روسو في مدينة جنيف بسويسرا في اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو سنة ١٧١٢ من اب فقير يشتغل باصلاح الساعات ، وماتت امه وهو طفل فكفلته عمتاه ولكن لم ينل منهما اعتناء كبير بينما ابوه الارعن الاخرق كان يحشو عقله وتصوراته بالروايات العشقية ، فكان يقضي واياه الليالي ساهرين يقرآنها بشغف وهيام حتى مطلع الفجر ،

ثم نبذ روسو الروايات والقصص وعكف على قراءة فلوطرخس المؤرخ اليوناني والاخلاقي الكبير الذي وضع كتابه الشهير المسمى «تاريخ الرجال العظام عند اليونان والرومان» فملأ الفتى رأسه باخبار الاقدام والشجاعة. وفي سنة ١٧٢٢ غادر والده مدينة جنيف لسبب غير مشرف وعهد بابنه الى خاله برنار والى زوجته فادخلت هذه الاخيرة روسو في معهد عند احد الرعاة الانجليكانيين الكائن في بوسي بالقرب من جنيف، فتفتحت ميول الفتى للطبيعة لكنه عاد الى جنيف ووُظف عند احد النساخ لكنه لم يحسن القيام بما طلب منه فأُدخل عند حفار غليظ الكبد صخري القلب كان يشبعه ضرباً فيسرق له روسو فواكه حديقتهِ وكل ما تصل اليهِ يده

وكان قرب حانوت الحفار مكتبة فشرع الفتى يقرأ كل كتاب يجده على متناول يده لكن الحفار كان يحرق له الكتب ويضربه ضرباً موجعاً اليماً. فعوَّل روسو على ان يجد له مخرجاً مما هو فيه، وبينما هو ذات يوم يهيم في ضواحي جنيف متمتعاً بما يتجلى امامه من مناظر الطبيعة الخلابة اقبل الليل من دون ان يدري، ولما قفل راجعاً وجد ابواب المدينة مغلقة فحمد الله على هذه الفرصة وعزم على هجر جنيف والضرب في هضاب الارض وشعابها وكان عمره وقتئذ ست عشرة سنة، فسار في مقاطعة السافوى فالتقى به قسيس كاثوليكي فأرسله الى قصر سيدة تسمى مدام دي وارانس اخذت على نفسها رد البروتستانت الى الكثلكة، فراقها حسن منظره فبعثت بهِ الى دير في مدينة تورين حيث اعتنق المذهب الكاثوليكي بسهولة، وبعد ذلك غادر الدير وفي جيبه عشرات الفرنكات ولما نفدت التحق بخدمة المنازل ليعيش

وبعد ما تنقل في مدن عديدة وبلدان شتى عاد الى قصر مدام دي وارانس فادخلته في دير قريب ليصبح قسيساً لكن نزعته الآفاقية ما لبثت ان عاودتهُ فشرد في البلاد وزار لوزان ونيوشاتيل وليون وباريس وحط رحاله في مقاطعة الشارميت الجميلة حيث مكث ثلاث سنوات من سنة ١٧٣٨ الى سنة ١٧٤٠، فعكف على الدرس والمطالعة واتمام ثقافته فدرس الكتب الفلسفية والتاريخية واللاهوتية والشعرية وغيرها

وبعد ما طوَّحت به الاقدار في بلدان اخرى عاد الى باريس وتعرَّف بالعلماء والفلاسفة، فكلفهُ الفيلسوف ديدرو ان يدبج المقالات الموسيقية اللازمة لدائرة المعارف، وفي سنة ١٧٤٩ وضعت ندوة العلوم في مدينة ديجون جائزة مالية لمن يحسن الاجابة عن هذا السؤال «هل تقدم العلوم والفنون ساعد على افساد الاخلاق او على تطهيرها؟»

ففاز روسو بالجائزة لان جوابه كان مضاداً للرأي العام القائل بان العلوم والفنون هذَّبت من طباع البشر ورفعت من اخلاقهم. فظهر دفعة واحدة وذاع صيته وانتشر اسمه ولما اظهر كتابه المسمى «رسائل في عدم المساواة» احدث الكتاب ضجة عظيمة ودوياً كبيراً في اندية الادب وفتحت الصالونات والقصور في وجه المؤلف الشاب لكنهُ كان جافياً في طباعه نفوراً

من الناس لا يحسن المعاشرة ولا يميل اليها ، فنبذ كل هذا وهجر المال الوفير الذي كان يتدفق عليه وعاد الى تجواله رغم تمسك رجال الادب والفلسفة بهِ

وفي سنة ١٧٥٤ رجع الى احضان البروتستانتية ، وبعد ما جاس الديار في فرنسا وسويسرا وانجلترا وعشق كثيراً وتبدَّل اكثر عاد الى باريس وسكن في منزل حقير وشرع ينسخ القطع الموسيقية ليجد ما يقتات بهِ بعد ما صودرت كتبه في كل البلدان تقريباً

وعندئذٍ تولاه شبه جنون كان يصور له الناس كلهم اعداء له يعملون على النكاية بهِ فأغلق بابه دون قصاده وزواره الذين كان معظمهم من علية القوم وذوي المكانة الادبية والعلمية وكان يطردهم بغلظة وفظاظة ، ومات في سنة ١٧٧٨ فقيراً معدماً ويقول التاريخ من المحتمل ان يكون قد انتحر مدفوعاً الى ذلك بالخلل الذي طرأ على عقله

﴿ مؤلفات روسو ﴾ لبث هذا الفيلسوف الكبير والكاتب العبقري حتى السابعة والثلاثين من دون ان يخط شيئاً او يبرز رأياً الى ان جرت مباراة اكاديمية العلوم في ديجون في هل ساعد تقدم العلوم والفنون على رقي الاخلاق او عمل على افسادها، فكتب رسالته الشهيرة وفاز بها على سائر المتسابقين وكان ذلك في سنة ١٧٤٩ ، ومنذ ذلك الزمن حتى سنة ١٧٦٢ اي في اثنتي عشرة سنة وضع كل مؤلفاته التي رفعته الى اعلى طبقة بين رجال الفلسفة والادب وهي «نارسيس» و«هيلويز الجديدة» و«رسالة في المناظر» و«العقد الاجتماعي» و«اميل» و«رسائل في عدم المساواة»

واما « اعترافاته» ومتممتها «التأملات» فقد الفها في الست عشرة سنة الاخيرة، وهي ليست بذات قيمة من الوجهتين الفلسفية والادبية، لانها ليست سوى تخيلات شيخ طاعن في السن يحيا بتذكاراته الماضية معيداً في مخيلته باشتياق عظيم ولذة كبيرة حياته السالفة المشوَّشة غير المنتظمة

﴿ آراء روسو الفلسفية الاجمالية ﴾ الانسان صالح في حالته الطبيعية ، وكيف يمكنه ان يكون غير ذلك والشرائع غير موجودة وعلم الاخلاق الاصلاحي لا اثر له ؟ فهو لا يخطىء ضد القواعد اذ ليس ثمت قواعد ، وهو اناني لكنه لا يتبع في ذلك غير الغريزة التي تملي عليه المحافظة على بقائه ، فهو اذن بريء كالحيوان ، لا يسعى الاَّ لاشباع حاجته فلا يمد يده باذى الى احد ، ولا يتطلب شيئاً غير ذلك اذا ما نال تلك الحاجة . وهو ذو احساسات لطيفة او متعبة توقظ نشاطه وتنبِّه غريزته ، ولا يتطرق اليه الفساد الاَّ في اليوم الذي يعلو فيه تفكيره على احساسه ويسمو فيه عقله على غريزته ، فعندئذٍ تخلّي انانيته الشرعية الجميلة المكان للمنفعة الظالمة الكريهة، فالتنازع والشقاء يتولدان من تعدد الاحتياجات ومن الابتكارات المصطنعة لِلذّات الآراء ، ومن الاحتياطات للمنافع المقبلة المخالفة للطبيعة، فالاجتماع قد افسده بايجاده فيه التفكير والعقل والمنفعة، وباماتته في عاطفته حاسة الشفقة ، وبتنبيهه فيه شهوات النفس الى ما وراء حاجته ، وبتخطيه في ذلك حدود الحاضر وتطلعه بلهف الى المستقبل القريب والبعيد

﴿ رأيه في «رسالته في عدم المساواة» ﴾ يظهر لمن يدرس مؤلفات هذا الفيلسوف ان آراءه متضاربة متناقضة ومباديء لاتسير على وتيرة واحدة بل هي متعارضة متباينة قد ينقض بعضها بعضاً ، وهذا ماعابه عليه كثير من النقاد ، ولكن من يتعمق في درس كتب روسو ويستوعبها بكل دقائقها يجد ان آراءه وان بدت في الظاهر غير ذات صلة فهي في الباطن متضامنة متناسقة متسلسلة ترمي الى غرض واحد وهو ان الانسان خلق حرًّا فاستعبد وولد سعيداً فأُرهق بالمظالم والمغارم ، وان الانسان الطبيعي اشرف نفساً وارفع مبدأً من الانسان الاجتماعي فيجب اذن الرجوع الى الطبيعة ولكن في عدم تقهقر الانسان عما وصل اليه في الاجتماع ، لان الطبيعة لاتتقهقر — وهنا سر المآخذ التي يأخذها النُقَّاد على روسو — فهو يعترف في بعض كتبه مُجلياً هذه النقطة من ان الانسان الاجتماعي افضل من الانسان الاصلي أي من الانسان القديم الذي كان يعيش في احضان الطبيعة كالحيوان الاعجم ، ولكن يجب ان ينقّى الاجتماع من الشوائب التي تسللت اليه لكي يتسنى للانسان الاجتماعي ان يعيش في بيئته الجديدة حرًّا طليقاً من كل قيد ، سعيداً لا يرهقه عَسْف ولاينزل به ظلم او جور ، بعيداً عن المؤثرات الاجتماعية التي تفسد ميولهُ الفطرية السامية وتدهور اخلاقه وتنزل من سمو نزعاته ومراميه . واما رأيه الذي ابداه في عدم المساواة فينحصر بقوله : ان رذيلة الاجتماع الاساسية هي عدم المساواة بين افراد البشر ، وتوجد في الطبيعة ايضاً نقيصة مثل هذه لكنها لا تمنع احداً من ارضاء شهوة نفسه ، ولا تُعفي احداً من العمل على ارضائها ، فهي تترك كل واحد حرًّا وتوجده صالحاً وسعيداً ، واما عدم المساواة الاجتماعية فهي تخلق امتيازات بين افراد بني الانسان فتقول لبعضهم خذوا كل شيء ولا تعملوا شيئاً بينما تقول لسواد الناس : كدُّوا واتعبوا ولكن ليس لانفسكم بل لغيركم . فتُوجِد بذلك ظُلاَّماً وعبيداً واشراراً واشقياء

واصل الداء الاجتماعي المِلْك ، فهو ركن الهيئة الاجتماعية ودعامتها المتينة ، فالقوة والجاه والعظمة والشرف كل هذه الصفات المجحفة تعود الى عدم المساواة في توزيع الاموال أي تعود الى المِلْك ، وبمراعاة هذه الحالة يمكننا ان نعبر عن الشر الاجتماعي بانه تعارض بين الغنى والفقر

﴿ جوابه عن سؤال اكاديمية العلوم في ديجون ﴾ لما كان الاجتماع شريراً في جوهره ، ولما كان كل تقدمه ينحصر في كونه يسير من سيء الى أسوإ ، فَسِمَةُ الحالة الاجتماعية البارزة هي دليل على فساد اشد واقوى ، أي كلما امعن الاجتماع في رقيه كان شره أعم وضره أتم ، لان تقدم الهيئة الاجتماعية يقاس بدرجة إيناع الآداب والفنون التي هي ابتكارات الانسانية الذكية ، غير انها تدل دلالة واضحة على عَسْف هذه الانسانية وظلمها ، لان هذه الابتكارات متولدة من الشر ، وهي في الوقت نفسه تُذْكي هذا الشر وتزيد في ضرامه ، لاننا نرى في كل مكان الآداب والفنون على صلة وثيقة بالترف ، وما الترف الاّ غنى البعض بشقاء الكل

﴿ مذهب روسو في العقد الاجتماعي ﴾ الرجوع الى الطبيعة . . ولكن لما كانت الشقة قد بعدت بين الحالة الفطرية والحالة الاجتماعية لايتسنى للانسان ان يتخلص من هذه ليعود الى تلك . واذا أمكنه ذلك اصبح اشقى مما كان ، لان الانسان المتوحش والانسان المتمدن يختلفان اختلافاً عظيماً بنزعاتهما وعواطفهما وامیالهما وخوالج فؤاديهما حتى ان ما يسبب سعادة الواحد يعود بالتعس على الآخر ، لان الانسان المدني افضل من الانسان الفطري من عدة وجوه ، ولو انهُ في حالته الجديدة يتجرد من مزايا عديدة كانت تمنحها له الطبيعة، ولكنه يربح في مقابل ذلك مزايا اخرى عظيمة، فخواصه تتمرن وتتبسط ، وقواه العقلية تتمرس بشؤون الحياة ، وافكاره تتسع ، وعواطفه تسمو وتشرف ، ونفسه كلها ترتفع وتملو حتى انه لولا التطرف في تقمصه الحديث الذي ينزل به في اكثر الاحيان الى دركة احط من التي ارتفع منها لوجب عليه ان يبارك الزمن السعيد الذي انتشله الى الابد من تلك الهوة العميقة ، والذي جعل منه مخلوقاً ذكيًّا بل صيره انساناً بكل معنى الكلمة

ان روسو لايود ان يعود الانسان القهقرى الوف السنين ليفوز بالمزايا الفطرية التي كان يتحلى بها بل يريد ان يحتفظ هذا الانسان بما وصل اليه من رقي عقلي وتثقيف ذهني وتقدم علمي دون ان تسف الاخلاق الاجتماعية بهذه الصفات السامية الى الدرك الاسفل

ويتطلب هذا الفيلسوف من الهيئة الاجتماعية ان تمنح هذا الكائن النازع الى الكمال الحرية والسعادة والطيبة والصلاح وهي المزايا الطبيعية التي كان الانسان الاول يتحلى بها قبل ان يجرده منها الاجتماع ومساوئه ، ويعقب على ذلك بقوله ان الطبيعة اوجدت الانسان صالحاً لكن الاجتماع أفسده ، ولايمكن للانسان ان يعود الى صلاحه الفطري الا بالله الذي خلقه صالحاً لكنه زاغ وحاد عن الطريق السوي ، فالله القائم في نفسه يعيده الى ما كان عليه ، لانه ينبوع العزيمة الاخلاقية وسند الارادة وخير كفيل للتعهدات النفسية واعظم شهيد على خوالج القلب ونزعات الفؤاد، وبدون الله ينهار كل شيء ويضمحل بل يزول ويعفو أثره

ورأي روسو في العقد الاجتماعي ان لا يقتصر الاصلاح على الفرد بل يتناول المجموع ، فكما ان الفرد في حاجة الى تقويم مبادئه برجوعه الى فطرته الاولى كذلك الاجتماع محتاج الى الاصلاح في أسسه وتشريعه ، ويتسنى للهيئة الاجتماعية تنقية شوائبها برجوعها الى مبدئها أي الى السبب الذي كونت من أجله

﴿ فلسفة روسو في كتابه « إميل او التربية » ﴾ التجديد المطلوب للفرد يبدأ بالتربية ، فالطبيعة صالحة والهيئة الاجتماعية شريرة ، فيجب اذن ترك الحرية للطبيعة لتعمل عملها الصالح وابعاد الاجتماع عن التعرض لامر الطفل الذي يجب ان يكون بمعزل عن كل تأثير اجتماعي . فالطبيعة اوجدت الانسان المتوحش ، فلنجعل طفلنا متوحشاً ، ولنقوِّ جسمهُ ولننمِ

حواسه وننبّه غريزته ونساعد فكره على التخلص من احساساته ولنصبر حتى يبدو عقله بدون ان نستعجل نضوجه بالوسائل ، فالانسانية تعلمت بالاحتياج والاختبار ، فلنهيئ للتلميذ الاحتياج ولنجهز له التجارب والاختبارات ، فالشكل البارز للفساد الاجتماعي هو في وقتنا هذا « علم الادب » فيجب اقصاء الكتب عن التلميذ الذي لا يجب ان يبدأ بالقراءة الاَّ في السن التي يتسنى لعقله فيها نبذ الرذيلة وتفهم الجمال ، فالطبيعة لا تعرف غير الله ، واما القواعد الدينية فمن مبتكرات الهيئة الاجتماعية

فعلينا اذن ان لا نظهر للتلميذ غير الله ، وان لا نظهره لهُ الاَّ عند ما يتمكن هو من رؤيتهِ في الطهارة وفي لا نهاية جوهره ، فاذا نهجنا هذا المنهج شبَّ طفلنا قويًّا نبيهاً صالحاً ذكيًّا عاقلاً تقيًّا سعيداً لان الانسان الفطري الذي أُغنِيَ في الطفل دون ان يفسده مبدأ اجتماعي قد مكّنهُ من الفوز بكل مزايا الطبيعة دون ان يتسلل الى هذه المزايا نقائص الانسان المدني ورذائله

✽ من اين استوحى روسو آراءه وافكاره ✽ تدور كل مؤلفات روسو على محور الفردية، فمقيدتهُ باجمعها مستقاة مما ألَمَّ بشخصهِ ، لانهُ عبَّر في كتبهِ عن ذاتهِ وعن صلتها بالهيئة الاجتماعية . ولكن لا يجب ان يتبادر الى الذهن ان روسو انما اتى بآراء وافكار لم يسبقهُ اليها احد قبله ، فقد كان شأنهُ في ذلك شأن غيره من الفلاسفة والكتَّاب ، فالمتأخر يأخذ عن المتقدم نظريات يعود الفضل فيها اليهِ لتوسعه في شرحها وتبيانها وإلباسها ثوباً قشيباً لم يكن لها من قبل حتى تبدو كأنها جديدة لروائها وبهائها

فقد اخذ روسو عن الفيلسوف ديدرو رأيه في مناصبة الاجتماع العداء وفي العودة الى الطبيعة ، وتناول من كونديّاك مذهبه الخاص عن الاخذ بالامور الحسية والانتقال من المشخَّص الى المجرَّد ومساعدة الطفل على ان يكتشف بنفسه كل الافكار والآراء عوضاً عن ان نلقنهُ اياها (وهذا ما بنى روسو عليهِ كتابه المسمى اميل او التربية)

واخذ عن بوفون الآراء المدعمة والمقوّمة لحدسه عن الانسان الفطري وعن مذهب التحوّل القاضي بتطور العالم وما فيهِ من الكائنات ، وتناول من مونتسكييه فكرة الشخص المتوحش الخجول البريء وفكرة عدم المساواة وظلم الجماعات للفرد ، واخذ ايضاً عن هذا الكاتب الاقتصادي والاجتماعي وعن بوسييه وعن هبز المذهب القائل ان كل الحقوق تتخذ اصولها ودعائمها من الهيئة الاجتماعية وان الانسان يستمدّ هذه الحقوق كلها من الاجتماع نفسه، وتناول عن بسكال فكرة الحكم على المِلك الذي كان ذلك الفيلسوف يعده اغتصاباً بيّناً

وصفوة القول ان كل هذه الآراء كانت شائعة في زمن روسو فجمعها هذا وصاغها في قالب يستهوي القلوب ووسمها بميسمهِ الفصيح الشائق مستمدًّا من حالتهِ النفسية ومعيشتهِ ونشأته ما جعلها فتّانة خلاّبة

﴿ مقابلة في المعتقد بين روسو وفولتير ﴾ يعجب البعض كيف ان جان جاك روسو ظلَّ مؤمناً وهو الذي شنَّ الغارة على كل سلطة مع ان فولتير لم يتطرَّف تطرُّفه لكنهُ كان ملحداً كافراً لا يؤمن بالله بل لا يعتقد بوجوده. فروسو كان بروتستانتيًّا والتابع لهذا المذهب المسيحي لا يسعهُ مهما شطَّت بهِ الآراء ان ينقلب على دينهِ ويناصبهُ العداء لان المذهب نفسه يبيح لهُ حرية الرأي والتفكير والاخذ بما يرتئيهِ وان كان رأيه هذا مخالفاً لآراء اخوانه في المذهب والمعتقد، بينما الدين الكاثوليكي لا يسمح باقل شذوذ او خروج عن المعتقد المحدود وسلطته العليا التي يجب الوضوح لها تحتم على كل من لا يعتقد بجزئياتهِ وكلياتهِ ان يخرج من احضانه ولما كان فولتير كاثوليكيًّا شاذًّا في الاعتقاد متطرفاً في الرأي يأبى ان يخضع لسلطة مذهبهِ فقد أُبعد عن الكنيسة الكاثوليكية ولذلك ناصب الدين العداء طيلة حياته حتى ان الشطط بلغ بهِ الى ان يتصور الله سبحانهُ وتعالى فكراً — ليس الاَّ — انتجتهُ الاقيسة الفلسفية ووسوسة اظهرتها المنافع العمومية. فالفرق اذن بعيد بين فلسفة روسو القائمة على نبذ كل شيء في الدين ما عدا الله الذي كان جان جاك يعتقد بهِ اعتقاداً راسخاً وبين فلسفة فولتير المشيَّدة على الكفر والالحاد وعلى نبذ كل شيء حتى الله جلَّ جلاله

ولكن لا يسع كل انسان مهما تحجر قلبهُ وصلدت عواطفهُ ومهما إدَّعى الكفر والالحاد وملأ المسامع شقشقة لسان وحشا الكتب بالمروق والزندقة الاَّ ان يعترف في قرارة نفسه بانهُ يوجد إله قوي يسيطر على العالم ويهيمن على العباد، ولذلك لما رأى فولتير الذي ملأ الدنيا بكفره والحاده نفسه على فراش الموت وتطلع فيما حوله فلم يجد صديقاً ولا حميماً حقيقيين ورفع رأسهُ الى علٍ فازورَّت عنهُ رحمة الله لانهُ لم يتطلبها. لما رأى نفسه في هذه التعسة اقرَّ رغم انفه بوجود الله الذي انكره وصاح من فؤاد مكلوم: اني اموت منبوذاً من الله والناس

﴿ مذهب روسو في بوتقة النقد ﴾ ان مذهب روسو وان كان خلاَّباً في مظهره الخارجي لكن باطنهُ يرتكز على دعائم تكاد تكون سفسطية اي قياسية ليس الاَّ ، لاسيما فيما يتعلق بتسلسله وبنتائجهِ السلبية، اذ لا يمكننا ان نوافق هذا الفيلسوف على زعمه من ان الانسان الفطري كان صالحاً للدرجة التي صوَّرهُ بها، اللهم الاَّ اذا كان صلاحهُ مماثلاً كما يقول روسو لصلاح القرد المسمى « الاوران أُوتان » الذي لا يفكّر بامر غده ولا يجمع المال ولا يدَّخره ولا يسخّر غيره من القردة ولا يستعبدها ولا يجيعها ولا يسجنها ولا يمعن فيها فتكاً وقتلاً

ثم الشر الموجود في الدنيا الذي ينسبهُ جان جاك الى الهيئة الاجتماعية، فهذا في حد ذاته قابل للنقد والتفنيد لان الاجتماع عمل طبيعي فيكون اذن صالحاً اذا كانت الطبيعة صالحة وشريراً اذا كانت شريرة، ولا يمكن والحالة هذه نسبة الشر اليهِ ونفيه عن الطبيعة طالما ان الاثنين مرتبطان والواحد منهما مشتق من الآخر، هذا فضلاً عن ان الاجتماع انما وُجد ليعالج

الشر ويداويهِ ويستأصله اذا تسنى لهُ ذلك. يقول روسو في كتابهِ «العقد الاجتماعي» ان الفرد قد باع نفسه بكليتها الى الهيئة الاجتماعية ، وهو قول مردود بطبيعتهِ لان الانسان لا يمنح الاجتماع من حريتهِ الا النزر اليسير الذي يكفي هذا الاجتماع ليقوم بالمهمة المطلوبة منهُ

واما مبدأ جان جاك فيما يختص بالملك الذي ينعتهُ بحجر الزاوية القائم عليهِ الاجتماع ويعده اصل شرور العالم ومنبع جرثومتها فلا يقوم على قاعدة ثابتة لا يأتيها الباطل لان هذا المبدأ مشكوك في صحته مثل حقائق الاشتراكية والشيوعية النظرية وتأثيراتهما العملية

وكتاب روسو المسمى «اميل او التربية» يكاد يكون عقيماً لانهُ لما كانت الطهارة الفطرية التي ينشدها ليست حقيقة راهنة فالتربية السلبية تصبح اذن جنوناً مطبقاً ، لان نبذ السلطة الابوية وابعاد الكتب عن التلميذ وتركه يتخبط في دياجير الجهل حتى الثانية عشرة من عمره من أضرّ الامور بهِ لان الذكاء لا يتقوّى ويظهر الا بالتمرين والممارسة ، واذا لم يمتلىء العقل بالحقائق امتلأ بالاكاذيب والترهات ، فكأن روسو اراد ان يمنع عن الطفل شرًّا فجلب عليهِ شروراً عديدة . فطريقته اذن في التربية منقوضة لانها لا تعدّ التلميذ للحياة التي تتلخص في كلمتين اثنتين لا ثالثة لهما وهما «سعي وملل» فالانسان خلق ليكد لا ليتمتع ؛ وليكد ويتعب ليس في الوقت الذي يطيب له الكد والتعب فيه بل في الوقت الذي يحلو لغيره او للحظ ان يطلب منهُ الكد فيهِ والتعب ، فالتربية يجب ان تعلمنا اذن ان نعمل ما نسأم منهُ في الوقت الذي نسأم من العمل فيهِ اكثر من غيره. هذا هو مجمل مذهب جان جاك روسو ، وهو لعمري نظريٌّ اكثر منهُ عملي ، ولا نغالي اذا قلنا ان تطبيقهُ يكاد يكون مستحيلاً لانهُ لم يعمل بهِ قط واكبر ظننا انهُ لن يعمل بهِ في السنين المقبلة بل في العصور الآتية مهما دار الزمن وتطورت طبائع البشر

﴿ الفضائل في مذهب روسو ﴾ ليس نقدنا لآراء هذا الكاتب الاجتماعي والفيلسوف الكبير دليلاً على ان مذهبهُ الفلسفي لا يؤْبهُ لهُ فقد ابدينا ما يؤاخذ عليهِ ليتسنى لنا اظهار حسناته الجمة بل فضائله التي وان كانت البشرية لا تقدر على العمل بموجبها للانانية المتسلطة على عقول بنيها ولما اختطته لنفسها من طريق لا يمكنها الحيدة عنها ولا النكوص ولكن هذا لا يمنع هذه الفضائل من ان تكون مثلاً اعلى للاجتماع لا يتسنى لهذا ادراكه لاسباب جمة لا يسعنا حصرها هنا

لقد بزَّ روسو فولتير بآرائه الفلسفية التي تأثر بها عصره تأثراً عظيماً حتى كانت السبب المباشر لشبوب الثورة الفرنسوية . فقد اوضح في كتاب «العقد الاجتماعي» ان الهيئة الاجتماعية شركة غايتها المحافظة على كيان الاعضاء المؤلفة منهم والدفاع عنهم ، وان الحكومة لا تكون شرعية الا اذا جعلت غايتها الوحيدة المصلحة العامة ، فاذا راعت ذلك انتفت المظالم وزالت المغارم

ويغلب على الظن — خلافاً لما توهمه البعض — ان روسو لم يسع لاسقاط شكل من اشكال الحكومة بل عمل ما في وسعهِ للاشاة مبادىء الحكومات وغاطها التي عدَّها مجحفة بحقوق الافراد ، فاذا راعينا ذلك تبدَّى لنا ان مذهب سيادة الامة هي الحقيقة الراهنة التي لا نزاع

فيها لانها تنفي استغلال الشعب بواسطة الجماعات او بواسطة فرد واحد

ويمتاز روسو بكونهِ اول من حمل على المشكلة الاجتماعية الخطيرة التي تنحصر في الترف من جهة والحرمان من جهة اخرى وفي الغنى والفقر والانانية والكد للغير ، فكل هذه المظالم التي تحيق بالافراد اساسها الامتلاك فاذا زال هذا السبب زالت نتائجه واضمحلت مسبباته الوخيمة

وقد اصاب بقولهِ في «عدم المساواة» ان عدم المساواة السياسية والاجتماعية تكاد لا تظهر ولا يبدو لها اثر اذ كان هناك تساوٍ في الاخلاق والعقول والمدارك ، بحيث يعيش الاشراف والنبلاء والمسيطرون نفس المعيشة التي يعيشها عامة الشعب ويكون لاولئك نفس الافكار والآراء التي لهؤلاء تنتفي عدم المساواة فلا يعود ثمت غرم ولا ظلم . ورأي روسو الذي ابداه في روايةِ « هيلويز الجديدة » من الآراء الاجتماعية السديدة ، فقد اظهر فيه تجدد الانسان الخلقي الكامل وكيف يحصل ويتمُّ ، وشنَّ على الكذب الاجتماعي والنفاق الانساني غارة شعواء ، لان هيئتنا الاجتماعية العتيقة قد شاخت ونال منها الكبر وهي تعيش معيشة صناعية لا طبيعية ، فدأبها في حياتها الرضوخ للعواطف والملاذ وجنوحها للسلوك والآداب الخُلقية الخارجة عن دائرة الحقيقة ، فالاعتبارات عندها تسمح بازدراء الفضائل عوضاً عن ازدراء التقاليد المرعية واللياقات الوضعية ، ومما يؤسف لهُ انها بعد ما تطلب من الانسان التضحية بضميره وبعفتهِ ونزاهتهِ واستقامته في سبيل انالتهِ الهناءة التي يصبو اليها لا تنجز الوعد بل تنقض عهدها معهُ دون مبالاة كأنها لا تأتي امراً إداً

ومن اجمل ما في كتاب «اميل او التربية» الفكرة الاساسية القائلة : اذا كان نشوء الفرد يردّد على وجه الاختصار تطور النوع وارتقاءهُ فتعليم الطفل يجب ان يظهر بشكل ضافٍ حركة الانسانية العامة ، لان سن الاحساس يسبق سن التفكير ، والتربية الجسدية تسبق التربية العقلية ، فيجب اذن في بادىء الامر تقوية الجسم وتحديد الحواس ، ولا يمرّن العقل الا ليخدم الحواس والجسم ، فالطفل ينشأ والحالة هذه متوحشاً قوياً حذقاً لبقاً مراوغاً محتالاً ، وأما الذكاء فيأتي بعد ذلك اي عند ما تهيأ لهُ كل الاعضاء الصالحة التي يتسنى لها تقديم ما هو في حاجة اليهِ من التأثيرات والمشاعر ، وتتمكن من تأدية كل ما يطلبهُ منها من الفعال والاعمال

هذا هو الفيلسوف الكبير جان جاك روسو الذي قام في القرن الثامن عشر في وجه الهيئة الاجتماعية متهماً اياها بازاغة الانسان عن محجة الصواب وطالباً منها تركه ليعود الى احضان الطبيعة التي يجد فيها الطيبة والصلاح ، فقد قامت فلسفته كلها على الرجوع الى الحالة الفطرية التي يعدها اكبر مهذب للاخلاق واعظم مثقف للمدارك

وقد كان لمذهبه هذا في ذلك العصر الذي عمَّ فيه الفساد وتدهورت فيه الاخلاق حتى بلغت الدرك الاسفل صدًى دَوَى في ارجاء المعمورة فرفع بصاحبه الى السماك الاعزل

القاهرة جورج نيقولاوس
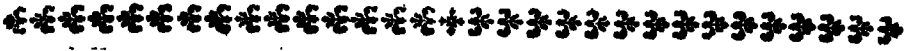
ما هو العلم

ليعقوب فام
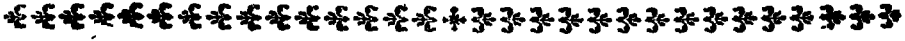
كنت اتحدث مع طالب في احدى المدارس العالية ، وقادنا الحديث الى العلم ومعنى العلم وغايته، فاخبرني الطالب ان استاذاً من اساتذة الجامعة يعرّف العلم بالكلام الآتي او بما هو في معناهُ: «العلم هو الحقائق التي اذا وضعت امام عقل بشري في احوال معينة يفهمها كما يفهمها اي عقل بشري آخر في الاحوال نفسها ، وهذه الحقائق لا تتغير بمرور الزمن».فلنأخذ هذا التعريف ولنجعله اساساً للبحث عسانا نخرج منهُ بشيء

ونستطيع ان نزعم لاول وهلة ان هذا التعريف لا ينطبق على الواقع وذلك لان العلم ليس هو الحقائق اولاً ولان العقل البشري لا يعرفها حتماً في كل الاحوال ثانياً ، ولان الاحوال لا تتشابه ثالثاً

لست افهم في الواقع كيف ان وجود نفس بشرية في احوال مشابهة لاحوال نفس اخرى يقدم او يؤخر في معنى العلم . هل ولادة الانسان في بلاد باردة او حارة ، وخضوعه لمؤثرات بيئة معينة من تعليم وتربية وحياة اجتماعية ، هل تؤثر هذه جميعاً في معنى العلم . ثم ما هي هذه الاحوال التي يجب ان تتشابه ؟ هل هي احوال البيئة ام احوال نفسية سيكلوجية ؟ هل مرض العالم او الفرد ، وهل احساساته النفسية من غضب ورضى وحزن وفرح، يغير من معنى العلم ؟ ام يقصد بالتشابه في الاحوال درجة معينة من الثقافة تمكن الانسان من فهم الحقائق كما يفهمها غيره ، وما هي الدرجة وكيف نقيسها ونعرفها على التحقيق ؟ كيف نعرف ان فلاناً وعلاناً في درجة واحدة من الثقافة . الحق اني اشعر ان التشابه في الاحوال كلام مبهم مرسل لا يمكن التثبت منهُ ، واعرف ايضاً من الدراسات النفسية ان هذا التشابه في الاحوال غير مستطاع ، واعلم ان لكل انسان في الدنيا شخصية مستقلة قائمة بذاتها لا يمكن ان تشبه شخصية اخرى من جميع الوجوه . الحق انهُ من الخطأ الكبير ان يبني الاستاذ تعريفه للعلم على شيء لا يمكن ان يتحقق ، لانهُ ظاهر من كلامه انهُ اذا لم يتوافر هذا الشرط انهار التعريف

وضع ارسطو مبدأً في الفلسفة الطبيعية Physics وهو هذا « لو قذفت بثقلين مختلفين من معدن واحد من مكان مرتفع ، يصل اكبرهما الى الارض قبل الآخر » فكأنك لو قذفت قطعتين من الحديد احداهما تزن رطلاً والاخرى رطلين الى الارض من مكان مرتفع ، فلا بد ان تصل القطعة التي وزنها رطلان قبل الاخرى ، او بعبارة اخرى ان جذب الارض لهذه اسرع من جذبها لتلك . استنبط ارسطو هذه القاعدة وفهمها في ظرف معين ، وفهمها الوف

من الناس ومئات من العلماء واخذوا بها في ظرف معين ايضاً فهل هذه حقيقة اولاً وهل هذا علم ثانياً . اظنهُ من المحتم ان نقبلها على انها حقيقة علمية اولاً وعلى انها علم ثانياً اذا اخذنا بالتعريف السابق

ثم جاء جاليليو بعد ذلك بقرون واجرى هذه التجربة من قمة برج بيزا المائل فوصلت القطعتان الى الارض في وقت واحد ، وشهد هذه الظاهرة اساتذة الجامعة زملاء جاليليو، ولم يفهموها وزعموا ان جاليليو مخطىء وارسطو مصيب. نعم اخطأ جاليليو لان المعلم الاول لا يمكن ان يخطىء ، ثم اخطأ جاليليو ايضاً لانهُ اجرى التجربة اصلاً ، وكان يجب ان لا يجربها او يفكر في هذا بعد ان قال ارسطو بضده . تشيع الاساتذة لارسطو وتشيع الجمهور للاساتذة وفهمهم كل عقل بشري في تلك الاحوال او في ذلك العصر . فماذا ينتج من هذا ، ينتج منهُ بالطبع ، اذا أخذنا برأي استاذنا ، ان هذه الظاهرة ليست من العلم ولا تمتُّ اليهِ بسبب ، ولكنها علم ايضاً وفي نفس الوقت لأن الدنيا بأسرها تؤمن بهذه الحقيقة في الوقت الحاضر والعقول البشرية في مختلف الاحوال — لا بل برغم اختلاف الاحوال — تفهمها وتؤمن بها

اذن لا يجدر بنا ان نقبل هذا التعريف لهذين السببين

ولكن هنالك ما هو ادهى من ذلك وامرُّ ، وهو هذا التطابق بين العلم وحقائقهِ ، ففرق كبير بين العلم في ذاته والحقائق العلمية ، فرق بين ان يكون دوران الارض مثلاً حقيقة علمية وبين ان يكون دورانها هو العلم نفسه. ألا يرى الاستاذ رأيي في ان العلم شيء والحقائق شيء آخر؟ لا بد ان يرى ذلك لانهُ ان لم يفعل ارتطم في مشاكل لا حصر لها . ومثل واحد او مثلان بسيطان يكفيان لاثبات ما نذهب اليهِ . اليك مثلاً بسيطاً : الاستاذ يقطن شارع كذا من الحي الفلاني بمدينة القاهرة . هذه حقيقة ويفهمها كل عقل بشري في نفس الاحوال . أليس كذلك؟ ولكن هل هذا علم؟ هل العلم وسكن الانسان في مكان معين شيء واحد؟ وهل يقول بهذا القول انسان عاقل . ومثل آخر: القاهرة لها حكومة — هذه حقيقة — ولكن هل هذا هو العلم؟ اظن لا يحسن بنا ان نسترسل في هذه الامثال لأن الخطأ فيها ظاهر واضح ولا تجوز الاطالة فيما هو ظاهر واضح

وملخص القول ان هذا التعريف خطأ وانهُ لم ينل حظهُ من التفكير المنظم بل ارسل ارسالاً من غير تمحيص ، وكان يجب ان يمحَّص ويدرس قبل ان يعطى للناس على انهُ شيء يحتمل النقد ويصمد له

نخرج من هذا كله بأن تعريف العلم على هذا النحو — سواء أ كان الاستاذ قد قال بهذا ام لم يقل بهِ — خطأ صريح ، واذن فلنبحث عن تعريف آخر يستطيع ان يثبت على النقد والتجريح ، ويصلح للتداول بين الناس ويكون مطابقاً للحقيقة والواقع

ولكي نصل الى المعنى الحقيقي للعلم يحسن بنا ان نتناوله من ناحية وظيفته ، فهذه هي الطريقة المثلى في تفهم امثال هذه المباحث ، فلو اردت ان تفهم معنى الفلسفة او علم الاجتماع او علم النفس او الطبيعة والكيمياء والفلك وامثال هذه الضروب من العلم ، يكون من المفيد المجدي ان تنظر فيما تفعل هذه العلوم ، ماذا تتناول من مظاهر الكون وماذا تفعل بهذه المظاهر عند ما تتناولها والوسائل التي تستخدمها هذه العلوم عند ما تتناولها . كل هذه وأشباهها امور لا يمكن الاستغناء عنها عند بحث اختصاص كل فرع من العلوم على حدة ، وكل الفروع مجتمعة ، وفي معنى العلم عامة . لست ارى طريقة اخرى لبحث العلم باي شكل من الاشكال

والشيء الذي نلاحظه هو ان العلم يتناول مظاهر الطبيعة هذه بالبحث والتقليب كي يستطيع أن يميز بين السبب والمسبب ، العلة والمعلول ، كيف أتت هذه الظاهرة المعينة هنا ، وماذا أتى بها ، وما هو الأثر الذي تخلفه ، او ماذا تصنع بعد ان أخذت مكانها من نظام الدنيا . فالماء ظاهرة من الظواهر ، ولكن كيف تكوّن ، وماذا كوّنه ، وما هي مقادير أجزائه ، وهل هذه الاجزاء وحدات صماء ام هي الاخرى مركب من اجزاء اصغر وادق وما خصائص هذه الاجزاء على حدة ، وكيف نقيسها هل نعدها واحدة واحدة أم نكيلها بمكيال ، ام نزنها ام نقيسها بالذراع . كذلك يسير بنا العلم على هذا النمط الى ان نصل الى حيث يستطيع العلم أن يقودنا

قلنا ان العلم يتناول الظواهر الطبيعية ، ونقصد هذا على اطلاقه ، وبمعنى آخر نقصد بعض العلوم التي يكون موضوعها من صنع العقل البشري ، أي ان المواد التي تتناولها بالفحص والتقليب ليس لها وجود موضوعي بين المظاهر المادية ، ومن بين هذه المواضيع علم المنطق والرياضيات ، فليس لهذه الانواع من العلم مظاهر موضوعية تبحثها وتدرسها ، وانما موضوعها هو في الواقع من خلق العقل البشري ، فليس للميتافيزيقا موضوع مادي تبحث فيه ، وكذلك ليس للارقام اوالترتيب المنطقي للتفكير وجود مستقل عن العقل البشري ، ومع ذلك ندمجها جميعاً ونطويها تحت المظاهر الطبيعية لأن الانسان في جملته موجود مادي ، او هو في مجموعه مظهر من مظاهر الطبيعة ، وعلى هذا نعتبر ما يوجده ويخلقه من مظاهر الطبيعة شأنه كشأن كل شيء آخر من الموجودات

اذن فأول شيء نلاحظه عن العلم انه يتناول المظاهر الطبيعية بالتقليب والبحث ، ولكن لماذا يقلبها ويبحثها ، وما الذي يسعى وراءه من هذا التقليب والبحث

فأول ما يصنعه العلم هو ان يشاهد هذه الظواهر لكي يتعرف خواصها والملابسات التي تلازمها ، كأن تكون سائلة أو جامدة او غازية ، وثقيلة او خفيفة ، وتتصرف كذا او كذلك في الاحوال المتباينة ، فالنور مثلاً ينتقل من مكان الى مكان في امواج من

طول معين ، وينحني عند ما يمر بجوار الاجرام السماوية بحسب مذهب اينشتين ، وينكسر عند ما يمر في الغازات والسوائل والجوامد الشفافة كالماء والزجاج ، ويتحلل الى ألوان عند ما يمر في المخروطات البلورية ، وله ضغط يستطاع قياسه ، ولا يظهر الا اذا كان انعكس على الاجسام ، وغير ذلك من هذه الخواص والمميزات التي تلازمه ، فكأن وظيفة العلم الاولى هي ان يصف المظاهر الطبيعية

ووظيفة العلم الثانية هي ان يحلل تلك الظواهر الى عناصرها الاولية التي تتكوّن منها ، والواقع ان كثيرين من الفلاسفة والعلماء يذهبون الى ان وظيفة العلم الاساسية هي ان يحلل الاشياء ويرجعها الى ما تتركب منه من المادة ، وادوات العلم وآلاته مصنوعة لهذا الغرض بعينهِ قبل ان تكون مصنوعة لأي غرض آخر ، واظن ان هذا هو الواقع . نعم لا ننكر أنه يركّب بعض تلك الظواهر في بعض الاحيان ، كأن يجمع بعض المواد الى بعض ويكوّن منها وحدات جديدة قد يكون لها خصائص ومميزات لم تكن لعناصرها الاولى ، لاننكر ان العلم يستطيع ان يركب الماء من عنصريهِ ، ويستطيع ان يركب كثيراً من المواد العضوية من عناصرها ، ولكنه لم يفعل ذلك ولم يحاوله بوجه من الوجوه الاّ بعد ان أخذ الماء كما قدمته الطبيعة وحلله وعرف عناصره ونسب هذه العناصر بعضها الى بعض وخواص كل عنصر على حدة وتصرفه في الظروف المختلفة ثم بعد ان بحث كل هذا وعرفه حق معرفته ، اخذ يكوّن الماء من هذه العناصر ، وهكذا فعل في المواد العضوية . فكأن العلم يحلل الظواهر ليفهمها ثم يركبها على سبيل التمثيل لا على سبيل القيام بوظيفته

وهذا ليس مستغرباً في الواقع لاننا نلاحظ ان الظواهر الطبيعية تهبط علينا مركبة جاهزة ، وليست محاولة مفككة ، فالحال كذلك في الماء والهواء والنور والصوت والظواهر الفلكية وحتى الاعمال الانسانية والخوالج والمشاعر النفسية تقفز من النفس الى العالم الخارجي مركبة من عناصر كثيرة متباينة مختلفة ، فيسعى علم النفس مثلاً الى تحليلها الى عناصرها الاولى وبحث كل عنصر على حدة

اذن فالعلم يصف الظواهر ثم يحللها الى عناصرها الاولى ، ثم له بعد ذلك وظيفة ثالثة وهي انه يرتب هذه الظواهر ويبوّبها ويضعها في مكانها من نظام الطبيعة والحياة ، ذلك لانه وجد بالاختبار ان لكل ظاهرة علاقتها بالظواهر الاخرى ، فهي سبب في بعض الاحوال ، وهي نتيجة في بعض الاحوال الاخرى ، لا بل هي سبب لشيء ونتيجة لشيء آخر في معظم الحالات ، والمشاهد في هذا الكون الذي نعيش فيه انه لاتوجد ظاهرة واحدة منفصلة عن باقي ظواهر الكون ، ليس لاية واحدة منها كيان مستقل كل الاستقلال عن نظامنا هذا الذي نعيش فيه ، ليس لكوكب صغير او كبير وليس لجرم من الاجرام السماوية

او لذرَّة من الذرَّات في هذا الكون، ليس لكائنٍ من كان ،من الانسان الى الالكترون،وجود منفصل عن باقي ما يحيط به من الذرات والموجودات السماوية والارضية ، وحتى الفكر نفسه الذي هو أمر معنوي ليس له وجود مستقل عن الظواهر المادية المحيطة به

فوظيفة العلم الثالثة هي ان يحدد العلاقة بين هذه الاشياء ويدل على حلقة الاتصال بين هذه الظواهر ، ليس هذا فقط ولكنه يبين ايضاً النسب العددية ، ونحن نقصد بالنسب العددية ، مقدار هذه النسب بالقدح والرطل والمتر ، في المسائل المادية الصرفة ، والنسب المنطقية ، او السبب والنتيجة في العلوم الاجتماعية ، ولذلك نرى ان العلم يسير في الارض ومعه الميزان والمكيال والمقياس ، ويستخدم هذه جميعاً في ابحاثه المختلفة وفي تبيان الصلات بين الظواهر الطبيعية المختلفة ، ويجب ان نذكر في هذا المجال ان السببية البينة ان هي في الواقع الاَّ الترتيب الزمني بين الظواهر ، فالسبب يتقدم النتيجة في الزمن ليس غير، والنسبة بينهما في الواقع تقاس بالساعة والدقيقة

واذن فقد توصلنا الى استقصاء وظيفة العلم ، ووجدنا انها تنحصر في وصف الظواهر الطبيعية اولاً ، وتحليلها الى عناصرها الاولى ثانياً ، وتبيان النسب العددية بين عناصرها ثالثاً ، هذه هي وظيفة العلم اولاً واخيراً ، ونستطيع اذن ان نضع تعريفاً منطقيًّا للعلم ، تعريفاً يستطيع ان يثبت على النقد والتجريح دون ان ينهار من اساسه

ولكن قبل ان نصوغ هذا التعريف يحسن بنا ان ننبه الى نقطة مهمة اخرى وهي هذه: ليس العلم شيئاً له وجود مادي مستقل ، ليس هو كائناً بأي وجه من الوجوه ، وانما هو في الواقع الطريقة التي يستطيع بها العقل البشري ان يفهم الاشياء او الظواهر الطبيعية . لقد خلقت فينا عقولنا هكذا ، وركبت في رؤوسنا بشكل لا نستطيع معه ان نفهم ظواهر الكون الاَّ بالمشاهدة والوصف والتحليل والترتيب المنطقي او ترتيب الاشياء بحيث يتبع بعضها بعضاً ، فكأن العلم في الواقع ليس شيئاً سوى الطريقة التي يستطيع العقل بها — دون سواها على ما نعلم — ان يفهم الاشياء . ليس للعقل البشري مندوحة عن هذه الطريقة لانهُ هكذا ركب وهكذا خلق

والآن نستطيع ان نعرف العلم هكذا : العلم هو الوسيلة التي نستطيع بها ان نصف الظواهر الطبيعية ونحللها ونبين الصلات بينها ، او العلم هو الوسيلة التي يستطيع بها العقل البشري ان يفهم الظواهر الطبيعية ، وبمعنى آخر ليس العلم شيئاً سوى طريقة او وسيلة للتقارب بين حياة الانسان العقلية وما يحيط به في هذا الكون

وبعد فاننا نشكر الاستاذ لأنه اتاح لنا ان نبحث هذا الموضوع ، سواء اكان ما علمناه هو من قوله ام منسوباً اليهِ خطأ

الحضارة الفينيقية

وتأثيرها في التمدن القديم

للشيخ بولس مسعد

اللغة الفينيقية

اللغة الفينيقية احدى اللغات السامية المشتقة من اللغة الارامية التي انقرضت قبل زمن التاريخ . واشهر هذه اللغات العربية والسريانية والحبشية والفينيقية والاشورية والبابلية . والثلاث الاخيرة انقرضت

يرجع العلماء باللغات التصريفية الى اصلين عامين الاصل السامي او السرياني والاصل السنسكريتي . والاصل السنسكريتي ويعرف مع فروعه باللغات اليافثية نسبةً الى يافث لا يدخل في بحثنا هذا فلا نتصدى له . وأما الاصل السامي فيقسم الى فرعين عامين الفرع الشمالي او السرياني والفرع الجنوبي او الغربي . والفرع الشمالي ثلاث لغات : الآرامية والاشورية والكنعانية . فالآرامية ام لعدة لغات ترجع الى ثلاثة فروع جامعة وهي السرياني الحقيقي وهو افصحها والارامي والكلداني او النبطي . وكذلك الاشورية فقد تفرعت عليها عدة لغات اندرست الآن تماماً . وأما الكنعانية فهي لغة الشعوب الكنعانية ولها فرعان الأول العبرانية وهي لغة اهل الجبال من كنعانيي فلسطين واليوم لغة اليهود الدينية والثاني الفينيقية وهي لغة الكنعانيين الساحليين وعليها مدار الكلام في بحثنا هذا

﴿ تعريف اللغة الفينيقية ﴾ اللغة الفينيقية لغة فريق من ابناء كنعان ولذلك كثيراً ما سميت كنعانية ولا سيما في نبوءة اشعيا . وبينها وبين شقيقتها العبرانية من التشابه والتناسب ما يجعل التمييز بينهما متعذراً وهذا ما جعلهما في نظر علماء اليونان اسمين مترادفين لمعنى واحد . ولئن اختلفت لغة التكلم عند الفريقين من بعض الوجوه لاسباب اهمها ان الفينيقية كانت لغة اهل السواحل والعبرانية لغة اهل الجبال فان لغة الكتابة عند الفريقين واحدة . وليس في الفينيقية الا مميزات قليلة منها كثرة استعمال الضم في حروفها واهمال الخفض في التهجئة الاخيرة من الكلمة . وأما حذف الحركات الطويلة او حروف المدّ في الكتابة فغير مقتصر على هذه اللغة دون سواها بل كان يشمل قديماً اللغات السامية جميعاً . على ان وجوه

الشبه بين هذه اللغات تتناول كثيراً من القواعد والمزايا التي خلت منها اللغات التصريفية الاخرى نظير الحروف الحلقية واقتصار افعالها على زمانين وتشابه مشتقاتها . ومن مميزاتها انها تكتب من اليمين الى اليسار ما عدا الحبشية الحديثة . وهناك تشابه بينها في الحركات التي تستعمل وتلفظ وفي اسماء الحروف وغير ذلك مما لا سبيل الآن الى ذكره

ولا ادل على ما بين اللغتين الفينيقية والعبرانية من التشابه الشديد من ان الاسفار المقدسة لا تفرق قط بينهما وهي تسمي العبرانية لغة كنعان . ومما يستشهدون به على وحدة اللغتين ان جواسيس يشوع عند عودتهم من مصر خاطبوا راحاب الكنعاني بغير صعوبة وكذلك رسل الجبعونيين وسواهم من القبائل الكنعانية تكلموا امام الاسرائيليين من غير مترجم. وهنالك شواهد اخرى كثيرة تثبت ان هاتين اللغتين كانتا في العصور القديمة ولا سيما في عصر ابراهيم ابي المؤمنين شديدتي التقارب والتناسب وانه ليس هنالك ما يحول دون القول ان اللغة الفينيقية هي التي اختيرت دون سائر اللغات لنقل اول وحي وأول سنّة منزلة الى اهل الارض قاطبة

﴿ منشأ الحروف الفينيقية ﴾ اما لغة الكتابة عند الفينيقيين فترتقي في نشأتها الى اقدم عصور التاريخ والحروف الفينيقية هي في اعتبار جمهور من العلماء اصل حروف الهجاء لسائر اللغات . ذلك ان فن الكتابة كان في اول امره مقتصراً على صور ورسوم تشير اما الى مادة حقيقية موجودة او الى غرض مجازي لا يشار اليه الاّ بالرمز او الى صوت يدل على كلمة مقصودة او على بعض حروفها. ثم تطرقوا الى التعبير عن الفكر برسم صور دالة على مسمياتها بحقيقتها او مشيرة الى الغرض المقصود بقرينة ما . وقد وجدوا من هذه الكتابة ستة انواع هيروغليفية وهي الهيروغليف المصري والعلامات الصينية والعلامات المسمارية في بلاد الكلدان والكتابة الحثية في سورية الشمالية وآسيا الصغرى والكتابة المكسيكية والكتابة الكانوتية وكلاهما في اميركا . غير ان هذه الصور لم تكن تنطوي في مدلولها الاّ على الماديات وما سهل ادراكه من المجازيات وأما التصورات المجردة من المادة كتصور العدل والرحمة والحب والحقيقة والكذب ونحو ذلك فلم يكن من الميسور تمثيلها بالصور فاضطروا لذلك الى التوسع في الاستدلال بنقش الصور على الهجاء الاول من مسمياتها بحيث اصبحت تلك العلامات والصور صوتية بعد ان كانت لا تجاوز حيّز التصور . ولكن هذا النوع من الكتابة ظل قاصراً لا يفي بالحاجة

ذلك كان شأن الكتابة لما انبرى الفينيقيون لاستنباط هجائها . وكان بين اللغتين المصرية والسامية او الفينيقية تشابه تام في خمسة عشر حرفاً اوعلامة (وليس ١٣ حرفاً كما يزعم بعضهم) وهي المعبر عنها عند المصريين بالحروف الصوتية فاخذها الفينيقيون واضافوا اليها سبعة حروف من عندهم تبعد صورها عن العلامات الهيروغليفية فاصطلحوا على تأدية لفظها بالخطوط المصرية بحيث الفوا من مجموعها اثنين وعشرين حرفاً جعلوها هجاء لغتهم

وهذا التقارب بين اللغتين المصرية والسامية او الفينيقية يرجع في نشأته الى عصر الرع
في مصر فقد طالت ولايتهم فيها من القرن الحادي والعشرين الى القرن السادس عشر قب
الميلاد . وباتصال الفينيقيين بالمصريين في ذلك العصر اتصل نفوذ فينيقية الى مصر قبل ا
يتصل نفوذ مصر الى فينيقية من حيث الصناعات والدين والآداب على نحو ما ذكرنا في مقتطف
اكتوبر سنة ١٩٣٢ ص ٣٤٤ ودخلت اللغة المصرية الفاظ وتعبيرات كثيرة من اللغات السامية
ومن العلماء من يذهب الى ان الفينيقيين لم يقتبسوا شيئاً من مصطلحات الكتابة المصر
وانهم استندوا في وضع حروف هجائهم الى الكتابة البابلية . غير ان هذا المذهب ضعيف
يقم عليهِ دليل محسوس الى اليوم ولو ان الفينيقيين كانوا رسل الحضارة البابلية والكلدانية الى العا
ان العلماء لم يجدوا الى اليوم حروف هجاء قبل الحروف الفينيقية وما وجدوه من الكتابات
القديمة انما يرجع بهجائه عن بعد او عن قرب الى اصل الهجاء الفينيقي. فهم يردون الحروف في
جميع اللغات الى خمسة اصول وهي الاصل السامي واليوناني الايطالي والايباري والشمالي
والهندي الحميري وهذه الحروف او الاقلام كلها على اختلاف اصولها ترجع في اعتبارهم الى ا
واحدة هي الحروف الفينيقية او الهجاء الفينيقي الذي نقله الفينيقيون مع متاجرهم الى الام
الاخرى . ولو كان الامر غير ذلك اي ان الفينيقيين ليسوا بمستنبطي هجاء لغتهم بل اقتبسو
من سواهم لوجدنا لهجائهم هذا اصلاً في الآثار المصرية او الاشورية والبابلية مع ان ما وجد
من هذه الآثار حتى اليوم لا يؤيد هذا المذهب . وتعويلهم في انشاء هجاء لغتهم على بعض
العلامات المصرية لا يصح ان يتخذ دليلاً على انهم ليسوا بمستنبطي الهجاء الاول لسائر اللغات

﴿ تطور الحروف الفينيقية ﴾ وقد طرأ على الحروف الفينيقية بعض التغيير فقلب
شكلها شيئاً وكيفها قليلاً بحيث لم تثبت الكتابة على وضعها الاصلي الى النهاية . وينحصر ما
دخل على هيئتها من التبديل في ثلاثة ادوار

الدور الاول — كانت الكتابة الفينيقية في هذا الدور شائعة عند الشعوب الآرامية
باسرها . وكانت تمتاز فيهِ بان من حروفها ما كان في بادىء الامر معوجاً كثير الزوايا ثم صار بعد
ذلك مستديراً . ويبدأ هذا الدور على عهد الرعاة في مصر السفلى وينتهي في القرن السادس قبل الميلاد

الدورر الثاني — انقسمت فيهِ الكتابة الفينيقية الى قسمين: الكتابة الصيدونية والكتابة
القرطاجنية . فالاولى استعملت من القرن السادس قبل المسيح الى صدر النصرانية . وتمتاز
بكون حروفها اكثر استدارة واقل تعرجاً من حروف الكتابة في الدور الاول. وكانت ضخمة
من وسطها دقيقة من رأسها . وأما الكتابة القرطاجنية فقريبة من الصيدونية غير ان حروفها
غير ملسوقة على خط مستقيم بل هي محدبة قليلاً

الدور الثالث — كانت الكتابة الفينيقية في هذا الدور تعرف بالبونية وهي الفينيقية الحديثة

وكانت تستعمل على الساحل الغربي من البحر المتوسط من القرن الثاني قبل الميلاد الى ما بعد استيلاء الرومان على سورية . وحروفها تمتاز ببساطتها وتشابكها تشابكاً اشكلت معهُ قراءتها

﴿ فروع اللغة الفينيقية ﴾ ومن العلماء من يرد لهجات اللغة الفينيقية الى ثلاثة فروع اصلية كبيرة وهي : فرع جبيل وهو اقرب هذه الفروع الى اللغة العبرانية . وفرع صيداء وهو الاهم والأكثر انتشاراً والفرع البوني وهو لغة الفينيقيين الذين هاجروا الى قرطاجنة

﴿ امتزاجها بسواها وانقراضها ﴾ وقد تقربت اللغة الفينيقية من الآرامية او السريانية عقب الفتح الاشوري . ثم دخلتها الفاظ وتعابير يونانية بعد غارة اليونان على فينيقية فاحدثت فيها انقلاباً كبيراً واوشكت ان تندرس تماماً ولاسيما بعد ان أصبحت اليونانية لغة اهل المدن وكبار القوم في الديار السورية . غير انها بامتزاجها باللغة السريانية ظلت لغة فئة من الشعب الى ان ظهرت اللغة العربية التي تقاربها فقضت عليها وعلى سائر اللغات السامية . واللغة السريانية ثلاثة فروع رئيسية : السرياني الحقيقي وهو افصحها وكان لغة اهل ما بين النهرين والشام الخارجة. والارامي وكان لغة اهل لبنان والشام الداخلة وهو اقل من الاول صراحة. والكلداني او النبطي وهو اقلها احكاماً وكان لغة جبال آسية الداخلية في اشور وبابل وهو ما اثبته ابو الفرج في تاريخه مختصر الدول . اما المحدثون فيعدون السرياني اقل اللغات السامية انسجاماً واحكاماً من حيث نحوه . وقد دخله كثير من الالفاظ اليونانية فسلبته رونقه واجهزت عليهِ غزوة الاسكندر فقل استعماله في الديار الشامية ولم يأت القرن الثامن عشر حتى كان اضمحل منها تماماً ولم يبق له من أثر هنالك الاَّ في قريتي معلولا ومار الياس من ملحقات دمشق . غير انهُ مع ما انتاب هذه اللغة من الضعف ظلت لغة الطقوس الدينية عند السريان والموارنة الى ايامنا هذه خلافاً للغة الفينيقية التي كانت لغة البلاد الاصلية حتى الفتح الاشوري فانها انقرضت ولم يبق للغة الفصحى من اثر الاّ الفقرات التي ترجمت الى اليونانية نقلاً عن سنكن يتن المؤلف الفينيقي المشهور

﴿ انتشارها في افريقيا ﴾ أما في قرطاجنة والمستعمرات الفينيقية في افريقية الشمالية فان اللغة البونية وهي الفينيقية الحديثة ظلت لغة اهل البلاد الى القرن الثاني بعد الميلاد وبقيت مستعملة هنالك بين بعض طبقات الشعب الى القرنين الرابع والخامس من التاريخ المسيحي

ويؤخذ من اقوال العلماء المستشرقين الذين بحثوا في منشأ اللغات السامية وانتشارها ان اللغة البربرية الشائعة في بلاد فازان وما جاورها من الواحات ونواحي اطلس والصحراء الغربية والاقاليم الواقعة في الشمال الغربي من افريقية ذات لهجات او لغات كثيرة ولها علاقة وثيقة باللغات السامية ولا تخلو من صلة باللغة القبطية . وهي ترتقي في نشأتها الى عهد تأسيس قرطاجنة. وقد عثروا في السنة ١٨٢٢ على أمثلة قديمة من قلمها الأصلي منقوشة على صخور بين مرزوق وغات . وفي السنة ١٨٤٥ عثروا على أمثلة اخرى في واحات طوات . ثم وجدوا كتابات

اخرى منقوشة في واحات بنغازي وغدامس وسواها . ووجد العلماء تشابهاً شديداً بين هذه الكتابات والكتابة اللوبية التي وجدوها منذ نحو قرنين في قبر واقع على نحو ثلاثة أيام من خرائب قرطاجنة وحكموا بأن الحروف الهجائية اللوبية او النوميدية التي يستعملها البربر في كتابة لغة غيرسامية هي احدى الاقلام العديدة المشتقةمن الكتابة الآرامية القديمةالاصلية وانها تشبهها في بعض أجزائها بل تقاربها اكثر مما تقارب اللغة الفينيقية وانها اشتقت منها في عصر يرتقي الى ماقبل العصر الذي وضعت فيه الحروف الفينيقية التي وصلت الينا . وهذا التشابه بين الكتابة الآرامية والكتابة اللوبية النوميدية مما حمل العلماء المحدثين على الذهاب الى ان الحروف الفينيقية ليست باصلية وان الفينيقيين ليسوا بمستنبطي الهجاء بل لابد ان تكون سبقتهم اليه امة من الامم السامية التي عاصرتهم او تقدمتهم . والمشهور عند العلماء ان اهل ليبيه كانوا يستعملون لغة تقرب من السريانية والعبرانية لانهم متناسلون من الفينيقيين الذين تملكوا هذه البلاد وكذلك بلاد البربر فان نحلة من اهل صور ذهبت اليها في السنة ٨٨٦ ق . م وبنت فيها قرطاجنة ونشرت اللغة الفينيقية فيها ولذلك فان لغتها ظلت الى عهد طويل مقاربة للسريانية والعبرانية . فليس من المعقول اذن وهؤلاء القوم من سلالة الفينيقيين الذين استعمروا هذه الاقاليم ان يتفاهموا بغير اللغة الفينيقية . غير ان التحريف الذي طرأ عليها بحكم الزمن جعل لها صبغة خاصة أدت الى هذه الشبهة في أصلها ونشأتها

وصفوة القول ان الفينيقيين هم أول من وضع هجاء لغتهم وان تكن الحروف المستعملة عندهم مشتركة بينهم وبين القبائل السامية والكنعانية التي امتزجت بهم وتألف من هذا الامتزاج الشعب الفينيقي المعروف وكل ماكان يصدر وينشأ من الاعمال في البلاد السامية والآرامية والفينيقية بعد هذا الامتزاج كان يسمى فينيقيًا أو كنعانيًا نسبة الى هؤلاء القوم لانهم كانوا أشهر تلك القبائل واكثرها نفوذاً وعلماً وثروة

﴿ أثرها في اللغة اليونانية ﴾ وفي اللغة اليونانية شيء كثير من اللغة الفينيقية. وهذا الامتزاج يرتقي الى زمن هجرة النحل الفينيقية الى اليونان بقيادة قدم او قدموس الفينيقي في السنة ١٥٦٠ قبل الميلاد المسيحي . فان قدموس هذا جاء بقومه الى اليونان وهي غارقة في لجة عميقة من الجهل والغباوة والهمجية . وكانت تسكنها قبائل من البرابرة يعيشون عيشة حيوانية ذليلة في الكهوف وشقوق الارض . ولم تكن الكتابة معروفة عندهم فاقتبسوها منه ومن قومه وهذا هو السبب في مايرى من التشابه والتناسب في معظم حروف الهجاء واشكالها بين اللغة اليونانية واللغة السريانية والعبرانية او الفينيقية

والمعروف ان تاريخ اليونان لايرتقي في نشأته الى ماقبل القرن التاسع عشر قبل الميلاد وانه لما جاءتها اول قافلة من قوافل المستعمرين المصريين بقياده ايناكوس او اينيكوس قبل

المسيح بنحو ألفي سنة كان سكانها في حالة همجية مشهودة كما يستدل من تاريخ بوصويت وقاموس غايطانوس . وقد انشأ ايناكوس له مملكة في بيلوبونيز وأسس مدينة ارغوس وهو سليل الرعاة الذين اجتاحوا مصر وبعد ان استقروا في ممفيس نحو قرنين طردهم فرعون منها الى ارض الدلتا «اباريس» وضاق هذا الاقليم بهم فخرجت قبائل منهم في طلب الرزق خارج وادي النيل ومنها هذه الفئة التي امت بلاد اليونان بقيادة ايناكوس هذا . ثم لحقت بها قبائل اخرى بقيادة شيكروبوس واستقرت في اتيكيا واستولى زعيمها هذا على العرش في السنة ١٦٥٧ ق . م وهو اول من نقل الى هذا الاقليم عبادة اللاهة منيرفا وكانت من معبودات مدينة سايبس التي نشأ فيها هذا الزعيم بمصر السفلى . وهو الذي انشأ مدينة اثينا واطلق عليها هذا الاسم تيمناً باسم منيرفا لان هذا هو اسمها باللغة اليونانية

اما قدموس فهو من الرعاة أيضاً جاء بقومه الفينيقيين الى اليونان بعد طرد الفراعنة لهم من مصر السفلى . وكان يصحبه داناوس وقد انشأ ملكاً له في اقليم بيوتسيا وأقام هناك مدينة تيبايس وجعلها قاعدة ملكه وبث الحضارة الفينيقية في ذلك الاقليم ولقن الاهلين فن الكتابة . وحل داناوس في ارغوس واستحوز على عرشها وبث تمدن قومه بين سكانها وقيل انه رزق خمسين بنتاً ازوجهن من ابناء أخيه اجبتوس

وهجرة الفينيقيين الى بلاد اليونان لم تقف عند هذا الحد بل اتسع نطاقها على توالي الايام ولاسيما بعد ان طردهم يشوع ابن نون من اوطانهم فاموها جماعات حاملين اليها حضارتهم وثقافتهم وديانتهم وعاداتهم وصناعاتهم وفنونهم بدليل ما يرى من آثارهم في اسماء شعوبها ومدنها وابطالها واديانها مما اكثر العلماء من ذكره نظير بوكرت ونطاليس اسكندر وسواهما

﴿ الخلاصة ﴾ ويذهب بعض العلماء الى ان اللغة الكنعانية او الفينيقية والعبرانية لم يعثر لها على أثر الاّ في فلسطين وفينيقية ولبنان وفي المستعمرات الفينيقية ومعنى هذا في اعتبارهم انها نشأت في هذه البقعة لا في مكان آخر وهذا ما يستدل منه على ان الكنعانيين او الفينيقيين هم اول من استوطن الاقليم المعروف باسم فينيقية من الشعوب القديمة وان وجودهم هناك تقدم وجود كل قبيلة اخرى قديمة مختلفة اللغة وانهم اول من حرث ارضها واستغلها واول من بنى المدن وانشأ الممالك فيها . ولم يجيئوا اليها من الخليج الفارسي او من بلاد العربية كما زعم بعض العلماء نقلاً عن هيرودوتس والاّ لكانوا تركوا هناك اثراً من لغتهم يدل على نزولهم تلك البقاع قبل حلولهم في ارض كنعان هذه . والرأي الذي يعول عليه في هذا الشأن انهم قدموا رأساً من شنعار في كلديا ونزلوا على سواحل البحر المتوسط في البقعة التي سميت باسمهم عند تفرق الشعوب لاول مرة في تاريخ البشرية . وفي هذه البقعة الضيقة انشأوا حضارتهم العجيبة التي كان لها ذلك الشأن العظيم في التمدن القديم

هواجس الغرفة السوداء

نورة الشاعر

فارق النورُ في المساء الشعابا   والظلام البهيم غشّى الغابا [1]
وتمشى على الظلام انقباض   نشر الموت فوقه والخرابا
ووراء السياج ترقص أشبا   ح أخافت من الحقول الكلابا

اسمعي البوم وهي تنعب في النخـل   وطيف الدجى يروع الغرابا
ودويّ الرياح تصخب في الليـل   وتزجي على الفقير البابا

اقرئي لي..من الكتاب..قليلاً   قبل ان يطوي الفناء الكتابا
افتحي صفحة المزامير يا أخـت..   وغنّي لحناً يعزّي الشبابا

اسمعي الريح كيف تكسر في الغصـن   وتخفي على الطريق الشهابا
لم تزل تضرب النوافذ في الليـل — بعنف — وتدفع الأبوابا

(هو في فزع) اسمعي! وقع خطوة من بعيد ؟!

(هي) لا ! بل الوهم قد اضلّ الصوابا !

انظر الأفق..ويلتي ما اراه ؟؟

(هو) انهُ خاطف أضاء السحابا

اسمعي .. دقة على الباب.. ويلي   اطفئي النور .. لا تردي جوابا
خبئيني..خلف الستار.. وقولي   انهُ فرّ في الظلام وغابا

(هي) لا تخف ....

(هو) اسمعي عواء ابن آوى   إنهُ في الدجى يجيب الذئابا
اشعلي النور .. اسبقيني الى البا   ب فاني سأدخل المحرابا
اطفئي الشمع .. اشعليه .. تعالي   إننا سوف نقلق الأربابا
اضربي الدّف..حطميهِ..وضجّي   ثم صيحي..هيّا..أحلّي العقابا
لا .. تعالي نجثو هناك الى الصبـح   فقد يقبل الإله المتابا

اشعلي النور واقرئي لي قليلاً   قبل ان يطويَ الفناء الكتابا
افتحي صفحة المزامير يا اخـت   وغني لحناً يعزّي الشبابا

مصر   م.ع . الهمشري

---

(١) المقصود بالشاب هو المقتول المزروعة اثرة

كتاب الاغاني

لابي الفرج الكاتب الاموي

المعروف بالاصبهاني

المغزى الذي يقصد اليهِ الناقد من تصفح كتاب « الاغاني » ليس فيما تضمنهُ من الاخبار والسير واحاديث المجالس انما يبغي الناقد الفني من النظر في « عمل » جدي يعد من الاصول المنقطعة النظير في التصنيف العربي وبخاصة تاريخ الغناء والاطوار التي اعترت الصناعة وحدود تأثيرها في الطرائق وطبقات المغنين ومذاهبهم. وما يدل على سلامة نظر المصنف وصحة حكمه من فكرة او ملاحظة او رأي . ولكن صاحب كتاب «الاغاني» اختار طريقة الرواية. وكانت الطريقة السائدة في عصره . واستعان بسلامة ذوقه وحسن اختياره على تدوين الاغاني باخبارها ورتبها بطريقة « ينتقل القارىء بها من خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ومن اخبار قديمة الى اخبار محدثة ومن جد الى هزل حتى يكون النشط لقراءتهِ واشهى لتصفح فنونهِ »

وقد كان للرواية تأثير بين في طريقة كتابة التاريخ . خلقت الطريقة المجردة التي يقتصر فيها المؤرخ على ذكر الحادث وزمنه دون تعليل او ملاحظة او حكم . وهي الطريقة التي لم تسلم منها تصانيف مؤرخين من الفلاسفة مثل «ابن مسكويه» و«ابن خلدون». واتبعها مؤرخو الفرنجة انفسهم في العصور الوسطى وما بعدها . وتعرف باسم «الكرونولوجي» . ولما كانت الرواية سابقة لهذه الطريقة وكانت قديمة لانها ترجع الى العصر الاغريقي . فقد كان تأثيره ظاهراً لا في تدوين التاريخ وحده بل في العلم العربي نفسه وعند ما اتصل العرب بثقافات الامم القديمة انقادوا الى السليقة في التصنيف وخف تأثير « الكلاسيسزم » في اذهانهم

وجاءت الرواية عن طريق اللغة . اذ كانت اللغة كل علم العرب . والفضل للرواية في ان العرب دوّنوا . وكان علمهم اوسع بكثير مما دوّنوا . وكان الكلام ديوان بلاغتهم وذوقهم وتظرفهم . وكانت حافظة العربي هي العمدة وتغلبت هذه الملكة على سائر ملكات الذهن العربي . فلما كان اتصال العرب بحضارات الامم القديمة واشتراكهم في علوم الاغريق خلفت هذه الملكة اثرها القوي في اساليبهم ولم يسلم الشعر العربي بطبيعة الحال من ذلك الاثر

وكان الاموي الكاتب صاحب كتاب « الاغاني » من خير رواة عصره . وكان «عالماً بايام الناس والانساب والسير» وكان من كبار الحفّاظ . والتفوق في علوم الاسناد والرواية كان من تقاليد البلد الذي ولد فيهِ ابو الفرج . وهو اصبهاني الاصل . بغدادي المنشأ

ولقدكان انتساب ابي الفرج الى اصبهان وشرف ارومته من حظ العلم والاَّ فلا بد لنا من الاعتراف بالصفات الذهنية العظيمة التي خص بها اهل ذلك البلد . « وقد خرج من اصبهان من العلماء والائمة في كل فن ما لم يخرج من مدينة » . ولا ادري من هو ذلك المؤرخ العربي الذي ذكر ان حضارة العرب مدينة في الكثير الى الاجواء المعتدلة التي تأصل فيها الذهن العربي فان اصبهان من انقى بلاد الله هواءً واصفاها مناخاً واعدلها . ولذلك فان اهلها تطول اعمارهم ولهم مع ذلك عناية وافرة بسماع الحديث . واذا قيل حديث واسناد قيل لغة . فان الباب الملكي للتأويل عند العرب هو اللغة . و« للمناخ تأثير بين في اللغات[1] . وكانت ميزة الكاتب الاموي صاحب « الاغاني » — وهي ميزة كونها المناخ — انهُ كان عالماً في اللغة . وكان علمه في اللغة اداته في الكتابة .اداة بليغة هي زبدة ما يخرجهُ راوية للشعر

وفي الحضارة العلمية الاسلامية كانت الاحاطة باللغة نوعاً من التفوق الشائع الذي يرافق بصفة خاصة سائر فروع العلم .فكان الفقيه العربي يفزع اليهِ في الشرع كما يفزع اليهِ في الطب وهو مع ذلك حجة في اللغة .كأن العلم في اللغة والاحاطة بها مقدمة لازمة لكتاب معارف الفقيه العربي

هذا الى ان « ابن خلكان » الذي نعتمد عليهِ في استخلاص حياة الكاتب الاموي روى « انهُ كان يحفظ دون ذلك من علوم اخر : « الخرافات » . و « السير » . ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً منها علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم الخ ولعلكم تدهشون لذكره الخرافات بعد اللغة . وهو لا يعني بالخرافات الاقاصيص الشعرية المنسوبة الى الاغريق والفرس والهنود انما نعتقد انهُ يعنى بها الميثولوجيا .وكانت الميثولوجيا في الالياذة قاموس لغة الاغريق وكان يسرُّ ادباء الاغريق ان يرجعوا الى شعر هوميروس لكي ينسبوا اليهِ تصحيح لغتهم واساليبهم[2]

اما اجتماع البيطرة بالنجوم والجوارح في آلة المنادمة فاشبه بتآليف لوحة فذة لمصور أديب مثل «فرومنتان» وانها لتذكرنا بتظرف بيئة رقيقة من ارباب الأدب والشعر والنبل كالتي عاصرت آل ڤالوا في فرنسا . ولقد كان لبعض اللغويين العرب عناية وافرة بالبيطرة . وكانت علاقتها بالاسماء في اللغة من آلة المنادمة في المجالس . وكان الاصبهاني كأديب من أعيان الادباء وافرادهم منقطعاً الى الوزير « المهلبي » بلا شك من الوزراء الذين يجمعون الى التدبير والسياسة حماية أفراد الادباء والمشتغلين بالعلم .وحماية ارباب الفنون من تقاليد الانسانية التي لاتكاد تنقطع

كان العلم الذي يحضُّ عليه مناخ اصبهان هو الحديث والاسناد . وكان من تقاليدها ان يكثر فيها الحفّاظ . ولكن ابا الفرج كأديب وسع اطلاعه كل فروع المعرفة في عصره خص تفوقه في الرواية بالعلم باخبار الناس وايامهم . فكان مؤرخاً بالاصطلاح القديم « الكلاسيك» وكان مؤرخاً راوية اعانهُ ذوقه وصفاء ملكته وقوة روحه على الاحاطة باخبار الغناء في كل

(١) تاريخ الاندلس للضبي . طبع مدريد (٢) ايجر تاريخ النقد

اطواره . واحسانه في هذا الفن لاينسب الى عبقرية راوية من اعلام الرواة فحسب بل ينسب الى خصائص طبيعية اخرى . اثر اجداده الخلفاء . ذلك الاثر الذي خلص نشأته ورفع مستوى تهذيبه في بيئته. كان اذا فتش المرء نسب اجل سن فيها لم يكن بد من ان يجد في أصل نسبه حائكاً أو يهودياً !. وكان أبو الفرج الاصبهاني لطيف المذهب نقي الفطرة ظريفاً لا يمل

وان مجرد الموازنة بين مواهب الكاتب الأموي وما وسعه ذهنه الكبير من فروع العلم والطريقة التي اختارها في تأليف كتاب « الاغاني » تحملنا على الايمان بمدى ما بلغه انقياده للمذهب القديم في كتابة التاريخ . ولم تغب عنه مع ذلك الطريقة المستحدثة التي تعني بتمييز اطوار الفن وطبقات اربابه في ازمانهم ومراتبهم . فقال « لعل من يتصفح هذا الكتاب ينكر تركنا تصنيفه ابواباً (١) على طرائق الغناء « Modes » . (٢) وعلى طبقات المغنين في ازمانهم الخ» . ثم اشار الى طريقته فقال « ليس المغزى في الكتاب ترتيب الطبقات وانما المغزى فيه ماضمنه من ذكر الاغاني باخبارها» . وهي الطريقة الاخبارية القديمة المستمدة من علم الاسناد وكان أبو الفرج الاصبهاني من قبل ان يكون مؤرخاً للاغاني من كبار الحفاظ والرواة

هذا الى رأي آخر لابد من ملاحظته . وهو ان العرب لم يكونوا في الاصل مدوّنين . فانهم لما بدأوا بالتدوين ارتجلوا طرائقهم او اقتبسوها مما اطلعوا عليه من طرائق التصنيف عند الامم التي اتصلوا بها فكرياً . فهل وفق العرب عند نقل كتاب «الموسيقى» مثلاً اوقبل ذلك الى الاطلاع على تواليف اخرى في هذا الموضوع ؟ وجلي ان الكاتب الاموي قد رسم لنفسه الطريقة في تأليف كتاب الاغاني . وقد ذكر ابن خلكان انه «جمعه» في خمسين سنة واتفق الرأي على انه لم يؤلف في بابه مثله»

وقد استطاع أبو الفرج الاصبهاني ان يكون كاتباً موسيقياً ومن نقدة الفن دون ان تكون له مع ذلك ملاحظة ظاهرة او فكرة خاصة او استنتاج او تحليل كما يؤثر عادةً عن نقدة الفن وكان عذره عن الطريقة التي اختارها وقادته اليها غريزته التقليدية « ان الاغاني قلما يأتي منها شيء ليس فيه اشتراك بين المغنين في طرائق مختلفة لايمكن معها ترتيبها على الطرائق»

وكان أبو الفرج الاصبهاني قد صنف في البدء كتاباً سماه «مجرد الاغاني» واشار الى ذلك في المقدمة فقال « ... اذ كان قد افرد لذلك كتاباً مجرداً من الاخبار ومحتوياً على جميع الغناء المتقدم والمتأخر ...» . والظاهر ان هذا الكتاب كان مرجعه في تأليف « الاغاني » فقد اضاف اليه الاخبار والقصص بترتيب حسن « ليكون القارىء له بانتقاله من خبر الى غيره ومن قصة الى سواها ومن اخبار قديمة الى محدثة ومن جد الى هزل انشط لقراءته واشهى لتصفح فنونه»

فالعلوم التي نبغ فيها الاصبهاني اذا اجتمعت ألفت شبه اوتار مشتركة لهيكل كبير هو الغناء او الموسيقى العربية كلها يمت بصلة الى ذلك الهيكل ويتعلق به : من الحفظ الى اللغة الى السير

فعلم الجوارح . حتى تلك النتف من الطب والنجوم التي كانت تعد يومئذ من آلة المنادمة

ولقد كانت الاغاني العربية نفسها تحتاج الى الحفظ والرواية لان العرب لم تخترع حروفاً « نوتة » لتقييدها. وكان للشعر من حيث كونه صناعة « art » علم هو اللغة وفن هو الغناء: ويجب ان نعلم ان الاغاني العربية تمثل روح اللغة لا الروح العربي الذي انقطع بالعصر الجاهلي: وانها (اي الاغاني) تمثل العاطفة لا الحياة . وانها تتكلم عن الانسان لا عن الجمعية

وكان الاصبهاني كناقد فني وكاتب موسيقي من الطراز الاول يستخرج من مدخر ثمين اشترك فيه أثر اجداده وذوقه ولطف مذهبه فيما اختاره لنفسه من العلوم لكي يجمع في كتابه «ماحضره . . وامكنه جمعه من « الاغاني العربية قديمها وحديثها » وينسب « كل ماذكره منها الى (١) قائل شعره (٢) صانع لحنه (٣) طريقته من ايقاعه (٤) واشتراك ان كان بين المغنين فيه على شرح لذلك (٥) وتفسير للمشكل من غريبه وما لا غنى عن علمه من علل اعرابه واعاريض شعره التي توصل الى معرفة تجزئته وقسمة الحانه

وكانت مهمة طفيفة اذا وازننا بها علم الاصبهاني واتساع معارفه في هذا الباب واهتدائه الى مذهب التصنيف في تاريخ الغناء العربي على طرائقه وتمييز طبقات المغنين في ازمانهم ومراتبهم . ومعنى « ترتيب الطبقات » في عرف النقد الفني هو تحليل اطوار الغناء في ازمانه غير ان هذا المثل الاعلى في كتابه تاريخ الغناء بقي كحلم الشاعر في ذهن الاصبهاني الذي كان يعلم ان الناس تجهل اخبار الغناء ومن غنى شعره من الشعراء القدماء وطرائق الايقاع ومذاهب المغنين فكيف يستطيع ان يؤلف بطريقة تحليلية مدارها على الحكم والملاحظة والتفكير والاستنتاج. وانا نعتقد ان الكاتب الاموي اراد ان يتكلم عن الغناء العربي كفيلسوف وان كتابه «الاغاني» كان تجربة ثانية بعد كتاب «مجرد الاغاني» لم يقدر ان يتملص فيها من ضرورة التوفيق بين علمه الواسع وحاجة عصره الى معرفة الاغاني العربية . واراد الاصبهاني ان يتجنب الحشو فلم تمكنهُ طريقته من ذلك و «نقض ما شرطه على نفسه من الغاء الحشو» .واراد ان يكون خلقيًّا يراعي من اخبار الغناء « ما تحتاج الاحداث الى دراستها وتجمل بالمتأدبين معرفتها ! » فخالفهُ عيب العصر نفسه في رواية الاخبار. وهو عيب وقع فيه كثير من اللغويين . ونذكر ان المستشرق «س. دوساسي» عند ما نقل مقامات الحريري الى اللغة الفرنسية انتقدها «ارنست رنان» من الوجهة الخلقية ولكن عذر المترجم انه اراد ان تدرس اللغة العربية في تآليف كبار اللغويين انفسهم

ولقد كان الاصبهاني ككتابه يحفظ ذكرى ليالي الانس الحافلة بالغناء ووجوه التظرف والسمر والبلاغة وقصص الملوك في مجالسهم وسيرهم ومغازيهم ومجون الندامى واحاديثهم. ولولا الجزء الفني في الكتاب الذي لا يكاد يفهمه الناس لكان في وسع اي ناقد ان يعده من اشهى كتب الاقاصيص في اللغة العربية [البقية في مقال آخر] عبد الحميد سالم
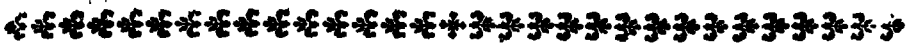
الابعاد الاربعة

معنى (الحيز — الوقت) في النسبية

لنقولا الحداد
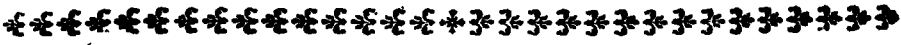
هوي الاستاذ نقولا الحداد نظرية النسبية فقضى في دراستها سنتين . درس بضعة عشر مؤلفاً لكبار علمائها، منها اثنان لاينشتين نفسه . ثم بسطها في كتاب بالعربية باسهل اسلوب مستطاع من غير استخدام الحسابات الرياضية الا عند الضرورة القصوى واضاف اليه ملحقاً رياضياً لبرهنة « النسبية الخاصة » لمن يشاء ان يطلع على النظرية من الوجهة الرياضية . ومن هذا المقال السهل التناول يرى القارىء ان الاستاذ حداد جعل نظرية النسبية الغامضة اوضح ما يمكن لافهام الجمهور

ربما كانت قضية الابعاد الاربعة اغرب قضايا النسبية وابعدها عن المألوف في اذهان البشر وادعاها للاستهجان . وقد زادها هُجنة الكتّاب الذين كتبوا عنها من غير ان يدرسوها ويفهموا المقصود منها فهماً صحيحاً . ففسّروا الابعاد بحدود الجسم الثلاثة : الطول والعرض والعمق (او العلو او السماكة) . واضافوا الزمن اليها بعداً او حدّاً رابعاً باعتبار انه من رتبتها ، من غير ان يفسّروا سرّ هذه الاضافة . فبحسب هذا التفسير لابدع ان تبدو تسمية الوقت او الزمن (رابع الحدود) امراً مستهجناً يستنكره العقل وينبوعهُ التصوُّر . ويمثلون على زعمهم هذا بقولهم : « لهذا الكتاب ، مثلاً ، حدود اربعة : طوله وعرضه وعمقه (او سماكتهُ) والوقت الذي هو فيه» . واذا سألتهم : مامعنى هذا الكلام وما علاقة الوقت الذي هو فيه بحدوده الثلاثة فلا يستطيعون ان يزيدوك تفسيراً . اجل . لا يستطيعون لان السخافة لاتحتمل تفسيراً

ليس للكتاب ولا لأي مادةٍ من الموادّ المحسوسة الاّ طول وعرض وعمق . وكذلك ليس لأي حيّز موهوم في الفضاء الاّ هذه الحدود او الابعاد الثلاثة فقط ، مهما تقلّب العقل البشري في عالم التخيُّل والتصوُّر . لان هذه الحدود الثلاثة هي طبيعة الحيز الهندسي الاقليدوسي المفروض الثابت او المشغول بمادة محسوسة ساكنة غير متحركة

واما نظرية النسبية فلا شأن لها بالحيز المفروض او الموهوم ولا بالجسم المادي الثابت . ولا تعترف بوجود حيّز معيَّن ثابت ولابوجود مادة ساكنة غير متحركة ، بل هي تذهب الى ان الحركة سُنَّة اساسية في المادَّة بمعنى ان كلّ ذرَّة وكل جسم وكل جرم في الكون متحرك ولولا الحركة لكان عدماً . ولذلك لا معنى للحيز او المكان الاّ بما يشغله من المادة
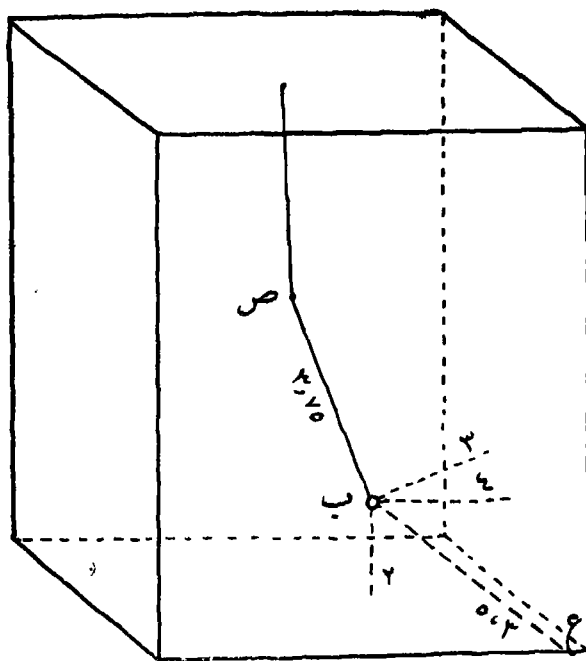
الشكل الأول

الشكل الثاني

مقتطف ابريل ١٩٣٣

امام صفحة ٤٤٥
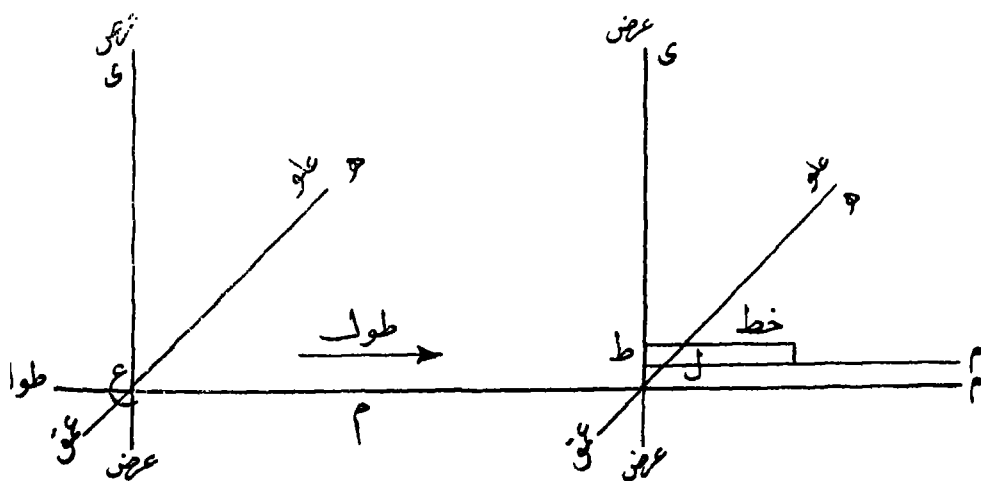
او من مفاعيلها كالتشعّع والجو الكهربائي المغنطيسي والجو الجاذبي . وحيث لامادّة ولا شيء من مفاعيل المادة فلا شيء يسمى حيّزاً او مكاناً . وبعبارة اخرى (غيرمنطقية) اذا خلا الحيز من مادة او من مفاعيلها كان عدماً . قلت «غير منطقية» لانه لاوجود لحيز خال من المادة . هو العدم كما قلنا

يستفاد مما تقدّم ان النسبية لا تعنَى بالاجسام ولا بالحيز الموهوم المفروض ، وانما هي تعنى بالحركات الحادثة (الحوادث) . ولذلك اذا حدّدت موقع حادثة او اية حركة حدّدته بالابعاد الاربعة : ثلاثة منها مكانية (حيزية) والرابع زماني . باعتبار ان تحديده لا يتم الاّ باقتران الزمان بالمكان . ولكي تنجلي هذه القضية النسبية للقارىء وتنقشع من ذهنهِ تلك الهجنة التي غشّى بها على الابصار الكتّاب المتسرّعون بلا تحقيق . نشرح القضية فيما يلي مبتدئين بابسط وجه من وجوهها

***

افرض او تصوَّر انك في غرفة مكعّبة ، كلٌّ من طولها وعرضها وارتفاعها عشر اذرع ، وان هذه الغرفة هي كلُّ الكون . وتصوَّر ان في جانب منها (منضدة) طاولة ، وعلى الطاولة شمعدان ، وعلى قمة الشمعدان عند ب في الشكل الاول ذبابة او بعوضة : وافرض ان في زاوية الغرفة السفلى عند ع رقيباً يراقب البعوضة . فماذا يفعله الرقيب لتحديد موقع البعوضة ؟

افرض انه يقيس اقرب مسافة من موضع البعوضة الى الارض وهي الخط العمودي السمتي منها الى الارض، ولنفرض انه وجده ذراعين .فهل يكتفي لتحديد موضع البعوضة بالقول انه يعلو عن الارض ذراعين او يسفل عن السقف ٨ اذرع ؟ كلاّ ، لماذا ؟ لانك كيفما دفعت الطاولة في ارض الغرفة دفعاً أفقيًّا تبقى البعوضة عالية ذراعين عن الارض . يلتفت الرقيب الى الجدار الذي عن يمينهِ ويقيس اقرب مسافة من البعوضة اليهِ فيجدها ٤ اذرع مثلاً . فيقول ان البعوضة تعلو عن الارض ذراعين وتبعد عن الجدار الذي عن يميني ٤ اذرع ، فهل هذا يكفي لتحديد موضع البعوضة ؟ كلاّ ، لانهُ يمكنه ان يدفع الطاولة في خط موازٍ للجدار المذكور وتبقى البعوضة على ذراعين فوق الارض و ٤ اذرع عن الجدار . اذن ، يبقى عليهِ ان يقيس اقربَ مسافة بين البعوضة والجدار الذي عن يساره (المعامد للجدار الذي عن يمينهِ) فيجدها مثلاً ٣ اذرع . وحينئذٍ يصح له القول ان البعوضة ترتفع عن الارض ذراعين (او تسفل عن السقف ٨ اذرع) وتبعد عن الجدار الذي عن يميني ٤ اذرع (او عن الجدار المقابل له ٦ اذرع) وتبعد عن الجدار الذي عن يساري ٣ اذرع (او عن الجدار المقابل له ٧ اذرع)

فهل يتحدَّد موضع البعوضة حينئذٍ ؟ نعم . لانه ليس في تلك الغرفة الاّ نقطة واحدة لها هذه الابعاد الثلاثة المتعامدة فيها عن جهات الغرفة . وهي موضع البعوضة

اذاً ، لابد لتحديد أي نقطة في أي حيّز من ابعاد ثلاثة (مكانية) متعامدة كل واحد منها عموديّ على الآخرَين في تلك النقطة . ولا يمكن تحديد موقعها ببعدين فقط . وبالاحرى لا يمكن ببعد واحد ، وهذا ما يسمونه في اصطلاح النسبية نظام المتعامدات الديكاري The Cartisian Co-ordinate System نسبة الى الفيلسوف ديكارت الذي استنبطهُ

هذا هو معنى الابعاد الثلاثة المكانية التي بها يتعين اي موقع في أي حيّز . بقي ان نعلم كيف يأتي البعد الزماني الرابع تتمة لتعيين الحادث . وانما قبل الانتقال هذه الخطوة لابدّ من شرح مسألة اخرى لا غنى عنها لتمام البحث في موضوع النسبية . وسيرى القارىء خطورتها

قلنا ان المراقب مقيم عند ع . ولابد لهُ من معرفة بُعد البعوضة عنهُ . فكيف يعلمهُ ؟ يلجأ الى قاعدة فيثاغورس الهندسية وهي :

(١) مربع الوتر في مثلث قائم الزاوية يساوي مجموع مربعي الساقين

(٢) مربع الوتر في مكعب يساوي مجموع مربعات الطول والعرض والعمق فاذاً ، المسافة من ع ← ب = $\sqrt{٢^٢+٣^٢+٤^٢}$ = ٥،٣ . نتقدم الآن الخطوة الاخرى في البحث

***

لنفرض ان في وسط الغرفة تماماً مصباحاً معلقاً على بعد ٥ اذرع من جميع الجهات، عند ص في الشكل الاول (فيكون بُعدهُ عن ع = $\sqrt{٥^٢+٥^٢+٥^٢}$ = ٨،٦ تقريباً)

ولنفرض ان البعوضة طارت عن الشمعدان في خط مستقيم الى المصباح ص بمعدل سرعة ذراعين في الثانية . قامت الظهر تماماً ووصلت في الثانية ١،٨٧ بعد الظهر

فهنا حادث انتقال البعوضة عن الشمعدان الى المصباح . لم يتم هذا الحادث في الحال بل اشغل مسافةً واستغرق وقتاً في آن واحد . اي ان المسافة التي سلكتها البعوضة بين ب ←→ ص يعبر عنها بسرعة البعوضة في الثانية مضروبة بعدد الثواني التي قضتها في اثناء الانتقال

والرقيب ع مضطرٌ ان يُدخل الوقت في الحساب لاستخراج موقع الانتقال هذا بالنسبة اليهِ . اذن . نعود الى الحساب ونحدد موقع قيام البعوضة عن الشمعدان وموقع وصولها الى المصباح بالنسبة الى الرقيب ع هكذا : —

	الموقع المكاني			الموقع الزماني	
	طول	عرض	عمق	الثانية	الساعة
موقع وصول البعوضة الى المصباح	٥ ،	٥ ،	٥	١،٨٧	١٢
موقع قيام البعوضة عن الشمعدان	٤ ،	٣ ،	٢	٠٠٠	١٢
نطرح لنعرف فرق الابعاد بين القيام والوصول	١	٢	٣	١،٨٧	٠٠

ذراعاً معدل السرعة ثوان

اذن المسافة بين ب — ص = √(١² + ٢² + ٣²) = ٣٫٧٥ = ٢ × ١٫٨٧

هكذا هو حساب الرقيب عند ع. وترى منهُ انهُ التزم لاستخراج موقع حادث الانتقال ان يدخل الوقت في الحساب كبعد رابع

بعد هذا الشرح البسيط صار في امكانك ان تتصوَّر المدَّة (الزمانية) والمسافة (المكانية) في كل حركة (حادثة) مرتبطتين ارتباطاً وثيقاً كأنهما لفظتان لمعنى واحد . لانك لا تستطيع ان تتصور اي حادث او اية حركة لجسم الاَّ وانت تمثل في ذهنك سرعة ذلك الجسم تستغرق وقتاً لعبور مسافة . فلا يحضر لذهنك انتقال ذلك الجسم اية مسافة الاَّ وتحضر في ذهنك ايضاً المدة التي قضاها ذلك الجسم في عبور هذه المسافة . لان الحركة تشغل المسافة والمدَّة (المكان والزمان) معاً . فهي الوثاق الذي يوثقهما . رأيت ان البعوضة في انتقالها من الشمعدان الى المصباح اشغلت مسافة ومدَّة في آنٍ واحد . فكان مستحيلاً عليها ان تقطع المسافة من غير ان تشغل وقتاً ، كما انهُ لا يحسب لها وقت اذا لم تتحرك حركة تشغل مسافةً . فالحركة اذاً هي صلة زمانية مكانية بين حادثي قيام البعوضة ووصولها . هذه الصلة هي البُعد الرابع . ليس الوقت وحده البعد الرابع الذي نعنيه اذ لا وجود لهُ . واما الوقت الذي تدمجهُ الحركه بالمسافة هو البعد الرابع . ولذلك في كل حركة نعبّر عن المسافة بحاصل ضرب معدل السرعة في الثانية بعدد الثواني (او اي وُحدة من وحدات الوقت) فنقول م (المسافة) = س × ق (السرعة مضروبة بالوقت) . اذاً ، البعد الرابع هو «الحيز—الوقت» معاً كما ستراهُ في المعادلات الرياضية التي يفضي اليها توسعنا في البحث التالي

***

مع ذلك لا يكتفي الرقيب بهذا الحساب لانهُ ناقص نظريًّا كما سترى . هو ناقص لاننا لم نحسب حساب النور الذي ينقل خبر الحادث الى عين الرقيب . اذ لا يخفى عليك ان النور الذي ينقل الخبر يستغرق وقتاً ايضاً (٣٠٠ الف كيلومتر في الثانيـة) . نعم ان مدة انتقـال النور (من موضع قيام البعوضة ومن موضع وصولها) الى عين الرقيب في غرفة، لا تعتبر شيئاً البتة (الاَّ نظريًّا) ولكن في المسافات الفلكية السحيقة تكون المدَّات دقائق وساعات وأياماً وسنين فلابدَّ من ادخالها في الحساب . ونحن نضرب الامثال النظرية بالمسافات القصيرة تسهيلاً لفهم القارىء الحقائق العملية في المسافات العظيمة

ولكي تنجلي حقيقة القضية للقارىء جيداً نضرب مثلاً آخر ونغفل عنهُ حساب الارقام لكيلا نعنت ذهنهُ . ونستعيض عنها برموز الحروف . لقد فهم القارىء ان الموقع المكاني

(الحيّزي) لا يمكن تحديده الاَّ بتعامد ثلاثة متعامدات فيهِ بين الجهات الست . الطول من الشرق الى الغرب(مثلاً) ، والعرض من الجنوب الى الشمال ، والعلو من فوق الى تحت — فهم القارىء ذلك فلم يبق لزوم لتكرار الكلام فيهِ ولا للتمثيل بالغرفة او نحوها . يكفي بسط قضية اخرى بالرسم التالي

لنفرض ان النقطة ع محطة سكة حديدية وفيها تتعامد الابعاد الثلاثة م . ه . ي (كما ترى في الشكل الثاني) محدّدة لموضعها . وفيها قطار . قط . تتعامد فيهِ ايضاً الابعاد الثلاثة: مَ . هَ . يَ

نرمز عن الوقت الذي قضاه القطار في رحلتهِ بالحرف ق في نظر ناظر المحطة ع وبالحرف قَ في نظر سائق القطار . وسنرى ان الوقت في نظر الواحد يختلف عنهُ في نظر الآخر. ولنفرض ان القطار يسير بسرعة ١٠٠ متر في الثانية نرمز عنها بالحرف س . وهو يسير على خط الطول م وبنفس اتجاهه . ونفرض ان طول الخط الذي يسير عليهِ القطار يساوي م . والمسافة التي يسيرها القطار تساوي سرعته مضروبة بالوقت اي س×ق او س ق والمسافة التي لم يسرها بعد ، اي الباقية من الخط م ويُنتظر ان يسيرها ، تساوي مَ

فلما كان القطار في المحطة كانت متعامدات القطار وبالاحرى جميع ابعاده مطابقة لابعاد المحطة اي ان م = مَ ه = هَ ى = ىَ ق = قَ

ثم سار القطار دارجاً على الخط م الى ان وصل او عبر على النقطة ط بعد عدد كذا من الثواني رمزنا عنها بالحرف ق في نظر ناظر المحطة وبالحرف ق في نظر السائق كما تقدم القول. وبناء عليه اصبحت المسافة م = مَ + س قَ في نظر ناظر المحطة

و مَ = م — س ق في نظر سائق القطار

وبقيت ه = هَ

« ي = يَ

« ق = ؟

« قَ = ؟

سنرى

وهنا نوجّه نظر القارىء الى مسألة جوهرية وهي : في نظر ناظر المحطة القطار يبتعد عنهُ. وفي نظر سائق القطار المحطة تبتعد عنه ، كأنَّ القطار ساكن والمحطة راحلة . فكلٌّ من ناظر المحطة وسائق القطار يحق له ان يعتبر نفسه ساكناً والآخر مبتعداً عنهُ . وما دامت المسافة بينهما تتسع وتنفرج فلا عبرة في ايهما السائر وايهما الساكن وانما العبرة في ان المسافة بينهما تتسع وان نظر كلّ منهما يختلف عن نظر الآخر كما سنرى

هذه نظرية دقيقة من نظريات النسبية قد لا يطمئن لها تصوُّر القارئ، الاّ بعد شرح كافٍ . وبالاسف ليس هنا متّسع لهذا الشرح الآن . ربما عدت اليه في حين آخر

ترى فيما تقدم ان مسألة الوقت دخلت حتماً في حساب انتقال القطار من المحطة الى نقطة ط كما ترى في المعادلتين الاوليين من المعادلات الست السابقة . ولكن هل هذا الحساب صحيح وتام ؟ او هل هو كل شيء في مسألة البعد الرابع ، الوقت ؟ فلنرَ

ان الملمّ بنظرية النسبية لايقتنع بهذا الشرح البسيط ، حتى ناظر المحطة ، ومثله سائق القطار، اذا كان قد اطلع على تعليل مسألة تقلص الاجسام في اتجاه خط حركتها (كما شرحناها في مقتطف فبراير ١٩٣٣) واقتنع بان هذا التقلص يتوقف على نسبة خاصة بين سرعة الجسم وسرعة النور كما تدل عليها عبارة لورنتز الرياضية (التي استخرجناها في ذلك المقال) — اذا كان قد فهم جيداً هذه القضية الخطيرة الشأن التي بنيت عليها نظرية النسبية فلا يقتنع بهذا الشرح البسيط

لايقتنع الملم بنظرية النسبية بهذا الشرح البسيط لانه يعلم ان ناظر المحطة لما رأى القطار قد مرَّ على نقطة ط — او لما بلغه بواسطة اشارة برقية او لاسلكية (راديو) ان القطار مرَّ على نقطة ط — كان القطار قد تجاوز هذه النقطة الى نقطة ل (مثلاً) في اثناء انتقال الاشارة اليه لان الاشارة استغرقت وقتاً . ولذلك اصبحت المسافة من ل الى ع تساوي في نظره المسافة من ط الى ع فكأنها تقلصت بقدر المسافة من ل الى ط

***

وقد فهمنا من مقال التقلص المشار اليه آنفاً ان مقدار هذا التقلص يساوي :

$$\text{م} \times \sqrt{1 - \frac{\text{س}^2}{\text{ن}^2}} = \text{مَ} + \text{س قَ} \quad \text{وبالجبر لنا م} = \frac{\text{مَ} + \text{س قَ}}{\sqrt{1 - \frac{\text{س}^2}{\text{ن}^2}}} \quad \text{هذا في نظر ناظر المحطة ع}$$

$$\text{وأما في نظر سائق القطار فان مَ} = \frac{\text{م} - \text{س ق}}{\sqrt{1 - \frac{\text{س}^2}{\text{ن}^2}}}$$

ومن هاتين المعادلتين يمكننا (لو يسمح المقام) ان نستخرج قيمة ق وقَ اي قيمة الوقت في نظر كلٍّ من ناظر المحطة وسائق القطار . فهي :

$$\text{في نظر ناظر المحطة ق} = \frac{\text{ق}' + \frac{\text{م س}}{\text{ن}^{2}}}{\sqrt{1 - \frac{\text{س}^{2}}{\text{ن}^{2}}}}$$

$$\text{وفي نظر السائق ق}' = \frac{\text{ق} - \frac{\text{م س}}{\text{ن}^{2}}}{\sqrt{1 - \frac{\text{س}^{2}}{\text{ن}^{2}}}}$$

فنرى في هذه المعادلات كيف ان الوقت يختلف عند الواحد عنه عند الآخر كما ان المسافة تختلف ايضاً (ولها بحث خاص) ونرى ايضاً كيف ان الوقت اندمج مع المسافة فكوّن بُعداً رابعاً جعلته سرعة النور وسرعة الجسم المتحرك يختلف في نظر الواحد عنه في نظر الآخر. (يتضح هذا جيداً في البحث في نسبية التواقت)

ماذا نفهم مما تقدم ؟ لم نفهم مما تقدم ان الزمن بُعدٌ رابع فقط بل علمنا ايضاً امراً آخر عظيم الشأن وهو ان الزمن او الوقت (او المدة) نسبيٌّ يتمدد في نظر المراقب البعيد كما ان المسافة نسبية تتقلّص في نظر المراقب البعيد

كان العلماء والفلاسفة قبل عهد «النسبية» يعتبرون الزمن او الوقت شيئاً مستقلاً قائماً بنفسهِ لاعلاقة له بالمكان او الحيز . وهو هو بعينهِ في نظر المراقبين للحوادث مهما تباعدت مواقعهم ومهما ترامت مواقع الحوادث عنهم . فكانوا يعتقدون ان الوقت لحادث في اي مكان بعيد هو نفس الوقت لراصد هذا الحادث اينما كان ومهما اختلفت ابعاد الحادث عنه

ولكن من مجرد التأمل في المعادلات المذكورة آنفاً يتضح لك ان الوقت لا وجود له ولا هو بالشيء المستقل القائم بنفسهِ . ماهو الاّ نتيجة فعل الحركة (الحادث) في الحيز . فهو مقياس للحركة فقط . ولما كان نظر الرقباء للحادث يختلف باختلاف ابعادهم عنهُ لان النور (او اي امواج كهربائية مغنطيسية) هو الوسيلة لنقل خبر الحوادث اليهم ، صار الوقت (الذي هو مقياس (الحركة) ، في نظر الواحد منهم يختلف عنه في نظر الآخر حتماً كما تدل عليه المعادلات المذكورة آنفاً

اذاً الوقت (الذي هو بُعد رابع كما تقدم تبيانه) هو شيء نسبي ايضاً . وتتضح نسبيته جيداً في شرح نظرية « التواقت » اي حدوث حادثين متباعدين في وقت واحد . وهي من أهم قضايا النسبية وافكهها . وربما عدت اليها في مقال آخر

غوردون باشا

وصول الحملة البريطانية المصرية الى الخرطوم
بعيد قتل غوردون باشا

شهيد الخرطوم

او غوردون باشا

اصدر المستر بيير كرابيتس القاضي الاميركي في المحكمة مصر المختلطة الابتدائية كتاباً نفيساً بعنوان « غوردون : النخاسة والسودان » تتبع فيه حياة غوردون من ناحية عمله في فتح السودان ومحاربة النخاسة وانحصاره في الخرطوم وغير ذلك من الحوادث المتصلة بتاريخ مصر الحديث اوثق اتصال. وقد كتب المؤلف كذلك مقالة في مجلة آسيا الاميركية لخصناها في ما يلي وانما نشير على المعنيين بهذا الموضوع ان يجعلوا المقالة توطئة لقراءة الكتاب . وهو يطلب من مكتبة الانجلو المصرية بشارع قصر النيل

احتفل في ٢٨ يناير سنة ١٩٣٣ بالعيد المئوي لولادة غوردون «الصيني» ولا بدَّ ان يكتب الكتَّاب احتفالاً بهذا الحادث بضع تراجم جديدة للضابط الانكليزي الشديد التمسك بالدين والذي قاد الجنود الصينية الى النصر في فتنة تايبنغ سنة ١٨٦٣ و ١٨٦٤ ثم دافع بعد ذلك عن الخرطوم دفاعاً موسوماً بالبسالة ومثيراً للاشجان مما يقلُّ نظيرهُ في مأساة الحرب

وفي مدة حياتهِ تبارى الكتَّاب في المبالغة بذمهِ ومدحهِ . ويقول معاصرونا في تقدير صفاتهِ انهُ بطل عسكري وديني معاً عاش للانسانية لا لنفسهِ

كان لتشارلس جورج غوردون عينان زرقاوان خلابتان تولدان الثقة في الناظر اليهما ويكتسب صاحبهما بهما الاصدقاء . وكان في صوتهِ نعومة ورنة يعرف بهما « الرجل » الانكليزي الكريم وكان اقرب الناس الى القلوب واكثر الجنود تمسكاً بالمسيحية

وقد مرَّت الى الآن خمسون سنة منذ اصبح في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ « شهيد الخرطوم» ولكن المناقشة التي قسمت انكلترا حينئذٍ معسكرين وتلاميذ السياسة الخارجية في العالم كله حزبين لم تخمد ويلوح انها سوف تدوم الى الابد

وقد يكون المثل القائل ان الولد ابو الرجل صحيحاً ولكن لم يكن في حداثة غوردون ما يدلُّ على اخلاقهِ وصفاتهِ التي اشتهرت فيما بعد . فقد ولد في ٢٨ يناير سنة ١٨٣٣ وكان الابن الرابع في عائلة مؤلفة من احد عشر ولداً . وكان ابوهُ جنرالاً في الجيش البريطاني وعني بتربيته تربية عسكرية . ولكن مرَّ زمان ظهر فيهِ ان «شقاوتهُ» في المدرسةِ الحربية قد تضطرهُ الى ترك الخدمة العسكرية لانه كان شديد الايذاء للطلبة الذين هم دونهُ في الصفوف ووبخ مرة على ذلك فانتقل من قسم المدفعية الملكية الى المهندسين الملكيين في المدرسة العسكرية الملكية لهذا السبب

ولما ترك مدرسة وولتش للخدمة ضابطاً في قسم المهندسين امر بالذهاب الى غبروك وعهد اليهِ في وضع رسوم لبناء حصون عند مدخل الميناء . وفيما كان هناك تملكتهُ الافكار الدينية فكان يصلي بغيرة رجل متجدد ويكثر من قراءة الكتب الدينية وتغير نظرهُ الى الحياة تغيراً كاملاً

ثم شبت نار حرب القريم فانتدب للخدمة في خنادق سباستبول فامتاز بالشجاعة وهو ابن ٢٢ سنة . وبلغ من ثقة وزارة الحربية بهِ انهُ لما شهرت بريطانيا الحرب على الصين سنة ١٨٦٠ وجّه اليها ولكن القتال انتهى قبل وصوله الى الشرق الاقصى ومع ذلك بقي في الصين اربع سنوات واشتبك في حربها الاهلية فكان ذلك واسطة للتمرس بشؤونها المحلية تمرساً اكسبهُ احترام حكامها وحبهم لهُ

وقاد جيشاً صينيًّا لقّب « بالجيش الدائم النصر » فانعم عليهِ بالسترة الصفراء وبريشة الطاووس ورقي الى رتبة « مندرين ». وعاد الامبراطور فرقاهُ الى رتبة تيتو اي ميجر جنرال في الجيش الصيني حتى عرف في الهيئة الاجتماعية في لندن بلقب غوردون «الصيني». وانعمت عليهِ الملكة فكتوريا بنيشان الحمام وبرتبة لفتننت كولونل في المهندسين الملكيين . فلم يبلغ الثلاثين حتى عدّ احد ابطال انكلترا الوطنيين

ولما عاد الى لندن حاولوا حرق البخور لهُ فلم يرقهُ ذلك بل آثر ان يترك وشأنهُ . ورحب بالفرصة التي سنحت لهُ اذ انتدب لاقامة حصون على نهر التايمز فدفن نفسهُ في ذلك العمل مدة خمس سنوات. وقضى ساعات فراغه في الاعمال الخيرية . وكان كثيرون من المرضى اذا حضرتهم الوفاة يدعونهُ اليهم ويفضلونهُ على رجال الدين الرسميين فكان يلبيهم مهما بعدت الشقة. ولكنهُ لم يكن يلبي دعوة الذين يدعونهُ لرياسة الاجتماعات الدينية لانهُ كان يمقت الظهور والتظاهر

وافضى كرههُ للظهور وبذلهُ نفسهُ عن غيرهِ الى تقوّل كبار الضباط وصغارهم الاقاويل فيهِ ففسروا زهدهُ في امور الدنيا بشذوذ طباعهِ وغرابة اطوارهِ واستهدف بسبب ذلك لسخريتهم حتى بلغت سخريتهم وزارة الحربية . واتفق ان خلا منصبٌ كبير في لجنة الدانيوب الاوربية فعين فيهِ حالاً مما دلّ على ان اهل الشأن لم يبالوا مثقال ذرة بما تقول الناس فيهِ

وفيما كان في الاستانة بصفة مهندس ملكي اجتمع بنوبار باشا وزير خارجية مصر في عهد اسماعيل باشا الخديوي . وكان السر صموئيل باكر الحاكم العام للاقاليم الاستوائية ينوي الاستعفاء من منصبهِ وكان لا بدّ من انكليزي يحلّ محلهُ فأعجب نوبار باشا غاية الاعجاب بهِ فطلبت مصر من الحكومة البريطانية ارساله اليها فلبّت طلبها

وكان مرتب السر صموئيل باكر ١٠ آلاف جنيه في السنة فاصرّ غوردون على ان يخفض مرتبهُ هو الى الفي جنيه وقال « ان الفلاح يعطي هذا المال من عرق جبينهِ ومرتبي في لجنة الدانيوب الفا جنيه فليس هناك سبب يحملني على ان أدع مصر تدفع اليَّ اكثر من هذا المرتب»

وسرّ المهندس الملكي بهذا الميدان الجديد الذي فتح امامهُ اذ رأى فيهِ فرصة لخدمة الانسانية . وكان يعرف ان اواسط افريقية اروج اسواق النخاسة فلذلك فسّر تعيينهُ في منصبهِ الجديد بانهُ وسيلة لمحاربة الرق في منبعهِ

وكتب الى شقيقتهِ سنة ١٨٧٣ وهو في لجنة الدانيوب وقبل قبوله المنصب المصري يقول: « ان الله اذن في ترك النخاسة وشأنها هذه السنين الطوال . ولما كانت قد خلقت مع القوم فهي في حاجة الى اكثر من حملة لاستئصال شأفتها . لتفتح البلاد اذاً لسقطت من تلقاء نفسها. اني اكره ان تفقد نفس واحدة في هذا السبيل وسأحاول منع كل حادث يحدث اذا ذهبت الى هناك»

وكتب اليها بعد ذلك باسبوع :

« اعتقد اذا استقرت احوال السودان ان الخديوي يمنع الاتجار بالرقيق ولكنهُ لا يرى السبيل الى ذلك واضحاً حتى يتمكن من التجوال في البلاد . ومن رأيي ان نفتحها بجعل البواخر تصل الى البحيرات . وفي اثناء ذلك اهتدي الى النخاسين فاسأل الخديوي ان يقبض عليهم »

وخير ما يوصف بهِ غوردون انهُ كان اغناطيوس لويولا (مؤسس فريق اليسوعيين) في القرن السادس عشر او متصوفاً انجليكانيًّا عيناهُ في السماء وقدماهُ على الارض . او حالماً يفهم نواميس الاقتصاد ويؤمن بالصلاة ويعير تعاليم ادام سمث (الاقتصادي) اذناً صاغية وقلباً واعياً

وقد رأى بعين الحالم الخيالي الذي فيه خميرة من الحقائق ان النخاسة جزء لا يتجزأ من بناء افريقيا الاقتصادي فلذلك عزم ان يناوئها لا بأوامر عالية من الخديوي ولا بالصلاة والصوم بل باسكان الناس في السودان وايصال البواخر الى البحيرات كما قال وبفتح الاقاليم الاستوائية في وجهِ الحضارة

ونال غوردون الحظوة عند اسماعيل باشا في اول اجتماع بهِ فوضع فيهِ كامل ثقتهِ ومنحهُ سلطة لا حدّ لها في منصبهِ الجديد وعين رئيساً لاركان حربه اميركيًّا اسمهُ الكولونل تشايلي لونغ من مريلند وولى اميركيًّا آخر هو الميجر وليم كمبل منصباً حربيًّا آخر تحت قيادتهِ لمقاومة تجارة الرقيق . ثم سافر غوردون الى قلب افريقية

ولم يكد كمبل يتولى منصبهُ في الخرطوم حتى توفي بالحمى . اما لونغ فانتدب لمهمة في اوغنده فعين اميركي آخر محلهُ هو الميجر پروت وكان ينوب عن غوردون في اثناء غيابهِ

ولم يمض زمان طويل حتى طلب من الخديوي ووزارة الحربية في لندن طلباً اثار مقاومتهما معاً وهو تعيين نخّاس عربي اسمهُ ابو سعود في خدمتهِ . وكان السر صموئيل باكر قد قال عن ابو سعود انهُ مجرم لا يصلح وشهّر بهِ في العالم قائلاً انهُ اعظم نخاسي افريقية . ولكن ذلك كلهُ لم يمنع غوردون من ان يطلب اطلاق سراحه وتعيينه في خدمتهِ حاذياً في ذلك حذو باكر نفسهُ اذ جمع حرساً له من المجرمين ومعتادي الاجرام وهم من الذين سماهم في احد كتبهِ

« اللصوص الاربعين » حولهم من لصوص الى حفظة للامن منفذين للقانون لم يخونوه مرة واحدة واشتهروا بالبسالة والامانة والاخلاص له . ولما سافر من افريقية عين « وات الملك » من كبار النخاسين سابقاً لحفظ النظام والقانون في السودان الى حين وصول غوردون

ولكن باكر خالف غوردون في اختيار ابي سعود لخدمتهِ وكان عنده اسباب حملتهُ على ذلك وكتب في التيمس ينتقد هذا التعيين . ولم يكد غوردون يستخدم ابا سعود حتى رأى انهُ لا ينفعهُ فصرفهُ على عجل

ومن اغرب ما روى عنهُ في اوائل مقاومتهِ للنخاسة ان اول سرب من الرقيق اسره من النخاسين كان مؤلفاً من فتيات سودانيات جيء بهنَّ من بلدان تبعد مئات الاميال. فقال في نفسهِ : ماذا تريد هؤلاء الفتيات حقيقة غير الازواج ؟ ثم امر بهنَّ فحضرن امامهُ فسألهنَّ هل تتزوجن من جنودي ؟ فأجبنهُ بصوت واحد « نعم » . والتفت الى جنوده وسألهم السؤال عينه فأجابوا بما اجاب بهِ الفتيات . فقال «يا بنات اخترن ازواجكنَّ» ففعلن فزوج الفتيان بالفتيات . وكتب في مذكراتهِ في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٧٧ يقول :

« لقيت صباح هذا اليوم قافلة من الرقيق وعددهم ٦٠ او ٨٠ رجلاً وامرأة وولداً وهم موثقون بالحديد . فماذا اصنع لهم ؟ فاذا اطلقتهم فمن يعنى بهم او من يطعمهم ؟ ومنازلهم بعيدة فمن يعيدهم اليها ؟ لذلك قررت ان اكره النخاس الذي معهم على فك قيودهم وابقائهم معهُ . والحق ان النخاس لم يؤذ احداً بشرائهم لأن شراء الرقيق محلل في مصر ولم يأخذهم من منازلهم . ولا علاج لهذه الحالة الاَّ وقف النخاسة على الحدود»

وبقي غوردون يناوىء النخاسة حتى تخلى اسماعيل باشا عن عرش الخديوية سنة ١٨٧٩ وكان الخديو صديقه ومؤيده فلما اكرهت اوربا اسماعيل على الاعتزال رأى غوردون ان الأليق بهِ ان يرحل في اول فرصة . وترك افريقية وعين سكرتيراً خصوصيًّا للورد ريبون حاكم الهند ولكنهُ لم يلبث ان استعفى ثم جاءه تلغراف من السر روبرت هارت المفتش العام للجمارك الصينية يلحّ عليهِ في السفر الى الصين فسافر وساعد على منع الحرب بين الصين وروسيا

وعين بعد ذلك في مناصب مختلفة ثم عاد الى انكلترا فطلب اجازة للسفر الى فلسطين. وفيما كان فيها طلب منهُ ليوبولد الثاني ملك البلجيك ان يتولى ادارة ولاية الكنغو الحرة فقبل بشرط موافقة وزارة الحربية في لندن وعاد الى انكلترا للاستعداد للسفر اليها

ولكن «القسمة» حالت دون انفاذ هذا المشروع . ذلك انهُ لم يكد يصل الى سوثمبتن حتى جاءت الانباء بان جيش هكس باشا أُبيد في الابيّض ومات هكس وجميع الضباط الانكليز الذين كانوا معهُ . فروعت انكلترا كلها وضربت الصحف على هذه النغمة وتزعزعت وزارة غلادستون فانفذ غوردون الى القاهرة وهكذا انقذ وزارته. وبقي غوردون على الطريق عشرة أيام استردت

غوردون باشا امام قصر الحاكم في الخرطوم
قبيل قتله

فيها البلاد صوابها وغلادستون رزانتهُ. فطلب غوردون انضمام الزبير (باشا) الى بعثتهِ فاستنكر غلادستون ومن لفَّ لفهُ من كارهي النخاسة هذا الطلب لاشتهار الزبير بها . ووافقهم اللورد كرومر (السر افلن بارنغ حينئذ) على هذا الاستنكار اولاً فلم يسع غوردون الا السكوت ولكنهُ لما سافر جنوباً جعل ينفذ الرسالة اثر الرسالة الى السر افلن ملحًّا في اقناع لندن بالموافقة على طلبهِ والحق يقال ان كرومر اقتنع بعد ذلك برأي غوردون وأيده في طلبهِ. ومما قالهُ غوردون

ان المصريين والانكليز طبعاً — سيتحولون قريباً عن السودان فتمسي هذه البلاد السوداء معرضاً للرجل الاسود . واقدر رجل اسود اعرفهُ هو الزبير . هو السوداني الوحيد الذي يستطيع اقامة حكومة منظمة في تلك الانحاء . فاذا اعتزلنا — ولا بدَّ من اعتزالنا — وجب ان اسلّم مقاليد الامر الى رجل ما . فان لم يتولَّ الزبير امر رحيلي مع الحامية والملكيين الذين يريدون الرحيل فانهُ لا يسعني اذ ذاك الرحيل وان استطعتهُ تلاهُ مذبحة بين الاهالي، فقد يكون الزبير رجلاً شريراً ولكن الضرورة تحوجنا اليه الآن . فبأسم كل شيء مقدس ارجو منك ان تدعني استخدم الزبير

انقذ غوردون غلادستون ووزارتهُ من الهزيمة والخذلان ولكن غلادستون ترك غوردون يقاوم التيار ويغرق مفضلاً ذلك على ان يعهد في امر انقاذه الى وسيلة غير مستقيمة لكن معقولة (الزبير) . لذلك طاول غلادستون وسوَّف وانتظر واكثر الكلام . وقبل ارسالهِ الجواب الاخير كان المهدي قد اطبق على الخرطوم

وبعبارة اخرى ان الوزارة البريطانية ارسلت تلغرافاً من القاهرة الى الخرطوم تخبر غوردون فيها بانها لا توافق على استخدام الزبير ولكن يظهر ان هذا التلغراف لم يصل بسبب قطع الاسلاك . فقد قال اللورد كرومر في كتاب « مصر الحديثة » الذي كتبهُ « لا اظن ان هذه الرسالة وصلت الجنرال غوردون »

ويوميات غوردون لا تبقي مجالاً الى الارتياب في هذا الامر . وذهب غوردون الى قبرهِ وهو ينتظر جواب طلبهِ لاستخدام الزبير . وفيما كان غوردون بين الرجاء واليأس وقف غلادستون في البرلمان وقال «ان غوردون غير مكتنف . وموقفهُ موقف سلامة على ما نعلم»

ان غوردون لم يخن ولم يضحِّ بهِ ولم يتخلَّ عنهُ ولم يُسأ فهمهُ . لكن غلادستون الخطيب السياسي اصرَّ على درس عيني غوردون الخيالي وأبى ان يقرأ عقل غوردون صاحب الحقائق فقد كان هذا العقل صافياً شفافاً . وسجلات وزارة الحربية وسجلات جريدة التيمس والملحق الذي اضيف الى كتاب باكر «الاسماعيلية» وحملات الجمعية المضادة للرقيق على غوردون وكتابهُ عن اواسط افريقيا — وفيهِ ٤٥٦ صفحة — هذه كلها جعلت عدم فهم غلادستون لعقل غوردون امراً مستحيلاً ، ومع ذلك لم يفهمهُ . وقد اعماهُ عظم اغترارهِ بنفسهِ

قيثارتان (١)

دنياك تسقي الكأس في حينها ... من خمرة ما عتقت في الدنان
إن غاب ما للارض في ارضه ... فلم تزل تلك المعاني الحسان
راحا الى الخلد خلاً على ... خمائل الطوبى بأسمى مكان
وعلقت في سدرة المنتهى ... بين خدور الحور قيثارتان
اذا شدا الأملاك تسبيحهم ... شاركتا جوق العلى تصدحان

ما نومة الشاعر في لحده ... بضجعة المهزوم بعد الطعان
لا تندبوه ! ما خبا نوره ... فشعره نبراس اهل الزمان
معتصر من مهجة سمحة ... شعورها يملأ سمع الكيان
يأسى مع الآسين في حزنهم ... ويبرىء الجرح بلمس الحنان
ويكسب الغبطة في كأسه ... خمراً — لحاسيها المنى والامان
الزهو والحكمة في شعره ... وعبرة الدهر وشدو القيان
ودائع التاريخ في لحنه ... وفي امانيه نجيّ الجنان
مجنح الفكرة يسمو بها ... الى ذرى فوق حدود المكان
يحس شوق الورد في روضه ... ونغمة الزنبق والاقحوان
ويقرأ النجوى اذا أومضت ... في الزهر ليلاً او عيون الحسان
ويحمل الحملة فرداً على ... جحافل الظلم ويأبى الهوان
في الكوخ حرٌّ عظمت نفسه ... وفي قصور الملك حرُّ اللسان
من يعرف الشاعر في ذله ... مرفوعة هامته ما استكان
من يعرف الشاعر في مجده ... يسحب في ظل المنى الارجوان
احلامه شتى امانيها ... عزّت على ذي التاج والصولجان
فلنحترم رقدته بعد ما ... فاز فألقى سيفه والسنان

---

(١) من قصيدة للشاعر السوري الاميركي نسيب عريضة القيت في الحفلة التي اقامها ادباء نيويورك وأدبياتها لذكرى حافظ وشوقي

موقف الامويين من الدعوة الاسلامية

واسباب منافستهم لبني هاشم

ما برحت السيرة النبوية ميداناً فسيحاً لاقلام الكتّاب والعلماء شرقيين وغربيين يجولون في نواحيه ومرتعاً خصباً للشعراء والادباء يستمدّون منها الوحي والالهام ، يزيدها البحث والاستقصاء اشراقاً وسناءً ، ويجلوها الدرس والاستقراء ويساعد على استخراج العبر والعظات من ثناياها وعلى استنباط الاحكام والقواعد من تضاعيفها

ويضيق بنا المقام لو حاولنا احصاء ما أُلّف في موضوعها من كتب فان ذلك يطول وحسبنا ان نقول انهُ لم تبق لغة من اللغات الحية وخصوصاً اللغات الاوربية المنتشرة الاّ وضعت فيها عشرات المؤلفات ، ولئن تجاوز بعض المؤلفين والباحثين الغربيين في القرون الوسطى حدود الاعتدال والروية في تدوين حوادثها وسرد اخبارها ، فقد انصف متأخروهم المسلمين ونبيّهم فجاءت كتاباتهم يزينها الانصاف وتتجلى فيها روح التجرد والرزانة

ويعثر دارس السيرة النبوية في كتب العرب والافرنج على معلومات مبعثرة في التنافس بين الهاشميين والامويين تميط اللثام عن عوامله واسبابهِ وتبين البواعث التي بعثت هؤلاء على مقاومة الدعوة الاسلامية وخصوصاً في ابتداء امرها ، وهو التنافس التي حفلت بحوادثهِ واخبارهِ المؤلفات القديمة ، وكان مصدر شقاق ونزاع خلال القرن الاول ونصف القرن الثاني بين المسلمين اي انهُ استمرّ سحابة الحكم الاموي وامتدّ حتى اوائل قيام الدولة العباسية وقد بالغ رجالها في التنكيل بالامويين وانصارهم ، فلجأوا الى المغرب وانشأوا فيهِ دولتهم الكبرى ، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك في الشرق . ولئن نسي المسلمون هذا الخلاف بعد زوال الحكم الاموى وانقضاء عهده ، فلا يزالون يذكرون مصرع الشهيد ابي عبد الله الحسين في كربلاء على يد الامويين وما اقترن بهِ من فجائع وفظائع يتلون تفاصيلها بكرةً وعشياً

لقد كان حبل الودّ والصداقة ممدوداً في الجاهلية وقبل البعثة النبوية بين الهاشميين والامويين تجمعهم جامعة النسب والقربى وتربطهم اوشاج المصاهرة وهم ابناء عم لحاً فرسول الله يجتمع مع ابي سفيان في الجد الخامس فهو ابن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، اما ابو سفيان زعيم الامويين يومئذٍ فهو ابن حرب بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف

وكانت الزعامة السياسية والحربية[1] والتجارية لبني عبد شمس في مكة ابان البعثة النبوية وفي الفترة التي سبقتها — لغناهم ولاتساع نطاق تجارتهم فقبضوا على مقاليدها . وكان ابو سفيان يقود القوافل الى الشام والعراق ويضرب اكباد الابل مصعّداً ومصوّباً وطاوياً ارض الجزيرة طيًّا في طلب الثروة والغنى . وكانت الزعامة الدينية في بني هاشم وهم اصحاب سقاية الحجيج ولم تكن حالتهم المادية على ما يرام حيال أبناء اعمامهم من الامويين التجار . ولم يشذَّ عن هؤلاء سوى العباس بن عبد المطلب فقد اصاب حظًا من الثروة والغنى . من اشتغاله بالتجارة وكانت حالة ابي طالب رقيقة يدل على ذلك انه قبل اقتراحاً عرض عليه بان يوزع ابناءه بين آله في احدى سني الجدب للتخفيف عنه فتولى الرسول — بعد زواجه بخديجة وقد حسنت بسببه حالته المادية — امر علي . وكفل العباس جعفر واستبقى ابو طالب عقيلاً لنفسه وكان احبَّ بنيه اليه

وبين الذين اسرفوا في معاداة النبي ومقاومته في ابتداء امره ، ابو جهل واسمه عمرو وكنيتهُ ابو الحكم وهو ابن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي ، وهو عميد بني مخزوم انداد الامويين في الزعامة والثروة والغنى . وقد امتاز هو وابو سفيان في تدبير المكائد وقيادة الجيوش لمحاربة الاسلام والقضاء عليه ، ولئن هلك الاول مقتولاً بايدي المسلمين يوم بدر فقد اسلم الآخر (ابو سفيان) يوم فتح مكة وشهد « حنيناً » مع النبي وتم لابنه معاوية امر الخلافة وانشأ الدولة الاموية وقد نسبت الى جده الاكبر

ومما يصحُّ الاستشهاد به على ما بين الامويين والهواشم من صلة قرابة ونسب ما خرّجهُ البخاري عن ابي سفيان حينما ورد كتاب رسول الله الى قيصر الروم هرقل يدعوهُ الى الاسلام وكان في حمص فقال حين قرأه التمسوا ههنا لي احداً من قومهِ لأسألهم عنهُ . قال ابو سفيان فوجدنا رسولُ قيصر فانطلق بي وباصحابي من تجار قريش حتى قدمنا ايلياء . فأدخلنا عليهِ فاذا هو جالس في مجلس ملكه وعليهِ التاج واذا حوله عظماء الروم . فقال لترجمانهِ سلهم ايهم اقرب نسباً الى هذا الرجل الذي يزعم انه نبي . قال ابو سفيان فقلت انا اقربهم اليه نسباً . قال ما قرابة ما بينك وبينه فقلت هو ابن عمي وليس في الركب يومئذ احد من بني عبد مناف غيري الخ[2]

وعلل ابو جهل اسباب مقاومته لدعوة رسول الله تعليلاً عبر فيه احسن تعبير عما يجدهُ على بني هاشم الذين بعث الله منهم رسولاً فقال ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف اطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه وحي السماء فمتى ندرك مثل هذا ، والله لا نؤمن بهِ ابداً ولا نصدقهُ[3]

---

(١) يؤيد ذلك ما رواه المؤرخون وهو ان حرب والد ابي سفيان قاد قريش في حرب الفجار وقد وقعت قبل البعثة النبوية وشهدها النبي وهو صغير مع اعمامه وكان يناولهم النبال (٢) البخاري ج ١ ص ١٠٥ (٣) ١٩٣ — ج ٤ ابن هشام

فهذا «التصريح» يدل على ما كان هنالك من منافسة بل وحسد وعلى ما كان هذا المخزومي يجدهُ على الهواشم وكيف كان يعد قيام واحد منهم بنشر دعوة لدين جديد مجداً شخصيًّا يضاف لهؤلاء ويحرم هو وقومه منهُ ولذلك اجمعوا امرهم منذ الساعة الاولى على المقاومة وعدم التسامح بوجه من الوجوه ، وقد لا يبعد ان يكون هذا الباعث نفسه ، هو الذي بعث بني هاشم، ولم يقبل الدعوة منهم في اوائلها سوى عدد قليل جدًّا ، على تأييد الرسول وشد ازره وتحمل انواع الاذى والاضطهاد في سبيله . ولا يخفى ان اول من اسلم من الهاشميين هو علي بن ابي طالب وقد كان غلاماً يافعاً في كنف محمد . وتلاه اخوه جعفر وكان بين الذين هاجروا الى الحبشة وأسلم حمزة في السنة الثامنة. وأسلم العباس في السنة العاشرة وكان النبي زاحفاً على مكة. وكذلك سفيان بن المغيرة . ومات ابو طالب وابو لهب على دين الجاهلية . وشذ هذا وحده عن آل هاشم فمالأ الامويين على ابن اخيه واهله . ومات عام بدر متأثراً من ضربة ضربتهُ بها زوجة العباس اخيهِ في حادث طويل ليس هنا مكان بسطه

ويلوح لنا ان السبب في اغراق ابي جهل في العداء وتماديه فيه هو ملازمته للنبي في مكة لايكاد يفارقهُ ليلاً ولا نهاراً خلال السنوات العشر الاولى ، على الضدّ من ابي سفيان الذي كان يرحل في تجارتهِ . على انهُ ما لبث ان تفرد بالعمل بعد هلاك ابي جهل فانتهت اليهِ الزعامة العليا في قريش واصبح سيد القوم غير مدافع . والف ابو جهل الوفود وسار على رأسها الى ابي طالب يرجوه باسم قريش بأن يكف لسان ابن اخيه عنهم ويمنعهُ عن الطعن في آلهتهم ومعتقداتهم وهم مستعدون ان ينيلوه جميع ما يرغب او يسلمه اياهم ليقتلوه وقالوا له يا ابا طالب ان ابن اخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه احلامنا وضلّل آباءنا فاما ان تكفهُ عنا واما ان تخلّي بيننا وبينه فانك على مثل ما نحن عليهِ فنكفيكهُ فقال لهم ابو طالب قولاً رقيقاً وردهم ردًّا جميلاً

وكرّر ابو جهل وابو سفيان قيادة الوفود الى ابي طالب يرجونهُ ان يكف عنهم ابن اخيهِ وكان من عصبيتهِ في حرز حريز . ولما ضاقوا ذرعاً وادركوا انهُ لن يتخلى عنهُ ، وان الاعتداء عليهِ قد يؤدي الى اضرام نار حرب اهلية في مكة لاتبقي ولا تذر وان امرهُ في ازدياد ، قرروا ان يقاطعوا بني هاشم كافة ويحاربوهم حرباً اقتصادية اجتماعية ، وربما كانت قريش اول من لجأ الى هذا الضرب (المقاطعة) من ضروب الحروب الاقتصادية في مقاومة خصومها والاقتصاص منهم لاعادتهم الى رأيها ومعنى ذلك ان المقاطعة عرفت منذ اربعة عشر قرناً ونيف

وعقدت الجمعية العمومية لقريش في الكعبة فدرست قضية بني هاشم وبني عبد المطلب من آل عبد مناف وشدهم ازر محمد فاتفقت الكلمة على ان لا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعون منهم شيئاً وكتبوا بذلك صحيفة وقعها الجميع وعلقوها في الكعبة ورأى بنو هاشم انهم امام حالة جديدة وان مكة اتفقت بجميع هيآتها واحزابها ورجالها

عليهم لحملهم على تسليم رجلهم فجنحوا الى المقاومة وابوا الخضوع وانحازوا الى ابي طالب فلجأ بهم الى شعبهِ[1] اي شعب ابي طالب واقاموا فيهِ ثلاث سنوات محصورين لايتصلون بمكة الاّ في خلال الاشهر الحرم فاذا انتهت رجعوا الى شعبهم وعاد المكيّون الى حصارهم على انهم كانوا يمتارون سرًّا وقد انضم اليهم في هذه العزلة المسلمون . وفي نهاية السنة الثالثة ظهرت حركة في مكة ترمي الى وضع حدٍّ للمقاطعة قادها زهير بن ابي امية وهاشم بن ربيعة وابو البختري بن هشام والمطعم بن عدي فتم لها نقض قرار الحرمان والغاء المقاطعة رغم مقاومة ابي جهل الشديدة

واشتد ساعد المسلمين بعد الغاء المقاطعة وانصرف النبي الى نشر دعوته بين القبائل فاضطربت قريش وعقدت اجتماعاً في دار الندوة فاقترح ابو جهل[2] اقتراحاً فقال : ارى ان نأخذ من كل قبيلة شابًا فتىً جليداً ، نسيباً ، وسيطاً ، فينا ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا اليهِ (محمد) فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منهُ فانهم ان فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعاً فلم يقدر بنو مناف على حرب قومهم جميعاً

واتصل بهِ نبأ هذه المؤامرة فغادر مكة الى المدينة مهاجراً ليكون في مأمن على نفسهِ ، بعد ان مهد لذلك بمبايعة الاوس والخزرج له وبعد ان امر المسلمين في مكة بالهجرة الى يثرب وهنالك اسس دولتهُ الجديدة فقاتلت قريشاً وغلبتها على امرها وانتزعت منها السيادة والمجد

فقد اصطدم المسلمون بقريش في بدر للمرة الاولى فانتصروا عليهم فسهل لهم هذا النصر التغلب على المصاعب العديدة والاستيلاء على جزيرة العرب . وخلاصة ما وقع ان النبي خرج يوم ١٧ رمضان من السنة الثالثة للهجرة يقود جيشاً يتألف من ٢٤٠ من الانصار و٧٠ من المهاجرين ليسطو على قافلة قريش السنوية الكبرى التي تسافر بين الحجاز والشام فنزل بدراً وهي مكان متوسط تمر بهِ القوافل في غدوها ورواحها وتستقى من آباره فلما علم ابو سفيان وكان يقود قافلة قريش بخروج المسلمين للقائه خاف على قافلته وفيها نحو الف جمل موقرة بالبضائع ويبلغ ثمنها نحو نصف مليون دينار فاستأجر رسولاً ارسل الى مكة لينذر اهلها بالخطر وليدعوهم الى الخروج للدفاع عنها فلبوا النداء وهرعوا للحرب بقيادة ابي جهل وعدّتهم الفاً فساروا ونزلوا وراء كثيب العقنقل في العدوة القصوى من بدر . واقاموا هنالك ثلاثة ايام .ثم جاءهم رسول من ابي سفيان وقد نجا بقافلتهِ يقول لهم : انما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم واموالكم وقد نجاها الله فارجعوا .فقال ابو جهل والله لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم عليهِ ثلاثاً فننحر الجذور ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا ابداً فامضوا وانتشرت في جيش قريش فكرة الرجوع وعدم الاشتباك في حرب مع المسلمين يؤيدها

(١) لفظ شعب لا يزال حتى الآن شائعاً في مكة فيقال شعب جياد وغيره والمقصود به معنى الحي تقريباً
(٢) ٢٩٨ ج ١ ابن هشام

حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة والاخنس بن شريق وغيره ، وقد عاد هذا فعلاً بقومه من بني زهرة فلم يشهدها احد منهم . وحاول حكيم ابن حزام اقناع ابي جهل بالرجوع فأبى وحرض الناس على القتال فوقعت المعركة ودارت الدائرة على قريش وقتل ابو جهل نفسه قتله شابان من الانصار (معاذ بن عمرو بن الجموح واخوه معوذ) ارشدهما اليه عبد الرحمن بن عوف فضرباه فجرحاه . ودافع عنه ابن عكرمة

ومرَّ عبد الله بن مسعود بابي جهل بعد انتهاء المعركة ، يتلمس القتلى ، فوجده بآخر رمق فعرفه فوضع رجله على عنقه ثم قال له هل اخزاك الله فقال اخبرني لمن الدائرة اليوم

— لله ولرسوله — لقد ارتقيت مرتقىً صعباً يارويعي الغنم

ثم حزَّ عبد الله رأسه وجاء به الى النبي والقاهُ بين يديه فقال الله الذي لا اله الاَّ هو . وهكذا انتهت حياة هذا الزعيم .

***

انتهت الزعامة العليا في الوادي[1] بعد قتل ابي جهل وغيره من كبار الامويين يوم بدر الى ابي سفيان فاخذ يعد العدة للثأر والانتقام فهو الذي دبر حملة احد وقادها كما قاد غزوة الخندق ثم اسلم يوم فتح مكة كما قلنا آنفاً وذلك انه خرج يبحث في اعالي مكة عن خبر النار وقد اوقدها جيش المسلمين حينما وصل ليلاً ، وما كانت قريش تعرف من امره شيئاً ، لان النبي بالغ — حسب عادته — في كتم خبر زحفه على مكة فالتقى ابو سفيان بالعباس عم النبي وقد أسلم هذا قبل ذلك فقال له يا ابا حنظلة هذا رسول الله في الناس واصباح قريش و اتمه . قال فما الحيلة فداك ابي وامي ؟

— والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فاستأمنهُ لك

وركب ابو سفيان خلف العباس وكانا كلما مرّا بنار من نيران المسلمين قالوا هذه بغلة رسول الله حتى مرّا بنار عمر بن الخطاب فقام عمر حينما رأى ابو سفيان وقال هذا عدو الله ابو سفيان الحمد لله الذي امكن منك بغير عقد ولا عهد ثم خرج يشتد نحو رسول الله وركض العباس البغلة فسبقتهُ فدخل عليه ودخل عمر وراءه . فقال يا رسول الله هذا ابو سفيان قد امكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلأُضرب عنقه . فقال العباس اني قد اجرته ثم جلس الى النبي فاخذ برأسه وقال لا يناجيه الليلة دوني رجل . فلما اكثر عمر في شأنه قال العباس : مهلاً ياعمر فوالله انهُ لو كان من رجال عدي بن كعب ما قلت هذا ولكنك قد عرفت انه من بني عبد مناف . واخيراً امر النبي العباس بان يذهب به في رحله ويعود به في الغداة فلما رآه الرسول في الغداة قال ويحك يا أبا سفيان لم يأن لك ان تعلم انهُ لا إله الا الله

— بأبي انت وأمي ما احلمك واكرمك واوصلك والله لقد ظننت انهُ لو كان مع الله آلـه

(١) كانوا يكنون بهذا عن مكة لوقوعها في واد بين جبال شامخات

غيره لقد اغنى عني شيئاً بعد — ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك ان تعلم اني رسول الله
— بأبي انت وامي ما احلمك واكرمك واوصلك . اما هذه والله فان في النفس حتى الآن شيئاً
فتدخل هنا العباس وقال له : ويحك اسلم قبل ان تضرب عنقك فاسلم . واقترح العباس على النبي ان يجعل لابي سفيان شيئاً يمتاز به عن غيره فاعلن ان من دخل دار أبا سفيان فهو آمن

وانطلق هذا الى قومه فصرخ باعلى صوته : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم في ما لا قبل لكم به فمن دخل دار ابي سفيان فهو آمن. فلما سمعت زوجته هند بنت عتبة صياحه قامت اليه فاخذت بشاربه فقالت اقتلوا الحميت الدسم الاحمس قبح من طليعة قوم . فقال لا تصغوا اليها

وهكذا كانت نهاية ابي سفيان وعلى هذا المنوال دخل في الاسلام فهل كان مخلصاً في اسلامه؟

ان هنالك حادثتين حدثتا بعد ذلك تلقيان شيئاً من النور على موقف ابي سفيان

فالحادثة الاولى كانت يوم حنين فقد كمن المشركون للمسلمين فلما وقعوا في الكمين اسخنوا فيهم طعناً وضرباً فتراجعوا وكان ابو سفيان في جيش المسلمين فلما رأى ارتدادهم وتراجعهم في اول المعركة قال « لا تنتهي هزيمتهم دون البحر[1] » فهو بذلك يعرب عن اغتباطه بهزيمة المسلمين ويقول انهم لن يقفوا حتى البحر اي انهم سيجلون عن مكة

واما الحادثة الثانية فكانت يوم وفاة النبي فقد حاول ابو سفيان ان يحدث حدثاً فخطب سهيل بن عمرو وكان من خطباء قريش في مكة فقال «والله اني لأعلم ان هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها . فلا يغرنكم هذا (واشار الى ابي سفيان) من انفسكم فانه يعلم من هذا الامر ما اعلم ولكنه قد ختم على صدره حسد بني هاشم »[2]

على انه لابدّ لنا من الاشارة الى موقف يزيد بن معاوية حينما جيء له برأس الحسين الى دمشق بعد كربلاء ـ وهو ذو صلة بموضوعنا ويدل على ان دخول الامويين في الاسلام وبلوغهم الذروة العليا من السيادة بفضله لم تنسهم قتلاهم ببدر فقد روى الرواة انه لما وضع رأس الشهيد ابي عبد الله الحسين بين يديه في طشت اخذ ينكته بقضيب في يده وينشد — ليت اشياخي ببدر شهدوا الخ

وهناك امر آخر قد يفيد التنبيه عليه وهو انهُ كان بين الامويين من اسلم في ابتداء الدعوة وأدى خدمات جليلة للاسلام وفي مقدمة هؤلاء الخليفة الثالث عثمان بن عفان صهر النبي فقد دخل في الاسلام على يد ابي بكر وكان رابع اربعة دخلوه فأولهم خديجة ثم علي ثم ابو بكر ثم عثمان واسلم معه في يوم واحد سعد بن ابي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وبلال

وكذلك فقد دخل في الاسلام حنظلة بن ابي سفيان وهو كبير انجاله واستشهد هذا في صفوف المسلمين يوم احد . وحذيفة بن ربيعة وغيرهم ولعلنا ندرس هذا الموضوع في مقالة اخرى

القاهرة امين سعيد

---

(١) ابن هشام ٢٩٢ — ج ٢ (٢) نور اليقين ص ١١٥

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

﴿ المصلحة الفردية فوق سائر المصالح ﴾ كان الرأي الشائع في القرن التاسع عشر — قبل انتشار الآراء الاشتراكية — عن الحكومة وحق تدخلها في الشؤون العامة رأياً فردياً خلاصته ان كل فرد هو اعرف الناس بمصلحته الخاصة فلو ترك وشأنه في الظروف الملائمة لسعى دائماً للحصول على ما ينفعه ، لذلك لا يجوز للحكومات ان تتدخل في شؤون الناس اكثر مما هو ضروري لدفع الاذى ومنع سوء الاستعمال والاّ فان عملها يعرقل سير الناس في طلب المنافع ويقضي عنهم في المسائل التي يجب ان يقضوا هم فيها بأيديهم . ومن العجيب ان تكون هذه النظرية الفردية — لا نظرية «العقد الاجتماعي» ولا «الحقوق الطبيعية» — هي التي انتقلت بانكلترا من الحكم العظامي الى الحكم العصامي . وان (جرمي بنثم) مؤسس نظرية السعادة الفردية وصاحب كتاب (اصول الشرائع) الذي نقله الى العربية المرحوم فتحي زغلول كان الحكيم الذي طبع بطابعه الخاص اصلاح سنة ١٨٣٢ البرلماني وهي سنة وفاته . وبموجب هذا الاصلاح امتدّت حقوق الانتخاب الى الافراد واتسعت اتساعاً كبيراً وازيحت بعض العقبات المهمة التي كانت تعتورها . ونحا هذا النحو الفردي ايضاً الفيلسوف الاقتصادي الكبير (جون ستورت مِلْ) المتوفي سنة ١٨٧٣ والمستر (هربرت سبنسر) شيخ الاجتماعيين المتوفي سنة ١٩٠١ وفي وسعنا ان نوجز « الحكمة البنثمية » ورأي البنثميين اجمالاً بما يأتي : وهو ان المعيار المضبوط للحقوق السياسية التي يتمتع بها الناس هو المصلحة وان السعادة العظمى للاكثرية العظمى هي غاية المجتمع وان هناءة الافراد من النساء والرجال الذين يؤلفون المجتمع — لا المجتمع نفسه — هي التي يقام لها وزن في القسطاس السياسي . وكان اصحاب هذه الديمقراطية الفردية ومن لفّ لفهم من الد اعداء التدخل الحكومي حتى ان المستر (هربرت سبنسر) لما نشر كتابه «الاحصاءات الاجتماعية» في سنة ١٨٥٠ ذهب فيه الى ان وظيفة الحكومة تقتصر على حماية حياة الافراد والدفاع عن حريتهم واموالهم فقط وفيما عدا ذلك يكون عملها تجاوزاً لامسوّغ له ، وعندهُ ان دستور «المساواة في الحرية» هو ان يكون للفرد ملء الحق في ان يتمتع بجميع ملكاته او مواهبه ضمن حدود الحقوق التي لغيره ان يتمتع بها ، وعلى الدولة — بل واجبها

الوحيد—ان تنفذ هذا الدستور فاذا ما تجاوزته الى غيره اصبحت متعدية ولم تعد حامية

وكان هذا الاطلاق للفرد ان يغرف من حلمة السعادة والهناءة بقدر كل ما تتسع له معدته سبباً في ازالة الشيء الكثير من العقبات التي كانت تعتور الافراد في سيرهم مما آل في آخر الامر الى ظهور «الرأسمالية» بثوبها القشيب وتمتعها بحرية مطلقة وسلطان قاهر بحجة الحرية التي يجب ان يتمتع بها اصحاب رؤوس المال في روحاتهم وغدواتهم . واقتضت هذه الحرية في نظر القائلين بها مذهباً معروفاً هو مذهب «ترك الحبل على الغارب» Laissez—Faire يعني عدم تدخل الحكومة في الشؤون على امل ان مصالح الافراد الشخصية وتمتع كل واحد منهم بملكاته ومواهبه في الحدود التي لاتضير غيره تنتهي في آخر الامر الى التسوية العامة بين الجميع . ولو كانت المسألة كما قال (برنارد شو) هي جلوسنا على شاطىء النهر ومرور الماء من تحت ارجلنا يحمل الينا مطالبنا لهان الامر وصح هذا المذهب ولكن المسألة اننا هائمون في مركبة خيلها جامحة لا ندري متى نسقط في الهوة او نصطدم بالصخرة . وكانت الفكرة الاجتماعية السائدة يوم كتب سبنسر « الاحصاءات الاجتماعية » ان الجمعية البشرية كناية عن حيوان كبير ذي وظائف بدنية فسيولوجية متنوعة فالسكك الحديد مثلاً هي اوردته الدموية واسلاك البرق هي الاعصاب وأما الحكومة فهي العضو المدبر للشؤون فلا غرو ان تكون وظيفتها الاولى والكبرى حماية الارواح والدفاع عن الحرية [1]

ومع كل ما في هذا المذهب الاجتماعي الحيوي — البيولوجي — من الحقائق الراهنة وما في الرأي الفردي من الاسس المشجعة فالمجتمع اليوم معتبر وحدة عقلية اجتماعية قائمة على الارتباط الذهني بين الافراد اكثر منهُ وحدة عضوية حيوانية قائمة على الارتباط الفسيولوجي. ولكن من الخطإ الفادح والاستنتاج المغلوط ان يظن احد ان اتصاف المجتمع بهذا الوصف الفكري المعنوي يزيل عن الافراد غرائزهم الحيوانية الاولى فهذه الغرائز البيولوجية هي الاساس والمجتمع الروحي الذهني هو البناء المشمخر القائم عليها ، بل دلتنا الحرب العالمية وما لزمها من فظائع ومجازر ومجاعات وأوصاب والثورات الوطنية التي حضرناها على ان هذا الانسان «الكامل» المربَّى في احضان المدنية والمهذب في مدارسها العالية متى تملكته سورة الغضب او شعر بالحاجات الاولى عاد الى اساسهِ البيولوجي حالاً فظهر بمظهره الحيواني الصريح

وممن نشأوا على النظرية الفردية الاقتصادية والابتعاد عن التدخل جهد الطاقة الرئيس (هوفر) في ايامنا هذه فكان مذهبه سبباً في عزلة اميركا واطالة الازمة الاقتصادية الآخذة بخناق الناس الى ان خذل في الانتخابات الاخيرة خذلاناً دلَّ على نفرة الناس من سياسته . وارى ان هؤلاء الكتَّاب الفرديين قد افرطوا كثيراً عند ذكرهم وجائب الدولة في جعل حماية

(1) Encyclopaedia Britannica, Vol. XI. p. 9.

الارواح والاموال الكل في الكل ، ولئن كنا لا ننكر ان الدنيا تنقلب في يوم واحد رأساً على عقب ويتحول نظامها الى فوضى متى زالت هذه الحماية واصبحت الارواح عرضة للقتل والاموال عرضة للنهب الاّ ان مثل هذا الالحاف في ذكرها والاقتصار عليه هو أليق بدولة تتأسس حديثاً في عصر من الاعصر الخالية ، ولعمري ان هذه الحماية هي من البديهيات في نظر الدول الحاضرة والاقتصار على تصنيفها وشرحها هو اغفال لما استجدَّ من الواجبات وما يستجدُّ ، خذ على ذلك مثلاً حركة العمال التي تقيم المجتمع وتقعده في ايامنا . والتي تهدد النظم القديمة من الاساس ، ففي البلدان الصناعية استجد على الدولة واجب خطير يعبر عنه بقولهم «حق العامل ان يعمل» يعني حق العامل النشيط ان يحصل على ما يضمن له العمل اللائق به بحيث يتمكن من المعيشة معيشة شريفة . فالمسألة اذاً كما قال[1] (كونردجل) ليست دفع الفاقة والتسول ومنع الموت صبراً عن هؤلاء الناس فقط بل ضمانة حصولهم على مقياس من الحياة يجعل هذه الدنيا محتملة لديهم ويخفف من آلامها عنهم ، فمثل هذا الواجب المستجد على خطورته لا تشعر به البلدان التي تعيش في اجواء القرون الوسطى ، بل ما احوج هذه البلدان الى من يحفر بالازميل والمطرقة في جماجم حكامها آية تذكرهم بقدسية الحرية الفردية وشأن الحياة المنبسطة ؛ وما يعد من البديهيات المسلم بها في الاقطار الراقية قد يكون مثار الشبهة والجدل في الاقطار المتأخرة

ولا ادلّ على رفض النظرية الفردية وما تستند اليه من مذهب «ترك الحبل على الغارب» من اجماع الدول الحاضرة — حتى اشدها رأسمالية — على وجوب التدخل في الشؤون حرصاً على المصلحة العامة ومنعاً من سوء الاستعمال . ولعل اثمن تحفة أدبية خلفتها لنا نصوص المشترعين في وجوب التدخل ما جاء في حديث عبد الله بن المبارك « أن قوماً ركبوا سفينة في البحر فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع ، فنقر رجل منهم موضعه بفأس فقالوا له ماتصنع ؟ فقال هو مكاني اصنع فيه ما شئت ، فان اخذوا على يديه نجا ونجوا وان تركوه هلك وهلكوا[٢] » ونظرة واحدة في منهاج دولة من الدول الكبرى الحاضرة فيها المقنع الصادق على صحة هذا الرأي ، وفيما يأتي خلاصة مقتبسة مع التعديل من البرنامج الحكومي الذي اورده الرئيس « ودرو ولسن » في كتابه « الدولة » المطبوع قبيل الحرب العالمية ، والرئيس كما هو معلوم هو وحكومته من ابعد الناس عن الاشتراكية[٣]

(١) حفظ النظام الاجتماعي كما يحفظ الشرطي سير المركبات والسيارات في الشوارع المزدحمة منعاً من الاصطدام ولو كان السواقون من الاخصائيين في مهنتهم والملائكة في اخلاقهم

(٢) وهو ماذكره المستر (هربرت سبنسر) واقتصر عليه — يعني حماية الابدان والاموال

(1) Government and People, p. 229 (٢) البيان والتبيين للجاحظ (٣) The State, p.p. 637-640

من التلف والسرقة ، وربما كانت هذه الوظيفة اهم وظيفة تقوم بها الحكومة لتوقف الحياة الاقتصادية والاجتماعية عليها وارتباطها بها

(٣) الاشراف العام على الاسرة وتعيين العلائق المشروعة بين الزوج والزوجة وبين الآباء والابناء ، لجهل بعض الناس ، والاخطاء التي يرتكبها غيرهم في احكامه ، والشر المستحكم في قلوب الآخرين . والعقائد السخيفة البالية المستحوذة على الجامدين من الافراد خصوصاً من فسر منهم الاوامر والنواهي بما ينطبق على رغباته وشهواته كل ذلك يقتضي الاَّ تتخذ الحياة العائلية ذريعة للاضرار بأي فرد كان والاَّ اصيب المجتمع بالكوارث وحلَّ بهِ الدمار من جراء الفساد في الاسرة وهي هي الوحدة الاجتماعية القياسية التي تبنى عليها الجمعية البشرية في تدرجها الحاضر

(٤) تنظيم استملاك الاملاك والاموال وتناقلها وتبادلها

(٥) تعيين التبعة الملقاة على العاتق من الديون المستدانة والجنايات المقترفة وهذه الوظيفة نتيجة لاحقة للوظيفة السابقة والاَّ جاز للناس ان يستقرضوا الاموال ثم ينكروها وللاشقياء ان يقترفوا الجنايات ثم يفلتوا من تبعتها فيختلُّ النظام الاجتماعي من اساسه

(٦) تعيين الحقوق التي تخولها العقود المتفق عليها بين الافراد

(٧) تعريف الجناية وتعيين الجزاء المترتب على اقترافها، ويحسن بنا ان نذكر هنا ان الجرم كان في الاصل مقترفاً بحق الفرد ونازلاً به فكان عليه ان يسويه بنفسه مع المجرم ، ولكن الدولة اصبح من وجائبها اخيراً ان تحمي الفرد، وليس ذلك فقط، بل ان تحمي نفسها ايضاً لذلك كان الجرم معدوداً جرماً بحق المجتمع ونازلاً بهِ. وعلى الحكومة ان تعين الجناية وتضع الجزاء على ارتكابها

(٨) احقاق الحق وازهاق الباطل في القضايا المدنية ، وما دامت الدولة هي القوة الوحيدة التي تستطيع العمل بعيدة عن المصلحة الفردية فهي الحكم الطبيعي الذي يقضي بين المتخاصمين بالعدل والقسطاس المستقيم

(٩) تعيين الواجبات السياسية المترتبة على الوطنيين وتعيين العلاقات القائمة بينهم وتعريف الامتيازات التي يتمتعون بها . وينطوي تأليف الدولة على فكرة حاكم ومحكوم وان كان القسط الذي يناله الفرد في الحكم يتوقف على نوع الدستور الذي تألفت بموجبه الحكومة والطريقة التي سلكتها ، فالفرد في الحبشة مثلاً يختلف جداً الاختلاف عن الفرد في لندن وباريز. وتعني كلمة « السلطان » في البلدان المستقلة ان يد الدولة فوق الايدي وان كلمتها هي العليا وانها بقوة ارادتها تمتلك ناصية السلطة وتحتفظ بها ، وتظهر هذه السلطة للعيان اما بواسطة الملك او مجلس النواب او الدستور ، وبديهي ان ارادة الدولة السلطانية هي التي تدير الشؤون التي تتناولها الواجبات السياسية والامتيازات التي اشرنا اليها . ففي الحكومات النيابية حيث يحكم الناس أنفسهم بنواب ينتخبونهم يكون السلطان في الدستور وهو من صنع الشعب، يعني ان

الشعب يعيّن حقوقهُ السياسية وواجباته والامتيازات التي يتمتع بها بواسطة الدساتير والشرائع التي يسنها وبالسلطة المحترمة التي يمتلك ناصيتها . ثم ان حق الاقتراع والتوظف وواجب تأدية الضرائب وحمل السلاح للدفاع عن الاوطان ورد عادية الطامعين وتعيين وظائف الضباط وحدودهم السياسية كل ذلك يجب تقريره بواسطة الحكومة بحسب قوانين واضحة تصدرها ونظم معينة تجري عليها . فأين هذا الموقف من تلك البلدان التي حرمت استقلالها فبلغت من الضعف والامتهان ان أصبحت جميع مظاهر سيادتها احجار شطرنج تلعب بها الايدي الغاصبة ، حتى ان دستورها وهو قاعدة عملها الغي الغاءً صريحاً بمجرد مادة اضافية واحدة ادخلتها اليد الاجنبية فجعلتهُ هزءاً وسخرية

(١٠) على الدولة ان تعيش وان تحتفظ بعلاقاتها السياسية بالدول الاجنبية ، فكل دولة هي حيال الدول الاخرى وحدة مستقلة ، وعليها ان تحتفظ بهذه الوحدة وهذا الاستقلال ، وكل اتصال بالدول الاخرى يجب ان تكون الدولة واسطة عقده وطريقة تنفيذه ، ومن اعظم وجائبها ان تدفع عن الاهلين ما يداهمهم من الاخطار الخارجية ، وان تنمي جميع مصالحها المتعلقة بالدول الاجنبية ، وأن ترعى حقوقها والامتيازات التي لها وان يكون رعاياها وما يمتلكون في حرز من حمايتها حريز متى تعلق ذلك كله بالشؤون الدولية

ويلحق بهذه الوظائف الضرورية وظائف اخرى اختيارية منها ادارة التجارة والصناعة وتنظيم العمل والاستيلاء على الطرق والمعابر والجسور والسكك الحديدية والبرق والبريد والاشراف على الشؤون الصحية وتعهد التربية والتعليم والعناية بالفقراء والايتام والعجزة وسن القوانين التي تتناول صنع بعض الاطعمة وبيعها واستهلاكها

ولسنا بحاجة بعد سرد هذه الوظائف الى القول ان هنالك ميلاً مضطرداً في الحكومات الحاضرة الى الاضطلاع بالوظائف المتزايدة واستجماع القوى المشتتة مما حمل الكثيرين من اهل البحث على القول ان هذا الميل سيشتد الى ان تقبض الدولة على الاملاك والصنائع والمرافق والاعمال فتتألف حينئذٍ الدولة الاشتراكية باختيار الامة ونزولاً على ارادة الرأي العام فيها. وهذا (برنارد شو) يذهب فيما يذهب اليهِ الى ان العالم يسير في طريق الاشتراكية رغم انفه ويتجلى هذا السير فيما تمتلكه الدولة في ايامنا من المنافع العامة والمرافق المشتركة ، فالطرقات والشوارع والحدائق البلدية والجسور العمومية كل ذلك يستعمله الافراد على الطريقة الاشتراكية الشيوعية . وقد بقي البريد في انكلترا الى اجل قريب ملك الافراد يستثمرونهُ استثماراً خاصاً الى ان تحوَّل فصار ملك الدولة ، ولا يفكر احد في شيء من الضرر في مثل هذا التحول النافع ، وقد تسير البنوك سيرة البريد ايضاً فتمسي ملك الدولة ويبطل ان تكون حصتها من الربح الذي تأخذه ربا على الاموال اضعاف ما يربحه الافراد المتعاملون ، ولم لا يوزع اللبن يا ترى

على الناس بالطريقة الاشتراكية كما توزع المياه في المدن بالانابيب على البيوت فيتنعم الاطفال باللبن جوهر غذائهم كما يتنعم الناس بالماء اصل حياتهم؟ لكن التتبع دل على انهُ ليس من الضروري ان يؤدي تنظيم المنافع المشتركة على هذا النحو الى تأليف الحكومة الاشتراكية الشيوعية فقد قطعت المانيا وايطاليا مثلاً شوطاً بعيداً في هذا المضمار من غير ان تبطلا الرأسمالية او أن تتشيعا على الطريقة الروسية

ويظهر من قائمة هذه الوظائف الاختيارية المتنوعة ان ليس ثمة طريقة يعتمد عليها في بيان ما يجب ان يضطلع بهِ الفرد وما يجب ان تضطلع به الحكومة ، ويجوز ان يكون القول الفصل في ذلك للرأي العام متى كان ناضجاً ومنظماً تنظيماً صحيحاً صالحاً للتعبير عن ارادة الشعب وحينئذٍ تعمل الحكومة بارشاده وتحت اشرافهِ ونفوذه كل ما من شأنهِ ان يؤدي الى السعادة والهناءة ولو اقتضى ذلك زيادة تدخلها. وقد افضنا في ذكر وجائب الدولة لنوجهُ انظار القارىء الى مجال الحكومات الحاضرة المتسع في العالم الغربي ولكننا لم نقصد بوجه من الوجوه ان نسمح لمثل هذا المجال ان يتعدى الى الحرية الفردية المقدسة فهذه الحرية هي الغاية العظمى لكل حكومة صالحة والهدف الاسمى لكل تشريع كريم وتضييقها الى حد بعيد هو العيب الاكبر الملتصق بالحكومات الدكتاتورية الشديدة الوطأة، ولولا الحرية ما ارتقى البشر الى مستواه ولا حلقت العقول فيما لها من سماء صافية ولا كانت فنون ولا حكمة ولا دين ، وليس من مصلحة البشر في شيء ان تكم افواه النقاد وان كانت في مصلحتهم ان يلجم السفهاء . ولا يرتقي المجتمع متى كانت افكار النبغاء عرضة في كل جولة من جولاتها للاصطدام بالقانون، ولا هون على الحوت أن يعيش في ساقية من الماء الضحضاح من ان يعيش الرجل الكبير في نظام ضيق، فعلى المشترعين عند سنهم الدساتير ان يضعوا نصب عيونهم ان القانون انما جعل لمنع الانحراف المرضي من جهة ولتشجيع السير الصحي من جهة اخرى ، وقد ادى العالم ثمناً باهظاً جداً على تلك الجرائم التي اجترمها « ديوان التفتيش » في القرون الوسطى في اوربا بقتله الالوف من النوابغ الى أن تغلبت الحرية ففاز اهل المزايا بالبيئة التي تسمح بظهور خصائصهم وعاد الازدهار بعد المحل، ويجوز لنا ان نقول أن كل امة ضربت على عقول أبنائها نطاقاً ثابتاً يحول دون ظهور مواهبهم هي امة صائرة الى الزوال (قال جون لوك) :

« ليست الشريعة بالمعنى الصحيح التضييق على الرجل الحر العامل بقدر ما هي تدريبه وترويضه للوصول الى مصالحه القانونية ، وهي لا تأمر باكثر مما يعود بالنفع على العائشين بكنفها فلو كان في مقدورهم ان يكونوا بفقدها اكثر سعادة منهم بوجودها لتلاشت حينئذٍ من نفسها باعتبارها فضلة زائدة لا فائدة منها . . . . لذلك مهما اسيء فهم الغاية من الشريعة فهذه الغاية لن تكون لسحق الحرية وخنقها بل للاحتفاظ بها واطلاقها »[1]

(1) John Locke Second Essay on Civil Government.

باب الزراعة والاقتصاد

الجراد

بحث علمي لغوي عملي للدكتور هلال فارحي

الجراد احد اقسام الحيوانات المفصلية الاربع ومن أكلة الخضروات . ومن فصيلة الحشرات المستقيمة الاجنحة الناقصة التطور Amotabola . وينسب الجراد الى قسم الجنادب من الحشرات التي تتألف من ثلاث فصائل (١) الرواكض Cursoria (٢) المشاة Gressoria (٣) الوثابة Saltatoria . ثم الفصيلة الثالثة تنقسم الى ثلاث عائلات والى احداها ينسب الجراد وهي (١) الجرحل وانواعه Locustodae (٢) الصرصار Gryllidae (٣) الجراد وانواعه Acrididae . ويتركب جسم الجراد كبقية الحشرات من ثلاثة اجزاء الرأس . الصدر او الظهر . والبطن . وهذه مؤلفة من ١٦ حلقة . ثلاث في الرأس متصلة بعضها ببعض وثلاث في الصدر والظهر وعشر في البطن

يحيط جسم الجراد طبقة سميكة مكونة من الشيتين وهي مادة صلبة تفرز من الطبقة الاديمية بمثابة القرون والاظافر والاظلاف غير انها لا تذوب في الاحماض والقلويات. وهذا الشيتين يكوّن صفائح وهيكلاً يقيها من الارض وتسمى الصفائح التي في اعلى الجسم الترجا . والمحيطة أسفله الاسترنا وهاتان الصفحتان تتصل احداها بالاخرى بصفيحة رقيقة تسمى البلورا . لجميعها تحفظ وتثبت اعضاءها الباطنية في مواضعها . وكل جسم الجراد مغطى بشعر دقيق جداً ما عدا القرون والاجنحة

يعيش الجراد على الارض ويتنفس بانابيب تسمى بالقصبات الهوائية تمتد طولاً وعرضاً وتحمل الهواء الى جميع فراغ الجسم ذات لون فضي لامع لامتلائها بالهواء مركبة من خيوط شيتية دقيقة حلقية ملتفة على جدارها فتبقى مفتوحة على الدوام . تنفتح هذه الانابيب الى الخارج بواسطة فتحات على الجانبين تسمى بالفوهات التنفسية او الثغور وعددها عشرة ازواج الزوج الاول بين قطعتي الصدر الاولى والثانية . والثاني بين الثانية والثالثة والباقية على اجناب

الحلقات الثمان الاولى للبطن وتوجد على حوافي (جمع حافة) هذه الفوهات شعور دقيقة تمنع دخول الاتربة والاقذار للقصبات الهوائية

من اهم انواع الجراد الرحال له صفة خاصة تجمعهُ في اسراب ومهاجرته من جهة الى اخرى طلباً للغذاء فيفتك بالبلاد التي يمر بها وهو في طور الحوريات قبل البلوغ وبعد ما يبلغ ويكمل نموه يأ كل مزروعاتها ويمحطها ويتركها جرداء خالية من النبات وهو من الحيوان الذي ينقاد لرئيسهِ فيجتمع كالعسكر اذا ظعن اوله تتابع جميعهُ ظاعناً . واذا نزل اوله نزل جميعه

(١) الرأس

﴿الرأس﴾ الجزء الامامي من الجسم يشمل المخ مركز الحس وفيه قرنا الاستشعار والعيون وفم قارض تميزاً عن اللاعق . وهو قصير وصغير بالنسبة للجسم ، صلب مستطيل الشكل . قمته Vertex واسعة مقعرة في الوسط كالسرج مرتفعة قليلاً في الاجناب . وتتصل بقسمه البارز بزاوية مستديرة . في مقدمته قرنان للاستشعار antennae من النوع الحريري الخيطي يتركب كل منهما من اربع عشرة قطعة منفصلة بعضها عن بعض مخروطية الشكل . تستدق مع اتجاهها الى الطرف . طولها اقصر من الجسم . جبهتهُ عمودية فيها قسم كبير Costa frontalis مرتفع وواسع بمساواة على طول الجزء الاعلى من هذا القسم مقعر وفي وسطهِ العين الوسطى احدى العيون البسيطة التي له

﴿العيون﴾ للجراد خمس عيون اثنتان مركبة في كل جنب وراء قرون الاستشعار كلويتا الشكل بارزتان جداً كعيون الجرذون ويمكن تحقيق شبكة صفحاتها Facettes المؤلفة من ستة اضلاع بواسطة عدسة مكبرة عشر مرات وتحتاج الى مكبرة اقوى لتحقيق اضلاع صفحاتها

واما العيون البسيطة Ocellus فثلاث . واحدة في وسط الجزء الاعلى من ارتفاع الجبهة وواحدة في كل جنب امام ذيول العيون المركبة الاصلية الامامية فوق وضع القرون . هذه العيون عبارة عن عدسات بسيطة شكل نقط تبرق كنقطة ماء صغيرة

ينزل من وسط الحافة الامامية للعيون الاصلية الى جانبي قسم الجبهة المرتفع حد Carina lateralis الى ترس الرأس Clypeus يفصل الجبهة عن الاحناك genae . هذا الترس ينفصل عن الجبهة بواسطة حزّ عرضي عميق . كما ان قسم الجبهة الكبير مرتفع في اجنابه قليلا كحدود فاصلة فهذه مع الحزوز الفاصلة للاحناك تكوّن تجويفاً فيهِ ترقد قرون الجنين وهو داخل البيضة

﴿ الفم ﴾ فتحة الفم في جنب البطن مفتوحة جداً مغطاة من امام بالشفة العليا محاطة من جانبيها ومن تحت بثلاثة ازواج آلات قارضة للاكل

﴿الزوج الاول﴾ من آلات القرض فوق الزوجين الآخرين سن كالمنشار (المشرشر) معمول من مادة قرنية صلبة كالفولاذ خال من نتوات في الاجناب ويتصل باطراف الفكين مع الفم mandibulae يتحركان احدهما مقابل الآخر تحركاً جانبيّاً كذراعي كماشة تقاطع جنبهما الخارجي عرضاً سبعة حزوز مجوفة بين ثمانية نتوات منفصلة عن بعض ينتهي كل منها بسن حاد صالح للعض والقضم حتى لكسر مواد صلبة كاللوز ايضاً ومن السن الخامس فما فوق يوجد صفّاً اسنان ثانٍ موازٍ للاول الخارجي ومتجهاً للداخل وعلى سطح التاج الواسع الممتد بينهما تجد نتوات وارتفاعات تشبه الموجودة في تيجان اسنان الحيوانات المجترة كالبقر وهذه ضرورية للجراد لتسحق غذاءه النباتي بين التيجان . اما اسنان هذا الزوج المنشارية فلا تشبه بعضها بعضاً لونها اسمر كما لو كانت محروقة بالنار

﴿الزوج الثاني﴾ من آلات القرض والاكل هو الفك الاسفل القفم Maxilla هذا مؤلف من اربعة اجزاء . المحور الكاردو Cardo عليه يدور الفك من جانب الحلق تحت الزوج الاول وخلفه قليلاً (٢) الساق ام القصبة Stipes يتصل بالمحور بزاوية قائمة . يتحركان جانبيّاً كالزوج الاول (٣) الفص الداخلي Lobus internus (٤) الفص الخارجي L. Externus فوق الداخلي كالقبعة وينتهي هذا الزوج بثلاثة اسنان غامقة اللون تساعد على القضم ومضغ الغذاء من النباتات وهو المشرشر وتوجد في الجانب الوحشي من كل فك الزائدة الفكية Palpus maxillaris تستعمل كعضو لمس مؤلفة من خمس قطع كل قطعة تزداد في الطول لغاية طرفها الاخير . وبين هذه والمشرشر القلنسوة . مؤلفة من قطعة واحدة موازية للزائدة الفكية واقصر منها

﴿الزوج الثالث﴾ مؤلف من الشفة العليا Labium وهي عبارة عن قطعة صفيحية عريضة صلبة متصلة باسفل الرأس بذيل الترس الامامي وتغطي الفم . والشفة السفلى كالعليا في أسفل الفم تقفل الفم من تحت ومن خلف فتحفظ الطعام من السقوط وتساعد في تناوله مشقوقة في وسط حافتها السفلى وفي جانبيها الزائدة الشفوية Palpum labiales تتألف كل منهما من ثلاث قطع غير متساوية بالطول . وكل من هاتين الشفتين مركبة من قطعتين متشابهتين موضوعتين جنباً لجنب تتحركان تحركاً جانبيّاً

﴿اللسان﴾ Ligula طوله ١½ـ٢ ملمترات مخروطي الشكل رأسه مستدير غير حاد واسع شكل الجزء الاعلى من منقار الطير ومجوف من تحت كالملعقة يمتد الى كل تجويف الفم ما عدا السقف لونه اسمر

﴿المريء﴾ Oesophagus طوله ٣ ملمترات طول المعدة ٢٠ ملمتراً لونها اسمر Stomadeun ٢ ملمترات . في باطنه طيات تمتد طولاً وعرضاً وفيها نتوات تساعد في سحق الغذاء . وتوجد عضلات عرضية مستديرة تبعد احداها عن الاخرى ٤ ملمترات . تضغط الطيات (مقابل بعض) لاجل طحن الاكل قبل دخوله الامعاء Proctedaeum طول الامعاء نحو ٤٠ ملمتراً

محل اتصال المعدة بالامعاء محاط بنتو يبرز من ٦ امعاء مسدودة مختلفة في الطول متوسطها ٩ ملمترات والامعاء ملتوية كالثعبان

(٢) الصدر

﴿الصدر﴾ Thorax القسم من الجسم الذي يلي الرأس يتركب من ثلاث قطع Segmenta متوالية (١) الاولى تسمى بالقطعة الصدرية الامامية Prothorax تشمل قسم الظهر الاول Pronotum وقسم الصدر الاول Prosthorax (٢) الثانية المتوسطة mesothorax تشمل قسم الظهر الثاني Mesonotum وقسم الصدر الثاني Mesostenum (٣) الثالثة تشمل قسم الظهر الثالث Metanotum وقسم الصدر الثالث metasternum يختلف حجم هذه القطع تبعاً لنمو الاجنحة وغيرها من اعضاء الحركة . ثلثه الاول مقعر شكل سرج تقاطعه ثلاثة حزوز الى جانبه ثلثاه الخلفيَّان يرتفعان ويبرزان كمجنٍّ مروَّس ومستدير قليلاً في الاطراف الخلفية فوق جزء الظهر الثاني ، ويغطيان قاعدة زوج الاجنحة الغشائية . ويبرز نتو عمودي على طول جزء الظهر الاول تقاطعه الحزوز العرضية الثلاثة في ثلاثة محال . حافة هذا القسم مرتفعة قليلاً بشكل ثنية

جزء الصدر الاول ضيق جدًّا ويصغر بين الرأس والجزء الثاني الغليظ والمنتفخ فيه حرقفتا زوج الارجل الامامية Coxae بينهما تبرز زائدة اسطوانية طولها من ٣ — ٥ ملمترات Processus cylindricus وفي وسط جداره توجد أول فوهة للتنفس ذات اطراف قائمة تفتح وتقفل فبواسطتها يمكن الجراد ان يضبط سرعة تنفسه غير انها مغطاة بفصوص قسم الظهر الاول الواسعة ويلزم قطعها لفحص الفوهة المذكورة جيداً

في قسم الظهر الثاني يوجد زوج الاجنحة الغشائية على جانبي سطحها . جزء الصدر الثاني يغطي القسم الاوسط من الجزء الثالث بواسطة فصي اجنابه المربعة وحوافيه المستقيمة وفي جدران اجنابه Pleurae تجد حزين مائلين وفي آخر الثاني منهما بين قسمي الصدر الثاني والثالث فوهة التنفس ويمكن مشاهدة حركة هذه الحوافي اثناء التنفس بالعين المجردة في هذا الجزء يتصل مفصل فخذ زوج الرجلين الثاني

قسم الظهر الثالث داخل بفصيه بين فصي القسم الثاني فيه ثقبان صغيران وعليه وضع زوج الاجنحة الثاني الكبير جدرانه مجعدة ومثنية وخالية من فوهات التنفس يتصل مع هذا القسم زوج الرجلين الثالث للوثب وبين فصيه الجانبيين يدخل فص اول حلقة من البطن وهذه الحلقة تشترك مع ثلاثة اقسام الصدر والظهر لتكوين القفص المتين

(٣) البطن Abdomen

﴿البطن﴾ المنطقة التي تلي الصدر ويتصل به مباشرة ويتألف من تسع حلقات وحلقة العجز الاخير المركب من ثلاثة اقسام الدبر وازرار الجنب Cerci . الحلقة الاول

Segmentum medianum مشتبكة بالقفص . صفيحتها العليا أي الترجا شيتية . جانباها ضيقان بسبب قسم الصدر الثالث المفتوح جيداً ، فيهما فوهتان كبيرتان للتنفس مفتوحتان جيداً وبالقرب من حافة كل فوهة امامية توجد الاذن وهي عبارة عن تجويف بسيط شكل قمع في اسفله غشاء براق شبيه بجلد الطبلة بين نتوءين قرنيين بارزين من القسم الداخلي للغشاء . تحت الطبلة يوجد كيس صغير مزخرف جداً يملؤه سائل وهو لصدى الاصوات . يتصل باسفل الطبلة عصب السمع المتفرع من الدرب الثالث الصديدي (عقدة عصبية) ويكون ذرباً جديداً ثم هذا يتفرع وينتهي بخيوط عصبية دقيقة جداً وقيل ان في نوع الجراد ذي القرون الطويلة توجد الاذان على الساق الامامي شكل شق ضيق مستطيل. وتلتصق الصفيحة السفلى الاسترنا بجزء الصدر الثالث وتشترك معه بتكوين القفص (الصدر)

الحلقات الست من الثانية الى السابعة لها شكل واحد وترتيب واحد ويوجد في الحافة الامامية من كل منها نتو كجناح يعلو فوق الحلقة السابقة كزرد الدروع فيثبتها ويسهل حركة البطن ، وكما سبق تتصل الترجا مع الاسترنا بجلدة رقيقة البلورا هذه مثنية تسهل امتداد البطن والالتواء والحركة

وفي كل جنب من الترجا قرب الحافة السفلى توجد فوهة مدورة للتنفس يمتد منها انبوب الى جهة الرأس مائلاً . وهذا الانبوب يتفرع الى انابيب دقيقة صغيرة ايضاً شكل شبكة

الحلقة الثامنة توجد في جنبها ايضاً فوهة التنفس الاخيرة واكبرها . يختلف شكل هذه الحلقة بحسب جنس الجراد . ففي الذكور هي كالحلقات السابقة تماماً وفي الاناث نصفها الاسفل يمتد كسند Lamina Subgenitalis الذي يتصل به الذراعان الاسفليان لقناة المبيض وعند قاعدة هذين الذراعين بيت الرحم Vulva وأما قناة التلقيح لقبول المني Sperm تفتح الى ثقب غير القناة التي تخرج منها البيض (آلة وضع البيض) فان الاول كما سبق عند قاعدة ذراعي قناة المبيض الاسفليين Vagina inferior ويرى عند فتح الذراعين احدهما عن الآخر في الحلقة الثامنة ، والثاني هو الكلابي الشكل الداخلي الاعلى Vagina Superior interna الملازم للحلقة التاسعة والمتصل بين رؤوس ذراعي قناة المبيض الاسفليين . وكل منهما ينفتح امام الفتحة الشرجية

الحلقة التاسعة هي الوحيدة الخالية من فوهة النفس . وفي الذكور تتصل بها قناة رفيعة تسمى بالوعاء الناقل الوعاءان الناقلان يكونان قناة واحدة تسمى بالقاذفة وهذه تنفتح الى الخارج داخل العضو المسمى بالقضيب Lamina Subgenitalis (آلة السفاد)

الحلقة العاشرة الاخيرة وهي الاست وشكلها متساوٍ في الجنسين . فم الخاتم مقفل من ثلاثة لجنابه بزردة الاست Lamina Supra analis من فوق وتشبه وسادتين لينتين في الجنبين

اعضاء الحركة والطيران

﴿ الاجنحة ﴾ للجراد زوجان من الاجنحة المستقيمة شيتية رفيعة عريضة كالورق تتركب من طبقتين بينهما عروق ظاهرة عبارة عن انابيب وقصبات هوائية يحيط بها السائل الدموي

الزوج الاول الامامي مستطيل ضيق يقال له الغشائي عليه بقع غامضة سوداء فيها العروق الآتية: (العرق في الاجنحة اسم عام للاعصاب والاوردة والاضلاع والانابيب) تتخللها ستة اسطحة وهي:

(١) وريد الحافة الامامية Vena mediastina (٢) وريد الحافة الخلفية V. Plecata (٣) الوريد الثلاثي V. radialis = الامامي V. radialis anter المتوسط V. radiatis media الخلفي V. radialis posterior (٤) الوريد الثنائي V. ulnaris = الامامي V. uln-anterior الخلفي V. uln-posterior (٥) الوريد المنفرد V. dividens

السطوح بين العروق :

(١) الامامي بين الحافة الامامية وعرقها area mediastina

(٢) بين عرق الحافة الامامية وبين الفرع الامامي من الثلاثي a. scapularis

(٣) بين الفرع الامامي والمتوسط a. externo-media

(٤) بين الفرع الاخير و بين العرق الثنائي a. discoidalis

(٥) بين فرعي الثنائي a. interulnaris

(٦) بين الحافة الخلفية وعرقها a. axillaris

زوج الاجنحة الخلفي اكبر من الاول وهو للطيران ، شفاف فيه انعكاسات وردية اوصفراء وفيه الاربعة العروق الرئيسية الموجودة في الزوج الاول غير انها ليست متشعبة كثيراً كما في الاول ثم من مركز اتصال هذا الجناح بالجسم تمتد عروق طويلة مستقيمة متوازية الى اطرافه بدون تشعب

الجناحان الاولان لتغطية الزوج الخلفي ويساعدان على الطيران ايضاً واذا ازيلا لا يمكن ان يطير الجراد سوى جزء من الخمسين من المسافة التي يطيرها بالزوجين معاً

اعضاء الغناء وتوليد الصوت في الجراد ضعيفة جداً ولا توجد سوى في الذكور فقط. يحدث الصوت من احتكاك الجزء الاعلى من فخذي الزوج الخلفي كقوس الكمنجة مع الوريد الثلاثي الغليظ من زوج الاجنحة الغشائية كوتر الكمنجة الثابت . ولا يسمع صوته بعيداً كصراصير الغيط . وذكر الجراد ينادي عشيقته ويسحر قلبها ويجذبها للسفاد كالبلبل الذي يغرد على اغصان الاشجار لاجل حبيبته

﴿ الارجل ﴾ للجراد كما سبق ثلاثة ازواج من الارجل المفصلية للمسك والمشي والوثب تتصل بالجسم بواسطة الحرقفة مباشرة . ساق كل من الرجلين الاماميتين والمتوسطة

مسلح في جنبه الخلفي بصفين من اسنان كالمنشار كساقي الزوج الخلفي يشعر بها بمجرد اللمس . وبواسطة عدسة مكبرة يمكن رؤيتها مسطحة مائلة الى الوراء . اما عدد الأسنان فيها فيختلف ولكنه اكثر دائماً في الجنب الداخلي. ويتراوح ما بين ٨—١١ في الداخلي و ٩—١١ في الخارجي

عند آخر الساق من الزوج الخلفي توجد ٤ اسنان طويلة مفصلية سهلة الحركة تتصل بكف الرجل اي الرسغ . هذا يتركب من ثلاث قطع اولها مؤلفة من اجتماع ثلاثة مفاصل ايضاً فوق ثلاث وسادات . وتنتهي القطعة الاخيرة من الرسغ بالمخلب وهو عبارة عن ظفرين حادين منحنيين بينهما فص مستدير Arolium pulvillus

يوجد عند الربع الاول من جهة الفخذ الداخلية نتوء صغير جداً في وسطه وسادة لينة داخلها حلمة تساعد الساق للوثب بأكثر قوة وفي جنب الفخذ الاسفل يوجد شكل ميزاب مكشوف لقبول الساق وسطه عند ما الرسغ يدخل ايضاً بين صفي اسنان الساق عند ثنيها وهكذا تتداخل الاجزاء بعضها في بعض في بقية الارجل عند ما يقتضي الامر ذلك

كيفية تناسله

روى اهاروني استاذ علم الحيوان في جامعة القدس مشاهداته العيانية عن كيفية تناسل الجراد عندما حلَّ في مستعمرة رحوبوت محل اقامته (ومنهُ اقتبست بعض معلوماتي) فقال في ثالث يوم من حلوله في الغيطان وبعد اكل المزروعات الخضراء الطرية كالبطاطس والطماطم والساق وما اشبه بشراهة قوية وقحطها ولم يبقِ منها ولا عوداً واحداً ·كانت الارض صباحاً مغطاة بازواج من ذكر وانثى بعضها فوق بعض ولم يمكن ان ترى انثى واحدة خالية لم يعلُ عليها ذكر وكانت عشرات من الذكور طائرة ترفرف هنا وهناك تفتش عن انثى خالية عازبة فتعلو عليها وكان يوجد بقرب كل انثى وزوجها فوقها لا اقل من ذكرين او ثلاثة عزاب ينتظرون بفروغ صبر نزول الذكر عن عشيقته وخلوها فيغتنمون الفرصة ليعلو احدهم عليها بدوره ويشفي غليله ولحفظ الجنس وكانوا يظهرون تشوقهم باصوات الغناء التي كانوا يحدثونها ويطربون بها عشيقاتهم بواسطة احتكاك اجنحة الغشاء بافخاذهم الخلفية .وكانت الاصوات واطية وليست بايقاع لكثرة عدد الذكور

وكان الذكر السافد يتمسك بزوجته باظافيره الحادة فلا يمكنها ان تتخلص منهُ وكانت تحمله على ظهرها اينما ذهبت على الاشجار لتبيت وكانت تتقلب وتتدحرج على الارض معاً عند ما يضطهدها العدو حتى ولو امسكت ولا يتخلى عنها الا عند اتمام السفاد لكي ينجو بنفسه اذ يعلو عليها ذكر عازب آخر كان ينتظر بفروغ صبر . ومن شدة شراهتهم للسفاد قد شوهدت الذكور تعلو على اناث مقطوعة الرأس ولم يشاهد في الجراد ذكر يعلو على ذكر كما في الذباب البيتي. وتموت الذكور بعد السفاد كما في اكثر الحشرات فكأن الزواج يقصر حياة الحشرات ولكن الذكور في الجراد اكثر من الاناث فكثير منهم لا يحظى بالزواج فيعيش العازب اطول من المتزوج

باب شؤون المرأة وتدبير المنزل

الصحة الجنسية والنشء

بقلم الدكتور محمد زكي شافعي
السكرتير الفني لمصلحة الصحة العمومية

يستطلع كثيرون من الوالدين المستنيرين رأي المقتطف في هل تقضي الضرورة بتلقين الابناء في الصغر بعض مبادىء الصحة الجنسية واذا كان الردّ بالايجاب فالى اي مدى وبأية وسيلة يمكن تفهيم الصغير المسائل الجنسية ومن الذي يقوم بهذا الامر ؟ فتفضل حضرة محرر المقتطف الفاضل وأحال عليَّ بحث هذا الموضوع الدقيق وابداء الرأي فيه بما يروي غلة السائلين لا سيما واني طبيب ووالد فنزولاً على ارادته ورغبة قراء المقتطف سأبحث هذا الموضوع من وجهتيه الفنية والاجتماعية في عدة مقالات لما له من المكانة الحيوية في التعليم والتربية

اصبحنا الآن والاطباء ليس جلُّ همهم التفرقة بين الامراض وابراء المرضى فقط. بل غايتهم القصوى اجتثاث اسباب الامراض ووقاية السليم من المريض. ومن هنا نشأ الطب الوقائي الذي لا يقصر مداه على الامراض المعدية والوبائية فحسب بل غايته الوقاية من كل الامراض معدية كانت او غير معدية باطنية او جراحية عقلية او اجتماعية ولذلك تفرع منه طب النساء الوقائي والجراحة الوقائية وطب الاسنان الوقائي وطب العقل الوقائي وهلمَّ جراً

فمن هذا يرى ان الطب الوقائي نما نمواً عظيماً واصبح وثيق العلاقة بعلم وظائف الاعضاء التطبيقي لانه اصبح من اهم دعائمه رفع كفاية اجهزة الجسم المختلفة مع مراعاة الاحوال الشخصية من بيئة ووراثة وغيرها. ولذلك كان وقوف الجمهور والاحداث بصفة خاصة على وظائف اجهزة جسمهم ومبادىء الطب الوقائي هو من اهم الاسلحة التي تقاوم بها الامراض لان الطب وان كان قد قطع شوطاً بعيداً في طريق التقدم والارتقاء لم يتمكن من التغلب على كافة الامراض. فنحن في اشد الحاجة الى التدريب على الحياة الصحية. وموت الناس من الجهل اكثر من موتهم من المرض. ولا ادل على ذلك من انه يولد سنوياً ثمانون في المائة

من الاطفال احياء فلا يصل الى سن الشباب الاّ العدد القليل وهم متمتعون بالصحة الكاملة. ولهذا وجهت في كل البقاع والامصار العناية الى الصحة العامة وأصبحت تدرس في كل المدارس على السواء . غير ان الصحة الجنسية لحداثة العهد بتوجيه النظر اليها لم تعط العناية الكافية. فاذ نرى الوالدين والمعلمين يعنون كل العناية بصحة الاطفال الشخصية نراهم يحجمون عن كل ما له مساس بالجنس ولا يلقنون اولادهم عنه لا الكثير ولا القليل وخصوصاً الفتيات واذا عرف الاحداث شيئاً فمن طريق من هم اجهل منهم . وما يحصلون عليه يكون عادة خاطئاً ومضراً مع ان صحة الجنس ليست الاّ فرعاً من فروع الطب الوقائي . وقد اصبح يدرس الآن في معاهد خاصة في بعض البلدان وأساسهُ العمل على نجاح الزواج ودرء كل اسباب الفشل عنه سواء من الوجهتين النفسية او الطبية الوقائية والتشجيع عليهِ وتحسين النسل. وقد درس باحث من الاطباء باميركا حالة ألف سيدةٍ متزوجة للاغراض المتقدمة واغلبهنَّ كنَّ من الطبقة المتوسطة وقد جمع هذه المعلومات بواسطة اطبائهن الخصوصيين وكانت نتيجة الابحاث ان نصف هذا العدد قصدن الى الاطباء للعقم والربع لاورام في الحوض والتهابات والباقيات لاسباب اخرى ظن انها ذات علاقة بالحوض. وقد لوحظ ان نصف هؤلاء السيدات يشكون بعض الاضطراب الحيضي وكان الاضطراب عادة خفيفاً كما ان صحة ٥٦ في المائة منهن جيدة او تظهر عليهن مخائل الصحة و٢٧ في المائة صحتهن دون المتوسط ويشكون من اضطرابات عصبية و١٧ في المائة صحتهن متأخرة وفريق منهن مصاب ببعض امراض العقل او الاعصاب. ووجد ان في كل ١٢ سيدة منهنَّ واحدة مصابة بمرض زهري وان كانت هذه الاحصاءات لاتنطبق على الحالة في جميع البلدان ولكنها تنطق بخطورة الحالة التي قد تكون سبباً لانهيار صرح هناءة الاسرة وهذا ما يجب ان يتلافى بالتعليم الصحيح

وقد تغيَّر فهمنا الآن للمسائل الجنسية تغيراً كليًّا في العشرين السنة الاخيرة واصبحت النظريات الحديثة تخطىء القول بان الشعور الجنسي لا يبدأ الاّ عند سن البلوغ وقد ارجعها فرويد الى سن الطفولة اذ تكون خامدة او كامنة حتى تنمو فسيولوجيًّا وسيكولوجيًّا في سن البلوغ. وقد صار لهذه النظريات أثر بليغ في الصحة الجنسية وامكن بواسطتها تفهُّم اسباب بعض الامراض العقلية والنفسية بل والشذوذ الجنسي. فلو كان الوالدون والمدرسون والاطباء مقتنعين بضرورة تعليم الابناء صحة الجنس لما وقعوا فريسة هذه الامراض وغيرها ولما تعرض الكثيرون للفشل في حياتهم العملية والزوجية

لكن للعادات الموروثة ما قد يعرقل فكرة تلقين الاولاد صحة الجنس فما هي الوسائل التي نتغلب بها على هذه العوائق ؟ وفي أية سن يعلمون ؟ ومن الذي يتولى امر هذا التعليم ؟ وما هي المواد التي تعلم ؟ هذا ما سأحاول الاجابة عليهِ من المقالة التالية

الادب التركي الحديث (١)

خالدة اديب خانم

ننتقل الآن الى الكلام عن السيدة خالدة اديب خانم الشاعرة التركية الحلوة الاغاريد الرقيقة النغم التي رفعت من شأن المرأة التركية وكانت مثلاً عالياً لتطور المرأة المسلمة واتساع معارفها

ولعلَّ الظاهرة غير العادية التي تسترعي النظر بصفة خاصة في حياة السيدة خالدة اديب خانم انها لم تتثقف على الطريقة التي جرى عليها الاتراك في الزمن القديم . فان هذه الطريقة القديمة وان كنا نجلّها ونعترف لها بنتائج باهرة لانها اخرجت عالمة تركية كبيرة مثل فاطمة خانم التي اشتهرت بسعة علومها في الفقه والتشريع غير انها ابقت على أسار المرأة التركية من الوجهة الذهنية والخلقية . اما السيدة خالدة أديب فنستطيع ان نقول انها تلقّت تهذيباً حرًّا وعاشت في بيئة حرة ، او بعبارة ادق لا تدين بغير حرية الفكر وحرية النظام فقد ولدت من والدين متوسطي الحال وكان والدها سكرتيراً في دائرة الخزينة السلطانية الخاصة وكانت منذ حداثتها تظهر ميلاً للتبحر في العلوم والآداب ولم يكن يؤذن للبنات الوطنيات في ذلك العهد بدخول المدارس الاجنبية ولم تكن المدارس الوطنية تفي بالحاجة فتوسل والدها الى السلطان عبد الحميد ان يأذن لابنته بدخول الكلية الاميركية في الاستانة فأذن لها فدخلتها ولم يمض زمن على ذلك حتى برزت على اقرانها وتخرَّجت سنة ١٩٠١ برتبة بكالوريوس علوم وهي اول امرأة مسلمة في تركيا نالت هذه الرتبة . وقد برعت في جميع العلوم الاَّ الهندسة فقد كانت حجر عثرة في سبيل تقدمها فأحضر لها والدها استاذاً خاصًّا من اساتذة الجامعة السلطانية ليلقنها في المنزل ما اشكل عليها فهمه من هذا العلم فلم يلبث ان علق بها فخطبها من والدها ثم اقترن بها وهي لا تعلم ان لزوجها امرأةً وأولاداً في باريس على أنها لم تكن لتجد خلاصاً لها من تلك الحالة فاضطرت الى ملازمة خدرها وكانت تقضي أوقاتها في مطالعة ما حوتهُ مكتبة زوجها من التآليف النفيسة ولا سيما الفرنسية منها فكان لمطالعتها أثر شديد في نفسها الكبيرة ولم تلبث أن سنحت لها الفرصة المنشودة إذ طلقت زوجها وأصبحت حرة لتقف حياتها على الجد والعمل وكان ذلك قبل اعلان الدستور في تركيا فلما أعلن وأطلقت الحرية للأفكار والمطبوعات نشرت خالدة أديب قصيدة حماسية تخاطب فيها رجال الفرقة الرابعة التي تم على يدها قلب

(١) تتمة المحاضرة التي القاها حضرة الكاتب الاديب الاستاذ نقولا شكري في دار نقابة موظفي الحكومة المصرية بدعوة من جماعة الادب المصري

الحكومة الاستبدادية بلسان مؤسس الدولة العثمانية فكان لقصيدتها وقع عظيم وطارت شهرتها وذاع صيتها

وفي هذه البيئة السياسية التي كانت تدوي فيها اسماء ابطال الاتراك في الحقبة الاخيرة : انور وطلعت ونيازي وجمال وجاويد . في هذه البيئة نفسها ابتدأت السيدة خالدة اديب تفكر وتكتب على مثال ماترى وتحس وكانت الجمعية التركية وقتئذ تشكو مظالم العهد الحميدي وتتألم من ضروب العسف وضياع سيادة الدولة فابتدأت كسيدة مثقفة ومطلعة تكتب في سبيل الدفاع عن حقوق المرأة فصار الناس يطالعون كتاباتها بلهفة ولكنها لم تقتصر على ذلك بل جعلت تنشر في جريدة «طنين» مقالات اجتماعية وسياسية فاشتهرت بسداد الرأي واعتدال اللهجة وكانت تجتمع برجال تركيا الفتاة ولا سيما انور وطلعت وجمال فتبدي لهم رأيها في شؤون الدولة وهم لا يستنكفون من الاصغاء اليها والعمل بآرائها . ولما قلب عبد الحميد الحكومة الدستورية سنة ١٩٠٩ ورد اسمها في قائمة المحكوم عليهم بالاعدام فاضطرت الى الفرار حرصاً على حياتها فشخصت الى مصر ومكثت فيها الى ان استعاد الاتحاديون سلطتهم

وفي ذلك الوقت كانت قد اثمرت في اذهان الاتراك فكرة العصبية التركية وانبثت في الجمعية التركية فكرة الاندية السياسية التي كانت تحض على انقاذ العنصر التركي . وكان هذا المبدأ المجرد يعمر قلوب الاتراك نساء ورجالاً فلما تردد في جو العاصمة التركية صوت السيدة خالدة اديب في سبيل الدفاع عن حقوق المرأة لم يلبث ان تجاوب مع اصوات كثيرة كان يصدرها وقتئذ بعض الزعماء وقادة الحركة السياسية

والى السيدة خالدة اديب يرجع الفضل في رفع شأن المرأة التركية بانشاء الاندية والجمعيات ولما نشبت الحرب البلقانية انتظمت كثيرات من النساء في سلك جمعية الهلال الاحمر وجعلن يكتبن ويخطبن ويحرضن على الجهاد في سبيل الوطن وقد احتشد عدد منهن يربي على خمسة آلاف في دار الجامعة السلطانية فوقفت تخطب فيهن بحماسة متوهجة ولما اتمت خطابها كان العرق يتصبب من جبينها من شدة التأثر والانفعال فنزعت حليها الثمينة والقت بها في صندوق امامها اعانة للوطن فاقتدت بها سائر النساء وجعلن الواحدة تلو الاخرى يقدمن حليهن لهذه الغاية الشريفة

وابتدأ بعد ذلك انضمامها الى الحركة الوطنية التي كان يعمل رجالها لتحرير تركيا القديمة من ربقة النظم والعادات التي قضت على العنصر التركي بالجمود . واتسع اشتراكها بعد ذلك في تلك الاحزاب السياسية فصارت عضواً في حزب التقدم الجمهوري من بعد أن اشتركت اشتراكاً فعليًا في الجهاد مع الوطنيين الاتراك وكانت تحضر اجتماعات زعماء الاحزاب الوطنية وتترأسها احياناً ولا يضع اولئك الزعماء خططهم السياسية الا بعد استشارتها . وكانت الى جانب ذلك ترأس

اللجان التي تؤلف لحل المسائل الشرعية المتعلقة بالمرأة وعلى الاخص مسألة تعدد الزوجات وكان يشاركها في ذلك طائفة من السيدات التركيات نخص بالذكر منهن السيدة نزيهه محيي الدين خانم الرئيسة السابقة للاتحاد النسائي بالاستانة وسلمى خانم . اولئك اللواتي عملن بكل ما في وسعهنَّ على صيانة حقوق المرأة التركية واصلاح قانون الاسرة . وبينما كانت السيدة خالدة اديب تواصل جهودها في سبيل تحرير لداتها كانت الصحف تملأُ أعمدتها برسائل في الادب والشعر الرقيق الذي كانت تصنفها في اوقات الفراغ : والى السيدة خالدة أديب يعزى الفضل في توضيح مهمة المرأة التركية في المجتمع وان هذه المهمة أوسع وأجلُّ مما يفهمهُ رجال العصر . ولما تقرر في الاذهان أنها سيدة مثقفة من الطراز الاول وأن جهودها تسع النهوض بالاعمال الجليلة في دوائر السياسة والادب والاجتماع وأنها زعيمة متفوقة تتصف بأجل ما يمكن ان تتصف بهِ المرأة المهذبة من المزايا والخلال الباهرة رأى الزعماء الوطنيون الذين شاركتهم حيناً طويلاً في ميادين العمل السياسي والدفاع عن حرية البلاد أن يكللوا مهمتها الشريفة بمنصب تستطيع أن تترك فيهِ لمواهب المرأة والزعيمة اصدار امثلة أخرى باهرة في حياة المرأة فعهدوا اليها بتولي وزارة المعارف وكان ذلك في موطن تقليدي قديم نوعاً من التجديد لم يسبق له نظير في الشرق. وقد رفع مقام السيدة خالدة اديب في نظر جميع الذين يجحدون نبوغ المرأة وعبقريتها . وكان مثلاً باهراً يوحي بان ثمة مستقبلاً عظيماً للمرأة في الشرق . وقد أعلى مركزها كأديبة واسعة الاطلاع ومجاهدة سياسية اقترن في مهمتها العمل لجنسها بالعمل الجدي للوطن وللجمعية وكانت مثلاً فذًّا للمرأة المسلمة بوجهٍ عام

***

على ان السيدة خالدة اديب لم تبلغ هذه الغاية في المجتمع الذي عملت على تحريره الاَّ بعد أن ضحت بجانبٍ كبير من ايامها وراحتها وهناءتها في الاشتراك مع اولئك الذين كان النظام التركي القديم قد جعلهم موضوع نقمته ومطاردته

وكان لابدَّ ان يقترن بذلك التطور الباهر في حياتها كسيدة تركية تطور آخر في ذهنها وطريقة تفكيرها . وفي الحقيقة ان الجمعية التركية والعادات التركية بوجه خاص كانت وقتئذ مستعدة كل الاستعداد لذلك التطور . وقد ابتدأ اول ما ابتدأ في الغناء والموسيقى ثم في الشعر . ومن الممكن ملاحظة ذلك في الطرائق الجديدة التي يستعملها الاتراك الآن في كتاباتهم واشعارهم . وينسب الى السيدة خالدة اديب في هذا المعنى تعابير وصيغ طريفة تفرغ فيها افكارها فهي ترى ان المرأة التركية لاينقصها للترقي غير حظ الرجل الحر من التعليم وهي تعني بالرجل الحر ذلك الذي تحرر من القيود الادبية والحوائل التقليدية التي تحول دون

ترقي الجماعة . أما التحرير السياسي وحقوق المرأة بحسب التعبير الشائع فهما عندها في الدرجة الثانية . فتوجه القول الى لداتها « ان السياسة لا تملأ الا جانباً تافهاً من حياتنا وانما هو نير القيود الاجتماعية والادبية الذي يثقل كاهل المرأة »

الى أن تقول : —

« اذا كان يراد بنا نحن النساء ان نكون احراراً في هذه الارض فينبغي ان ننال من التعليم حظ الرجل الحر . ولكن التعليم في المدرسة كان طلاء للحرية مموهاً فان فتياتنا جميعاً لا يزلن في اعماق قلوبهن عبيداً للاكاذيب الاجتماعية المقررة التي خلقها الرجال. وليس الغرض من هذا الا ان يعرف الرجل الى اي حد يمكن التوسع في تهذيب المرأة على شريطة ألا يبلغ بها الى حدود تحريرها من الأسر »

« ان الرجال يحاولون ان يهذبونا من الناحية الذهنية فقط ولكنهم من الوجهة الادبية أو الاجتماعية يأبون الا ان يحكموا علينا الوثائق ويشدوا الاغلال ولكنهم لم ينجحوا فان الوثاق على مر الزمن سيقطع والغل سينفك . لانك اذا ابتدأت اليوم بتعليم النساء فأنت ولا ريب منته غداً بتحريرهن »

وحسبُ هذا الرأي الوضعي البحت أن يصور لنا مذهب السيدة خالدة أديب في تحرير المرأة . وفي الحقيقة ان مهمة المرأة محدودة بمهمة الرجل التي هي اوسع . لذلك كانت قيود الاجتماع والاصطلاح تثقل كاهل المرأة من حيث أنها زعيمة تلك المملكة الصغيرة التي هي الاسرة أو المغنى العائلي . ولقد كان في أساس المهمة الشاقة الجليلة التي قامت بها السيدة خالدة أديب مسألة تحرير الاسرة التركية وكان من أهم القيود التي تغلها مسألة تعدد الزوجات والسيدة خالدة أديب الى كونها زعيمة حركة نسوية من الطراز الاول مفكرة واديبة وخطيبة بليغة لا تكاد تصل عبارتها الى الاسماع حتى تملك القلوب وتجتذب اليها الجماهير . وقد كان لخطبها الرنانة ومحاضراتها أثر قوي في تحقيق عناصر المهمة الواسعة التي أفضت في النهاية الى تحرير المرأة التركية . ونعلم من تآليفها — وهي من الكاتبات اللواتي لا ينقطعن عن الكتابة — مذكراتها عن الحرب بين تركيا واليونان وهي تلك الحرب التي اشتركت فيها بتخفيف آلام الجرحى والمنكوبين ورواية بديعة بعنوان « الاكمة الحمراء » كلها تصوير للحرب وحمية الجنود الاتراك وحماستهم وللسيدة خالدة أديب رسالتها الاسبوعية في الصحف التركية

***

وقد امتازت الى سعة اطلاعها بالدقة في التصوير وقوة الحياة في التعبير ومقدرة على وصف روائع العالم التركي الذي جاهدت من اجله وامتلأت شعاب قلبها حماسة في سبيل الدفاع عنهُ .

ثم هي خصبة الذهن قيّمة الانتاج مستحدثة الاسلوب كسائر الكتاب الاتراك المعاصرين فانك لا تكاد تجد فارقاً كبيراً اليوم بين كاتب تركي من الطبقة الاولى وبين كاتب اوربي معاصر في اخراج الصيغ والتعبيرات . وهذا يرجع الى طبيعة اللغة التركية اكثر مما يرجع الى مواهب الاتراك انفسهم وان كنا نعترف للسيدة خالدة أديب بتلك الموهبة العظيمة التي جعلت منها كاتبة واديبة وشاعرة من الطبقة الاولى ونعني بها خصوبة الذهن المقترنة ببلاغة التأليف

***

ومن بدائع انتاجها قصيدة بعنوان « موت الشاعر »

قالت : —

« ايها الشاعر

« ان الجو الذي عهدته لايزال على عبثه . والانهار التي شهدتها تجري كذوب اللجين ، والنسيم كعهده يهب حاملاً أرج الازهار وعطرها

« وها هي الطيور ما برحت تأوي الى وكناتها صادحة مغردة وها هي الطبيعة والشمس ذات النصال الابريزية تتألق في الافق . والرعاة كما عهدتهم ينشدون متهللين لتحية ملكة النور عند غيابها

« كيف ايها الشاعر ، هل كسرت قيثارتك التي ترددت انغامها ملء الدنيا

« وهل رميت بالقلم الذي كان بيمينك كالطائر الفرد فلا تعود الى التوقيع الشجي المطرب ؟

« هل قضي نهائياً عليك بالانزواء في هذا المنزل القصي وقد فارقت هواتك ومريديك ؟

فلما سمع الشاعر اجاب : —

« بلى ، قضي الامر وكسرت يراعتي، وحطمت قيثارتي . اني ارى كل ما في الطبيعة يستحثني على الانشاد، ولكني اشعر بالعجز امام الموت الذي يفترسني

وفي هذه الدقيقة كان قرص الشمس الذهبي يهوي في اعماق المغرب فراح الشاعر يناجيه :

« ايها الكوكب المنير ، اذا بلغت الله النور فذكره بهذا الشعب الهضيم المضنك

« قل له ان تركيا ما برحت تتمزق كل يوم وتئن تحت نير الطغيان فرثت لها الشمس بنظرها وقالت :

« اذن ، هلم ايها الشاعر الى الله المحيط بكل شيء فتبثه مصائب قومك الشاكين المتوجعين

« هلم الى الله تبثه ما يجيش في صدرك

« وغابت الشمس على الاثر وراء البحر بينما كانت الامواج تصطخب في سكون

« وأرخت الظلمات سدولها وساد المدينة صمت عميق لان شمسين غابتا عن تركيا ... »

وبعد ، فاننا لم نتحدث عن السيدة خالدة أديب اشهر كاتبات تركيا الجديدة الا لكي نقدم مثلاً عالياً لسائر سيدات الشرق فان خالدة أديب تستحق أن تكون قدوة للمرأة الشرقية بوجهٍ عام

نقولا شكري
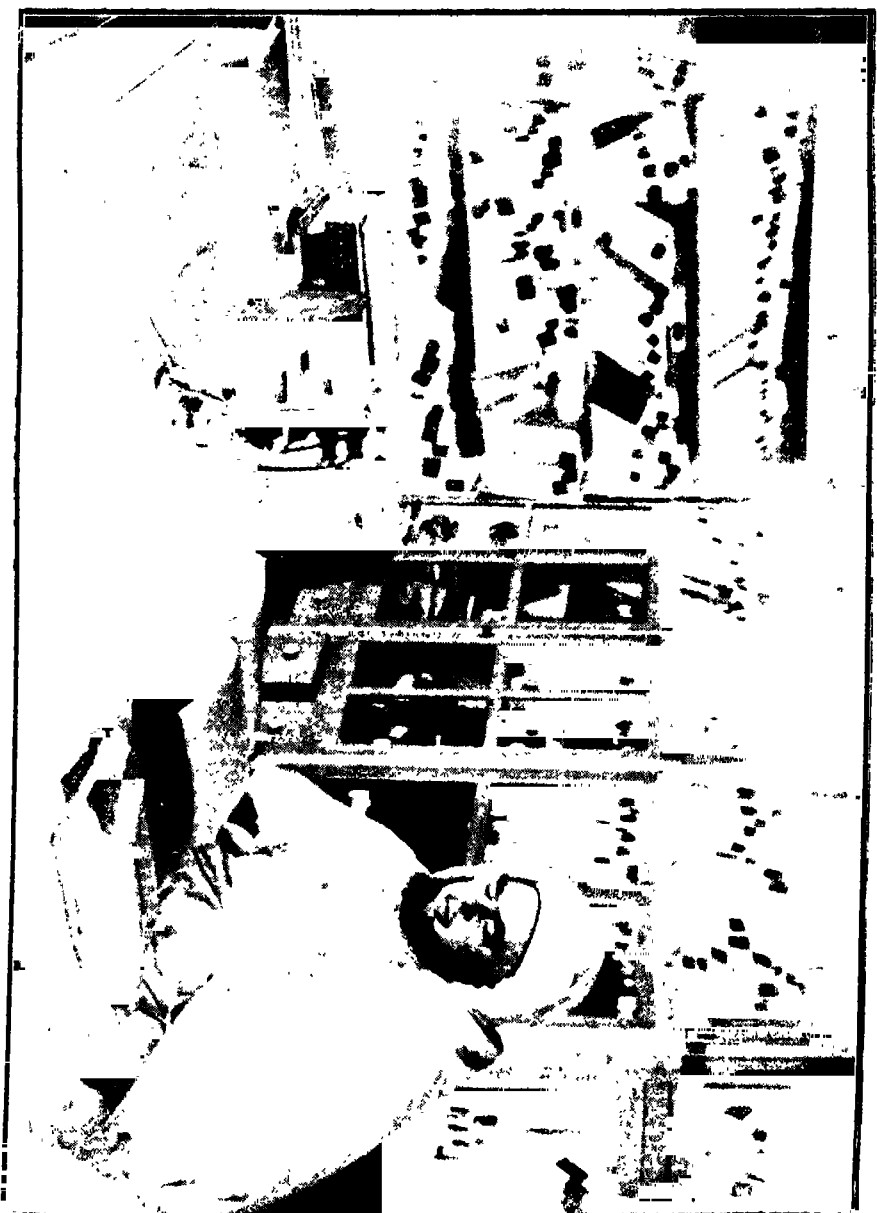
السيد الشريف محمد عبد الحي الكتَّاني

امام صفحة ٤٨٣

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب فتحناه ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان.
كن العهدة فيما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف ،
اعى في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقان من اصل واحد فناظرك نظيرك (٢) انما
ض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيره عظيماً كان المعترف باغلاطه أعظم
(٣) خير الكلام ما قل ودل . فالمقالات الوافية مع الايجاز تفضل على المطولة

الشريف الكتاني

جاءتنا هذه الرسالة البليغة في وصف الشريف الكتاني الذي زار مصر في طريقه الى الحجاز لتأدية فريضة الحج من حيث هو عالم من اكبر علماء الفقه الاسلامي واديب واسع الاطلاع عميق الفهم جمع خزانة من انفس المخطوطات العربية واثمنها في داره بفاس . فنشرناها شاكرين

هما رجلان ألان الله لهما من صخر قلبي أول ما رأيتهما : السيد الجليل « محمد نصيف» كبير
دّة وعماد الحجاز والأملُ الممتدُّ في جزيرة العرب ، وهذا السيّد المباركُ محقّق العلم
سلاميّ وعمدة التاريخ العربيّ «محمد عبد الحيّ بن عبد الكبير الكتانيّ الادريسيّ» واحد
، وكبير مراكش ، والعلمُ الشامخُ بين أعلام الامّة الاسلامية في هذا العصر ما بينَ
ين إلى رباط الفتح من المغرب الاقصى

وما عسايَ أقولُ في رجُل . . . كلما أمسكتُ القلم لأكتبَ عنه تهيَّبْتُهُ من
خوفٍ كما يتهيَّبُ المؤمنُ قالةَ الحقّ تحيكُ في قلبه ، خشيةَ ان يجورُ فيها لسانهُ ، أو
يعدل بها سامعها عن وجهٍ قصد اليه . وأنا حين اكتبُ هذه الكلمة — بعد ان لازمت
جل ايامهُ ولياليه في القاهرة ، وأخذت عنهُ ، وقبست من نوره وعلمهِ وخُلُقِهِ الغض ،
تنشيت ريّا شمائله — أجدني كالذي انتقل بروحه من عالمٍ كثيفٍ فيهِ من ثِقَل المادة
هيض جناح الطائر ، الى عالَم من الرُّوحانية المصفّاةِ التي القت اوزار المادة الى مَشارها
دنها من الارض ، وحلّقت في جوّ السماء بين نسمات النفحة الالهية وفتنة الجمال العلوي . . .
ل الذي ينتظم الكون كله بأفلاكه وكواكبه ودقة تدبيره وحكمة امره

رجلٌ منضّر الوجه كالوردة الزاهية فيها سرُّ الجمال الالهيّ الذي لا يذبل ، مشرق الجبين
ور الفجر الصادق الذي لا يتكذَّب ، وضاح الثنايا كالاقحوانة المبتسمة في ربيعها من
لّ والندى ، صافي العينين كالماء النمير في مجرى من البلور ، كثّ اللحية محفوف الشارب

أهدب الاشفار أبلج الحاجبين في شعرهما وطف ، ضخم الهامة سابق الهيبة بادي الحنان في جسمه بسطة تذكرك بما تقرأ في صفة علي بن ابي طالب رضي الله عنهُ . هذا هو السيد الشريف «الكتاني» عالم الشريعة الاسلامية وهذه صفتهُ اول ما تكتحل عيناك بطلعته

هو في الثامنة والاربعين من عمره ، ولكن تطالعك هذه السنوات القلائل من عينيه بالكَبْرة الملطفة بشباب القلب، المخففة بحياة النفس العزيزة المتألمة المثخنة بالجراح من احداث الدهر وعواديه . ينظر اليك حيناً نظرة العالم المتمكن الامين المتثبت الذي شغله العلم عن الحياة المادية الغليظة ، فتحملك نظرته هذه من مجلس بسيط وديع الى بحر من العلم يفتنك هدوءه كما يروعك اصطخابه إذا ازدحمت فيه أسباب الحركة العلمية . وينظر اليك حيناً وهو يستمع هادئاً نظرة المشفق الحريص الذي يودُّ ان يراك مصيباً لم تخطىء . وأنت لا تزال في مجلسه بين انواع من النظرات لها معانيها ، ولهذه المعاني أسبابها ، ولهذه الاسباب بواعثها، ولهذه البواعث محركاتها، وهذه الحركات خفايا من وراء النفس، منقمعة مكتومة لا تنفذ اليها إلاَّ نظرات أروع وقاد قد ابتلى دقائق النفس الانسانية بالممارسة والذهن المتوقد الذي يرى من آيات الله آيات من البلاغة الالهية التي تمس الروح مسة تيار كهربائي ترعَش به اعصاب الانسانية وتنتفض

أنت من مجلسه في مجلس الحافظ لسنة رسول الله صلى الله عليهِ وسلّم ، والفقيه الذي قلب آيات الفقه الاسلامي بالبصر والبصيرة ، والمؤرخ الذي انفتق له السور عن تاريخ العرب والامة الاسلامية في مشارق الارض ومغاربها ، والالمعي ذي الدهاء الذي ركَّبت الاحداث في نفسه آلة احساس دقيقة تحس بالبعيد احساسها بالقريب ولا تكاد تخطىء الاّ بمقدار ما في النفس الانسانية من اسباب الخطأ الذي لا تنفيه إلاَّ العصمة التي لم يقضِ الله لاحد من الناس ان يبلغها . وهو وراء ذلك أحد المتصوفة الذين عرفوا حقيقة التصوف لا أوهامه التي ملأ بها الدخلاء ساحة التصوف ، وأحد الذين يزنون العلم الحديث وما نشأ عنه من أحوال الاجتماع بميزان يفرق بين الخير والشر والحق والباطل ، فهو يطلع عليهِ اطلاع المتبصر الذي لا يرضى لنفسه ان يكون من الغوغاء اتباع كل نظرية هوجاء لا قرار لها على حال

ولهذا الرجل احساس علميٌّ عجيب ، فهو لا يكادُ يسمعُ بأديب أو فقيه أو عالم أو فيلسوف إلاَّ حنَّ اليهِ وقلقَ إلى رؤيتهِ ، ورغب في التحدث اليه وسبر غوره، فلا تصرفهُ شواغله وهو في دار الغربة عن أن يقدم أهل العلم — أيًّا كانوا — بالزيارة بل تراه يبدؤهم بها . ويرحل من بلد إلى بلد لأن فيهِ عالماً جليلاً قد قرأ آثاره أو سمع بهِ . وأنت فطنٌ كيف تقدّرُ رجلا من أقصى المغرب بفاس ،لا يذكر أمامهُ اسم عالم أو غيره في مصر او الشام أو الجزيرة العربية أو العراق أو الهند أو الافغان أو الترك إلاَّ عرفهُ وقصَّ لك من أخباره وعدّدَ لك من كتبه . ومن هؤلاء الناشىء والمغمور الذي لا يعرفهُ أهل بلده على حين أنهُ منهم بمنزلة

البنان من راحته . بل . . . . يسمع اسم الرجل يراهُ أمامه فيطمئنُّ قليلاً ثمّ يسأله من أي بلدة هو فما يجيبُ حتى يسأله عن علماء هذه البلدة مَن مات منهم ومن حيّ وعن كتبهم كيف كان مصيرها ، ثم يعدّدُ لهُ بعضَ ما ألفوا . . . ويذكر له روايته عنهم ان كان رَوَى عنهم شيئاً من حديث رسول الله صلى الله عليهِ وسلم أو غير ذلك

فمن أجل هذا الاحساسِ العلميّ المركّب فيهِ أتيح له أن يجمع مكتبة في داره بفاس تُعَدُّ من أغنى المكاتب الخاصة وأنفَسِها في العالم العربيّ كلّهِ ، فيها من النفائس والنوادر والغرائب ما لا يوجد في غيرها . وهو لا يكاد يسمع بكتابٍ نادرٍ حتى يسارع الى استنساخهِ أو تصويره بالفوتوغراف . وها هو قد نزل مصر لجمع من شوارد المخطوطات ونوادرها أشياء كانت بين سمع دور كتبنا وبصرها ثم غفلت عنها . ويجلس هذا الرجل في نُزُله فيأتيهِ الوراقون بالمخطوطات حديثها وعتيقها فما يفتح أحدها حتى يعرف ما الكتابُ ومن صاحبهُ ويفرح بالكتاب النادر فرح الذي ضنَّ عليهِ الزمن طويلاً ثم جاد . وبالله أشهد صادقاً لكأني أرى الكتاب بين يديهِ يكاد يحنُّ اليهِ حنين القلب الممزق المفطور الى سبب من أسباب سلوته وراحته ، ولكأني اراهُ يمسك الكتابَ براحته كما يمسك أحدنا الشيء فيهِ من آثار قلبهِ وحبهِ وآماله ورغباتهِ ما فيهِ ، ويلقي عليهِ نظرةً عاطفة تكاد تحييهِ من عطفها وحنانها وحدَبها وأشواقها

هذا هو الرجل العالم المتيم بالكتب ، الذي يطّلع جاهداً على آثار الناس وما ينشرون في الكتب والصحف والمجلات ويعي اسماءهم ويسأل عنهم ويرغب في رؤيتهم ويرحل اليهم بادئاً بالزيارة . وفي هذا الرجل رجل آخر قد جعلت من عينيَّ جاسوساً مقتدراً نفّاذاً يتتبع نظراته وحركاته وما يبدو على وجههِ وجبينهِ من آيات التغيُّر والتبدل حتى عرفتهُ او كدت

حدثتنا عنهُ فقالتا : هذا رجل في عظم هامتهِ واتساع جبينهِ والتماع عينيهِ دليل على قوة مستحكمة شديدة . وهذه القوة — مع ما فيها من شدة — هادئة وادعة مسالمة ، تتريث مفكرةً ، فلا تظهر ولا تستعلن الا ساعة الجد حين تعلم ان قد دنا أوانها ، وأن موضع الفصل قد استبان ، وأنها لن تخطىء . وهو رجل في أسالة خدّه ورقّة نظرته شاهد على طيب الخُلق ، ودماثة الكنف ، وحسن العشرة ، وكمال الحنان والعطف ، وهو رجل في تفاجّ ثناياه وانطباق شفتيهِ وطول صمته — اذا لم يدعَ الى كلام — وعمق نظراته في هذا الصمت برهان على الصبر في كل ملمة ومع كل أحد . قالتا : ثم هو رجل حلوُ النفس صادق مخلص أمين على ما يؤتمن عليه رضيُّ الشمائل في كل حين . . . أما تراه يبتسم ابتسامةً رقيقةً لا تكاد تخلص الا عن قلوب الاطفال المبرّئين أو الكرام الصالحين فاذا ضحك اهتزَّ جميعه لان ضحكته تصدر عن قلبه الطيع الكريم الذي يتحكم في كل عضو من أعضائه . وهو بعد رجل كتوم يحمل الآلام بين جنبيه وهي تمزق قلبه وتفتك فيه . ينظرُ النظْرة المترامية في مفاوز الماضي البعيد فيرجع

بالذكرى الأليمة ، وعلى نظراته معنى البكاء الذي لا يجد في الدمع ترجماناً او معيناً . وهذه وحدها نظرة لو ألقيت على جبل أصمّ لا يألم لوجد لها مسًّا كمسّ الرحمة في القلب الرقيق . ويخيل اليك وهو يغضّ من طرفه ويرخي جفنيه أن الصبر والجلد والرجولة الصادقة أرادت بذلك أن تخفيَ عنك نظرات هي أحاديث أيام ، أشفق على نفسك ان تسمعها أو تلمّ بها

وتراهُ حين يتكلم حتى في العلم يفيض حناناً ورقة وكرماً ووفاءً ثم يشتدُّ بعد تمهل حتى يأخذ عليك نفسك هيبة ووقاراً من ورعهِ وتقاهُ ، ثم تتعرَّف فيه اذا خالطته ذهناً قد اجتمعت له أسباب الاحاطة بأحوال الناس في كل أمة وجيل ثم يدق حتى يكاد يغمض عليك اذا لم تلق اليه بسمعك وبصرك وقلبك جاهداً متفهماً . وان تعجب فعجب لهذا الرجل الذي اتسع أفقه حتى ألَّف ما أناف على مائتي كتاب فيها موضوعات عجيبة لم يسبق اليه بمثل تحقيقه ودقته على الاسلوب الذي يفهمه عن اهله ومن عرف مذاهب القوم في كتبهم ومؤلفاتهم

كلمة مقتضبة في رجل بحر كريم الاصل والمنصب سليل جدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوة من هذه الامة العربية التي تدفقت في الارض تدفُّق السيل من رؤوس الجبال فأنبتت في كل أرض نباتاً حسناً زكا مغرسهُ وطاب ثمرهُ . كلمةٌ نصلُ بها أرحاماً تقطعت أو كادت في زمن توالت علينا أحداثه واستمرَّتْ علينا عواديه وتركنا لُطاءَ

يأشَرُ الفارغُ الخليُّ ، ويأسى مُتْرَعُ الصَدرِ منْ جوًى ملآنُهْ

محمود محمد شاكر

حقائق جديدة

عن الربع الخالي

حضرة محرر المقتطف الأغر المحترم

ارجوكم ان تفسحوا لي مجالاً على صفحات المقتطف الاغر لاضافة ما يلي الى بحثي الذي تفضلتم بنشره في عدد فبراير عن الربع الخالي

حين كتابة ذلك الفصل وارساله الى المطبعة لم يكن في امكاني ان اضمنه النتائج التي اسفرت عنها رحلة المستر فلبي في شتاء العام الماضي، اما الآن وقد أتاح لي المستر فلبي فرصة الاطلاع على مسودات الكتاب الذي وضعه عن الرحلة، وعلى التقارير المختلفة التي وضعها الاخصائيون العديدون في المتحف البريطاني للتاريخ الطبيعي بعد فحصهم الدقيق للنماذج المختلفة التي أتى بها من مواضع مختلفة في الاماكن التي زارها رأيت لزاماً عليَّ ان اضيف الملاحظات الآتية الى ما نشر سابقاً

اولاً : كان المعلوم عن التكوين الجيولوجي للبلاد العربية ان باطنها خلو من آثار الاصداف البحرية الباقية من العصر الجيولوجي المتوسط المعروف باسم « ميوسين Miocene »

فجاءت رحلة المستر فلبي مثبتة وجود مساحات واسعة في المنطقة المعروفة باسم جافورا بين الخليج الفارسي ومنطقة الربع الخالي ، مملوءة بالاصداف الميوسينية التي يتخذها العلماء دليلاً قاطعاً على وجود البترول فيها . واصبح في الامكان تحديد الجغرافية الجيولوجية للبلاد العربيةبصورة واضحة في مناطق متوالية اعتباراً من ساحل البحر الاحمر الى الخليج الفارسي:— صخور ابتدائية . فترياسية . فيوراسية . فكريتاسية ، فايوسينية ، فميوسينية

ثانياً : إن المنطقة الجديدة التي اخترقها المستر فلبي في رحلته الاخيرة لاول مرة والتي يمكن تحديدها بانها تبدأ اعتباراً من خط الطول الشرقي ٥٠، الى حدود وادي الدواسر ونجران انما هي بيداء قاحلة ، جافة ، معظمها رمال كثيفة تتخللها مناطق شاسعة من الطمي والحصباء وتعرف باسماء مختلفة مثل ابو بحر وسحمة ورعلة وجليدة وجدة الفرشة الخ . وان الآبار فيها معدومة الاّ في حافتها الشرقية بقرب منطقة الخيران والرمال التي اخترقها المستر توماس من قبل وان عمق هذه الآبار عظيم جداً فعمق بئر مفينمة ١٧١ قدماً وبئر فاضل ١٢٥ ، وان المنطقة قليلة الانبات والعشب ولذا فان حيوانها قليل جداً

ثالثاً : من أهم آثار رحلة المستر فلبي ايضاً انها جاءت بدليل جديد يستند اليهِ العلماء الذين يظنون ان البلاد العربية كانت من قبل كثيرة المياه والخيرات ثم طرأ عليها جفاف عظيم أنضب أنهارها وأهلك عشبها وشجرها . فقد اجتاز المستر فلبي اصقاعاً عديدة حوت اصداف المحار الذي لا يعيش الاّ في المياه العذبة وجلب منها نماذج درسها ، اخصائيو المتحف البريطاني للتاريخ الطبيعي واكّدوا أنها من هذا الصنف. وجمع من هذه المنطقة بعض الادوات الصوانية التي استعملها انسان ما قبل التاريخ في العصر الحجري الحديث Neolithic . والنتيجة الطبيعية لهذين الاكتشافين هي أنهُ في الازمنة القديمة التي تقدمت الاعصر التاريخية كانت منطقة الربع الخالي ذات انهار جارية يعيش فيها المحار ، تنبع من جبال عسير واليمن والحجاز وتصبُّ في البحر الميوسيني الذي يظنُّ انهُ كان غامراً الاراضي الكائنة بين رملة مفشن وآبار شنة والزكرت ونيفا وعين سالا . وقد تمكن المستر فلبي من تمييز مجاري اربعة أنهار عذبة في هذه المنطقة وحاول ان يربطها بالاودية الحالية الآتية : (١) اودية الافلاج (٢) وادي مقرن (٣) وادي الدواسر (٤) وادي نجران

رابعاً : ونتيجة مهمة ايضاً هي القضاء على الاسطورة التي مؤداها ان كثيرين يعتقدون بوجود آثار مدينة او مدن مطمورة وسط رمال الربع الخالي وبالاخص آثار وبار مدينة عاد التي دمرت بنيران السماء . فقد نفي وجود آثار مثل هذه ، وحقق ان الاعصر التي كان في الامكان اعمار هذه البلاد فيها حينما كانت ذات انهار عذبة ، انما هي أعصر سابقة للعصر الذي بلغ فيهِ الانسان مرتبة انشاء القرى والمدن

خامساً : ومن أعظم نتائج الرحلة ايضاً تحقيق مسألة قصور ام الحديد التي ذكرت عنها في متن الفصل انها آثار بركان خامدة فقد جلب المستر فلبي معهُ قطعة من الحديد المصهور من مخروط هذا البركان وسلمها الى المتحف البريطاني للتاريخ الطبيعي مع كميات من اللؤلؤ الاسود، ولدى فحص الكتلة تبين انها قطعة معدنية من نيزك سماوي ولا صلة بينها وبين المادة البركانية وان اللؤلؤ الاسود ، رمل (سليس) مصهور بحرارة شديدة جدًّا أحرقتهُ وجعلتهُ يظهر على شكل الدخان البركاني . وقد اثار هذا الاكتشاف اهتمام الاوساط العلمية لكبر حجم النيزك ولكونهِ احد النيازك القليلة العدد المعروف عنها انها نزلت شديدة الحرارة الى درجة مرتفعة جدًّا فكان سطحها مصهوراً وباطنها لم تتصل اليهِ الحرارة الآنيّة فظل على حالتهِ وأما السطح فقد تألف من صهره بالحرارة الآنية اشكال مخروطية تشبه مخروط البراكين واحرق الرمل المجاور للمنطقة المجاورة لهبوطهِ فجعله كمقذوف البراكين مكة فؤاد حمزة

تصحيح كتاب الزهرة

ردٌّ على نقد

تنحصر الاغلاط التي عرض لها الدكتور زكي مبارك (مقتطف مارس ١٩٣٣) في اربعة انواع

النوع الاول : ويشتمل على اغلاط أصاب الاستاذ مبارك في تصحيحها اصابة تشهد بسعة اطلاعه وها هي بحسب ارقامها (الارقام التي سار عليها حضرته في التصحيح) : ١٦ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٣٦ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١

النوع الثاني : عثرنا في اثناء العمل على كثير من الاغلاط كما اننا احتجنا في مواضع كثيرة الى الملاحظات . لذلك وضعنا جدولاً في آخر الكتاب يبتدىء في ص ٣٨٢ وينتهي في ص ٤٠٦ ويكاد هذا الجدول لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الاَّ احصاها حتى الاغلاط التي فات الاستاذ ان يلاحظها رغم افتتانه بالتدقيق ، «وغرامه بالتصحيح» . وهناك اصطلاحات نشير منها الى الحرف m = مخطوطة ، Y = ياقوت ، H = حماسة ومنها ايضاً no = غير واضح ، ino = غير تامّ وغير ذلك مما هو مفصّل في مقدمة الجدول . وكأنّ الاستاذ مبارك لم يشأ ان يعترف بوجود هذا الجدول، وكأنه لم يكد يعثر على الغلطة الاولى حتى استرسل في التصحيح ، والتصحيح عند الاستاذ غرام والغرام — كما يقولون — أعمى

وها هي الاغلاط التى انتبه لها على حين ان جدول الملاحظات لم يغفلها بل اشار إلى كلّ غلطة منها اشارة اقلّها يدلّ على الشكّ والاستفهام : — ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٠ — وقد اهتدى الاستاذ الى اصلاح بعضها وصحح بعضها على الاحتمال . الاّ ان النقد العلمي النزيه يحتم على الناقد أن يعطي كلّ ذي حقّ حقه

يعرف لذي الجهود جهوده ولمّا كان الجدول ذاك (ويقع في ٢٥ صحيفة) حقاً لنا ، وجانباً من جهودنا انتظرنا من الاستاذ مبارك الاّ يشيح بوجههِ عنهُ فيغفلهُ كل هذا الاغفال

النوع الثالث : ويشتمل على اغلاط صححها الدكتور مبارك وهي مثبتة بتصحيحها في ذلك الجدول المظلوم الذي لم يستحق نظرة عطف منهُ ! وقد لفت نظرنا اتفاقنا في التصحيح لا اتفاق توارد الخواطر بل وقوع الحافر على الحافر. وفي هذا النوع من الاتفاق عجب حين يقع مرةً واحدة أو مرّتين ، فكيف بهِ وقد وقع في اربعة عشر موضعاً ! ؟ . والى القراء جدولاً بأخطاء صححها في نقده وصححناها نحن كذلك في الجدول المذكور في آخر الكتاب

الغلطة برقمها	تصحيحها في جدول الملاحظات	تصحيح الدكتور مبارك
٤ وبعد	(الواو) لا لزوم لها	(الواو) لا لزوم لها
٩ الأبهم بالباء الموحدة	الأيهم بالياء المثناة	الأيهم بالياء المثناة
١٨ عتمة	عثمة رواية الحماسة	عثمة رواية الحماسة
٢٠ وما بى اذا زبى	رماني اذاً ربّي	رماني اذاً ربّى
٢٢ مكائد	مكايد	مكايد
٢٦ ان الذي	يا ذا الذى	يا ذا الذي
« قدّر	قدِر	قدِر
٣٣ فرحة نكاتها	فرحة ؟	فرحة نكاتها
٣٨ لم يمكن	لم يكن	لم يكن
« منهم	فيهم	فيهم
٣٩ ترتيب سيء لابيات	هزج (الوزن الشعري)	رتبها الاستاذ على الهزج
٤١ كتوم	كظيم رواية الحماسة	كظيم رواية ابي تمام . . .
٤٢ دوني	دونيَ بفتح الياء	دونيَ بفتح الياء
٤٥ لنقلهم	لتنقلهم ؟	لنقلهم

النوع الرابع : ويشتمل على ما بقي من الاغلاط وقد شاء الاستاذ مبارك ان يسميها اغلاطاً وليست كذلك بل هي في الحقيقة تفضيل رواية بيت على رواية واستبدال كلمة بكلمة . معروف بالبديهة ان كلّ كتاب مخطوط أمانة في عنق ناشره يتحتّم عليهِ ان يخرجهُ للناس مطبوعاً كما وجدهُ مخطوطاً . فاذا بدت وجوه للملاحظات كاختلاف رواية أو تسمية ونحوها حفظ الناشر بالاصل ودوّن ملاحظته في الموضع المخصص لها ومثال ذلك جدول ملاحظاتنا

اللوم : نابلس ابراهيم عبد الفتاح طوقان

تنقيط الياء في آخر الكلم

غير كافل بازالة اللبس

حضرة رئيس تحرير المقتطف الغراء

قرأت في مقتطف فبراير ١٩٣٣ مقالاً ممتعاً ، في موضوع لغوي شائق ، بعنوان «تنقيط الياء في آخر الكلم » كتبهُ البحاثة الشهير الأب انستاس ماري الكرملي ، محاولاً فيهِ اثبات نظرية زوال اللبس بين الكلمات التي تكتب اواخرها املائيًّا بالياء بمجرد تنقيط الياآت الواقعة في آخرها ، وقد اهاب بكتّاب العربية ان يلتزموا التنقيط فيما يقرأ بياء صريحة من هاتيك الكلمات ، نفياً للشبهة وحرصاً على وقت القراء ، ونهضته باللغة من مهاوي التردد ، ثم ضرب الامثال تلو الامثال ، تأييداً لنظريته المشار اليها ، فأجاد وأفاد ، بيد اني ، عملاً بحرية البحث وتمحيصاً للحقيقة العلمية : اقدمت على تقديم ملاحظتي لكم ، على ما قرره ، مؤملاً نشرها وفق ما اخذتم على عاتقكم : —

ان اقتراح الاب انستاس مفيد جداً ، وذو شأن خطير ، ومضعف لشوكة الوهم والالتباس ولكنه ليس بالقول الفصل في المسئلة ، ولا بالقاعدة الجامعة المانعة في الامر ، فباب الشبهة وان طُبق (اي الاقتراح) لا يزال مفتوحاً . لنأخذ مثلاً كلمة (الحبلى) التي مثل بها في مستهل بحثه ، وقرر انها اذا لم تنقط ياؤها يؤكد انها هي المرأة الحامل ، اما اذا نقطت فيؤكد انها منسوبة الى الحبلى — لنأخذ هذه الكلمة نفسها ، ولنجعلها معيار الحكم على هذه النظرية — انا اذا فعلنا ذلك ، وقمنا بتنقيطها ، ورسمناها هكذا : (حبلي) تجلّى لنا ان غيم اللبس لا ينفك مخيماً عليها ، فانها تحتمل امرين ، والحالة ما شرح : احدهما : ان تكون منسوبة لحبلى ، وثانيهما : ان تكون من اضافة (حَبْـلٍ) الى ياء المتكلم ، وكذلك (يمني) مجرد تنقيط يائها الاخيرة لا يحصرها في النسبة الى قطر اليمن كما يراهُ الاب انستاس بل يجوز معهُ ان تكون من اضافة (اليُمْـن) الى ياء المتكلم ايضاً . ثم لفظة (السامي) المنقطة الياء المتطرفة بماذا نجزم في شأنها ؟ هل هي نسبة الى سام بن نوح ، ام وصف بالسمو ؟ وكذلك قل في الحالي والراضي والمرتضي والغالي والقالي وخلافها من الكلمات الكثيرة التي لا يفارقها شبح اللبس بمجرد تنقيطنا لياآتها المتطرفة . واذاً فجماع القول (في نظري) ان تضاف هذه الفقرة على ما ارتآه الاب انستاس ألا وهي : التزام وضع علامة (التشديد) فوق ياء المنسوب وما شاكله من ذوات الياءآت المشددة المتطرفة ، علاوة على — التنقيط . فيكتب هذا النوع من الكلمات دائماً هكذا : الساميّ ، يمنيّ ، حبليّ ، الحاليّ ، القاليّ ، أوانيّ ، حواريّ ، وبهذا الصنيع نأمن جانب اللبس مطلقاً ، ونحظى بالمرغوب محققاً

المدينة المنورة

عبد القدوس الانصاري

مكتبة المقتطف

مملكة اورشليم اللاتينية
في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (١)

جاءنا هذا الكتاب من نحو نصف سنة فقرأناه ثم عرضناه على المستر جفري مدير الدروس في مدرسة اللغات الشرقية بالجامعة الاميركية، وعصر المملكة اللاتينية من العصور التي توفر على درسها، فكتب المقالة الآتية بالانكليزية فننشر نا ترجمتها هنا

نشر هذا الكتاب على انهُ الحلقة الرابعة من سلسلة الكتب التي تخرجها الاكادمية الاميركية لتاريخ القرون الوسطى . والغرض منهُ توضيح ناحية من نواحي المنشآت الصليبية في فلسطين

ان دروس الممالك التي انشأها الصليبيون في الشرق يهم البحاث المهتمين بثلاث نواحٍ من نواحي المعرفة — (١) فالباحث في الصلات التي تربط بين الشرق والغرب، يجد فيهِ مجالاً للبحث في زمن اتصل فيهِ الغرب بالشرق زمناً طويلاً وانشأ مملكة غربية في محيط شرقي ، وترك فيهِ اثراً متزايداً في اوضاعهِ وانظمتهِ (٢) اما الباحث في تاريخ الحروب الصليبية فيجد فيهِ الطريقة التي جرى عليها الصليبيون في تحقيق ما يرمون اليهِ في جماعة مستقرةٍ بعد ما قاموا بما قطعوهُ من العهود على الكفاح في سبيل تحرير الاراضي المقدسة من سيطرة غير المسيحيين. (٣) اما الباحث في تاريخ القرون المتوسطة فيرى فيهِ صورة جلية او مثلاً صافياً لعمارة فَدَنية (اقطاعية) تحاول ان تسير سيرها الطبيعي من دون ما يعيقها او يعيق العمارات الفدنية في اوربا

ومملكة اورشليم اللاتينية ، انشأها زعماء الحرب الصليبية الاولى بعد افتتاحهم اورشليم ونصّب جودفري ده بويون اول ملك عليها ، مع انهُ رفض — وظلّ يرفض بعد تنصيبهِ — ان يدعى ملكاً لان اورشليم في نظرهِ بلغت من القداسة ما يجب ان يمنع ايّاً كان ان يدعو نفسهُ ملكاً عليها . وكان زعماء الحرب الصليبية الاولى قد تعوّدوا النظام الفَدَني في حكم في بلدانهم ، فكان لابدَّ لهم ان ينشئوا الممالك التي ينشئونها في الشرق على مثالٍ فَدَني.

(1) Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem 1100—1291 John L. La Monte, Massachusetts 1932, Medeiaval Academy of America-Priee 4.50 Dollars

فاعترضتهم صعوبتان — ان سكان البلدان الشرقية التي دخلوها كانوا قد تعوّدوا قانوناً عرفياً يختلف عن قانون اي شعب من شعوب البلدان الفدنية في اوربا . فكان لا بدَّ للنظام الجديد ان لا يغضي عن هذا الفرق . (٢) كان البابا الداعي الى الحرب الصليبية وكان لهُ ممثل بين زعماء الصليبيين ، وكان هذا الممثل يحمل تعليمات خاصة ترمي الى وجوب مراعاة حقوق الكنيسة في كل البلدان التي يفتتحها الصليبيون وكان الزعماء يعرفون هذه الصلة التي تصلهم بالبابا ، ومعرفتهم هذه عدّلت من نواحٍ مختلفة النظام الجديد الذي ابدعوهُ للممالك التي انشأوها

وقد اضطلع المستر « لامونت » في الكتاب الذي بين ايدينا بدرس تطوُّر الاوضاع في المملكة اللاتينية التي انشأها الصليبيون. وصحيح ان غيرهُ من البحّاث عالج الموضوع من نواحيهِ التاريخية والتجارية واثر الاتصال بين الشرق والغرب في الأدب وغيرها. ولكن المستر لامونت اقتصر على ميدان معيَّن من البحث يختلف عما تقدم . وهو نظام الحكومة في المملكة اللاتينية . فتناول في القسم الاول من الكتاب تاريخ التطور الدستوري في تلك المملكة ثم في القسم الثاني عرض لنظام الادارة وفي الثالث عالج الصلات السياسية بين ملوك اورشليم

والذي يهمنا من القسم الاول ما يوضحهُ المؤلف من غوامض الخلافة في ملوك اورشليم. وليس من الامور الخفية كيف تطرّق الضعف الى المملكة رويداً رويداً بسبب الخلاف الدائم بين الاحزاب المتباينة على مسألة « من يقام حاكماً على المدينة » . ولكننا لم نرَ قبل هذا الكتاب كتاباً يحتوي على مثل تفصيلاتهِ الدقيقة المبنية على درس دقيق للوثائق الاصلية — وهو كذلك اول من بيّن الشأن العظيم الذي كان يعلّق بفكرة الخلافة عن طريق النساء في خلال تلك المدة . وان القارىء في العصر الحديث ليقف دهشاً اذ يقرأ القصة التي لا تنقطع حوادثها عن سيدات حسان كنَّ يتزوجن رجلاً ثم آخر ثم آخر . من دون رغبتهنَّ . لان مصلحة الدولة (الاسرة الحاكمة) كانت تقتضي ذلك

اما القسم الثاني . وهو القسم الذي يهمُّ القارىء بوجهٍ عام — فيتناول نظام المملكة الدستوري تناولاً مبنيًّا على مراجعة واسعة النطاق للاصول التاريخية . فهناك يقرأ عن (المجلس الاعلى) وتأليفهُ ومدى سلطتهِ ، وقد كان اعلى مجلس تشريعي في البلاد . ثم يلي ذلك بحث في المجالس التي دونهُ (كمجلس الطبقة الوسطى) الذي يتناول شؤون الرعية الفرنجية التي تحت طبقة الاشراف فالمجلس الذي يتناول الشؤون التجارية فالمجلس الذي يتناول الشؤون الحربية البحرية والشؤون التجارية البحرية ، والقواعد التي بمقتضاها يحكمَ السكان السوريون بحسب شرائعهم وعاداتهم

وفي هذا القسم يبحث كذلك في حقوق وواجبات كبار الفرسان من موظفي المملكة ، وقد كان النظام الذي يشملهم منقولاً عن النظام الفـدَني في اوربا . وهذا يفضي بهِ الى درس

العلاقة بين هؤلاء الفرسان بالمجلس الاعلى وحقوقهم في الاقطاع وتفصيلات الخدمة العسكرية ونظام الهيئة الحربية في البلاد لانهُ كان لها اكبر مقام في نظام الحكومة اذ كانت البلاد في حالة حرب دائمة مع اعدائها من الامم غير المسيحية التي كانت تحيط بها . وهذا البحث يفضي بطبعهِ الى البحث في ادارة البلاد من الوجهة المالية

اما القسم الثالث من الكتاب فيتناول علاقة ملك اورشليم بامراء انطاكية وكونتات طرابلس والرها من ناحية، وبالبابا والقصاد الرسوليين من ناحية ثانية، وبطوائف الفرسان Templars وال Hospitallers من ناحية ثالثة ، وبالطوائف التجارية من ناحية رابعة. وكل هذه العلاقات كانت تحدُّ من سلطة ملك اورشليم وحريتهِ

هذا ميدان البحث في الكتاب اما من حيث قيمته فنقول انهُ اول كتاب من هذا القبيل مبني على درس وافٍ وبحث لم يهمل شاردة ولا واردة من الاصول التاريخية . ومع ان المؤلف يتناول في بعض الاحيان مسائل مختلف فيها ، لكنهُ يتناولها بروح من الانصاف والتجرُّد ويبسط الادلة التي يعتمد عليها في ترجيح الرأي الذي يأخذ بهِ ، بسطاً وافياً . فالكتاب مرجع لا يستغني عنهُ المهتم بدرس عهد الصليبيين . ففيهِ من ناحية اهم الحقائق التي تهم الطالب في بيان سهل وايجاز غير مخلّ ، ومن ناحية اخرى ذكر لاهم المراجع الاصلية للاخصائي

وقد طبع الكتاب طبعاً متقناً ويحتوي على بيان المراجع وملاحق مختلفة لتسلسل الملوك وقوائم باسماء كبار اصحاب المناصب ونصوص بعض الاذاعات والمعاهدات التي تخصُّ المملكة اللاتينية

اما الباحث الشرقي المعنيُّ بموضوع الحروب الصليبية فيجد في هذا الكتاب امرين جديرين بعنايتهِ . اولاً . اذا كان من السهل الحصول على الاصول الشرقية التي عالجت موضوع الحروب الصليبية ، فمن المتعذر عليهِ الحصول على الاصول الغربية لانها في الغالب غالية الثمن ومكتوبة اما باللغة اللاتينية او باللغة الفرنسية القديمة . ولكننا نجد في هذا المؤلف موجزاً يصحُّ الاعتماد عليهِ ، لاهم الحقائق ، مستقاة من هذه الاصول . ثانياً . اذ حاولنا درس الموضوع في اصولنا الشرقية نظرنا الى المملكة اللاتينية من الخارج ، كما نظر اليها كتّاب هذه الاصول وهم في الغالب من الشعوب التي انشئت المملكة بين ظهرانيهم . ولكننا نجد في هذا الكتاب صورة جلية لنظام المملكة كما رآهُ اناس اشتركوا هم في انشائهِ وادارة شؤونهِ . وهذه الصورة التي رسمها المستر لامونت تمكننا من نقد ما قالهُ الكتّاب الشرقيون ، فنعرف ما بلغوه من الدقة في كتابتهم او تمكننا من فهم ما يقولونهُ وتفسيره التفسير المعقول

واذا لم يكن المستر لامونت قد خدمنا الا هذه الخدمة فحسبهُ

انفاس محترقة

شعر محمود ابو الوفا — طبعته دار الهلال — ثمن النسخة ٥ قروش

عُنيتْ دار الهلال بطبع ديوان الشاعر محمود ابو الوفا وطلب الشاعر من رئيس تحرير هذه المجلة كتابة المقدمة لديوانه فكتب ما يلي : —

اذا طغى الاستبداد على الحرية ، وتغلبت المادة على الروح . وضؤل نور الامل الفياض حتى كاد يخبو ، واستبدت القوة الغاشمة بالحق فوارته الى حين ، عجزنا عن بلوغ الطمأنينة النفسية الاَّ في خمائل الروح الخالدة . ذلك ان الانسان كائن روحي ، مهما يعارض في ذلك السلوكيون ، نزاع الى ما يمكنه من التغلب على نواحي الحياة المادية واخضاعها لمطالب الروح العليا . فنلتفت عندئذ ، بداهة ، الى الشعراء والفلاسفة الذين نسمع في إنشادهم ألحان النزاع النفسي العنيف ، فأهازيج النصر ، فأنغام الاستقرار في ساح الحرية والمحبة والأمل والحق

والشاعر في نظري ، هو من تأخذ الحياة بتلابيبه وتدفعه الى الانشاد قصراً . ففي طبيعته الدقيقة الحس ، تلتقي الافكار والاخيلة والاحاسيس ، وتختلط وتندمج ، ثم تخرج صوراً جديدة لا أثر فيها لاعنات الفكر ، ولا لكد الخيال ، ولا لتكلف الشعور ، ومن هنا أرى ان سماحة القريحة في الشعر spontaneity . هي في طليعة ما يمتاز به الشعر العالي — وحسبي ان أقول الشعر وكفى

فالشاعر اذ تتملكه صورة ما ، لا يبرح يقلب فيها النظر ، حتى تنبثق من عقله الباطن آراء درسها ومثلها بالتأمل الطويل، يوشيها بذهب خياله الوهاج ، ويمهرها بنار شعوره،فتخرج في الكلام الذي يمنحها قواماً خارجيًّا ، صورة لست تجد فيها الفكر الذي نسج آراءها ، ولا الخيال الذي وشى حواشيها ، ولا الشعور الذي نفخ فيها رعشة الحياة . بل تجد شاعرية شاعر ، اجتمع فيها التفكير عميقاً صافياً ، والخيال جريئاً وثاباً ، والشعور متأججاً صادقاً... في الفاظ كأنها في معانيها ومبانيها وجرسها ومواقعها آيات التنزيل . هذه هي وحدة الاندماج في الشعر العالي بين أقانيمه المتباينة

ونحن اذا رجعنا الى تاريخ الادب في أمة من الامم وجدنا عصور الانحطاط في الانتاج الشعري موسومة بسمة التفكك في هذه الوحدة ، فيتفوق العقل على الاقانيم الاخرى،ويسمو شأن الصناعة ويضعف شأن «السماحة» أو «الطلاقة» . بذلك اتصف عصر دريدن في الشعر الانكليزي على ما بين المستر درنكوتر في محاضراته . وبالطلاقة وارسال النفس على سجيتها امتازت عصوره الذهبية في ايام تشوسر وشكسبير ووردزورث وكيتس وشلي

***

لم تهبني الطبيعة الملكة التي تمكنني من معالجة الشعر . وانا مغتبط — وأحسب جهود

القراء مغتبطاً كذلك — انني اعرف هذا . فأنا اذ أقرأ الشعر ، وأجد فيه رفيقاً وعنيفاً ، منأى للنفس عن متاعب الحياة ، أبحث فيه عن سر أثره في نفسي فأجد صفة «السماحة» او «الطلاقة» التي ذكرت . اذ ذاك تكون القصيدة في نظري كالجدول المنساب في الروض الممرع . تحف به على جانبيه الخمائل المعطارة . تعطره أشذاؤها ، ويطربها خريره ، فترتشف حواسي من القصيدة ، ما ترتشفه من روعة الجدول والروض ، وترتفع نفسي ، في الحالتين ، على ذرى التأمل في أسرار الكون والحياة ، الى عرش السماء . فأنا في تلك اللحظة ، ابن الكون المطلق لا ابن الارض الملتصق بالرغام

ولعل تجني المبهم عن هذه الصفة في الشعر ، حملني على الاعجاب بشعر « أبي الوفا » اذ قرأت له :

لغة البلابل أين تذ هب بين هدهدة الهداهد

فتمثل لي العراك العنيف بين الخير والشر ، بين الضعف والقوة ، منذ فجر الحياة البشرية على الارض الى يوم الناس هذا ، في صورة قليلة الخطوط ، زاهية الالوان . واذ قرأت له

أحب أضحك للدنيا فيمنعني ان عاقبتني على بعض ابتسامات

فأحسست بصدق الشعور وتجلى لي ألم النفس ، فتخيلت أنني الشاعر ، أراجع ما عاقبتني به الدنيا على بسمات ساذجات كبسمات الطفل . فردتني ناقماً ساخراً ، تمنعني نقمتي وسخريتي من ان أحاول الابتسام ثانية . واذ قرأت لهُ :

كأنني فكرة في غير بيئتها بدت فلم تلقَ فيها أيَّ اقبالِ

او أنني جئت هذا الكون عن غلط فضاق بي رحبه المأهول والخالي

واذ قرأت قصائد « ذكرى » و «حيرة» و «الايمان» وغيرها

فقلت في ذات نفسي ، في شعر هذا الشاعر سماحة القريحة التي يمتاز بها الشعر العالي ، فرغبت اليه في ان يشاركني في ذلك رهط الادباء من قراء المقتطف ، ونشرت له فيه ، قصائد «الايمان» و «حيرة» و «أريد» و «ضحية العيد» و «تغريدة» و «من الاعماق» و «ذكرى» و « الى صاحب البؤساء » وغيرها ، الخارجة من اعماق نفسه ، الجامعة لصفوة نظره الى الحياة ، الموشاة بوشي خياله الذهبي ، المطبوعة بطابع شعوره . وأحسب أنها وحدها تكفي لتجعل صاحبها شاعراً . . وحسبه هذا !

ان ديوان « أبي الوفا » صفحة من حياته — وحياة الشاعر حياة الانسانية ، في قلبه أملها وألمها . وفي عقله حيرتها . وفي وجدانه معتركها — فأنت ترى الحياة في هذا الديوان ، قطرة ندى . وشذى وردة . وثورة بركان . وايماناً وبؤساً وأملاً ، وارادة صلبة وأنفاساً محترقة . واني لشديد الغبطة ان أتيح لي تقديمه الى أدباء العربية ، اولاً على صفحات المقتطف وثانياً بين دفتي هذا الديوان . وأنا واثق ان الشاعر لن يخيب ظننا في تحقيق ما نتوقعه منه . والسلام

نابغة بني شيبان

ان العربية لتُزْهي بما تخرجه دار الكتب من المطبوعات كما تزهى الحسناء بجمال وحيدها بعد ان استفتحت الله على عقمها لجاءها بأسباب راحتها وفزعها في وجهٍ معاً . فنحن بنا لدار الكتب مثل الذي بالحسناء لوحيدها من الحب والعطف والرعاية لانها واحدة جادت لنا بها ايام كزَّة بخيلة . وبنا ايضاً مثل الذي بها من الخوف والفزع ان يستفزّها الحدَبُ الى الغرور، وان يستخفها التغاضي الى الاهمال والتعالي وترك الواجب الذي لا يستحلُّ خلافهُ . وقوة ما استقر في قلوبنا من الحدب عليها والتوجه اليها وما يعتلجُ في صدورنا من الخوف والفزع تدفع بنا الى العناية بما تنشره ، ومؤاخذتها على الكبائر والصغائر تنزيهاً لها وتبرئةً . وهذا «ديوان نابغة بني شيبان» — آخر ما طلعت علينا به — نقول فيه كلمة تنفعها ان شاء الله

﴿تحقيق نسب النابغة ودينه﴾ نقلت دار الكتب في تصدير هذا الديوان كلمة ابي الفرج الاصبهاني في اغانيه « ج ٦ ص ١٤٦ مطبوعة الساسي » التي يقول فيها أن النابغة من شعراء الدولة الاموية «وكان فيما ارى نصرانيًّا لاني وجدتهُ في شعرهِ يحلف بالانجيل وبالرهبان وبالايمان التي يحلف بها النصارى» اه . ولم تعلق دار الكتب على هذا بكلمة ، فكأن الديوان لم يطبع فيها ، ولم يهتم بشرحه القائمون بأعمال التصحيح فيها . ذلك ، لأن هذا الديوان الذي بين أيدينا ليس فيهِ قسمٌ واحد بانجيل او رهبان او يمين من الايمان التي يحلف بها النصارى، بل فيهِ ما يدل على ان صاحبه مسلم عريق لم يضرب إلى نصرانية ولا يهودية ، كما سنبين بعد

وتقول دار الكتب في التعليق على نسب النابغة انها نقلته من الاغاني « بعد تصويب الاسماء الخاصة (كذا) بنسبه » ومعنى ذلك انها رجعت الى ترجمة ابيه « مخارق » ثم جده «سليم» الى آخر ذلك فصححت التحريف الذي كان واقعاً في نسبه . وهذا النابغة هو عبد الله ابن مخارق بن سليم ... الشيباني » من بني ذهل بن شيبان ولد ربيعة بن نذار . فلو كانت قد رجعت الى ترجمة ابيه — كما يفهم من كلامها — لعلمت ان « مخارق بن سليم . . . الشيباني » صحابي ترجم له شيخ الاسلام ابن حجر العسقلاني في كتابه « التهذيب » ج ١٠ ص ٦٧ وفي «الاصابة» ج ٦ ص ٦٨ وابن الاثير في « اسد الغابة » ج ٤ ص ٣٣٥ وافرد له امامنا الجليل احمد بن حنبل مسنداً في كتابه «المسند» ج ٥ ص ٢٩٤ — ٢٩٥ وروى من حديثه النسائي في سننه ج ٧ ص ١١٣ . قال ابن حجر في التهذيب « مخارق بن سليم الشيباني أبو قابوس ، روى عن النبي صلى الله عليهِ وسلم..... وروى عنهُ ابناهُ قابوس و «عبد الله» . وقد ترجم أصحاب كتب التراجم — التي بين أيدينا — لابن قابوس لان اسمه ورد في بعض الكتب الصحاح الستة ، ولم يترجموا لعبد الله لان اسمه لم يرد في أحدها ولعلهم لم يعنوا بروايته لانصرافه الى قول الشعر ومدح الخلفاء فقلت روايته للحديث وقام بها أخوه قابوس . وما

نظن إلا أن أبا الفرج قد وهم في قوله بنصرانيته — ولابي الفرج أوهامٌ مثل هذه كثيرة — ولعل الذاكرة طوحت بهِ الى نصرانية نابغة بني الديان الحارثي من ارض نجران . وإلاَّ فكيف يكون نصرانيًّا مَن يقول «الديوان ص ١٧»

ويزْجُرُني الإسلامُ والشيبُ والتُّقى، وفي الشيبِ والإسلامِ للمرءِ زاجرُ »

وهذا نصٌّ لا نحتاج معهُ الى الاستشهاد ، بكثير مما ورد في شعره من خُلُق الاسلام وأيمانه وتجانفه عن الشرك والخبائث كبيرها وصغيرها

﴿ شرح الديوان ﴾ علقت دار الكتب على غريب هذا الديوان ونشكرُ لها عنايتها بذلك ، ولكنْ ماكان أشد أسفنا حين رأينا هذا الشرح محشوًّا بالاغلاط الواضحة التي نودُّ أن ننزّهها عنها فمن أمثال ذلك قولهم ص ٣ في شرح الكلمة تَعَرَّقُ : « تَعَرَّقَ : تأكلُ ما على اللحم من عَظْمٍ وتأخذه «كله » ولا ندري كيفَ يكون هذا اللحمُ المكسوّ بالعظامِ وكيف يؤكل . وقالت في شرح قوله

«وما الناسُ في الاعمالِ إلاَّ كبالغٍ يُبَنِّي ومُنْبَتٌّ النياطِ حسيرُ»
«فمُسْتَلَبٌ منهُ رياشٌ ،ومكتسٍ وعارٍ،ومنهُم مُتْرِبٌ وفقير»

المتربُ : القليل المالِ . فيكون معنى البيت الاخير انالناس منهم مكتسٍ وعارٍ وفقير ، لأن قليل المالِ هو الفقير لاشك . ونصُّ اللغةِ «تَرِبَ تَرَباً ومَتْرَبَةً . خَسِر وافتقر فلزق بالتراب ، وأَتْرَبَ : استغنى وكَثُرَ ماله فصار كالتُّرَاب — كثرةً — هذا هو الأعرف وقيل — وهذه لفظة التضعيف عندهم — قَلَّ ماله . والمُتْرِب الغنيُّ إمَّا على السَّلْب وإمَّا ان ماله مثل التُّرَابِ » . فالمعنى (منهم غني وفقير)

وقالت في شرح قوله يصف شعور النساء

« وفروعٍ كالمَثَاني زانها حسنُ جَميرٍ »

الجمير : الطيبُ . ونحن لا نعرف للبيت معنىً بهذا الشرح · وكلمةُ اللغة أن الجمير : هو الشَّعرُ ما جُمِّر منهُ وجمرت المرأةُ شعرها جمعتهوعقدته فيقفاها ولم ترسله ،والجمائرالضفائر واحدتها جَميرة . والجميرُ من الزينة ولا شكَّ عند النساء

ونكتفي بهذه الامثلة من الخطأ وقلة العناية والإهمال والاستهانة بأمر القراء والادباء الشعر العربي : وقبل أن أفرغَ من كلمتي هذه أُبدي تألمي من احد الكتَّاب المشهورين في زرايته على دار الكتب بطبعها الكتب القديمة من مثل « ديوان جران العود »و«نابغة بني شيبان» . ونقول لهذا الكاتب الفاضل أنهُ ما حَمَلَهُ على الزراية بالشعر العربيّ الا تباطؤه عن الجد في فهم اساليب لغته التي يكتب بها ، وانهُ اذا وجد ثقلاً على نفسه الرقيقة في قراءة شعر العرب المتقدمين فليس ذلك من ذنب الشاعر ولكن من ذنبه هو وذنب الذين وضعوا

برنامج — تدريس العربية في مدارسنا المصرية . ونرغب اليهِ اذا كان هذا رأيهُ هو ان يكتمهُ عن الناس لئلاَّ يصدهم عن الاهتمام بآثار أجدادهم التي لا يبنى الادب العربيُّ الحديث الاَّ على آساسها . وتقول ان الذي يفهمُ الشعرَ ويفهم انهُ هو صورة النفس انْ صافيةً فصافٍ وان غليظةً فغليظٌ لا يقول بمثل هذه المقالة ابداً ، فما لا شك فيهِ ان النفوس من آدم الى اليوم هي النفوس البشرية التي لا تتغير أبداً ، وان الادب في كل العصور هو صورة هذه النفوس على اختلافها . وليس أدب اليوم هو الادب الذي لا يُرْغَبُ في غيره حتى يكون ما سبق مما نعدهُ ادباً وشعراً كلاماً من مَنْطِقٍ لا نفهمهُ ولا نرغبُ فيهِ .ونعدُ بأنْ نظهر في هذه المجلّة روائعَ من الشعر القديم الذي انطلقت ألسنة هؤلاء الكتاب المشهورين بانتقاصه والنيل منهُ والله الموفّق محمود محمد شاكر

حِكم الامم

مجموعة من الامثال والحكم والاقوال المأثورة باللغة الفرنسية اختارها ووضع ما يرادفها باللغتين العربية والانكليزية محمد افندي عبد الهادي كبير مترجمي محكمة الاستئناف المختلطة بالاسكندرية

في الامثال والاقوال المأثورة تتلخص تجاريب الامم وفلسفتها الحية . والامم تختلف في مواطنها واقاليمها وتجاربها ولغاتها وعاداتها . ولكن لا بدَّ ان تتجلى لها حقائق الحياة الاساسية ، طال زمن التجربة او قصر ، واختلف الاقليم او توافق . ولكن هذه الحقائق قد تتخذ من الالفاظ في امة قالباً يختلف عن القالب الذي تتخذهُ في الامة الاخرى. لذلك قلما تجد مثلاً سائراً او قولاً مأثوراً في امةٍ الاَّ وترى ما يوافقهُ معنىً في امة اخرى وان اختلف عنه مبنىً ولفظاً . فالمثل الآتي متشابه في لغات العرب والانكليز والفرنسيين

الاتحاد قوة
La force fait l'union
Union is strength

والمثل التالي يتفق معنىً ويختلف تعبيراً

المنى مطية العاجزين — L'esperance est le pain du malhereux

فالمعنى في التعبير الفرنسى « خبز » او قوت المسكين والمنى في القول العربي « مطية » والمطية صورة منتزعة من صميم الحياة العربية في البادية

او المثل التالي :

المال يحقق كل شيء — L'argent fait tout

المال يدفع الفرس الى العدو — Money makes the mare go

المال يفتح كل باب موصد

وقد جمع مؤلف هذا الكتاب ٩٣٥ من هذه الحكم والامثال والاقوال المأثورة . فنشكر عنايتهُ وفضلهُ

كتاب المجمع المصري للثقافة العلمية

طبع بمطبعة المقطم — صفحاته ٢١٥ قطع المقتطف — ثمنه ١٠ غروش عدا اجرة البريد

انتخب المجمع المصري للثقافة العلمية احمد محمد حسنين بك ، الرحالة المشهور ، ليشغل كرسيّ الرآسة في سنتهِ الرابعة . فهو خير خلف لخير سلف ، في هذا الكرسيّ . وقد سبقهُ فيهِ الدكتور علي باشا ابرهيم وحسين بك سرّي والدكتور محمد شاهين باشا . وعلى ذلك يرى القارئ ان المجمع ماضٍ في القيام بالخدمة التي اخذها على نفسه وهي نشر العلوم الحديثة باللغة العربية ، في محاضرات تتلى وتنشر بحرفها او ملخصة ، وتجمع في كتاب سنوي

وقد عقد المجمع حتى الآن ثلاثة مؤتمرات تليت فيها ما يزيد على ثلاثين محاضرة علمية ، جمعت وطبعت في ثلاثة كتب سنوية هي من خير الكتب التي اخرجتها المطابع العربية في العهد الاخير . وقد عقد المجمع مؤتمرهُ الرابع في الاسبوع الواقع بين ١٢ مارس و٢٠ مارس في دار الجمعية الملكية للحشرات بالقاهرة . وتليت فيهِ ثماني محاضرات علمية نفيسة

وعلى ذكر هذا المؤتمر نقول ان كتابهُ السنوي الثالث قد خرج من المطبعة وهو في ٢١٥ صفحة من قطع المقتطف والهلال يحتوي على احدى عشرة محاضرة في موضوعات علمية منوّعة اولاها محاضرة الرآسة لحضرة صاحب السعادة الدكتور محمد شاهين باشا وموضوعها « رسالة رجل الصحة للعالم » واخرى للدكتور علي باشا ابراهيم مدير الجامعة بالنيابة وعميد كلية الطب في « التعليم الطبي بمصر » جاء فيهِ على تاريخ مدرسة قصر العيني وتقدمها . ويلي ذلك محاضرة شائقة للدكتور حسن صادق بك مدير ادارة المناجم والمحاجر وموضوعها « التفسير العلمي للمناظر الطبيعية في مصر » . ثم محاضرة للدكتور مشرّفة موضوعها « الاعداد العلمي ومستقبل النشء » . فمحاضرة في « الالكترون والبروتون ومكتشفيهما » للاستاذ فؤاد صرّوف رئيس تحرير المقتطف . فمحاضرة في « التأمين على صحة الطفل » للدكتور شخاشيري . فمحاضرة موضوعها « العلاج وتقدمهُ في خلال العصور » للدكتور جورجي صبحي الاستاذ بكلية الطب . ثم بحث بيولوجي لغوي في « النوع وتصنيف الاحياء » للاستاذ اسماعيل مظهر . وآخر في « السدم » وما يعرف عنها للدكتور محمد رضا مدور الفلكي المقيم بمرصد حلوان . ثم فصل في « الصناعات والعلوم » للدكتور احمد زكي استاذ الكيمياء في كلية العلوم فبحثٌ مبتكرٌ في « خبز الذرة والحلبة » للدكتور علي حسن الاستاذ المساعد للفسيولوجيا في كلية الطب

ولا ريب عندنا ان هذا المجمع يؤدي خدمة كبيرة للثقافة العلمية العربية بالقاء امثال هذه المحاضرات ونشرها في كتب سنوية متقنة الطبع سهلة الاقتناء . وبعض هذه المحاضرات سوف يكون في المستقبل ، اذ نراجع تاريخ نهضتنا ، اعلاماً في طريقها . فالمحاضرات الصحية النفيسة التي اعدّها الدكتور شاهين باشا والدكتور علي باشا ابرهيم والدكتور محمد خليل عبد الخالق بك تبين الخطوات التي تخطوها مصر في سبيل ترقية التعليم الطبيّ والاصلاح الصحي .

والمحاضرات الهندسية التي القاها حسين سرّي بك والدكتور عبد العزيز احمد بك والدكتور حسن زكي تفعل ذلك من الناحية الهندسية . وكلها بوجه الاجمال تضيف الى ثروة اللغة العربية في اللفظ العلمي ولا بدّ ان تكون في المستقبل مصدراً من مصادر المعجم العلمي العربي

الضحايا

مجموعة اقاصيص — بقلم حبيب جاماتي — مطبعة مصطفى البابي الحلبي صفحاته ٢٩٠ — قطع وسط

اجاد الاستاذ خليل مطران اذ قال في المقدمة: «فاما العرب فقد آثروا بحكم طباعهم سوق كل نبإ على التجريد لا يعدون لباب الخبر ، ولا يتناولون من صفة الاشخاص سوى ما يعلق لزاماً بذلك اللباب . فعلوا ذلك باجادة انشائية لا تضارع وايجاز في السرد يكاد يكون غاية في الايجاز ، ولم يقدروا للمطالع حاجة الى الوقوف على غير الجوهر او صبراً على تبسط .... واما الفرنجة فهم يصفون في الاقصوصة بالكلمة العاجلة ما يهيىء للقارىء الزمان والمكان ، ويبيتون بالعبارات السريعة مقوّمات كل شخص ومميزاته ، ويكدّون الذهن في تصوير النوازع النفسية والخلجات الوجدانية ، ويدخلون الحوار ، وان لم ينفسح الاّ لاقله ، ليقذف في روعك انك بمشهد ومسمع ممن تقرأ سيرتهم . » ويرى ان المؤلف توسط بين منحى العرب ومنحى الفرنجة «فانتقى من الانباء المشهودة او المنقولة عن التاريخ ما فيه مظنة عبرة .. لا يريد بالخبر الذي يحكيه لك الخبر بذاته بل بكل ما يحيط به من صور وذكريات وامور لها خطرها وموقعها المتمم الغرض المقصود

ولا ريب في ان المؤلف موهوب في سرد القصص بارع في ايراد الحوار ، سليم اللغة نقيّها في قليل من التبذّل اللفظي وهو مما لا غنى عنهُ لكاتب يعالج تحبير المقالات للصحف كلّ يوم . على ان المجال الذي اختارهُ لقصص هذا الكتاب يتنازع صاحبهُ بين الامانة للتاريخ والاخلاص للفن . ومن النادر بين كبار الروائيين من بلغ الغاية في حسن الجمع بين الاثنين . اما « مظنة العبرة » غرض المؤلف او « تغذية العقول بالوان الطرائف » . فنقول ان المؤلف اجاد في تحقيق هذا الغرض . ولكن بعض القصص التي قرأناها شوهتها رغبتهُ في استخلاص العبرة مع ان القصة نفسها يجب ان تكون العبرة المطلوبة . فقصة « خليلة الشاعر » لا تحتاج الى اي تفسير بقوله «هذا ما فعلهُ الشاعر الخ» لانها تبلغ عندما يبلّ الشاعر حلق عدوه الظامىء ذروة لا تحتمل كلمة بعدها

الانشاء التعليمي

وضع هذا الكتاب الاستاذان الفاضلان محمد شفيق معروف ومحمد عبد الغني الاشقر وهما مدرسان بالمدارس الاميرية وجملاه وفقاً لاحدث منهج اقرّته وزارة المعارف العمومية للمدارس الاولية والابتدائية وبين يدينا الجزء الثاني منه وهو كتاب مفيد في بابه اقتبس احدث ما وصل اليه التعليم في اللغات الافرنجية وقد طبع طبعاً متقناً على ورق جيد في المطبعة السلفية بمصر فنوجّه اليهِ انظار التلاميذ لينتفعوا باسلوبه وموضوعاته وثمنه خمسون مليماً

علم استخلاص المعادن

تأليف المهندسين يوسف العارف وحسن حسني عبد الخالق وعثمان عبدالله صفحاته ٢٧٢ قطع المقتطف
طبع بالمطبعة الحديثة بمصر — ثمنه ١٨ غرشاً

استعمل البشر المعادن اولاً لصنع ادواتهم واسلحتهم ولكنهم لم يكثروا من استعمالها الاَّ بعد الثورة الصناعية التي حدثت في انكلترا وما عقبها من التوسع في استعمال الآلات في المناجم ومعامل الغزل والنسج وبناء السفن والقطارات . ولا ريب في ان نجاح الثورة الصناعية في انكلترا انما يعود في المقام الاول الى وجود المعادن الضرورية فيها كالحديد والفحم جنباً الى جنب. فلما استنبط بسمر طريقة جديدة لصنع الصلب بعث في الصناعة الانكليزية حياة جديدة ثم اقبل الالمان على الاساليب الصناعية المستحدثة واجمع رجال السياسة والصناعة والحرب منهم على تثمير مناجم الالزاس واللورين . ثم استنبطت الاخلاط المعدنية وتعددت وخصوصاً الاخلاط الحديدية وكلٌّ منها يمتاز بصفات تختلف باختلاف المعدن الذي يخلط بالحديد. وكذلك اصبح رجال الصناعة والحرب يحتاجون الى القناديوم والتنجستن والمولبدنوم والالومنيوم والكروم والكوبلت والنيكل وغيرها بعد ما كان استعمال هذه العناصر محصوراً في المختبرات العلمية . واعتماد الصناعة على الاخلاط الحديدية المختلفة كان فاتحة عصر جديد في الصناعة والحرب.

وكانت حدود البلدان في العصور الغابرة تعيَّن وفق مقتضيات الزراعة ولكنها لم ترتبط بتوزيع الثروة المعدنية . والثروة المعدنية اصبحت في هذا العصر لامندوحة عنها لنجاح الصناعات في اثناء السلم ولتجهيز الامم بادوات القتال في اثناء الحرب فلا بد من تعديل الحدود واقامتها على هذا الاساس الى حدٍّ ما

هذه كلمة تبين ما للمعادن من المقام في العمران الحديث في حالي السلم والحرب. والكتاب الذي بين ايدينا يبسط من الوجهتين العلمية والعملية الطرق الحديثة في استخلاص المعادن. ففي الفصلين الاول والثاني كلام عام في خصائص المعادن كالصلابة وقابلية الصهر والمدّ (الاستطالة كما ذكرها المؤلفون) والطرق والتطاير وغيرها وتفسير بعض المصطلحات المستعملة في استخلاص المعادن كانواع المعدن (البكر والنغل) وانواع الافران (او الاتاتين) والخبث والمشاشة وغيرها من صفات المعادن . ويلي ذلك تسعة فصول في استخلاص الحديد والصلب على انواعهما وقد خصصوا الجزء الاكبر من الكتاب للحديد ومستخرجاته « لما له من الشأن في عالم الصناعة في العصر الحاضر الذي اطلق عليه بحق عصر الحديد » . اما الفصول الباقية وعددها احد عشر فصلاً فتتناول النحاس والزنك والقصدير والرصاص والفضة والذهب والنيكل والالومنيوم والكروم والمنغنيز الانتيمون والمغنزيوم والبلاتين. اما ومصر سائرة في سبيل انهاض الصناعات من كبوتها واقامتها على اساس علمي عملي حديث فهذا الكتاب يصبح له شأن خاص في توجيه الانظار الى الاركان الصناعية . ونرى ان المؤلفين مصيبون في قولهم ان مايلتمسهُ البعض من المعاذير لسقوط الصناعة في مصر خطأ ظاهر وان الامر لايقتضي الاَّ عقولاً مفكرة وعزائم ماضية

أغاني أبي شادي

اخرج الدكتور أبو شادي كتاباً جامعاً فيه من شعره كل ماراه جديراً بالتلحين منسجماً مع موسيقي التنغيم حتى تألفهُ الأذن وترضاه العاطفة فتذهب كل مقطوعاته أو بعضها في عالم الغناء إلى مدى ما يرضاه هو أو يرضاه لها الأدباء وغير الأدباء من عامة المثقفين

والشاعر جريء في هذه الحملة الشعواء التي حمل بها على الأغاني الدارجة التي ألفها الشعب والتي لا يريد أن يألف غيرها قبل نضوج فكري يستغرق منه تهذيباً عميقاً ذلك لأن الطبع المصري من طراز الطبع السامي لا يرتاح إلى التفكير العميق في التماس أسباب المرح والمتعة وإنما يريد أن يستشفها في حياته كما لو كانت من وراء زجاجة وهو في ذلك على نقيض الطبع الآري الذي منه الاوربي والفارسي والهندي

ولعل أول ما يحس ، القارىء الأديب في هذه الأغاني روعة الابهام الرمزي الذي يتغلغل فيها ، وترف ألفاظها التي تحمل أخيلتها إلى القارىء « المتأمل » على أجنحة هفافة لا يكون حظ الفكر منها بأسعد من حظ الخيال نفسه ! والابهام الرمزي في ذاته جمال رائع بل هو في عرف أفذاذ الناقدين« برادباى » و«لي هنت» العنصر الأول في الاسلوب . وتجد امثلة كثيرةفي الأغاني يشع منها نور الابهامالرمزي فاقرأ مثلاً «أغنيةاللهيب المقدس »وفيها يقول

قد رشفنا مُنى الحياة بثغر وارتوينا من اللهيب المقدس

وهذه الاغنية هي أول ما صادفني من شعر الديوان وقد أحسست بشعور غريب وأنا أقرؤها . . فقد خيّل إلى انني في مدينة سحرية سنمدن الخيال . . من مدن الشفق اوالفجر أو انني فيمعبد بوذا ألمح لهيب الآلهة المقدس وقدحجّبه الضباب

كان هذا شعوري الخاص وأنا أتلو هذه « الصلاة » وهو شعور الفن المثقف وليس شعور العاطفة الساذجة التي تريد أن (١) تشعر ثم (٢) تغنّي .. لا أن (١) تفكر (٢) ثم تشعر (٣) ثم تغنّي ! . فالفلاح لا يعرف شيئاً من مدن الشفق او الفجر .. والفلاح لم يقرأ شيئاً عن معبد بوذا وكل ما رآهُ الفلاح في عالم السحر والخيال هو لهيب « ابو شعلة » وهو الشيطان الذي يخلقه في وهمه ليخيف به صغاره ! ؟ . ولست اكذبك أيها القارىء انني شعرت بلذة لاتعدلها لذة وأنا أقرأ هذه الانشودة وقلت في نفسي أما كان الأحرى بالدكتور أبي شادي أن يطلق على كتابه « أغاني وصلوات » بدلاً من «أغاني» فقط ! !

وهناك امثلة أخرى كثيرة من هذا النوع في الكتاب وحسبك ان تقرأ قبلة البرتقال وفيها يقول

عشقَتْ عصير البرتقال فذهَّبت بعصيره الناريِّ من شفتيها
ورشفتُ أخرى بعد أن جادت بها فاستفت حلو غرامها بيديها

حتى إذا لم تبق منها نفحة وظللت كالظمآن عاد اليها
جادت عليَّ بقبلة معسولة جمعت شهيَّ الخمر من حلويها
فغنمت خمر البرتقال بثغرها وغنمت خمر الحب من شفتيها

ولكنني آخذ على الدكتور اشياء كان يجدر به أن يراعيها وهو إهمال التروّي في بعض الصور الشعرية مثال ذلك قوله

رحلت عنك رحيل الطيب عن زهر يودي به البعد لولا حبك الداني

فقد شبه نفسه بالعطر وشبه حبيبتهُ بالزهر وفي هذا التشبيه غرابة لو تروّى فيهِ قليلاً

وقوله: وبخلت حتى بالعناق لعلني أمضي الضحية في سرور الواعي

كأن وراء العناق غاية وهي كما يراها ابن الرومي ونراها نحن غاية الغايات وفي ذلك يقول ابن الرومي

أعانقها والنفس بعد مشوقة اليها .. وهل بعد العناق تدانِ

والدكتور ابو شادي يجعله في الشطر الاول كأنهُ شيء تافه فيؤنبها لانها بخيلة «حتى بالعناق»

وقوله: تتلاقى الشفاه وهي ظماءٌ ثم تظما على ارتواء وتنعس

وأنا أظن أنه لو غيرنا بعض ألفاظ البيت بألفاظ أخرى لجاء البيت رائعاً . فيمكننا أن نقول

تتلاقى الارواح وهي ظماء ثم تروى فوق الشفاه وتنعس

وفي الختام نقول إن الدكتور قد اضاف إلى مجهوداته الفنية آية جديدة

م . ع . الهمشري

الظمأ

مجموعة اشعار — الدكتور علي الناصر — مطبعة المعارف حلب

مقطوعات شعرية طيبة ارسلها صاحبها حرة طليقة بكل معنى كلمتي الحرية والانطلاق فهي مرة في صورة ما يسمونه الشعر المنثور ومرات اخر في انماط مستحدثة من الشعر المنظوم ولكنها جميعاً ملتقية في عدم التقيد بأي قيد او اي اعتبار لذلك يحسن بقارئها ان لا يستعجل الحكم على الشاعر وان لا يأخذه الا بالرفق والتأني ، اما التأني فلأن هذا النوع من الشعر لا يزال جديداً على اسماعنا التي الفت القوافي العربية الصقيلة ولم تتعود بعد إلا النغم المطرد المتناسق واما الرفق فهذا نحتاج اليه عند النظر الى الصيغ والعبارات أو الى الالفاظ التي ربما نرى الشاعر فيها قد خرج قليلاً عن المألوف في القواعد التقليدية كقوله (بقوعي) بدلاً عن بقاعي الى غير ذلك من هذه الاشباه . أجل نحتاج الى الرفق بالشاعر في مثل هذه الملاحظات لاننا نعلم مقدار ما يعانيه هذا الشاعر وأمثاله المسرفون في التجديد في سبيل تطويع اللغة العربية تطويعاً يتفق وما يريدونهُ من المعاني والاغراض ثم يتفق مع النغم الذي يختارونه قوالب لهذه

المعاني والاغراض . وأخيراً لاجل ان ننصف هذا الشاعر ولأجل ان تتابعه باطمئنان يحسن بك أن تسمع ما قاله الفيلسوف امين الريحاني في تقديم هذا الديوان: قال وان افق شعره ليحيط بنزعات متعددة متباينة وبأساليب هي عنوان الفتوة متنوعة البذور فيها زاهر وفيها ما لا يزال في البراعم والاكمام. ولعمر الحق ان هذا الادق وصف ينطبق الآن على شعر هذا الشاعر الطبيب

شرح بشارة يوحنا

وهو الجزء الرابع من كتاب « المرشد الامين في شرح الانجيل المبين » تأليف القس ابرهيم سعيد استاذ علم التفسير بمدرسة اللاهوت ، وفيه ٨٦٠ صفحة . وقد استعان المؤلف في كتابته بنحو عشرين كتاباً اكثرها باللغة الانكليزية . ذكرها في صفحة ٨٦١

والمؤلف يستعمل تارة لفظة «شرح» وتارة كلمة «تفسير» كما في ص ٢٥ — عنوان الاصحاح الاول . هنا يستعمل كلمة «تفسير». كذلك في ص ٨٦١ يقول: استعان بها المؤلف في تفسيره

فيظهر انه يعتبر تأليفه شرحاً تفسيريًّا . وللتفسير مذاهب . منها المذهب الحرفي، وهو الذي يفهم بعبارات الكتاب مدلولها الحرفي . فاذا قال الكتاب . ان الله خلق العالم في ستة ايام . فهم بذلك ، ستة ايام عادية ، في كل يوم ٢٤ ساعة . والمذهب الروحي . وهو الذي يعتبر المبدأ الروحي في الكتاب ويطبق العبارات عليه . والمذهب الرمزي وهذا قد تبعه بعض الاباء في الاجيال الوسطى. ومنها المذهب النقدي او الانتقادي . وعليه كثيرون من علماء الالمان . والمذهب اللغوي التاريخي وهو الذي يؤيده الدكتور جيمس انس المعروف في سوريا واميركا . ولكن حضرة المؤلف اجتنب كل ذلك ونهج نهجاً سهلاً متواضعاً جيلاً . فشرح الكتاب شرحاً تفسيريًّا — وبالاحرى وعظيًّا . اورد في كل موضوع الآراء التي يراها فيه بصورة اقسام وعظية . واليك بعض الامثلة

جاء في ص ٢٦ عن ديباجة البشارة . تتضمن هذه الديباجة اربعة افكار رئيسية

١ — الكلمة في جلاله ٢ — الكلمة في ظهوره ٣ — الكلمة المرفوض ٤ — الكلمة المقبول

وانت ترى انها اقسام عظة موضوعية ثم قال في القسم الاول . الكلمة في جلاله

١ — الكلمة في جلاله الذاتي ٢ — الكلمة في جلاله النسبي

وهما قسما عظة ايضاً

وقال في شرح القول : والظلمة لم تدركه . تفيد كلمة (لم تدركه) اربع درجات متتابعة

١ — عدم الاكتراث لوجود النور ٢ — عدم فهم النور ومرة ٣ — عدم البلوغ والوصول الى النور لنيله ٤ — عدم الانتصار على النور والعجز عن الظفر به

وجاء في شرحه ص ١٥ : مثل الكرمة : يتضمن هذا الجزء ثلاثة افكار رئيسية

١ — مقام التلاميذ من المسيح ٢ — موقف العالم تجاه التلاميذ ٣ — التضمنة على العالم

ويجوز ان ننظر الى هذا الجزء نظرتنا الى جعبة فيها سبعة سهام نورانية

(١) التلاميذ والمسيح (٢) التلاميذ وبعضهم ازاء بعض (٣) التلاميذ والعالم (٤) العالم والمعزّي (٥) المعزّي والتلاميذ (٦) حزن يستحيل الى فرح (٧) نصرة بعد كسرة

وقال في شرح المحبة :ص ١٢ — ١٧

(١) محبة مضحية بنفسها (٢) محبة رافعة (٣) محبة لها فضل التقدُّم

وأنت ترى ان كل ذلك ترتيب مواعظ . فكأنك تجتاز في حديقة مواعظ كلها طرائف ازهار وعوابق رياحين . ترتاح اليها النفس ويستفيد منها محب المؤلف وهي مطابقة لروح الكتاب وغرضه ، وتدل على اخلاص المؤلف وسعة اطلاعهِ ***

جلفر

تأليف جوناثان سوفت — نقله كامل كيلاني — طبعته ونشرته مكتبة المعارف

نعرف والداً من سراة القوم شديد العناية بتعليم ابنهِ اللغة العربية من نعومة اظفارهِ ، ولكنهُ لا ينفكُّ يشكو لنا عجزهُ عن وجود كتب عربية وافية للاحداث يقرأونها فتغريهم بالاقبال والاستزادة لطرافة في موضوعاتها وجودة في طبعها وسلاسة في اسلوبها . فاهدينا اليهِ بعض القصص التي اخرجها ناقل هذا الكتاب فسرَّ بها الولد ولكنهُ كان قد تخطَّاها فظلت مسألة ما يمكن ان يقرأهُ بالعربية مشكلة معقَّدة حتى ظهر كتاب «جلفر» هذا . واتفق انهُ يوم وصولهِ الينا زارنا صديقنا المذكور فقلنا لهُ ها ضالتك المنشودة . فتهلَّلت اساريرهُ اذ رأى الكتاب . وهو مَن قرأ جلفر باللغة الانكليزية ، وعرف مقامهُ في ما يسمونهُ « بادب الاحداث » Childrin's Literature في انكلترا وذهب من ساعتهِ يقتني لابنهُ نسخة منهُ

ولسنا نملك الآن نسخة انكليزية من رحلات جلفر لنتمكن من الموازنة بين الترجمة والاصل وهل الترجمة ادبية دقيقة او هي من قبيل نقل ما فيها من الافكار والآراء والحوادث فقط . ولكن سواءٌ أكانت ترجمة كيلاني ترجمة حرفية او غير حرفية فلا ريب عندنا في ان هذا الكتاب من خير ما يقرأهُ الاحداث . وحبذا الحال لو عني المؤلف باستخراج كتاب على نسق « جلفر » من رحلات الروّاد المحدثين . فاوهام سوفت ومخترعاته في « جلفر » تحلُّ محلَّها حقائق الريادة الحديثة وغرائبها، وإقدام الروّاد وتفانيهم في الكتاب الذي نقترحهُ، فيكون هذا الكتاب المرجة التي تتلو « جلفر » في سلسلة « أدب الاحداث » . وكل الآباء والمعلمين يشعرون بشديد حاجتنا الى هذه السلسلة المتدرجة مع فهم الاحداث وذوقهم الادبيّ

[المقتطف] سرَّنا ما رأيناهُ من اقبال القرّاء على ما ننشر في هذا الباب من المباحث في المطبوعات الحديثة . فتوسعنا فيهِ جهدنا . ولكنهُ مع ذلك ضاق عن ان يتسع لذكر كل المطبوعات التي اهديت الينا . فوعدنا بها الشهر القادم ان شاء الله

الجزء الرابع من المجلد الثاني والثمانين

صفحة

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الخامس من المجلد الثالث والثمانين

١ ديسمبر سنة ١٩٣٣ — ١٣ شعبان سنة ١٣٥٢

السر أُلفر لدج

Sir Oliver Lodge

مباحثهُ العلمية — الضباب والكهربائية واللاسلكية — فذلكة من ترجمته

عبوره على جسر الاثير من العلم الى الفلسفة والاعتقاد في مخاطبة الارواح

السر أُلفر لدج من أعجب الشخصيات التي تشغل مقاماً عالياً في عالم الفكر الحديث . عالِمٌ طبيعي في الطبقة الاولى بين علماء الطبيعة فهو صاحب مباحث طريفة في صلة الكهربائية بالضباب وفي الوقاية من الصواعق، وركن من الاركان التي قامت عليها المباحث والمستنبطات اللاسلكية. انهُ ندُّ هرتز وممهد السبيل لماركوني . ثم هو يجمع بين العلم والفلسفة . لا يكتفي بالتجربة والمشاهدة ، وانما يبني على التجربة والمشاهدة نظرات فلسفية ، تدور حول الاثير ومكانهِ في الكون والحياة . كان من اوائل العلماء الذين رحّبوا بالفتوحات الجديدة في علم الطبيعة بدراسة الالكترون ومنبثقات الراديوم وظواهر الاشعاع . ومع ذلك ما يزال السر ألفر لدج ، من العلماء القلائل ، الذين لم ينبذوا الاثير ، بعد ما اثبت مذهب النسبية ان لا حاجة بالعلم اليهِ. فهو ما زال يقول ان الاثير ضروري لتفسير بعض الظاهرات الاساسية في الطبيعة والحياة والعقل

هذا الرجل الذي اكتشف واستنبط وعلّم وألّف عشرات الكتب ، اتصل من طريق [illegible] في الاثير ، الى العالم الكائن من وراء الحس . فآمن ببقاء الشخصية بعد الموت. وبامكان [illegible] الارواح . واتصل مخاطباً روح ابنهِ ريموند الذي قُتل في الحرب الكبرى ووضع في ذلك [illegible] وما يزال حتى الساعة مرجعاً للباحثين في مناجاة الارواح ولكنهُ منزهٌ عما [illegible] عما يرمون بهِ جميعاً من الخداع

— ١ —

نحن في يوم من ايام دسمبر سنة ١٩٠٤ والضباب في مدينة برمنغهام الانكليزية ملبّد لا تكاد ترى يدك اذا مددتها . في صحن الجامعة وقف رجل مديد القامة ، وقور الطلعة ، يفحص اسلاكاً من صنف معيَّن . ثم سمعت لعلعةٌ على مقربة من الرجل ، كانت ايذاناً بقفز شرارة كهربائية من قطب الى قطب . واذا بالضباب الكثيف تقلُّ كثافتهُ . وليس هناك ريح تدفعهُ امامها . واذا بمباني الجامعة تبدو في الضباب اللطيف كالاشباح تنجلي رويداً رويداً ، على لوحة فوتغرافيه في حوض التحميض . تحوَّل الضباب الى غيم ، والغيم الى سحاب . واذا الجوُّ في صحن الجامعة صافٍ خالٍ من الشوائب ، يحيط به الضباب من كل جانب . ثم فُصِل السلك الذي احدث الشرر الكهربائي،فبدأ الضباب يرتدُّ الى الصحن،كأنه جيش يعيد الكرة على معقل أُخذ منهُ عنوةً ، ولكنهُ يبغي ان يحتلَّهُ ثانيةً

بعيد ذلك بأيام ، اعيدت التجربة نفسها في مدينة لفربول ، فتمكن السر الِفر لدج ، مدير جامعة برمنغهام من ان يبدّد بشرره الكهربائي الضباب الكثيف من بقعةٍ طولها نحو ستين قدماً وعرضها نحو ستين قدماً وعلوّها نحو ستين قدماً

***

كان الضباب ولا يزال من اعدى عداة الانسان في السفر ، برّاً وبحراً وهواء . فالضباب اذا تكاثف في مدينة منشستر وضواحيها، شلّت حركة المواصلات،لان القطارات والتراموايات تعجز عن السير خوفاً من الاصطدام. او اذا هي سارت زحفت زحفاً . والبواخر اذا اكتنفها الضباب خففت سرعة سيرها ونفخت بصفاراتها تنبيهاً للبواخر التي لا تستطيع رؤيتها مع قربها منها. وكم ذهبت طيارة وكم راح بلون ضحية الضباب الكثيف،اصطداماً بجبل قريب لم يرَ ، او ببرج عالٍ او بناية شاهقة. لذلك عني العلماء بدرس هذه الظاهرة الجوية والبحث في الاسباب الوافية لمكافحتها والتغلُّب عليها . والوسائل العملية تنجب في الغالب من المباحث النظرية . ففي سنة ١٨٧٠ ابان الاستاذ تندل العالم الانكليزي ان الجوّ الذي يحيط بقضيب حام من الحديد يكون خالياً من الغبار. فظُنّ اولاً ان حرارة القضيب تحرق دقائق الغبار في الهواء الملاصق لهُ . وقيل كذلك ان تيارات الهواء الساخنة المنطلقة من جوار القضيب تطرد الغبار. ولكن لدج اثبت سنة ١٨٨٣ ان هذه المظاهر لاتفسَّر باحد التفسيرين المتقدمين . بل يمكن تفسيرها بفعل كهربائي. ولاقامة الدليل العملي على صدق نظره قام بالتجربة التي تقدم وصفها،فاثبت انك اذا كهربت ضباباً رسبت الدقائق التي تكوَّنت عليها قطيرات الماء الى الارض وتبدّد الضباب

كان لدج من ايام الدراسة قد وجّه عناية خاصة الى الظواهر الجوية ، وبوجهٍ خاص ما كان متصلاً منها بالكهربائية. وكتب سنة ١٨٩٢ كتاباً في الموضوع جعل عنوانه «موصلات

البرق ووقاياته» . كان القضيب الواقي من الصواعق، المعروف بقضيب الصاعقة قد اقيم اولاً في اميركا . استنبطهُ بنيامين فرنكلن العالم والسياسي الاميركي، سنة ١٧٥٢. وقضيب الصاعقة يصنع عادةً من حديد او نحاس ، محدَّد الرأس ، ومتصل بلوح معدني بالارض الرطبة . فاذا اقتربت من البناء الذي اقيم عليهِ القضيب، غيمةٌ مشحونة كهربائية استنفد القضيب المحدد كهربائيتها رويداً رويداً. فاذا تعذَّر ذلك وانطلق الشرر الكهربائي من غيمة مشحونة كهربائية موجبة الى غيمة مشحونة كهربائية سالبة ، تلقى القضيب الشرر دون البناء واوصله الى الارض فيوقى البناء كذلك ضرر الصاعقة. وذاع استعمال قضيب الصاعقة على ابراج الكنائس ومداخن المعامل وغيرها من المباني العالية . ظنًّا انهُ يقي هذه المباني وقاية تامةً من الصواعق. ولكن الوقاية لم تكن تامة . لان الصواعق انقضَّت على بعض المباني رغم قضبان الصواعق التي اقيمت عليها . فانقلب رأي الناس في فائدة قضيب الصاعقة ، وعندئذٍ بدأ السر اولِفَر لدج يعالج الموضوع . ولما كان الموضوع لا يهمنا كثيراً في هذه البلاد ، رأيت ان اكتفي بالاشارة اليهِ . وقد كان من اثر مباحث لدج ان حسَّن قضيب الصاعقة حتى يفي بالغرض منهُ وفاءً تامًّا ، وجنت ادارة البريد البريطاني من مباحثهِ هذه وتجاربه ، فائدة كبيرة في وقاية اعمدة التلغراف والتلفون واسلاكهما

—٢—

كانت مباحثهُ في البرق والصواعق والوقاية منها ، مما استرعى نظرهُ للبحث في الامواج اللاسلكية . ولعلَّ القول بان السر اﻟﭭر لدج من الاركان الذين قامت على مباحثهم المستنبطات اللاسلكية الحديثة ، يثير عن بعض القرَّاء الدهشة . وقد شهد لهُ بذلك هرتز قال :—

بحث الاستاذ الِفر لدج في لفربول نظرية موصلات البروق . فقام في هذا الصدد بتجارب في تفريغ مكثفات صغيرة قادتهُ الى مشاهدة اهتزازاتٍ وامواجٍ متردّدة . ولما كان لدج يسلم بآراء مكسوِل ويسعى لاثباتها او نفيها ، فليس ثمة اي ريبٍ في اني لو لم اسبقهُ لكان في امكانهِ الحصول على امواج في الهواء وفي اقامة الدليل على انتقال القوة الكهربائية

وقد قال السر الِفر نفسهُ في هذا الصدد ما يلي . بعد ما اشار الى نظرية مكسوِل الرياضية الخاصة بطبيعة الضوء الكهربائية المغناطيسية وبان امواج الكهربائية تسير بسرعة الضوء :—

هذا الاكتشاف العظيم حرَّك فينا نحن ، الذين كنا في مستقبل العمر شوقاً شديداً الى البحث والتحري . واتذكر انني تباحثت فيهِ مع من نحترمهُ كلنا الآن جيمس فلمنج وذلك سنة ١٨٧١ و ١٨٧٢ وكنا نتلقى العلم معاً . وبعد سنة او سنتين درست كتاب مكسوِل في هيدلبرج وعزمت من ذلك الوقت على توليد الامواج الكهربائية التي قال عنها مكسول وعلى ايجاد طريقة للشعور بها (وهذا بمثابة الارسال والالتقاط في اللاسلكي الحديث) ... وتكلمت

انا في هذا الموضوع في المجمع البريطاني سنة ١٨٧٩ و ١٨٨٠ وفي جمعية دبلن الملكية سنة ١٨٨٢ .... وكان رأي فتزجرالد (وهو من اعلم اهل زمانه حينئذٍ) «ان توليد الاضطرابات الموجية في الاثير بواسطة القوى الكهربائية غير ممكن» . ثم اصلح فتزجرالد خطأه وحذف كلمة « غير» من عباراتهِ المتقدمة . وبيَّن سنة ١٨٨٣ كيف يمكن ان تولد هذه الامواج ... ولو استطعنا حينئذٍ ان نصنع آلة تلتقط الأمواج الكهربائية لوصلنا الى التلغراف اللاسلكي»

وتفصيل مباحثهِ في هذه الناحية والرسائل التي القاها ونشرها في الموضوع يحتاج الى اسهاب لا يتسع لهُ هذا الفصل . وانما لابدَّ من الاشارة الى ان لدج هو الذي اكتشف الرابط Coherer وهو جزء كان لا بدَّ منهُ في آلة الالتقاط اللاسلكية. فقد لاحظ لدج سنة ١٨٨٩ التصاق الدقائق او تجمُّعها بفعل الكهربائية . وانهُ اذا انقطع التيار تفرقت الدقائق . وكان برانلي الفرنسي قد لاحظ هذه الظاهرة وصنع آلة دعيت «رابطاً» او «مجمّعاً» Coherer ولكنهُ لم يفطن الى فائدتها ، فاستعملها لدج سنة ١٨٩٤ في تبيّن الامواج اللاسلكية المنطلقة في الفضاء من أثر هذه الامواج في برادة الرابط ، بعد ما حسَّنهُ حتى يصير ادقَّ احساساً مما كان. وبعد ذلك بسنة نجح ماركوني في تجاربهِ اللاسلكية الاولى، وتعاون بعيدَها مع لدج في تحسين بعض الاجهزة اللاسلكية . ولما خطب لدج مبيّناً طرفاً من نصيبه في المباحث اللاسلكية الاولى قال : — ودفعاً لكل مظنّةٍ اصرّح انهُ لولا همة السنيور ماركوني ومقدرتهُ واجتهاده ما صار التلغراف اللاسلكي وسيلة من الوسائل التجارية ولا كانت محطاتهُ قد انتشرت في كل الكرة الارضية ولا كان لهُ الشأن الذي لهُ الآن . وقال في الخطبة نفسها : — لما تمكن السنيور ماركوني من نقل حرفٍ S بتلغراف مورس من ارلندا الى اميركا ، نصب علماً في تاريخ البشر يصلح ان يجعل مبدأ تاريخيًّا لما فيهِ من الغرابة والابداع »

—٣—

ولد لُدْج في ١٢ يونيو سنة ١٨٥١ فهو اليوم في الثالثة والثمانين من عمر حافلٍ بالمآثر . وقد كتب اكثر من عشرة كتب بعد ما بلغ السبعين من عمرهِ

كان ابوهُ خزّافاً فبعث بهِ الى مدرسة نيوپورت فظلَّ فيها حتى الرابعة عشرة من العمر ثم ضمّهُ اليهِ في عمل الخزف وكان على وشك ان يصبح خزّافاً لما وقع في يديهِ صدفةً نسخ من مجلة انكليزية تدعى « الميكانيكي القديم » ، ففتحت لهُ باب عالم جديد .فسار في الطريق غير هيّاب. وظلَّ مع ابيهِ سبع سنوات قبلما ادرك هذا ان ابنهُ نابغة علمٍ . فبعث بهِ الى لندن ليصغي الى محاضرات الاستاذ تندل في كلية لندن الجامعة ويتلقى اصول العلم فيها على اساطينهِ . وكان لا يملك الشاب نفقاتهِ فاضطرَّ ان يعطي دروساً خاصة ليتمكن من موالاة الدراسة . وانت تستطيع ان تدرك مبلغ نجاحهِ اذا عرفت انهُ في خلال خمس سنوات بعد الانتظام في ذلك المعهد نال لقب

دكتور في العلوم وتزوج . ولما كان في الثلاثين ، اي تسع سنوات بعد هجرهِ لصناعة الخزف، عيّن استاذاً للطبيعة في جامعة لڤربول . ومنح مدالية رمفرد ، لمباحثهِ في الكهربائية ، فلما عيّن مستشاراً لاحدى الشركات الكهربائية ، طبّق مباحثهُ النظرية تطبيقاً جنت منهُ الشركة فائدة كبيرة . ثم عيّن مديراً لجامعة برمنغهام الجديدة سنة ١٩٠٠ فظلّ في منصبهِ حتى سنة ١٩٢٠ وهناك قام بالتجربة التي وصفناها في مطلع هذا الفصل ، ومن منبرها العام اصبح لدج ، قوة فعالة في نشر العلوم الحديثة ، بالدروس التي كان يلقيها والمقالات والكتب التي كان يؤلفها. وفي سنة ١٩٠٢ منحهُ الملك ادورد السابع رتبة فارس ولقب سر وانتخب عضواً في الجمعية الملكية واختير بعد ذلك رئيساً لمجمع تقدُّم العلوم البريطاني (١٩١٣) ، ورئيساً للجمعية الطبيعية ورئيساً لجمعية المباحث النفسية ورئيساً لجمعية رنتجن

— ٤ —

قلنا في صدر الكلام ، ان لدج مفكّر يجمع بين العلم والفلسفة . وقد كان الاثير الجسر الذي عبر عليهِ من العلم الى الفلسفة ، ثم حلّق بهِ في عالم الارواح

ماذا يملأ الفضاء . وماذا يربط بين الشموس في رحاب الكون . وبين الذرّات واجزاء الذرّات؟ العلوم متجهة الآن الى ان كلّ شيءٍ مؤلف من اجزاءٍ منفصلة بعضها عن بعض . انظر الى القبة الزرقاء في ليلة صافية الاديم ترَ النجوم منثورة في نواحيها . تفصل بينها رحاب شاسعة . اذا اطلقت صاروخاً في الفضاء كان احتمال اصابتك احد الكواكب بهِ بعيداً جدًّا . وهو مثل احتمال اصابتك طائراً اذا اطلقت بندقيتك عفواً او اعتباطاً في الهواء . فالرحاب التي تفصل بين النجوم والسدم عظيمة جدًّا

ولكن ما قولك في خشب هذه المائدة . وزجاج هذا المصباح . وقماش هذا الطربوش؟ أليس الخشب والزجاج والقماش مواد متصلة الاجزاء؟ كلاّ انها ليست متصلة الاجزاء . فهي في تركيبها الاساسي مؤلفة من ذرات العناصر . وذرات العناصر مركبة من كهارب وبروتونات . والكهارب والبروتونات . شحنات كهربائية دقيقة كلّ الدقة . ونسبة بُعد الكهرب عن نواته قد يقابل بنسبة بعد احد السيارات عن الشمس . فالذرة معظمها فراغ . وفي هذا الفراغ الفسيح نترة من الكهربائية هنا ونترة هناك . فالانفصال آية الطبيعة في الاجسام المادية كبيرها وصغيرها على السواء

فلو لم يكن في الكون الاّ المادة . لما وجد رابط يربط بين هذه الاجزاء المنتشرة . واذاً لكان الكون خواء (Chaos) تامًّا

ولكننا نعلم ان النجوم ليست مستقلةّ احداها عن الاخرى . فهي تنتظم مجموعات شمسية هنا . ومجموعات ثنائية هناك . وعناقيد نجمية هنالك . فثمة رابط يربط بينها . يدعى

الجاذبية . ولو لم نعلم ما هو هذا الرابط على حقيقتهِ . واذاً فالفضاء بينها لا يمكن ان يكون فراغاً

وما يصحُّ على النجوم ورحاب الفضاء يصح على الاجسام المادية . فالجزيئات والذرات . والالكترونات والبروتونات تتجمع وتتلاصق . فالجسم الجامد لهُ حجم معيَّن وشكل معيَّن. فاذا كان بلورة رأينا في تنسيق سطوحها جمالاً ونظاماً . ومهما تبلغ الفسحات بين الجزيئات والذرات لا بدَّ ان تكون مملوءة بشيء يربط بين دقائق المادة . ويجب ان يكون هذا الشيء متصلاً

قد نختلف في الاسم الذي نطلقهُ عليهِ . فندعوه آناً بالاثير . وآناً بالفضاء المطلق . وآناً «بالحيز الكوني الزمني المستمر» Space-time Continuum كما يدعى في مذهب اصحاب النسبية . ولكن لا ريب في اننا نحتاج الى شيء يتصف بهذه الصفة الاساسية التي لا نعرف من دونها سبيلاً الى فهم الكون الطبيعي فهماً متسقاً

كذلك يقول لدج

وللاثير صفات اخرى اهمها انهُ لا يرى ولا يشمُّ ولا يسمع ولا يلمس . وانما يستطاع تموجهُ ، والانسان يستطيع ان يحسَّ ببعض تموُّجاته . فهو ناقل للضوء . لا يعيقه من المرور كما تعيقهُ المادة . فوظيفتهُ الاولى اذاً ان يكون رابطاً بين دقائق المادة . ووظيفتهُ الثانية ان يكون وسطاً لنقل امواج الطاقة على اختلافها من الاشعة الكونية البالغة حدًّا متناهياً من القصر ، الى الاشعة اللاسلكية التي تبلغ موجتها أحياناً عشرين كيلو متراً او تزيد

ثم ان الأثير لا يتحوَّل ، ولا ينحلُّ ، شديد الصلابة ولكن المادة تتحرك فيهِ ولا تجد أقل معارضة من فرك او لزوجة

فالاثير ليس مادة بالذات لكنهُ ماديٌّ

وهو اداة الاتصال الكبرى . وقد يكون اكثر من ذلك . لان بدونهِ لا يكون للعالم المادي وجود . ومهما تكن الحال فلا شبهة في لزومهِ للاتصال لانه يشغل كل المسافات التي بين دقائق المادة ويوصل بينها . واذا كان في الامكان وجود المادة من دونهِ فتكون اجزاءً متفرقة. هو الصلة بين العوالم والدقائق . ومع ذلك فقد ينكر الناس وجوده لأنهم لا يشعرون بهِ بحاسة من حواسهم ، إلاَّ بالبصر اذا يتموَّج

— ٥ —

اذا خرجنا من ميدان البحث العلمي البحت، جابهنا السؤال الآتي: هل للاثير صلة بالحياة؟

نحن نعلم ان المادة لها شكلان شكل جامد خالٍ من الحياة ، كالجوامد والسوائل والغازات والكهارب والبروتونات . وشكل آخر يعرف بالشكل العضوي وهي فيه جزيئات كبيرة معقدة التركيب تعرف بالبروتوبلازم . والبروتوبلازم هو آلة الحياة . فبعض اشكال المادة حيٌّ والحياة لغز لم ينفذ الى سره بعد . فنحن لا نعلم ما الحياة . وانما نشاهد ما تفعله الحياة . انها

تؤثر في المادة ، وتتخذ اشكالاً مختلفة من المادة وتنتقل من السلف الى الخلف . فالحياة قد تتخذ شجرة البلوط شكلاً تظهر فيهِ.وحياة شجرة البلوط تنتقل الى شجرة اخرى من البلوط. اوقد تتخذ الحياة العصفور شكلاً تظهر فيهِ،او سمكة او دودة واشكال الاحياء كثيرة لا تحصى

ففي مرحلة معينة من مراحل الحياة ينبثق العقل في هذه المادة الحية التي ندعوها البروتوبلازم. واذاً فالعقل والحياة قد اثرا في المادة . اننا لا نعرف ما هما. وانما ندرس مظاهرهما. انهما يستعملان المادة مدة ثم يختفيان . يقول لدج يختفيان لا يتلاشيان قصداً. انهما يزولان من حيز معرفتنا نحن . ولكن من يستطيع ان يقول انهما يزولان من الوجود حتماً . وكل ما نستطيع ان نقوله انهما يؤثران في المادة تأثيراً وقتياً

ولكن هل تؤثر الحياة ، والعقل في المادة فقط ، دون الاثير الذي يربط بين دقائقها ؟ هل تؤثر الحياة في الاثير كما تؤثر في المادة ؟ اننا لا نعلم كيف تؤثر الحياة في المادة . وانما نعلم انها تؤثر . ولكننا لا نستطيع ان نثبت انها تؤثر في الاثير . وانما نحن نوجه هذا السؤال الى الباحثين . ثم هناك سؤال اهم من هذا واكثر اشكالاً . في الانسان صفات العقل والشعور والذاكرة والمحبة . وهي صفات لا نستطيع ان نقول بفقدها في الحيوانات العليا . وانما نعلم انها تتجلى في الانسان؟فهل تحتاج هذه الصفات العليا الى اداة تتجلى فيها في العالم المادي ؟ اننا نتبين هذه الصفات اذ تبدو في المادة : فتفعل بالمادة ، تنقلها وتغير اشكالها وتبدل من ترتيبها وتنفخ فيها احياناً معنىً من المعاني . انها تتخذ من دقائق المادة مجلىً لها . فنحن لا نتبينها الاّ اذا ظهرت بهذا المظهر المادي، لان حواسنا مادية

ولكن لا بدَّ من سؤال آخر . هل هذه الصفات النفسية ، تفعل بالمادة فعلاً مباشراً او غير مباشر . هذه مسألة يجب ان تخضع للامتحان والتجربة . لا بدَّ في هذا الفعل من الاتصال . اننا نمسك بحجر وننقله من مكان الى آخر . ولكن الذرات لا تتصل قط . بل بينها فراغ . فاذا اقتربت دقيقتان ماديتان ، احداهما من الاخرى ، تولّت قوى الدفع الفصلَ بينهما . فالكهرب لا يستطيع ان يلمس الكهرب . لانهما متدافعان . فهل يستطيع الكهرب ان يلمس البروتون ؟ لا نعلم . ولكن اذا لمسهُ ، انطلقت شرارة تدلّ على فناء احدهما في الآخر

والواقع اننا اذ نلمس جسماً من الاجسام انما نلمس الاثير. فهو الشيء الذي يملأ كل المسافات بين الاجسام. ولكن اذا كان لمسنا لا يتعدَّى الاثير، لا نستطيع ان نحدث اثراً يحسُّ بهِ صاحبنا او جارنا او محدثنا . لأن حواس الناس لا تستطيع ان تدرك الأثير الاّ اذا تموّج . واذاً فالحياة اذ تفعل بالمادة تفعل بالاثير اولاً فعلاً مباشراً ، وبالمادة ثانية فعلاً غير مباشر

ولذلك يذهب السر اولفر لدج ، الى أن اداة الحياة والعقل ليست المادة ، بل الاثير يقول علماء الحياة انهُ لا بدّ للحياة والعقل من جسم مادي يحملهما . وهذا مسلَّم بهِ .

ولكن هذا الحامل قد لا يلزم ان يكون مادة في شكل من اشكالها المعروفة . بل قد يكون ابسط من المواد المعروفة . فقد يكون شيئاً المادةُ صورة محسوسة من صوره. والاثير عند السر اولفر لدج جسم متجانس فاذا تنوَّع كانت المادة

فالحياة والعقل قد يكونان متصلان بالاثير اتصالاً لا ندركه بحواسنا . واذاً فلا يحق للعلم ان ينفيه نفياً مطلقاً . فالنفي ليس من شؤون العلم . وانما شأنهُ الاثبات . والنفي القاطع اصعب من الاثبات ، لانهُ يقتضي علماً واسعاً محيطاً بكل شيء شاملاً لكل شيء. ونحن نعلم ان فرعاً من العلم قد يغفل شيئاً . ويعتني بهِ فرع آخر . فالفرع الاول لا يستطيع ان ينفي وجود هذا الشيء نفياً قاطعاً . فالكيماويون يغفلون الاثير . وعلماء الطبيعة يغفلون الاحياء . وعلماء الحياة يغفلون في بحثهم العقل والقصد . وعلماء المكرسكوب لا يلتفتون الى الكواكب . فهل يصحُّ ان تنكر كل هذه الاشياء لان علماً من العلوم لا يلتفت اليها ؟ وما احسن ما قيل من ان الشك في كل شيء والتصديق بكل شيء حلٌّ يلجأ اليه الذين لا يريدون ان يشغلوا عقولهم

فاذا قام العلماء ونفوا وجود ما يخرجونه من نطاق بحثهم بطبيعة هذا البحث ،وجب ان لا نقبل قولهم . ان قوانا محدودة وحواسنا لم تألف الاّ المادة التي نشعر بها. ولا شيء غيرها نستطيع ادراكه . ان عضلاتنا واعصابنا صالحة لتحريك المادة في الجهة التي نختارها . هذا هو جهازنا لحياتنا الارضية وما تاريخ الانسان الاَّ اخبار ما فعله بهذه القوى الطفيفة التي اعطيها

بالمادة يعرف كلٌّ منا بوجود الآخر وبها نتخاطب مع الذين افكارهم تشبه افكارنا ، إما بحركات تموجية كما بالكلام والغناء او بتوزيع دقائق المادة كما في الكتابة والتصوير . فنتخاطب كذلك ونتفاهم . وقد الفنا هذه الوسائل حتى صرنا نحسبها هي وامثالها الوسائل الطبيعية الوحيدة للتخاطب والتفاهم وان كل وسيلة غيرها يصل بها المراد من عقل الى عقل مباشرة خرق لحرمة العلم

— ٦ —

من هنا ترى الاساس الذي يقوم عليهِ اعتقاد لدج في بقاء الشخصية ومخاطبة الارواح .

فهو يقول ان الحياة والعقل يحتاجان الى أداة . يظهران بها . او يتجليان فيها . ولكن هذه الاداة لا يجب ان تكون مادة . بل قد تكون الاثير نفسهُ . واذاً فبقاؤها بعد انحلال الجسم المادي محتمل . وان كنا لا نستطيع ادراكه بحواسنا . ولكن بعضاً منا ممن ارهفت حواسهم يستطيعون ان يتبينوا اثر الشخصية في الاثير . فيتلقون من الاشخاص الذاهبين ، الذين خرجوا من دائرة الوجود المادي الرسائل والانباء

كل هذا فرض جميل .وكل انسان اذا تخطى عهد الشباب والفتوة يتوق اذا كان ممن يفكر في خفايا الحياة والكون الى ان يعرف ما وراء الموت. ويتوق كذلك الى الايمان ببقاء الشخصية وفي هذا الفرض من الناحية الفلسفية ما يكفي

ولكن موضوع مخاطبة الأرواح الذي عالجهُ السر اولفر لدج معالجة عملية ليس لهُ بالفرض الفلسفي الا صلة ضعيفة . وهو مثار لاختلاف الرأي بين الثقاة . وقد جددت العناية بهِ في العهد الاخير في هذه البلاد بعد ما نشرهُ بعض الكتاب من المقالات في الموضوع

والواقع ان هذه المخاطبة تختلط بكثير من الخداع والانخداع

ويكفي ان استشهد بالحادثة التالية لكي ابيّن ان الجزم في هذه الموضوعات من اصعب الامور . من نحو ثماني سنوات ، عرضت مجلة السينتفك امريكان جائزة مالية كبيرة ، لاي وسيط او وسيطة ، يقوم بظاهرة نفسية ،تثبت على الامتحان امام لجنة مؤلفة من عالمين طبيعيين وعالم نفسي ومشعوذٍ وسكرتير . وقد تقدم الى هذه اللجنة لنيل هذه الجائزة نحو عشرة وسطاء اثبت البحث انّ تسعة منهم خادعون،وظهرت طرق خداعهم. واما الوسيط العاشر وكان وسيطة تدعى مارجري ، ففسّرت الظاهرات التي تجلّت في أفعالها تفسيراً ، فيهِ مطٌّ لبعض النظريات النفسية ولا يقنع طالب الحقيقة من هذه الناحية او من تلك . وما زالت الجائزة في خزائن المجلة لم تمنح لأحد

واذن فنحن امام امرين . الاول ان حلقات الوسطاء حافلة بالخادعين فيجب ألاّ نستسلم لاول صوت نسمعهُ فنتخيلهُ صوت من نريد مخاطبته . والثاني انّ هناك ظاهرات عجيبة تحير العقل ولا يمكن تعليلها بما نملكهُ الآن من الحقائق والوسائل

فالموقف المعقول يقضي علينا بالتزام الحذر في الحكم . فكثير من الحقائق العلمية انكرت في اول عهدها ثم ثبتت صحتها . وثمة طائفة اخرى من الحقائق العلمية ، لم نستطع كشفها الاّ بعد كشف وسيلة علمية جديدة كالمكرسكوب او التلسكوب او الاشعة السينية . ومن يدري ما يأتي بهِ العلم في غدٍ من الوسائل الجديدة . فالاشعة الكونية مثلاً اقوى نفوذاً من اشعة اكس واشدّ فعلاً وقد تسخّر غداً او بعد غدٍ فتكشف لنا عن عوالم كانت خافية عنا لاننا لم نملك الوسائل اللازمة لتبيُّنها

ثم ان اساليب البحث الطبيعي ليست كل الاساليب التي يمكن الوصول بها الى الحقائق

فاذا شئت ان تكتفي بما تثبتهُ الوسائل العلمية المعروفة . والامتحانات والتجارب التي قام بها رجال منزّهون عن الهوى . استطعت انْ تقول انّ مخاطبة الارواح لم تثبت بعد . ولكن ليس في العلم ما ينفيها . لانّ العلم لا يستطيع ان ينفي . الاّ اذا أحاط بكل شيءٍ . واستقرأ استقراءً شاملاً

واذا شئت ان تنظر نظراً فلسفيّاً فلك ان تعتقد مع السر الفر لدج انهُ رغم الخداع والانخداع الذي يخالطان اعمال الوسطاء يقتضي اتساق النظرة العلمية الفلسفية التي بسطناها بقاء الشخصية بعد انحلال الجسم المادي ودوام تاثيرها في الاثير المالىء رحاب الكون

فؤاد صرّوف

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

الفاشستية والنازية والكمالية

في وصف «الفاشستية» الايطالية ما يغني القارىء عن ذكر «النازية» الالمانية لان هذه نسخة منقولة عن تلك بشيء من التصرف تقتضيه ذهنية الالمان وتربيتهم والاحوال التي طرأت على بلادهم ، فمن ذلك مثلاً ان (هتلر) زعيم النازي مع كل ما اقدم عليه من الضغط على خصومه والتهجم على حريتهم الشخصية خصوصاً الشيوعيين منهم كان بالاجمال أبعد عن العنف واتخاذ الشدة من زميله (موسوليني) زعيم الفاشستي الا مع اليهود ، وهذه الشدة معهم ناشئة من اعتقاد الوطنيين الالمان الراسخ بان اليهود كانوا اصل بلائهم في الحرب العالمية ومصدر نكبة المانيا في اوصابها الحاضرة وسبب تفسخ ابنائها من جراء انتشار العقائد اللاوطنية اليهودية بينهم كالماركسية وغيرها وان الاختبار دلهم في بلادهم وفي غيرها على ان اليهودي يهودي قبل كل شيء مهما تغيرت الاحوال وتبدلت الاوضاع

ثم هنالك فرق جوهري في التطبيق وهو ان الفاشستية تطبق في بلاد غالبة تتمتع بحريتها التامة، فموسوليني زعيم مطلق التصرف مثل زميله مصطفى كمال ، في حين تحاط النازية بالدول الغالبة التي تهددها بالتدخل في شؤونها في كل حين لاعذار مختلفة فتضيف الى عبء خصوم (هتلر) الداخليين عبء العداوة الخارجية الثقيل ، لكن النشاط الذي أبداه (هتلر) في الداخل والحزم الذي تذرع به في الخارج عادا عليه باجتماع كلمة الالمان حوله وتراجع الدول الغالبة عن خططها التهديدية لاذلال المانيا ، فبعد ذلك التفسخ والخضوع والرضى بالمعاهدات الجائرة قامت المانيا النازية تطالب بحقها في الحياة والجلوس على المائدة الدولية على مستوى الدول المعظمة الأخرى

﴿ الفاشستية ﴾ : لقد خرجت ايطاليا من الحرب العالمية مثل سائر الدول المحاربة منهوكة القوى

حتى ان الشيوعيين حاولوا في تلك الايام تطبيق المنهاج الشيوعي في (بولونيا) احدى مقاطعاتهم. وفي شهر تموز — يوليو — من سنة ١٩٢٠ حلّ السنيور (جيولتي) محل السنيور (نتي) في رياسة الوزارة فقام بشيء من التجارب الاشتراكية في المملكة ولكن ذلك لم يخفف من حماسة الشيوعيين بل زادهم لهباً فقاموا بثورات عنيفة في سنة ١٩٢١ في انحاء البلاد مما احدث رد فعل شديد في العناصر الوطنية التي نشأت على احترام (غاريبالدي) و (كافور) وغيرهما من مؤسسي ايطاليا الحديثة ووحدتها الوطنية السياسية، ولا سيما بين الطبقات الرأسمالية التي تحترم قاعدة التملك الخاص وتمدها الباعث على الانتعاش والارتقاء. فتألف من هؤلاء جمعية باسم « الفاشستي » رمزها ارتداء القمصان السود ودينها الوطنية وديدنها مصارعة الاشتراكية فسلكت سبيل العنف والشدة مع الخصوم ورأت خير زعيم لتنفيذ رغائبها السنيور (بنيتو موسوليني) الصحفي الراديكالي سابقاً فولته قيادها فساقها الى الامام بحزم وعزم ومهارة نادرة حتى قضى على الشيوعيين وعلى اعمالهم العنيفة — ولو موقتاً — بسرعة فائقة وقبض على الاحرار المخالفين من زعماء وكتّاب والقاهم في غياهب السجن. وتمكن من انقاذ البلاد من الفوضى التي كانت ضاربة اطنابها، وزاد في نجاحه ما اظهره الزعماء الاشتراكيون من السخافات الصبيانية والتقلقل المعيب والجبن الذي نهك قواهم، ومن الطرق المستغربة التي سلكها في إسكات المنتقدين ومضايقتهم تبليعهم جرعاً كبيرة من زيت الخروع. وصار القتل والضرب والتعذيب وحرق الاملاك الخاصة كما قال (اتش. جي. ولز) من الوسائل الادارية في ايطاليا لكبح جماح الاحرار والقضاء على مذاهبهم «فزال شبح الشيوعية وحلّ محله حكم السلاّبين النهّابين»[1]

ولما اشتدت شوكة الفاشستيين وتأيد سلطانهم وصار لهم جيش نظامي يعتمد عليه زحفوا في شهر اكتوبر من سنة ١٩٢٢ على رومية لاحتلالها فتترعت الوزارة (وزارة السنيور فاكتا) لملاقاتهم في الميدان واعلنت الاحكام العرفية وعرضت على الملك الخطط التي تذرعت بها ولكن الملك بدلاً من اقرارها على ذلك دعا اليه (موسوليني) لتولي زمام الأمر فتولاه وقبض بيد من حديد على شؤون الدولة ومرافقها ومصادر قوتها حتى دان له الشعب، ومما فعله في هذا الباب انه قضى على حرية الصحافة وجعل الانتخاب لمجلس النواب مهزلة تشبه مهزلة المجلس الوطني الكبير في انقره، وما فتىء يلقي خصومه السياسيين في اعماق السجون ويأخذهم بالشدة ويقابلهم بالهول حتى قضى عليهم قضاء مبرماً واصبح الآمر الناهي في طول البلاد وعرضها. وكلمة « الدتشي » — وهي اللقب الذي يطلق عليه — تعني في معجم السياسة الحاضرة الجبّار القاهر

ومما تحسن الاشارة اليه ان « الدتشي » ما تربع على دست الوزارة حتى احتقر البارلمان وحمل

(١) Outline of History, p. 682

على النظم الديموقراطية ولم يذكر الجمهورية التي كان يتغنى بها بكلمة واحدة . ومما جاء في احدى خطبه يومئذٍ قوله: «ان جميع المشاكل المتعلقة بالحياة الايطالية قد وجد لها الحل على الورق ولكن الحزم اللازم لوضعها موضع التنفيذ كان مفقوداً فعلى الحكومة الفاشستية ان تمثل هذا الحزم وهذه الارادة التي لامردّ لها . والواجب ان تكون القواعد الكبرى في سياستنا الداخلية الاقتصاد والعمل والتدريب» (١)

وقد أتى ظهور الفاشستية في ايطاليا والنازية في المانيا (والكمالية في تركيا) برهاناً آخر على صحة مذهب ارسطو من ان الفوضى تؤدي الى الحكم القاهر . فالفوضى التي منيت بها ايطاليا عقب الحرب العالمية خلقت موسوليني وجعلته رجل الساعة خصوصاً لأن زعماء الاشتراكيين الطليان على ذلك العهد كانوا ثرثارين — يكثرون من الكلام ولا يكادون يعملون شيئاً ، وكل حزب يجعل همّه الهدم بمعاول النقد المجرّد من الاعمال الايجابية البنائية يستطيع ان يشل يد الحكومة ولكنهُ عاجز عن الجلوس على منصتها وهذا ما يمهد السبيل الى يد القاهر الحازمة التي تنقذ الموقف . وكان الاشتراكيون في حيص بيص لم يرضوا بالطريقة القديمة من جهة ولكنهم مع عطفهم الشديد على روسيا لم يجرؤا على اعلان الشيوعية من جهة اخرى ، فادّى هذا التقلقل في موقفهم الى الاستياء العام والى اخفاق الطريقة البرلمانية وما فيها من اخذ ورد على غير طائل والى رفع الثقة من الاشتراكية ومن انصارها ومن الحزب الكاثوليكي واعوانه مما عبّد الطريق امام (الدتشي) وجيشه اللجب من الرجال الناقمين وفتح ابواب رومية لليد القادرة والادارة الحازمة. ولم يمضِ زمن طويل حتى انضم الملك نفسه اليها ودخل تحت لوائها. سنّة في سياسة الامم حكم بها الدهر لليد القادرة منذ فجر التاريخ ولن تجد لهذه السنة تبديلاً

تشترك الفاشستية الايطالية ومعها النازية الالمانية — والكمالية الى مدى بعيد — من جهة والشيوعية الروسية من جهة اخرى في الشؤون الآتية :

(اولاً) اصرارها كلتيهما على ان الوطنية الصحيحة هي عمل ايجابي لا اهمال سلبي ، فموقف المتفرجين غير المبالين موقف لا يليق بالمجتمع السليم ولا بنظرية الجماعة المسؤولة ، والبيت الذي لا يكترث اهله لترتيبه ونظامه بيت محكوم عليهِ بالفوضى والانهدام

(ثانياً) الشد بخناق جميع العناصر العدائية والآراء المخالفة والسعي في حرمانها من الاشتراك في ادارة الدولة وسد المنافس دون افصاحها عن آرائها وبث دعايتها

(ثالثاً) رغبتهما كلتيهما في ضم جميع المتحدات الاختيارية الحرة وسائر انواع الحياة المشتركة تحت لواء الدولة السامي

(رابعاً) عزمها على تحويل الاشتراكية الوطنية في ايطاليا والمانيا وتركيا والاشتراكية

(١) These Eventful Years, p. 655

الشيوعية في روسيا اليد العليا في تعيين السياسة الواجبة الاتباع كائناً ما كان اسمها

ولئن تماثلت الشيوعية والفاشستية في الطرائق الموصلة هذا التماثل الشديد فالغايات مختلفة كل الاختلاف ، ذلك لان الاساس الذي يبنى عليهِ العمل في الشيوعية الماركسية هو الطبقة فعلى الطبقة وما فيها من قوة حافزة وما لها من مصلحة ملحة يجب ان يبنى المجتمع الجديد واما في الفاشستية واضرابها فقطب الدائرة هو الامة ، وان غاية السياسة جعل الامة عظيمة متمتعة بحقوقها رافلة بحلل السعادة ، وايجاد اللسان السياسي او الاداة السياسية التي تعبر عن الحياة الوطنية كاملة ، وهكذا نجد النظريتين الاشتراكية الماركسية والاشتراكية الوطنية على طرفي نقيض ، ويزيد في هذا التباين وما يجر اليهِ من تنازع جوهري ان الوطنية في نظر الفاشستي لم تعد شيئاً يظفر بهِ الوطنيون بالانتصار على عدو اجنبي ظالم بل هي شيء راهن حاصل في اليد شكلاً ولكنهُ يحتاج الى من ينفخ فيهِ روحاً ويكسوه لحماً ويحميهِ من مجازر الاشتراكية وغارات « الدولية »

ولم تكن الفاشستية في اول عهدها نظرية علمية او منهاجاً سياسيًّا بقدر ما كانت دعوة الى العمل وسعياً لانقاذ الوطن من التفتت والانحلال ، ويمكن وضع تعريف لها بسرد ما تضمنتهُ من الكلمات او المصطلحات الدالة على الكراهة والبغض اكثر مما فيها من التعاليم والآراء اللهمَّ الاَّ ما دعت اليهِ من وطنية بحتٍ وانها رسالة جذَّابة للنشء الحديث وانها التفتت الى العمل واعتدت بهِ واهملت شأن النظر : وقد ابغضت الشيوعية ونفرت من « الدولية » على اشكالها ومن الحروب بين الطبقات وحملت على الطريقة البارلمانية حملة شعواء وحكمت عليها بانها سبب الخيبة وسوء الادارة في ايطاليا — يشاطرها هذا الرأي كل من تتبع سير البرلمانات في جميع البلدان التي لم يستعد اهلها للحكم الديموقراطي ، بل ان هذا الشكل في الحكم يلاقي خصوماً الدَّاء حتى في ارقى البلدان

وتقوم الفاشستية من الاساس على فكرة ان الامة هي الوجود الاخلاقي الذي ما بعده وجود ، وان الواجب على الجميع ان يخضعوا لها ويلتحقوا بها ويسعوا الى تحقيق ذاتهم وما تتطلبهُ نفوسهم ضمنها وبواسطتها . وعلى الناس نحو الامة واجبات ولكن ليس على الامة من واجب ، وقد تتصل بالامم الاخرى بمعاملات سلمية حبية او حربية عدائية ولكنها لا تعترف بتفوق احد عليها او بخضوعها للاسرة الدولية التي هي عضو من اعضائها . وتسعى بروح تحاكي روح (فردريخ نيتشه) الفيلسوف الالماني نصير القوة الى التوسع والانبساط والتجلي بحيث لا يكون السلم العالمي العام متوقفاً على شيء يعارض طموحها . فالامة عند القائلين بهذا المذهب هي الوجود الشامل والسياسة هي تحقيق المطالب الوطنية . وقصارى القول اننا في شرح الفاشستية والاشارة الى زميلتيها النازية والكمالية نشعر كأننا نشرح نظرية (هيجل) في

تقديس الدولة وجعل الوطن سر الاسرار ومجلى الانوار

وتمجد هذه الطرائق الثلاث الفضائل العسكرية ، وفي سياستها نغمة حربية مستمرة ، واذا كان هتلر في خطابهِ السياسي الذي سبق المؤتمر الاقتصادي العالمي قد تجنب اضطراراً ذكر الفتوحات والبسطة السياسية ومصطفى كمال حاول الظهور بمظهر المكتفي بتركيا في حدودها الحاضرة فان الفاشستية عند مؤسسيها تعني التوسع السياسي في الخارج صراحة ؛ وقد يعميها هذا الميل الاستعماري عن مصالحها الحقيقية ويحملها على البذل الغالي في المال والسمعة والرجال في سبيل بلاد قاحلة قليلة الانتاج مثل طرابلس الغرب وبرقه ، بل انها لم تتورع هناك ان تسوّد صحيفتها فتقتل شيخاً طاعناً في السن من كبار المجاهدين مثل عمر المختار للارهاب العسكري . على ان نظرة سياسية صادقة فيما لها من المصالح في الشرق تدعوها الى جعل شاطىء الصحراء الليبية الخاوية على عروشها مكاناً تتحبب الى سكانهِ فتمنحهم من العطايا السياسية ما يبث لها دعاية في شمال افريقية تزعزع بها اعظم دولة حربية تهددها وتهدد غيرها من الدول «بالامبراطورية السوداء» التي تحلم بتأسيسها في افريقية . قال السنيور (نيتي) رئيس وزارتهم المشهور «ان ليبيا — يعني طرابلس وبرقة — هي المستعمرة التي كلفت ايطاليا اعظم البذل ، ومع كل هذه الحروب المديدة التي خضنا معاركها هناك والنفقات الباهظة التي انفقناها فالظاهر انها محكوم عليها ان تبقى عبئاً ثقيلاً على ميزانية الدولة وسبباً مستمراً للقلق واشتغال البال[1]»

ان مثل هذه الذهنية الهجومية الدفاعية تحتم على ايطاليا ان تفكر في الحرب وتعدها في حيز الامكان دائماً ، فلا يجوز للايطاليين والحالة هذه ان يستكينوا للسلم او يستسلموا لهُ حتى لو كانوا ينوون الدفاع عنه

وتعني الوطنية عدا ذلك الارتكاز في الداخل فيجب تنظيم حياة المجتمع الايطالي وضمه حول دولة الامة . ولا يسمح لاية اداة من ادوات العمل او الكلام ان تعيش في المجتمع الايطالي ما لم توطد العزم على احناء الرأس امام الفكرة الوطنية وان تقوم بالقسط المتوجب عليها في تحقيقها . ويتناول هذا الموقف ابادة حركة العمال خاصة والقضاء عليها سواء بالشكل الذي اتخذته في ايطاليا ام في غيرها ، لان طبقة العمال كطبقة الرأسماليين تتشابه في الاقطار الصناعية وتتخذ شكلاً واحداً ، وهي من الاساس مشوبة بالفكرة الدولية فالمتحدات التجارية والاحزاب الاشتراكية كلتاهما سواسية فيما لها من التآخي الدولي والخضوع لفكرة التعاضد بين افراد الطبقة الواحدة في الدول المتعددة ، لذلك يتحتم على الفاشستية ان تجتثّ هذه المجموعات من اصولها ، ولكن لا تتوصل الى ذلك ما لم يكن عندها ما يحل محلها ، ذلك لان المجتمع

(١) These Eventful Years, I. p. 636

الحاضر يجب ان يزوّد بهيئات منظمة تفصح عن حاجات العمال ومطالبها العادلة، وما لم يعترف بهذه الحاجات ويسلم بحقها فانها تتخذ شكلاً معادياً لمصالح الذين يريدون القضاء عليها . وفي الحق ان الفاشستية ما كانت لتستطيع الثبات وهي تحارب الاشتراكية هذه المحاربة القاسية لو لم تلتفت الى مصالح العمال الاساسية وتحول دون تدفق تلك الاجور الباهظة او الارباح الغزيرة الى جيوب بعض الطفيليات في المجتمع الايطالي

لاجرم ان الفاشستية بقضائها على طبقة العمال في ايطاليا اخذت في احلال نظام جديد محلها على الشكل الفاشستي ، فبدلاً من المتحدات التجارية الاشتراكية قامت متحدات فاشستية يديرها الانصار المقربون ولا يدخلها احد من اهل الخبث والعند . وخولت هذه المتحدات قوة عظيمة منها الحق في ضرب الاعانات على الاعضاء وغير الاعضاء وان تساوم هي وحدها المخدومين وان تنضم الى جمعياتهم فيتألف من المجموع — الخادمين والمخدومين — نقابة رسمية للاشراف على كل خدمة وكل صناعة برمتها، وان تجعل هذه المتحدات الفاشستية دوائر انتخابية بدلاً من الدوائر الجغرافية القديمة فيستناب منها الاعضاء للمجلس التشريعي الفاشستي الجديد

وقصارى القول ان الفاشستية بنت لكل جمعية حرّة اساساً فاشستيًّا تقوم عليه وجعلتها اداة حكومية وحرصت على ان تكون ادارتها بيد الحزب الفاشستي وانصارها ، وليس من السهل ابداً ان نعرف مقدار استيلائها على طبقة العمال الايطاليين ودرجة استمالتهم الى جانبها ذلك لان الفاشستية وزميلتيها النازية والكمالية هي مثل الشيوعية الحمراء تكم افواه المعارضين ولا تسمح لاحد بالتلفظ بما يخالفها ، لكنها على كل حال لقد صمدت حتى الآن وحالت دون تجدد الاتصال بين العمال الايطاليين وبين حركة العمال المنظمة في الاقطار الاخرى وساعدها على ذلك معالجتها الناجعة لبعض شرور الرأسمالية وتخفيفها وطأة البطالة التي تئن منها الدول الاخرى

ولا تعد الدولة الفاشستية دولة مؤلفة من افراد بقدر ما هي مؤلفة من نقابات متنوعة تختلف باختلاف العمل الذي تقوم به ويتصل الفرد فيها بالدولة بواسطة النقابة التي ينتمي اليها، فالحكومة بهذا المعنى هي الرأس والنقابات — لا الافراد — هي الاعضاء ، ويطلق على هذا الوضع السياسي الحديث اسم «الحكومة النقابية او الدولة المندمجة Corporate » ، ويختلف في الفاشستية عنه في غيرها ان النقابة فيها خاضعة للدولة ومسخرة لاغراضها تسخيراً اعمى ، ذلك لأن الوطن الايطالي هو «العليّ الاعلى» في حين تمنح النقابات في المناهج الاشتراكية استقلالاً كما هو الحال في المتحدات التي تدعى (جيلد) و (سنديكا) وغيرها من الانظمة التي تهتم بالحرية اكثر من اهتمامها بالخضوع والانقياد . اما الفاشستية فتسير على مذهب (هيجل) مؤسس الامبراطورية الجرمانية من حيث اهتمامها بالطاعة وتفضيلها النظام والتدريب، وهي تدعو افراد الرعية ان يحققوا حريتهم في حرية الدولة اكثر مما يحققونها في فرديتهم او في مجتمعهم النقابي
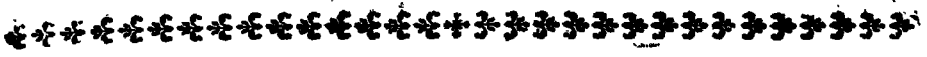
عدلي يكن باشا

لخليل ثابت بك

رئيس تحرير المقطم
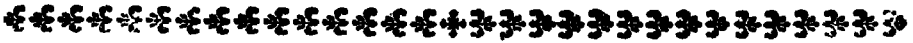
في موقف جليل كهذا الموقف يحار الكاتب في اختيار ما يستهلّ بهِ قولهُ والخواطر تتزاحم والعواطف تتدافع فلا يرى أوجب من أن يبدأ الكلام بتعزية مصر عن خسارتها بفقد قطب كبير وخسارة ابن كريم وانهيار ركن متين فاذا كان الفقيد قد أتمّ ما قيض له القضاء من عمر في هذه الدنيا وذهب الى لقاء ربهِ يحمل بيديهِ سفر اعمالهِ ناطقاً بمحامده فان مصر الثكلى تنوح الراحل وتبكي الفقيد وقد كان من الذين تباهي بهم والذين تعدهم لنجدتها اذا تعقدت الامور وتشعبت المعضلات

وقد يسهل على الذين ألفوا الكتابة عن الاحياء والاموات أن يصيغوا عبارات التأبين من منثور ومنظوم ويصفوا من يؤبنون بما تخطه أقلامهم وما توحيهِ عواطفهم وشعورهم ولكن في ذكرى عظماء الرجال ما يسمو هذا لما فيهِ من العبرة النافعة والعظة البالغة واعطاء كل ذي حق حقهُ من عرفان الفضل وتقدير الجميل وتعيين مدى النهوض بالواجب ولا سيما الواجب القومي

فقد عاصر عدلي باشا نهضة مصر الحديثة وكتب في سفر هذه النهضة صفحات مجيدة تخلد اسمهُ وذكراه وتصلح لان تكون مثالاً يحتذى وقدوة يقتدي بها الذين يعجبون بما كان هذا المصري العظيم متصفاً بهِ وما ميزتهُ بهِ العناية

***

عاصر عدلي باشا هذه النهضة وشبّ معها الى ان ابلغتهُ مواهبهُ ومناقبهُ الى مقام القابض على الدفة فكان شعارهُ واحداً في جميع الحالات ومقصدهُ لا يتغير وكان لهُ من اخلاقهِ وسجاياه ما يساعدهُ وما يعينهُ على سلوك الطريق الذي سلكهُ الى ان صار الرجل الذي يشار اليهِ بالبنان والوزير الذي يعهد اليهِ في جلائل الامور ومعالجة الازمات

كان شمم عدلي يكن متجلياً في هيئتهِ ومنظرهِ ومشيتهِ ووقوفهِ وجلوسهِ ولكن هذا في الواقع ما كان سوى مظهر للروح التي كانت وراء حنايا الضلوع

عدلي يكن باشا

وهذه سجية عرف بها الفقيد واشتهرت عنه وكان لها اعظم تأثير في حياته الادارية وحياته السياسية وسعيه لاستقلال بلاده بمثاله وفعاله ثم بمساعيه لما كان في الوزارة الرشدية ومباحثاته ومفاوضاته في لندن في اثناء وزارته ثم في ما عقب ذلك من انقسام ووئام وشقاق ووفاق ونهوض بعبء القضية المصرية في الحين الذي دجا فيه الجوّ السياسي وتلبدت فيه سحب الحيرة

وهذا الشمم تجلى فيهِ وهو موظف صغير ولازمهُ وهو مدير ومحافظ مقروناً بعنايته بالعمل ورعايته للعاملين ورغبته في العدل وحب الانصاف وقد كان من نتائجه ان اعتزّت فيهِ النزاهة السياسية والنزاهة الادارية فقضى عمراً طويلاً يتقلب في المناصب حتى بلغ أرفعها ولم يسمع عنهُ الاّ كل ما يزين الفتى ويباهي بهِ الموظف والسياسي وهو مع ذلك يمقت الظهور الاّ بما تقضي به الواجبات ومقتضى اللياقة وربما كان في وقوفه عند هذا الحد وعدم ميله الفطري الى مجاوزته ما حال دون نهوضه بمهمة الزعامة الحزبية وقد تولاّها ثم تخلى عنها حتى قيضت له فعاله وصدق خدمته ان تقلد الزعامة الشعبية باجتماع القلوب حوله وشيوع الثقة به حتى عمت جميع الاحزاب فكانت في ساعات الشدة ترنو اليه بابصارها وترى فيه ابن بجدتها

***

وبعد الذي أوردته هنا لا يحتاج الكاتب الى كدّ الذهن ولا يحتاج القارىء الى حصر الفكر في استخراج العبرة التي يحسن استخراجها من حياة طفحت بأعمال عظيمة القدر وفي حقبة من سني هذا العصر الذي طرأ فيه من التحول على العالم ومصر في جملتهِ ما لم يسبق له مثيل في اضعافها من قبل

ولا ابغي في هذا المقام خوض المباحث النفسية لتعليل ما اتصل بسيرة هذا السيد المصري الكريم — وهذا أقرب تعبير لما يريدهُ الانكليز بلفظة جنتلمان — فلست من المولعين بهذه المباحث النفسية ولا أرى من ينظر في سيرة عدلي يكن في حاجة اليها . فقد كانت حياته صفحة جلية اتاحت له العناية ان يخط فيها سطوراً من الاعمال النافعة المجيدة بحروف من نور تشهد لكاتبها بأنهُ عرف معنى الوطنية الحق وانه أُلهم إلهاماً صحيحاً وانهُ وفق الى كثير مما أراد في خدمة قومه وترك لهم أفراداً وجماعات ذكرى حافلة بما ينفع في مواصلة الجهاد

ولكن اذا كان ما رآه معظم الناس عن فقيد مصر مرتبطاً بالعمل السياسي والخدمة الادارية فقد كان في سيرته وجهان آخران لهما دلالتهما في بيان سجاياه ومزاجه وهما يؤيدان ما تجلى في اعماله العامة

فقد كان عدلي باشا شديد الوفاء لاخوانه وأصدقائه وكبير العطف على مرؤوسيه مع اقتضاء صدق الخدمة منهم والتدقيق في تتبع اعمالهم وسعة الصدر في سماع شكواهم والعناية بانصافهم

***

والذين عاشروه في الاندية والمجتمعات وفي أحوال خاصة يعسر فيها ضبط النفس وحبس العواطف كانوا يعجبون اعجاباً شديداً برزانته ووقاره وكيف انهما ما كانا يفارقانه مهما تنوَّعت الظروف . وقد قال لنا غير واحد منهم ان عدلي في جميع تلك المواقف كان كالطود الراسخ . وهذا الوصف يطابق ما كان يبدو في عدلي باشا في أثناء الازمات والشدائد وهذا ما اتصف به لما سعى مع زميله المرحوم رشدي باشا لخدمة مصر سعياً قال رشدي باشا في وصفه انه لو عرفه الانكليز في حينه لشنقوه (اي رشدي باشا) والذين يعرفون تلك الحوادث يعلمون ان مصير عدلي ما كان ليختلف عن مصير رشدي من هذا القبيل لو افتضح الامر قبل اوانه

وربما كان من أبهى صحائف هذا الرجل العظيم ما متعه الله به في أخريات أيامه برؤية ذريته ولدي كريمته المأسوف عليها فقد كان عدلي باشا يجد السرور كله وبهجة الحياة جميعها في ما يقضيه من الوقت مع بنت وصبي لا يزالان في سن الطفولة يلاعبهما كما يلاعب الصغار في هذه السن ويجني من المسرة ما يشرح صدره ويخفق له قلبه حبًّا وحناناً وله في ذلك اقوال مأثورة يتناقلها اصدقاؤه وعشراؤه

***

هذا بعض ما نقوله نحن الذين عاصروه وعرفوه واطلعوا على شيء من مناقبه ومواهبه وسجاياه وفعاله ونحن لا نزال قريبين منه ولم نبتعد عنه ما يكفي للاحاطة بالشيء كله كما يحيط به التاريخ بعد ما ينقضي ما يلزم من الزمان لاذاعة ما لم يذع بحكم الاعتبارات السياسية وينقشع الغبار الذي تثيره الخلافات الحزبية في اجواء البلدان وبعد ما تخمد العواصف ويزول الانفعال فتكون الاحكام اقرب الى الصواب بزيادة المعلومات والبينات وسلامة البحث من مؤثرات تقحم عليهِ وليس لها صلة حقيقية به

سيقول التاريخ كلمتهُ وستجيء مطابقة لما يؤمن بهِ ابناء هذا العصر وهو ان مصر فقدت بعدلي باشا ابناً من اكرم ابنائها خلقاً وأشرفهم طبعاً ومن أصدقهم وطنيةً ومن أكثرهم خدمةً صحيحةً للعرش والامة والوطن

رحمة الله عليه ونفعنا بفضله وخدمته وقدوته

انسان المستقبل

صفاته البيولوجية كما يراها اساطين العلم الحديث

المرجح ان انسان المستقبل سوف يكون امدّ قامةً ، واذكى عقلاً ، واشدّ مناعة ضدّ الامراض من انسان اليوم . والمحتمل ان يضيف بضع سنواتٍ الى مدى حياتهِ بل قد يتمكن من ان يتحكم في مواليدهِ من بنين وبنات

***

بهذه العبارات البسيطة يلخّص بحث طائفة من اشهر علماء الحياة في هذا العصر، الذين اثبتوا بتجارب تنطوي على براعة وابداع ، ان الشكل واللون والحجم والبناء والطبائع والمزايا الشقية (Sex) في بعض الحيوانات يمكن تغييرها ، بل يمكن ان يقلب اتجاهها قلباً تامًّا . وقد تحكّموا في افعال الحياة الاساسية في عالم الحيوان،حتى اصبحوا قادرين من ناحية سيطرتهم على افعال الوراثة ومزايا البيئة ان يحولوا السمندل Salamander من حيوان مائي الى حيوان برّي ، وان يضاعفوا جرم الفئران والجرذان والسمادل ، وان ينشئوا ضرباً من ذباب الفاكهة لا اجنحة لهُ ، وصنفاً من السمك لا عيون لهُ ، ويعكسوا الشقّ في الطيور والضفادع — اي يحوّلوا الذكر الى انثى والانثى الى ذكر —

فعالِم الحياة بكواشفهِ الدقيقة ، ومكرسكوباتهِ ، وجداولهِ ، يملك تحويل المستقبل . ان تجاربهُ قد اسفرت عن حقائق حيوية غريبة عن افعال الحياة الاساسية ، فرُدّ بها القول بالعداء والنزاع بين الوراثة والبيئة ، واثبت ان الكائن الحيّ نتيجة التفاعل بين الاثنتين

***

يعترف بعض البيولوجيين ان طبيعة الانسان ومصيرهُ يتغيران باحداث تحويل في عوامل الوراثة ، او انقلاب كبير في احوال البيئة. ولكن الامل الكبير في امكان السيطرة على خصائص الانسان ، من الناحية البيولوجية ، يقوم بالسيطرة على احوال معينة في خلال تكونهِ ونموّهِ . فالمشكلة التي امامهم، هي الكشف عن العوامل والوسائل التي تمكنهم من تطبيق ما عرفوه عن الحيوان ، على حياة الانسان

فقد ثبت لهم ان المادة الحية شديدة المرونة . وانها تعنو للعوامل التي توجهها اليها اذا عرفنا هذه العوامل وخصائصها معرفة دقيقة. وعليهِ فالتقدم البشري لا يكون بعد الحصول

على هذه المعرفة ، عرضة لتصاريف الاقدار ، بل ان انسان المستقبل، سوف يكون اشبه شيء بمثال بارع ، ينشئ الحياة على المثال الذي يراه بالتحكّم في اغراض الحياة ومصيرها

***

في هذا العمل الباهر لا بدّ ان يكون للهرمونات (مفرزات الغدد الصُمّ) مقام وايّ مقام فهي تسيطر على جرم الجسم ، هل نكون اسوياء او اقزاماً او مردة . بل هي تسيطر على طباعنا ، هل نكون شديدي النشاط او شديدي الكسل ، وهل تحوّل اجسامنا الطعام الذي نأكلهُ اولا تحوّله ، هل نكون من الزعماء في جماعتنا او من الاتباع، وهل تتصف عقولنا بصفات الرجل الاجتماعي الامثل او نكون من المجرمين

وقد استعمل بعض الاطباء خلاصة الغدة الدرقية في حقن اناس ولدوا ونشأوا صغار الجثة قصار القامة فكان من اثر هذه الخلاصة التي حقنوا بها ان اصبحوا مديدي القامة

وقد صرّح الدكتور ردِل رئيس « جمعية درس المفرزات الداخلية » ان هرمون الغدة النخامية قد يستفرد مثل هرمون الغدة الدرقية قريباً. او قد تنقضي سنوات قبل استفراده. ولكنهُ اذا استفرد وعرفنا كلّ ما يجب ان نعرفه عنهُ امكن استعماله في خلال ادوار الطفولة في المواليد الذين يثبت ان غددهم النخامية ضامرة وينتظر ان ينشأوا اقزاماً فيحول الحَقن بخلاصتها دون ذلك

ثم ان التقدُّم في درس المناعة ، ووسائلها ، ينبئ بحلول يوم ، يستطيع فيهِ الاطباء من تحصين الطفل ضدّ امراض الطفولة ، وتحرير الكبار من قيود الادواء التي تصيب الجسوم والعقول فاذا تمّ للانسان ذلك تقدَّم الى غزو الطبيعة بقدم ثابتة وعزيمة لا تعرف التردد والخوف

***

ولما سئل الدكتور ردِل عن مستقبل الذكاء الانساني ، قال من المتعذر ان نتنبَّأ بما قد يبلغه الذكاء الانساني من التقدم، بالنظر في الحقائق المسلَّم بها الآن. ولكن عقل الانسان مرتبط ببناء جسمهِ ، ويستحيل علينا ان ننظر الى العقل والجسم ، كأنهما وحدتان منفصلتان. فاذا تمكن الانسان من ان يسيطر على نموّه الجسماني ، فلا يعقل ان يصرف العناية عن محاولة درس الاحوال والبواعث التي تمكنهُ من التأثير في قواه العقلية. والراجح ان يوجه الباحثون في المستقبل عنايتهم الى درس العوامل التي تجعل من الانسان الواحد ، سياسيًّا خطيراً ، او ماليًّا كبيراً ، او عالماً نابغاً ، او عاملاً بسيطاً ، والمحتمل ان يتمكنوا بعد ذلك من السيطرة بعض السيطرة عليها

هذه الاقوال العجيبة مبنية على احتمالات علمية أُسفر عنها التقدم العظيم الذي تمّ في علوم الحياة في خلال نصف القرن الماضي . وتحقيقها متوقف الى مدى على السيطرة التي يستطيع

الانسان ان يعالجها في البيئة الطبيعية والاجتماعية ، وعلى استعمال الغدد الصمّ ومفرزاتها وتطبيق القواعد التي كشفها البحث في الوراثة وارتقاء العلوم الطبيعية على اختلافها

***

ان كروموسومات الخلية اشبهُ شيء بعصيّ ، او حبيبات دقيقة منظومة في عقود والكروموسومات مؤلفة من عوامل الوراثة ، والى هذه العوامل ترتدّ الصفات الانسانيا الاساسية . هل الشخص ذكر او انثى . هل هو ازرق العينين او اشهلهما . هل في تركيب جهازه العصبي حاسةُ الموسيقي المرهفة . ان الفرق بين بيتوفن العظيم ، والرجل الابله ليس الاّ فرقاً في انتظام عوامل الوراثة في الكروموسومات . فاذا تغيَّر انتظام هذه العوامل في الخلايا ، ظهر في النسل تحوُّل في الصفات الوراثية ، حتى ولو لم تتغيَّر احوال البيئة التي يعيش فيها ذلك الكائن . وقد يكون التحوُّل غير منتظرٍ على الاطلاق ، في شق الكائن (ذكراً او انثى) او لون شعره ، او لون عينيهِ ، او مقدرتهِ العقلية

خذ مثلاً على ذلك ذبابة الفاكهة الاميركية المعروفة بالدروسوفيلا . انلون العين الاحمر في هذه الذبابة يرجع في الغالب الى انتظام خمسين زوجاً من عوامل الوراثة ، انتظاماً معيَّناً. فاذا اتلفتَ عاملاً واحداً من هذه العوامل المائة،كانت النتيجة انعين الخلف لاتكون حمراء بل تكون بلا لون على الاطلاق . وكذلك ترى ان عاملاً وراثيًّا واحداً ، يحوّل صفة معينة ، اذا كان ناقصاً او اذا كان غير سويّ . ولكن امامك خمسون زوجاً من العوامل ، تتجمع كلها لاحداث صفة لاخطر خاص لها في حياة الذبابة ، هو لون العينين . واذاً فالطرق امامك متعددة لاحداث تغيير في لون عينها

وكذلك في النسل الانساني . فعوامل الوراثة عديدة لا تحصى ، واحتمالات انتظامها في اشكال متباينة عديدة كذلك . واذاً فالنسل يختلف عن الابوين ، ويختلف افراده بعضهم عن بعض . وهذا يعلل لنا نجوب ، عبقري عظيم ، كشكسبير ، او لنكن،او بيتوفن ، من والدين لم يمتازا بشيء من دلائل العبقرية . وهو يعلل لك كذلك،ان اولاد نبوليون وجوته لميكونوا عباقرة مثل والديهما

***

فاذا كنا نستطيع ان نسيطر على تفاعل هذه العوامل الوراثية في انتظامها ، فننظمها نحن كما نشاء ، ولا نترك انتظامها للمصادفة العمياء ، فان الدلائل تدلّ على اننا نستطيع ان نخلق الانسان الامثل ، بل نستطيع انتعين الناحية التي يتفوق فيها هذا الانسان ، ايكون عالماً ، ام رياضيًّا ، ام مهندساً،ام زعيماً سياسيًّا ، ام قطباً من اقطاب المال والاعمال

فما هو احتمال بلوغ الانسان هذا المدى من السيطرة على عوامل الوراثة ؟ يقول الاستاذ

فيقين (J. B. S. Haldane) ان امام علماء الحياة طريقين يسلكونهما ، لتغيير عامل واحد من عوامل الوراثة ، في احد الكروموسومات، من دون ان يؤثروا في العوامل الوراثية الاخرى. اما الطريقة الاولى فابتداع او اكتشاف مادة كيمائية تؤثر في عامل واحد دون العوامل الاخرى. واما الطريقة الثانية، فاستنباط وسيلة يستطيع بها الباحث ان يوجّه الاشعة التي فوق البنفسجي الى جزء صغير جدًّا من الكروموسوم من دون ان يتلف الخلية نفسها

ويقول الدكتور رِدِلْ انا لا نعلم الآن كيف يجب ان تنتظم عوامل الوراثة البشرية ، حتى يخرج من انتظامها الانسان الامثل . ولكن امامنا طريق علينا ان نسلكه وهو ان ندرس أثر تحوُّل عناصر البيئة في الكائنات الحية نفسها . ولكي نحدث تغييراً في الكائنات الحيّة ، يجب ان نحدث تغييراً في احوال خاصة في مراتب النموّ الاولى . فلننظر الآن ما فعلهُ علماء الحياة في احداث هذا التغيير في الاحوال الخاصة ، وما أثرهُ في السيطرة على اجرام الكائنات، وشقها ، وغيرها من وظائف اعضائها

***

فقد بيّن بعض علماء الالمان ان بيض الضفادع واجنتها ، اذا عرّضت لحرارة اعلى من الحرارة العادية التي تتعرض لها ، تحوّلت الاناث ذكوراً . واثبتت الدكتور كتي بونس استاذة علم الحيوان التجريبي في جامعة جنيف انها تمكنت من تحويل عدد غير يسير من ذكور الضفادع الى اناث ، ثم زوجت هذه الاناث بذكور سويّة ، فحملت وولدت . والظاهر من محاضرة لها انها ازالت اولاً الغدد الجنسية من الذكور البالغين فتبع ذلك نموّ عضو صغير ضامر في الضفدع ، ولدى فحصه ، ثبت انهُ يحتوي على بيوض جاهزة للتلقيح .ولم تنفر الذكور من هذه الاناث بل اقبلت عليها . ومما يحير العقل ان نسل الاناث المحوّلة عن ذكور ، كان كلّهُ ذكوراً . ثم ان الدكتور دُمْ Domm الاستاذ بجامعة شيكاغو تمكن من تحويل بعض ذكور الطيور اناثاً وبعض الاناث ذكوراً ، فانهُ ازال المبيض الايسر من ١٧٥ من اناث العصافير وهو المبيض الوحيد فيها ، لان المبيض الايمن يضمر ويهزل. فلما ازيل المبيض الايسر اشتدَّ المبيض الايمن ولكنهُ تحوّل خصيةً بدلاً من ان يبقى مبيضاً . اي ان هذا المبيض الذي اصله غدة تناسلية انثوية ، تحول بعد ازالة المبيض الايسر الى غدة جنسية ذكرية . وقد افرزت هذه الغدد نطفاً للتلاقح . ومن الامور المشهورة ان انقلاب جنس الحيوان لدى فقد غدته يقع في الطبيعة من دون وساطة الانسان. فالحيوان المعروف بالسمندل الذكر اذا جاع بضعة شهور متوالية، ضمرت غدتهُ الجنسية . فاذا وجد طعاماً بعد ذلك عادت الى النمو ولكنها تنقلب غدةً انثوية . والدجاج يقع له ما هو شبيه بذلك اذا اصيب بالتدرّن

ومن غرائب ما يذكر في هذا الصدد ان الصفات التناسلية في فتاة تحوّلت من صفات انثوية الى صفات ذكرية على اثر ظهور خرّاج جعل مفرزات غددها الصمّ اكثر مما هي عادةً . وكان الدكتور آبل العلامة الاميركي واحد اساتذة جامعة جونز هبكنز يعالجها فشهد بأن كل صفاتها الجنسية الثانوية الجسمية والنفسية كانت صفات ذكور . وقد عادت الى انوثتها على اثر عملية استؤصل فيها الخرّاج وارتدت الغدد الى حالتها السويّة

***

من الحيوانات التي تجرب بها هذه التجارب حيوان السمندل وهو في موطنه الاصلي حيوان مائي يتنفس بخياشيم ويتصف في خلال ادوار حياته جميعها بصفات الحيوانات البحرية ولكنهُ اذا نقل الى مواطن اخرى معيّنة، او اذا قُضي عليهِ في دور معيّن من نموّه ان يعيش في الهواء او اذا غذّي بقطعة من نسيج الغدة الدرقية ، تحول الحيوان المائي الى حيوان برّي . ثم اذا غذي بقطعة من الفص الخلفي في الغدة النخامية ضخمت جثتهُ حتى ليصبح جرمها ضعف جرمها الاصلي اذ يقتصر في غذائهِ على طعامهِ المألوف . وقد وصل الباحثون الى النتيجة نفسها في الجرذان اذ حقنت بخلاصة الغدة النخامية

***

ويستطيع الباحث العلمي ان يربي سمكة ذات عين واحدة مع انها في الطبيعة ذات عينين باضافة احد المخدرات او احد املاح المغنيزيوم الى الماء الذي يفقس فيهِ بيض السمك

بل يستطيع الانسان ان يتدخل في دور معين من ادوار حياة دودة من الديدان وبتغيير احوال البيئة يقرّر اي طرفٍ من طرفي الدود يكون رأسها واي طرف يكون ذنبها . ولا تقل عجائبهم في تغيير الوان الحيوانات عمّا تقدّم . فالدجاج الابيض الريش يحوّل الى دجاج اسود الريش

***

من المتعذّر الآن تطبيق هذه الحقائق على النوع الانساني وخصوصاً فيما يرتبط بالتناسل لان تجربة التجارب التناسلية بالانسان امر تعافهُ نفوسنا ولكن اذا تقدّم البحث في الوسائل الاخرى القائمة على احداث تغيير في الكائن الحيّ بتغيير احوال بيئتهِ في ادوار معيّنة من نموّهِ وبوجه خاص فيما يتعلق بالغدد الصمّ فلا يبعد ان يصبح علماء الحياة عاملاً من عوامل الطبيعة في انشاء الانسان على أعلى مثالٍ يتصورونهُ

الواحة المنسية

لحسن كامل الصيرفي

في ذِمّة الفنِّ ألحان تضيعُ ، وفي — أصداثها قِطَعٌ من قلب فنّانِ

تجرَّعَ الألَم الدامي تحوّلهُ — الى ترانيم عشّاقٍ والحانِ

يُسقى العذابَ ويَسقي الناس اكؤسهم — صَفواً من النُّورِ في ظلماء أشجانِ

مدامعُ الأَنجم الحيْرى تشاركهُ — تَسَلْسُل الدمعِ في أجفانِ حيرانِ

وظلمةُ الليلِ تستوحى كآبتَهُ — همْسَ السكونِ بإفصاحٍ وتبيانِ

ومطلع الفجر يستوحى ابتسامتَهُ — نورَ الملائكِ في إشراق إنسانِ

أنّاتُهُ من طِعان الدهر صادرةٌ — وجُرْحُهُ من شظايا العالَمِ الجاني

تضمّدُ الجُرْحَ كَفّاهُ ويستره — بواضحٍ من ثنايا الثغرِ فتّانِ

فيهِ معاني ابتسامٍ وهي سخريةٌ — بعالَمٍ داثرٍ في كفِّ شيطانِ

يعيش في الأرض مأخوذاً بعالمِهِ — ويهجر الارضَ هيماناً بأكوانِ

يبدو خلال ظلام الناس مؤتلقاً — نور الخلود بهذا الكوكب الفاني

كواحة ازهرت في القفر تائهة — عن الحضارة في اكناف نسيان

في ذِمّةِ الفنِّ ما ردّدتْهُ امداً — فضاع لحني سُدًى في جوّ نكرانِ

طغى عليه ضجيجُ القوم فانطمستْ — أصداؤهُ وفؤادي طيّ ألحاني

فلسفة التحليل النفسي[1]

النفس لغز والتحليل النفسي مفتاحه

اخرج العلامة فرويد نظرية التحليل النفسي Psycho-analysis وطريقة تطبيقها من نحو ثلاثين سنة . واقترح علاجاً نفسيًّا لطائفة من الامراض العصبية . ولكن هذه النظرية على ما فتحتهُ من ابواب الامل في تمهيد سبلٍ جديدة لكشف خفايا النفس ، خيبت نظر النقاد الذين يحق لهم ان يحكموا في موضوعها ، وهي اليوم معرضة للاهمال بتهمة انها افتراض نظري ليس لهُ أساس علميّ سليم يستند اليهِ . بل يقولون انها تجربة خطرة كلّ الخطر ، وان الشفاء الذي تمَّ بواسطة التحليل النفسي في الامراض العصبية ، لم يحقق من الوجهة الاحصائية ولا من وجهة الدليل السريريّ Clinical على انهُ قد تمّ حقيقة ولا ما هي نسبة ما تمَّ منهُ الى ما لم يتمَّ

يضاف الى ذلك ان متخرجي مدرسة فرويد في التحليل النفسي الذين احرزوا الشهادة التي تخوّلهم ممارستهُ يعوزهم التعليم الطبي والمرانة ، اللذان يمكنانهم من فهم الاضطرابات العصبية ، دع عنك تشخيصها ومعالجتها . ثم ان السماح لرجال لم يتعلموا التعليم الطبي ، في معالجة الادواء الجسدية والعقلية ، عرضة للمساوىء والمفاسد والتدجيل ، وهو خطر على الصحة العامة . وكثير من الاطباء الذين بحثوا في حسنات التحليل النفسي وامتحنوها يرون ان ما يدعيه رجال هذه المدرسة النفسية ، مغالىً فيهِ شديد المغالاة

ان مفتاح النظرية الفرويدية هو ان الاضطرابات النفسية — من عقلية وعاطفية — والاضطرابات الجسدية كذلك ، تنشأ في كثير الاحوال ، من اسباب نفسية لا من اسباب جسدية . فقد كشف فرويد وهو يبحث ويجرّب التجارب بالتنويم المغناطيسي في عيادة الدكتور شاركو Charcot بباريس ان المرضى المصابين بالهستيريا ، اذا ناموا بفعل التنويم المغناطيسي ، كشفوا احياناً من تلقاء نفوسهم ، عن طبيعة اصابتهم واسبابها . ولما كان فرويد نفسهُ غير بارع في شؤون التنويم المغناطيسي ، شرع يحاول ان يكشف عن طرقٍ ووسائل اخرى ، لينفذ بها الى العقل الباطن . وكان يعتقد انهُ يستطيع ان يشفي مصاباً من هذا القبيل بنقل سبب العلة من العقلِ غير الواعي الى العقل الواعي ، لانهُ اذا ادرك المصاب طبيعة اصابتهِ واسبابها ، زال اولاً خوفهُ وقلقهُ واضطرابهُ ، فيزول النزاع بين الذات الواعية ، والذات غير الواعية وتنتصر الاولى على الثانية فتتم لمصابنا نعمة الشفاء . وقد اطلق على مجموعة الافكار المشتركة التي تسبب الداء او الاضطراب ، بالمركّب او العقدة . وهما لفظان فيهما معنىً من معاني

(1) للدكتور . . ك . . عن السنتك امركان بتصرف قليل

اللفظ الاصلي Complex . وبعد بحث تجريبي في مصابين بالهستيريا، وشديدي توتر الاعصاب، صرح ان المركبات، الباعثة على هذه الامراض العصبية سببها، رغائب جنسية غير تامة النضوج، مكبوتة لا تبدو في مظهرها الطبيعي ، وان هذه الرغائب انفصلت عن تيار الوعي ، فالفت شخصية او ذاتاً مستقلة عن ذات الانسان العامة، وان هذه الذات المستقلة في حالة ثورة عنيفة على الذات العادية. وفرويد يعلق شأناً خطيراً بمكانة الرغائب الجنسية ويذهب الى ان الرغبة الجنسية التي يدعوها «ليبيدو Libido » هي اساس لكل مطامح الانسان. ثم هو يدعي ان هذه الحالة — اي حالة النزاع بين الذات المستقلة والذات العامة — يمكن ان تشفى ، بربط الذات الثائرة بالذات العامة ، ثم اكفاء الرغائب غير الواعية ، بتحويلها الى ناحية جديدة . ويعرف هذا العمل بالتحويل Transference فاذا قامت عقبة، تحول دون تحويل الرغائب، الى ناحية جديدة كانت العقبة بمثابة المقاومة في علم الكهربائية ، وكان لا بدَّ من المثابرة والمحاولة والمداورة في محاولة تخطيها او التغلب عليها

يفتح التحليل طريقين الى درس العقل الباطن او النفس غير الواعية، طريق مجموعة الافكار المشتركة اشتراكاً حرًّا ، وطريق تفسير الاحلام .

والتنفيس عن الرغائب المكبوتة بطريقة اشتراك الافكار يعرف باسم «كاثاريس» Catharis اي التطهير او التنظيف من اللفظ اليوناني كاثاروس اي نظف . والمقصود باشتراك الافكار الحرّ ، ما يأتي : ان تداعي الافكار Association of ideas عمل من أعمال الذاكرة. فانت لا تستطيع ان تذكر شيئاً الاَّ وتربطه بشيء آخر او تقابلهُ بهِ . ومعرفة كل انسان هي كل الحقائق التي يستطيع ان يذكرها مضافاً اليها الحقائق التي نسيها او لا يستطيع ان يتذكرها . فاذا حاول الانسان ان يجعل تداعي افكاره ، شعوريًّا اي خاضعاً لارادتهِ ، حاول ان يتذكر حقيقةً مخزونة في الذاكرة ، يربطها بحقيقة اخرى يسهل تذكرها . وفي هذا اللون من التفكير ، يكون توجيه الفكر ، شعوريًّا ومقصوداً ومسيطراً عليهِ

ونحن نعلم ان الأفكار والصور الذهنية واحلام اليقظة ، تطفو احياناً على تيار الوعي او الشعور ، من دون ان يبذل اي جهدٍ خاص في ذلك . فاذا استوقفنا هذه الافكار والصور الشاردة ، لحظة من الزمان ، اكتشفنا ان كل فكر وكل صورة ذهنية، طفت على تيار الوعي من دون قصدٍ منا ، هو في نفسهِ، او هي في نفسها، مسلك الى مخبإٍ من مخابىء العقل الباطن، فهي اذاً تلقي ضوءًا كشافاً على النواحي المظلمة من ذهن الانسان ، المنفصلة عن الذاكرة ، او المجهولة من الذات الشاعرة. وهذا هو المقصود، في مدرسة فرويد، باشتراك الافكار اشتراكاً حرًّا Free association ذلك ان غرضهُ استكشاف العقل الباطن بواسطة سلسلة حلقاتها الافكار الطافية على تيار الشعور ، ومعرفة صلتها بخفايا العقل الباطن

وتحليل النفس عمل لا يتعلمهُ الانسان تعلماً ، لانهُ عمل ذهنيّ طبيعي . فيشرع الانسان في استكشاف نفسهِ في مراحل سهلة الاجتياز . فيدوّن الحقائق المتفرقة التي يكشفها ثم يربط بينها ثم ينشىء منها صورة منسجمة الاجزاء ، تبين لهُ نشأة احوالهِ العاطفية وتاريخها . فالافكار الشاردة والصور الذهنية الطافية من دون ارادة او قصدٍ على تيار الوعي ، واحلام اليقظة ، هي كلها كاحلام النوم ، فيض العقل الباطن الذي يعرب عن رغبة كامنة في الباطن او شعور او اضطراب داخلي . وكل صورة منها ، ككل جزءٍ من الاحلام ، انما هي لفظٌ من اللغة الرمزية التي يتكلم بها العقل الباطن . وهي تختلف عن لغة العقل الواعي . فالشعور بالبرد ، يوقظ في العقل الواعي الواناً من الفكر ، تأتلف وهذا الشعور ، مثل «فصل السنة» و«الملابس» و «الاماكن الباردة» و«الوسائل اللازمة لاتقاء البرد » . اما في الحلم — حلم النوم — فالحلم يجيء اولاً ثم يليهِ الشعور بالبرد . خذ مثلاً على ذلك ، رجلاً يأوي الى سريرهِ في غرفةٍ باردة ، وفراش غير دافىءٍ ، فيحلم انهُ منقطع عن العالم على جبل من جبال الجليد . والشعور بالخطر يوقظ النائم ، فيحملهُ شعورهُ بالبرد ، على البحث عن دثارٍ يتدثر بهِ ليدفأ . ولكل انسان لغتهُ الرمزية الخاصة بهِ . ولا يتشابه اثنان . فمحاولة تفسير احلام الواحد برموز الآخر ، عمل لا بدَّ ان يفضي الى الخطاء . من هنا نرى ان محاولة رجل ان يقوم بتحليل نفسي دقيق لرجل آخر ، عمل متعذر . فالمختصُّ بالتحليل النفسي يستطيع ان يرشد لا ان يعلم . انهُ لا يستطيع ان يهضم اكل غيره ، ولا ان يحلل نفس غيرهِ . وثمة طرائق عديدة لتحليل النفس وكلها تبدأ بترك العقل الباطن يفيض بما يختلج فيهِ من المشاعر والافكار ، ويلي ذلك توجيه محبة الشخص الجنسية الى شخص معيّن . وهذه الناحية من التحليل النفسي ، هي الناحية التي يندّد بها رجال الدين وجماعة المدافعين عن آداب النفس ، لان المحللين النفسيين ، يوجهون هذه المحبة في الغالب الى اشخاصهم . والامر الذي لم يفهم بعد على صحتهِ ، هو هل يتمّ الشفاء باستكشاف العقل الباطن ، او باشباع المحبة الجنسية في شخص المحلل النفسيّ ، او بكليهما ؟ !

واذن يرى القارىء ان هذه الدعاوى ، ليست على جانب من الدقة العلمية ، او الاخلاص ، او الادب . اذا كان التحليل النفسي يشفي ، فكيف يشفي ؟ اننا نعلم ان العواطف المضطربة تحدث اضطراباً وقلقاً في وظائف الجسم والعقل ، وان معظم هذه الاضطرابات ينشأ في العقل غير الواعي . والاعراض غامضة ، معظمها من نوع المخاوف الموهومة ، والنزاع الداخلي ، وكبت الشعور ، وشدّة الاحساس ، والرغبات النابية ، والحب ، والخجل في الصلات الاجتماعية والعجز عن صبِّ الفكر وتوجيههِ الى موضوع واحد

والمصاب يكون في الغالب ، كثير الاضطراب والهمّ ، لا يستطيع ان يصمد للصدمات التي تنتابهُ ولا ان يحتمل ما في الحياة من اخذٍ وردٍ ، ومدٍّ وجزر . فهو كئيبٌ دائماً ، متجه

الى نفسه ، اقل شيءٍ يحيّرهُ ويقلقهُ . فاذا كانت الحادثة حادةً ، اصيب بالارق وضعف الشهية وانخفاض ضغط الدم وخفقان القلب واضطراب الغدد والهستيريا والعجز الجنسي والتوق الى تناول المخدرات وضعف النطق او اضطرابهُ وغيرها من الاعراض التي يسفر عنها اضطراب الجهاز العصبي . واسباب هذه الاضطرابات او مبعثها رغائب مكبوتة او محبوسة في العقل الباطن ، تنشىء نزاعاً او تناحراً بين اجزاء الشخصية الواحدة . اي ان الذات الباطنة تكون في حالة ثورةٍ فتتفكك وحدة الذات العقلية والجسدية ، في آنٍ واحد

والشفاء من هذه الحالة ، الباعثة على التعس والشقاء،مشكلة صعبة شديدة التعقيد.ويجب الاقبال على حلّها في هوادة وحذر . فالغرض من كل علاج من هذا القبيل ، يجب ان يكون القضاء على التناحر الداخلي ، واطلاق العواطف المحبوسة المكبوتة، واستنباط الوسائل لتهدئة الرغبات غير المشبعة او تحويلها او تسكينها . وقد ذكرنا ان « الجرح » النفسي هو في العقل الباطن . واذاً فيجب ان يمدّ رواق العقل الواعي الى ما وراء حدودهِ العادية ، حتى يضمّ تلك الاجزاء التي كانت مستقلة في العقل الباطن فيدمجها في وحدته الشاعرة . وهذه الخطوة هي الاولى نحو العلاج ، ويمكن خطوها بواسطة التنويم المغناطيسي ، واشتراك الافكار بالمعنى المقصود في مدرسة التحليل النفسي ، او حلّ رموز اللغة التي تتكلم بها النفس غير الواعية في اليقظة اوفي النوم.فاذا اكتشف المصاب الباعث الاساسي على حالتهِ ، وفهم طبيعة الاضطرابات التي اصيب بها ، روّح ذلك عنهُ ، وحدَّ من الشك الملازم لمخاوفهِ ، فيعود اليهِ جانبٌ من ايمانهِ وثقته بنفسه . ويستيقظ الامل في صدره وما يسير مع الامل من حماسةٍ تمكنهُ من السير نحو الشفاء التام بفضل الاستهواء الذاتي . واذ يشرع المصاب في معالجة نفسهِ ، يجب ان يتمرّن على تحليل النفس ، بتدوين العواطف والمخاوف والرغائب والنواهي والكوابح ، وما يحب وما يكره ، التي تطفو على تيار وعيهِ . ويفضّل ان يختار غرفة هادئة حيث لا يقلقهُ مقلق، فيدوّن في ورقة امامهُ الاعراض والمخاوف والرغبات . فيأخذ مثلاً رغبة من الرغبات، ويرى ما يتصل بها من الصور الذهنية ، المتسلسلة في نفسه تسلسلاً حرًّا ، فيدوّن كل حلقة من حلقاتها . وقد يلقى تتابع هذه الصور احياناً ما يعيقهُ وما يقطعهُ بلفظة او صورة او فكرة . فليدوّن ذلك وليضع تحتهُ خطًّا احمر، لان ما يقطع تسلسل الصور الذهنية، يشير الى الموانع او الكوابح في الحياة العقلية، اي ما يكبح النفس او يمنعها من الاستسلام الى رغبة من رغابها

فاذا والى المصاب ذلك ساعة كل يوم مدة ثلاثة اسابيع اجتمعت لديهِ الحقائق الاساسية عن اعماق تلك الذات الباطنة،التي بينها وبين الذات العامة نزاع او تناحر هو منشأ الاضطراب. فاذا اتسعت معرفته بتلك الذات الخفية ، عادت اليهِ ثقتهُ في نفسهِ ، الناشئة عن المعرفة ، والثقة تجر في اثرها القوة والسيطرة على النفس ، وهذه اول مرتبة من مراتب الشفاء

مصطلحات علم النفس

ومشكلة تعريبها

للدكتور محمد مظهر سعيد

استاذ علم النفس بمعهد التربية وكلية أصول الدين

— ٢ —

استعرضت في المقال السابق [١] بعض نماذج هامة لمصطلحات علم النفس الانكليزية تبين للقارىء اجلى وضوح مبلغ ما يجده الاساتذة المصريون من الصعوبة في نقل هذه المصطلحات الى العربية اذا اعتمدوا على الاستعمال العادي وقواميس اللغة وموسوعاتها ، وكيف انهُ اصبح يتعذر وضع الفاظ لها تؤدي المعنى العلمي المقصود وتحدده تحديداً لا لبس فيهِ ولا غموض اذا لم نتتبع المعاني المختلفة التي خلعت على كل مصطلح في مختلف ادواره الفلسفية والسيكولوجية وآراء العلماء الذين وضعوها ان كانت حديثة والمذاهب التي تذهب اليها المدارس السيكولوجية المختلفة في تفسيرها واستخدامها . ولا استطيع ان افعل خيراً من ان اذكر ما قاله احد اساتذة علم النفس الاجلاء عند وضعه اول كتاب علمي في هذا الموضوع. « والله وحده يعلم ما كابدته من المشاق والاتعاب في تأليف هذا الكتاب وتحصيل معانيه . تارةً من اللغة الاجنبية وتارات من الاسفار العربية والتقاط الفاظه كلمة كلمة من كتب شتى. وما بذلتهُ من الجهد في وضع عباراتهِ وسبكها بقدر ما في الامكان على ابسط صورة الخ » (كتاب علم النفس للمرحوم الشيخ محمد شريف سليم سنة ١٩١١ : ص ل مقدمة) وفي ص ١٠ « هذا وقد اعتبرنا في توضيح معاني هذه الكلمات مفاهيمها العامة الجارية على ألسنة العالم » وتواضع الاستاذان علي الجارم ومصطفى امين فقالا في مقدمة كتابهما (علم النفس وآثاره في التربية والتعليم) « وقد حافظنا على ما وضعهُ رجال العربية قبلنا من اصطلاحات العلم واوضاعه . اعترافاً بسبقهم وحبًّا في اتصال عملنا باعمالهم. ولكيلا يضيع الخلاف اللفظي شيئاً من وقت الباحث او يكون سبباً في اختلاط الامر عليهِ » . وعلى الرغم من ضيق دائرة علم النفس الذي يدرّس في مصر واقتصاره على علم النفس التعليمي لطلبة المعلمين والمعلمات وسهولة مصطلحات هذا الفرع وانتشارها فقد شعر الاساتذة الاجلاء المرحوم الشيخ شريف والاستاذ علي الجارم ومصطفى امين وامين مرسي قنديل الذين يرجع اليهم كل الفضل في ادخال علم النفس في مصر ونقله الى العربية وبذل الجهود

---

(١) راجع مقتطف اكتوبر ١٩٣٣

لجبارة في سبيل كشف مغلقه ونشره بين الناس ومن وقف على أثرهم امثال الاساتذة حسنين عبد لرازق وحامد عبد القادر وعطية الابراشي وكاتب هذه السطور في مصر وغيرهم في الشام والعراق كل هؤلاء لا اخالهم الاّ شاعرين بشدة حاجة المشتغلين بهذا العمل الى ضبط مصطلحاته وتعميمها قبل ان يترى سيل فروع علم النفس الاخرى عن طريق معهد التربية وكلية الحقوق وتتشعب المصطلحات ويتعذر الاتفاق

وسأذكر للقارىء بعض نماذج الترجمات العربية لأهم مصطلحات علم النفس التعليمي واكثرها استعمالاً تخيرتها من الكتب العربية الآتية التي ما زالت تستخدم كمراجع وكتب مدرسية في مدارس المعلمين والمعلمات وكليات الازهر ومعهد التربية

(١) علم النفس للمرحوم الشيخ محمد شريف سليم
(٢) علم النفس وأثره في التربية والتعليم للاستاذين علي الجارم ومصطفى امين
(٣) اصول علم النفس للاستاذ امين مرسي قنديل — جزءان
(٤) في علم النفس — الجزء الاول — للاساتذة حامد عبد القادر وعطية الابراشي ومظهر سعيد
(٥) » » » — » الثاني — للاستاذين » » » » » »

وسأتناول علم النفس موضوعاً موضوعاً متدرجاً من الشعور ومظاهره الى الاحساس فالادراك وانواعه فالعمليات العقلية والغرائز

موضوع الشعور

أول مظهر من مظاهر الحياة العقلية وأقوى دليل على وجودها شعور الكائن بذاته ونفسه وما حواليه من اشياء وما يقوم بهِ من افعال او على حد قول فلاسفة المسلمين « شعور الانسان بذاته وما يصدر عن هذه الذات وما هو خارج عنها » وبعبارة اخرى ادراكه لنفسه وما يظهر في ذهنه وما يشعر به في داخله وما يحيط بهِ وافعاله التي يرمي بها الى غرض خاص وغير ذلك مما يحقق قول الفيلسوف ديكارت المأثور (أنا ادرك او افكر فأنا موجود Cogito ergo sum)
وقد يتدرج هذا الشعور من مجرد شعور الانسان بشيء يؤثر في حاسة من حواسه شعوراً غامضاً غير محدود يدرك بهِ ان هناك شيئاً ولكن لا يستطيع ان يميزه ، الى شعور كامل بذلك الشيء وادراك لميزاته وظروفه وأحواله يصل الى ما يسميه الفيلسوف الالماني (كانت) بالمعرفة . واللفظ الذي يتضمن كل هذا المعنى هو بالانكليزية Consciousness ومثله بالفرنسية Conscience . وقد اتفق المؤلفون على ترجمته بالشعور ولم يشذ عن هذا غير الاستاذ الابراشي فقد سماه في بعض الاحوال بالوعي (ص ٣١ . حالة الوعي واليقظة اي الشعور) ولكنهم اختلفوا في تعريفهم له فقد عرّفه المرحوم الشيخ شريف (ص ٨١) بتعرف النفس على نفسها وهي متلبسة بحال من أحوالها فهو الادراك العام للنفس وهو بذلك اخرج ادراك النفس

لغيرها وما تقوم بهِ من افعال ليست في ذاتهامن حالات النفس وقال الاستاذ الجارم (ص ٤١) معرفة الانسان ما يجري في نفسه من الوجدان والفكر والارادة

واتفقوا كذلك على ترجمة Focus (النقطة التي يتجمع او يتركز فيها الشعور) بالبؤرة و Margin (ما يخرج عن المركز ولكنهُ في مجال الشعور على كل حال) بالهامش نقلاً عن علم الضوء والشعور الناقص او الهامش Subconsciousness يشبه الشعور ما عدا الاستاذ عبد الرازق (ص ٢) فقد سماه الشعور الضعيف وهذه الترجمة في الواقع لا غبار عليها لولا انها تختلط بمعنى Anoetic consciousness وهي كلمة جديدة لم ترد بعد في الكتب العربية وضعها العلامة الانكليزي ستاوت للدلالة على الشعور الغامض الضعيف غير المحدود

وترجموا الشعور الباطن (Unconsciousness) الذي هو مظهر الحياة العقلية للعقل الباطن في النوم والسرحان باللاشعور وكنا نرجو ان لا تترجم هذه الكلمة حرفيًّا حتى نصلح عيب الكلمة الاوروبية التي يفهم منها الطلاب والمبتدئون حالة عدم الشعور او فقدانه (non—consciousness) في حالة الموت والتخدير والاغماء. اما الابراشي فقد ترجمها باللاوعي قياساً على ترجمته الشعور بالوعي

وللشعور مظاهر سماها الاقدمون volition, affection, knowing او Will فترجمها من نقل عنهم بالمعرفة او الفكر والوجدان والارادة (الجارم ٤١)

ورأى المحدثون ما في التسمية من خطأ فظيع اذ ليس كل ادراك معرفة اوفكر وليس كل عمل يقوم بهِ الانسان بأرادة فسموها cognition و affection و conation فترجمها من نقل عنهم الادراك والوجدان والنزوع (ما عدا عبد الرازق فقد احتفظ للادراك بلفظهِ القديم وهو المعرفة وذكرهُ كذلك هكذا ص ٢٨—مظهر المعرفة Cognition) وترجمها الشيخ شريف تارة معرفة وادراكاً وتارة علماً . ففي ص ٤٢ مثلاً يقول (الغرائز يندفع اليها الطفل بطبيعته من غير علم ولا شعور فهي غير مشعور بها) والعلم فوق الادراك والمعرفة بمراحل

وفي حين ان بعضهم اخذ باللفظة الحديثة Affection الاَّ انهم ادخلوا تحت مظهر الوجدان ما لم يقل بهِ المحدثون فأدخل الجارم (ص ٤٧) الجوع والعطش وهما أمران عضويان فسيولوجيان وعرَّف الاستاذ قنديل الوجدان (ص ٥٠) بما تجده في نفسك من لذة وألم .من غير ان يفرق بين اللذة والألم المعنويين وهما آخر مراتب الارتياح وعدم الارتياح واللذة والالم الماديين وهما عضويَّان

موضوع الاحساس

كلمة Sensation الانكليزية والفرنسية بالمعنى السيكولوجي المحدود ومشتقاتها يقصد بها العملية الفيزيقية الفسيولوجية التي تستقبل بها الحواس آثار المؤثرات الخارجية كما هي وترسلها

عن طريق الأعصاب المرسلة او المصدرة الى المناطق الخاصة بالتصرف فيها في مراكز الجهاز العصبي. ولاشيء غير هذا المعنى مطلقاً. وقد اتفقوا على ترجمتها بالاحساس ولكنهم عند تفسير معناها ادخلوا تحتها عمليات عقلية ومظاهر شعورية ليست من الاحساس في شيء حتى انهُ ليصعب على الطالب والقارىء ان يفهم المعنى المحدود والفارق بين الاحساس وبين العمليات العقلية والحالات النفسية الاخرى. فالشيخ شريف يقول (ص ٤٦) الاحساس قوة طبيعية اودعها الله في النفس تجد بها لذة وألماً في اشياء (وهذا هو الوجدان) وفي (ص ٤٩) الاحساسات أثرية تظهر آثارها على وجه الانسان (وهذه ايضاً وجدانات) وفي (ص ٥٠) القوة الحسية هي الاحساس الذي تسبب من حصول ظاهرة من ظواهر القوة الطبيعية كألم الجوع — وفي (ص ٣٣) الظواهر الانفعالية تدخل تحت القوة الاحساسية. والسرور والخوف المعنويّان القوة الوجدانية وهي ارقى قوى الاحساس. فكأنهُ فرّق بين الاحساس والوجدان ولكنهُ اعتبرها مراتب للاحساس. وسبب هذا الخلط ما وقع فيهِ علماء الغرب انفسهم في القرن الماضي من الخطإ في الخلط بين كلمتي Feeling و Sensation. اما الاستاذ قنديل فقد ادخل في الاحساس عناصر الادراك الحسي ووضع كلمة الحس (ولا نعرف لها مقابلاً في الافرنجية للدلالة على كتلة مدركاتنا الحسية وخبراتنا السابقة (Apperceiving mass) فيقول فيهِ (ص ٧ الجزء الثاني) الاحساس والادراك الحسي يكوّنان معاً كل خبراتنا الحسية او الحس

ونظرة واحدة الى تقسيم الاستاذ Watt لمظاهر الشعور في كتابه[1] وهو حجة في موضوع الاحساس تبين لنا وجوب فصل الاحساس والمظاهر الادراكية الحسية عن المظاهر الوجدانية

I Sensory— Cognitive System includes all Sensations
II Emotive System includes all non — sensory feelings, pleasure, displeasure & all emotions.

اما في تقسيم الحواس والاحساسات وترجمتها فقد اتبعوا اساساً لا يتفق الى حد ما مع الاساس المعمول بهِ الآن في علم النفس الحديث والذي يجب ان يكون في ذاتهِ دليلاً للترجمة فالاحساسات تنقسم الى اربعة اقسام رئيسية هي

I Exteroceptive (outer)	وتشمل الالم العضوي والحرارة كمؤثر خارجي
II Preperoceptive (inner)	كالنطق والاحساس العضلي
III Interoceptive (inner)	كالاحساس بالجوع والعطش
IV Exteroceptive complex	كالسمع والبصر

المراجع
(1) H. J. Watt "The Sensory Basis or Structure of Knowledge"
(2) Sir Percival "The Psychology of Perception"
(3) Haliburton "A Handbook of Physiology"

(1) The Sensory Basis or Structure of Knowledge

وقد اقتصر معظم المؤلفين على ذكر الحواس الخمس الرئيسية السمع والبصر الخ واضاف الاستاذ حامد عبد القادر (ص ٤٩ الجزء الثاني) المعدة فقال (عدد الحواس عند القدماء خمسة ... واضاف المحدثون المعدة) وذكر (ص ٤٨) الحس الخارجي (للاحساسات الجلدية) والباطني (للالم والسرور) والموضعي والحركي وذكرها الاستاذ قنديل (ص ١٢ الجزء الثاني) كما يأتي

احساسات عضوية كالتنفس والدورة الدموية (ومنها الحشوية كالقلب والرئتين) ثم الحركية فالجلدية فالشمية والسمعية الخ

اما الاشياء المحسوسة ذاتها فقد سميت تارة بالمحسوسات (شريف ص٢٧) وتارة بالمحسات (شريف ص ٥٥)وهذه على كل حال ليس لها مقابل بالانكليزية يكمل مجموعة Percept (للمدرك الحسي) و Concept (للمدرك الكلي) ولذلك اقترحنا ان تضاف كلمة Sencept (للمحسوس) اما كلمة Stout الجديدة Sensum التي تدل على نوع الآثار الحسية التي تحل في العقل محل المؤثر الاصلي فيدركه العقل على مقتضاه، فلم ترد بعد في المؤلفات العربية

موضوع الادراك الحسي

ذكرنا ان العقل في مرتبة الاحساس يستقبل الآثار الصادرة عن المؤثرات الخارجية ولكن لا يكون لهذه الآثار قيمة عقلية او شأن في الحياة العقلية الاّ اذا اعطاها العقل معنى محدوداً بربط هذا الموقف الحاضر بمواقف سابقة عن طريق التداعي والتذكر والاسترجاع والتعرف وغير ذلك من العمليات التي تساعدنا على ادراك المواقف الخارجية اي انه (كما يقول سانديفورد) يقوم بعملية التعبير عن الاحساسات وترجمتها بطريقة تشعرنا بوجود المحسوسات التي هي مصدر هذه الاحساسات (راجع كتاب علم النفس — النظري والتعليمي لكاتب هذه السطور) . وهذه العملية تعرف في الافرنجية بكلمة Perception وجمهرة الاساتذة تميل الى ترجمة هذا المصطلح بـ « الادراك الحسي » ولكنهم في مواطن كثيرة استخدموا له مرادفات تجعل المعنى غامضاً بعض الغموض . فالشيخ شريف سماه الادراك الذهني (ص ٣) والحسي (ص ٢٥) والانساني (ص ٦٩) وكذلك ذكر له مراتب لا نجد لها مثيلاً في الافرنجية الحديثة الى ادراك اوّلي (ص ٧٥) وهو ادراك الموجودات الخارجية والتمييز بينها وهذا بدوره ينقسم الى ادراك اوّلي حسي (ص ٩٣) وهو معرفة الاشياء بمجرد الحس بها وادراك اولي وجداني (ص ٩٣) وهو معرفة الاشياء بمجرد وجدانها (كذا) ثم ادراك اولي عقلي (ص ١١١) وهو معرفة المعاني العامة الضرورية البالغة الغاية في الوضوح ومن ناحية اخرى قسمه (ص ٩٨) الى ادراك طبيعي من طبيعة الحواس نفسها وكسبي بعد تمرين الحواس واشراك بعضها مع بعض. وفي بعض المواضع اعتبر الادراك من عمل الحواس

فقال (ص ٢٥) للنظر ان يدرك كنه الاشياء . واشياء يستحيل ادراكها بالحس . والجارم (ص ٧٩) ذكر ولوع الطفل باحساس الشيء (اي ادراكه ادراكاً حسيًّا)

ولا يتعين في الادراك الحسي ان يعرف الانسان حقيقة ما يحس به ولو أنهُ يدركه ومن باب اولي لا يعلم بهِ علماً تامًّا فكثيراً ما يخطىء الادراك وتخدع الحواس ومع هذا يقول الاستاذ حامد (ص ٧٠ جزء ٢) الادراك الحسي يتضمن العلم بوجود شيء وفي (ص ٧٩) وظيفة الادراك الحسي هي ان تكون على علم تام بما هو واقع فهو العلم بالواقع وفي موضع آخر يشير الى بعض الادراكات الحسية (ص ١٣٦ جزء ٢) بأننا لا نشعر بهذه الاحساسات شعوراً محدوداً واضحاً وفي (ص ١٣٧) ومهما يكن من أمر هذه الاحساسات فانها غامضة يشعر بها عنصر وجداني يتغلب على العنصر الادراكي وهذا مناقض للتعريف الذي ينص على تمام العلم بالواقع عند الادراك الحسي . وأنا أرى ان ترجمة Perception بالادراك الحسي يجعل الحس صفة للادراك في حين ان المقصور هو ادراك العقل لما يحس بهِ فالحس صفة المدركات وليس للادراك ولذلك ارتاح الى ترجمتها «بادراك المحسوسات» . أما المدركات ذاتها Percepts فأفضل ترجمة لها المدركات الحسية تمييزاً لها عن المحسوسات التي لم تدرك بعد وسماها حامد (ص ١٣٦ — ٢) بالادراكات الحسية ولعله يقصد انواع الادراك من حيث تعدد المدركات ففي (ص ١٠٠ — ٢) يقول تنقسم الادراكات الى عليا ودنيا . فالعليا هي الابصار والسمع الخ والمعنى غامض على كل حال لان السمع والابصار ليسا ادراكات ولا مدركات وانما هما احساس

وبعد ادراك المحسوسات ترتبط هذه المعلومات الجديدة بما يماثلها في كتلة معلوماتنا القديمة حتى تصير منها وتسمى هذه العملية Apperception ولم يشر اليها واحد من المؤلفين الا الاستاذ حامد (ص ١٩٨ — ٢) فقد ترجمها الترابط وترجم Corrolation وهي عملية ادراك العلاقات بين المواقف (على حد رأي العلامة الانكليزي Spearman) بالرابط وهما عمليتان مختلفان ولكنهُ عاد فترجم Apperceiving mass بالكتل الربطية (يقصد الترابطية) وانا أميل الى ترجمة عملية Apperception بتثبيت المدركات الحسية للاسباب التي ذكرتها في المقال السابق

فاذا ازدادت المدركات الحسية المتشابهة في الذهن عمد العقل الى الاقتصاد في عملياتهِ الادراكية فيجرد هذه المدركات من صفاتها العرضية ومميزاتها الحسية وينتزع الصفات الجوهرية ويضيع منها معنىً كليًّا يعممه على كل انواع هذه المدركات المتشابهة او المترابطة وتعرف هذه العملية في علم النفس والمنطق بكلمة Conception والمدرك الكلي Concept وقد ترجموها بادراك الكليات وتارةً المعقوليات والمفهوميات واضاف حامد (ص ٢٥—٢) ادراك الكلي المعنوي وكذلك اضاف الى عمليات الادراك الثلاث السابقة او مستويات الادراك ما سماه (ص ٢٥ — ٢) المستوى الفلسفي

حياة روسيا الفكرية

الكتب والكتّاب والقرّاء

في جمهوريات روسيا

ما تنشرهُ المطابع وما يطالعهُ القرّاء

هل تصدق ايها القارىء الكريم انه طبع في روسيا في سنة ١٩٣١ ترجمة كل مؤلفات العلامة داروين فبيع منها في خلال سنة واحدة عشرة آلاف مجموعة وان خمسة آلاف نسخة من منطق هجل نفدت في خمسة ايام . وان مجموع النسخ التي بيعت في سنة ١٩٣٢ في جمهورية روسيا وحدها من الكتب والرسائل الجديدة بلغ ستمائة مليون نسخة ؟ اقرأ اذن ما يقوله اللورد باسفيلد (سدني وب) وهو من احرص الكتاب على توخي الحقيقة وايرادها

كان لنين يرى ان الكتب والرسائل والمجلات ، ناحية خطيرة الشأن ، من بيئة الانسان الاجتماعية . فيجب ان لا تترك للصدفة تتصرّف فيها ، ولا لشركات المتموّلين يستغلّونها لفائدتهم الخاصة ، ويضللون بما ينشرونهُ من المؤلفات اذهان الشعوب السوفيتية . لذلك جعل الحكومة السوفيتية المشرفة العليا على كل مايطبع وينشر في روسيا من الكتب والرسائل وجعل دور النشر ملكاً للامة كغيرها من المرافق العامة ، يضاف ما تجنيه من الربح في تجارتها الى ريع الدولة

وقد خطت الحكومة في هذه الناحية خطوات الجبابرة ، في خلال ١٣ سنة من يوم انشئت دار النشر الخاصة بالدولة في موسكو (وتعرف بالاوجيس Ogis) سنة ١٩١٩ الى آخر السنة الماضية . ففي سنة ١٩١٤ كان مجموع النسخ التي تباع في روسيا من الكتب والرسائل الجديدة لا يزيد على ١٣٠ مليون نسخة . وظلّ التقدم بطيئاً خلال السنوات العشر الاولى بعد الانقلاب (١٩١٧ - ١٩٢٨) ولكنه زاد زيادة كبيرة جدّاً في خلال السنوات الاربع الاخيرة ففي سنة ١٩٣٢ بيع من هذه النسخ ثلاثة اضعاف ما بيع سنة ١٩٢٨ ويقدر ما ينتظر بيعه هذه السنة بثمانية اضعاف ما بيع سنة ١٩٢٨ وقد ذكر اللورد باسفيلد في مقالة له في مجلة التاريخ الجاري (مارس ١٩٣٣ ص ٧٩٧) ان دور الطبع والنشر في جمهورية روسيا (دون غيرها من الجمهوريات السوفيتية كاوقرانيا ، التي يتألف منها اتحاد الجمهوريات السوفيتية) اخرجت وباعت في سنة ١٩٣٢ اكثر من ٦٠٠ مليون نسخة من الكتب والرسائل الجديدة البالغ عددها نحو ٤٠ الفاً وان متوسط عدد الملازم (الملزمة ١٦ صفحة) في كل نسخة منها بلغ خمس ملازم

اي ان مجموع الصفحات التي اشتملت عليها الكتب والرسائل الجديدة بلغ ٤٨٠٠٠٠٠٠٠٠ صفحة . وان مجموع الكتب والرسائل الجديدة التي نشرت في اتحاد الجمهوريات السوفيتية بلغ ٥٠ الفاً وعدد ما بيع منها من النسخ ٩٠٠ مليون . يضاف الى ذلك ان في هذا الاتحاد نحو ستة آلاف جريدة ومجلة مجموع النسخ التي توزع منها (يوميًّا او اسبوعيًّا او شهريًّا) اربعين مليون نسخة . فحركة النشر في اتحاد الجمهوريات السوفيتية تعدل بحسب تقدير اللورد باسفيلد ما يقابلها في الولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا والمانيا معاً

والحكومة الروسية تجني من عملها هذا ربحاً جزيلاً . فقد بلغ دخل دار النشر في موسكو (اوجيس) سنة ١٩٣٢ اكثر من ٢٥٠ مليون روبل (٢٥ مليون جنيه ذهب) ولكن هذا المبلغ يشمل ما بيع في فروع الدار من الورق وادوات الكتابة ومطبوعات الدور الاخرى كذلك. وأما ثمن ما بيع من مطبوعات الدار نفسها فنحو نصف ذلك . وبلغ الربح الصافي الذي جنته الحكومة الروسية من هذه الدار في السنة الماضية نحو ثلاثة ملايين جنيه

على ان سعة انتشار الكتب، ووفرة ربح الحكومة، لا يهمّاننا في هذا المقام، بقدر ما تهمّنا معرفة الموضوعات التي تعالجها هذه الكتب، وكيف يعامل كتّابها، ووسائل طبعها ونشرها ومراقبتها

فاذا صرفنا النظر عن الصحف الدورية ، وجدنا ان الكتب والرسائل التي تخرجها مطابع السوفيت تتباين من كرّاس صغير ، لا يزيد على اربع صفحات ، ويحتوي على خطبة للرفيق ستالين (يطبع من كراس كهذا عادة نحو مليوني نسخة) الى ترجمة كاملة لكل مؤلفات داروِن التي طبعت ونشرت سنة ١٩٣١ في ثمانية مجلدات. وقد طبع منها ١٠ آلاف نسخة كاملة فنفدت كلها قبل مايو سنة ١٩٣٢ . ثم اعيد طبعها في عشرة مجلدات وعشرة آلاف نسخة ولا يبعد ان تنفد قريباً. ولا ريب في ان الجانب الاكبر من المطبوعات الجديدة مؤلف من رسائل صغيرة ، ليس لها رونق خاص . ولكنك تجد كذلك مجلدات ضخمة مطبوعة على ورق من اجود اصناف الورق تحتوي على صور ملوّنة لاشهر الآثار المعلقة في دور السوفيت الفنية ، بل ان كثيراً من المطبوعات في المقام الاول من ناحية الفن والصناعة . والكتب تطبع في نحو خمسين لغة مختلفة من اللغات المستعملة في طول الاتحاد الروسي وعرضه من لبلندا على شواطىء المحيط المتجمد الشمالي الى مضيق بيرنغ الفاصل بين آسيا واميركا الشمالية

وتجد الى جنب مؤلفات الكتّاب الروسيين والاوقرانيين ، مؤلفات الالمان والانكليز والفرنسيين والايطاليين والاسبان والسويديين والتشكيين ، ومؤلفات الاجانب في الغالب علمية او صناعية . ولا تخلو من روايات وشعر وتاريخ . اما المطبوعات الموسيقية فكثيرة جدًّا ولا تقتصر على مؤلفات امة دون اخرى

وليس بالامر اليسير معرفة مقام المؤلفات الادبية معرفة مضبوطةً ولكنها اذا قيست بسائر

المطبوعات لاتقلُّ نسبتها الآن عنها في ايام الحكومات القيصرية . فهي ثمانية اضعاف ما كانت عليه قبل الثورة . فتجد في قائمة المطبوعات الادبية آثار الروائيين الروس القدماء والمحدثين على السواء محاذية لآثار الروائيين الانكليز والاميركيين والالمان والفرنسيين وقد ترجمت كلها وطبع منها الوف بل عشرات الالوف من النسخ . وقد أُعلن عن اخراج جميع مؤلفات فلوبير وبلزاك الفرنسيين في سنة ١٩٣٣ فليس من الصواب ان يقال ان الادب الرومي او الادب المطبوع في روسيا كلهُ ادب دعاية للنظام السوفيتي

ولعلّ الامر الذي يدهش لهُ الزائر عدد النسخ التي تطبع من كل كتاب. فيسترعي نظرهُ اولاً عدد الرسائل الصغيرة التي يطبع منها عشرات الالوف فيحسب ان الرقم ٦٠٠ الف نسخة — وهو عدد النسخ التي بيعت من الكتب والرسائل الجديدة من دار موسكو — رقم مضلّل لان معظم ما يباع انما هو هذه الرسائل القصيرة . ولكن اذا حسبت ان عدد النسخ التي بيعت ٦٠٠ مليون نسخة فيها نحو ٣٠٠٠ مليون ملزمة — وان الرسائل الصغيرة تتراوح بين نصف ملزمة او ربع ملزمة وملزمتين — ادركت ان لا بدّ ان يكون بين هذه الكتب مجلّدات ضخمة. والواقع ان مؤلفات ماركس وجوته وداروِن ولنين ، تطبع وتنشر في مجموعات كل مجموعة منها تختلف من ثمانية مجلدات او عشرة الى عشرين مجلداً . ومتوسط الطبعة الاولى من كل المطبوعات الجديدة في سنة ١٩٢٩ سواء اكانت كتباً او رسائل او مجموعات كتب ، كان ١٠٧٠٠ نسخة فبلغ سنة ١٩٣١ خمسة وعشرين الف نسخة . فاذا فرقنا بين مؤلفات العامة — كالرسائل والموجزات وكتب الاطفال — ومؤلفات الخاصة ، وجدنا ان متوسط الطبعة الاولى من الطائفة الاولى كانت ١٦٥٠٠ نسخة سنة ١٩٢٩ فبلغت ٥٤٠٠٠ نسخة سنة ١٩٣١ اما مؤلفات الخاصة فكان متوسط طبعتها الاولى سنة ١٩٢٩ نحو ٤٠٠٠ نسخة فبلغت ١١٦٠٠ نسخة سنة ١٩٣١ واما كتب الاطفال فليس من النادر ان تكون الطبعة الاولى ٢٠٠ الف نسخة

وكل كتاب، كتبهُ ماركس او لنين ، قديماً كان او جديداً ، مطبوعاً من قبل او مخطوطاً يطبع منهُ ١٠٠ الف نسخة في البدء. وقد يهم علماء الاقتصاد في مصر ، بل في دول الغرب ، ان يعلموا ان كتاباً في الاقتصاد لعالم اقتصادي روسي غير مشهور في اوربا واميركا ، طبع منهُ في سنة ١٩٣٢ مائة الف نسخة وان رسالة علمية عويصة اخرجت في طبعة من خمسة آلاف نسخة، وان العالِم پاڤلوف لما اخرج كتابهُ الجديد في « الافعال العكسية المحوّلة » طبع منهُ في دار موسكو عشرين الف نسخة وجعل ثمنهُ نحو ٧٠ قرشاً فنفدت الطبعة كلها في الحال

بل هناك ما هو اغرب من ذلك وابعث على الدهشة . ففي سنة ١٩٣٢ اخرج اول جزء من دائرة معارف الفيلسوف هجل ، وهو كتاب عويص في المنطق وكان المطبوع منهُ ٥٠٠٠ نسخة فنفدت في خلال خمسة أيام ، فطبع منهُ ثانية عشرة آلاف نسخة نفدت في شهر فطبع

منهُ ثالثة ١٥ الف نسخة وبعد ثلاثة اشهر من صدورها جاءت الانباء بأن الطلب عليها ما يزال متوالياً . والراجح إنها تنفد قبل نهاية السنة

والظاهر مما تقدّم ان ما يطبع من هذه الكتب على كثرتهِ لا يكفي لسدّ الطلب فلما قيل لدار «الاوجيس» في ذلك قال مديرها انهُ لا يستطيع الحصول على المقدار الكافي من الورق مع ان المصانع الروسية تخرج مقادير كبيرة منهُ . فلما طلب الى اللجنة التي تدير مشروع السنوات الخمس ان تزيد مقدار الورق المصنوع قالت انها لا تستطيع الآن ان تزيد عدد العمال في مصانع الورق لانها تحتاج اليهم في الأعمال الأخرى التي لا بدّ من انتاجها للتصدير تسديداً لثمن واردات لا ندحة لروسيا عنها

اما توزيع هذا العدد الكبير من الكتب والرسائل فقد اصبح عملاً دقيقاً واسع النطاق ودار النشر في موسكو التي تخرج نحو ثلاثة ارباع الكتب التي تنشر وتباع في جمهورية روسيا لها الآن نحو سبعة آلاف فرع في طول البلاد وعرضها ، يديرها رجال ونساء يتناولون مرتباً معيناً مع مبلغ اضافي يختلف باختلاف الكميات التي يبيعونها من الكتب . وتكاد الدار لا تنشر اي اعلان عن كتبها مكتفية بالمراجعات التي تنشرها الصحف . ولكنها تنشر قوائم تحتوي على عناوين المطبوعات وتفصيلات عن حجمها وثمنها وترسلها الى المكتبات والاندية في موسكو وجوارها . ثم ان كتاب « تجارة الكتب السوفيتية » وهو عبارة عن كاتالوج وبيان للمطبوعات الجديدة يصدر مرة كل ١٥ يوماً ويطبع منهُ نحو ١٥ الف نسخة ترسل الى الذين تعرف عنهم رغبتهم في شراءِ الكتب . وهذا هو النظام الذي تجري عليهِ دور النشر في الجمهوريات السوفيتية الاخرى . ومما يبعث على الدهشة سرعة نفاد الكتب الغالية والعويصة من دون اعلان عنها . وتعليل ذلك اقبال الجماعات المنظمة على شرائها ، كالمكتبات والمعاهد العلمية والاندية والنقابات . فكل من هذه المنشآت تملك مجموعة من الكتب ولا تغفل إضافة المؤلفات الحديثة اليها . فلا يكاد يظهر ذكر كتاب في القائمة التي توزعها دار النشر حتى تنهال الطلبات عليهِ من هذه الجماعات المنظمة . وهذا يعلل لك سرعة نفاد مجموعات الكتب العويصة او الغالية ، كمجموعة مؤلفات داروين ، او مجموعة مؤلفات بلزاك . ويشكو الاساتذة في جامعة كيف انهم اذا تأخروا اياماً في طلب كتاب جديد ، في موضوعهم الخاص ، تعذّر عليهم اقتناؤه . يضاف الى ذلك نحو ١٠ آلاف استاذ ومحاضر في الجامعات ومعاهد التعليم العالي ، ونحو ٥٠٠ الف من المدرسين وملايين من الطلاّب ، كلهم عطاش ظماء للمطالعة . ومن وراء هؤلاء الصناع والعمال والفلاحون المنتظمون في دروس ليلية يقبلون على الكتب الجديدة التي تصلهم اقبال الظماء على عذب الماء

والاقتصاد في توزيع الكتب يفسر لك كثرة الطلب عليها ورخص ثمنها . يضاف الى ذلك

انفجار الرغبة في المطالعة في نفوس الروسيين. فان الجانب الاكبر من خمسين او ستين مليون من السكان، الذين تتباين اعمارهم من ١٠ سنوات الى خمسين سنة قد احسوا فجأة برغبة شديد في المطالعة ولست تجد في التاريخ ما هو شبيه بذلك

وقد يهم المشتغلين بصناعة القلم، ان يعلموا ان صناعة المؤلف في روسيا، هي اجدى الاعمال من الناحية المالية . ويقال ان مؤلفاً في روسيا يجني من مؤلفاته نحو سبعة آلاف جنيه كل سنة . والغالب ان يتعاقد المؤلف مع دار النشر على مبلغ معين يدفع لقاء طبع عدد معين من النسخ من كتاب له . ويعين هذا المبلغ بالاتفاق مع المؤلف بعد النظر في مقامه وشهرته ، ومقدار العمل الذي اقتضاه تأليف الكتاب ، وعدد النسخ التي يتفق على طبعها منه . فاذا زيدت النسخ المطبوعة عن العدد المقرر في العقد ، او اذا ارادت دار النشر اخراج طبعة جديدة منهُ . زيدت المكافأة التي ينالها المؤلف . فاذا اقتضت الطبعة الجديدة جانباً كبيراً من التعديل والتنقيح ، عومل المؤلف كأنهُ يقدم كتاباً جديداً للطبع . واقل ما يدفع لمؤلف ، على ما قيل للورد باسفيلد ٣٠ جنيهاً للملزمة الواحدة من رواية او كتاب مدرسي ابتدائي ، وسبعة جنيهات الى عشرة جنيهات عن كل ملزمة من كتاب اجنبي ترجمة وتصحيحاً وثلاثين جنيهاً الى ٤٠ جنيهاً عن كل ملزمة من كتاب علمي

اما مؤلفو الروايات التمثيلية فدخلهم اكبر من دخل المؤلفين لانهم يتقاضون نصيبهم من دار النشر ومن المسارح التي تمثل فيها رواياتهم

تُقدَّم الكتب الجديدة على اختلاف موضوعاتها الى دور النشر فيقبل بعضها ويهمل البعض الآخر، فاذا قبل احدها دعي المؤلف الى التعاقد مع الدار . وغالباً ما تختار الدار بعض الكتّاب المجهولين ، فتشجعهم على العمل وتعهد اليهم في وضع كتب معينة ، وتدفع لهم مقدماً ٢٥ في المائة من الاتعاب ، وعند تقديم الكتاب يدفع للمؤلف ٤٠ في المائة من المبلغ المتفق عليه انما يشترط عليه ان يصحح الكتاب وينقحهُ في خلال الطبع وعند نشره يدفع له الباقي

والمطبوعات كلها خاضعة لرقابة الحكومة . فلجنة المراقبة في موسكو (جلاتقي) لها ممثل في دار من دور النشر ، هو في الغالب مدير الدار . وعليهِ ان يمنع طبع اي كتاب او رسالة قبل ان تنال الفوز بموافقة لجنة المراقبة . فاذا سألت عن الكتب التي تحظرها لجنة المراقبة قيل لك الكتب الفاسدة ، والتي تحتوي على قذف في الناس، او تدعو الى اضطهاد الاقليات الشعبية او الدينية، اوما تشم منهُ رائحة المقاومة لنظام السوفييت. فاذا رفض طبع الكتاب مرة كان ذلك في الغالب قاضياً عليهِ ، ولكن قد يستطيع المؤلف ان يسترعي العناية لهُ لاعادة النظر فيهِ بواسطة نقابتهِ او بطلب يقدّم الى ولاة الامر . ولا يندر ان تسفر اعادة النظر عن اقرار الكتاب وطبعهِ

تخطيط الفسطاط (١)

بزوغ نجم العمارة الاسلامية بمصر

كان عمرو بن العاص اداريًّا حازماً وسياسيًّا محنكاً بقدر ما كان قائداً مجرباً . وكانت لهُ بمصر صلة تجارية مكنتهُ من درس احوالها درساً سياسيًّا وحربيًّا واقتصاديًّا قبل قدومه اليها بجيشه لغزوها وانتزاعها من ايدي « الاغريق اوالبيزنطيين » الذين يقال لهم « الرومان » خطأً

هذا ولا يعرف بالتحقيق اين باحث الامير عمرو بن العاص امير المؤمنين « الفاروق » في امر اعداد حملة على مصر بل ولا تاريخ هذه المفاوضة . غير ان المظنون ان هذه المباحثة حدثت في فترة حصار « قيسارية » حيث كان الامير عمرو مشتركاً في هذا الحصار بينما كان امير المؤمنين « الفاروق » مقيماً في معسكره بالقرب من دمشق وكيفما كانت الحال فقد اسفرت المفاوضة بينهما عن الاتفاق مبدئيًّا على فتح مصر بعد ما بسط ذلك الامير الداهية لسيده اسباب الحاجة الى هذا الفتح وضرورة الاستيلاء على مصر اعلاء لشوكة الاسلام ونشراً لرايته

وقد كان من اكبر الاسباب التي حملت عمرو على الاسراع في العمل والزحف على مصر ان « ارطابيون » حاكم اورشليم الاغريقي الذي ترك بيت المقدس قبل ان يضيق المسلمون الحصار عليهِ هرب الى مصر فأخذ يلم شعث جيشها وينظمهُ حتى يستطيع الثبات في وجه الجيش العربي ان حدثتهُ نفسه بالزحف على مصر

***

سار عمرو على رأس جيش مكون من ٤٠٠٠ جندي حتى بلغ رفح وبحيلتهِ المعروفة طاول رسول امير المؤمنين حتى بلغ العريش واجتاز حدود مصر الى ان بلغ « الفرما » ومنها سار الى القنطرة وواصل السير حتى بلغ الصالحية فبلبيس فاحتلها

شخص عمرو ببصره فلاحت له (هليوبوليس) او (عين شمس) بعد مسيرة يوم كامل وسط المزارع والحقول لكنهُ كان يرنو الى نقطة اخرى على النيل هي قرية (ام دنين) التي كانت شمالي مدينة بابليون عاصمة مصر في ذلك العهد والتي يكاد يكون موقعها اليوم على التقريب محصوراً بين شارع كلوت بك شرقاً وجنوباً وبين شارع قنطرة الدكة غرباً وشارع اولاد عنان

---

(١) نص محاضرة القاها الاستاذ محمود احمد مدير قسم الآثار العربية بوزارة الاوقاف في نادي رابطة الادب الجديد بمصر

ونوبار باشا شمالاً . فقد كانت(ام دنين)ميناءً نهرياً هاماً وموقعاً حربياً حصيناً وخط دفاع قوي عن ذلك الحصن المنيع المعروف بحصن(طريانوس)والذي نسميهِ اليوم (قصر الشمع) القائمة فوقهُ الآن (الكنيسة المعلقة) الغنية عن الذكر

لذلك كان لا بدَّ للجيش العربي لكي يستولي على عاصمة مصر حينذاك وعلى حصنها — من الاستيلاء اولاً على(ام دنين) وكان لا بدَّ للاروام لكي يحافظوا على العاصمة وحصنها من الاحتفاظ بام دنين وعدم تمكين العرب من الاستيلاء عليها . فدافعوا عنها دفاعاً شديداً اوقف جيش عمرو عن التقدم نحو بابليون فترةً غير قصيرة . وجعل مصير المعركة معلقاً في ميزان القدر لا يعلم ايُّ الفريقين يكون النصر في جانبه يدلُّ على ذلك قول المقريزيّ : —

ان القتال اشتدَّ عند ام دنين حتى تأخر النصر وقول ابي المحاسن حمي وطيس الحرب الى درجة جعلت معرفة اي الفريقين ينتصر مشكوكاً فيها

واخيراً وبخدعة حربية قامت بها القيادة العربية بعد ما وصلتها امداد كافية تحت قيادة الامير الزبير بن العوام ثم بجهل (تيودور) قائد الجيش الرومي بخدعة عمرو الحربية ، انهزم الروم هزيمة تحوَّلت الى كارثة حيث ابيد جيشهم عن بكرة ابيه الاَّ ۳۰۰ جندي تقهقروا الى حصن بابليون فوجدوا ابوابه مغلقة استعداداً من حاميته للدفاع عنهُ

لكن الاخبار التي تسرَّبت الى حامية الحصن خاصة بشدة هول النضال وبشدة بأس العرب خلعت قلوب جانب من حماة الحصن فلجأوا الى الفرار بطريق النيل الى مختلف الجهات

وكذلك اذنت نتيجة معركة ام دنين بقرب زوال الحكم البيزنطي ووضع اول حجر في أساس الحكم العربي

***

تحصن الاروام داخل حصن بابليون واحاطوه بخندق عميق نشروا في قاعهِ حسك الحديد (الحديد الشائك) . لكن القدر كان قد بتَّ في مصير هذا الحصن فان انتصار العرب في ام دنين كان لهُ تأثير عظيم ومزايا لا تقدَّر. فان بابليون او(مصر) التي كان يحميها الجيش الرومي المرابط في هذه العاصمة . اصبحت تحت رحمة عمرو الذي ملكها بغير قتال ثم سيطر على شاطىء النيل شمالي الحصن وجنوبيهُ بعد ما نقل معسكره من هليوبوليس وحشد جيشهُ شمالي الحصن في فضاء من الارض ممتد على التقريب اليوم من جامع عمرو جنوباً الى مجرى العيون بفم الخليج شمالاً اطلق عليهِ الاروام اسم (فساطوم) اي (المضرب) وسماه العرب بعد ذلك (الفسطاط) وفيهِ انشأ العرب بعد سقوط حصن بابليون في ايديهم تلك البنايات الساذجة التي كان قوامها الطين والابن والتي تكوَّن من مجموعها حيٌّ من احياء العاصمة كان على بساطته مقرَّ الحكم

ودار الامارة . اما ما ذكره المؤرخون غير ذلك من اسباب تسمية الفسطاط فلا سند له ولا يصح الركون اليهِ

نمت الفسطاط واتسعت عاماً بعد عام وادمجت فيها بابليون العاصمة القديمة فتنازلت لها هذه عن السيادة الى الآن ورضيت مرغمة بمحو اسم (بابليون) من عالم الوجود الاَّ انها احتفظت باسمها الثاني اسمها الخالد وهو (مصر) فان الفسطاط مع سطوتها لم تستطع محوه بل ولا اخفاءهُ فرضيت بمشاركته وصارت فسطاط عمرو تعرف (بالفسطاط وبفسطاط مصر) و(مصر) فقط فلما انشئت القاهرة ونقل مركز الحكم اليها تغلب اسم (مصر) على الفسطاط فتوارت الفسطاط كثيراً وها نحن اليوم نناديها باسم (مصر العتيقة) وذلك على الرغم من ان هذا الحي الذي نناديه الآن بذلك الاسم كانت ارضه وقت انشاء الفسطاط جزءاً من مجرى النيل مغموراً بمائهِ لم ينحسر عنها الاَّ في اواخر القرن الرابع الهجري ولم تنشأ فيها ابنية الاَّ بعد ذلك التاريخ

وهنا نرى الفرصة سانحة للجهر بحقيقة يتعين علينا اثباتها خدمة للحق والتاريخ وهي ان الفسطاط دثرت ودرست معالمها من نحو خمسة قرون ودفنت انقاضها وآثارها واسمها تحت تلك الاطلال الممتدة من عين الصيرة جنوباً الى حي البغالة وابن طولون شمالاً الى اذ كانت سنة ١٩١٨ حيث بعث اسمها من مرقده الاثري المؤرخ المرحوم « علي بك بهجت » مدير الآثار العربية الاسبق وبذل جهد الجبابرة حتى رفع التلال عن جزء من موقعها ثم عهد اليَّ في اعادة تخطيطه على اصله واصلاح ما امكن من بيوته ومصانعه التي ابقى الدهر على كثير من معالمها . وقد تفضل بعد ذلك جلالة مليكنا المعظم فشرَّفها بزيارته الكريمة وها هي اليوم يؤمها الفضلاء والعظماء من رجال الآثار ولا تزال تنادي ابناءها المهندسين المصريين ان تعالوا وابحثوا ونقبوا في آثاري من مواد البناء ومونه وطرق تخطيطه ما انتم بحاجة شديدة الى درسه وتفهمه والوقوف على مكنون سره مما يساعدكم على النهوض باعباء اعمالكم الحاضرة وفي بيوتي من النظام والترتيب ما يهديكم الى الطراز الملائم لمناخ بلادكم وعاداتها وما يجعلكم توقنون حقّاً ان تلك المدارس الاسلامية المتعامدة انما اختطَّها المماليك على مثال ذلك البيت القديم المصري البديع

***

نعود الى حصن بابليون فنراهُ على الرغم من هروب بعض حاميته قويّاً منيعاً يعزُّ على المهاجم اقتحامه خصوصاً بعد ما تعزَّزت حاميته بالنجدات القوية التي جمعها قواد الروم من انحاء الوجه البحري ووضعوها تحت تصرف (سيروس) الذي سماه العرب (المقوقس) حاكم مصر ونائب الامبراطور (هرقل)

كذلك نرى جيش عمرو محدقاً بالحصن من جهتيه البحرية والشرقية فقط بخلاف الجهتين

الغربية والجنوبية فقد كانتا مشرفتين على النيل ثم نرى القتال يستأنف بين الطرفين من آن الى آن بغير جدوى للعرب لوفرة معدات الحرب عند الروم وقلتها عند اعدائهم، ودامت الحال على هذا المنوال نحو ثمانية شهور ساور القلق امير المؤمنين (الفاروق) في خلالها على جيوش المسلمين التي رأى قوّادها ان الحيلة اجدى من القوة فعمدوا اليها، وكان الامير « الزبير بن العوام » رئيس اركان حرب عمرو هو المنفذ لها. فأنه خدع الحامية وغافلها وتركها في احدى الليالي تنام هادئة مطمئنة الى ان ادبر النصف الأول من الليل ثم أتى بسلم صعد عليه حتى بلغ قمة سور الحصن ولحق به البعض من اتباعه ومن القمة انحدروا الى احد ابواب الحصن [١] فقتلوا حراسه ثم فتحوه فتدفقت منه بقية الجيش وتغلغلت في داخل الحصن واعملت سيوفها في رقاب الحامية التي اخذت على غرة فتسابق رجالها الى الفرار ووطد العرب اقدامهم فلم تكن الا هنيهة حتى علا التكبير والتهليل ونادى بشير العرب (نصرٌ من الله وفتحٌ قريب)

لم يكن المقوقس حاضراً تلك المفاجأة التي اعقبتها الهزيمة الساحقة. بل كان قبلها قد نقل مركزه الى جزيرة الروضة هرباً من تلك الكارثة التي كان قد توقع حدوثها فاستعدَّ من قبل لها فركب سفينة اقلته من داخل الحصن الى الجزيرة مجتازة ذلك الباب التاريخي المعروف بالباب الحديد والذي تعلو برجيه الكنيسة المعلقة حالاً [٢]

***

ودارت مناظرة ظريفة بين المقوقس وبين رئيس الوفد العربي الذي ارسله عمرو بن العاص الى الاول اجابة لطلبه للمفاوضة في الصلح وذلك قبل سقوط الحصن وقد دلَّ اختيار اعضاء الوفد ورئيسه على علوّ كعب في السياسة من جانب عمرو بقدر ما دلت لهجة « عبادة بن الصامت» رئيس الوفد في مخاطبة المقوقس على مبلغ علوّ النفس والاعتداد بها

ركب عبادة—وكان طوله عشرة اشبار— السفن الى المقوقس ودخل عليه مع اصحابه فهابه المقوقس لسواده فقال « نحّوا عني هذا الأسود وقدّموا غيره يكلمني » فقالوا « ان هذا

---

(١) عدد (ابن دقاق) و (المقريزي) وغيرهما من المؤرخين على اختلاف اجناسهم ابواب الحصن وقرر بعضهم ان العرب دخلوا الحصن من بابه الجنوبي الذي هرب المقوقس منه والذي تقوم الآن على برجيه الكنيسة المعلقة وذلك رغماً عن ان موقعه من النيل يحول دون الدخول منه والمرجح المعقول جداً ان العرب دخلوا الحصن من باب رئيسي مفتوح في جداره الشرقي كشفت آثاره لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٩٢٥ م وهذا الباب لم يعده احد من المؤرخين من ابواب الحصن المعروفة مع انهم ذكروا امثاله فهل لنا ان نستنتج من هذا ان ابن دقاق والمقريزي كانا يعتمدان في تدوين مؤلفاتهما على النقل دون المعاينة. هذا ما تدل قرائن الحال عليه لان هذا الباب الشرقي الضخم كان كغيره من ابواب الحصن ظاهراً للعيان في عهد المقريزي

(٢) هذا ما اجمع عليه المؤرخون غير اني ارجح ان خروج المقوقس كان من الباب الغربي للحصن الباقي هيكل برجه الجنوبي الى الآن . اما برجه الشمالي فتعلوه الآن كنيسة مار جرجس

الاسود افضلنا رأياً وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدَّم علينا نرجع جميعاً الى رأيه وقوله وقد رأسه الامير علينا وامرنا ان لانخالف رأيه وقوله ». فقال المقوقس لعبادة «تقدم يا اسود كلمني برفق » فتقدَّم نحوه عبادة فقال ما ملخصه : —

قد سمعت مقالتك وان فيمن تركت من أصحابي الف رجل اسود كلهم اشد سواداً مني وافظع منظراً ولو رأيتهم لكنت ارهب لهم منك لي وانا وقد وليت وادبر شبابي ومع ذلك فاني بحمد الله ما اهاب مائة رجل من اعدائي لو استقبلوني جميعاً وكذلك اصحابي وذلك لأن رغبتنا في الجهاد في سبيل الله لا رغبةً في الدنيا وما يبالي احدنا اكان له قنطار من ذهب ام كان لايملك الاَّ درهماً لان غاية احدنا من الدنيا اكلة يسد بها جوعه لليله ونهاره وشملة يلتحفها لان نعيم الدنيا ليس بنعيم وانما النعيم والرخاء بالآخرة

فلما سمع المقوقس ذلك قال لاصحابه «هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظره وان قوله لأهيب عندي من منظره » ثم اقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال له

« ايها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن اصحابك واخبرك انه قادم الينا لقتالكم جيش من الروم لا يحصى عدد رجاله معروفون بالنجدة والشدة لا يبالي أحدهم من لقي ومن يقاتل وانا لنعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم وقد اقمتم بين اظهرنا شهوراً وانتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن نعطف عليكم لقلة ما بايديكم وتطيب انفسنا ان نصالحكم على ان نعطي كل رجل منكم دينارين واميركم مائة دينار ولخليفتكم الف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم قبل ان يغشاكم مالا طاقة لكم بهِ »

فقال عبادة بن الصامت : — « يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك. اما ما تخوفنا بهِ من كثرة عدد الروم وشدتهم وانا لا نقوي عليهم فلعمري ما هـذا بالذي تخوّفنا بهِ ولا بالذي يثنينا عما نحن فيه . وان كان ما قلتم حقّاً فذلك والله ارغب ما يكون لنا في قتالكم لان ذلك اعذر لنا عند ربنا اذا أقدمنا عليه فان قتلنا عن آخرنا كان ذلك امكن لنا في رضوانه وجنته ونكون منكم حينئذ على احدى الحسنيين اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم ، اوغنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا، وانها لأحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا وان الله عزَّ وجل قال لنا في كتابه: (كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله والله مع الصابرين) . وما منا رجلٌ الاَّ وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً ان يُرزق الشهادة وان لا يردّه الى بلده ولا الى ارضه ولا الى اهله وليس لأحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه اهله وولده وما همنا الاَّ ما امامنا

« وأما قولك اننا في ضيق وشدّة من معاشنا وحالنا فنحن في اوسع السعة . ولو كانت الدنيا كلها لنا ما اردنا منها لانفسنا اكثر مما نحن عليه. فانظر فيما تريد فليس بيننا وبينك

الاّ خصلة من ثلاث فاختر ايها شئت . ولا تطمع نفسك في الباطل . بذلك امرني الامير وبها امره امير المؤمنين وهو عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم من قبل الينا . اما ان اجبتم فالاسلام او الجزية فان ابيتم فليس بيننا وبينكم الاّ المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا او نصيب ما نريد منكم فانظروا لانفسكم »

وبعد حوار طويل بين عبادة بن الصامت وبين المقوقس من ناحيةٍ ثم بين هذا الاخير وبين اتباعه من ناحية اخرى قطعت المفاوضة واستؤنف القتال الذي انتهى بسقوط الحصن كما اسلفنا . وما حان صفر من سنة ۲۰ للهجرة (۲۰ يناير سنة ٦٤١م) حتى اعلن الامير عمرو ابن العاص فتح مصر فكان هذا الاعلان ايذاناً بضياع آخر وأثمن درّة في جبين الامبراطورية البيزنطية . واذا كان امبراطورهم عند ما طرده العرب من سوريا قال وهو ينظر اليها من فوق ظهر سفينته السلام عليك يا سوريا سلاماً لا اجتماع بعده فانا لا ندري ماذا قال قواده عند ما فارقوا الحصن نادمين على ملك افرطوا في التفريط فيه

***

كان اول ما عُنِيَ بهِ عمرو لما اصبح امير مصر ان شيد جامعهُ ثم وزع ما حوله من الارض على الجماعات من القبائل المتنوعة التي تألف منها جيشه فاختطت كل قبيلة فيما اختصت بهِ خططاً تألف من مجموعها اول عاصمة اسلامية للديار المصرية وأول نواة للعمارة الاسلامية بها

وفي الجهة البحرية من الجامع بنى عمرو داراً له وأخرى غربيها لابنه عبد الله عرفت «بالدار الصغرى» تمييزاً لها عن دار ابيه التي عرفت بالدار الكبرى . كذلك بنى الزبير بن العوام داراً لهُ بجوار دار عبد الله. وظلّ عمرو حاكماً لمصر الى ان عزل عنها سنة ۲۳ هـ (٦٤٤م) ثم عاد اليها سنة ۳۸ هـ (٦٥٨م) وبقي حاكماً عليها الى ان توفي سنة ٤۳ هـ (٦٦۳م)

***

اتسعت هذه المدينة رويداً رويداً وارتقت على عهد الخلفاء من بني امية وصارت مقرّاً للولاة من قبلهم وفيها ابتنى عبد العزيز بن مروان امير مصر من قبل اخيه الخليفة عبد الملك الاموي (دار الامارة) تعلوها قبة مذهبة شأن الامويين في تفخيم بناياتهم حتى تبزّ البنايات البيزنطية التي خلفها الروم وراءهم في الاقطار التى انتزعها العرب منهم

ولعلَّ دار الامارة هذه كانت اول بناية اسلامية كبيرة في مصر وصل الينا نبأ زخرفتها. وفي آخر لحظة من حياة الدولة الاموية قدم مصر مروان آخر خلفائها فارّاً امام جيوش العباسيين التي كانت تتعقبه حتى وصلت مصر فنزل القائدان صالح بن علي وأبو عون بعسكرهما في الشمال

الشرقي من الفسطاط وهناك شيدوا المساكن والدور وتكوّن من مجموعها ضاحية جديدة للفسطاط سميت (العسكر) وفي وسطها بنى صالح بن علي « دار امارة » جديدة صارت مقرًّا للامراء بدلاً من دار عبد العزيز بالفسطاط . ثم بنى الفضل بن صالح جامعاً جديداً بجوارها سمي جامع «العسكر» . وبذلك انتقل مقر الحكم من فسطاط عمرو الى «العسكر» . ولما قدم احمد بن طولون والياً على مصر نزل بدار الامارة والعسكر. ولكن لما ضاقت بعسكره وحاشيته بنى له قصراً خاصًّا في الميدان الذي تحت قلعة الجبل الآن . وانشأ ميداناً بين هذا القصر وبين الجبل القائم عليه حيّ طولون الآن . وحول هذا الميدان بنى قواده وعساكره اخطاطاً كاملة لكل قائد بعساكره خطة خاصة ومن مجموع هذه الاخطاط تكوّنت مدينة ثالثة شمالي العسكر سميت «بالقطائع» وان تكن في الواقع ضاحية ثانية او امتداداً لمدينة الفسطاط. والى هذه المدينة الجديدة انتقل مركز الحكم والامارة

وقد همَّ بنو طولون بالاستقلال بمصر عن دولة العباسيين ببغداد الاّ ان دولتهم دالت سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م) فأمر الخليفة المعتضد بالله العباسي عماله الذين جاءوا بعد الطولونيين بهدم القطائع وقصور بني طولون كراهةً فيهم وانتقاماً منهم . فاكتفى هؤلاء العمال بهدم القصور وتركوا القطائع والجامع على حالتهما فبقيت عامرة زاهرة اكثر من قرن بعد زوال حكم مؤسسيها

ولما زال حكم الاخشيديين وامتلك الفاطميون مصر انشأوا القاهرة شمالي الفسطاط . واتخذها خلفاؤهم عاصمة جديدة لملكهم ومقرًّا لهم وحاشيتهم دون سواهم. اما طوائف العسكر والتجار والعمال فكانوا يسكنون الفسطاط . ثم اخذ الناس يفدون على القاهرة آناً بعد آن حتى كسفت الفسطاط . وفي الواقع ان قيام القاهرة اقعد هذه العاصمة القديمة وقضى عليها تدريجاً فكانت القاهرة كلما تقدمت خطوة في سبيل الاتساع والعمران تقهقرت الفسطاط بجانبها خطوة الى الوراء في طريق التدهور والانحطاط حتى قال ابن سعيد (ومنذ بنيت القاهرة ضعفت مدينة الفسطاط وفرط في الاغتباط بها بعض الافراط)

ومما عجّل في خراب الفسطاط امران (اولهما) الشدة العظمى التي كانت في خلافة المستنصر ابتداء من سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤م) حيث ارتفعت اسعار الحاجيات واشتدّ الغلاء وكثر الوباء بالقاهرة والفسطاط والاقاليم مما سبب الفتنة الكبيرة التي خرب بسببها القطر بأكمله ومهاجرة جانب عظيم من سكان الفسطاط التي تخلى عنها اصحابها . فأخذوا كل ما وصلت اليه ايديهم من مواد البناء ونقلوه الى القاهرة حتى خرب معظم الفسطاط والعسكر والقطائع

والثاني — حريقها في وزارة شاور بن مجير السعدي لسبب التنافس على الوزارة بينه وبين ضرغام ثم تداخل اموري دي لوزينيان منتصراً لشاور سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦م) واعتزامهُ بعد ذلك

بسنتين غزو الفسطاط فصار اليها حتى بلغ بركة الحبش بعد ما استولى على بلبيس

وفي ذلك الوقت كان اكثر العسكر والقطائع خالياً من السكان بخلاف الفسطاط فانها وان لم تكن على عهدها الاول من القوة الاّ ان سكانها كانوا غير قليلين . ولما لم يسع شاور الدفاع عنها امر باخلائها وحرقها . وهنا ندع المقريزي يتكلم فيقول : —

(فنادى شاور بمصر ألاّ يقيم بها احد وازعج الناس في النقل منها فتركوا اموالهم ونجوا بانفسهم واولادهم وقد ماج الناس واضطربوا كأنهم خرجوا من قبورهم الى المحشر لا يعبأ والد بولده . ولا يلتفت اخ الى اخيه . وبلغ كراء الدابة من مصر الى القاهرة بضعة عشر ديناراً . وكراء الجمل الى ثلاثين ديناراً . ونزلوا بالقاهرة في المساجد والحمامات والازقة وعلى الطرقات فصاروا مطروحين بعيالهم واولادهم وقد سلموا سائر اموالهم . (الى ان قال) وبعث شاور الى مصر بعشرين الف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرق ذلك فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق الى السماء فصار منظراً مهولاً فاستمرت النار تأتي على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام اربعة وخمسين يوماً . ومن ثمَّ تحولت مصر الفسطاط الى تلك الاطلال المعروفة الآن بكيمان مصر

وبعد ان اوقد شاور النار في الفسطاط التجأ الى القاهرة . ولم يتمكن أموري من الاستيلاء على مصر لان صلاح الدين كان قد ظهر في عالم الوجود واضحى سيد مصر واستولى على الشام

***

وفي القرن التاسع الهجري لخص القلقشندي المحن التي نزلت بالفسطاط (الى ان قال) : —

(وبعد حريق شاور تزايد الخراب وكثر الخلو ولم يزل الأمر على ذلك في تقهقر أمره (الفسطاط) الى ان كانت دولة الظاهر بيبرس أحد ملوك الترك بالديار المصرية فصرف الناس همتهم الى هدم ما خلا من اخطاطه والبناء بانقاضه بساحل النيل بالفسطاط والقاهرة وتزايد الهدم فيه (الفسطاط) واستمرّ الى الآن حتى لم يبق من عماراته الاّ ما بساحل النيل وماجاوره الى مايلي الجامع العتيق (جامع عمرو) وما دانى ذلك ودثرت اكثر الخطط القديمة وعفى رسمها واضمحلّ ما بقي منها وتغيرت معالمهُ

واليوم ونحن في منتصف القرن الرابع عشر الهجري . لم يبق من الفسطاط الأصلية إلاّ كيمانها القائم فيما بين النيل والمقطم وما نسميه اليوم مصر القديمة لايمكن اعتبارهُ من بقاياها فان المنطقة المحصورة بين خط سكة حديد حلوان شرقاً وضفة النيل الشرقية غرباً لم تظهر الى عالم الوجود الاّ في اواخر القرن الرابع الهجري بعد ما تحول النيل من مجراه الأصلي شرقاً الى مجراه الحالي غرباً . وسبحان من لا يتحوّل ! !

أدب الصومعة وأدب الحياة

مقدمة الصنّاجة(١)

بين داليّة ابي العلاء (غير مجدٍ) ، و (رباعيات) الزهاوي ، و (مواكب) جبران ، و (صنّـاجة) الرياشي نسب وعرق متين . فهي على الجملة قنوط من العيش ، وملل من السعي ، وتضاحك بالناس . فكأن هذا الفرع من الأدب العربي شيء على حدة ، لا صلة بينه وبين الآخرين !

ويتلاقى على الفرع الجديد شعراء من كل صوب فسرب من ضفاف (دجلة) وسرب من مشارف (المهجر) يضاف اليهم شعراء ما برحوا زغب الحواصل . فلم يعتلوا الجو بعد ، ولا تجاوبت الجهات بأصواتهم . بل تسمع لهم بين الفترة والفترة هتفات تجيء بها الريح وتذهب

وإنك لتعجب حين تدري ان ذلك الفرع العربي الذي نبت ـ او كأنهُ نبت ـ على جوانب (اللزوميات) لم يستقم ساقهُ في النماء ، ولا خرج شطؤه على عادة الشجر ، فهو غراس عجيب ، طلع في (المعرة) ، واورق في (نيسابور) . فكأنما نبت في (دهليز) ابي العلاء ، ومال على (بساط) الخيام بالظل والزهر ! فقل في ذلك الفرع الاعوج : غراس نسقيه الماء عربيًّا ، فيخرج الزهر فارسيًّا . كاحدى الشجرات في حقلك ، على الحد ، همها عليك ، وظلها على جارك . . .

***

وذلك الفرع لم يتبدّل على الازمنة . فهو منذ ما مدّ الخيام بساطه الى يومك الحاضر شيمة واحدة . فمقت للناس كما رأيت ، وهزؤ بالحياة ، واطلاق النفس على الهوى ، وتباعد عن المعترك حتى لتحسب ان الدنيا خلقت لواحد ! فبينا أنت من يومك حيث تعجُّ الدنيا العريضة بالغادين على العيش ، وتزحم المناكب المناكب ، اذ الواحد من الجماعة يناديك من بعيد وهو في مثل كوة الصومعة . فتدهش لذلك المتخلف عن ركب الحياة ، تسائل نفسك ما شأنه ، وما تخلفهُ في آخر الخلائق ، وما يصنع بعمره ، ويُنتفع بهِ ! !

فتجد صاحبنا قعيد الصومعة ، محلول العزيمة . همّه من الدنيا بساط عشب ، وكأس خمر ، وساعة من حبيب – وعلى كل شيء بعد ذلك العفاء !

ولعمرك كيف يتبدّل (أدب الصومعة) هذا ، ويمد ساقيه على بحبوحة ، ومجاله اضيق من قيد الشبر ! ! فهو أشبه ما يكون بمخيلة (مانه) على قول (زولا) :

— (مانه) عصفور صغير ، على غصن صغير ، في ربيع عمره خمس دقائق . . .

---

(١) [illegible]

وهكذا (أدب الصومعة) لفّ ودوران على غرض أيسر من ان يحسب في الهموم فلا غوص على النفس ، ولا تطلع الى محجّب من وجوه الحياة ، ولا كدح في صعيد الفكر وراء الحق والجمال . فاذا جاد حبيب بساعة، وامتلأت كأس براح ، واخضرّ مطرح بعشب، قامت الدنيا في نظر الجماعة ، واستراحوا حيث تتعب العقول !

ولقد أشرفت الدنيا على آخرها . و (أدب الصومعة) في موضعه لا يتحوّل . فلا مدّ اذناً بعد (الخيام)، ولا اطرح عيناً، ولا سرح اصبعاً ، فالقصة ان شاعر الفرس بعد ان جاب فكره الأرض والسموات ، وأوفى على الامر ، برّح بهِ الكد ، فاطلق في وجه الحياة رباعية حرى، عذره بها عذر الغمرة التي تغم النفس بعض الاحايين ثم تنجلي . فتعلق اولئك على الرباعية (السوداء) . وحسبوا ان تلك النفثة غاية الرجل من الفلسفة ، وجماع رأيه . ومعاذ (ابي الفتح) عمر ، وهو نادرة فارس في الحكمة والطبيعيات والفقه والتكايف والتاريخ وعلوم النجوم ان يقصر العيش على هبوط الطبع ، وانتكاس الذهن !

فأعيى الأدب مُسمّر عليه بتلك النفثة الفانية . تتحوّل العقائد ، وتترامى الأغراض، وتنفسح شقة الفكر البشري ، وهو المعلق في مكانه !

***

و (أدب الصومعة) أدب الحب والطبيعة ، في زعم أهله . فاذا جئتهم تسأل لساناً واحداً يبحث الحب والطبيعة،كأنْ يذكر لك مثلاً علاقة الطبع بالحساسة، او رابطة النفس بالطبيعة في شيمة من شيم الخلقة فانك تطلب ريشة العنقاء !

فالجماعة كندامى (المجوس) يحتسون الخمر بالنظر ، وينشقون الزهر باطراف الاصابع !

***

ان الادب الحق غير ذلك !

هذا (شكسبير) وهو نادرة الازمان ، تكاد العيون اليوم تتغامز على اوجه . ويكاد المتشددون يهمون بالقول ان « الشكسبيرية » على شفا . فسقوطها اقرب ممــا في الحسبان . ذلك ان الادب « المطنّب » الذي لا ينغمس في معمعان الحياة حتى الركبتين ، اصبح مزلزل القدم في جيلِ « التبسط» من هذا ! . وبوادر «الشعوبية »الادبية الجديدة ما ترى في الادب الفرنسي مثلاً من تنكب عن الدرب، حتى ليستطيع امس كاتب ناشيء « كلودين » ان يضحك على انف « كورنايل » فيقول فيهِ « صنم الفضائل الاكه » ، ولا تقوم القيامة ...

وكما يقال في الادب يقال في الموسيقى ، وفي التصوير ، وفي التمثيل ، وفي مختلف الفنون « فونه » آية الجيل المولي عند الفرنسويين ، لا يكاد يذكر بشفة في فجر « الكيبيزم » الطالع . ويكاد « وغنر » يخفت صيته في ضجة « الانطلاق » التي يثيرها « فان دونغن »

و « رينالدوهن » فلقد اعقب نسق الدقائق في الرسم نسق الجملة ،واعقب التبسط في الموسيقى التماسك . وبكلمة اخرى ، فالفنون اليوم تتنزل من رفرف التأله الى مستوى الناس ...

فاذا جاز ان يقال هكذا في « شكسبير » و«كورنايل »واضرابهما من اصحاب المتعات في فهرس الفكر البشري فكم يجاز — بالله عليك — ان يقال في زمرة « الخيّاميين» المساكين !!

***

قال « بول ڤاليري » يوم رفعت القبة على قبر الجندي المجهول في باريس .

« على اصحابنا — يعني اهل الادب — ان يستيقظوا ! فقبر الجندي المجهول قصيدة تخرجها الحياة على اتم ما يكون ، دون ان تفتقر الينا فتتلاقى تحت القبة قلوب الفرنسويين من كل حدب .ترف على البلاطة ، وتحوّم بملايين الاغراض المتفرّقة ، من الف المشاعر الى يأسها... فاذا انطلقت الحياة تخرج للناس في غيبة الادب وتقصيره امثال هذه القصائد الوافية ، فما حاجتهم الى الشعراء ! ! »

فعلى الادب ان ينزل الميدان . عليه ان يغشى الحياة ، ويدخل من الابواب ومن النوافذ ومن شقوق الحائط !

ان الادب مرآة الحياة . مجالها مجاله . واطارها اطاره . فكل ادب لا يتراءى فيهِ وجه الحياة على تمامه ، فهو مرآة ناقصة ، طرحها اخلق من الابقاء عليها . وكما انَّ الحياة قسوة واعنات وتصعيد وتصويب ، كذلك يجب للادب . فيكون عليه غبار الكد . فن المحصل ان الصحولة لا تقذف اللؤلؤ ، ولا تشق الاصبع عباب اليم . ومن العبث ان لا يجمل الادب في تقليد الحياة ، حذوك الشيء بالشيء . فعظام « اوسكاروايلد » بليت في ترابه ، وبلي معهُ قوله «الحياة تقلد الادب ، والادب لا يقلد الحياة»

والادب تأدية رسالة . عهده في الله : الحق والجمال . ففي العهد ان تؤدي الرسالة وهي تقطر بدم القلب ! كدٌّ على الحق ، حتى يشعشع بياض الصحيفة من البرهان . وهوى للجمال حتى تتفتق قصبة القلم من الوله ! !

هذا هو الادب. وذلك شأنه في الميدان . اما أن يظل المتمشي على الحافة ، في رباعيات (الخيّاميين) وخماسياتهم وسداسياتهم الى آخر الحساب ، ينظر من بعيد ولا يلقي قدماً ، فالحياة بالامنةٌ

***

ذلك ، فضلاً عن ان« ادب الصومعة » غريب في عقر داره. فهو يتهالك في التباعد عنا ، تقرّباً الى ذوق الفرس القدماء من جيل الخيّام. تراهم يطبعون اذواقهم على الفارسية العتيقة. يتخذون لها المقاطع مقطّعة من كل وزن ، وبياض الصحيفة صحراوات رحيبة بين البيت

والبيت . حتى لقد كاد باعة الورق يدّعون انهم انصاف ادباء ، محتجّين بذلك علينا ...

وتراهم يخرجون الدواوين في طائفة من الصور ، تقليداً « لانجيل الخيّاميين » فقد اجمع مترجمو « الرباعيات » على انها وجدت في صور ترمز اليها . وتراهم يزرون بالاوضاع ، ويعبثون بالتقليد الكريم ، شأن الخيّام ، وقد ازرى بالفارسية وعبث بتقاليدها يوم الرباعيات

إن شرط الادب قبل اي شيء ، ان يكون ، في الاقل ، من نصيب الامة . تفيء اليهِ بكلفة مرفوعة وسبيل ممهد . وان يغدو صورة صحيحة في تاريخها ومشاعرها وعقائدها

وشرط الصدق في الادب ان يصدر واحدنا عن ذات نفسهِ ، وعن بيئته ، فلا يكون منّا ، ولسانه مثلاً يلعلع علينا من خال (الرباعيات) الاجنبية !

وشرط التلاقي بين الادب والفن على صنيع واحد ، ان تكون الريشة في دورها والقلم في دوره . لا ان تطغى الريشة على القلم . فيقصر الادب ، ويقوم الفن بالدورين . اذ الادب ادب لا يزيده الفن شيئاً على المحك ، ولو تولاه (ليونار ده فنسي) نفسه بالف (جوكوندا) ؟

وشرط الاجادة ان ترضي الاوضاع عن النتاج . فلا يقطع الواحد حبل الابد ، وينطلق على رأسه . ففي الادب سياق هو الحسن على كل جيل . شرط المضمار فيه ان تذهب الجياد في شوط واحد . لا ان يند الجواد عن فوجه ، وينفرط التسابق !

***

هذا من جهة الغرض . واما من جهة الصناعة ، فبيننا وبين الخيّاميين، خلاف ننادي بهِ على السطوح ! فنقول نحن بالخاطر الشائع ، في الصنيع الفني ، من المستّهل الى المقطع . حتى تغدو القصيدة « قطعة » واحدة ملمومة الاطراف . لا افراط بها ولا تفريط . وبالمعنى الذي يسكن المبنى . فينصب الماء في ذوقنا ملء الاناء . معنى واحد في مبنى واحد ، لا الف اناء لقطرة ماء . . .

ونقول بالاداء السريّ . فالديباجة شرط مقدم . اذ ان الصنيع الفني ينهض بجناحين المعنى من جانب ، والمبنى من جانب . والادب بيان . فكيف يصلح الأّ صبيحاً ظاهر البهجة مدفّق الرونق . حتى لقد تشدد نفر من اصحابنا «فاحسـوا» انتفاضة الحياة في اللفظة الواحدة — ونعم التشدّد !

ونقول بالميسم المطبوع . فيكون على الصنيع الفني نفس صاحبه يكاد القارىء يتبيّنهُ من الرائحة . . . فنسلم الاعراض في الادب ، ويصبح لكل بنت من بنات الافكار والد !

ذلك رأينا في الصناعة . واما رأي الخيّاميين، فتقطيع الاوصال في « الوحدة » الفنية. وكيل الالفاظ في المعنى . والعبث بالمبنى . والتقليد في اللهجة حتى ليقبل واحدهم ، على رشاش من ريق الف قائل . . . وعفا الله عن الباقي !

الزراعة المصرية القديمة

نظرة اجمالية

للدكتور حسن كمال

توطن قدماء المصريين وادي النيل منذ آلاف السنين . ومن ذلك الوقت والبلاد كانت عرضة لغزو الاجانب وفتح الفاتحين. ولما توثقت عرى التعامل مع البلدان المجاورة زاد الاختلاط وكثرت الهجرة بين الاقطار المتاخمة والمملكة المصرية على توالي الاجيال . لكن بالرغم من ذلك حافظ المصري على خصاله وعاداته واخلاقه . ولما كانت مصر « هدية النيل » جاز لنا ان نستنتج ان تأثير هذا النهر العظيم والمعيشة في واديه كانا عنصرين قويين في محافظة سكان تلك البقعة على طباعهم بل وفي صبغ كل من يقطنها بنفس الصبغة من حيث المعيشة والطباع والمعاملة او بعبارة اوجز من حيث «التمصّر» . ولسنا نعرف قطراً في هذا العالم يعتمد في معيشته على نهر واحد الا القطر المصري. كذلك لا يوجد نهر في العالم له خواص وادوار طبيعية منتظمة مثل النيل . فاذا علمت ذلك ثم زدته فحصاً وتمحيصاً اتضح لك ان سكان القطر المصري لا بدّ ان يكونوا محافظين على مصريتهم جدّ المحافظة كما حافظ نيلهم على نظامه وحافظت تربتهم على طبيعتها لذلك كان هذا الثبات في طباع القوم واخلاقهم ومعاملاتهم ثمرة وادي النيل وتربته . والمعروف ان كل عنصر اجنبي استوطن القطر المصري في الازمنة الغابرة تأثر تدريجاً بالمؤثرات المصرية حتى تمصّر الى حدّ بعيد . وليس هذا الامر بالمستغرب لان المعروف في اقطار العالم ان الطبائع الخاصة بسكان المعمورة هي وليدة الاقليم والتربة . وان مصر تمثل هذه الحقيقة اوضح تمثيل . فهي بعزلتها شمالاً بواسطة البحر الابيض المتوسط وشرقاً وغرباً وجنوباً بالصحارى جاءت برهاناً ساطعاً على صدق هذا الرأي

ومن الطباع المصرية الغريزية ولعُ المصريين بالزراعة وفروعها المتباينة حتى جرى ذلك في نفوسهم جريان الدم في الجسد . فيجد الباحث في تاريخ مصر القديم ان اهلها كانوا مزارعين من اقدم الازمنة وان خبرتهم في الفلاحة ذاعت وصيتهم في طرق الريّ والمساحة علا وارتفع . فتمكنوا بمرور الزمن من التغلب على العقبات الناجمة من فيضان النيل وطبيعة الارض وحصر القوم زراعتهم في حاجاتهم الاقتصادية . فابتكروا اولاً طريقة لقياس الزمن وتجزئته بما يتفق مع زراعتهم فأدخلوا السنة الشمسية ذات الثلاثمائة والخمسة والستين يوماً في حسابهم

البقرة المقدسة « حا تحور » من العهد الصاوي
دار تحف القاهرة تصوير الدكتور حسن كمال

وكان ذلك عام ٤٢٤١ قبل الميلاد . ثم قسموا السنة الى ثلاثة فصول زراعية هي فصل البذر وفصل الحصاد وفصل الفيضان النيلي . ثم جزأوا كل فصل بعد ذلك الى اربعة اشهر فصارت سنتهم مقسّمة الى اثني عشر شهراً كما هي الحال عندنا الآن . ثم تغلبوا على صعوبة اختلاف ارتفاع الاراضي بان قسّموها الى عدة حياض وذلك باقامة الجسور وحفر الترع . ثم فرضوا الضرائب قياساً الى المساحة المزروعة وذلك بمعرفة الحد الاقصى لفيضان النيل السنوي . لان هذا الاخير يعطيهم فكرة عامة عما يمكن ان يكون عليهِ مقدار المحصول السنوي وقتئذٍ . وتفننوا في طرق الري فشادوا خزاناً بالفيوم وذلك في عهد الاسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ - ١٧٩٠ ق.م .) وكان هذا الخزان يحجز مقداراً من الماء يكفي لري الدلتا بعد هبوط النيل

ووردت روايات كثيرة من المؤرخين عن مجرى النيل اهمها حكاية هيردوتس الذي قال ان مينا اول ملك حكم مصر مجتمعة (حوالي عام ٣٢٠٠ ق . م .) حفر مجرى آخر للنيل قبالة منف وحوّل هذا النهر العظيم الى مجراهُ الجديد (وهو الحالي) فربح بذلك منطقة كبيرة شاد عليها مدينة منف عاصمته الجديدة وقتئذٍ

ومنذ ما بدأ اهتمام المصريين بالشؤون الزراعية ينمو ويكبر (وهذا الاهتمام يرجع تاريخه الى اقدم العصور المعروفة) اخذت مصر تتقدم في فروع الزراعة على اختلاف انواعها بنفس الخطوات التي خطتها في مدنيتها وابتكاراتها حتى صارت في النهاية مملكة زراعية صناعية من الطبقة الاولى واشتهرت بضائعها بين الامم فصار للكتان المصري المرتبة الاولى في الاسواق . كذلك مصنوعاتها الخزفية والزجاجية والخشبية

ولا ينحصر السبب في تقدم الزراعة المصرية في خصب التربة وحسب وما احدثهُ ذلك في نفوس الاهالي بل يشتمل ايضاً على اثر هذا الخصب في اخلاق القوم ومعلوماتهم الفنية بشكل لا يقلّ وضوحاً عن الحالة الاولى . كذا خصائص النيل الطبيعية ونتائج فيضانهِ السنوي يرجع اليها كثير من الفضل في معرفة المصريين لعلمي الهندسة والمساحة . فقد نسب كل من هيردوتوس وافلاطون وديودوروس واسترابون اصل علم الهندسة الى التغيرات الطبيعية التي تقع اثر الفيضان النيلي والى ضرورة ارجاع حدود الاراضي الى نصابها بعد الفيضان كما كانت عليهِ قبله . وهذا كله مما يعزّز القول بان علم الهندسة ولد بالقطر المصري وترعرع فيهِ . وليس هذا الامر بالمستغرب فان زوال الفيضان كان تصحبهُ منازعات ومشاجرات بين اصحاب الاراضي لسببين . اولهما : ان حدود الاراضي لم تكن ثابتة ثبوتاً كافياً في كل الاحوال . وثانيهما : ان جسور النيل كانت عرضة في بعض الاحيان للتلف نتيجة ارتفاع النيل فيتغيّر كثير من معالم الارض الواقعة على شاطىء النيل . لذلك أصبح ضرورياً وضع نظام ثابت لمساحة الاراضي لمنع هذه المشاحنات وايضاً لجمع الاموال الاميرية . ولا نعلم بالضبط تاريخ ظهور

علم المساحة بالقطر المصري والغالب انهُ قديم العهد جداً

بمثل هذه الطرق وسواها تمكنت الحكومة وقتئذٍ من الاشراف على كل زراعة القطر وتقدمها فنجم عن ذلك زيادة عدد السكان . لكن هنالك عوامل اخرى ساعدت على تقدم الزراعة في وادي النيل خلاف خصب التربة هي عظم فيضان النيل ونشاط العنصر المصري وعدم تغير الطقس وقلة المطر وعزلة الوادي . هذه الاحوال كلها هيأت مصر لان تكون مزرعة العالم القديم تصدّر حاصلاتها الى سوريا وجنوب اوربا في مقادير كالتي كانت تغذّي بها روما في العصور الاخيرة

والرسوم الزراعية العديدة المنقوشة على الآثار المصرية تظهر بوضوح عظيم اهتمام المصريين بالفلاحة . ويستدل منها ان محاصيل القطر وقتذاك لم تختلف كثيراً عن محاصيله الحالية . اما خبزهم فكان يصنع غالباً من القمح . وقد عثر في المقابر على مقادير كبيرة من القمح الفرعوني كما عثر أيضاً على مقادير لا بأس بها من الخبز ويجد الباحث الآن كثيراً من هذه الاخبزة في جميع مناحف العالم تقريباً. ولا حاجة بنا الى ان نذكر هنا ان القمح المذكور لا يمكن انباته الآن لان جنين الحبّة لا يعيش طويلاً ، وعلى ذلك فكل ما قيل عن امكان انباته لا يدل الاَّ على ان بعضاً من القمح الحديث تسرّب الى القديم وان ما نبت هو الحديث

وصنع القوم الجعة العذبة (البوظة) من الشعير والنبيذ من العنب الذي كان كثير النمو في القطر. واشتهر اقليم مريوط والواحات بالعنب والنبيذ. اما العرقي فكانوا يصنعون منهُ مقادير وافرة . واما اشجار النخيل فكانت كثيرة . واهتم القوم بتربية النحل حتى لقبوا مليكهم بالنحلة . وعلى ذلك فكان الشهد كثير الاستعمال . اما قصب السكر فلم يكن معروفاً

اما الحيوانات الداجنة والوحشية فكانت وافرة بالقطر. فمن الفريق الأول الحمير والثيران والغنم والماعز والخنازير والكلاب والهرر والاوز والبط . وكان هناك نوع من الغنم له قرون حلزونية افقية انقرض منذ عهد الاسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م .) لكنهُ بقي في الديانة القديمة يرمز بهِ الى المعبود (خنوم). اما الكبش ذو القرنين الهلاليين فكان يرمز به الى المعبود أمون . واستأنس القوم الكلاب منذ اقدم العصور وتولد منها لديهم عدة اصناف. واما الهرُّ فحيوان مصري قديم اعتبرهُ القوم وقتئذٍ رمزاً للمعبودة (باستت) وادخلت الخيل القطر المصري مع الهيكسوس او ملوك الرعاة الذين حكموا مصر من سنة ١٧٨٨ الى سنة ١٥٥٥ ق . م . تقريباً وحضرت معها وقتئذٍ العجلات الحربية . اما الدجاج فلم يدخل مصر الاَّ في زمن الاسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م .) ولم يقدس المصريون الخيل ولا الدجاج. وامتازت الخيل المصرية بجودة نوعها حتى ورد ذكرها في التوراة وذلك في الاصحاح العاشر في الملوك الاول آية ٢٨ وهي «وكان مخرج الخيل التي لسليمان من مصر » . ولم يهتم

المعبود ازوريس من العهد الصاوي
دار تحف القاهرة تصوير الدكتور حسن كمال

القوم الجواد الا في العهد الصاوي (٦٦٣ — ٥٢٥ ق . م .) ولم يستعملوا الجمل في فلاحتهم بل بقي استعماله مقتصراً في الصحراء .ولم يرد رسمه على الآثار الا في العصور الاخيرة بالرغم من ان بعضهم يدعي انه وجده منقوشاً على آثار يرجع تاريخها الى ما قبل حكم الاسر المصرية . وكان الفيل معروفاً قبل عهد الفراعنة بالقطر المصري (اي قبل حوالي سنة ٣٢٠٠ ق . م.) . ثم انقرض تدريجاً الى ان اصبح وجوده بمصر ضمن جزية البلاد الاسيوية

وولع القوم بالصيد والقنص في المستنقعات والصحاري والمستعمرات الاسيوية فكانوا يصطادون الثيران الوحشية والوعول والقطاط الكبيرة بالقوس والرمح او بعصاة الصيد الملتوية . وهذه الاخيرة كانت تستعمل بكثرة في صيد الطيور في المستنقعات واستعمل القوم العجلات في صيد الصحاري والشباك في صيد الاسماك

وكان لشدة ولعهم بالزراعة اثر كبير في احوالهم المعاشية . فعبدوا النيل منذ اقدم العصور . وألّهوا الثور (إبيس) (شكل ١) والبقرة حاتحور (شكل ٢) والطائر (إبيس) واعتقدوا ان (ازوريس) (شكل ٣) هو الذي علمهم الفلاحة ونقشوا اسمه داخل طغراء ملكية . اما الكهنة فعلّموا الاهالي ان (ازوريس) هو رمز الماء وهو ايضاً رمز للحياة التي تفنى لتعود بعد ذلك في شكل أزليّ .ومثلوه بالنبات الذي ينمو بعد قطعه.قال (فلوطرخوس) ان الآلهة لما زارت مصر اوجدت المعبودة (ازيس) (شكل ٤) القمح وخلق (ازوريس) ادوات الزراعة وكان اول من ربط الثور الى المحراث وعلم الخلق انواع النبات . ولما اعتلى (ازوريس) العرش انقذ الخلق من الفاقة وعلمهم الفلاحة وسنّ لهم القوانين

وعبد القوم عدة اشجار مثل اللبخ والجميز والسنط ، كما انهم قدّسوا بعض الاسماك مثل سمك (العبيدي Oxyrhynchus) و (ثعبان الماء Phagrus) و(البنيّ Lepidotus) ثم خصصوا للقمح معبوداً سموه (نبرو) ولفيضان النيل في الصعيد معبودة سموها (مرتى قمح) ولفيضان الوجه البحرى معبودة سموها (مرتى محت) . وهناك معبودة يقال لها (رننت) رمزوا بها الى الحصاد ومعبود سموه (من) كنوا بهِ عن الخصب . ولم يقتصر الحال على ذلك فتخيلوا ان في الآخرة حقولاً كثيرة القمح وان قمحها يفوق قمح النيل طولاً وسيأتي ذكرها

وتأثرت الصناعات والفنون الجميلة بأحوالهم الزراعية . فصنعوا عمدهم على شكل النخيل وزهر اللوطس (البشنين) وسيقان البردى . وجعلوا ارجل مقاعدهم بهيئة ارجل الحيوانات . حتى ادوات الزينة صنعوها على شكل حيوانات وحشرات كالجراد مثلاً . واثرت الزراعة ايضاً في معلوماتهم ومعارفهم فكوّنت عدداً كبيراً من احرف الخط الهيرغليفي يعدّ بالمئات منها الطيور والحيوانات الوحشية والداجنة والحشرات والنباتات واجزاء النباتات مما هو معلوم عند علماء تلك اللغة

وتأصلت المعيشة الزراعية في حكومة البلاد فسبقوا اسم الملك برسم فرع البردي (وهو رمز الوجه القبلي) وبرسم النحلة (وهو رمز الوجه البحري) اشارة الى ان هذين القطرين قد خضعا له . ويصحب هذه الرسوم غالباً رمزان آخران هما العقاب (وهو رمز «نخبت» معبودة مدينة الكاب عاصمة الوجه القبلي) والصل (وهو رمز «بوتو» معبودة عاصمة الوجه البحري المسماة بوتو ايضاً) . ويشاهد النسر على رؤوس التماثيل الملكية ليحميهم من الاذى كما هو الحال في تمثال الملك (خفرع) المحفوظ بدار تحف القاهرة

كل هذه المعلومات تظهر للقارىء شأن الزراعة المصرية القديمة وكيف تدرجت من اقدم العصور الى زمننا هذا . ولاستقصاء ذلك يجب الرجوع الى ما كتبه المؤرخون مثل هيردوتوس وبلنيوس والى الرسوم الزراعية الواردة على الآثار والى الاوراق البردية والى النباتات والزهور التي وصلت الينا محفوظة مع ادوات الموتى ومومياتهم والى الحيوانات المحنطة

اما أهم النقوش الزراعية القديمة فهي الواردة في مقابر اكابر القوم . وهذه توجد عادة في مختلف جهات القطر بحسب عصرها . فمقابر المملكة القديمة (٢٩٠٠ — ٢٤٧٥ ق . م .) تكثر في منطقة الاهرام كأبي صير وسقارة وميدوم والجيزة . ونقوش هذه المقابر متقنة الصنع عادة وتحوي مناظر هامة لطرق المعيشة الزراعية وقتئذٍ. وكان رائد الحفار حينذاك اثبات الحقائق فجاءت رسومه قريبة جداً من الحقيقة . ولما دخلت مصر في عهد الاقطاع (٢٤٧٥ — ٢٠٠٠ ق. م.) تفرقت المراجع الزراعية الى عدة جهات بالقطر مثل بني حسن ودير الجبراوي واسيوط ومير . لكن يلاحظ ان الحفار في تلك العصور كان رائده اثبات ما يمكن ان يؤثر في نفوس الزائرين دون توخي الحقيقة بقدر الامكان . اما مقابر اسوان التي يرجع تاريخها الى هذا العهد فتكاد تكون معدومة النقوش اللهمَّ الاَّ القليل منها وذلك حول مدخلها الخارجي . ومقابر عصر المملكة الوسطى (٢٠٠٠—١٧٨٨ق.م.) ليست دائماً حافلة بالنقوش .ولما جاء عهد الامبراطورية (١٥٨٠ — ١٢٠٠ ق.م.) كان همُّ القوم اثبات ما كان يهم المملكة القديمة اثباته وذلك بقصد الزخرفة والزينة في معظم الاحوال

ولقد ساعدتنا رسوم المقابر المذكورة على تفهم الشيء الكثير من الحياة الزراعية والريفية بالقطر المصري لان الغرض من اثباتها في المقابر كان يقصد به انقلابها بصورة حقيقية في الدار الآخرة كي يجد الميت في اخراه ما كان يتمناه في دنياه . وكثيراً ما يشاهد منقوشاً على الواح المقابر القديمة دعوات حارة «لاعطاء المتوفي آلافاً من ارغفة الخبز وقوارير الجعة والثيران والاوز واقمشة الكتان وكل الاشياء الجميلة النقية بكميات لا تحصى ... »

وزيادة في اثبات رغبتهم في الحصول على الغذاء في الدار الآخرة اهتم القوم بنقش كل الاجراءات التي تعمل في الدنيا للحصول على الخبز وذلك على جدران مقابرهم.فنقشوا طر

الثور المقدَّس أبيس

دار تحف القاهرة تصوير الدكتور حسن كمال

الحرث والبذر وحفر الاراضي وضم المحاصيل وذر الحبوب ودرسها وخزنها في الاهراءات بل وحتى طريقة طحن القمح وعمل الخبز . وكان من اثر الزراعة في اذهانهم انهم تخيلوا ثم رسموا الجنة التي كانوا يمنون انفسهم بالمعيشة فيها بعد الممات. واهم هذه المناظر هي الخاصة بالزراعة والنزهة في الحقول والمستنقعات واعتبروا ان قيام الميت بأعمال الزراعة في آخرته من الامور المسلّية المشوّقة

ومن القصص القديمة التي يرجع تاريخها الى عصر رمسيس الثاني ما تناولت امور الفلاحة وهي تعرف بقصّة الاخوين تتلخص في ان اخوين عاشا معاً في كوخ في أحد الحقول وكان اكبرهما متزوجاً وقابضاً على زمام البيت . اما الاصغر فكان عائشاً معه كابن له . فصبت نفس زوجة الكبير الى الصغير فردّها . عندئذ ارادت ان تكيد له فوشت في حقه عند اخيه الكبير فصمم على الاقتصاص من اخيه واراد قتله خلسة فتحفز له وراء الباب . وفي مساء اليوم عاد الاخ الصغير بالبهائم ليدخلها اصطبلاتها فلحظت احدى هذه الحيوانات الامر وأسرّت الى راعيها بما يضمر له اخوه الكبير . فلما علم ذلك فرّ هارباً خوفاً من القتل . ثم حصلت بين الاثنين حوادث خرافية لا تتمشى مع ما جاء اولاً من مطابقتها للواقع . وبالتأمل في هذه الحكاية يجد القارىء في جزئها الاول شبهاً بقصة سيدنا يوسف الغرامية التي رواها لنا بنو اسرائيل وجاء شرحها في الذكر الحكيم

وسنذكر للقارىء هنا بياناً موجزاً للنباتات المصرية القديمة بعضها مصري الاصل والبعض الآخر اجنبي دخل القطر المصري من البلدان المجاورة . وتنقسم هذه النباتات الى قسمين : —

القسم الاول : وهو النباتات الكثيرة الانتشار في القطر قديماً حتى لم يهتم المصريون كثيراً بزراعتها لوفرتها وهذه اما (نباتات خشبية) اي التي استعملوا خشبها في الادوات المعاشية مثل النخيل والدوم والجميز واللبخ والسنط او (نباتات ذات فاكهة) مثل التين او (نباتات ليفية) مثل البردي والاعشاب والقنب او (نباتات برية) مثل البشنين الازرق والابيض او (نباتات طبية) مثل الينسون والشبت والنعناع والحصلبان وابو النوم والكمون والعرعر

القسم الثاني : ويشمل النباتات التي اعتنى القوم بزراعتها وهذه تتلخص في (الحبوب) مثل القمح والشعير و(الخضراوات) مثل الفول والعدس والبسلة والبامية والملوخية والخيار والبطيخ والثوم والكرفس والخس والكرنب والجرجير والفجل والبصل و(التوابل) مثل السمسم والكزبرة و(النباتات الزاحفة) كالعنب و(النباتات الصناعية) كالكتّان و(نباتات الصباغة) كالقرطم والنيلة والحنا و(النباتات الزيتية) كالزيتون و(نباتات الزينة والعطريات) كالورد والاراولة والنرجس

وقبل الفراغ من هذا البحث يجدر بنا ان نذكر بالايجاز شيئاً عن جغرافية مصر القديمة وطريقة تقسيمها لخطر ذلك من الوجهة الزراعية . والمعروف ان جغرافية الجزء الواقع بين منطقة الشلالات والقاهرة لم تتغير تغيراً يذكر منذ أقدم العصور التاريخية . اما الجزء المعروف

الآن بالدلتا فكان عرضة لكثير من التغير . ففروع النيل بلغ عددها في اكثر الأزمنة سبعةً وكانت تعرف وقتئذٍ بالاشاتيم وهذه كانت تسمى بالاقاليم التي كانت تمرّ بها فكان يطلق عليها مثلاً « البلوزي والتنيسي والمنديسي والسمنودي والكانوبي الخ » . اما الآن فلم يبق منها الاّ فرعا دمياط ورشيد

وكانت مصر مقسمة قدماً الى قسمين الوجه القبلي وابتداؤه من اسوان الى دهشور وتاج ملكه ابيض والوجه البحري ويبتدىء من دهشور الى البحر الابيض المتوسط وتاج ملكه احمر . فلما ضمّ هذان القسمان لملك واحد تسمت هذا الملك بسيد القطرين . ومن مجموع هذين القسمين تكوّنت مملكة الفراعنة . فمتى حكم ملك على مصر قاطبة جاز له ان يجلس على كرسي مرسوم عليه البردى واللوطس حول اشارة دالة على اجتماع الوجه البحري والقبلي معاً

ثم انقسمت مصر بعد ذلك الى ثلاثة أقسام . الاول مصر العليا اي الصعيد الأعلى وهو المحصور بين سلسلتين من الجبال غير مرتفعتين يمتد من اسوان جنوباً الى العرابة المدفونة (قرب البلينا) شمالاً .والثاني مصر الوسطى ويسمى عند اليونان تبابيد يمتد من العرابة المدفونة الى القاهرة.والثالث الوجه البحري ويقال له باليونانية الدلتا لشبهه بهذا الحرف عندهم ويمتد من القاهرة جنوباً الى البحر الابيض المتوسط شمالاً . وكان هذا القسم منذ حوالي سبعة آلاف سنة بحيرة من الماء تمتد الى بحيرة موريس جهة الفيوم لحوّلها النيل الى ارض خصبة

اما اقسام مصر القديمة (وهي اشبه كثيراً بمديرياتنا) فكان عددُها يختلف باختلاف الدول وكانت اعمالها تارة في الزيادة وتارة في النقص في العهد الفرعوني والبطالسي والروماني والاسلامي حتى انتهى الأمر بتقسيمها الحالي . فالآثار ومؤرخو اليونان أثبتوا انقسامها تارة الى ٣٦ قسماً وتارة الى ٤٠ او الى ٤٤ وطوراً الى خمسين قسماً . والسبب في ذلك ما كان من التنازع بين الأسر والأمراء المالكين للأقسام او من الحروب الاهلية او الزواج او الفتوحات او غيرها مما يستوجب انتقال الملكية من يد الى اخرى وقد نقشت اسماء الاقسام في معبد كلابشة والكرنك ودندرة والعرابة المدفونة ورسمت لها صور على حيطان المعابد بهيئة صور النيل تقدم للملك الحاكم محصولات الأرض . ثم حددت هذه الاقسام (وكان يقال لكل منها حسبت) باحجار مكتوبة وكان كل قسم يحوي قاعدة (وتسمى نويت) وبندر ومركز المدينة ومركز الديانة واراضي الزراعة واراضي المستنقعات التي كانت تستعمل مرعى ولزراعة البردي واللوطس وصيد الطيور ثم الترع الخارجة من النيل لري الأراضي وللملاحة . وكان يعين لكل قسم حاكم من بيت الملك يقال له (حق) وعلى سكان كل قسم ان يدفعوا للملك الاتاوات المقررة عليهم من محصول الارض حسب الايراد كما كان عليهم ان يوردوا رجال العسكرية والسخرة لانجاز الاعمال اللازمة للمنافع العمومية مثل اصلاح معبد او بناء قلعة

نافذة

احبُّ ان يكون لي نافذة تطلُّ على البحر
حيث تمخر السفن متجهة الى اقاصي الارض او عائدة منها
حيث الأشرعة المنتفخة ودخان البواخر تشير اليّ
بأن اترك غرفتي للبحث في تيهِ الاشكال الدائمة التغيُّـر
تبدعها الشمس والغيوم والرياح والامواج
وتدعوني الاجواء القصية الى المغامرة في بلدان اجهلها

احبُّ ان يكون لي نافذة تطلُّ على البحر
حيث استطيع ان اقف : فأراقب العاصفة المجتاحة
واشعر برعد الموج مصطدماً باليابسة
واحسُّ في الليلة الهادئة بالمدِّ مرتفعاً تحت النجوم
واسمع في همس الماء للرمل ، الصوت الضئيل الهادئ
صوتَ مَن في كفهِ المحيطات

يا ليت لي نافذة تطلُّ منها نفسي على البحر
فتتعرّف معنى الاشياء التي من وراء البصر الانساني
تلك العجائب التي قد تغريني بالخروج من غرفتي الارضية
للبحث في تيهِ الله الحافل بالاسرار
فأذهب مغامراً في عوالم لا يعرفها انسان

احبُّ ان يكون لي نافذة تطلُّ على البحر

٢ – استدراك على معجم الحيوان

للفريق الدكتور امين باشا المعلوف

اوردت في الجزء الماضي من المقتطف بعض انواع السمك التي ذكرها المسيو غريفل وفي ما يلي انواع غيرها ذكرها في كتابهِ

فصيلة الإصفرني — Sphyrénidés. E. Shyraenidae

قال ليس منها في سواحل الشام الاَّ النوع الآتي

الإصفرني — Le Spet ou Sphyrène Spet. E. Spet or Barracuda. (Sphyraena Spet, Lacep.= S. vulgaris, C. V.)

قال هو كثير في سواحل الشام والاهلون[1] يسمونهُ الاصفرني . قلت ذكرته في ص ٢٩ وص٢٢٣ من معجم الحيوان وانما لم اذكر اسمهُ النوعي وهو على ما اورده المسيو غريفل كما تقدم

فصيلة الصير او المانون — Menidés. Les Menides ou Mondoles ou Picarels. E. Maenidae

سمك صغار دقاق لا تزيد الواحدة منها على ١٥ او ٢٠ سنتيمتراً قال ميَّزنا نوعين منها

السمارس المعروف — Picarel vulgaire (Smaris vulgaris, C. V.)

سمارس القِرِلَّى او صياد السمك — Picarel martin-pecheur (Smaris alcedo, C. V.)

لم يذكر المسيو غريفل اسماً عربيًّا للفصيلة المتقدمة ولا لهذين النوعين وانما ذكرت السمارس في المقتطف ٣٩ : ٣٤٢ وفاتني ذكره في معجم الحيوان . اما المانون فذكره لكلير في المادة ٢٠٧٥ من مفردات ابن البيطار واللفظة لاتينية من اصل يوناني . واما الصير فعن ده ساسي كما ذكرت في المقتطف وفي معجم الحيوان ص ١٠

فصيلة الاسبور او الاسبوريات — Sparidés. E. Sparidae

قال هي كثيرة في سواحل الشام وذكر انواعاً منها ما يأتي

سُرغوس — Sar ou Sargue. E. Sargo (Sargus Rondelotti, C. V.)

قال هو كثير في البحر المتوسط لاسيما في اسواق الاسكندرية وبورت سعيد وبيروت والاهلون يسمونهُ السرغوس . قلت ذكرت هذا النوع من السمك في المقتطف ٣٨ : ٤٥٩ وفي معجم الحيوان ص٨٤ وص٢١٢ اما الاسم العلمي الذي اعتمده المسيو غريفل فكما تقدم

السَّرْب — Le Bogue saupe ou Saupe. E. Boce or Bogue or Bogue salpa (Box Salpa, Cuv.)

لم يذكر له المسيو غريفل اسماً عربيًّا وانما ذكرته في المقتطف ٣٨ : ٤٥٩ وفي معجم الحيوان ص ٦٣ وكلاهما باسم علمي غير هذا والصواب ما ذكره المسيو غريفل

---

[1] ترجمت اللفظة التي استعملها المسيو غريفل اي Indigénes باللفظة المتقدمة اي الاهلون ولم أقل « الوطنيون » وكنت اود لو اجتنب المسيو غريفل ما يجرح عواطف السوريين باستعمال هذه اللفظة وعسى انه اذا عاد الى سورية وكتب عنها وعن السوريين يقول « السوريون » كما امتنع الانكليز ان يقولوا عن العراقيين Natives وانما البحث هنا بحث علمي لا بحث سياسي وربما كتبت في ذلك مقالة في جريدة يومية

السرب المعروف Le Bogue Commun. E. Common boce or Bogue (Box vulgaris, C. V. = Box boops, L.)

اما في شركة المصايف فهو سمك موسى ولكن سمك موسى سمك مشهور هو غير هذا ولعلّ السرب الذي ذكره ده ساسي على ما قلت في المقتطف هو هذا والذي قبله فانهُ سمع لفظة شَرْب بالمعجمة عن جفروى وكلاهما ثقة يعوَّل عليه . اما لفظة شرب التي قال جفروى انها اسم هذا السمك في الاسكندرية ولفظة السرب على ما جاء في كتاب الافادة والاعتبار واللفظة اللاتينية المتقدمة من اصل واحد قديم في البحر المتوسط

قَـجَاج . نجار . دجاج البحر Le Pagro vulgaire. E. Red porgy, Braize or Beckor. (Pagrus vulgaris, Cuv.)

ذكرته في المقتطف ٣٨ : ٤٥٩ وفي معجم الحيوان ص ١٨١ و٢٣٢ وفاتني من اسمائه ما تقدم. وذكر المسيو غريفل الفجاج اي ان اهل بيروت يقولون كما يقول اهل دمياط . ثم ان ارسطو ذكر هذا النوع من السمك وقال مترجم كتاب ارسطو في حاشية له انه نقل عن ابستوليدس ان اسمه مرجان في استانبول اي يسمونه باسم الفرّيدي المعروف بالمرجان في الاسكندرية وسيأتي ذكره اي ان المرجان يطلق على هذا النوع من السمك وعلى الفرّيدي

فرّيدي في سواحل الشام Le Pageau ou Pagel Commum. (Pagellus erythrinus, L.)

مرجان في الاسكندرية . فالفريدي عن المسيو غريفل والمرجان مما اعرفه في مصر والاسكندرية

جـربيديّ في سواحل الشام . Le Rousseau (Pagellus centrodontus, Delar)

كحلاء في الاسكندرية . الجربيدي عن المسيو غريفل والكحلاء مما اعرفه في الاسكندرية

حفّـار . مُرْمار Le Mormyre (Pagellus mormyrus, L.)

ذكرته في ص ٦٣ من معجم الحيوان باسم عليّ آخر والصواب هو هذا . ولم يذكر المسيو غريفل الحفّار وقد اخذتهُ عن فورسكال وكلوزنجر . واما المرمار فعن جفروى

ثم ان اسم الجنس في هذه الانواع الثلاثة يوناني الاصل اي تصغير Pagros وهو اسم القجاج الذي تقدم ذكره. اما الاسم النوعي للفـرّيدي او المرجان فمعناه الاحمر . ثم ان هـذا الجنس اي Pagellus متحجر في سواحل لبنان وهو كثير في المعاملتين من اعمال كسروان ولكنني لا اعلم اي نوع منهُ هل هو الفرّيدي اي الاول او الجربيدي اي الثاني او الحفـار اي الثالث وارجح انهُ الثالث اي الحفـار

مَرْجان La Daurade vulgaire ou Dorée. E. Gilthead (Chrysophris aurata, C.V.)

او مرجان ذهبي الرأس : لم يذكر له اسماً عربيًّا ولا اعرف له اسماً غير المرجان ولعلّ اصلح اسم له هو المرجان المذهب او المرجان الذهبي الرأس . اما اسمه الجنسي فمعناه الذهبي الحاجب

نفّـار . قمر Le Denté (Dentex vulgaris, Cuv.)

لم يذكر له اسماً عربيًّا اما النفّار والقَـمَر فعن كلوزنجر فقد ذكر انواعاً كثيرة من هذا الجنس وسماها بهذين الاسمين وهما معروفان في البحر الاحمر
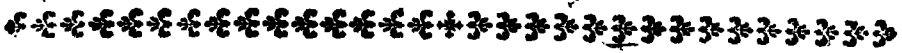
ابن خلدون والنقد الحديث

للاستاذ محمد عبد الله عنان

عن كتابهِ « ابن خلدون : حياتهُ وتراثهُ الفكري »
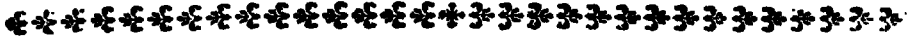
ابن خلدون كما تصورهُ ورسمهُ جبران خليل جبران

يرتفع النقد الغربي بتراث ابن خلدون الى أسمى مكانة . وقد عرف التفكير الغربي قبل ابن خلدون طائفة كبيرة من المفكرين المسلمين لم يرتفع كثير منهم الى مكانته ، وعرف قبله كثيراً من المؤرخين المسلمين ، لا لأنهم اجدر بالبحث والتعريف ، ولكن لانهم ظهروا في عصور الاسلام الفتية الزاهرة او لأنهم تناولوا نواحي عني بها التفكير الغربي [1] . ولكن ابن خلدون ظهر في عصر سرى فيهِ الانحلال الى صولة الاسلام وسيادته ، واضمحلَّ التفكير الاسلامي ، فلم يكن اجدر العصور بالتعريف والبحث . ولبث تراث ابن خلدون مغموراً في

(١) عرف الغرب مؤرخين مثل المسعودي وابي الفدا وابن العبري وابن خلكان وابن عربشاه قبل ابن خلدون بعصور طويلة ، وترجمت بعض مؤلفاتهم الى اللاتينية . ونشر تاريخ ابن العبري وتاريخ ابن عربشاه (تاريخ تيمور) في انكلترا بنصهما العربي منذ منتصف القرن السابع عشر

الشرق والغرب مدى قرون ، يكاد الشرق يجهله ، ولا يعرف الغرب شيئاً عنه . وفي سنة ١٦٩٧ م ظهرت عنه في موسوعة « دربلو » الشرقية اول ترجمة غربية . وهي ترجمة موجزة فياضة بالخطأ . ومضى بعد ذلك اكثر من قرن قبل ان يعنى التفكير الغربي بشأنه ، حتى نشر المستشرق الفرنسي سلفستردي ساسي سنة ١٨٠٦ ترجمة ابن خلدون مع ترجمة فرنسية لفقرات من المقدمة في قاموسه Chrestomathie Arabe ثم نشر بعد ذلك باعوام ترجمة لمقتطفات اخرى من المقدّمة . وعاد فنشر سنة ١٨١٦ ترجمة اوفى لابن خلدون في قاموس التراجم العام Biographie Universelle مع وصف مسهب لمقدّمة ابن خلدون. وفي نفس الوقت نشر المستشرق النمسوي فون هامار رسالة بالالمانية عن « اضمحلال الاسلام بعد القرون الثلاثة الأولى للهجرة »، تعرّض فيها لبعض نظريات ابن خلدون في انحلال الدول ،ووصفهُ بأنهُ «مونتسكيو العرب » . ونشر بعد ذلك ترجمة المانية لبعض مقتطفات من المقدمة ، ثم نشر وصفاً لبعض اجزاء المقدمة في « المجلة الاسيوية[1] » . واستمرّ دي ساسي وبعض زملائه المستشرقين على نشر مقتطفات مترجمة من مقدّمة ابن خلدون او تاريخه ، والبحث الغربي فيما بين ذلك يزداد اهتماماً بابن خلدون وتراثه ، وإعجاباً بقوة تفكيره وطرافته ، حتى نشر كاترمير مقدّمة ابن خلدون كاملة بنصها العربي سنة ١٨٥٨ ، ونشر دي سلان بعد ذلك ببضعة أعوام ترجمة فرنسية كاملة للمقدّمة ، وعندئذٍ ظهر ابن خلدون للتفكير الغربي في روعة ابتكاره ، وظهرت قيمة ذلك التراث الباهر الذي غمره النسيان مدى عصوره

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر يعنى النقد الغربي بابن خلدون ونظرياته الاجتماعية عناية خاصة . كان وقوف الغرب على تراث ابن خلدون اكتشافاً علميًّا حقًّا ،وكان اعجب مافي هذا الاكتشاف أن يظفر الغرب في تراث المفكر المسلم،بكثير من النظريات الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التي لم يطرقها البحث الغربي الاّ بعد ابن خلدون بعصور طويلة . اجل اكتشف النقد الغربي لدهشته واعجابه في تراث ابن خلدون كثيراً مما ردده مكياڤيللي بعده بقرن ، وما ردده ڤيكو ومونتسكيو ، وآدم سميث ، واوجست كونت[2] بعده بقرون .وكان المعتقد ان البحث الغربي اول من اهتدى الى فلسفة التاريخ ، ومبادىء الاجتماع ، واصول الاقتصاد السياسي ، فاذا بابن خلدون يسبقه بعصور ويغزو في مقدمته هذه الميادين ويعرض كثيراً

---

(١) « المقتطف » — على من شاء معرفة المراجع التي اعتمد عليها المؤلف ان يراجعها في كتابه

(٢) مكيافللي مؤرخ وسياسي ايطالي (١٤٦٩ — ١٥٢٧) . وفيكو مؤرخ وفيلسوف ايطالي (١٦٦٨ — ١٧٤٤) ومونتسكيو مشترع وفيلسوف واجتماعي فرنسي (١٦٦٩ — ١٧٥٥) وآدم سمث اقتصادي انكليزي (١٧٢٣ — ١٧٩٠) واوجست كونت فيلسوف فرنسي وهو واضع اصول الفلسفة الوضعية (١٧٩٨ — ١٨٥٧)

من نواحيها ونظرياتها بقوة وبراعة. ومن ثمَّ فانا نرى النقد الغربي ، بعد ان اكتشفهُ ودرسه، يرتفع بتراثه الى اسمى مكانة ، وينظمه في سلك الفلاسفة ومؤرخي الحضارة وعلماء الاجتماع والاقتصاد السياسي ، بل ويعترف له بفضل السبق في هذه الميادين

— ١ —

كانت الناحية التاريخية الفلسفية في تفكير ابن خلدون اول ما عني النقد الغربي بدرسه ، ولكن الناحية الاجتماعية ما لبثت ان لفتت انظار طائفة من علماء الاجتماع ، واخذت تتفوَّق على ما عداها من نواحي تفكيره . ومنذ أواخر القرن التاسع عشر نرى نظريات ابن خلدون الاجتماعية تشغل فراغاً كبيراً في النقد المعاصر ، ويتناولها حتى يومنا طائفة من النقدة الاجتماعيين بالدرس والتحليل المقارن

وكان في مقدمة من درس تراث ابن خلدون من الناحية التاريخية الفلسفية المستشرق النمسوي الكبير البارون فون كريمر، فكتب عنه بالالمانية رسالته الشهيرة «ابن خلدون وتاريخه لحضارة الدول الاسلامية» وقدمها لاكاديمية العلوم بفينا سنة ١٨٧٩ . ويعتبر فون كريمر ابن خلدون مؤرخاً للحضارة Kulturhistoriker يؤرخ حضارة الشعوب الاسلامية ، لانه من بين المؤرخين المسلمين اول من خصص فصولاً ضافية للتحدث عن النظم السياسية وانواع الحكم، والخطط العامة كالقضاء والشرطة والادارة وتطورها في الدول الاسلامية ، وعن النظم الاقتصادية والتجارة والمكوس والضرائب ، وعن المهن والحرف والصنائع ووجوه الكسب والمعاش، ثم عن العلوم والفنون والآداب واصنافها واحوالها وتطورها في العالم الاسلامي وهو اعتبار صادق من بعض الوجوه فقط لان ابن خلدون لا يعالج هذه المسائل مستقلة او لذاتها وانما يعالجها كصور فقط من هذا العمران الذي هو موضوع بحثه ودرسه . ومراحل الحضارة مقياس لمراحل العمران

••••••

ويعتبر دي بوير (الهولندي) ابن خلدون فيلسوفاً ، ويضعهُ في ثبت الفلاسفة المسلمين الى جانب ابن سينا والغزالي وابن رشد وابن الطفيل ، وينوّه بقيمة المنطق في صوغ نظرياته ويصفه بانه مفكر متزن ، فهو ينكر ثمرة الكيمياء والعرافة بحق، وكثيراً ما يعارض مبادىء الفلسفة العقلية ، بمبادىء الاسلام البسيطة سواء عن اعتقاد شخصي او لاعتبار سياسي . بيد ان الدين لم يؤثر في آرائه العلمية بقدر ما اثرت الارسطوطالية الافلاطونية. وقد اثرت في تكوين ذهنيتهِ جمهورية افلاطون وفلسفة فيثاغورس الافلاطونية ، وكذلك المؤلفات التاريخية لاسلافهِ المشارقة ولاسيما المسعودي ، ايما تأثير . وقد حاول ابن خلدون ان يؤسس نظاماً منطقياً جديداً لم يحل بذهن ارسطو ، وان يجعل من التاريخ نظاماً فلسفياً ، وهو يقول لنا

ان هذا النظام انما هو الحياة الاجتماعية ، ومادة المجتمع كلها وثقافته الفكرية . ومهمة التاريخ هي أن يبين كيف يعمل الناس وكيف يحصّلون اقواتهم ، ولماذا يقاتلون بعضهم بعضاً، وكيف يجتمعون في جماعات كبيرة في ظل بعض الزعماء ، وكيف يُلهمون اخيراً في ظل حياة الحضر رغبة العناية بالفنون والعلوم الرفيعة ، وكيف تتقدم الحضارة من البداية الخشنة الى الترف الناعم وتزدهر ، ثم تضمحل وتموت . ثم يقول دي بور ان ابن خلدون هو بلا ريب اول من حاول ان يشرح بافاضة تطور المجتمع وتقدمه لاسباب وعلل معينة ، وان يعرض ظروف الجنس والاقليم ووسائل الانتاج وما اليها ، وأثرها في تكوين ذهن الانسان وعاطفته وفي تكوين المجتمع . وهو يرى في سير الحضارة تناسقاً داخلياً منظماً . ويختم دي بور حديثه عن ابن خلدون بما يأتي : « لقد سار امل ابن خلدون في ان يخلفه من يتم بحثه في سبيل التحقيق ، ولكن في غير الاسلام ، فكما انهُ كان دون سلف ، فكذلك بقي دون خلف »

— ٢ —

بيد ان النقد الغربي كان اكثر اهتماماً بفلسفة ابن خلدون الاجتماعية . ولقد لقي ابن خلدون من هذه الناحية ذروة الاعجاب والتقدير ، وعني كثير من علماء الاجتماع المعاصرين بتحليل نظرياته الاجتماعية ومقارنتها بنظريات اقطاب المحدثين

ومن هؤلاء النقدة العلامة الاجتماعي لدفيج جبلوفتش ، فهو يخصص لابن خلدون في مباحثه الاجتماعية فصلاً كبيراً ، ويصفه بأنه اجتماعي او من علماء الاجتماع . ويتناول طائفة من آرائه الاجتماعية بالتحليل والمقارنة ، ويبين انه قد سبق في كثير من هذه الآراء اقطاب الاجتماع المحدثين ، فهو مثلاً قد اهتدى الى نظرية الاجيال الثلاثة الخاصة بنهوض الاسر وانحلالها قبل ان يعرضها اوتوكار لورنتس في اواخر القرن التاسع عشر . ويقول جبلوفتش ان ابن خلدون يرتفع الى ذروة البحث الاجتماعي حينما يعرض ملاحظاته عن تفاعل الجماعات الاجتماعية ، وكيف ان هذه الجماعات نفسها انما هي ثمرة الوسط . وآراؤه في هذا المقام عن الاجناس الغالبة في منتهى الخطر . وفي اقواله عن الوسط ومؤثراته ما يدل على انه عرف « قانون التشبه بالوسط » قبل ان يعرفه داروين بخمسة قرون ؛ وفيما يقوله عن تشبيه الانسان بالحيوان في الخضوع للقوانين الاجتماعية العامة ما يدل على انه عرف مبدأ « وحدة المادة » قبل ان يعرفه هيكيل [1] . ومن المدهش ان نرى كم تتفق الاجراءات التي ينصح ابن خلدون باتخاذها للفاتحين الظافرين لكي يؤيدوا سلطانهم ، مع النظم الحربية التي اثبت البحث التاريخي الحديث ان مؤسسي الدول الاوربية في العصور الوسطى قد اتخذوها ، بل ان فضل سبق يرجع بحق الى العلامة الاجتماعي العربي (ابن خلدون) فيما يتعلق بهذه النصائح التي

(١) ارنست هيكيل علامة بيولوجي وطبيعي المانى (١٨٣٤ — ١٩١٩)

أسداها مكيافيللي بعد ذلك بقرن الى الحكام في كتابه « الامير » . وحتى في هذه الطريقة الجافة لبحث المسائل وفي صبغتها الوقعية الخشنة ،كان من المستطاع ان يكون ابن خلدون نموذجاً للايطالي البارع الذي لم يعرفه بلا ريب. هذا وقد استطاع ابن خلدون ان يقرر منذ خمسة قرون اصل السلطتين الروحية والزمنية، كما يقررها اساتذة القانون السياسي والقانون الكنسي

واخيراً يقول جمبلوفتش : « لقد أردنا ان ندلل على انه قبل اوجست كونت ، بل قبل ڤيكو الذي اراد الايطاليون ان يجعلوا منه اول اجتماعي اوربي، جاء مسلم تقي فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن ، وأتى في هذا الموضوع بآراء عميقة ، وما كتبه هو ما نسميه اليوم: علم الاجتماع »

وفي نفس الوقت الذي أدلى فيه جمبلوفتش بهذه الآراء تناول تفكير ابن خلدون باحث اجتماعي ايطالي هو فريرو فأيد وصف جمبلوفتش لابن خلدون بأنه « اجتماعي » ونوه بطرافة ابن خلدون وسبقه في هذا الميدان . ويوافقهما في ذلك الكاتب الاجتماعي الروسي ليڤين فيعتبر ابن خلدون فيلسوفاً « اجتماعياً »

ودرس مسيو مونييه استاذنا السابق بكلية الحقوق، ابن خلدون من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية في بحثين قويين ، يتناول في اولهما آراء ابن خلدون الاقتصادية وفي الثاني آراءهُ الاجتماعية ، ويعتبرهُ فيلسوفاً واقتصادياً واجتماعياً معاً . ويصف مقدمته وتفكيره بما يأتي : « انها مزيج عظيم من القوانين الكونية، وموسوعة لعلوم العصر، وتحتوي على اجزاء متفرقة لبحث كامل في علم الاجتماع . وطريقتها بالاخص بديعة تدلُّ على ذهن علمي حق. واذا كانت آراء ابن خلدون لا تعبر عن مثل وضعي أعلى، فهي مع ذلك تقوم على الملاحظة التحليلية للحوادث، وهي مرآة الواقع. وليست فلسفته سوى شرح وتعليل لتاريخه ، وشروحه تشهد بذهنية وضعية كان فيلسوفنا يسبق بها عصره » ثم يحلل مسيو مونييه نظريات ابن خلدون الاجتماعية ويقسمها الى قسمين هما : القوانين العامة للحياة الاجتماعية ، وقوانين التطور الاجتماعية ؛ ويصفها بقوله : « واذاً فان فلسفة ابن خلدون الاجتماعية يغشاها على ما يظهر استنتاج بالغ التشاؤم . فالمجتمع ليس الاَّ لحظة في مجرى الاشياء الكوني ، وهو يفنى كما يفنى كل شيء . والحياة كالروي ، وكل تغيير يقتضي عكسهُ ، وكل ارتفاع يعقبه سقوط . . . ولكن تشاؤم ابن خلدون تشاؤم مستسلم غير مكترث ، فهو لا يحكم وانما يشاهد . وهو بذلك يدلُّ على ذهنية علمية حقة ، وبذا يجب ان يفسح لهُ مكان في تاريخ الاجتماع الوضعي »

وينوه معظم نقدة ابن خلدون بهذا التشاؤم الذي يطبع فلسفته . ويقول لنا فون كريمر ان ابن خلدون يذهب في تشاؤمه الى حدود بعيدة ،ويقارنهُ في ذلك بأبي العلاء المعري. ويعتقد ان مصدر هذه العاطفة هو انحطاط الدول والحضارة الاسلامية في العصر الذي كتب فيه ابن

خلدون . ولكن فريرو يرجعها الى ظروف الحياة السياسية العاصفة التي تقلب فيها ابن خلدون وما بثّت في نفسه من مرارة وخيبة امل. على ان كثيراً من الناحية الوقعية لفلسفة ابن خلدون يرجع الى هذه العاطفة ؛ ولم يكن تشاؤمه نزعة شخصية كامنة في اخلاقه ، ولكنهُ صفة لتفكيره فقط . ونتيجة للبحث والدرس . اما ابن خلدون نفسه ، فكان كما تدلُّ حوادث حياته اكثر ميلاً الى الثقة والابتهاج والتفاؤل

ويدرس الكاتب الالماني فون ڤيسندنك نظريات ابن خلدون في نشوء الدول وانحلالها ويرى فيهِ ذهناً وافر الابتكار ، ومثلاً اعلى في التفكير العربي وآخر نجم سطع في أفق التفكير الاسلامي الحر . ويعتبره مثل فون كريمر مؤرخاً للحضارة Kulturhistoriker ، ويرى فيهِ بحق إماماً لمدرستي مكياڤيللي وڤيكو ، ويحاول ان يطبق نظرياته في سقوط الدول والاسر على الامبراطورية الالمانية والدول الاوربية فيقول : « وقد يلوح للالماني في الوقت الحاضر ان هذه الآراء الفياضة بالتشاؤم ليست من ابتكار مفكر اجنبي ، فان الامبراطورية الالمانية لم تعمر طويلاً ثم ذوى غصنها غضاً الى عالم الفناء بسرعة خارقة ؛ فهل يجب ان نبحث لتلك المأساة عن اسباب غير تلك التي اوردها الكاتب العربي عن سقوط المرابطين والموحدين ؟ ان نظريات ابن خلدون تقدم الى المتأمل فرصة صادقة ، يقف مؤرخ الحضارة المسلم الكبير وحيداً في المشرق ، لم يعقبه خلف ولم ينسج على منواله ناسج ويطبق ما كان يشعر بهِ او يدعو اليهِ على اوربا في القرن التاسع عشر أصح تطبيق وأتمه. وتدوي ميول المفكر والسياسي الافريقي في معترك الحوادث مهما كانت وجهتها دوياً يتردد صداه في عالم افكار عصرنا »

— ٣ —

درس الاستاذ استفانو كلوزيو ابن خلدون من ناحية اخرى هي الناحية الاقتصادية . ويرى كلوزيو بادىء بدء « ان ابن خلدون من حيث الجنس الذي انحدر منه ، والبلد الذي ولد فيه ، والحضارة التي ينتمي اليها ، يمكن ان يوضع في صف عظماء الرجال الذين يتبوَّأون في التاريخ أسمى مكانة » . وقد اكتشف ابن خلدون آفاقاً جديدة في ميدان العلوم الاجتماعية . ولكنه لا يجاري مكياڤللي كمؤرخ ، لانه لم يعرف او لم يرد ان يطبّق المبادىء التي عرضها في مقدمته ليشرح اسباب الحوادث التي يقصها في تاريخه . ومع ذلك فقد سبق مكياڤللي ومونتسكيو وڤيكو ، الى وضع أصول علم جديد هو الدرس النقدي للتاريخ . وتلك حقيقة نوّه بها أماري المستشرق والمؤرخ الايطالي الكبير قبل كلوزيو فوصف ابن خلدون بأنه أول كاتب في العالم طالج موضوع « فلسفة التاريخ » ثم يحلل كلوزيو نظرية ابن خلدون في « الجبر الاجتماعي » ويرى انها موجودة في تلك العبارة التي يستهل بها ابن خلدون حديثه عن اجيال البدو والحضر وهي : « ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش »

على ان كلوزيو ينوه بالاخص بنظريات ابن خلدون الاقتصادية ، فيقول لنا « ان المؤرخ البربري العظيم استطاع في العصور الوسطى ان يكتشف مبادىء العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسي قبل كونسيدران وماركس وباكونين » [1] ثم يحلل آراء ابن خلدون عن عمل الدولة من الناحية الاقتصادية وآثاره السيئة ، وعن القوى السياسية والطوائف الاجتماعية ، وعن طرق الملك وانواع الملكية ، وعن مهمة العمل الاجتماعية ، وتقسيم العمل الى حر ومأجور ، وكون العمل الحر مصدراً للرزق (المعاش) ثم عن قانون العرض والطلب . ويرى كلوزيو في ذلك كله ان ابن خلدون كان اقتصادياً مبتكراً يعرف مبادىء الاقتصاد السياسي ويطبقها بذكاء وبراعة قبل ان يعرفها البحث الغربي بعصور طويلة ، ويختتم بحثه بما يأتي : « اذا كانت نظريات ابن خلدون عن حياة المجتمع المعقدة تضعهُ في مقدمة فلاسفة التاريخ ، فان فهمهُ للدور الذي يؤديه العمل والملكية والاجور يضعهُ في مقدمة علماء الاقتصاد المحدثين

— ٤ —

ومن احدث البحوث النقدية في دراسة ابن خلدون رسالة للاستاذ ناثانيل شميت الاستاذ بجامعة كورنل بأمريكا ، درس فيها ابن خلدون كمؤرخ وفيلسوف واجتماعي . ويرى الاستاذ شميت ان ابن خلدون كمؤرخ يمكن ان يوضع في صف مؤرخين عالميين مثل ديودور الصقلي ، ونقولاوس الدمشقي او تروجوس پومبيوس ممن كتبوا في القرن الاول الميلادي ، او مؤلفين من كتاب القرن الثامن عشر مثل جاتيرر وشلِتسر ، وهذا مع كونه يتفوق عليهم سواء في الانتفاع بالمصادر القديمة او في الرواية الاصلية ، ولو ان ابن خلدون لم يخلف لنا سوى تاريخه السياسي ، لكان أثراً ينبىء عن همة لا تنفد ، وغزارة في المصادر ، وحكم سديد ، ولكان بالنسبة لبعض العصور مصدراً نفيساً للرجوع ، بل لكان في عدوله عن طريقة الحوليات ما يرفعه بكثير عن مستوى رجال مثل البخاري والمسعودي والطبري وابن الاثير . على ان حق ابن خلدون في الشهرة الخالدة لا يرجع الى تاريخه بل يرجع الى ذلك الاثر المدهش الذي كتبهُ مقدمة لتاريخه ، فهنا تبدو عبقريته في روعة بهائها ، وهنا ينثر بيدين نديتين ثمرات تأملاته الناضجة عن سير التاريخ البشري

وأما من حيث فلسفة التاريخ فيرى الاستاذ شميت ان ابن خلدون هو الذي اكتشف ميدان التاريخ الحقيقي وطبيعتهُ ، وهو بلا ريب صادق حين يقول ان احداً من المفكرين المسلمين قبله لم يطرق موضوعه ، واذا كانت معرفتنا بعلوم القدماء اعظم وأغزر ، فإنا مع ذلك نستطيع اليوم ان نقول ان ابن خلدون كان بحق اول كاتب استطاع ان يعرّف موضوع التاريخ

---

(١) كونسيدران اشتراكي فرنسي له عدة مؤلفات في الاشتراكية (١٨٠٨ — ١٨٩٣) . وكارل ماركس اقتصادي واشتراكي الماني كبير ومؤسس الاشتراكية المتطرفة ، ومؤلف اعظم كتاب في الاشتراكية (رأس المال) ، (١٨١٨ — ١٨٨٣) . وباكونين اجتماعي واقتصادي روسي ومؤسس مبدأ اللاحكومية

بهذه الصورة ، وان ينظر الى التاريخ كعلم خاص يبحث في الحقائق التي تقع في دائرته . بل لم يقل احد غير ابن خلدون ان التاريخ علم خاص موضوعه بحث جميع الظواهر الاجتماعية في حياة الانسان . فاذا كان يجدر بنا ان نتوسع في فهم التاريخ الى هذا الحد ، واذا كان التاريخ علماً ، فان التونسي العظيم الذي ابتكر هذا الرأي ودافع عنهُ ليس له سلف فيما يظهر. ومن حقه ان يعتبر انهُ المكتشف . وهنا بلا ريب أروع ابتكاراته واكثرها طرافة ، وان كان ذهنه النافذ قد شقَّ طرقاً جديدة في نواحٍ كثيرة . وقد لاحظ ابن خلدون في دراسة الدول وقيامها وسقوطها ان أسباب هذه التطورات لا ترجع فقط الى البواعث والاطماع ، والى الاغراض والغايات ،والى قوة الارادة ، وقوة الذهن لدى الافراد ،ولاحظ ان تأثير هذه العوامل لا يخضع فقط لخواص الجماعات التي تنتمي اليها ،ولكنها تخضع ايضاً للظروف الاجتماعية العامة وقد حمله ذلك على ان يبحث العوامل التي تؤثر في هذه الظروف الاجتماعية وتكيفها ، وانتهى الى انها ترجع الى خواص قومية وجنسية . ولكنه لاحظ ايضاً ان هذه الخواص نفسها ترجع الى مؤثرات الوسط الطبيعية كالاقليم ، والماء،والأرض، والموقع ،والغذاء . واذاً فمن الضروري لكي نفهم التطور السياسي ، ان ندرس كل مظاهر الحياة الاجتماعية ، ولكي نفهم هذه يجب ان نحسب حساباً للعوامل الطبيعية ، ومن ثمَّ كان اتساع نطاق التاريخ ، واتساع مهمة المؤرخ إذ يغدو التاريخ علم المجتمع الانساني ، واذاً فهو علم الاجتماع . ثم يقول الاستاذ شميت ان ابن خلدون رغم طابعه الاسلامي انما هو فيلسوف مثل اوجست كونت،وتوماس بكل،وهربرت سبنسر . وفلسفته التاريخية ليست كفلسفة هجل [1] تحليلاً للقضاء والقدر.واذا كان يذكر خلال بحثه كثيراً من آيات القرآن ، فليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله ، ولعله يذكرها فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه في بحثه متفق مع نصوص القرآن

وأما عن الناحية الاجتماعية ، فان الاستاذ شميت يرى مع معظم النقدة ان ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع ، ويرى بالاخص مع جمبلوفتش ان الاجتماع وجد قبل اوجست كونت بعصور طويلة ، وان ابن خلدون ذهب في تفكيره الى حدود لم يذهب اليها كونت ، وانه فيما عالج من خواص العادة و الاقليم،والارض،والغذاء ،قد سبق مونتسكيو وبكل وسبنسر وغيرهم

وينقل الاستاذ شميت الينا هذه الكلمة عن العلامة الاسباني التاميرا : «كفى انهُ في القرن الرابع عشر ، حينما كانت دراسة التاريخ الاوربية في منتهى النقص ومنتهى البعد عن آراء كالتي يعرضها ابن خلدون ويدافع عنها ، قد كتب كتاب كالمقدمة،درست فيه وعرضت كل المسائل ، التي غدت فيما بعد ، أهم مهام المؤرخين الحدثين »

---

(١) توماس بكل كاتب ومؤرخ اجتماعي انكليزي ، وله مؤلف شهير في تاريخ الحضارة الانكليزية (١٨٢٤ — ١٨٦٢) وسبنسر فيلسوف انكليزي ومؤسس فلسفة التطور (١٨٢٠ — ١٩٠٣) . [illegible] الالماني (١٧٧٠ — ١٨٣١) —

المعجم المحرَّر

في حاجة الى المباني والتخريج

حقّق الله الأمل المنشود . فأصدر صاحب الجلالة احمد فؤاد ملك مصر المعظم ايّده
امرهُ المطاع بتأليف « مجمع اللغة العربية الملكي » ليلي إنشاء معجم صحيح الوضع يأتي على
موادّ اللغة من المباني والمعاني معيداً الفروع الى اصولها فلا يأتي بصيغ الجموع ولا مفردَ
كما ورد في القاموس والمعاجم التي نقلت عنهُ ولا بصيغ المفرد ولا جموع لها او بغير استي
صيغ جموعها ويزيل ما في المعاجم من الخلل ويكشف النقاب عن وجوهٍ لا يهتدى اليها لغمو
ويقف موقف الحكم العدل في القضايا التي جاءت نصوص المعاجم فيها متعارضة . فهذا الم
الشاقّ لا غنى له عن الاستعانة بعلم المباني والتخريج. فما المباني . وما التخريج

المباني

يورد التصريف للفعل الثلاثي ستة اوزان عن تحريك عين الفعل بالفتح والضم والك
ماضياً معلوماً ومضارعاً ثم ينصرف الى الامر فالمصادر فالمشتقات فالمزيدات فمشتقاتها فالاعا
فالادغام فما الى هنالك من نسبة وتصغير ومثنى وجمع

فيأتي المباني وينظر في الاوزان الستة ثم يوزّع كل وزن طوائف وهذه الطوائف
اصول ومنها ملحقات ولكل طائفة مصادرها ومشتقاتها . فلكل طائفة مبنىً خاصٌ له مع
خاص فاذا اختلفت المباني اختلفت المعاني واذا تعدّدت المعاني تعدّدت الطوائف . فيكو
للمبنى الواحد معانٍ متعددة فيأتي كل معنىً من طائفة وكل طائفة تعود الى وزن

وهذا كلامٌ مجمل لا يخلو من غموض فأوضحه بالتمثيل هكذا اولاً جاء في مادة « ك م ل
في احد المعاجم « كَمَل يَكمُل وكَمِل يَكمَل وكَمُل يَكمُل كمالاً وكُمُولاً من با
نَصَرَ وهي أفصح ومن باب علم وهي اردأها ومن باب كرُم او الكمال اسم تمّ »

فمضمون هذا القول ان مادة « ك م ل » وردت على ثلاثة اوزان والمفاد واحد والاتفا
واقع على ان المصدر هو الكمول واما الكمال فمختلف فيه بين انهُ مصدر او اسم مصدر
فلدى هذا النص لنا ما يأتي

ا — للأئمة مذهبان في المصدر والفعل الماضي فذهب بأصالة المصدر ومجيء الفعل عنهُ ومذهب بأصالة الفعل ومجيء المصدر عنهُ . فان كان الفعلُ الاصلَ فهنا ثلاثة اوزان لها مصدر على قول او مصدران على قول آخر . فهل كل وزن له المصدران اولكَمِل مصدر ولكَمَل مصدر وان كان المصدرُ الاصلَ فكيف جاءت الافعال الثلاثة لمصدرين او لمصدر واحد . .

ب — ما الدليل على أن كمُولاً اعرق من كمالٍ في المصدرية ولماذا يمتنع ان يكون كمالٌ اعرق من كمول ولماذا وقع الخلاف في كمال بين انهُ مصدر او اسم مصدر واين الدليل على انهُ اسم او مصدر . ولماذا تعذّر البتُّ في حقيقة كمال

ت — لم تتعدد الاوزان في « ك م ل » الاّ عن تعدُّد المعاني في هذه المادة فلكَمِل معنى لا يؤدّيهِ كَمَل ولا كَمُل . وكَمَل في معناها الخاص بها هي الفصحى وما سواها ليس فصيحاً فالقول عنها انها « اردأها » ليس لهمستند ولا دليل بل الدليل ينقضهُ

ث — لنميز بين معاني كَمَل وكَمِل وكَمُل اورد قول الشاعر

فتىً كملت أخلاقُـهُ غير انهُ جوادٌ فلا يُبقي على المالِ باقيا

واسأل هكذا ما الفرق بين ضبط كمل بالفتح او بالكسر او بالضم وأيٌّ منها يظهر ان الشاعر أراده .ثانياً « حرص على الشيء حرْصاً (بكسر وسكون في المصدر) من بابي علم وضرب بمعنى جشع » فكيف جاء للوزنين مصدر واحدٌ . وكيف نضبط قول الشاعر

إحرصْ على الشِيَم التي كرمت آثارها في الأعصُر الأُوَلِ

وقول الآخر

إحرصْ على نشَب تجمّعُهُ بالجهدِ او ما أورث الوِلْدُ

أمن وزنٍ واحد هما او من وزنين وأينَ الضبط بكسر الراء لا بالفتح او بالفتح لا بالكسر فان الصرف ومتن اللغة يوردان حرَص وحرِص معاً

ثالثاً — جاءت الآية « ويأبى الله الاّ ان يتمّ نورهُ » فما الفرق في المعنى بين ضبط يأبي كيرمي مضارع رمى ويأبى كيرضى مضارع رَضيَ وأي المعنيين اولى بالآية

***

هذه الدقائق لعلم المباني ولا يقتصر عليها فهو يبحث المصادر والمشتقات والجموع .فقد ورد في جمع فاعل فَعْل وفُعْل وفِعْل كصحْب لصاحب وحُجّ لحاج وولْد لوالِد فملام جاء صَحب بالفتح لا بالضم وحُجّ بالضم لا بالكسر وولد بالكسر لا بالفتح

وجاء في غازٍ غازونَ وغزوٌ وغازية وغزاة وغزيٌّ(بفتح فكسر)وغُزيٌّ (بضم فكسر)

وغُزّى (بضم فشدة فألف مقصورة) فغزّاء (بضم فشدة فألف ممدودة فهمزة) ولم تأتِ هذه الصيغ الاّ عن تفاوت في معانيها وليس في التصريف ولا متن اللغة جلاء عن هذا التفاوت

وذكرت المعاجم شاب فهو اشيب ج شيب وشُيَّب وشُيُب وروى معجم البلدان في مادة مسكن قتلتُ به من حي فهد بن مالك . ثمانين منهم ناشئون وأشيبُ

فما ضبط اشيب. أبفتح الياء على انهُ مفرد او بالضمّ على انهُ جمع او هو تحريف عن شُيّب وما شأن اشيُب لو ثبت انهُ جمع . وما الفرق بين شِيب وشُيَّب وشُيُب . وهل من جموع القبيل صيغة فُعَّل فتأتي لفاعل ولغيره او لفاعلٍ دون سواه كجُدَّد وزُوَّر وعُوَّد وان خُرَّداً لخاردة لا لخريدة هذه شؤون يبحثها علم المباني فهو من التصريف كالمعاني من النحو وقد اهتدى اليه المرحوم ظاهر خير الله والدي ولم يتسنَّ له نشرهُ فهو مطويٌّ في اوراقه

التخريج

هو من المباني كالاعراب من النحو وكما يصح لك ان تعرب برز زيد فجأة فهو نائب مناب مفعول مطلق تقول في صِحاب انهُ جمع صاحب كقيام جمع قائم او جمع صحيب مثل رِفاقٍ جمع رفيق وكما يرجح في النحو مذهب على مذهب يرجح في المباني ايضاً

فن التخريج الفرق بين جُدُد بضمتين وجُدَد بضم ففتح في جمع جديد وكيف جاء شِجاع بكسر الاول في جموع شُجاع بضم الاول وسَرَى في جمع سريٍ وكيف يحلُّ الخلاف في كماة أجمعُ كامٍ هو او جمع كميّ وان سراة جمع لسار لا اسم جمع لسَريٍ . وقد اوردت في كتابي الرأي الحاسم نقد صِيَغ جمع سِوارٍ بمعنى قُلْب وهي أسوِرة وأساوِر وأساوِرة وسُوْر وسُؤور فاستغرق النقد ١٠ صفحات . وأبنت ان المعجم أغفل ثلاث صِيغ جمع واقول ان فِعالاً لا يجمَع على أفاعل بل على فعائل مثل شمال وشمائل وإقال وأقائل وعِيال وعيائل (وقيل عيايل) وفِعال يجمَع على أفعُل كألسُن وأذرُع وأشهُب في لِسان وذِراع وشِهاب ويجمَع أفعُل على افاعِل كأرهُط (جمع رهط) على أراهط. وأطرُق (جمع طريق) على اطارق اذن سِوار يجمَع على أسوُر (لم ترد في القاموس) وجمع أساوِر فقد اهمل القاموس صيغة جمع فلم يحسِن الضبط وأخلَّ بالقياس

فهذه الكلمة الوجيزة يبدو بها ما للمباني والتخريج من الفائدة في إنشاء المعجم فاذا رأت وزارة المعارف المصرية الجليلة الاستعانة بمن انفق من عمره فسحة في استقرائهما ضمته الى ذلك المجمع الجليل واخذت الدرَّة من حيث وجدت

دمشق : البطريركية الارثوذكسية امين ظاهر خير الله

أصل الحياة

لمصطفى جواد

ما لسرّ الحياةِ ظلّ مُعمّى بين هذي العلوم ذاتِ الضياء؟
أترانا من الطبيعة أمْ ما ذا ترانا مِنْ نسلِ هذا الهباء؟
ما الذي كان للطبيعة أمّا كيف صار الهباءُ ذا إحياء؟

قال لي بلبل على الغصن يشدو في جمال الربيع سرّ الحياةِ
بسمة الزهرِ للملاحظ تبدو بنشوء الحياةِ قبل المماتِ (١)
إنّ هذا الربيع جاءك يعدو فتمتّعْ فأنتَ مثل النباتِ

بلبلَ الروض ، انتَ سكرانُ من ألـ ـوان زهر أريجُهُ فوّاحُ
انني ما عنِ الخمائل اسألْ لا ولا شاقني بها القدّاح (٢)
انت ترجو دفع الشتاء ودرأ الـ ـحزنِ منهُ لحسبكَ الافراحُ

قال هلاّ شُغِلتَ عن بحث سرّ بعناء الحياةِ يا انسانُ !
تتعبُ العقلَ بينَ دَرْسٍ وخبرٍ واضطراب يثيرُه البرهانُ !
يا بني آدمٍ شُغفتمْ بأمرٍ كلُّ ما فيه انهُ خسرانُ

قلتُ للزهرةِ المفيضةِ حُسناً منْ أسالَ الحياةَ في الاشجار ؟
من كسا هذه الوُريقات لوناً مستمداً من ريحك السيار ؟
ولماذا تصوّحين أحُزناً ام بحكم مِنْ دَهركِ القهّار ؟

قالت الزهرةُ الخجولُ : حياتي ومماتي سرّان مكنونانِ
أتغذّى من الثرى والرفات وبنشق الهواء أقضي زماني

(١) هذه هي الفكرة الفلسفية (٢) القداح نور النبات قبل تفتحه ويطلق في العراق على نور الليمون والنارنج ونوعهما

أرتوي مثلكم بماء فآتي بجمال محبَّبٍ فتّانِ

قلتُ يا زهرةَ الحديقةِ طيبي ان عمر الزهور جدُّ قصيرِ
وأطلّي من فوق غصنٍ رطيبٍ وامنحينا الأريجَ قبلَ المصيرِ
انّ سرَّ الحياةِ جِدُّ غريبٍ فاهنئي واتركي غريبَ الامورِ

***

ضاقت بي الحالُ حتى صرتُ مبتدعا وطالما كنتُ ميقاناً ومُتّبِعا
هي الحقيقة تحييني فتبعثني من عالم الجهل حتى أهجر الورعا
اريدُ بالنفس خيراً غير ان لها شيطانَ جهلٍ اذا ارشدتها امتنعا
يغور فكري ببحر الشك مضطرباً يكابد الهولَ والحيرات والجزعا
قد أعجز العالمُ الاذهانَ فابتدعت ما لو يطورُ بهِ ذو غفلةٍ قنعا
كل الامور على عبثٍ تدُلّ فلا يغرُرْكَ ذو كلمٍ في غيهِ ارتفعا
فالموتُ والفقرُ والافسادُ بارحةٌ انّ التمدن من وحشيةٍ طلعا
وحاجة الحيّ للاغذاء معربةٌ ان الحياة تُرى إن أمرها اجتمعا
«عند العذول اعتراضات ولائمة»[1] فانْ طلبتَ اليهِ حجةً فزعا
وقد تشعبت الاديانُ واختلفتْ وامرها في جدالات الورى سطعا
كل يقول أنا الماشي على سننٍ يهدي الالهُ اليهِ كلّ من صنعا

***

وسألتُ المياهَ في الروض تجري كسير الدماء في الاجساد
قلتُ : يا ماءُ انتِ كاشفُ أمري أنت مأوى الحياة في الآباد
بنشوء الحياة هل أنت تدري هل نشوءُ الحياة من ذا الجماد ؟

قال لي الماءُ : كلِ حيّ وليدي ووليدُ الهواء في كلّ حال
نستثير الحياةَ بالتوحيد ونُصير المحالَ غيرَ محال
هل وجدتَ الحياة دون وجودي ام وجدتَ الهواء من تلك خالي ؟

مرّ شيخ مقوّسٌ ذو أناةٍ تخذ الدهر ظهره قوسَ وعْظِ

(١) هذا الشطر للكامل بن أبي الفتح

قلتُ يا شيخُ مَّ اصلُ الحياةِ فلقد كدتُ في الضلالة أمضي
أنت ذو خبرةٍ قريبُ الممات كيف فكّرتَ ؟ قال اني لا أقضي

***

قد حيّر الكونُ اذهانَ الورى جُمَعا فان تفكّر ذو عقلٍ بهِ جزِعا
مُعتقدٌ مذ رأى الانسانَ صورتهُ من ذا رأى القمر السيّار اذ طلعا
شمسٌ ونارٌ وسيّارٌ على دأبٍ النار تحرق والسيارُ قد دُفعا
ما الجذبُ ما الدفع ما الدنيا وخالقها أضحى الجوابُ على الانسانِ ممتنعا
هذا يقول وهذا منكرٌ أبداً حرنا فلسنا نرى الاّ امراً فزِعا
أما الدليلُ فلا عينٌ ولا اثرٌ وكل حزب بما قد ناله قنعا
إنْ قلت ماذا يُرى الانسانَ منهجهُ من الهدى قيل : ان الدين قد وزَعا
ما الدينُ يا قومُ ان الدينَ مكتسبٌ وطالما من جدالات الحجى ارتدعا
والعلم والدين في التحليل ما اتفقا والنفس والعقل في المقصود ما اجتمعا
ليسَ الحياةُ سوى سِرٍّ تكنّفَهُ مغالقُ الغيبِ لم يُكشفْ ولا سُمِعَا
والدينُ يعجز عن تبيانِ منشئها والعقلُ ساعٍ الى التبيان ما رجعا

***

قلتُ : ياشيخُ قد كفرتَ فكفّرْ عن خطاياك واتبع الرحمانا
إنما الدينُ عن حياتك يخبرْ كلُّ حيّ من المياهِ استبانا
ذاكَ شيء تعالَموهُ فذكّرْ انّ ذكراكَ تنفعُ الأديانا

قالَ ما زلتُ في الضلالِ أهيمُ كيفَ صار «الاميبُ» حيًّا سويّا ؟
انّ ارضاً قد ظلّ فيها الجحيمُ كيفَ تحيا الحياةُ فيها مليّا
انّ كونَ الحياة فيها قديمُ وكذا النارُ أنشئتْ كيمويّا

قلتُ : ياشيخُ ذاكَ فكري فمن لي بنصيرٍ يذيعُ هذا المقالا
هذه الارضُ حيّة قبلَ كلّ ذي اشتمال فهل تجيب سؤالا ؟
كيف هذي الحياةُ كانت فقل لي فلقد صار كل أمري ضلالا ؟

القوى الروحية في الصين

من محاضرة لكلود فارير

لا أجد بدّاً من الاعتراف بما أشعر بهِ من التردّد في معالجة مسألة لم يستطع ذكاء الغربيين سبيلاً الى حلّها حلاً أكيداً وهي : ما هي الصين ومن هم الصينيون ؟

لقد درست هذه المسألة طوال ثلاثين سنة ان لم اقل طوال حياتي كلها ، فقد عشت في الصين مدة طويلة ليس في المدن الكبيرة فحسب بل في القرى النائية التي لم يقدر لرجل من البيض ان وطئها قبلي ، فتعرفت الى الصينيين في حياتهم الخاصة ولي بينهم اصدقاء احترمهم وأعجب بهم ولا انسى ان فئة من الطلاب الصفر سألتني مرة ان اضع رواية عن بلادها ، على اني تردّدت في اجابة الطلب قائلاً : «لن أجيد وضع هذه الرواية فأنتم شيوخ مسنون ، وما انا بالنسبة اليكم سوى ولد صغير »

فاتخذوا هذا الجواب ضرباً من ضروب الأدب واللياقة فالصينيون يرتاحون كثيراً الى من يغرق في مضاعفة أعمارهم وأبلغ عبارة تستطيع ان تمدح بها سيدة صينية هي ان تقول لها انها طاعنة في السن . وبالحقيقة ان قولي للطلاب الصينيين إنهم شيوخ مسنّون إنما هو قول حقّ وصواب . فأعمارنا نحن الفرنسيين لا تتجاوز خمسة عشر قرناً اوعشرين على الأكثر ، فالغاليّون لم يكونوا فرنسيين، ولم يكن للشعب الفرنسي من أثر قبل القيصر الكبير ، في حين ان الصينيين هم صينيون منذ ثمانين قرناً على الأقل

﴿ اقدم حضارة بشرية ﴾ لم تكن اسيا الوسطى ، قبل عهد البشر ، سوى قاعدة من الارض تمتدّ من بيقال الى بحر الهند ، فطرأ عليها تغضين عظيم نشأت عنهُ جبال حملايا والكونيلون والتيانشان والنانشان والالتاني ،ثم انحنت القاعدة المنتفخة من الغرب الى الشرق واذا بالمياه تتجمع في ذلك الوادي المزدوج المعروف بالهوانغ هو واليانغ تسي ، ثم اخذ هذان النهران يلفظان موادّها واذا بالتربة الصفراء تنشأ رويداً رويداً وهي أخصب تربة أوجدتها الطبيعة قد لا تعدلها تربة اميركا الشمالية ولا تربة روسيا السوداء

وهبطت قبائل رحالة منحدرة من التركستان الى النهر الاصفر فاكتشفت الارض الصفراء واستدرجها الخصب الى استغلالها فاستوطنتها ، ومنذ ذلك الحين نشأ الصينيون

ولا مشاحة في أن السلالة الصينية مردودة الى مستهل التاريخ البشري ، ويكفينا لنستوثق من ذلك أن نرمي نظرة الى الاسطورة الصينية . فقد جاء في ميثولوجيا ابناء السماء أنهُ كان في

البدء « أسرة الجلد السامية » ثم « اسرة الارض السامية » ثم « اسرة الانسانية السامية » وأن هذه الاسر جميعها قد دامت خمسمائة واربعين قرناً . ثم جاء الامراء المنزهون عن التوبيخ وعددهم سبعة وثلاثون اميراً منهم اثنان او ثلاثة اطلق عليهم هذا اللقب : « بدأوا يبنون المشاش » وهذه العشاش كانت قرى مائية اي مبنية على ضفاف البحيرات . ومنهم من اطلق عليهم : « افركوا قطعتين من الحطب لتشتعلا » ولا ريب بان هذا اللقب يرمز الى استعباد النار . وأطلق على احد هؤلاء الامراء لقب « الدائرة والوسط » وهذا اللقب يرمز الى اختراع الدولاب والعجلة . أما المحراث فلم يكن قد اخترع بعد

يتضح لنا مما تقدم أن حضارة قديمة كهذه ينبغي أن تكون كثيرة التوغل في ظلمة الماضي وأن ثمانين قرناً إنما هي عدد ضئيل إذا قيس بعمر هذه الحضارة

﴿ الصينيون يخترعون الكتابة ﴾ جاء في أساطير الصين ان امبراطوراً يدعى «فوهي» كان مالكاً زمام الامبراطورية السماوية في نحو القرن الخامس والاربعين قبل المسيح ، وان هذا الامبراطور كان اول من دجن الماشية وسنَّ شريعة الزواج وأعطى شعبهُ المحراث الاصليّ وتخيَّل أحرف الكتابة ، وهذه الاحرف لم تكن سوى ثماني علامات رمزية

ولكن في نحو القرن السابع والعشرين صعد العرش امبراطور آخر يدعى « هوانغ — ني » ولقبهُ « الاصفر المعظَّم » فبعد ان افنى الدباب التي كانت تتكاثر في ذلك الحين ، ورتَّب امتيازات السحرة بقوانين، ونظَّم اليومية القمرية ، وأمر برفع القرابين الى كل قوة غير منظورة عمد الى إصلاح الاحرف المكتوبة فكمَّلها

إذن فالصينيون قد عرفوا الكتابة ألفي سنة قبلنا وقبل اجدادنا الروحيين اليونان والفينيقيين ، وإذن فذهنهم قد ارتاض قبل ذهننا ببرهة ، وفي هذا ما يدعو الى التأمل والتفكير

على ان هنالك ما هو اعجب من كل ذلك ، فقد قلت إن « الاصفر المعظم » كمَّل الاحرف المكتوبة ولم يستنبطها ، فالكتابة الصينية هي كتابة رمزية تصوّر الفكر دون الصوت ، وكلّ كلمة صينية يعبَّر عنها على الورق برسم صغير ينقل الى دماغ القارىء التأثير الموافق . اما كتابتنا نحن — وهي كتابة صوتية — فانها تنقل الى دماغ القارىء تأثيراً رناناً يستخرج منهُ الدماغ التأثير النهائي المتعلق بالشيء المطلوب وهذا لعمري جهد دماغي يختلف عن الاول اختلافاً بيّناً . ولا شك في أن جنسين من أجناس البشر ينتجان عن هذا الاختلاف البعيد وفي هذا دليل على ان الصينيين لا يشابهوننا في شيء ، وانهم اقدم منا بقرون عديدة . ولهذا السبب لم يكن بين ثقافتنا وثقافتهم أقل علاقة

﴿ الفتيات البشعات بليّة وعالة ﴾ والآن أتريدون أن نجوب معاً جيوب التاريخ الصينيّ منذ القرن السابع والعشرين قبل المسيح — وهو عصر الامبراطور هوانغ — ني — الى قرننا هذا ؟

إذن فيستغرق مسيرنا مدة خمسة آلاف سنة لا يصعب علينا ان نختصرها في فترة خمس دقائق

بعد ان توفي الامبراطور هوانغ —تي — تعاقب على العرش ثلاثة من امبراطرة الاساطير هم ياو ، وشون ، ويو ، فالاول نظّم مجاري المياه ، والثاني انشأ قانون الجنايات الاول ونظم يومية شمسية أرضى بها المزارعين ،والثالث حمل شعبه من شواطئ النهر الاصفر الى شواطئ النهر الازرق واستطاع بهذه الطريقة ان يخلق اول دولة حقيقية

على ان هؤلاء الامبراطرة لم يسودوا الاّ على بضع خيم وبضعة قطعان ، فقد كانوا بطارقة بسطاء لا اكثر ولا اقلّ ، فالاسرة الصينية قديمة جداً يرجع تاريخها الى اربعة آلاف سنة او خمسة آلاف سنة قبل المسيح ، وهي اسرة جميلة ، صلبة ، سلسة ، خصبة ،تقبل المضارّة بالطبع وتقبل ايضاً عدا الزوجات الشرعيات زوجات غير شرعيات،ولكن في اشراف القانون. أما الابناء فتجوز ولادتهم بكثرة من غير ان يطوح احداً منهم خارج الحجر العائلي بشرط ان يكونوا غلماناً لان الفتيات الكثيرات بلية وعالة على اهلهنّ لا سيما اذا لم يكنّ مفرطات في الجمال ، والشريعة الصينية لا تجيز البلايا

﴿ الفلاسفة الصينيون الثلاثة ﴾ في العام ٢٢٠٥ قبل المسيح ظهرت السلالة الصينية الوارثة الاولى وهي سلالة « هيا » التي تربعت على العرش ثم عقبتها سلالة شنغ ، فسلالة إنّ ، فسلالة تشيو التي سادت الف سنة ، اي الى عهد هنيبال فالهيا حكموا من العام ٢٢٠٥ الى ١٧٦٧ ، والشنغ والإنّ من العام ١٧٦٦ الى ١١٢٢ ، والتشيو من العام ١١٢٢ الى ٢٥٥ ، وفي عهد هذه السلالة الاخيرة عاش الفلاسفة الصينيون الثلاثة وهم لاوتسو الذي ولد في العام ٦٠٤ قبل المسيح ، وكونغ تسو الذي ولد في العام ٥٥١ ومات في العام ٤٧٩ (؟) ، ومانغ تسو ، تلميذ هذا الاخير (٣٧٢ - ٢٨٩) ولست بحاجة الى القول ان كونغ تسو هو نفسه الفيلسوف المعروف بكونفوشيوس . والآن من هم هؤلاء الفلاسفة الثلاثة ؟

يسهل عليّ التكلم عن كونغ تسو ومانغ تسو ، فهذان الرجلان العظيمان كانا حكيمين اكثر منهما عالمين من علماء النظريات ، فلم يحدث لاحدهما ان عالج القضايا الكبرى المتعلقة بالقضاء البشريّ . وقد قال كونغ تسو : «لا اعرف ما هي الحياة ، فكيف اهتمّ بمعرفة ما هو الموت ؟ » وكونغ تسو هذا املى حكمة اجتماعية ، منطقية وأساليب حكومية عديدة.وهذه الاساليب الحكومية المجموعة في كتيّب عنوانه « الدرس الكبير » تستحق ان يتأمل فيها جميع زعماء الدول حتى الحاليون منهم

اما لاوتسو فيختلف عن هذين الفيلسوفين ، فهو عالم نظري ، ونظريته في العالم ، تلك النظرية الغائمة تقرب من نظريتي فيثاغوراس وهيراقليطوس. على ان لاوتسو لم يخلق ليعيش في الشرق الاقصى ، فالشرق الاقصى لم يفهمه ، ولم يستطع الصينيون ان يستقوا من تعاليمه

الاّ مزيجاً من الخرافات الغريبة وهذا المزيج من الخرافات يعرف بالطاو ، وهو مفعم بالسحر، وعبادة النار والكواكب ، وغير ذلك من الغرائب والمبهمات . الاّ ان حسن الحظ شاء ان يولد كونغ تسو بعد لاوتسو بنصف قرن فأتيح له ان يضع بعض النظام في تلك الخرافات المشوشة ثم جاء مانغ تسو فضاعف ما اصلحه كونغ تسو حتى اصبحت الخرافات الضعيفة مذهباً وتقاليد واليكم مثالاً من «الليكي» وهو كتاب الرتب الدينية عند الصينيين القدماء :

« في الشهر الاول من الصيف قبل ان يأتي الصيف بثلاثة ايام ، اعلنه المقوم الكبير لابن السماء ، فتطهر ابن السماء بالزهد ، وفي مستهل ايام الصيف خرج لاستقبال هذا الاخير في مركبته الحمراء التي تجرها جياد صهبٌ ذات اذناب سود . لقد خرج بعلمه القرمزيّ مرتدياً لباسه الاحمر وعلى قبعته وحزامه اليواقيت الحمر ، يتبعه ثلاثة من كبار وزراء الدولة وتسعة من الوزراء الآخرين وجميع كبار الرؤساء، فرحب بالصيف في الجهة القبلية من العاصمة لما قفل راجعاً وزّع الحمد والنعم بعدله الكبير» . واليكم هذا المقال الآخر :

«إن ابن السماء يرفع القرابين او التضحيات الى السماء والارض، الى ارواح الخوافق الاربعة، الى ارواح الجبال ومجاري المياه والى الخمسة الانواع من الآلهة الانيسة»

فالمثال الاول هو ولا ريب من كونغ تسو ، والمثال الآخر من لاوتسو، وهذان المثالان هما نموذجان من مزيج يؤلف الديانة الصينية الاولى ، او بالاحرى النظام الاجتماعي في الصين فالصين منذ خمسة وعشرين قرناً كانت ركاماً من العيال يديره امير بطريقيّ

«امبراطور يحرق الاسفار القديمة» كذلك كانت الصين في عهد التشيو بعد ان جازت عهد الإنّ والتشنغ والهيا ، ولكن عند ما انهارت سلالة التشيو حدث انقلاب عظيم

قلت عند ما انهارت سلالة التشيو ... ولكن كيف انهارت هذه السلالة وكيف انهارت قبلها سلالات الإن والشنغ والهيا ؟ - لقد انهارت هذه السلالات جميعها كما ستنهار السلالات التي ستعقبها ، فبعد هؤلاء الامراء المؤسسين، الامراء الحكماء الاذكياء المتحمسين حلّ امراء وارثون يعلّقون على العرض اكثر مما يعلقون على الجوهر ، والشعب الصيني كثير الشبه بقطيع الاغنام ، فهو سهل الانقياد على ان لا يطلب منه ما ليس في حسبانه او ما هو صعب عليه . فلقد سقطت سلالة الهيا لان حظية آخر امير من امرائها صور لها ان تضرم النار حين لم يكن من داع لاضرامها ، ولقد شاءت هذه السيدة الفتّانة ان ترى ما يحدث بعد ذلك، ولكن الذي حدث هو ان الصينيين قطعوها تقطيعاً واسقطوا عشيقها عن العرش

ولنعد الآن الى الاغنام ، فلما اضمحلت سلالة التشيو وذلك في العام ٢٢٥ قبل المسيح قاست الصين ثلاثاً وثلاثين سنة من الفوضى والاضطرابات ، ثم انبثق رجل عظيم من مقاطعة شانسي وذلك قبل ان يربح شيبيون الافريقي معركة زاما بعشرين سنة ، وهذا الرجل العظيم

هو الأمير تسن المعروف بفانغ تشنغ

قلت ان فانغ تشنغ هذا نجب من مقاطعة شانسي القائمة على كتف النهر الأصفر ، فلما قبض على زمام الصين بأمرها — بعد ان أباد جميع المشاغبين — سمى نفسهُ تسن شوهوانغ — تي اي الامبراطور الاول لسلالة تسن . وأول ما بدأ بهِ هو ان انشأ من الصين امة متحدة

كان هذا الامبراطور يقبل نصيحة أي كان، ولكن عند ما كان يرى النصيحة سيئة كان يحرق الناصح حيًّا او يغليه على النار. وكان الكتّاب يواجهونه دائمًا بالشرائع القديمة ليوقفوه عند حده ويمنعوه من العمل على هواه فحرق جميع الاسفار القديمة وأغلى أحياء جميع الذين كانوا يقرأون اي كتاب كان . فغضب الصينيون على تسن شوهوانغ — تي وأخذوا ينظرون اليه نظرتهم الى ملك دجال . على ان تسن شوهوانغ — تي كان قد شيّد أمة حقيقية تدعى الصين ، وهذه الامة لم تضمحلّ الاّ بموت هذا الامبراطور في العام ٢٠٦ على انها لم تضمحلّ الاّ لتبعث فيما بعد ، والذين عملوا على بعث هذه الامة هم الهان — السلالة السماوية الحقة — الذين ساروا مدة اربعمائة سنة او اكثر ولم يسودوا طوال هذه المدة الاّ انهم عرفوا اختيار قوادهم الذين كثيراً ما جدّدوا الوحدة الصينية . ولم تضمحلّ سلالة الهان الاّ في السنة ١٨٤ للمسيح

﴿الصين في عهد الاستيلاء الاجنبي﴾ كان القرن الخامس للمسيح عهد الغزوات البربرية ان في الصين وان في الغرب الاقصى ، ففي العام ٤١٠ استولى «الاريك» على روما ، وفي ذلك العهد أيضاً احتل ليو تسونغ ، ملك «الهون» Huns ، العواصم الصينية وأسر امبراطورين جعل أحدهما خادماً لهُ . ومنذ ذلك الحين بدأ الغرباء يحكمون الصين ، فبعد ان جلا «الهون» عن الصين خلفهم «التوبا» وقد اهتدوا الى الدين البوذي ، فعالجوا سلطتهم من غير أن يتخذوا لهم لقب امبراطور ، على ان سلالتين من المغول انبعثتا من دمهم هما السوي والتانغ . ولقد بقي الغرباء يحكمون في الصين مدة خمسمائة سنة متتالية فأنشأوا أمة عظيمة أداروها بشراسة ولكن بحذق ونشاط. ولا ريب بأن احتكاك هؤلاء الامبراطرة بالصين — ذلك الاحتكاك الطويل — جعلهم صينيين . على ان الصين ، في عهد الاستيلاء الاجنبي هذا ، تفتحت في أفكار لم تخطر في بال كونفوشيوس نفسه ، فبين القرن السادس والعاشر وقعت في المملكة السماوية أزمتان او ثلاث ازمات دينية ، على ان هذه الازمات لم تلبث ان تلاشت ، فلما سقط التانغ في العام ٩٠٧ وعقبت سقوطهم فوضى دامت نحواً من ستين سنة انقسمت الصين الى دويلات مختلفة حتى ظهر فيها قائد ظافر او متشرد أحذق من سواه اذا شئتم فأسس السلالة الوطنية الوحيدة التي عرفتها الصين منذ عهد الهون والتشيو وهي سلالة سونغ

سوى ان هذه السلالة الصينية لم تتصرف تصرفاً حسناً لأن مؤسسها كان جنديًّا حاذقاً اكثر منهُ محارباً، ولقد شبهه الفرنسيون بهنري الرابع. على ان الجدير بالذكر هو ان الصينيين

كانوا سعداء في عهد السونغ الذين انهارت سلالتهم في العام ١٢٧٩ بعد ان انهار كل شيء من حولهم ، ولقد شرح لنا ماركوبولو لماذا كان الصينيون سعداء في عهد السونغ ولماذا استسلموا لاول فاتح هبط عليهم . قال ماركو بولو :

لو كان شعب مانزي (اسم ملك) من الشعوب المحاربة لافتتح العالم . ولكن شعب مانزي لم يكن شعباً محارباً بل كان تاجراً أو صانعاً ولقد صرف همه على النساء . وكان ملكه اميل ما يكون الى النساء والى العطف على الفقراء والاحسان اليهم»

ولنستأنف الآن الكلام عن آخر الامبراطرة الصينيين فنقول : ان سلالة « منغ » الصينية خلفت المغول الغرباء وتوارثت الملك الى العام ١٦٤٤ ، ثم عقبتها سلالة « تاتسنغ » فحكمت من العام ١٦٤٤ الى العام ١٩١٢ أي الى عهد الفوضى الحالية التي لم تدم الا احدى وعشرين سنة ، والاحدى والعشرون سنة ليست بالمدة الطويلة متى كان الامر متعلقاً بفوضى صينية

﴿ الصينيون عيال لا أمة ﴾ اظنني جعلتكم تلمسون باصبعكم تلك الحقيقة التاريخية وهي ان الصين لم تكن صيناً حقيقية الا تحت سيطرة الفاتحين الغرباء . وهذه الحقيقة التاريخية تجعلنا نذهب الى ان الفوضى الحالية في الصين لن يوضع لها حدّ الا اذا تدخل الغرباء في الامر

ولكن فيمَ لم نر الصينيين الذين هم ولا ريب اكثر تجار الكرة الارضية حذقاً وحكمة وأشد الفلاحين صبراً وصلابة ، والذين عرفوا اكثر مما عرف سواهم ان يقمعوا مزاجهم العصبي في الجهود الشاقة ويصور اليهم انهم اقرب الجنس البشري الى الكمال ، فيمَ لم نرهم صاروا الى تلك النتيجة البسيطة التي كثيراً ما صارت اليها سلالات هي دونهم بمراحل بعيدة وهي حكم النفس بالنفس ؟ فيم لم تكن الصين صيناً حقيقية الا تحت سيطرة فاتحين غرباء تحت سيطرة كثيراً ما كانت ظالمة شرسة ؟ . ذلك لان الصينيين الذين عرفوا في البدء ان يؤسسوا عيلة صينية متينة اضطرتهم الحاجة في الكثير الغالب الى ان يمزجوا عيالهم بعضها ببعض ويجعلوا منها قبائل لا أمة ، فالصينيون يؤمنون بالعيلة ، وبالعيلة دون سواها

﴿ لا يخلق الامة الا الزواج المختلط ﴾ لم تخلق الامم ان في آسيا وان في اوربا الا منذ الوقت الذي اختلط فيه الزواج من عيلة الى عيلة او من قبيلة الى قبيلة . والامم القوية التي أسرعت بالنشوء كالامة الفرنسية والانكليزية والاسبانية والايطالية ، لم تستمد قوتها الا من امتزاجها بعضها ببعض ، فالامة الفرنسية مثلاً هي مزيج من السلط واللاتين والفرنج والبروغونديين والنورمانديين ، والامة الانكليزية هي مزيج من البريطان والانكلو والسكسون والدانوا والنورمانديين والغائيل !

وخلاصة القول يجب ان يتزاوج الشبوط والارنب ليكون هناك امة حقيقية على ان

الصينيين لم يكونوا الاَّ صينيين ، فالصينيون لا يسمحون بالتمازج ، والتمازج وحده يخلق الامم
يبلغ عدد سكان الصين اربعمائة وخمسين مليوناً ما يعادل ثلث سكان الكرة الارضية .
سوى ان هذا العدد لم يزد منذ اكثر من مئة سنة . واذا استثنينا شعوب كندا واليابان وبولونيا رأينا انهُ ما من سلالة بشرية تتكاثر بسرعة السلالة الصينية

على ان الصينيين ، وهم شعب يحتقر احتقاراً شديداً كل ما هو في نطاق الصحة ، يموتون بالملايين ، وقد لا نستطيع ان نحصي عدد هؤلاء البشريين الذين يموتون كل سنة بالاوبئة المختلفة وقد لا نخطىء ايضاً إذا قلنا انهُ منذ اليوم الذي يهتم فيهِ الصينيون بتربية ابنائهم بحسب القوانين الصحية يصبح عددهم تسعمائة مليون بدلاً من اربعمائة وخمسين مليوناً ويصبح الشعب الاصفر وهو يعدُّ بالمليارات لابمئات الملايين . وعندئذٍ لا يبقى لنا — نحن وأنسالنا — إلاَّ أن نحتجب :

« الصين في الوقت الحاضر » ولكن مالنا ولهذه المسألة المخيفة ، فلنبقَ في الحاضر ولنحصر حديثنا في هؤلاء الصينيين المساكين من طراز ١٩٣٣ الذين يقتتلون اليوم مدلجين في الفوضى العمياء التي لا يعرفون الخروج منها ..

قد تقولون لي ان رجلاً واحداً يكفي لانقاذ شعب ، وقد رأيتم حقيقة ذلك في فرنسا ، على أن فرنسا تعدُّ اربعين مليوناً او أقلّ . اما الصين فتعدّ اربعمائة وخمسين مليوناً ، وهذا الشعب العظيم يحتاج لانقاذه الى رجل عظيم ، والعظماء لا يخلقون كل يوم

وفي الصين ، بين بكين وكانتون ، عشرون حكومة مختلفة لا تكف عن التناحر بكل ما في الوحشية من المعنى ، وهذه الحكومات لا تعبأ بعواقب تناحرها فهي تكتفي بقتل الحياديين اي بقتل الشعب ، فالصينيون يقتلون الصينيين بالسهولة التي نراها نحن في قولنا : اسعدت صباحاً

ثم ان هذه الحكومات وعلى رأس كل منها زعيم متشرد او لص ، يفاوض بعضها موسكو وبعضها توكيو ، والبعض الآخر واشنطون ، ولندن أيضاً . ولكن لندع السياسة جانباً ! فنحن في الصين ولنبق فيها . نحن في بلاد تعسة ، في أشقى البلدان جميعاً . قد تقولون ان شقاء هذه البلاد يرجع الى اخطائها هي . حسناً ، ولكن افريقيا ، بين السينغال والكنغو ، ومراكش بأسرها كانت في الماضي ميادين مصبوغة بالدم ، حتى جاء فيدهرب وارشيفار ومانجن وليوتاي فأشفقوا على هذه الشعوب المتناحرة ومنحوها السلام الفرنسي . فمن تراه يشفق على الصين المسكينة فيمنحها السلام أي سلام كان ويجعل منها امة حقيقية ولو أكلت الأرض ؟

أني لأتمنى ان يجيء أحد ، منشوريًّا كان ام مغوليًّا ام يابانيًّا ! فمنقذ الصين لابد له ان يصبح صينيًّا بما ان جميع الذين افتتحوا الصين لم يمر عليهم جيل واحد حتى اصبحوا صينيين . وهذا سرٌّ غريب نضيفهُ الى اسرار آسيا القصوى هذه ، الى اسرار تلك الأرض العجيبة التي اخترعت البيان — أثمن المزايا البشرية — والتي تعمل الصينيين بسرعة تدهش العقول

العطور واستخراجها

بين الطبيعة والعلم

ان حاسة الشم من الحواس التي لم ترتق بارتقاء الانسان ، بل على الضد من ذلك ضعفت.
الكلب، يميز بين الصديق والعدو بالشم ويستطيع ان يقفو اثر انسان اذا شم رائحة ملابسه.
هذا ما يفعله رجال الشرطة في اقتفاء آثار المجرمين احياناً. اما الانسان فقد فقد دقة حاسة
الشم او كاد . انهُ يستطيع ان يميز الروائح الطيبة من الروائح الكريهة. ولكن اللغة نفسها اقوى
دليل على ضعف هذه الحاسة فيه . فليس يحتاج احد الى بلاغة نادرة لكي يصف جسماً من
الاجسام وصفاً يمكنك من معرفته اذا رأيتهُ . فالامي يستطيع ان يصف حيواناً غريباً
رآه بالفاظ تمكنك من معرفة هذا الحيوان اذا رأيتهُ انت فتقول هذا هو الحيوان الذي وصفهُ
فلان . ولكن ذلك متعذر في وصف الروائح الى حد بعيد . حاول ان تصف رائحة معينة
ولنقل انها رائحة الورد من دون ان تستعمل لفظ الورد في وصفها ، بطريقة تمكن صاحبك
من معرفة الرائحة التي تقصدها . ان اللغة في الغالب تقصر دون مرادك ولو كنت من البلغاء

والعطور محلولات من زيوت معينة او مواد عطرة ، في كحول مخفف . اما عطور
القدماء فكانت المواد العطرة نفسها . غير محلولة في كحول او اية مادة اخرى

والزيوت العطرة تستخرج من مصادر نباتية ، من الازهار والاوراق والسوق والجذور
باساليب دقيقة كل الدقة ، وقد عرفت بالزيوت ؛ لانها في الغالب مواد دهنية او زيتية ، اخف
من الماء وتطفو على سطحه من دون ان تمتزج به. وهي تشبه الزيوت الاخرى، كزيت الزيتون
وزيت بزر الكتان ، في انها تحدث بقعة دهنية ، اذا وضعت قطرة منها على الورق . ولكنها
تختلف عن الزيوت العادية ؛ في ان هذه البقعة الدهنية على الورق ، تزول بالتبخر بعد ما
تمكث قليلاً ، واما بقع الزيوت العادية على الورق فتمكث ولا تزول

فعطر التربة والقرنفل والخزامى والتنوم او رقيب الشمس والسنط والياسمين
والنارنج والورد والبنفسج يستخرج من ازهارها. وعطر الخزامى و اكليل الجبل والنعناع
والبنفسج يؤخذ من ازهارها واوراقها . وعطر العيشر والدارصيني يؤخذ من اوراقهما
وسوقهما . وعطر الدارصيني والتربة يؤخذ من لحائهما. وعطر العرعار والصندل من خشبهما.
وعطر حشيشة الميلك (angelica) والساسفرس من جذورها . وعطر البرجوت والليمون
والليم والبرتقال يؤخذ من اثمارها . وعطر اللوز المر واليانسون وجوز الطيب يؤخذ من

بزورها . وعطر المرّ وبلسم بيرو والمَيعة يؤخذ من أصماغها

وثمة طيوب تستخرج من الحيوانات . وهي اغلى العطور واندرها . فالعنبر يستخرج من حيوان بحري ، تقذفهُ الحيتان المريضة وتحملهُ الامواج الى الشاطىء . والمسك يستخرج من احد الايائل ، الذي كاد ينقرض الآن ، لجدّ الناس في صيدهِ . والزباد طيب نادر يستخرج من سنّور الزباد باساليب كادت تقرض هذا الحيوان

اما الاساليب التي تستعمل لاستخراج العطر من الازهار فبعضها قديم كالتقطير والنقع في الأدهان والكحول ، وبعضها حديث كاستعمال بخار البترول . ويندر ان يكتفى الآن بأسلوب واحد في استخراج عطر زهر من الازهار ، بل يعمد الى غير اسلوب واحدٍ حتى يثبت ان كل العطر الذي في الزهر قد استخرج

ففي طريقة التقطير توضع الازهار في انبيق كبير وتغمر بالماء ثم يبدأ عمل التقطير المعروف المستعمل في تقطير ماء الزهر من زهر النارنج وماء الورد من زهر الورد

اما طريقة النقع في المواد الدهنية فيعمد فيها الى وضع الازهار فيها حتى تتهرأ وتصير كالمروّخ ، والغالب ان يوضع عدد معين من الازهار في دهن نقي او زيت زيتونٍ نقي ثم يوضع الاناء في اناءٍ آخر فيهِ ماء غالٍ ، وبعد وقت معيَّن تخرج الازهار ويوضع غيرها محلها حتى يتشبع الدهن او الزيت من عطرها . ثم تعرث الازهار التي نقعت وتضغط في مكابس مائية حتى يعصر منها كلّ ما تبقّى فيها من العطر . ويؤخذ المروّخ ويغسل مراراً بالكحول فيذيب الكحول العطر الذي فيهِ ويمتصهُ فيصبح بعد التصفية والتبريد خلاصة زهر النارنج اذا كان الزهر من النارنج او البرتقال ، وعطر الورد اذا كان الزهر ورداً

وقد تستخرج المادة العطرية باستعمال بخار البترول النقي وهو احدث الاساليب وافضلها وطريقتهُ ان تعرث الازهار اولاً فتتمزق الغدد الزيتية التي تحتوي على المادة العطرية ، وتتصل هذه المادة ببخار البترول وتبقى الازهار المعروثة على هذه الحال ٤٨ ساعة . ثم يبرد البخار ويستقطر فيبقى منهُ مادة شمعية ذات رائحة عطرة ، ويعاد عمل الاستقطار مراراً فتصبح المادة الشمعية خلاصة العطر الجامدة التي تباع في الاسواق

يسهل استعمال هذه الاساليب للازهار التي تستخرج رائحتها بسهولة اذا عرثت ، ولا تزول رائحتها اذا مضى عليها وقت طويل بعد جنيها ، ولكن ما كان من الازهار كالياسمين والزنبق ، لا يستخرج عطرهُ الاّ بالحيلة لان مقدار العطر قليل — فقد لا يستخرج من طن من الزهر الاّ اوقية او اوقيتان من العطر — لا يصلح التقطير لاستخراجهِ ولا يستخرج بالنقع ولا ببخار البترول لئلاّ تتلف الازهار . ولذلك يستخرج عطرها باستعمال الدهن البارد . وآية ذلك ان الازهار الغضة توضع في اطباق مبطنةٍ بالدهن ، وتقام هذه الاطباق بعضها فوق بعضٍ ،

وتبدل الازهار الذاوية بغيرها مرة كل ٤٨ ساعة بعد ان يمتص الدهن عطرها ويصبح كالمروّخ المذكور آنفاً . ثم يغسل هذا المروّخ بالكحول كما تقدم

وقلما تباع خلاصات العطور الا لصنّاعها. ويختلف سعر الاوقية الواحدة من نحو جنيه الى عشرات الجنيهات. وثمن بعضها يفوق وزنهُ ذهباً . وهؤلاء يمزجونها ثم يحلونها في الكحول ويبيعونها في زجاجات انيقة ، لا يحتوي المحلول الذي فيها على اكثر من ١٠ في المائة عطراً و ٩٠ في المائة كحولاً

وسرّ صناعة العطور هو في مزج الخلاصات الزيتية قبل حلّها ، وهو فنٌّ دقيق ، توارثت سرَّه بعض الاسر التي اشتهرت بهذه الصناعة . فماء الكولونيا الالماني ، لا يباح سرُّ صناعتهِ ، حتى للعلماء . وكان الكيماوي الالماني «پيس Piess» قد صنع للعطور سلّماً شبيهاً بالسلّم الموسيقي في اسفله العطور الشرقية القوية مثل عطر خشب الصندل وفي أعلاه العطور الطيارة الخفيفة مثل عطر شجرة اليمام Heliotrope . على هذا السلّم العطري يستطيع الخبير البارع ان يمزج العطور كما يؤلف بين الانغام فيخرج منها عطوراً مركبة منسجمة . فاذا كان غير خبير ، وقع تنافر بين الاجزاء التي يصنع منها العطر المركب كما يقع التنافر في الانغام

فمزج العطور المختلفة لاخراج عطر جديد يستطيبهُ الناس ويقبلون عليهِ ، فنٌّ دقيق يحتاج الى حسٍّ مرهف ، والراجح ان اكتسابهُ ممكن بالاختبار وطول المرانة

فصنع العطور ميدانٌ لبراعة الكيماوي . ولولاه لظلّت العطور غالية الثمن عزيزة المنال الاَّ على الأثرياء . خذ مثلاً عطر البنفسج . فهو من اندر العطور واغلاها ثمناً . فاذا زرعت فداناً بنبات البنفسج ، لم تستطع ان تستخرج من ازهاره ، الاّ بضع قطرات من عطر البنفسج الزيتي . ومن اشق الأمور حفظهُ . لانهُ طيّار . فلما حالل الكيماوي هذا العطر وجد ان عنصره الاساسي مادة تدعى ايونون . فاذا استفردت هذه المادة نقية من الشوائب بلغ من قوة رائحتها انها تشل حاسة الشمّ ، فلا يستطيع الانسان ان يتبين لها رائحة ما . فعمد الكيماوي الى محاولة تركيب هذه المادة تركيباً صناعيًّا في المعمل . وقد افلح في ما حاول . والعطور المحتوية على خلاصة عطر البنفسج اصبحت رخيصة ، حتى ليتعذر عليك في الغالب ان تبتاع عطر البنفسج الطبيعي ، لانهُ لا يستطيع ان ينافس العطر الصناعي ، فلا يصنع لانهُ لا يفي بنفقات استخراجهِ الطائلة . ومن هذا القبيل فوز الكيماوي بصنع المواد الاساسية في العطور والطيوب المختلفة كالمسك وعطر الورد وعطر الليمون وغيرها

ولكن العطور التي يصنعها الكيماوي لا تصلح ، وحدها ، الاّ لصنع العطور الرخيصة . ولذلك تمزج ببعض العطور الطبيعية في صنع العطور المركبة ، لان اصحاب الحسّ الدقيق يستطيعون ان يميزوا العطر الصناعي البحت
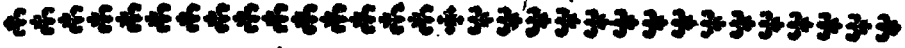
پول پانليڤه

Paul Painlevé
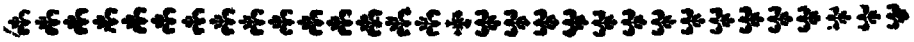
كتب العالم البريطاني توماس جرينوود في مجلة نايتشر قال : لما ذهبت الى لقاء المسيو پانليڤه قبيل وفاته كان منهمكاً في إعداد الجزء الثاني من محاضراته المشهورة في «ميكانيكية السوائل» التي القاها حديثاً في السوربون، فرأيت «الرئيس» (كما يدعوه اصدقاؤه) وهو في شفق حياته، مشغولاً بالمباحث التي شغفته ، قبلما لبّى نداء الوطن وخاض ميادين الخدمة العامة . وكان حينئذٍ ناقهاً من علة اصابتهُ وأقعدته عن العمل والدرس ، وكان يأمل ان يتاح له اعداد خطبته الافتتاحية ليتلوها في « معهد الفنون والصنائع» الذي دعي باسمهِ ، اعترافاً بفضله ونبوغهِ . ولكن القدر لم يمهله ، فوضع نعشهُ في ردهة ذلك المعهد ، قبل حمله الى البانثيون (مقر رفات الفرنسيين العظماء). ففرنسا خسرت بوفاتهِ ابناً من أكرم ابنائها ، والعالم رياضيًّا وسياسيًّا من اعظم رياضييهِ وساستهِ

***

قلما يتاح لرجل من المشتغلين بالشؤون العامة ان يجمع بين المكانة العلمية والمقام السياسي في أعلى مراتبهما . ولكن المسيو پانليڤه كان من هؤلاء

ولد في باريس سنة ١٨٦٣ وتلقى العلم في دار المعلمين العليا (الايكول نورمال سوبيريور) واحرز لقب دكتور في علوم الرياضة ثم اثبت بمباحثهِ انهُ رياضي من الطبقة الاولى ، فعين استاذاً في السوربون وانتخب عضواً في مجمع العلوم

ومنذ ما قامت في فرنسا قضية دريفوس الشهيرة بدأ يوجه عنايتهُ الى السياسة ، ففي سنة ١٩٠٦ انتخب نائباً اشتراكيًّا مستقلاً عن باريس ، ووجه عناية خاصة الى شؤون الجيش والاسطول والسلاح الجوي . ولكنهُ لم يشغل منصباً سياسيًّا كبيراً قبل الحرب الكبرى . وفي سنة ١٩١٥ الف بريان وزارة واختار پانليڤه ليكون وزير المعارف فيها . ولكنهُ اختلف مع رئيسه في طريقة مواصلة الحرب ، فلما اعاد بريان تأليف وزارتهِ هذه في ديسمبر سنة ١٩١٦ خرج پانليڤه منها

وفي مارس سنة ١٩١٧ الف الوزير ريبو وزارته واختار پانليڤه لوزارة الحربية ، فاقدم في الحال على تعيين الجنرال پتان قائداً عامًّا للجيش الفرنسي بدلاً من الجنرال نيڤل . فلما استقال

ريبو دعي بانليفه لتأليف الوزارة الجديدة وكان ذلك في سبتمبر سنة ١٩١٧ . وكان يود أن يشرك الاشتراكيين معهُ في هذه الوزارة ولكنهم تشددوا وغالوا في مطالبهم ، فألف الوزارة من دونهم ، واستبقى لنفسه منصب وزير الحربية علاوة على الرآسة . وفي اكتوبر بعد تأليف الوزارة بشهر واحد ، أحسَّ بعد اقتراعٍ تمَّ في المجلس ، ان الاكثرية الموالية لهُ ليست بكافية للسير بشؤون الدولة فاستقال ، وأعاد تأليف الوزارة فاخرج منها ريبو وضمَّ بارتو وزيراً للشؤون الخارجية . فلما مني الايطاليون بعد ذلك بهزيمتهم الشنيعة في كابورتو اسرع الى رابلّو فاجتمع هناك بلويد جورج رئيس وزراء بريطانيا، وأورلندو رئيس وزراء ايطاليا ، فاسفرت محادثاتهم عن انشاء مجلس الحلفاء الاعلى في فرساي، واختير الجنرال فوش ، ليكون الممثل الفرنسي الاول في هذا المجلس . وفي ١٣ نوفمبر رفض مجلس النواب الفرنسي تأجيل البحث في مسألة الدعاية الى وقف الحرب Defeatism (وهي المسألة التي حوكم فيها الوزير السابق جوزف كايو وحكم عليه) فاستقال بانليفه ودعي كلمنصو الى تأليف الوزارة التي حاكمت كايو ، وسارت بفرنسا الى النصر العظيم

***

وقضى بانليفه بعد ذلك بضع سنوات بعيداً عن ميدان السياسة الفعالة ، ولكنه عاد فألف مع هريو كتلة من احزاب اليسار، ففازت هذه الكتلة في انتخاب ١١ مايو سنة ١٩٢٤ فألف هريو الوزارة وانتخب بانليفه رئيساً لمجلس النواب . ولكن الاحزاب المتطرفة اضربت عن تقلد المناصب الوزارية الاَّ اذا ذهب مِلِران — وهو رئيس الجمهورية — من منصة الرآسة فذهب . ويقال ان بانليفه حاول حينئذٍ ان ينتخب مكانه رئيساً للجمهورية فاخفق في سعيهِ. وانتخب المسيو جاستون دومرج

فلما سقطت وزارة هريو سنة ١٩٢٥ للاختلاف على بعض المسائل المالية ، خلفه بانليفه في الرآسة وأخذ على عاتقه وزارة الحربية ، وأقدم على عمل جريء اذ ضمَّ اليه الوزير السابق، المحكوم عليه ، جوزيف كايو ، وزيراً للمالية

في تلك السنة اشتدَّت الحال في مراكش على اثر الحرب التي شنَّها الامير عبد الكريم ، فطار اليها ، للنظر في الحالة ، وعاد فعين المارشال بتان لكي ينظم قوى المقاومة والهجوم على الامير عبد الكريم وجنوده. وفي يوليو من تلك السنة ثبت له انه لا يستطيع ان يستمر في الحكم من غير تأييد بعض فرق المعارضة، لان الاشتراكيين رفضوا ان يؤيدوا كايو في خطته المالية. وفي ٢١ نوفمبر تحوَّلت اكثريته الى اقلية فاستقال

فخلفهُ بريان في رآسة الوزارة . واشترك هو مع بريان وزيراً للحربية . وكذلك شغل هذا المنصب نفسه في وزارتي بوانكاره اللتين طالتا من يوليو سنة ١٩٢٦ الى نوفمبر سنة ١٩٢٨

وقد انتخب پانليڤه في حياته عضواً في مجامع العلوم في فرنسا وبولونا (ايطاليا) واستوكهلم (السويد) وروما ومن مؤلفاته «دروس في الفرك» ودروس في «تحليل معادلات لاختلاف» وهو فرع من الرياضة العالية

***

كان شغف پانليڤه بالرياضة اساساً لنظرتهِ الفلسفية الى الطبيعة . وفي رسالتهِ « اوليات الميكانيكا » عرض لبحث مبادىء الميكانيكيات القديمة، وفكرة العلة والمعلول ، واصول النسبية وانتقال الضوء . وقد كان في البدء حذراً في الايمان بنظرية اينشتين ، بل انهُ وجَّه اليها في مجمع العلوم الفرنسي نقداً محكماً . فلما اقيمت مناظرة عامة في السوربون سنة ١٩٢٠ في موضوع النسبية ، اذهل پانليڤه الحضور ، بكثرة الاحتمالات التي عرضها لتحلَّ محل « اوليات اينشتين » . وكان اليوم مطيرا فلما خرج الجمع المحتشد ، مشى الاستاذ لانجفان — وهو مناظر پانليڤه — مع جرينوود فقال لانجفان ، انني واثق بان پانليڤه ، يغير رأيه بعد عشاء شهيٍ . فلما ترجم جرينوود محاضرات ادنغتن في النسبية سنة (١٩٢٤) كتب له پانليڤه مقدمة اعترف بها بالفائدة العلمية الجليلة التي تجنى من «الصورة الكونية الجديدة» المبنية على نظرية النسبية . ومما لا يُرتاب فيهِ ان نقد پانليڤه لنظرية النسبية ، كان من البواعث الفعالة على استكمال نقائصها ، وتصحيح بعض تفصيلاتها ، وتوضيح مقتضياتها الفلسفية

كان پانليڤه قصير القامة ، طيب القلب ، تحمل اساريره آثار العناء العقلي الذي يكابده في اشغالهِ العقلية واعماله الادارية . فقد كانت حياتهُ ، حياة بساطة وجهاد . وكان يتشدَّد في انجاز كل اعماله بنفسهِ . وهذا لا يتاح لانسان الاَّ اذا كان نادراً في قدرتهِ على جمع افكاره وتوجيهها الى الموضوع الذي يريده . وقد ذكر جرينوود انهُ كان في مكتبهِ يوماً يناقشه في موضوع الانتخابات وإذا جرس التلفون يقرع ، وكان مخاطبهُ زميلاً في السوربون ، يستوضحهُ في مسألة علمية ، فأفاض پانليڤه في بسط علاقتها بالمعادلات الصعبة في حساب التمام والتفاضل فلما انتهى التفت لزائره معتذراً ، واستأنف البحث في الانتخابات

ومن عجائب العقل الانساني ، ان يشتهر هذا الرجل بشرود الذهن كذلك . فيروى عنهُ انه كان يخرج احياناً من مجلس النواب ، فيستقل سيارة اجرة الى داره ، وسيارتهُ الخاصة تنتظر . ويقال انهُ كان احياناً يذكر رقم تليفونه لسائق سيارة ، اذا سأله عن عنوانهِ ، بل اغرب من ذلك انهُ خرج من داره يوماً ، وكان ينتظر صديقاً ، فكتب كلمة مؤداها « پانليڤه يعود حالاً » وعلقها بالباب . ثم عاد قبل مجيء صديقه ، فرأى الورقة معلقة ، فوقف پانليڤه ينتظر عودة پانليڤه !

داود بركات

داود بركات

صورة وحياة

رزئت الصحافة العربية بوجه عام ، والمصرية بوجه خص ، بفقد داود بركات رئيس تحرير الاهرام ، وقد كان برًّا بزملائه واخوانه ، مخلصاً لوطنيه لبنان ومصر ، فانطوت بموته صفحة من صفحات القلم المجيدة في الشرق . وقد رغبنا الى صديقه الاستاذ بولس قائم في كتابة فصل فيه، فأتحفنا بالصورة القلمية التالية:

---

١ — صورة من حياته

كهل ربعة القامة واضح الجبين مشرقهُ، واسع الحدقتين حادّ البصر نافذه في حياء، حاضر الابتسامة سريع الجواب . يسير مطرق الرأس بادي التفكير مهمل الشعر واللباس في عصاً لا تحمله بل يحملها هو، ملقاة على عضده ويده الاخرى لا تخرج من جيبه الاّ لتمر على جبينه او لتلقي بغطاء رأسه الى الوراء — تلك صورة لداود بركات وهو ذاهب من منزله بالفجالة الى جريدة الاهرام

يأنف ركوب السيارات ويؤثر عليها العربات إما محافظة على قديمهِ وهو المحافظ على دينه وعاداته . واما لما يأخذه من رأفة على الحوذيين الذين نضبت موارد رزقهم بعد ان الف الناس ركوب السيارات . ذلك ما حدثني بهِ داود وتلك صورة اخرى مصغرة لذلك القلب الفيّاض بالرحمة والحنان

فاذا بلغ منزله الثاني في دار الأهرام — ذلك المنزل الذي فيه فتاته وعروسه وافراحه وآلامه وذكريات شبابه وجني يديه التي بعصاه وبغطاء رأسه في غير ما عناية ولا اكتراث واحتفى بالكثير من الزوّار الراقبين قدومه وتلطف معهم بالحديث واكرم وفادتهم واخذ في مطالعة اكداس الرسائل الواردة بعناية لا يتوهمها محدثه وهو يسائله عن اموره الخاصة بل ربما اخذ يكتب احدى مقالاته التي لو طالعتها في الغداة لظننته قد كتبها في هدوء الليل وصفاء الذهن والخاطر

فاذا بلغ الليل وهنه وحلّ بهِ التعب خرج محنيّ الظهر متثاقلاً في مشيته الى مقهى اللواء فجلس الى فئةٍ مختارة من اصدقائه وزملائه يباسط هذا ويتبادل النكات مع ذاك حتى اذا

جدَّ الجد وجرَّهم الحديث الى امرٍ هام قطَّب حاجبيه واستوى على مقعده واخذ يحدثهم باحداث التاريخ وكأنه يقرأ من كتاب او يباحثهم في سياسة اليوم حريصاً في كلامه عفيفاً في انتقاده صادق النظر في حكمه

فاذا طاب لهم طعام او شراب رأيته وقد أومأ الى الندل فهرول مسرعاً يحضر لهذا كأساً من الشراب ولذلك صنفاً من الطعام فاذا جاء وقت الحساب اعتذر اليك الندل باستيفائه القيمة من داود

تلك هي صورة مصغرة من داود في أهرامه ومن داود بين اصحابهِ ومنه في كرمه وسخائه

فاذا بلغت الساعة الواحدة صباحاً عاد الى مكتبه واخذ يتفقد ثوب عروسه الأهرام محواً واثباتاً حتى اذا كانت الساعة الثانية ركب سيارة مستصحباً صديقاً او محرّراً وذهب الى المطبعة في بولاق فالقى النظرة الاخيرة على صنعة يديه . ثم ينصرف الى منزلهِ مطمئنّا فالقى ما عليه من ثياب العمل واخذ يقلب كتب التاريخ والصحف والرسائل الى ان يغلبه سلطان الكرى فلا يستيقظ الاَّ حوالي الظهيرة ليتناول القليل من الطعام ثم يعود الى عمله

كذلك صرف داود بركات سنيه الاربع والثلاثين مقبلاً الى الاهرام منصرفاً عن الاهرام

فاما وانا احدثك عن داود رجلاً فلا بدَّ لي ان اكشف لك ناحية من نواحي حياته يجهلها الكثير من الناس حتى اقرب اصدقائه اليه . تلك حياته في منزله بين اهله وذويه

كان داود اذا أوى الى منزله وانصرف عنهُ زائروه ينصرف بجملته الى اخوته واخواته وفيهنَّ الأيم ومنهنَّ الفتاة ويحنو على ابنائهنَّ وبناتهنَّ فيباسط هذا ويداعب تلك طفلاً مرحاً ساذجاً لا تظن اذا رأيته بينهم وبينهنَّ ذلك الكاتب العبقري النحرير الذي يخشى بأسه العظماء ويتزلف اليهِ ارباب المناصب وكبار الادباء

وربما طاب لداود — وكثيراً ما كان يطيب له — ان يدعو الى منزله رهطاً من اصدقائه واخصائه وليس منهم الاَّ كل أديب فيبذل لهم الحديث العذب والمحيّا الباشّ قبل الطعام والشراب ويجمع لهم في منزله دواعي الانس من غناء وطرب واسباب لهوٍ وسمر وكان أحب شيء اليهِ ان يكون المجلس حافلاً بالاحداث والاطفال كأن هذا الكبير بكل شيء كان في سذاجة الاطفال والرضعان في طيبة قلبه وصفاء نفسه ورضي خلقه وقديماً كانت الشعور البيض تحنو على الشعور السود

وقلما كانت تخلو دار داود — ولهف نفسي ان تصبح اليوم وحشاً — من طالبي الحاجات وسائلي الحسنات ، يطرقون بابه ليلاً وفي النهار في ساع الطعام والقيلولة فيستقبلهم هاشّاً باشّاً يواسيهم ويسليهم ويتوجع لآلامهم وشكاتهم ويعدهم بقضاء حاجاتهم وقد طالما قضى اللبانات واغاث الملهوفين ونصر طلاب العلم والعمل بوجاهته ووساطته وماله على شدة حاجته الى المال وكان اذا وجد متسعاً من الوقت اسرع الكرة الى الجمعية الخيرية المارونية التي نمت بفضل

عنايته وتشرفت فيما بعد برآسته ليمدّ رجالها بآرائه الصائبة وينظر في حاجة فقرائها
ولم تكن شواغله الكثيرة واخلاصه لوطنه الثاني — مصر التي اظلته سماؤها ورواه نيلها والهمه جوّها وآخاه ابناؤها واخذ بيده عظماؤها — لم يكن كل ذلك لينسيه وطنه الاول لبنان بل ظلّ اميناً على ولائه مخلصاً له في حبّه غاضباً لغضبه عاملاً على اعلاء شأنه وهو الذي كانت له اليد الطولى في تأسيس «جمعية الاتحاد اللبناني» التي أسست قبل الحرب وفيها وبعدها، اجلّ الخدمات للبنان وساعدته على نيل استقلاله . ولو صدق وعد الواعدين لكان هذا الاستقلال أتم واكمل
وقد كان الوفاء اظهر صفات الفقيد رحمهُ الله . فقد كان وفيًّا كل الوفاء لوالديهِ ولاخوتهِ ولاقربائهِ واصدقائهِ وللاهرام وصاحبها ولوطنيه العزيزين مصر ولبنان
برّ بوالديه فاقام لهما في مسقط رأسهِ بحشوش ضريحاً فخماً وبنى لله كفّارة عن نفسيهما معبداً لاقامة الصلاة وبرّ باخوته فربّاهم التربية الحسنة العالية ومنع نفسه عن الزواج ليتمكن من الانفاق على اخوتهِ واخواته . وبرّ باصدقائه فما ضنّ على واحد منهم بمساعدة او موآزرة او مشاطرة في فرح او حزن او تفريج كربة او بلاء
وبرّ بالاهرام وصاحبها امدّ الله بعمره فاحتضنه صغيراً وبذل له من حياته وأدبه وعلمه وكان كالجندي في ساحة الوغى قضى وقلمه بيده . ووفى لوطنيه حقهما فدأب الدفاع عن مصر ولبنان وقضى حياته يعمل لخير مصر ويناضل عن حقوق مصر ويجاهد في سبيل مصر باخلاص ويقين وسعة اطلاع وحسن عقيدة وروح وثابة وقلم سيّال وهذه وقفاته الى جانب المرحوم مصطفى كامل ومقالاته « مصر والسودان » و«تعالوا الى كلمة سواء فان الحق احق ان يتبع » اصدق شاهد على حسن بلائه وصدق جهاده
وكان يعمل الجهد المستطاع على التأليف بين وطنيه وقد طالما تمنّى على الله جمعهما في وطن واحد وهذه مقالاته في تاريخ « ابراهيم باشا والامير بشير الشهابي» و« اني اخاف على السنديانة ان تقطع » اوفى دليل واصدق شاهد على اخلاصه ووفائه

٢ — صورة من ادبه

كان داود بركات رحمهُ الله صحافيًّا واديباً وقلّ ان تجتمع هاتان الصفتان في كاتب
كان فيهِ من الصحافيّ حسن الكياسة وسرعة الخاطر ودقة استخراج النتائج من الحوادث اليومية وبعد النظر في استجلاء النتائج البعيدة للحوادث الواقعة وكان فيهِ ميزة قلّ ان نجدها في صحافيّ غيره وهي تلك المقدرة على الاشارة الى مرام خفية واغراض خاصة مقصودة باسلوب واضح ولكنه غير صريح جليّ ولكنهُ مبهم لا يخفى على عين الرقيب وهو مع ذلك لا يعرّض كاتبه لنقمة حاكم او لانتقاد منتقدٍ او غضبة غاضب ولعلنا نوفق في وصف هذا الاسلوب اذا

اصطلحنا على تسميته « بالبيان بالكناية او بالتورية والابهام » فقد كان يقرأ مقالة داود في صدد امر لا يصح التصريح به اكثر من قارىء وكان كل من قرّاء هذه المقالة يفهم منها ما يجب ان يفهمه او ما يريد ان يفهم بحيث كان يتمكن داود من الخوض في كل موضوع ولو امتنع الخوض فيه دون ان يقع تحت طائل او ملامة، وكذلك تمكنت الاهرام ولا سيما إبان الحرب العالمية ان تطلع قراءها على كل خفيّ ممنوع نشره دون ان تتعرض الى ايقاف او تعطيل . وكان فيه من الاديب دقة التصور وجميل الخيال وحسن الديباجة وجودة الوصف والشعور بما يكتب للناس مما يثير العواطف او يؤلم الناس

فكان اذا رثى تبيّنته شاعراً لا ناثراً في شعوره واسلوبه ولو قرأت رثاءه لتلك السيدة النبيلة ذات الايادي البيض على داود والاهرام — مدام تقلا باشا — لبدا لك منها عاطفة الشاعر وبيان الشاعر واخلاص الوفي . وكان اذا وصف انتقل بك الى اسمى مدارج الخيال وعرف كيف يكسو موصوفاته اجمل الصور واصدقها بحيث تلمس ما يصفه وتحس به بارزاً في شكل محسوس رائع

وكان داود بركات تاريخاً حيًّا صادقاً لمصر وحوادثها وللوزراء المصريين الذين تولوا الحكم منذ النصف الاخير للقرن التاسع عشر وكان فوق ذلك حافظاً لانساب المصريين واسرهم وحياة رجالاتهم ومذاهبهم السياسية ونزعاتهم الفكرية بحيث كان اذا شاء ان يكتب عن حدث او واقعة تاريخية او معاهدة سياسية او مسألة حزبية لا يرجع الى كتاب ولا الى تاريخ بل يملي كل ذلك عن ذهنه وذاكرته وتلك قوة لم يؤتها الاّ داود رحمه الله

وكان في عقيدته السياسية على مبدإ الحزب الوطني مخلصاً كل الاخلاص لهذه العقيدة فكنت اذا ذكرت على مسمع منهُ اقطاب هذا الحزب وعلى رأسهم المرحوم مصطفى كامل امتلأ صدره حماسة وفاض لسانه في بيان فضل مصطفى على مصر والمصريين بما بثّه في صدور النشء من روح الوطنية والتضحية والاقدام

فاذا اجمعت اليوم كلمة الصحافة في الشرق على اطراء داود بركات والثناء على مقدرته الصحافية وخلقه المتين وادبه العالي وعفة لسانه . وجمال بيانه ووفائه لاهله واهرامه واخوانه فلا تكون فيما نكتبه مبالغة او مغالاة. فقد كان — برد الله ثراه — من ابرع الصحافيين في الشرق وأعفهم قلماً واقلهم عنفاً في الخصومة واغزرهم بياناً ومعرفة واحفظهم للحوادث التاريخية واكثرهم الماماً واتباعاً للنهضة المصرية وللحركة الفكرية ولا شك ان وفاته قد محت صورة جميلة تاريخية من صور الصحافة والادب والخلق والوفاء . وان الشرق قد لا يتهيأ له قبل انقضاء نصف جيل من الزمن ان يكوّن من النشء الجديد صحافيًّا له من المقدرة وطول الباع والكياسة ما كان للمرحوم المغفور له داود بركات

البحيرة

لألفونس دي لامرتين

نظم لامرتين هذه القصيدة بعد وفاة حبيبته جوليا التي خلد ذكراها في روايته المسماة « رافائيل » وهي من درر قصائده . وقد نزلت من قلوب القراء منزلها في قلب ناظمها نفسه . فلحنت مراراً واستدرت الدموع تكراراً عندما ناحت بها اوتار المثاني ، ولا غرو فالحقيقة اشد احساساً واعظم شاعرية من الخيال ، لان الشاعر الاكبر كما يقول لامرتين هي الطبيعة لا الانسان . وهذه ترجمة تكاد تكون حرفية لها

هكذا ، نحن دائماً مدفوعون الى شواطىء جديدة ، يذهب بنا الليل الابدي ، بلا عَوْد ولا رَجْعَة ، فهل لا يتسنى لنا يوماً ما ، ان نُلقي بمرْساتنا في بحر الحياة ؟

ايتها البحيرة ! ما كاد العام يلفظ أنفاسَهُ ، حتى عُدْتُ وحيداً اليك ، فانظري ، بالقرب من امواجك المحبوبة ، التي كان يجب ان تراها ثانيةً ، اجلس منفرداً على هذه الصخرة ، التي ابصرتِها تَقْعُدُ عليها

لقد كنت تَهدرين هكذا تحت هذه الصخور العميقة ، وكنت تتكسرين على جُنُوبها الممزقة ، كما تفعلين الآن ، وكان الريحُ تُلقي بزَبَد امواجكِ على قدميها المعبودتين ، كما هي الحال في هذه البرهة

أتتذكرين عشيّةً كنا سائرين على صفحاتك الهادئة ، ونحن سكوت ، ولا يُسمع في الأفق ، على الماء ، وتحت السماء ، سوى حركة المجذّفين ، الذين يضربون بوزن متناسقٍ ، لُجَجَكِ المُشجية

فارتفعت فجأة الفاظ، لا عهد الارض بها ،فردد الساحل المأخوذ بسحرها، صداها المطرب ، فأنصتت الامواج ، وأنشأ ذلك الصوت العزيز لدي يلقي هذه الكلمات :

« ايها الزمن ، قف عن طيرانك ، وانت ايتها الساعات المهالئة لهنائنا ، إنقطعي عن سيرك ، ودعينا نتذوق لذائذ اسعد ايامنا ، السريعة الزوال »

كثير من التاعسين في هذه الحياة، يفزعون اليك أيها الزمن ، فسر ، سر لاجلهم ، واصرم بانصرام ايامهم،حبل شقائهم الذي ينهش افئدتهم،وأنس السعداء

ولكني عبثاً ألتمس ، فالزمان ضنين بهنيهات وجيزة ، والوقت يفلت مني ويهرب فابتهلت الى الليل ان يتئد ، ولكن الفجر ما عتم ان بدد غياهب الظلام

فلنتحاب اذن ، لنتحاب سراعاً ، ولننعم على عجل ، بالساعة المولية ، فليس للانسان في حياته مرفأ يرسو فيه ، ولا للوقت ساحل يلجأ اليه ، فالزمن يسري بنا، ونحن نمر مسرعين

ايها الزمن الحسود ، هل في شرعة الانصاف ، ان تمر اويقات النشوة ، التي يساقينا فيها الحب كؤوس الهناء مترعة، بنفس السرعة التي تدبر بها ايام الشقاء ؟

والهف نفسي ! أليس بمقدرتنا ان نبقي حتى على اثرها ؟ فهل ولت الى الابد ؟ وهل ضاعت كاملة دون امل ولا رجاء ، وهذا الزمن الذي جاد بها ، هو ذاته الذي القاها في غياهب العدم ، ألا يعيدها الينا ثانية ؟

ايتها الازلية ، ايها العدَم ، ايها الماضي ، لأنتم هوّات معتمة ، ماذا تفعلون بالايام التي تبتلعونها ؟ تكلموا : هل تردون الينا ذلك الانشغاف الروحي ، وتلك الافتتانات السابية التي تسلبوننا اياها ؟

ايتها البحيرة ! ايتها الصخور الصمّ ! ايتها المغاور ! ايتها الغابة المظلمة ! انتنّ اللاتي يبقي عليكنّ الزمن ، ويتسنى له اعادة زَهْوَ الصبا اليكنّ ، احتفظنَ من هذه الليلة ، احتفظي ايتها الطبيعة الجميلة على الاقل بذكراها

أناشِدكِ الله ايتها البحيرة الجميلة ، ان تردّدي ، سواء كان بسكون مياهكِ وهدوئها ، او باصطخاب امواجك وثورانها ، او بمنظر سواحلكِ النضرة الضاحكة ، او بأشجار الصنوبر السود التي على حوافيكِ ، او بصخوركِ الموحشة ، المعلّقة فوق مياهك . . .

ردّدي ، سواء كان بنسيمك المضطرب الساري ، او بدَويّ ضِفتيك المنتقل من شاطىء الى آخر ، او بالكوكب ذي الجبهة اللُّجينية الذي يُنير صفحاتكِ بضيائه الساحرة . . .

رددي ، سواء برياحكِ المنتحبة ، او بزفرات اعشابكِ وورودك ، او بعبيرك المعطّر فضاءك ، او بكل ما تسمعهُ الأُذُن ، وتراه العين ، ويستنشقهُ الفم ، رددي هذه الكلمة ، التي هي زفرة القلب الدامي ، ونحيب الروح الحائر :

لقد تحابّـا ، لقد تحابّـا

جورج نيقولاوس

اكتشاف أثري عظيم الشأن

في جبل الكرمل قرب حيفا

آثار رجال عاشوا هناك منذ ٣٠ الف سنة

لما اكتشف مدفن توت عنخ امون سنة ١٩٢٣ كانت الصحف المصرية تنقل وصفه عن جريدة التيمس. واليوم ننقل الى قرائنا عن جريدة الدايلي مايل نبأ اكتشاف أثري عظيم الشأن وهو اكتشاف آثار انسان عاش في فلسطين منذ ٣٠ الف سنة اي قبل عصر التاريخ وارسلت آثاره الى لندن. قالت الدايلي مايل : واذا ذهبت الى الطبقة السفلى من كلية الجراحين الملكية في لندن وجدت رجالاً ونساء يعملون في الواح كبيرة من الحجر الكلسي لاستخراج آثار بشر عاشوا منذ ٣٠ الف سنة . فقد وجد تسعة هياكل من امة لم تعرف قبلاً . ومتى حررت من قيودها واخرجت من الصخور الكلسية التي سجنت فيها فسيفحصها السر ارثر كيث العالم الانتروبولوجي المشهور . وينتظر ان يكون هذا الاكتشاف صفحة جديدة في قصة الانسان

وجدت هذه الآثار في كهف على سند من اسناد جبل الكرمل . والذين وجدوها هم رجال بعثة مؤلفة من مدرسة الآثار والعاديات البريطانية في القدس والمدرسة الاميركية لدروس ما قبل التاريخ . وقد سميت وقتيًّا هذه الامة التي وجدت آثارها «رجل فلسطين»

واجتمعت في احد اقبية البناء بالمستر ثيودور « ماك كاون » الذي اكتشف الهياكل العظيمة فارانيها فاذا عظامها محفوظة حفظاً غريباً وقال لي : «اسعدنا الحظ بالعثور على مقبرة عمرها ٣٠ الف سنة او نحو ذلك . وموقع هذه المقبرة فيما يسمى اليوم « مغارة الجديان » (مغار المعزى) . وهذه المغارة على علو ٣٠ قدماً في سند جبل قريب من حيفا

وأول ما عثرنا عليه جمجمة طفل ثم سائر الهيكل العظمي . وما زلنا نحفر وننقب بضعة اشهر حتى وجدنا ثمانية هياكل عظمية اخرى في صف واحد . ويظهر من تزاحمها الواحد الى جانب الآخر ان ذلك كان عملاً مقصوداً لتشغل اضيق ما يمكن من المكان . وفي رأينا انها ربطت بربط فنيت في ذلك الزمان الطويل . وفي خلال ذلك تكونت اغلفة كلسية حول الهياكل حفظتها من البلى على مر العصور . ومن هذه الهياكل ما حفظ اتم حفظ

ويكاد يكون من المؤكد ان «رجل فلسطين» قريب من رجل نياندرتال الذي وجد في اوربا ومعاصر له ولكن هناك بعض فروق كبيرة تبين لنا انهما ينتميان الى امتين مستقلتين الواحدة عن الاخرى . وقد اشترك معي في هذا الاكتشاف المس دوروثي جارود من اشهر علماء الآثار عندنا وقد عادت الآن الى فلسطين وفهمت انها اكتشفت اخيراً ثلاثة هياكل اخرى

ويقول السر ارثر كيث أن هذه الهياكل اعظم اكتشاف اكتشف عن الانسان المعروف باسم «رجل العصر المتوسط الحياة»

باب الزراعة والاقتصاد

نهضة اليابان الصناعية

لفؤاد عينتابي

﴿ قوى المياه المستعملة في الاعمال الكهربائية ﴾ ان اليابان تثابر الآن على اتباع خطط الغرب واساليبه في الاعمال الصناعية ولها اجهزة لتوليد القوى الكهربائية تزيد على مليونين كيلوات ونصف المليون . يكلفها ذلك سنويًّا ما لا يقل عن ٢١ مليون جنيه استرليني[1]

اما المياه المستعملة لتوليد الكهرباء فقد بلغت منذ سنة ١٩١٦ قوة مليون ومائتي الف حصان ، ويقدر « ارنولد هـ . جبسون[2] » استاذ الهندسة في جامعة فكتوريا بمنجسر ، ان المياه الطبيعية التي في اليابان يمكنها ان تولد قوى كهربائية قدرها ستة ملايين واربعمائة الف حصان ، ولكن المستعمل منها الآن لا يتجاوز قوة (١٫٦٠٠٫٠٠٠) حصان

﴿ المناجم والمعادن ﴾ لما كانت اليابان امة صناعية فهي بحاجة كبيرة الى المعادن والزيوت والفحم ولكن اليابان تكاد تكون خالية من المعادن ، فتستورده من الخارج ، وما يستخرج فيها من الحديد يسير لا يكاد يذكر ، على ان المعدل السنوي للحديد الذي يستخرج من المناجم اليابانية لا يزيد على (٣٧٫٠٠٠) طن ، واليابان تستورد مقادير كبيرة من الحديد والفولاذ من الخارج وذلك لكثرة الاحتياج اليه في المصانع والمعامل، لصنع السفن وعمل الاسلحة . اما الكبريت فيستخرج من رواسب البراكين ، والبترول يوجد في اكثر الجزر ولكن مقاديره قليلة ، ولذا يؤتى به من الخارج لكثرة الطلب عليه، والموجود منه في البلاد يتناقص مقداره سنة بعد سنة ، فقد استخرج في سنة ١٩٢٢ اكثر من (٧١) مليون غالون من البترول ، ولكنهُ نقص في سنة ١٩٢٦ الى خمسين مليون غالون

وبلغ عدد المناجم الى نهاية سنة ١٩٢٦ (١٫١٩٥) منجماً ، ثلثاها للفحم والبترول، وبلغ عدد العمال الذين يشتغلون فيها (٢٩٣٫٥٦٢) وقيمة المعادن المستخرجة (٤٣) مليون جنيه استرليني»[3] وهناك كثير من المعادن توجد منها مقادير قليلة في اليابان، كالذهب، والقصدير ، والرصاص، والفضة، والمنغنيس الى غير ذلك . وقد بلغت قيمة المعادن المستخرجة سنة ١٩٠٦

(١) R. Garcke مدير الشركة الانكليزية لجر القوة الكهربائية
(٢) Arnold Hartly Gibson
(٣) دائرة المعارف البريطانية المجلد (١٢) ص٠ (٩٠٨)

(١٢٣ر٧٤٠ر١٠) جنيه . ولكن في سنة ١٩٢٦ زاد المحصول الى (٥٧٦ر٤١١ر٨٥) جنيه استرليني

﴿ الاسماك وصيدها ﴾ الياباني مشهور منذ القدم بكونه صياداً ماهراً في صناعته، وذلك لموقع بلاده الطبيعي ، فلا غرابة اذن ، اذا رأينا المشتغلين في اليابان بصيد الاسماك وبيعها وتجارتها يقاربون المليوني نسمة . ومحصول السمك يرسل اكثره الى الصين ، وكذلك زيت السمك فانهُ محصول مهم جدًّا في اليابان . وترسل اليابان من (السراطين) المحفوظة في العلب Canned crabs الى الولايات المتحدة فقط ، ما تزيد قيمته على خمسة ملايين دولار في السنة . والاسماك كثيرة جدًّا هناك ، حتى انهم يستعملونها كأسمدة في الزراعة ، وذلك بما يتبقى منها بعد استخراج زيت السمك [1]

﴿ الصادرات ﴾ كانت صادرات اليابان في ابتداء العصر الحاضر ، ما عدا الشاي والاواني الخزفية والحرير ، قليلة جدًّا ، وكذلك كانت مستورداتها ضئيلة لا تذكر ، وهي عبارة عن الامتعة والمواد المصنوعة ، وفي هذه المدة كانت اكثر صادراتها للولايات المتحدة ، ولكن اليابان تمكنت في اثناء الحرب الكبرى من نشر مصنوعاتها ، وترويج بضائعها في افريقيا وجزائر الارخبيل الجنوبي وقد احتكرت تقريباً تجارة الشرق الاقصى بأجمعها » [2]

ولم يكن في اليابان شيء يذكر من الشركات في سنة ١٨٧٠ ، فلم يمر على البلاد ربع قرن حتى بلغت الشركات التجارية والصناعية في سنة ١٨٩٦ (٥٩٥ر٤) شركة برأسمال قدره (٤٠) مليون جنيه استرليني . ويوجد الآن في اليابان (٠٠٠ر٣٤) شركة برأسمال (١١٥ر١) مليون جنيه استرليني . واننا لنرى واضحاً جليًّا تأثير نمو تجارتها الخارجية وازدهارها ، عند ما نعرف انه لم يكن لديها في سنة ١٨٧٠ ما تصدره للخارج من المصنوعات . وبلغت قيمة البضائع المصدرة الى الخارج سنة ١٩٠١ ثمانية ملايين جنيه ، وزادت قيمة تجارتها في سنة ١٩٢٥ الى (٢٣٠) مليون جنيه ، منها (٤١) ./. بضائع تامة الصنع ، و (٥٠ ./.) بضائع غير تامة الصنع

وقد جرَّبت بعض الدول ان تقلد البضائع اليابانية فخابت في ذلك واخفقت في سعيها ، ولم تتمكن من تقليدها بنجاح تام ، وخصوصاً الورق الياباني المصنوع من ورق التوت ، والمستعمل لتغطية الحواجز والجدران ، وزجاج النوافذ ، وكذا المناديل المصنوعة من الورق واذا شمّع هذا الورق امكن استعماله كشمع ، وألبسة تمنع نفوذ الماء» [3]

وأهم صادرات اليابان ، الحرير والمصنوعات القطنية والمنسوجات والشاي والكافور والارز

---

(١) "The World Book Encyclopaedia" vol. 6. p. 3631

(٢) راجع مقال التجارة العالمية لـ (Julius Klein) في المجلد الثاني من كتاب (These Eventful Years)

(٣) The World Book Encyclopaedia vol. 6. p. 3632

والمحاصيل البحرية وغير ذلك . وفي الجدول الآتي يرى القارىء قيمة البضائع المهمة والمواد المصنوعة المصدرة الى الخارج في سنة ١٩٢٦ (١)

	جنيه استرليني
حاصلات بحرية	٢٫٣١٤٫١٢٤
مسكرات وحلويات ومربيات	٣٫٧٣١٫٩٢٨
مشروبات ومأكولات	٤٫٠٣٣٫٧١٥
ادوية ومواد كيمائية وغيرها	٤٫٧٨٧٫٨٠٠
منسوجات حريرية وغزل وغيرها	٩٠٫٨٣١٫٥٩٤
منسوجات قطنية وغزل وغيرها	٥٠٫٩٩٣٫٩٠٣
اوانٍ خزفية وزجاجية	٤٫٨٤٢٫٩٤٣
ملابس	٦٫٥٣٧٫٣٦٥
المجموع	١٦٨٫٠٧٣٫٣٧٢

وفيما يلي جدول (٢) آخر يبين نسبة صادرات اليابان في سني ١٩٠٧ و١٩١٣ و١٩٢٧ ومقدار ذلك بالعملة اليابانية (ين) Yen (يساوي اليَن شلنين وبنساً ونصفاً)

الصادرات

	١٩٠٧	١٩١٣	١٩٢٧
الاطعمة والمشروبات والتبغ	يَن	يَن	يَن
(١) خام	١٧٫١١١٫٠٠٠	٢٤٫٦٥٥٫٠٠٠	٥٤٫١٦٥٫٠٠٠
(ب) مصنوعة صنعاً تاماً او جزئياً	٢٧٫٥٨٤٫٠٠٠	٣٧٫٤٨٨٫٠٠٠	٩١٫٣٩٧٫٠٠٠
المواد الاولية «مواد خام»	٤٣٫٦٩٠٫٠٠٠	٥١٫٣٤٠٫٠٠٠	١٣٧٫٣٢٤٫٠٠٠
مواد مصنوعة تستعمل في الصناعات المختلفة	١٩٨٫٩٢٩٫٠٠٠	٣٢٨٫٠٨٤٫٠٠٠	٨٥٢٫١٨٣٫٠٠٠
مواد تامة الصنع	١٤٢٫٢٥٤٫٠٠٠	١٨٤٫٩١٤٫٠٠٠	٨٣١٫٢٢١٫٠٠٠
مصنوعات ومواد مختلفة	٢٫٨٤٥٫٠٠٠	٥٫٩٧٩٫٠٠٠	٢٦٫٠١٢٫٠٠٠
المجموع	٤٣٢٫٤١٣٫٠٠٠	٦٣٢٫٤٦٠٫٠٠٠	١٫٩٩٢٫٣٠٢٫٠٠٠

(١) دائرة المعارف البريطانية مجلد (١٢) ص ٠ (٩٠٩)

(٢) راجع ما كتبه (هربرت كرفت) Herbert Craft من غرفة التجارة بلندن، في دائرة المعارف

﴿ الواردات ﴾ كانت اليابان في سنة ١٨٧٠ تستورد الدقيق ، والسكر ، والجلود ، الاصباغ ، والادهنة ، والملابس ، والادوات الحديدية ، فصارت الآن تصدر هذه المواد ، البلاد الاجنبية ، وكانت قبل ثلاثين سنة تستهلك مقادير عظيمة من مصنوعات لنكشير لقطنية ، فصارت الآن تزاحم هذه البضائع في البلاد الصينية ، وبمصنوعاتها القطنية اسواق لهند نفسها . ومع ان بضائع اليابان اخف نوعاً وادنى جنساً من بضائع اوربا واميركا ، فانها جد اسواقاً رائجة وزبُناً كثيرين ،وذلك بسبب رخص بضائعها الذي يجلب اليها الزُبُن الذين يفضلون الرخص على نوع البضاعة وجودتها . ومع ذلك فلا ننسى ان الازمة الاقتصادية الحاضرة د اثرت ايضاً في الاسواق اليابانية فنزلت صادراتها بمقدار لا يستهان به . واما اهم وارداتها لقطن والمنسوجات ، والحديد ، والفولاذ ، والسكر ، والارز ، والبترول

وفيما يلي بعض ما جاء في التقرير الذي اعدته السفارة البريطانية في (توكيو) عن تقدم لتجارة اليابانية[1] :

« ان الظروف الحاضرة في اليابان ، واحوالها الخارجية ، وطبيعة شعبها الطموح ، اجبر اليابان على توحيد الجهود لتحقيق ما سعت وتسعى اليه من تقدم في الصناعة ، ونهضتها لاقتصادية في عقود قليلة ، بينما صرفت غيرها من الامم اجيالاً برمتها للقيام بهذه المشروعات ، انها في عملها هذا قد استفادت كثيراً من تجارب غيرها من الدول المزاحمة لها التي قضت سنين طويلة للاستفادة من تجاربها واخطائها »

وفي الجدول الآتي بيان تجارة الدول المختلفة مع اليابان وقيمة الصادرات والواردات في سنة ١٩٢٦ بالجنيه الاسترليني : —

	الصادرات	الواردات
الولايات المتحدة	٨٧٫٨٨٠٫٠٤٠	٦٩٫٤٣٦٫٠٠٠
الصين	٤٣٫٠٦٠٫٠٠٠	٢٤٫٤٤٠٫٠٠٠
الهند	١٥٫٩٢٠٫٠٠٠	٣٩٫٩٢٨٫٠٠٠
الهند الهولاندية	٧٫٦٣٠٫٠٠٠	١٠٫٥٢٢٫٠٠٠
بريطانيا	٦٫٠٧٣٫٠٠٠	١٧٫٣٨٢٫٠٠٠
هونغ كونغ	٥٫٤٠٧٫٠٠٠	١٠٤٫٠٠٠
المانيا	٨٣٠٫٠٠٠	١٤٫٨٢٤٫٠٠٠

(١) دائرة المعارف البريطانية مجلد (١٢) ص (٩١١)
(٢) دائرة المعارف البريطانية مجلد (١٢) ص (٩١٢)

	الصادرات	الواردات
اوستراليا	٥٫٢٦٨٫٠٠٠	١٣٫١٠٧٫٠٠٠
فرنسا	٤٫٣٢٩٫٠٠٠	٢٫٥٩٤٫٠٠٠
مستعمرات المضائق	٤٫٢٣٦٫٠٠٠	٤٫٠٧٠٫٠٠٠
كندا	٢٫٥٢٦٫٠٠٠	٦٫٥٣٢٫٠٠٠
مصر	٢٫٣٥٨٫٠٠٠	٣٫٢٦٢٫٠٠٠
المجموع	١٨٥٫٥١٧٫٠٠٠	٢٠٦٫٢٠١٫٠٠٠

ولمدينة (كوبه) Kobé الآن المقام الاول في التجارة الخارجية، ومدينة (اوزاكا) في المقام الثاني ؛ و (يوكوهاما) في المقام الثالث . وقد بلغ مجموع تفريغ البواخر التي دخلت المرافئ اليابانية سنة ١٩٢٦ (٤٩٫١٨٦٫٠٢٩) طناً منها (٣١٫٨٧٣٫٥٢٣) طناً تفريغ السفن اليابانية ثم تأتي بعدها في الدرجة الثانية انكلترة ، ومحمول بواخرها (٩٫٣٦٣٫٢٤٥) طناً. والبواخر الاميركية ومحمولها (٣٫٩٦٠٫٣٤٢) طناً

﴿طرق المواصلات﴾ لم يكن في اليابان سنة ١٨٧٢ سوى خط حديدي طوله (١٤) ميلاً يوصل مدينة توكيو بيوكوهاما، ولكن منذ ذلك التاريخ بدأت اليابان ببناء الخطوط الحديدية لربط اجزاء البلاد بعضها ببعض . فبنت حتى الآن (١٣٫٠٠٠) ميل من الخطوط الحديدية ، والحكومة تملك وتدير ثلاثة ارباعها ، ومن ذلك الخطوط الحديدية في منشوريا ومنغوليا ومجموعها (٦٩٤) ميلاً . وقد منحت الصين حق بنائها لليابان . وفي المدة الاخيرة بدئ بمشروع عظيم وهو تسيير القُطُر بالكهربائية . اما عرض الخط الحديدي فثلاث اقدام وست بوصات[1]

﴿صناعة بناء السفن﴾ لما كانت اليابان امة صناعية ، تجارية ، فهي تحتاج الى سفن كثيرة لنقل بضائعها واستيراد المواد التي هي بحاجة اليها ، وهي لصيانة حقوقها في البحر تحتاج كذلك الى اسطول حربي قوي يحفظ لها مكانتها بين الدول ، ويصون حقوقها في البحر ، ويؤمن لها سير تجارتها الى البلدان التي تتجر معها . ولذلك نرى لليابان اساطيل قوية سواء تجارية او حربية ، ولا تكاد تنقطع بواخرها عن مرافئ المحيط الهادي (الباسفيك)

وقد كانت اليابان في سنة ١٩٠٠ تملك مائة وخمسين باخرة يزيد محمول الواحدة على الف طن . واما في سنة ١٩٢٠ فبلغت سفنها التجارية (٧٢٧) محمولها جميعاً (٢٫٣٥٦٫٤٧٧) طناً. وفي ابتداء هذا العصر لم تكن صناعة بناء السفن شيئاً يذكر . ولكن الآن فان الاحواض اليابانية

(١) راجع مادة « اليابان » في The World Book Encyclopaedia المجلد (٦) ص ٣٦٣٤ .

تبني الفخم السفن التجارية واعظمها ، واقوى البوارج الحربية واسرعها ، لها وللدول الأجنبية أيضاً

وفي مدة ست سنوات نهايتها (١٩٠٢) اضيفت (٨٣٥) سفينة الى اسطول اليابان التجاري محمولها (٤٥٥٫٠٠٠) طن ، وقد كانت خزينة الدولة تدفع سنويًّا مبلغ (٦٠٠٫٠٠٠) جنيه استرليني لتشجيع الملاحة وصناعة السفن ، فنمت هذه الصناعة نموًّا عظيماً ، فاحواض بناء السفن بنت سنة ١٨٧٠ باخرتين محمولها معاً (٥٧) طنًّا فقط ، ولكن الأحواض الحديثة بنت سنة ١٩٠٠ (٥٣) باخرة مجموع تفريغها (٣٨٠ر٥) طنًّا و(١٩٣) سفينة شراعية تفريغها (١٧٫٨٧٣) طنًّا . واما في سنة ١٩٠٧ فقد كان لليابان (٢١٦) ترسانة لبناء السفن Shipyards و ٤٢ حوضاً Docks خاصًّا . وبينما كانت الاحواض التابعة للحكومة منهمكة في بناء الفخم البوارج الحربية واقواها ، كانت الاحواض الخاصة (التابعة للافراد او للشركات) تبني بواخر تجارية لا يقل محمول الواحدة عن (٩٫٠٠٠) طن

« وقد بنت اليابان في اثناء الحرب الكبرى (٩٣) سفينة للولايات المتحدة وانكلترا والنرويج وروسيا وفرنسا وشيلي والدنمارك واسبانيا والصين ، وفي سنة ١٩١٩ فقط ، انهت المعامل اليابانية صنع (١٣٤) باخرة محمول الواحدة اكثر من الف طن ، ومجموع تفريغها (٦١٩٫٥٥٨) طنًّا »[1] وربحت تجارة اليابان البحرية ارباحاً طائلة في الحرب الكبرى . وبلغ مجموع تفريغ بواخرها التجارية سنة ١٩٢٧ ما يزيد على الثلاثة ملايين طن وسفنها الشراعية اكثر من مليون طن

« اما بحارة السفن التجارية فقد بلغ عددهم في سنة ١٩٢٥ (٤٫٣٧٩٫٦١٥) بحاراً من ذلك (٣٫٤٩٦٫٠٦٦) بحاراً يعملون في البواخر و(٨٨٣٫٥٤٩) بحاراً في السفن الشراعية ، وعدد الضباط البحارة في السفن التجارية (٥٦٫٨١٣) ضابطاً »[2]

***

هذا وقد اثبت التاريخ ان الشرقيين لا يقلون ذكاءً وفطنة ومقدرة على العمل عن اخوانهم في الغرب . ولكن اذا ما زالت هذه الغشاوة عن عيونهم والقوا رداء الخمول والكسل والجهل عن عواتقهم ، فحينئذٍ بشرهم بمستقبل لامع سبقتهم اليه امبرطورية الشمس المشرقة ، فتبوأت مركزها اللائق بها واستوت على عرش من القوة والاخلاص والعلم متين !....

(١) M. Hanihara, in "These Eventful Years" vol I. p. 672

(٢) دائرة المعارف البريطانية مجلد (١٢) ص (٩٠٥)

آداب الطب

دفع اليّ رئيس تحرير المقتطف بهذا الكتاب لأرى رأيي فيهِ فأوقعني في ورطة لا ادري كيف اتخلص منها لان النقد في الشرق ليس بالامر الهيّن . وسيرى القارىء كيف اخرج من هذا المشكل لا عليّ ولا لي

والكتاب هو : آداب الطب وحياة الطبيب بقلم الدكتور فؤاد غصن خبير الحاكم واستاذ الطب الشرعي في الجامعة الاميركية في بيروت وصاحب المجلة الطبية العلمية وعضو المعهد الملكي للصحة العامة في لندن . طبع في بيروت

هو كتاب جليل الفائدة جمعه مؤلفه على ما جاء في ديباجته «من معلوماته الخاصة واختباراته العديدة ومن معلومات الاساتذة الغربيين واختباراتهم المفصّلة في مؤلفاتهم» . اما معلوماته الخاصة واختباراته العديدة فلا شبهة في كثرتها لانه طبيب قديم خبير مارس الطب سنوات عديدة وهو فضلاً عن ذلك يشغل منصب استاذ الطب الشرعي في الجامعة الاميركية في بيروت وينشىء بالعربية مجلة هي من ارقى المجلات الطبية والعلمية فلا عجب اذا جاء كتابه هذا شاملاً لما وضع لهُ ولا اغالي اذا قلت انه فريد في بابه لم ينسج على منوالهِ بالعربية في ما اعلم . ثم ان المؤلف قد احسن في عرض فصول منه على زملائه فنشرها تباعاً في مجلتهِ وبعث بنسخة منه بعد انجازه وقبل نشره الى سعادة الدكتور رضا بك سعيد رئيس الجامعة السورية في دمشق ومدير المعهد الطبي فيها والدكتور رضا بك طبيب مشهور له من سعة الاطلاع والخبرة ما يجعل لرأيهِ شأناً في ما يكتبهُ

قرأت هذا الكتاب من اوله الى آخره ولكنهُ يتعذّر عليّ ان أوفّيَهُ حقه من النقد لان ذلك يقتضي البحث في فصوله فصلاً فصلاً وانما سأشير الى بعض فصوله ومحتوياتها

استهلّ المؤلف كتابه في فصل سماه الدعوة الى تعلم الطب ثم ذكر الصفات الضرورية ليصير الطالب طبيباً . منها ان الطالب ينبغي ان يكون ذا ثقافة عالية نال فيها قسطاً وافراً من العلوم واللغات الحديثة والقديمة مما له علاقة بعلم الطب . فهذا الفصل وما يليه ينبغي على كل طالب او ولي امره ان يقرأه لكي لا تخرج لنا المدارس اطباء هم دون المستوى الذي نريده

ثم يلي ذلك بحث في الدخول الى المدرسة الطبية وشروط النجاح وحسن التصرف او سوئه والمرضى والزيارات الاولى وغير ذلك من الامور المتعلقة بالاطباء

ويليه فصل في كلام الطبيب فما قال فيه : « ليأذن لي زملائي الاطباء ان الفت نظرهم الى امر أراه من الاهمية بمكان وهو ان على الواحد منهم ان يزن كلامه ليل نهار فيزنه بين مرضاه وفي عمله وبين اصحابه وعلى مائدته حتى وفي خلوته الزوجية فلا يبوح بشيء من الاسرار التي يسرّها اليه مرضاه» . ولم ينسَ مضايقة الناس للطبيب المسكين فقال«بينما يكون الواحد منّا في الحفلات او المتنزهات او القطار او غير ذلك ناسياً انه طبيب مستريح البال يرى نفسه مرغماً على ان يتكلم على الطب » . ومن محاسن الاتفاق ان كاتب هذه السطور دخل لايام مضت على حلاّقهِ فلم يكد يجلس على الكرسي حتى بادره صاحبنا بقوله ان فلاناً مصاب بحصاة في مثانتهِ فما رأيك فضحكت واخرجت له كتاب الدكتور غصن من محفظتي وقد كنت اقرأه في ذلك اليوم وأريته العبارة المتقدمة ورويت له قصة وقعت بين الطبيب والمفتي في احدى مدن فلسطين وهي ان طبيباً كان كلما رآه المفتي يشكو له شيئاً ، اما رأسه او صدره او ظهره او غير ذلك فلقيه يوماً في السوق وكانت السوق ضيقة ومزدحمة بالناس فقال له عندي بواسير يا حكيم قال له اكشف لاراها قال هنا في السوق قال انت طلبت ذلك في السوق فشفي المفتي بعد ذلك من جميع علله

ومن فصول الكتاب الانيقة فصل في زواج الطبيب قال فيه « ومن أهم ما يجب على زوجة الطبيب الاّ تكون غيوراً والاّ كان الزواج مثل جهنم -- وقد رُوي لي ان زوجة احد الاطباء كانت شديدة الغيرة عليه حتى انها لم تضبط نفسها عن المجيء الى غرفة الفحص ودخولها اليها فجأة دون تنبيه عند ما يكون آخذاً بفحص مريضة فتاة» على ان المؤلف لم يخبرنا شيئاً عن هذا الطبيب فهل كان زيراً غيسانيّاً او قشعوماً دميماً او من الذين يتظاهرون بالتقوى والورع والمسكنة فالنساء اخبر بأزواجهنّ فلعلّ لها عذراً ونحن نلومها . فالحادثة تشخيصها صعب والانذار سيء جدّاً

ثم فصل في طالبات الطب قال فيه ليس من الضروري ان تكون المرأة الطبية شنيعة قلت والعياذ بالله . ثم لو فرضنا انها شابة تارّة رعبوبة وزوجها غيور مثل زوجة الطبيب التي ذكرها في ما تقدم وكان مرضاها من الفراهيد الغيسانيون ألاّ يكون الزواج في هذه الحالة كالزواج السابق

ثم فصل في التشخيص والانذار وغيره في المعالجة وفصول غيرها مما يجب على الاطباء معرفته او مما له علاقة بالاطباء ومرضاهم

ومن خير الفصول في هذا الكتاب فصل في شرف المهنة وبحثه في التدجيل وقد ميّز نوعين منه فقال «كل شخص يتعاطى الطب بغير صفة قانونية يجب ان تقاومهُ الجماعات الطبية باسم جميع الاطباء لانهُ خطر على الشعب » . اما النوع الثاني فقال عنه «ولكن الذي يعرّض جسمنا الطبي للخطر هو التدجيل المدعوم بالشهادة وهو كثير الانواع غير محدودها وهو

لسوء الحظ على درجات مختلفة في جميع الطبقات » اي ان النوع الاول من التدجيل خطر على الجمهور والنوع الثاني خطر على الاطباء وهو في نظري اصعب الشرّين . وقد رأى المؤلف اتقاء لهذا الشر ان تنشأ في البلاد الشرقية نقابات طبية افرد لها بحثاً خاصاً في آخر الكتاب وانما يتعذر ذلك في البلاد الشرقية ما زال فيها احتلال وانتداب ومعاهدات زائفة وامتيازات اجنبية فيحسن بالاطباء الشرقيين ان يعيروا هذا الامر اهتمامهم رفعاً لشأنهم بين الامم

والكتاب كما تقدّم حسن جدًا قد سدَّ فراغاً في اللغة العربية وهو مكتوب باسلوب سهل العبارة فصيحها وكله خالٍ من التبجح فأهنىء الزميل لابرازه هذا الكتاب النفيس واشير على طالبي الطب والاطباء وكذلك جمهور الادباء على مطالعته لان لجميع الناس علاقة بالطب والاطباء

ومما قاله ما يأتي : قد قامت في سنة ١٩١٠ كل جمعيات الطب والصيدلة في باريس على نسق التعليم وطلبت العودة الى التعليم القديم اي ينبغي على الاطباء ان يكونوا علماء لا محترفين واني اشير على كل طالب طب او كل والد يريد ان يدخل ابنه في مدرسة طبية ان يقرأ الفصول التي عقدها المؤلف في هذا الباب مثل الدعوة الى تعلم الطب والصفات الضرورية الكافية ليكون الرجل طبيباً والاستعداد للدروس الطبية وادب الطلاب وشروط النجاح وحسن التصرف ونحو ذلك اي ان الطبيب يجب ان يكون عالماً

ولما كان للناقد ان يجد ولو عيباً واحداً في الكتاب فاني كنت اود لو اجتنب المؤلف استعمال الزبون « بمعنى المريض الذي يعهد بنفسه الى عناية الطبيب » ولو قال المريض وحده كما فعل في مواطن كثيرة لما اختلَّ المعنى فقولنا الزبون يجعل الطبيب بمنزلة البائع والمريض بمنزلة المشتري . ثم ان للزبون معاني كثيرة قد توقع في مشاكل نسائية احياناً

امين المعلوف

اسماعيل المفترى عليه

Ismail The Maligned Khedive
by Pierre Crabitès Routledge, London 12s. 6d.

كان عصر اسماعيل عصراً حافلاً بالحوادث الخطيرة

ففي سنة ١٨٦٦ فاز من السلطان بحق توريث ابنائه العرش في خطٍ مستقيم وفي سنة ١٨٦٧ اتخذ لقب خديو وفي سنة ١٨٧٣ اعترفت الاستانة لمصر باستقلالها مع بقاء الجزية . ثم ان اسماعيل وجَّه عنايتهُ الى تنظيم الحكومة والادارة والجمارك وأنشأ مصلحة البريد المصرية (١٨٦٥) واصلح المدارس الحربية وشجع نشر التعليم ومدَّ السكك الحديدية وخطوط التلغراف وبنى المنائر ومرفأ السويس وحاجز الامواج في ميناء الاسكندرية وشقَّ الترع وشيد الكباري وحارب تجارة الرقيق وبعث بحملة الى السودان لاستكشاف قلب القارة

السوداء . وفي عهده احتفل بافتتاح ترعة السويس(١٨٦٩) وانشئت المحاكم المختلطة(١٨٧٦)
ولو ان ملكاً او اميراً ترك نصف هذه المآثر في بلاد اخرى ، لاضيف لقب « العظيم » الى اسمه . ولكن من نكد الدنيا ، ان اسماعيل كان في حاجته الى المال ، للقيام بكل هذه الاعمال العظيمة ، يعامل طائفة من المرابين الدوليين ، لا يعرفون الاّ الجشع مبدأً ومعاداً . وهذه مصر طعمة سائغة لهم ، لان اميرها ، يريد ان يخرجها من الظلمة الى النور فليجوروا عليهِ ، ما مكّنهم من ذلك سلطان المال ، وليقرضوهُ القروض بفوائد عاليةٍ وليعطوه نحو ٢٤ مليون جنيه لقاء سندات قدرها اربعون مليوناً او تزيد ، وليستنجدوا بوزارات الخارجية يكبلون عنق مصر بالاغلال السياسية ، ضمانة لاموالهم ، ثم ليعمد رجالهم الى التاريخ يشوهونهُ ، عمداً او جهلاً ، فيرموا هذا الامير العظيم بكل نقيصة تسويغاً لفعلتهم . ألم يقل مركيز زتلند في ترجمته للورد كرومر ان توفيق باشا «اثبت انه بالمقابلة مع سلفهِ الفضوح كان حاكماً لا بأس بهِ فلم يكن سفّاكاً ولا مبذّراً ولا لصّاً » . وقال لورد ملنر : « ان اسماعيل جمع في نفسه كلّ صفةٍ طيّبة وسيئة ، لابدّ منها لجعلهِ مبذّراً امثل . كان مترفاً ، شهوانيّاً ، طمّاحاً ، يحب مظاهر الابهة ، ومجرّداً من المبدإ ، وكان في الوقت نفسه يفيض بالمشروعات العظيمة لتحسين حالة بلاده المادية » . وقال لورد كرومر : « ويقال بوجهٍ عام ان اسماعيل باشا اضاف ما متوسطهُ ٧ ملايين جنيه الى دين مصر كلّ سنة مدة ثلاث عشرة سنة . وقد بذّر كل المال المقترض الاّ ١٦ مليون جنيه انفقت على ترعة السويس »

فهل يرضى التاريخ بهذا الحكم على اسماعيل ؟

هل كان حقيقة مبذّراً للمال لنقص في ملكة تدبير المال ؟ هل كان حقيقة طالب لذّة يقدمها على شؤون الدولة ؟ أليس لهُ من الخصال ومن الآثار ما يردّ عنهُ هذه الوصمات امام محكمة التاريخ العليا ؟

***

أسئلة تنزل في الصميم من تاريخ مصر الحديث . وقد اثبت القاضي كرابيتس في كتابهِ الذي ظهر حديثاً باللغة الانكليزية بعنوان « اسماعيل : الخديو المفترى عليه » ان هذه الاقوال تنطوي على جور وافتراءٍ وتشويه للحقيقة . قال في مقدمة كتابه : « ان هذه الصفحات تحدٍّ لتلفيقٍ تاريخي . انها ترفض ان تنضمّ الى الجوقة التي يقودها ملنر وكلفن وكرومر ، فلا تتفق معهم على ان اسماعيل باشا كان مبذّراً او طالب لذة او لصّاً ... لقد انقضت خمسون سنة منذ نفي اسماعيل المفترى عليهِ . فقد آن الاوان للبحث عن حقيقة ولايتهِ في الوثائق المعاصرة التي لا يطعن في صحتها . ولو كان هذا الكتاب كتابي بالمعنى الضيق ، لكان يثبت رأيي فقط ازاء آراء جيش من المؤرخين الكبار ... ولكن الادلة التي اوردها تحدٍّ لاقوال المؤلفين

ذوي مكانة عالية . انني ارفض ان اقبل اقوالهم واستنتاجاتهم . وانني اقدّم مستندات من الوثائق المعاصرة لردّ ما جاؤا بهِ عن نية حسنة، ولكن من دون ان يتغلغلوا في صميم الموضوع »

والمطلع على كتاب القاضي كرابيتس يلمس في كل صفحة من صفحاتهِ انهُ تغلغل الى صميم الموضوع. فانهُ استخلص التهم الواردة في كتاب ملنر وزتلند وكرومر واضرابهم. ولكنهُ لم يغفل ما يناقض اقوالهم في كتب ادورد ده ليون الذي كان قنصلاً جنرالاً للولايات المتحدة الاميركية في ذلك العهد وظلّ مقيماً في مصر بعد اعتزالهِ لعملهِ الرسمي. وما كوان، وقد كان صحافيًّا بريطانيًّا وغيرهما . بل انهُ لم يكتف بالكتب المطبوعة والمنشورة ، فعمد باذن خاص من حكومة الولايات المتحدة الاميركية ، حصل عليهِ بواسطة وزير مصر المفوض في وشنطن، الى سجلات وزارة الخارجية الاميركية للحصول على صور الرسائل التي تلقتها الوزارة في ذلك العهد من قناصلها في مصر . يضاف الى ذلك ان جلالة الملك، اصدر امره الكريم، بان تباح لهُ سجلات مكتبة عابدين الملكية لاستخراج الحقائق من الرسائل المحفوظة فيها

***

وقد خرج القاضي كرابيتس من كل ذلك بصورة منسجمة متسقة النواحي للخديو اسماعيل

كان اسماعيل في الثالثة والثلاثين من عمره لما دعي الى تقلُّد المنصب السامي في هذه البلاد. ورجل في الثالثة والثلاثين ، ليس فتىً يتقلب مع كل ريح . ثم انهُ كان زارعاً بصيراً بشؤون الارض والفلاحين . والزارع محافظ في الغالب . وما اشتهر بهِ من العناية باملاكه وتحسينها ورعاية فلاّحيهِ، وجّههُ عند ارتقاء الاريكة الى شؤون البلاد . فقد وصفهُ ده ليون القنصل الاميركي بانه كان نشيطاً في عملهِ الى اقصى حدود النشاط. قال : لما كان من مقتضيات الحكم المطلق ان يطلع الرئيس على كل التفصيلات الدقيقة ، فكان محتوماً (على اسماعيل) ان ينهض باكراً في الصباح، ويقبل على العمل الذي يحبهُ -- وهو تسيير اداة الدولة — ويظلّ الى ساعات متأخرة من الليل ... » اما ماكوان الصحافي البريطاني فيؤيد قول القنصل الاميركي. فانهُ يلخص خلق الخديو من هذه الناحية بقوله « الدولة هي الخديو » ثم يعمد الى التفصيلات فيقول بعد الاشارة الى اجتماعات الوزراء . — « فمن المفاوضة في معاهدة او قرض الى الموافقة على عقد لشراء فحم او آلات ، انهُ يعرف كل تفصيل من تفصيلات الادارة ولا شيء يفوتهُ من الاعمال المصلحية الاّ ما كان عادياً يسير من تلقاء نفسه ... وبكلمة من الاسكندرية الى وادي حلفا . . . . لا يكتفي سموّه بالجلوس على الاريكة بل يحكم كذلك »

بل ان القنصل الاميركي قال في تقرير سرّي بعث بهِ الى وزارة الخارجية الاميركية : — ارتقى اسماعيل باشا الاريكة في ۱۸ يناير سنة ۱۸۶۳ ، فاظهر في قيامهِ باعمالهِ فهماً نادراً للرجال والاعمال ، وقدرة ادارية قلما عرفت في امراء الشرق . ومن ساعة ارتقائهِ الاريكة ، وقف

نفسهُ، ونشاطه الذي لا يفتر، على تقدم مصر الداخلي » وتاريخ هذا الكتاب ١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٣ اي عشر سنوات بعد تقلّد اسماعيل لمنصبهِ العالي

فهل يعقل ان يكون هذا الرجل ، رجلين ، الرجل الذي يقول عنه ملنر وزملاؤه ، انهُ كان طالب لذة ، مبذّراً ، يحب الابهة . والرجل الذي يقول عنهُ ده ليون وماكون انهُ كان يبذل نشاطه الذي لا يفتر في سبيل تقدم مصر ، وتدبير شؤونها ، نحو ١٤ ساعة كل يوم و ٣٠٠ يوم كل سنة ؟

يتهم اسماعيل ، بانه زاد دين مصر ، نحو ٩٠ مليون جنيه ، وان هذا المال — الاّ ١٦ مليون جنيه منها انفقت على قنال السويس — بذّر تبذيراً

هذه هي المشكلة التي يعرض لها القاضي كرابيتس بكل تفصيل ، ويخرج منها بان ولاية اسماعيل ؛ لها ميزانيتان اما الاولى فالية . واما الثانية فأدبية

وقد اثبت اولاً تضارب الاقوال في مقدار الدين الذي اضافهُ اسماعيل الى دين مصر . وفضح في ناحية من النواحي افعال المرابين الدوليين الذين كانوا يعقدون لهُ قرضاً بمبلغ معيّن ، وبفائدة عالية ، وكيف حتّم على الوالي اصدار السندات اللازمة ؛ ثم هم لم يدفعوا لهُ ، الاّ جزءا من مبلغ القرض» ففي الصفحة ٢٩٤ من كتاب القاضي كرابيتس بين ان الخديوي اسماعيل اقترض من الماليين بين ١٨٧٠ — ١٨٧٩ مبلغ ٢٣٫٨٠٢٫٠٠٠ جنيه اضطرّ ان يصدر بهاسندات بقيمة ٤٠٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه . ويتهم اسماعيل بانهُ لاسرافهِ اضطرّ ان يبيع اسهمهُ في شركة ترعة السويس . ولكن ينسى من يتهمهُ بذلك انهُ احتفظ ، عن فهمٍ ، بحصة مصر في ارباح الشركة وهي ١٥ في المائة ، وقد بلغت قيمة هذه الحصة سنة ١٩٣٢ ما يزيد على مليون جنيه وان هذه الحصة بيعت بعد تنازلهِ وخروجهِ من البلاد. ثم ينسى كذلك ان اسماعيل استردّ ما كان قد منح للشركة من اراضي مصر (نحو ٦٠ الف هكتار) يقدّر ثمنها باضعاف ذلك المبلغ (١٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه) الذي اضطر الى دفعهِ تعويضاً نزولاً على تحكيم نبوليون الثالث

اما الميزانية الادبية فيجب ان نذكر فيما يتعلق بالترعة انهُ الغى السخرة في حفرها، وكان معتمد الشركة عليها بما دسّ في عقد الامتياز الذي منح لدلسبس. ومنع الشركة من احتلال منطقة من ارض مصر باختيار واليها السابق. ثم انهُ فتح السودان لا حبًّا بالغزو والفتح، ورسائله الى بايكر وغوردن تشهد بذلك ، بل رغبة في محاربة تجارة الرقيق ، واستكشاف مجاهل القارة السوداء ، وتوسيع آفاق العلم . وغنم لمصر لقباً مميّزاً لواليها ، واستقلالاً تامًّا لها لولا الجزية للباب العالي . ولو انهُ اراد ان يغنم ذلك بحرب لانفق في الحرب اضعاف ما انفق في السلم ، اذا صرفنا النظر عن دماء الرجال التي حقنها . وكل هذه اعمال لا نستطيع ان نقدرها بالمال فلا يمكن ان تظهر في موازنة مالية

اما نقد القاضي كرابيتس لتقرير كايف ، وبيان ما فيهِ من الاضطراب ، واقامة الدليل على ان اللجنة التي وضعتهُ لم تفهم حالة البلاد فهماً صحيحاً حينئذٍ فمن ادل فصول الكتاب على ما عاناهُ المؤلف من مشاق البحث

والخلاصة ان كرابيتس لا ينكر ان اسماعيل انفق مالاً ، ولكنهُ ينكر بشدَّة انهُ بذَّره تبذيراً بل يقيم الدليل على ان اسماعيل لشدَّة فطنته كان يرى ابعد مما يرى معاصروهُ

ولكن الامر الذي لا ريب فيهِ، ان اسماعيل باشا انفق مالاً اقترضهُ من المرابين الدوليين وانهُ انفقهُ على ما اثبت المؤلف في سبيل اصلاح البلاد وترقيتها واستقلالها عن الدولة العثمانية. ولكن هذه القروض كانت سبيلاً سلكه الطامعون الى تكبيل مصر بالاغلال السياسية التي نحمل اثقالها الآن ف.

صناجة الرياشي

الجزء الاول : اناشيد الارواح، بقلم قبلان الرياشي ، كتب مقدمته الاستاذ امين نخله — ٨٥ صحيفة من القطع الكبير — طبع بمطبعة الكشاف ببيروت على برسوم ورمزية من ريشة مصطفى فروخ

نعم بين دالية أبي العلاء ورباعيات الزهاوي ومواكب جبران وصنَّاجة الرياشي — كما يقول الاستاذ أمين نخله — نسبٌ وعِرقٌ متين ، وان كل ذلك غراس عجيب طلع في المعرَّة وأورق في نيسابور فكأنما نبت في دهاليز أبي العلاء ومال على بساط الخيَّام بالظل والزهر ... ولكن ما أحسَّهُ ابو العلاء في الحياة ، وما لمسهُ الخيَّام منها ، وما عرفه جبران والزهاوي ، وما شربهُ فوزي المعلوف ، ولحنُ الرياشي إن هو الاَّ احساسٌ ذاتيٌّ يطغى على النفس فيذيقها المرارة ويجرِّعها السمَّ ويكويها بالنار فتضطر الى تبريد نارها بأنفاسها فتهتف من الاعماق تلك الصيحات الانسانية الموجعة ، ولكل صيحة حنجرتها ، ولكل حنجرة اوتارها ، فتصدر الانغام مختلفة وان كانت اللوعة التي تثيرها متشابهة الفصول

على انَّ هناك تشابهاً عظيماً تلمسهُ اول وهلة عند اطلاعك على صنَّاجة الرياشي بينها وبين ملحمة المرحوم فوزي المعلوف « على بساط الريح » . . .نعم هناك تشابهٌ عظيم في كثير من الآراء والافكار والغاية حدا بالشاعر الرياشي الى ان يتمشى في حدود التشابه الى اقصاها حتى بلغ طريقة نظام الطبع والرسوم الرامزة الى فكرة القصيدة

وقبلان الرياشي، وان كنت لم اقرأ له قبل «الصناجة» شيئاً، ألمحهُ من خلال اناشيده التي يضربها على صناجته شاعراً انسانيًّا يحاول الوصول الى أبعد آفاق الحياة ، بل يريد ان يتجاوز هذه الآفاق الى ما ورائها الاَّ أن اشياء تحول بينه وبين ذلك، واظن انه لو توفر على استكمالها حتى تتوافر لديه لفاز بما يؤمل ، فهو قليل الاهتمام بالصياغة والوزن الشعري ، يحاول الاحتذاء ، وجدير به ان يهتم بوزنه وصياغته وان يترك شاعريتهُ في أفق ليس فيهِ مرايا تعكس على شعره

وجوه آخرين ، ولا يلبس شاعريته أثواباً لشاعريات آخرين

فمن سقطاته في الوزن — وفي الصناجة من ذلك كثير — قوله :

وبعد قليل أتى كاهنٌ يضيء الشموعَ ويذكي البخورا

ويتلو الصلاة على نعشـهِ وهو جاثٍ يناجي الإله الغفورا

وقوله : وما كان في لحمه شبعٌ ولا كان قتل الضعيف اضطرارا

وقوله : نظرتْ ربّات الجمال اليهِ يتغنى بحبهـا ويجيدُ

وكان يصحُّ ان تكون كلمة «جثوّا» بدل «وهو جاثٍ» وكلمة «مشبع» بدلاً من« شبع » و « ربّةُ » عوضاً عن « ربّات » ليستقيم له الوزن ، ولعلّ هذه وما يشابهها أخطاء مطبعية يتداركها الشاعر في طبعة ثانية

ولاحظتُ في الصنـّاجة في قصيدة « رمز الأُمومة » تفككاً بين المطلع والقصيدة وان لا رابطة بينهما وكان يجب ان يربط الشاعر بينهما كما فعل في غير هذا الموضع،ولاحظت تفككاً في خيال الشاعر يجعل الصورة غير متفقة الالوان ، متباعدة الظلال ، جامعة لمراءٍ متنافرة مثل قوله في هذه القصيدة ايضاً :

فما (ابتسمت) أمُّهُ للولاد وألوت عليهِ تهزُّ السريرا

وتوسعهُ قُبَلاً حُلوةً تسيل حناناً وحبّاً طهورا

وتنهلهُ فوق عذب الحليب من (البسمات) شراباً غميرا

فكيف لا تبتسمُ الأُم وهي تبتسم ! ؟ وقوله في قصيدة « الشاعر والمرأة » :

آدمٌ جاءَ من تراب ولكن جئتِ من لحمٍ أو دم مسفوكِ

ثم قوله بعد ذلك في نفس القصيدة :

انتِ من طينة الملائك كُوّنتِ ولله كنت عرشاً أثيلا

فانه رغم اختلال الوزن في البيت الاول فان في هذين البيتين تنافراً وإلاّ فكيف لا تكون المرأة مخلوقة من التراب كآدم في البيت الاول وهي مخلوقة في البيت الثاني من طينة الملائكة وكان أجدر بهِ ان يقول : «انت من عنصر الملائك كوّنتِ» أما الشطرة الثانية فان معناها غير لائق !

على اني اعجب في الرياشي بروحه واعجب بخياله ، واعجب اكثر من ذلك برغبته في التحرّر ولكنني ادعوه قبل ان يتوغلَ في آفاق الحرية الى ان يتزوّد كثيراً حتى لا تدعوه قِلةُ الزاد الى السقوط من عرشهِ ! ولعلهُ في الجزء الثاني من صنـاجته لا يدعونا الى مطاوعة الاستاذ امين نخله في الاكتفاء بما في الصنـّاجة بهذا العطش الميمون حتى اذا طرح ابريق الخيّام دون ريّ عاد الينا بما في الينابيع من عذوبة وبما في اعماقها من اسرار حسن كامل الصيرفي

الاسلام والقبائل في مستعمرة نيجاريا

L'Islam et les Tribus dans la Colonie du Niger
Editions Geuthner, Paris.

ان الفضل في الاطلاع على جغرافية نيجاريا راجع الى روّاد الافرنج الذين رحلوا اليها منذ بداية القرن التاسع عشر ، لأن ما صنفته العرب عنها بات مجهولاً او كاد

وقد دخل الاسلام تلك البلاد عن طريق السودان على يد الشريف محمد عبد الكريم المادلي او على ايدي تابعيه ومريديه ، وعن طريق المغرب مباشرةً بواسطة تجار طرابلس . وبعد ذلك تغلغلت السنوسية الى تلك البقعة في نهاية القرن التاسع عشر

على ان الاسلام لا يعتنقه جميع اهل نيجاريا . ففيهم طائفة كبيرة تدين بالفتيشية . ومنها من يخالط المسلمين ويصاهرهم ومنها من ينقبض عنهم ويقاطعهم . والمسلمون يبلغ عددهم ٧١٨٠٠٠ والفتيشيون ٢١٢٠٠٠ . واشد المسلمين تحمساً هم الطوارق الملثمون ، ولكن تقواهم اقرب الى التظاهر . ومما يحسن ان ينقل هنا ان الانكليز الحتلّين تلك البقعة لا يحاربون الاسلام بل يعززونهُ . ويقال ان كبار الانكليز يشتركون مع المسلمين في بعض عباداتهم ، ومن ذلك ان المندوب السامي في (سوكوتو) يصاحب امام المسلمين الى مقام هنالك يدعى مقام عثمان فوديه حيث تقام الصلاة

والمسيو مارتي Marty صاحب هذا الكتاب يذكر ذلك كله ثم يحدد بلاد النيجاريا ويبحث في كل من اقسامها مع سرد خصائصها وذكر اعيانها وعرض مظاهرها الدينية بين جوامع ومقامات ومدارس ومكاتب

ترجمة حديثة للقرآن

Le Coran. Editions Geuthner, Paris

قام بهذه الترجمة اثنان ممن يُعهد اليهم في الترجمة الرسمية في بلاد المغرب . وقد تصفحت هذه الترجمة فوجدتها غير وافية على نحو غيرها من التراجم الافرنجية وانها ليعوز جانباً منها الطلاوة والامانة في النقل والدقة والبراعة في التعبير

وعلى هذا فلا اظن القرآن ينقله الى اللغات الاعجمية واحد او اثنان . وانما لا يقوى على النهوض بترجمته الاّ فريق من اللغويين والفقهاء والشعراء والكتّاب فلغوي يعنى بالالفاظ والتراكيب ويظهر معناها الصحيح بين حقيقي ومجازي ، وفقيه يؤول اللفظ ويشرح التركيب مستنداً في ذلك الى التفاسير القويمة ، وشاعر يفطن الى ما ينتشر في آيات القرآن من صور جلابة وتشابيه خلابة ، وكاتب يحكم العربية ويحذق اللغة المنقول اليها فيفرغ الآيات في قالب

رائع واسلوب سليم . على انه لا يشك احد انه مهما صنع اولئك القوم فلن يصلوا الى شي من اعجاز القرآن . ولكنهم يستطيعون ان ينقلوه الى اللغات الاعجمية في شكل مقبول لا اعوجاج فيه من حيث المعنى ولا اختلال من حيث المبنى

ومما لا يخفى على أحد ان مسئلة ترجمة القرآن وقد اثارت ضجة في مصر لبضعة شهور مضت . فقال بعضهم بها وطعن غيرهم فيها فاشتد « النقاش » بين فضيلة الشيخ التفتازاني والاستاذ فريد وجدي . وليس هنا مجال هذا البحث ب . ف .

سيرة حياتي

كتاب الفهُ الاديب توفيق ضعون صاحب مجلة الدليل في سانبولو البرازيل . يتضمن هذا الكتاب اهم ما جرى لمؤلفه من الحوادث في سورية ومصر والسودان وسواها من البلدان في قالب روائي فكاهي ، نشرهُ مؤلفه عند بلوغه الخمسين من العمر (لانه ولد سنة ١٨٨٢ في سورية) قرأت هذا الكتاب على اثر مطالعتي اربعة كتب من نوعه . الاول مذكرات جمال باشا . والثاني مذكرات هندنبرغ . والثالث مذكرات لودندورف. والرابع مذكرات مسز اسكويث . طبعاً ان وقع الكتاب في النفس يتوقف على امرين اولهما خطر حوادثه وثانيهما حسن تأليفه . واذا كان هنالك سبب ثالث فهو علاقته بالمؤلف . امتاز كتاب ضعون هذا بالعامل الثالث ، مع ان الثاني لا بأس بهِ . عرفت هذا المؤلف في سانبولو وأؤكد انه لين العريكة ، حسن الطوية ، متواضع ، مخلص . لذلك كانت مطالعتي كتابه مقرونة بشيء من التآخي . فكأنه الى جانبي يحدثني

اما عدا ذلك فالكتاب رشيق العبارة ، وينطوي على قصص ونوادر شائقة ، مقروناً بنكات مستحبّة في بعض الاحيان. وهو عندي خير من رواية مختلقة بعيدة عن الابداع، او من ترجمة رجل عاش في غير عصرنا ومصرنا . وقد تكون مطالعة هذا الكتاب لذيذة بنوع خاص للذين عاشروا توفيق ضعون اكثر مني لانهُ اتى فيه على ذكر حوادث تتعلق بهم ، او انهم عرفوها من قبل . وعلى كل حال فهذا الكتاب يضع امام القارىء

اولاً : صورة شاب عاش في اواخر القرن التاسع عشر واوائل هذا القرن في البلاد العربية والمهجر

ثانيا : صورة للحالة الروحية في سورية ومصر والسودان

ثالثاً : يكشف عن الاخلاق واحوال الهيئة الاجتماعية في ميدان واسع النطاق

رابعاً : يعلن للملاٍ نفس اديب جبلة فهو سفر نفيس جدير بالمطالعة . ومطبوع طبعاً حسناً في نحو ٤٠٠ صفحة ، متين الغلاف ، حسن الترتيب . فأثني على حضرة المؤلف وأحييه تحية الآخاء مصر حنا خباز

مقاليد الكتب

١ — أنتم الشعراء

تأليف أمين الريحاني — مكتبة الكشاف ومطبعتها — بيروت سنة ١٩٣٣

يقول الشاعر المجيد بشارة الخوري

الهوَى والشبابُ والاملُ المنشود توحي فتبعث الشعرَ حيًّا
والهوَى والشبابُ والاملُ المنشودُ ضاعتْ جميعها من يديًّا
يشرَبُ الكأسَ ذو الحجا ويبقّي لِغَدٍ في قرارة الكأسِ شيًّا
لم يكنْ لي غدٌ فأفرغتُ كأسي ثم حطّمتها على شفتيًّا
ايها الخافقُ المعذَّبُ يا قلبي نزحتَ الدموعَ من مقلتيًّا
أَحتمٌ عليَّ إرسال دَمعي كلما لاح بارقٌ في محيَّا
يا حبيبي لأجل عينيك ما ألقى وما أوَّل الوشاةُ عليَّا
أأنا العاشق الوحيدُ لتُلقى تبعاتُ الهوَى على كتفيًّا

فتكون هذه الابيات الرقيقة سبباً في إثارة الريحانيّ على الشعراء المعاصرين الذين يحبسون شعرهم على البكاء والنحيب والحسرة والالم وإظهار الضعف عن تحمل الهوى . ويكثر الجدلُ بين الادباء عن هذا الشعر الباكي الضعيف ويتقسمون الرأى بين راض ومستنكر . ويسخر الريحانيّ في كتابه هذا من الشعر الذي يحبسهُ أهله على الضعف والتخنث والبكاء والتقليد ويهيب بالشعراء الى القوة والفتوة والرجولة والتجديد

ونحن من قبلنا لا نحبُّ ان نجادل فيما لا يلذُّ الجدل فيه الاَّ العناد والكبرياء والتعصب للرأي او للهوى ولا نبالي ان يقول الناس أصبنا او أخطأنا الاَّ ان يكون ميزان الصواب والخطأ العدل والحق والاخلاص والقسط الذي لا يرجح بالناقص ولا يشيل بالوافي

الشعراء المخلص الذين لايطلبون بشعرهم شهرة ولا صيتاً ولا دعوى مستطيلة هم ناسٌ من البشر لهم ما لهم وعليهم ما عليهم الاَّ انهم من الامم بمنزلة مقياس الحرارة (الترمومتر) الذى يؤثر فيهِ تقلُّب الجوّ تأثيراً ظاهراً بيّناً يثبته العدد فلا موضع فيه للجدل الاَّ ان يكون هذا المقياس في ذاتهِ مختلاًّ فاسداً لايدلّ على حقيقة الجوّ الذي يحيط به وبذلك يصبح مقياساً لنفسه لا للناس . والحقيقة لا تعرَف الاَّ من المقياس الصحيح الذي لا خللَ فيه فالناس جميعاً مفتقرون اليه ، اما المقياس الفاسد فلا يرجى له خير الاَّ ان يحطَّم او يهمل وما بأحدٍ اليه حاجة . وهذا مثل الشعراء في كل أمة من الامم

ونحن من قبلنا أيضاً لا نستنكر على شاعر ان يرقّ ثم يرقّ حتى يضعف ويبكي ويئن ويتوجع من آلام الهوى وتباريح الصبابة ما كان ذلك الشاعر صادقاً لايتباكى محبًّا لا يتصنع

لان الشاعر — كما سلف — رجل من الناس ربما كان له من اسباب الهوى ما يدنفه ويبكيه، وهذه الاسباب تكون له جوًّا يحيط بهِ خاصةً فهو يتأثر بهِ على كل حال . الاَّ ان هذا الشاعر نفسه رجل من أمة يكون لها من اسباب القوة والسيطرة والعزة ما يكون لها او رجل من امة بها من الضعف والفتور والذلّ والاستعباد والمهانة ما تضرب به الضربات الشداد بمعاول الظلم والجَبرية والعدوان والشر الاستعماري القبيح الدنيء . فلا بدَّ للشاعر من هذه الامة ان يكون لسان الامة الذي يتكلم بأوجاعها وآلامها وان يكون من جهة اخرى قائداً من القوّاد يقف في قلب الجموع المسكينة خطيباً تنفذ كلماته الى القلوب لتحركها وتنعشها وترمي فيها بالحياة والشباب والنشاط وبذل النفس وغلبة الرأي على الشهوات والاهواء . وان لا يكلّ ساعةً عن الجهاد والدعوة الى الطريق السويّ . فاذا خلا الشاعر قليلاً قليلاً الى نفسه وغلبتهُ الحياة الفردية والاهواء الخاصة فليقل ما شاء بمقدار لا يُـلين منهُ ولا يضعف من قوى جنده، وليستجمَّ لنفسه بما يجعله أقدر على الجهاد حين يعود الى الميدان بين المتألمين والمحطَّمين والباكين مما يصيبهم من وحوش الاستعمار والعدوان التي توسعهم نهشاً وتمزيقاً وافتراساً

هذه سبيل الشعر لأُمتنا العربية في أمرنا هذا من أيامنا هذه . أما ان يأخذ احدنا شعر الشاعر العربي فلا يجد فيه الاَّ الضعف والتخنث والبكاء والذلة والضراعة والحبَّ المريض . فذلك امر لا تقبله النفوس العزيزة التي تستشعر العزة والنخوة والمروءة ، واما الفتنة التي فتن بها الناس من قولهم الشعر العالميّ والشعر الانساني والشعر ... اللهم اني اعوذ بك من سوء المنقلب .... فهذا كلام لا معنى لهُ في حياة الامم الضعيفة المظلومة التي لا قائد لها ولا امام .. أيغنّي العصفور الضعيف للثعبان الفاتك ليسحره بألحانه وتغريده . ألا ان لحم العصفور أشهى الى الثعبان من لحنهِ ... وما في ذلك الاَّ سوء التقدير وأفن الرأي وقلة الحيلة

ان الارض العربية تطالب شعراءها وأدباءها وكتّـابها وأصحاب الرأي فيها ان يتخذوا ألفاظهم في شعرهم وأدبهم وكتابتهم وآرائهم من النار والحديد والبراكين والدويّ والرُّعود المجلجلة فعسى ان يهبَّ هؤلاء النوّام من سباتهم وان يرجعوا عن غفلتهم ويعلموا ان الامر جدٌّ وان الحياة صراعٌ وان عدة هذا الصراع هو الايمان والصبر وبذل النفس وكبح الشهوات واطراح الجبن والخور فاذا خرجنا من الميدان بالنصر والظفر فلنطلب نفع الانسانية في كل بقعة من بقاع الارض ولنمحُ آثار المظالم والعدوان والفجور والبغي ولنغنِ ما وسعتنا الالحان وما واتتنا الأُغاريد

وسنعود قريباً الى التوسع في هذا القول حين نبتدئ — بعون الله — كلامنا عن الشعر الوطني في هذه المجلة يوم نجد من شعرائنا اقبالاً على ارسال شعرهم الوطني كما أمّلنا ذلك في النشرة التي كتبناها في اول مقتطف نوفمبر الماضي والله المستعان

٢ — تاريخ مصر الاسلامية

تأليف الياس الايوبي — مطبعة الرغائب بالقاهرة سنة ١٣٥٢

ظهر هذا الكتاب ، وكثر الحديث عنهُ فثارت الهمة لقراءته والنظر فيه وبخاصة لانهُ تاريخ أغمض العصور التي مرّت بمصر وذلك لضياع اكثر الكتب المؤلفة في هذا التاريخ الواقع ما بين سنة ٢٠ من الهجرة الى سنة ٢٥٤ منها . واخالف ما درجتُ عليه في الكتابة وأقول إني اخذت هذا الكتاب فقرأتهُ أحسبهُ شيئاً فاذا هو ليس بشيء ، واقول هذه الكلمة وانا احمل اوزارها واثقالها وما يشاء القارىء من اوزار واثقال . فانا — يا سيدي القارىء — لم أقرأ هذا الكتاب الاَّ وقد عقدت النية على انهُ تاريخ مصر من ايام الفتح العربي الى اول عهد الدولة الطولونية لا على انهُ اوهام في تاريخ مصر من الفتح العربي الى عهد الدولة الطولونية

وقبل ان نبدأ ينبغي لنا ان نعرف ما هو التاريخ وكيف يكتب؟

يعتمد مؤرخ كل امة من الامم على دعامتين ، فإحدى الدعامتين هي دعامة الرواية والاخرى دعامة العقل . والرواية هي مادة التاريخ الذي لا يمكن ان يسمى تاريخاً الاَّ باجتماعها وحشدها. والعقل هو المصنع الذي تنقى فيهِ هذه المادة وتجلى ويؤلّف بين المتقارب ويفرّق بين المتباين من اجزائها وعناصرها. فاذا اعتمد المؤرخ على الرواية دون العقل كان ما يكتبهُ تاريخاً الاَّ انهُ تاريخ اعرج فاذا اعتمد على العقل دون الرواية لم يكن ما يكتبهُ تاريخاً فان اعتمد على العقل وقليل من الرواية كان ما يكتبهُ نوعاً من الكلام لا يسمى تاريخاً بل يسمى اوهاماً في التاريخ ولا يخرج التاريخ الصحيح الاَّ من مصانع العقل القويّ المشرق الذي اجتمعت له المادة التاريخية المحشودة المصححة . ولا اظن ان مؤرخاً مهما بلغ من قوة العقل واشراقه يستطيع ان يولّد لك من بعض الروايات المنسوبة الى التاريخ تاريخ امة قد ملأت الارض علماً وحضارة وادباً. هذا .... فاذا اعتمد المؤرخ على الهوى دون العقل مع قلة الرواية وضعفها وتهالكها فكيف يكون تاريخه ؟ اذا أردت ان تعرف ذلك فاقرأ هذا الكتاب المسمى « تاريخ مصر الاسلامية» وتأويل ذلك

تقول مقدّمة الكتاب «وكنت كلما اتصور تمكّني (كذا) من انجاز فكرتي، واتخيل عملي امامي تامًّا: فاراني اصبحت اول مؤرخ مصري جدير بهذا الاسم (كذا) واراني قد انشأت، حقيقة ، في احضان قومي روحاً مصريةً بحتةً — لا عربية ولا تركية ، لا مسيحية ولا يهودية ولا اسلامية — روحاً مصرية متشبعة بالمبادىء القومية المصرية ، ومثقفة بالثقافة المصرية الحقة التي تستمد منها الحضارة المصرية قوتها وجمالها . . . . الخ » وذكر كلاماً رمى فيهِ مؤرخي العرب جميعاً بالجهل والتدليس وغلبة الهوى حين كتبوا سيرة الرسول صلى الله عليهِ وسلم فقال « ... جعلوا فيما كتبوه من سيرة النبيّ الغلبة للخرافة على الحقيقة ، مقلدين في

ذلك المتقدمين من مؤلفي المصريين والكلدانيين واليونان والرومان (تأمل) الذين رووا حوادث تأسيس الدولة المصرية والكلدانية واليونانية والرومانية . . . . الخ » واستعتب القارىء في نقل هذه الجملة ايضاً : « واني اذا كنت — على عكس ذلك — رأيت نفسي مضطراً احياناً الى حرق ما قد قدستهُ زمناً طويلاً فيما مضى ، فذلك لاني انما رميت بكتابي الى احياء الشعور القومي المصري البحت في نفوس قرائي ، كما قدمت ....لا لاني ارغب في جرح شعور احد او احساس احد او فكر احد » ولعله قد سقط من الاصل « بل اريد ان اجرح شعور التاريخ واحساس التاريخ وفكر التاريخ »

لا يدري القارىء ماذا اقاسي من الالم المبرح في نقد هذا الكتاب وما ذلك الاَّ لاني اذا كتبت عنهُ فانما اكتب عن مؤلفه وقد اصبح من مادة التاريخ فآنف ان انازل من لا يدافع عن نفسه ، ولأن الكتاب في اكثره افسادٌ للتاريخ وتدليس عليه ولأن مواضع النقد فيه كثيرة لا ادري ماذا آخذ منها او أدع في هذه الورقات . ولكني أستعين الله على ما ألاقي من الالم في الكتابة عن هذا المؤلَّف

لم يعتمد كاتبنا في تاريخه الاَّ على كتب قلائل ليست شيئاً في المكتبة العربية الزاخرة بكتب التاريخ ، وهي كتاب المقريزي وابن اياس وابن وصيف شاه وتاريخ التمدن الاسلامي لزيدان والكندي وابن الشحنة في روضة المناظر وقليل غير ذلك من كتب الادب . هذا فلو نظرت الى كتاب (فتح العرب لمصر) الذي الّفه الاعجيّ الدكتور (بتلر) الانكليزي لوجدته يعتمد في تاريخ حِقْبَة من الزمن لا تبلغ خمس سنوات على عشرين ومائة كتاب في التاريخ ثلثها من كتب التاريخ العربي والبقية من كتب الامم في التاريخ . فلو ان (بتلر) اراد ان يكتب تاريخ مصر الاسلامية من سنة ٢٠ لسنة ٢٥٤ لاعتمد على اضعاف هذا من كتب التاريخ . وذلك لان التاريخ لا يكون شيئاً الاّ اذا حشدت له المادة العظيمة ونظرت فيها بالنظر الصائب وربَّ كلمة شاردة في ذيل ورقة تفتحُ للمؤرخ باباً من الفهم يجعلُ الغامض واضحاً بيّناً والمتباعد قريباً دانياً وتصل بين حافتي هوّة في التاريخ فتمكن المؤرخ من اجتيازها

هذا امر المادة التاريخية نفسها ، فلننظر ماذا فعل المؤرخ بالمادة التاريخية القليلة التي اجتمعت له حين الف كتابه . عَمِدَ المؤلف الى هذه المادة القليلة التي لا يستقيم بها تاريخ فقرأها وأراد ان يتفهمها فأخطأ في كثير وأصاب في قليل وقرَّ ذلك في نفسه ، ثم اول بعض هذه المادة تأويلاً لا يقبله عقل ولا تاريخ حتى يستطيع — كما يقول — « ان ينشيء حقيقة في احضان قومه روحاً مصريةً بحتةً — لا عربية ولا تركية ، لا يهودية ولا مسيحية ولا اسلامية — » فلذلك سَخِرَ بالعرب وساق الرواية العربية القوية في اسلوب من السخر بالعرب والازراء عليهم والغض منهم ومن افذاذ رجال الفتح . وأنت اذا قرأت الفصل الذي

سماه «كيف فتح العرب مصر» لم تجد فيه حقيقة غير هذه. فهو حين يذكر «عبادة بن الصامت» رضي الله عنه حين بعثه عمرو على رأس النفر العشرة الى المقوقس فتقدم عبادة وكان عبادة اسود ضخماً من الرجال فهابه المقوقس لسواده «وقال : نحّوا عني هذا الاسود وقدموا غيره يكلمني، فقالوا جميعاً : انهُ افضلنا رأياً وعلماً وخيرنا والمقدَّم علينا وانما نرجع جميعاً الى قوله ورأيه» فيقول المؤلف تعقيباً على هذا

«ولسنا ندري من اين اتى عبادة بن الصامت العلم ! !» . . . ونحن والله لاندري ايضاً، ولا نعلم الاّ ممن شهد المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له من الرأي ما أحلّه به قومه ، بلى وانه رجلٌ من افذاذ الامة التي اشرقت بنورها على الارض فأخرجت الناس من الظلمات الى النور . ولسنا ندري لماذا ينكر صاحبنا العلم على عبادة ، وهم لم يقولوا انه اعلم العالمين بل قالوا هو افضلنا رأياً وعلماً وهم ادرى بأنفسهم منا بها وقد كانوا رحمهم الله يقدّرون انفسهم قدرها فيقدّم الرجل الشريف العبدَ الحبشي العالِمَ على نفسه واهله ، وما كان فيهم من يتصدر ليقول عن نفسه انهُ اكبر عالم او اتقى رجل او افضل مخلوق او اول مؤرخ لمصر جدير بهذا الاسم . وقد اطلت ليعلم القارىء كيف يطمس الهوى على قلوب الناس اذا حرفوا العلم او التاريخ بأعنته ، والهوى كما قال ابن عباس رضي الله عنه — إله معبود . . . والكتاب كله على هذا النمط من الازراء على العرب والعبث بالاسلام ، وما يريد المؤلف من كل هذا الاّ انشاء روح مصرية لا عربية ولا اسلامية كما يزعم لا تقرير الحقيقة التي يجب على كل انسان ان يطلبها أنّى كانت ، والمؤلف نفسه في حيرة من العرب والاسلام وتغلغل كلٍ منهما في مصر فتراه احياناً يدور حول نفسه يريغ المخرج ولا مخرج حتى انهُ لم يستطع ان يمحو ذكر الاسلام — والعرب — فيما سمّى بهِ كتابه فألقى عليه هذا العنوان الذي يتبرأ مما تحته ... «تاريخ مصر الاسلامية»

ولنفتح في الكتاب اي صفحة يكون من نصيبها التزيق ، بسم الله فهذه ص ١٨٠ يقول المؤلف في رأسها ان ابن عباس روى عن النبي صلى الله عليه وسلم «انما ضلَّ من كان قبلكم بالكتابة» وأطال الكلام بعد ذلك على هذا الحديث الذي لانشك في وضعه حتى قال «وأهملوا — يعني العرب — تدوين كل ما جادت به قرائحهم في بابي الشعر والخطابة ذاتها لتفضيلهم الحفظ على التدوين ، بل اهملوا تدوين العلم الانساني البحت عينه — على قلته — (كذا وتأمل) وقضوا قرنهم الاول وبعض الثاني (كذا قال المؤلف) وهم يتناقلونه بالتلقين ، ولم يدوّنوا القرآن نفسه بعد ان احجم ابو بكر مدة عن ذلك قائلاً «كيف افعل امراً لم يفعله رسول الله ، ولم يعهد الينا فيه عهداً» ... الاّ لما خافوا ان تذهب الحروب والفتوحات بحفّاظه فيضيع» انتهى

ولا ندري هل يعلم المؤلف أن من الصحابة ناساً يسمون «كتّاب الوحي» كانوا يكتبون

لرسول الله صلى الله عليهِ وسلم ما يوحى من القرآن وان الرسول صلى الله عليهِ وسلم قد فادى أسرى يوم بدر فكان شرط من لامال عنده ُ ان يعلّم عشرة من الغلمان الكتابة قالوا فيومئذٍ تعلّم الكتابة زيد بن ثابت كاتب الوحي وأن رسول الله صلى الله عليهِ وسلم قد أمر عبدالله بن سعيد بن العاص ان يعلّم الناس الكتابة بالمدينة وانهُ قد ورد في الاستيعاب لابن عبد البر والاصابة لابن حجر ان الشفّاء ام سليمان بن أبي حثمة — علمت حفصة (وهي زوجه) الكتابة وقال لها « علمي حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة » . وان القرآن كان مكتوباً جميعهُ على عهد الرسول صلى الله عليهِ وسلم كتبه له كتّاب الوحي وكتبه لنفسه من كان يحسن يكتب من الصحابة وهم كثير ، وان قول أبي بكر «أفعل امراً لم يفعله رسول الله» انما هو عن جمعه بين دفتين أعني في كتاب او مجلة كما يقولون وليس ذلك لان ابا بكر كان يعاف الكتابة والتدوين . وتأويل ذلك ان أبا بكر لما عافت نفسه ما قال بهِ من جمع القرآن دعا زيد بن ثابت وقال له (نرويه من حديث زيد بن ثابت) « ان هذا — يعني عمر — قد دعاني الى امر فأبيت عليهِ وأنت كاتب الوحي فان تكن معهُ اتبعتكما وان توافقني لا افعل فاقتصَّ ابو بكر قول عمر وعمر ساكت ، فنفرتُ من ذلك وقلت يفعل ما لم يفعل رسول الله صلى الله عليهِ وسلم الى ان قال عمر كلمة : وما عليكما لو فعلتما ذاك ؟ فذهبنا ننظر فقلنا لا شيء والله ما علينا في ذلك شيء قال زيد فأمر ابو بكر فكتبته من قطع الآدم وكسر الاكتاف والعُسُب » وهل يعلم المؤلف ان هناك مصاحف تنسب الى اصحابها من الصحابة كابن مسعود ومصحف ابيّ ومصحف زيد كانت مكتوبة على عهد الرسول صلى الله عليهِ وسلم وعرضها اصحابها العرضة الاخيرة عليهِ قبل ان يلحق بالرفيق الأعلى صلى الله عليهِ وسلم

هذه صفحة لم نعمد اليها من الكتاب وها أنت تراها كيف مزّقت شرَّ ممزّق وذريت قطعها في الهواء . وهذه المجلة لا تتسع في هذا الباب لأكثر من هذا ولكن ليكن القارىء على يقين من ان كلَّ ورقةٍ من هذا الكتاب هي هذه الورقة الممزّقة . ولله الامر من قبل ومن بعد

٣ — آلاء الرحمن في تفسير القرآن

تأليف محمد جواد البلاغي النجفي — الجزء الاول — مطبعة العرفان بصيدا — سنة ١٣٥٢

كان القرآن الكريم ولا يزال مادة البلاغة العربية بل مادة العقل العربي بل مادة الحياة الانسانية العالية بآدابها وعلمها وفقهها واحكامها ودولتها . نزل بهِ الوحي على محمد صلى الله عليهِ وسلم لجمع الامة بعد شقائها وافتراقها على كلمة واحدةٍ في قلب رجل واحدٍ أينما سارت سجدت لها العروش ودانت لها الملوك وخضعت لها الرقاب واستقبلتها القلوب وانقادت لها النفوس وعلا بها الحقُّ واضاء بها الوجود حتى اذا تمت لها المعجزة في اخضاع العالم للحق

واخراجه من ظلمات الباطل الى نهار الحق بدأت طبيعة الحياة تفعل فعلها وتفتن فتنتها فمدّت الشبهات أعناقها ، وظهر الخلاف بين الناس الاّ ان الشبهات كانت لاول عهدها خفية قليلة وكان الخلاف ضعيفاً متقارباً ثم بدأ الجدل واللجاج والعناد الانساني البغيض حتى استحكمت الشبهة وكثر الخلاف واتسع ما بين أصحاب الرأيين وتعصب هذا وتنطع ذاك فخرجت الفرق المتعادية والنحل المتخاصمة وبقي كل فريق يطلب النصر لرأيه لا للحق وبذلك اضطرب الحبل وفسدت الامور واستحلّ القتال وضعفت الدولة . وهذه صورة يتكرر ظهورها في التاريخ . ومن يتتبع أحوال الفرق وأسباب نشأتها واطوار نموّها وضعفها يعلم ان الخلاف او الشبهة التي يبنى عليها المذهب ليست الاّ كبوة عقلٍ واحدٍ في رجل من أصحاب الرأي انساق في آثارها وجرّ وراءه أمة من الناس تعصبوا له ، فانكبُّوا معهُ . ولا بأس ان ننقل هنا كلمة للجاحظ عن ابراهيم النظام رأس الفرقة المشهورة من المعتزلة بالنظامية قال في كتابه الحيوان ج ٢ ص ٨٣ «وكان ابراهيم مأمون اللسان قليل الزلل والزيغ في باب الصدق والكذب . . . . . وانما كان عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسهِ على العارض والخاطر والسابق الذي لا يوثق بمثله فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الاصل الذي قاس عليه ، كان امره على الخلاص ، ولكنه كان يظنُّ الظنَّ ثم يقيس عليه ، وينسى انَّ بدء أمره كان ظنّاً ، فاذا اتقن ذلك وايقن جزم عليه وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه ، ولكنه كان لا يقول سمعت ولا رأيت » اه . وهذه صفة رؤوس الفرق جميعاً في كل ملةٍ وفي كل علم

قدمنا هذه الكلمة بين يدي هذا الكتاب ، لان مؤلفه من علماء الامامية ، وهم فرقة من اهل الاسلام افترقت فيما بعد الى فرق كثيرة واصل عقيدتها امامة عليّ رضي الله عنهُ وبقاؤها في عقبه ، وللكلام على الامامية وتفصيل مذهبها ذيول طويلة ليس هذا موضع ذكرها والذي يهمنا ان هذه الفرقة كان لها في الاسلام شأن عظيم والّف في الردّ على مذاهب اهلها من الكتب شيء كثير . وقد قرأنا عنها مذاهب عجيبة لا يقرها عقل . ولم يصل الى ايدينا من كتبهم الاّ ما قرأناه من النصوص المنقولة عن كتبهم في الردّ عليهم فسرّني كثيراً ان ارى بين يديّ تفسيراً لعالم من علماء هذه الفرقة ، وان اجد هذا التفسير قد قرّب مسافة الخلف بين ما قرأتهُ عن الامامية وبين عقيدتي وعقيدة اكثر المسلمين . وهنا لا نجد بدًّا من الاشارة الى ان اهل الفرق والمذاهب لا يزالون في غفلةٍ عن الحياة . فهم يتقسمون امرهم بينهم والعدوّ من ورائهم وامامهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم يعد العدّة ويتوثب للفريسة الغافلة ولا مخرج للعرب بعد اليوم الاّ ان يرجعوا الى حكم الله اذ يقول « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلّكم تفلحون . . . . . واطيعُوا الله ورَسُولهُ ولا تنازَعُوا فتفشَلوا وتذهَبَ ريحكم واصبرُوا انّ الله معَ الصَّابرين ». ولا بدّ ايضاً من ان

جعوا الى كتابهم وسنة رسولهم مخلصين
يؤولون ولا يحرفون الكلم من بعد مواضعه
ان يتركوا وراءهم ظهريًّا اقوال رؤوس الفرق
أئمتها فانهم أصل البلاء ومادة الشر ، ولا
بياة لامة على الامر الذي لا يحوى الخلاف
به الا الفرقة والخصومة والشنآن والعداوة
لتوارثة ونسأل الله ان يجعل آخر امر المسلمين
الناس جميعاً كاوله ألفةً وارتباطاً وصفاء
عملاً خالصاً لله لا للشهوات والاهواء

محمود محمد شاكر

كتب جديدة في التربية

انظمة التعليم

وضع الاستاذ احمد سامح الخالدي مدير الكلية العربية واستاذ التربية بها
الجزء الاول — ١٦٠ صحيفة بالقطع الكبير — مطبعة بيت القدس

دراسة نظم التعليم في البلاد الناهضة كاوربا واميركا ليس الغرض منها اثبات نجاحها ، فنظم لتعليم كالحياة نفسها سائرة متغيرة ، واذا نجح نظام تعليمي في بلد فليس معناه امكان نجاحه ي بلد آخر وهذا ما يؤكده المؤلف في مقدمة كتابه ،فتراه يحذر المدرس العربي بقوله «فاحذر انت تنقل هذه (الغرسات) الى بلادك واذكر ان ماء الاردن غير ماء التيمس ومناخ برلين ير مناخ فلسطين»

ومباحث الكتاب يمكن تقسيمها الى فصلين (اولاً) نظم التعليم في المانيا وفرنسا وتركيا ثانياً) نظم التعليم الثانوي في اوربا واميركا .ونحن لا ندري الحكمة في هذا التقسيم، إذ كان قرب الى تنظيم العمل ان يخصص الاستاذ الخالدي هذا الجزء من كتابه لدراسة نظم التعليم مختلفة فبدلاً من مقارنة نظم التعليم الثانوي كان عليه ان يتم دراسة نظم التعليم في انكلترا سويسرا والدنمارك واميركا ويعرج على الشرق ويدرس مصر وغيرها . وعندئذ تتيسر مقابلة بين هذه النظم

وعند دراسة نظام التعليم الالماني اهمل الاستاذ دراسة نظام رياض الاطفال Kindergarten بيوت صغار الاطفال وهي ما تتميز به التربية الالمانية وقد يستطاع اقتباسه مباشرة في الشرق لا قيد ولا شرط ، كما كان يجدر بالمؤلف ان يربط دراسة النمسا بالمانيا ويبسط لنا طرفاً عن

نظم تعليم ذوي العاهات والشواذ ، والتعليم العسكري الالماني في هذه المدارس ولو ان الاستاذ وضح كتابه بشيء من الصور التي تمثل الحياة الاجتماعية لكان اكثر تأكيداً لكلامه. كما اننا نأخذ على الاستاذ المؤلف تعريب كثير من المصطلحات اللاتينية كما هي كاستخدام لفظ (اكاديمي البيداغوجيا) بدلاً من «معهد التربية» مع سهولة هذه وتأديتها للغرض

ومع ذلك فالكتاب قد ملأ فراغاً في التأليف العربي ، وجدير بكل مشتغل بشؤون التعليم ان يدرسه بامعان لا ان يقتنيه فقط

محاضرات ومقالات في التربية والتعليم

كتابان مستقلان — ٧٤ ، ١٠٤ صحيفة بالقطع المتوسط — مطبعة الكشاف ببيروت

يشتمل الكتاب الاول (محاضرات في التربية والتعليم) على ثلاثة بحوث ، في تدريس اللغة ، وقواعد اللغة ، وتنظيم المدرسة ذات المعلم الواحد . كما يشتمل الكتاب الثاني (مقالات في التربية والتعليم) على بحوث خاصة بتدريس اللغة العربية واخرى مترجمة او مقتبسة

وعناية الاستاذ بارودي احد مفتشي المعارف في لبنان بطرق تدريس اللغة العربية امر مشكور ، لان النقل والاقتباس عن الغرب يقصر عند هذا الحد ، فان كنا نأخذ عن الغرب الطرق العامة في التدريس ، فان طرق تدريس المواد ولا سيما اللغة لا بدَّ وان نعتمد في اختيارها او ابتكارها على انفسنا ، فكل لغة لها مميزاتها وخصائصها . واللغة العربية لا يمكن بحال من الاحوال ان نقارنها باية لغة اوربية . فلو ان الاستاذ قد خصص كتابيه او احدهما على الاقل لدراسة طرق تدريس اللغة العربية بكل فروعها لكان ذلك اكثر فائدة ، ولو انهُ قد اكثر من الأمثلة التي يشاهدها في تفتيشه على المدارس اللبنانية (كالمصاعب التي يلاقيها المعلمون او التلاميذ في دروس اللغة) لكانت بحوثه اقرب نفعاً . والصعوبات التي تعترض تدريس اللغة العربية كثيرة اورد بعضها المؤلف ومثال ذلك «تدريس الهجاء ، تشكيل الحروف ، قواعد اللغة ، التجديد في تدريس الانشاء ، الخط » مما يعرفه المشتغلون بتدريس اللغة العربية

وحبذا لو نهج المشتغلون بالتعليم من مفتشين ونظار ومعلمين نهج الاستاذ واصف بارودي في تدوين ملاحظاتهم وتجاربهم الخاصة بشئون التعليم ، فانها تكون بذلك المرجع الذي يعتمد عليه المعلمون الناشئون والباحثون في مشاكل التعليم في البلاد العربية احمد عطية الله

ذكرى الدكتور محمد بن ابي شنب

بقلم الاديب عبد الرحمن الجيلالي ويحتوي على نسب صاحب الذكرى ونشأتهِ وعلمهِ واخلاقهِ وآثارهِ ومنشآتهِ — ويطلب من المكتبة الادبية بالجزائر وثمنهُ ١٠ فرنكات

الفلاح الاقتصادي

مجلة زراعية اقتصادية — لمنشئها ثابت ثابت — مطبعة المقطم وتوزع مجاناً

لثابت افندي ثابت ، منشىء هذه المجلة ورئيس تحريرها ، عناية خاصة بالموضوعات الاقتصادية والزراعية تشهد بذلك مقالاته المفيدة في المقطم التي يودعها كل سنة زبدة مشاهداته في بلدان اوربا واحوالها الاقتصادية والعمرانية . وله علاوة على ذلك اهتمام عملي خاص بشؤون مصر الزراعية ، وهو الذي ما برح يخالط الفلاح المصري من عشرين سنة او تزيد ، فدرس احواله ونفذ الى رغائبه وآماله . فرأى ان ينشىء هذه المجلة لتكون مرشداً ومؤازراً للفلاح في هذا البلد «الذي نعيش بخيره ونشارك في سرّائه وضرّائه . والمساهمة في ارشاد خاصته وعامته الى الطرق الحديثة التي تؤول الى تحسين تربته وانماء زراعته وصناعته وزيادة انتاجه بالوسائل التي عمدت اليها شعوب وبلدان اخرى فأصابت بها اوفر قسطٍ من زكاء الربح من الرفاهة والرخاء» . والعجيب في امر هذه المجلة ، ان منشئها قد عمد الى توزيعها من دون لقاء زيادة في نشر الفوائد التي تجنى من مباحثها — وكل بحث ينطوي على فائدة خاصة

وقد جعلت ابوابها خاصة بالزراعة والصناعة ، والمال والتجارة ، وفي كل باب منها مباحث غزيرة المادة بليغة الاسلوب جمة الفائدة . ونخالنا لا نكون مبالغين اذا قلنا ان رجال الزراعة والاعمال في القطر يحسنون صنعاً باجتناء فوائدها مطالعة وحفظ اعدادها لتكون لهم مرجعاً ومعاداً

وقد حلي العدد الاول منها بقصيدة للشاعر الكبير خليل مطران نظمها لما « اقتضت حكمة حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك أيده الله ان يشتري لحضرة صاحب السموّ الامير فاروق ولي عهده تفتيش المطاعنة بالصعيد من شركة السكر فأصبح سموّه بذلك بعد جلالة والده في طليعة زرّاع القطر» قال الشاعر منها

ليست مشارفة الامير لضيعةٍ ضَيعةً وما الجهد المغلُّ بضائع
ان الفلاحة والفلاح تسلسلا لفظاً ومعنىً من نجارٍ جامع

وقال في وصف جلالة الملك

لحظ الرمال القاحلات فنضّرت وازينت بمغارسٍ ومزارع
لحظ المدائن والقرى فتجمّلت وتكملت بمدارسٍ ومصانع
لحظ الثقافة للعقول فأخرجت ما طاب من ثمر العقول اليانع
لحظ الرياضة للجسوم فهيّأت نشأً جديد عزائمٍ ونوازع
لحظ العلوم فما ترى من روضةٍ الأ ظلها الطير حول مشارع
لحظ الفنون فعاد مؤتنفاً بها ما كان من فضل قديم بارع

باب الاخبار العلمية

العيون الكهربائية ايضاً

بها العمي يقرأون الكتب مباشرةً

يسوغ لنا لغويًّا ان نطلق على العين الكهربائية لفظ (البصاصة) لانهُ مرادف للعين في معاجم اللغة . ولاسيما ان العامة في القاهرة وغيرها من مدن القطر تسمي البوليس السري « البصَّاص » فنقول ان للبصاصة الكهربائية شأناً عظيماً في ميادين الاعمال ومرافق الحياة عموماً في اوربا واميركا ومن ادلة ذلك ما بيَّناه في المقال الضافي المنشور في مقتطف نوفمبر الماضي . ثم ما حدث عند افتتاح معرض شيكاغو الحالي اذ سخرت البصاصة الكهربائية لالتقاط نور نجم السماك الرامح وتقويته بالكهرباء حتى استطاعوا ان يفتحوا بهِ ابواب ذلك المعرض العالمي، الذي لم يسبق له نظير ، بما حواه من مستنبطات علميـة . وما دمنا في معرض منافع البصاصة الكهربائية فلا مندوحة لنا عن اعادة ما نشرناه في جزء مارس سنة ١٩٣٢ من المقتطف في باب الاخبار العلمية : —

السماك الرامح نجم اصفر من القدر الاول في كوكبة العواء وهي من الصور الشمالية . وقد رأى علماء الكهربائيـة في الولايات المتحدة تسخير شعاع من نوره لفتح المعرض الاميركي العالمي بمدينة شيكاغو . والمعروف عند علماء الفلك ان السماك الرامح يبعد عنا مسافة تقدر باحدى واربعين سنة نورية .

وقد جرب مرقب مرصد يركيز الكاسر الذي قطر عدسته اربعون بوصة لرصد ذلك الكوكب فجعلوا في قاعدة المرقب بطارية كهرنورية (بصاصة) حتى اذا مرَّ طيف الكوكب امام عدسة المرقب المنتهي بالبطارية آنفة الذكر التقطت نوره حالاً فيولد فيها تياراً كهربائيًّا يقوَّى ثم ينقل بالاسلاك الارضية الى مدينة شيكاغو حيث يستخدم لفتح باب المعرض واضاءة المصابيح الكهربائية التي فيه

وحديثنا اليوم يدور حول (الفيزاغراف) وهي معجزة جديدة للبصاصة الكهربائية يستفيد بها العميان واليك وصفها

لقد اتيح للعميان لاول مرة في تاريخ الانسان ، قراءة اي كتاب مطبوع ، وذلك بالعيون الكهربائية المثبتة في آلة اخترعت حديثاً تسمى « فيزاغراف » تعوض الاكمه ما حرمتهُ الطبيعة اياه من حاسة الابصار ، فتجعل من الحروف العادية المطبوعة في اي

كتاب حروفاً بارزة ضخمة تسهل قراءتها لمساً بالبنان في هنيهة من الزمان

ومخترع الفيزاغراف هو المستر روبرت نومبرج من ولاية مساشوستس من اعمال الولايات المتحدة الاميركية وقد عرضها حديثاً في مدينة نيويورك . وهي على شاكلة منضدة من مناضد الكتابة التي توضع في مكاتب الاشغال ودوائر الاعمال. فاذا أُدخلت في الآلة كتاباً مطبوعاً وأُدرتها فتحت عينها الكهربائية المستكنة في حامل اسطواني من النحاس الاصفر فاخذت تجول في الصفحة المعروضة من الكتاب المراد قراءته من اليسار الى اليمين حتى تتم تصفحها . وكل ما تراه تلك العين الكهربائية ينسخ في الحال حروفاً بارزة، وذلك على شريط رقيق ملفوف من الالومنيوم مركب على يمين الآلة

وقد جرب المخترع الفيزاغراف امام الجمهور فجاء بسيدة شابة ضريرة كان قد درَّبها ٣٠ يوماً فقط على استخدام الفيزاغراف والقراءة بها فجعلت تقرأ من فورها امام الحضور الكلمات التي تلمسها بنانها مؤلفة من الحروف البارزة التي تصدر من الفيزاغراف واحداً فواحداً فأُعجب بها النظارة ايما اعجاب

واذا ما فرغ الضرير من قراءة الحروف البارزة مطبوعة على شريط الالومنيوم، لمساً ببنانه امكنهُ الاحتفاظ بالشريط عينه حتى تمس الحاجة الى قراءته مرة اخرى والا استغنى عنهُ فيطمس معالمه ، وذلك بحصره بين اسطوانتين ، يشبهان عصارة الملابس المغسولة حيث يضغط فيملس حتى يعود الى اصله فيتسنى استعماله مرة اخرى عند الحاجة

والفيزاغراف مؤلفة من جزئين وهما الناقل والطابع . فالناقل يقرأ الكتابة المطبوعة في الكتاب ثم ينقلها الى الطابع نبضات كهربائية فيقوم الاخير بتدوينها نقطاً وشرطاً على شريط الاليومنيوم

ويتم ذلك الحدث باستخدام ست شعاعات صغيرة مرتبة ترتيباً عمودياً ، على طول الخط المطبوع من ناحية النقل . وكل شعاعة تعتبر أداة حساسة كشافة خاصة بقضيب واحد من القضبان الستة المؤلف منها الطابع، والقضيب الاسفل منها يتولى تصفح اذناب الحروف الافرنكية مثل .P و .g فاذا اصابت شعاعة كشافة الجزء الاسود من الحرف حركت القضيب الطابع الخاص بهِ فيقوم بطبع النقط والشرط على شريط الاليومنيوم

***

وقد يستطيع الضرير تنظيم وضع الكتاب المزمع قراءته . وكذلك يمكنه نقل الحامل المحتوي على البصاصة الكهربائية من سطر الى آخر — وقد استغرق المخترع في اختراع الفيزاغراف اربع سنين لم يأل فيها جهداً حتى حسنها الى الدرجة التي هي عليها الآن وسيجعلها تقرأ المجلات والرسائل التي تكتب بالتيبريتر (الآلة الكاتبة) في القريب العاجل . لانه ذلل العقبة الكأداء التي اعترضته في بدء الامر وهي الوسط الصالح لتدوين الحروف حتى عثر على ضالته في شريط الاليومنيوم

وقدعرض الاستاذ «جون بلاّمي تايلور» المهندس المستشار لدى شركة الكهرباء العامة بأميركا امام اعضاء المجمع العلمي الاميركي الجهاز الذي اخترعه لجعل الصوت منظوراً والضوء مسموعاً . فنصب لهذا الغرض هدفاً زجاجياً صغيراً بمثابة مرآة ذات شكل قطع مكافىء وذلك في غرفة الرقص المظلمة في فندق استور بمدينة نيويورك . فثبت ان الضوء المتولد من الجهاز المشار اليه متى مسّ تلك المرآة تولدت منهُ موسيقى . وانهُ اذا اعترض اي شبح الشعاعة المنعكسة عن المرآة ، انقطعت الموسيقى . وانهُ اذا بسط امرؤ اصابعه تجاه النور تخلل النور الاصابع فتعزف الموسيقى، واذا اطبق اصابعهُ اطباقاً طفيفاً تضاءلت الانغام الموسيقية

***

ويستفاد من هـذه التجربة ان الجهاز السابق الذكر يحوّل الصوت الصادر من اسطوانة الفونوغراف نبضات كهربائية فتتحوّل هذه نفسها امواجاً نورية

وبيان ذلك ان في الجهاز المستقبل بصاصة كهربائية تلتقط الضوء فتحوله قوة كهربائية محركة ثم تتحول هذه القوة صوتاً ينتقل من المرآة العاكسة للشعاعة الى الجهاز المستقبل وذلك على امواج الضوء

ويسمي الأستاذ تايلور طريقته العلمية هذه narrowcasting اي الاذاعة المحصورة تمييزاً لها عن الاذاعة الواسعة النطاق المسماة broadcasting

وقد استنبط الدكتور هانس تيرنج الاستاذ في احدى جامعات فيينا بالنمسا جهازاً كثير الشبه بالجهاز آنف الذكر لنقل الصوت بالضوء

بيد ان طريقة العلامة بلاّمي مازالت وليدة في مهد المختبرات العلمية ولما تعلم فوائدها . ومع ذلك يزعم الخبيرون بأنها ستستخدم في نقل الرسائل السرية الى الجهات القريبة في ميادين القتال وذلك بين مراكز طلائع الجيوش وفرقها في الميدان

***

ولما كانت اجهزة الراديو الحساسة جداً لا تبين امواج الضوء السريعة التناوب ، فاذا استعملت الأشعة التي وراء الاحمر او غيرها من الاشعة التي لا تستطيع العيون البشرية رؤيتها ، تمكنت الشعاعة (ذات النور الخفي) من نقل الرسائل دون ان تراها عيون رقباء الاعداء ولا تسمعها آذانهم

واما سبب كون الامواج اللاسلكية تدور حول الكرة الارضية ولا تتبع في سيرها خطاً مستقيماً فهو بحسب رأي الخبراء وجود طبقة خفية تسمى في عرفهم (السطح اللاسلكي) تحول دون اتخاذ الامواج اللاسلكية مجرى مستقيماً . واما كون اشعة النور تخترق هاتيك الطبقة فيتجلى لنا من حقيقة ان القمر ينعكس نوره على الارض . ويؤخذ مما تقدّم انه اذا تحققت في اي وقت احلام العلماء الذين يعتقدون بامكان التراسل مع سكان الكواكب . كان رسولهم اليها حينئذ امواج النور

عوض جندي

اشعة اكس مكان الراديوم

الراديوم اغلى العناصر المعروفة بل اصح ان يقال ان اغلى الجواهر ارخص منه بكثير اذا اعتبر الوزن . وقد اكتشف في اواخر القرن الماضي وما زال منذ عهد اكتشافه على ازدياد في استعماله لمعالجة بعض الامراض والسرطان في مقدمتها وذلك لان اشعته اقوى كثيراً من اشعة اكس وانجع في بعض الامراض المذكورة

وقد عرف العلماء منذ زمان طويل انهُ اذا امكن الحصول على اشعة من اشعة اكس تكون «قاسية» وقصيرة الى حد محدود فان فعلها يكون كفعل اشعة الراديوم والظاهر ان هذا ما توصلوا اليهِ الآن في بعض معامل اميركا العلمية التابعة لاحدى الشركات الكهربائية . فقد صنعت انبوبة من اشعة اكس قوتها وامواجها مساوية للاشعة المنطلقة من مقدار هائل من الراديوم

***

وقد قدروا انهُ اذا اريد اعداد جهاز كامل من الراديوم للاستعمال في مستشفى من المستشفيات فان نفقاته لا تقل عن مائة الف جنيه ولكن جهازاً من اشعة اكس لا يكلف اكثر من ٢٠ الف جنيه

وفي العالم الآن ٥٠٠ جرام من الراديوم الصرف وثمن الجرام ١٥ الف جنيه. ومعلوم ان اول من اكتشفهُ مدام كوري « العالمة » الفرنسية ارملة الاستاذ كوري العالم الفرنسي الذي قتل منذ سنين في احد شوارع باريس بصدمة سيارة عمومية . اكتشفتهُ مدام كوري سنة ١٨٩٨ وهو يستخرج من اكسيد الاورانيوم وهذا يوجد في الاكثر في رواسب المعدن المعروف باسم البتشبلند واعظم مناجمه في بوهيميا وهناك مناجم اصغر منها في كندا والبرتوغال ومدغسكر ويكاد يوجد في كل تربة ولكن على قدر صغير وسبب غلائه صعوبة استخراجه

اما انبوبة اشعة اكس المشار اليها فتستعمل الآن للمعالجة في المستشفى التذكاري بمدينة نيويورك وقد عولجت بها جميع الامراض التي تعالج بالراديوم فجاءت بمثل نتائج الراديوم وبلغ عدد الذين عولجوا بها مئات ولكن اعظم امتحان لها هو في معالجة السرطان

ويقال ان الاشعة قوية حتى انها تخترق النحاس الى مدى ثمن بوصة والحديد الى مدى أربع بوصات ثم تصور بها صورة فوتوغرافية

وقد قال احد الخبيرين بالراديوم في انكلترا انه عرف منذ زمان طويل ان بعض اصناف اشعة اكس المعروفة باسم الاشعة «القاسية» تنجع في علاج الامراض مثل الراديوم بنفقة اقل وقد تحل محله في المستقبل

***

وقال احد العلماء المشهورين المشتغلين باشعة اكس في انكلترا انه يولد منها عادة ٤٠٠ الف فولط للاعمال الصناعية التي يراد بها اختراق الفولاذ الصب واجزاء الطائرات لاكتشاف ماقد يوجد فيها من الشقوق الصغيرة

جوائز نوبل العلمية

منحت جائزة نوبل الطبية عن سنة ١٩٣٣ للعالِم الاميركي الاستاذ توماس هنت مورغان صاحب مذهب «العوامل الوراثية» Geve Theony في الوراثة (راجع مقالات اسس الوراثة للدكتور شريف عسيران في مقتطف يناير وفبراير سنة ١٩٣٢). ومنحت جائزة نوبل الطبيعية عن سنة ١٩٣٢ للعالم الالماني المشهور ڤرنر هيزنبرج الاستاذ بجامعة ليبزغ، وهو من اساطين علم الطبيعة الحديث القائم على نظرية اينشتين ونظرية الكمّ Quantum او المقدار وصاحب مبدإ عدم التثبت Principal of Uncertainty . وقسمت جائزة نوبل الطبيعية عن سنة ١٩٣٣ بين الاستاذ ديراك الانكليزي والاستاذ شرويد نغر الالماني ، لمباحثهما في نظرية الكمّ. اما الاول فأستاذ في جامعة كمبردج . واما الثاني فكان استاذاً في جامعة زوريخ ثم في جامعة برلين وهو الآن في كلية مجدلين بجامعة اكسفرد

خسارة معهد باستور

في ٢٩ اكتوبر الماضي توفي الدكتور كالمت معاون مدير معهد باستور وصاحب المباحث المشهورة في السلّ وكان عمره سبعين سنة . وفي ٣ نوفمبر فقد ذلك المعهد مديره الدكتور اميل رو الذي اشتهر بمباحثه البكتيريولوجية، بالاشتراك مع باستور وبهرنغ هما من اعلام هذا العلم في نشأته. وكان يوم وفاته في الثمانين من العمر

فقيدا الطيران المصري

في الثامن عشر من شهر نوفمبر الماضي طار سرب الطيارات المصرية الحربية من مطار « لمبد » بانكلترا » بقيادة اللفتنانت كولونيل «تايت بك» بعد ماودعها وزير مصر المفوض في لندن وكثير من كبار الانكليز احسن وداع

وعبر السرب — وهو مؤلف من عشر طيارات — بحر المانش بسلام واجتازوا الحدود الفرنسية فاذاهم يسيرون في ضباب كثيف شطر الطيارات شطرين فضلت ثلاث منها الطريق ولم تستطع اولاها متابعة السير فسقطت بطياريها وعطلت ثم اصلحت واصيب راكباها باصابات خفيفة وسقطت الاخريان لخطمتا ونجا راكبا احداها واحترق راكبا الثالثة وقد كانا مع الأسف مصريين هما المرحومان الملازم الأول فؤاد حجاج قائد الطيارة وشهدي دوس ميكانيكيها

اما الطيارات الباقية فواصلت سيرها حتى وصلت الى مطار «ليبورجيه» سالمة بحمد الله

ونقلت الجثتان الى باريس وصلي على احدها في مسجد باريس وشيعتا في موكب حافل الى محطة ليون لايصالها الى مرسيليا ومنها ارسلتا بالباخرة « مريت باشا » الى الاسكندرية فوصلتا يوم الثلثاء ٢٨ نوفمبر وشيعتا في اليوم التالي باحتفال عظيم مهيب سار فيه وزير الحربية وجميع وحدات الجيش بملابسهم العسكرية ونقابة المحامين وطلبة الجامعة والمدارس وشتى الطبقات

الجزء الخامس من المجلد الثالث والثمانين

صفحة

هديتا المقتطف السنويتان

كتابان نفيسان

اصدرت مجلة المقتطف كتابين نفيسين كل النفاسة . احدهما في موضوع « اللاسلكي » وهو بحث علمي عملي مزين بما لا يقل عن مائتي صورة ورسم يتناول هذا الموضوع من وجوهه المختلفة ففيه نبذ عن تاريخ الفنون اللاسلكية . وفيه فصول تبسط مبادىء الكهربائية التي بني عليها اللاسلكي . وفيهِ ارشادات عملية لالتقاط اذاعات المحطات واصلاح الاجهزة . وفيهِ بحث في التلفزة (الرؤية عن بعد) والعين الكهربائية والفنون اللاسلكية الجديدة المختلفة

وقد كتب الكتاب بلغة سهلة واختيرت للالفاظ الاجنبية الفاظ عربية . وللكتاب معجم يشتمل على الالفاظ العلمية والفنية اللاسلكية باللغة الانكليزية وما يقابلها باللغة العربية وتفسير لمعانيها

واما الكتاب الثاني فهو كتاب «رجال المال والاعمال» . وهو سفر نفيس يضم سير طائفة من اكبر رجال الصناعة والعمل والمال في هذا العصر . هنا تجد اسماء فورد وركفلر وروتشيلد وستنس وروتر وتشمبرلين وكروب وغيرهم من الرجال الذين يجد الشبان في سيرهم قدوة وعبرة . والكتاب مزين بصور اعظم الرجال الذين ترجم لهم فيهِ

***

والكتابان لا يرسلان الآ الى المشترك الذي يسدد المتأخر عليه لادارة المقتطف وثمن الكتابين معاً لمن يريد شراءهما ٤٠ قرشا صاغاً. اما كتاب اللاسلكي على حدة فثمنه ٢٥ قرشاً . وكتاب « رجال المال والاعمال » فثمنه ١٥ قرشاً صاغاً

التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة المصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

ص

٣٥ القاموس المصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠ » » » » (طبعة ثالثة)
٧٠ » » عربي نكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ » المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ » » عربي انكليزي فقط
١٥ » » انكليزي عربي فقط
٧٠ » سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠ » » » انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠ » » » » » وبالعكس
١٠ التحفة المصريه لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠ الف كلمة الماني (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠ عشرة ايام في السودان » » »
١٢ مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة
(الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥ روح السياسة » » »
١٠ الاراء والمعتقدات » » »
١٠ اصول الحقوق الدستورية » » »
٢٠ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥ حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥ ملقي السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠ مختارات » » »
٨ نظرية التطور وأصل الانسان » »
٢٠ اناتول فرانس في مباذله، للامير شكيب ارسلان
١٥ الدنيا في أميركا (للاستاذ امير بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نـ[illegible] (عبدالله حسين)
١٠ جريمه سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥ المرأة بين الماضي والحاضر
٥ مركز المرأة في شريعتي موسى وحورابي
١٥ حصاد الهشيم (للاستاذ ابرهيم عبدالقادر المازني)
١٠ قبض الريح (» » » » »)
٨ نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديدة (سليم عبدالواحد)
١٠ الغربال في الادب العصري (مخائيل نعيمة)
٥ حكايات للاطفال، اول (مصور بالالوان)
٥ » » ثان » »
٥ » » ثالث » »
٥ تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥ جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦ سر النجاح (الارشمندريت بشير)

ص

١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري)
٥ خواطر حمار (للاستاذ الجمل)
٥ التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥ ذكراً وانثى خلقهم » » »
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران » »
١٥ اسرار الحياة الزوجية » »
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات » »
٢٠ الضعف التناسلي في الذكور والاناث »
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد)
١٠ تاييس » » » »
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص المصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد، مصورة
١٠ » فاتنة المهدي، او استعادة السودان
٨ » الانتقام المذب (اسعد خليل داغر)
٥ » فقر وعفاف (الاستاذ احمد رأفت)
١٢ » باريزيت، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢ » غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ » روكامبول، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥ » ام روكامبول، ٥ اجزاء »
٢٠ » باردليان، ٣ اجزاء »
٢٠ » الملكة ايزابو ٤ اجزاء »
٢٠ » الاميرة فوستا، جزآن »
٢٠ » عشاق فنيسيا، جزآن »
١٦ » الساحر العظيم ٤ اجزاء »
١٦ » كابيتان، جزآن »
١٦ » الوصية الحمراء، جزآن »
١٦ » بائعة الخبز »
١٢ » فلمبرج، جزآن »
١٠ » فارس الملك »
١٠ » ضحايا الانتقام »
٨ » المرأة المفترسة »
٥ » المتنكرة الحسناء »
٥ » مروضة الاسود »
٥ » شهداء الاخلاص »
١٦ » دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠ » فرنسوا الاول » »
١٠ » المجنون فنون » »
٨ » جوزية » »
٨ » الغلامان الطريدان » »
١٢ يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران)
٨ النبي (» » »)